

تراثنا



في

صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة
تصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

• شارع وقف الخربوطلي بالظاهر – ٩٠١١٨

القاهرة

فهـــــــرس

الجزء الثـانى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تم فهرس الجزء الثانى عشر من كتاب صبح الأعشى)



في صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثاني عشر

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية

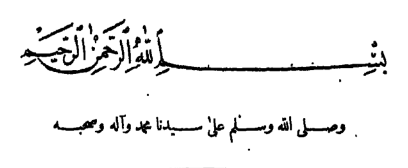
ومذيلة

تصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية

مع دراسة وافية

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وكف الخربوطل بالظاهر – ٩٠١١٨
القاهرة



وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

(مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية - [ما يكتب لأ] رباب الوظائف بالممالك الشامية)

واعلم أن نُوّاب السلطنة فى التولية على ضربين :

الضربُ الأول

(مَنْ لا تصدُر عنه منهم توليةٌ فى عمل نيابته)

وهم نُوّاب الديار المصرية : من النائبِ الكافل ، ونائبِ الإسكندرية ، ونائبِ الوجه البحرىّ ، ونائبِ الوجه القِبلىّ ، فليس لأحد منهم تصرُّف فى ولايةٍ ولا عَزْل لنائبٍ ، ولا كاشفٍ ، ولا والي حَرْبٍ . إنما النائبُ الكافلُ يكتُب فى بعض الأمور على القِصَص ، والسلطانُ هو الذى يباشر الكتابةَ على الولايات بنفسه ، والنائبُ الكافل يكتُب بالاعتماد على ما يكتُبُ عليه السلطان ، كما تقدمت الإشارةُ إليه فى موضعه .

الضـــــرب الثـانى

(من تصدُر عنه التوليةُ والعزلُ فى عمل نيابتـــه)

وهم نُوّابُ السلطنة بالممالك الشامية السبعةِ المقدّمِ ذكرُها : من النِّيابات الصِّغار، والوظائف الدِّيوانية، والوظائف الدِّينيَّة، ووظائف مَشايخ التصوُّف، والوظائف العاديَّة : كرِيَاسة الطِّبِّ ونحوها، ووظائف زُعَماء أهل الذِّمَّة : من رِيَاسة اليهودِ، وبَطْرَكيَّة النصارىٰ، وغير ذٰلك .

فأمَّا النياباتُ الصِّغار التى فى أعمـال النِّيابات العِظَام : فمـا كانت نيابتُه إمْرةَ عَشَرة فأكثر يولِّى فيه النوّابُ، وربمـا ولّى فيه السلطانُ . وما كانت نيابتُه إمرةَ طبلخاناه فأكثر : يولِّى فيه السلطانُ، ورُبَّمـا ولَّى فيه النوّابُ . وما كانت نيـابتُه تقدِمةَ ألف، فولايته مختصَّة بالسلطان دُونَ النوّاب .

وأما الوظائفُ الديوانيَّــةُ، فمـا كان منها صغيرا ككتابة الدَّرْج وما فى معناها، فأكثرُ ما يوليها النُّوّاب . وما كان منهـا جليلًا : ككتابة السِّرّ وما فى معناها، ونظَرِ الجيش، ونظَرِ المـال، فتوليتُه مختصَّـة بالسلطان . وما كانَ منها متوسِّطا بين الطَّرَفين : ككتابة الدَّسْت ونحوها : ففى دِمَشْق تارةً يولِّى فيها السلطانُ، وتارةً يولِّى فيهـا النائبُ . وفيما دُونَهـا من النيابات غالبُ من يولِّى فيها النُّوّابُ، وقد يولِّى فيها السلطانُ .

وأما الوظائف الدينيَّة، فمـا كان منها صغيرًا : كالتداريس الصِّغار، والخَطَابات بالجوامع الصِّغار، وأنظار المـدارس والجوامع الصِّغار، ونحو ذٰلك، فإنه يولِّى فيها

النوّابُ ولا يولِّى فيها السلطانُ إلا نادرًا . وما كان منها جليلًا : كقضاء القُضاة ، فإنَّ توليتَه مختصَّة بالسلطان . وما كان منها متوسِّطا بينَ الرتبتين : كقضاء العسكر، وإفتاءِ دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووَكالةِ بيت المال، ومَشْيَخة الشيوخ ، ونحو ذٰلك : فتارةً يولِّى فيها السلطانُ ، وتارةً يولِّى فيها النُّوّاب . إلا أنَّ توليةَ السلطان فيها فى النيابات الكِبَار كالشام أكثرُ ، وتوليةَ النوّاب فيها فيما دُونَ ذٰلك أكثرُ .

وأما مشيخةُ الخَوانِق فقد يُولِّى فيها السلطانُ ، وقد يُولِّى فيها النوّابُ : إلا أن توليةَ السلطان فى مَشْيخة الشيوخ بالشام أكثرُ، وتوليةَ النوّاب فى غير مشْيَخةِ الشيوخ بدِمَشْقَ وفى غيرها من وظائف الصُّوفية فى غيرِ دمَشْقَ أكثرُ .

وأما الوظائف العاديّة : كرِيَاسة الطب ونحوها، ففى جميع النيابات تَوْلِيتُها من النوّاب أكثرُ ، وربَّما ولِّى فيها السلطان .

وأما وظائفُ زعماء أهل الذمّة : كرِياسة اليهود ، وبَطْرَكيَّة النصارىٰ ، فيستبدّ بها النوّابُ دُونَ السلطان : لزيادة حَقَارتها فى الوظيفةِ والبُعْد عن حضرة السلطان .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظامٍ آستقرّتْ سبع نِيابات :

النيـــــابة الأولىٰ

(نيابةُ دِمَشْق ويعبَّر عنها بكَفَالة السلطنة بالشام)

ووظائفُها علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمشْـــقَ ، ويشتمِلُ ما يُكتَب به من وظائفها
عن الأبواب السلطانية علىٰ أربعة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(أربابُ الســـيوف ، وهـــمْ علىٰ طبقات)

الطبقـــــة الأُولىٰ

(مَنْ يكتب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بـ«المَقَرّ العـالى» مع الدعاء
بـ«عِزّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كُتِب به عن السلطان الملكِ العادل «كُتْبُغَا» للأمير «سـيف الدّين غرلو العـادلى» من إنشاء الشـيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبى"، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل لسيف دولتِنا علىٰ عاتق الملك الأعَزّ نِجادًا ، وآدّخر لكَفَالة مملكتِنا من الأولياء مَن تَناسبَ وصْفاه آجتهادًا فى مصَالحِ الإسلام وجهادًا ، وعَدَق أمورَ رعايانا بمن أَيْقظ لها سيفَه وجَفْنَه فآمتلأَتْ عيُونُهم بمـا وَهَب وسَلَب من نومه ونَومِ العِـدا رُقادا ، ورفَع ألويَةَ إحساننا علىٰ مَنْ زادَ برفعها ظِلُّ عدْلِه آنبساطا على الرعية وآمتِـدادا ، ووطَّد قواعدَ ممـالكنا بمن أجلْنا الفكْرَ فى حُسن آختياره آنتقاءً لمصالح الإسـلام وآنتِقادا ، وأدّى لشُـكْرِ نعمِ الله التى لا يؤدِّى شـكْرُ بعضها ولو أنَّ ما فى الأرض من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحرُ مدَادا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلَتْ عزائمَنا على الأبد منْصُورَه، ومقاصدَنا علىٰ مصالح المسلمين مقْصُوره، وآراءَنا تفوّض زَعَامَة[1] الجيوش إلىٰ من تُصْبِح فِرَقُ الأعداء بِفَرَقِه مغزُوّة وممالِكُهم بمهابته محصُوره .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتَزال تَنْشُر دَعوتَها فى الآفاق، وتُرْهِف لإقامتها فى ممالكنا سَيْفا يَصِلُ ما أمَرَ اللهُ بقَطْعه ويَقْطَعُ إلّا الأرزاق ، وتُرهِبُ من ألحَدَ فيها بكل ولىٍّ لرُعْبِه فى القلوب رَكْض ولرايته فى الجوانح خَفْق ولأسِنّته فى الصُّدور إشراق ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله أشرفُ من فَوّضَ حُكْما فى أيّامه إلىٰ من آعتَمَد عليه، وأرأفُ من آستخْلَف علىٰ من بَعُدَ عنه من أُمّته مَنْ يعلم أنَّ صلاحهم فى يَدَيْه، وألطَفُ من عَدَق شيْئا من أمور أهل ملّته بمن أعانَه الله وسدّدَه فى دَفْع عدوّهم وصلاح ما يُرْفَع من أحوالهم إليه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وُلُّوا على الأمّة فعدَلُوا، وأُمِروا بما جبلَه الله عليه من الرأفة والنِّعمة والرحمة فامتثَلُوا، وعلِمُوا أنَّ الحق فيما نَهَج لهم من طُرُق طريقته المُثْلىٰ فما مالُوا عن ذٰلك ولا عدلُوا؛ صلاةً لاتَغْرُب شمسُها، ولا يَعزُب أُنْسُها، ولا تُعْتَبر أوقاتُ إقامتها إلا ويَقْصُر عن يومِها فى الكثْرة أمسُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإن أولىٰ ما أعملْنا إليه ركائب الآراء المؤيّده، وصرّفْنا إليه أزِمّة نجائب الأفكار المسدَّده ؛ وأجلْنا فيه طِرْفَ النظر الذى لايُشَقّ فى بلوغ الغاية غُبارُه ولا يُدْرَك ، وأحلْنا الأمرَ فيه علىٰ التأييد الذى هو عمدتُنا فيما يؤخَذُ من ثَواقب الآراء وما يُترك؛ وقدّمْنا فيه مُهِمَّ الآستخارة الذى يتلُوه التوفيق ، وعلِمْنا أنَّ ألذَّ أسبابِ الآهتداء إليه سلوكُ طريقِ النُّصح لله ولرسوله وللإسلام فسلَكْنا إليه من ذٰلك

(١) فى الأصل «بفرض عامة» وهو تصحيف .

الطريق ؛ وقصَرْنا النيّةَ فيه علىٰ مصالح الأمة التى هى فرضُ العيْن بل عَيْن الفرض ، وأطلْنا الإرتيادَ فيه لتعيُّن من نرجُو له ممّن عناهم الله بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ . وندَبْنا له سيفًا لم يَزَل فى صدُور الأعداء صَدْرُه وفى يَدِ جَبّار السموات قائمُه ، وأردْنا لتقدمة الجيوش فيه زعيمًا طالمَا مَلّ ضَوءُ الصبح مما يُغَيّره وملّ سوادُ الليل مما يزاحمُه ، وقدّمْنا له من نَشَأ فى حجْر وَلائنا ، وغُذِّى بلبان بِرّنا وآلائنا ؛ وشهِدَ الوقائعَ بين يدَيْنا ، وخَبَرْنا من سيرته النُّهوضَ فى الرعايا بما كَتَبَ الله لهم من الرأْفة والرحمة علينا ـ أمرُ نيابةِ سلطنتنا الشريفة بالممالك الشاميّة التى نابَتْ فيها مهابَتُنا ، عن الإقامة فيها ، وجعلتْها عنايتُنا ، من أشرف ممالكِنا التى نخُصُّها على البُعْد بدوام الملاحظة ونُصْفيها ؛ وهى واسِطةُ عِقْد ممالِكنا ، ومَحطُّ رحال طُرُقنا إلىٰ جهادِ الأعداء ومَسالِكنا ، وهالةُ أهِلّة سَرىٰ القصد إلىٰ لحَظها فى أدِيم الأرض مواقِعُ سَنابِكنا ؛ ومواطنُ القُرُبات التى نصّت الآثارُ الصحيحةُ عليها ، ومظانُّ العبادات التى طالمَا نَصّتْ ركائبُ العِباد العُبّاد إليها ؛ ومقامُ الأبدال الذين هم أهلُ دارِ المُقامه ، ومستقرُّ طائفة الدِّين الذينَ لا يزالون ظاهرين علىٰ أعدائهم لا يَضُرُّهم من خَذَلهم إلىٰ يوم القيامه ؛ وفَلَكُ الثغور الذى تُشرِقُ منه كواكبُ سعودها ، وتتصرّف من نوئه إلىٰ مَنْ جاورها من العدا خاطفاتُ بروقِها وقاصفاتُ رُعُودِها ؛ فكَمْ ذى جنودٍ أمَّها فهَلَك وما ملك ، وسلك إليها بجيوشه فزَلّت وتزلزلت قدمه حيثُ سلَكْ ؛ ولجيْشها البأسُ الذى وجُودُ الأعداء به عدم ، والجَدُّ الذى يعرفه أهلُ السِّباق و [ان] أنكرتْه أعناقهم «فما بالعَهْد من قِدَم» .

وأن نفوّض [أمرها] إلىٰ من ينْشُر بها على الأمة لواءَ عدلنا ، ويبسُط فيها بالرأْفة والرَّحْمة رداءَ فَضْلنا ، ويُحْيي بها سُنَنَ الإحسان التى مَبْدأُ أيامها غايةُ من سَلَف من قبلنا ؛

ويقيم مَنـار المُلك من بأسه على أرفع عِماد ، ويُنيم الرعايا من عدله فى أوطإ مِهاد ؛ ويكُفّ أكُفّ الظُّلم إلى ما يتجاسر[1] إلى إعادة يده إليهـا عاد ومن عاد ، ويُجرِّدُ إلى العِـدا من خَيَاله وخَيْله سرايا تَطرُدُ عن موارد جفونهم بقوائِمِها الرُّقاد ؛ وتَسْـتعيد عَوارِىَ أرواحهـم من مُستودَعات أجسادِهم فهى بحكم العارِيّة غيرُ مُسْـتقرّة فى الأجساد ، ويَصونُ الرُّتَب عن تَطرُّق مَنْ يُفسِد أحوالها لعدم أهليته : فإنه ماسَلَك أحَدٌ فى أيامنا طُرُقَ الفَساد فَسَاد ؛ ويَعلَم به أنَّا جَرَّدنا على العِدا سـيفًا يَسْبِق إليهـم العَذَل ، ويزاحِمُ على قَبْض نفوسِهم الأَجَل ، ونتحلَّى بتقليده الدُّوَل ، ويُتحقَّق بفتكه أنه لا حاكِمَ بيننا وبينهم إلّا السَّيْفُ الذى إن جَارَ فيهم فقد عَدَل .

ولذلك لمـا كان المجلسُ العالى الفلانىّ : هو الذى اختَرْناه لذلك على عِلم ، وقلّدناه أمور الممالك : لمـا فيه من حِدّة بأس وآيةِ حِلْم ، وعَجَمْنا عُودَه فكان لَيِّنًا على الأولياء فَظًّا على العِـدا ، وبَلَوْنا أوصافَه فعلمنا منه السَّدادَ الذى لا يَضَعُ به النَّدى فى موضع السَّيف ولا السَّيْفَ فى موضع النَّدى ، وعرضنا سَدادَه على حُسْن اعتبارنا للأكْفاء فكان سمِيرًا (وحُمِلَ ، فزيّنَ مَعْروضًا وراعَ مُسَدَّدا) ؛ وهَزَزْناه فكان سَيْفًا يُنصَل حَدُّهُ الخَطْبَ إذ أعْضَل ، وأعطيناه أمر الجُيُوش فلم يختلف أحَدٌ فى أنه أفضـلُ من الأفضل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — لازال يَصْطَفى من الأوليـاء كلَّ كُفْءٍ كريم — أن تفوَّضَ إليه نيابةُ السَّلطنة الشريفة بالممالك الشامية : تفويضًا يُعلِى قَدْرَه ، ويبسُط فى مصالح الملك والممالك أمْرَه ؛ ويُطْلِقُ فى مصالح الدولة القاهرة سَيْفَه وكَلِمَـه ، ويُدِرّ على الأولياء إحساننا الذى إذا جَارَى الغَيْثَ أخْجَل دَوَامُه دِيَمَه ؛ ويرفعُ بالعدل

(١) الصواب «حتى لا يتجاسر» الخ .

منار دوام مُلكنا الذى قرنه الله للأمة بجُودنا ، ويضيف باسترفاع الأدعيــة الصالحة لدولتنا من كل لسان جُنُودَ الليل إلى جنودنا ؛ وينظرُ فى أمور الممالك الشامية نظرًا عامّا ، ويُعمِلُ فى سِدَادِ ثغورها وسَدَادِ أمورها رأيًا ثاقبًا وفكرا تامّا ؛ ويأمر النُّوّاب من ســدّ خَلَلها بمــا كفايتُه أدرَىٰ به منهم ، وينبّههم من مصالحها على ماظهر لفكره المُصيبِ وخَفِيَ عنهم ؛ ويُلاحظُ أموال ما بَعُــدَ من البلاد كملاحظته أموالَ مادنا ، وينظرُ فى تفاصيل أمورها : فإنّها وإن كانت على السَّدَاد فليس بها عن حُسْنِ نظره غِنَىً ؛ ويَسْلُكُ بالرعايا سُنَنَ إنصافه التى وَكَلَتْه معرفَتُنا به إليها ، ويُجْريهم على عوائد الإحسان التى كانت من خُلُقِه سَجيّةً وزدناه تحريضًا عليها .

وهو يعلم أن الله تعالىٰ قد أقامنا من الجهــاد فى أعدائه بسُنّته وفَرْضِــه ، ومَكّن لنا فى الأرض : لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرْضه ؛ وعضَّدنا بتأييده لنُصْرة الإســـلام ، وأمدّنا من عَدَدِ نصره بكلّ سَــيْف تروّعَ الأعداء به اليَقَظَةُ وتَسُــلُّه عليهــم الأحلام ، وبثّ سرايا جيوشــنا برّا وبحرا : فهى إمّا سَوَارٍ فى البرّ تمــرّ مَرّ السَّحاب أو جَوَارٍ مُنْشَآتٌ فى البَحْر كالأعلام ؛ ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كُلّ يوم بنفســه ، ويعدُهم فى غَدِه باعادة ما اعتبره من عرضهم فى أمْسِه ؛ ويرتب أمْرَ كلّ إقليم وحاله ، ويَتَفَقَّدُ مَنْ يباشر بالتقدمة تقدّمه إلى الأطراف وارتحــاله ؛ ويأمرهم كل يوم بالتأهّب للعَرْض الذى يباشره غدا بين يدَيْنا ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كتب به للأمير « جمال الدين أقُوش الأشرفيّ » فى جمادىٰ الأولىٰ ، سنة إحدىٰ عَشْرَةَ وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمـدُ لله الذى جعلَ الدِّينَ فى أيامنا الزَّاهرةِ زَاهيًا بجمَـاله ، سَاميًا بتقـديم مَنْ إذا أَرْهَفَ فى الذَّبِّ عنه بسيفِ عَزْمِه غَدَتِ الجنّة تحتَ ظِلاَله ، حَاليًا بتفويض زَعَامَة جُيُوشـه إلىٰ مَنْ لو فَاخَرَبه البُدُورَ تَعجَّبتْ من نُقْصانها وكَماله ، عاليا بإيالة من تتولَّد معانى النصر والظفر بين الكَاملَيْنِ : من رَوِيَّةِ رَأْيِه وآرتجاله ، راقيًا علىٰ هَامِ الكُفرِ بعزائم من لا يزال تُصَبِّحُ مَهَابَتُه العِدَا بطلائع خَيْلِه وتُبَيِّتُهم بطوارق خَيَاله ، ناميا بإسناد الحكمِ فيه إلىٰ من يقطع إنْصَافُه بين المُبْطِل ورَجَائه ويَصِلُ العَدْلُ[منه] بين المُحِقّ وبين آمَاله .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أنَامَتِ الرَّعايا من مَعْدِلَتِنا فى أوْطَإِ مِهَاد ، وأدامتِ الدُّعَاءَ الصالحَ لأيامنا بإعلاء كلمتَيِ العَدْلِ والجهَاد ، وأقامت الإيالة فى أسْنَىٰ ممالِكِنا بمَنْ هو أجْرَىٰ من الغُيُوث ، وأجْرأُ من اللُّيُوثِ ، فى مصالح البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزالُ الألْسُنُ لإقامتها مُديمه ، والضمائرُ علىٰ إدامتها مُقِيمه ، والقلوبُ تَعْقِدُ من كَلِمة إخلاصها و إخلاص كلمتها فى جِيدِ الإيمَـان تَميمَه ، والتوحيـدُ يُظْهِر أنوارَهَا فى الوُجُوه الوسـيمه ، بمأْمَنِ مطالع القلوب السليمه .

ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى جَبَلَه علىٰ خُلُقٍ عَظِيم ، وجعله وإنْ تأخَّر عَصْرُه من مَقَام النبوّة فى أعلىٰ رُتَبِ التقـديم ؛ ومَنَّ على الأمّة بإرساله إليهـم من أنفسهم وأنه بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين دُعُوا إلىٰ طاعته وأجابوا ، وحكَمُوا بسنته وأصابوا ، وجَاهَدُوا المُعْرِضين عن مِلَّته حَتَّى رجعوا إلى الهدىٰ وأنابوا ؛ صـلاة لا تَغيبُ أنْواؤُها ، ولا يُفَارِقُ وجوهَ أهلهـا وقلوبهـم رُوَاؤُها وإرواؤُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنه — لما أجرانا اللهُ عليه من عوائد نَصْره، وأغرانا به من حَصْد الشِّرْك وحَصْره، ومنحنا من بَسْطَة ملك زُيِّنَتْ بها أَسَارِيرُ البسيطة وأَسِرَّتُها، ووهبنا من فواتح فتوح عَلَت علىٰ وجوه الكفر مَسَاءتُها وبَدَتْ علىٰ وجوه الإسلام مَسَرَّتُها — لم تَزَلْ تُؤَدِّى شكر نعم الله بالإحسان إلىٰ عباده، ونَسْتَزِيد منها بتفويض أمورهم إلىٰ من يقومُ فى الذَّبِّ عنهم مقامَ الجَيْش على آنفراده؛ فلا نقدّم على الرأفة بخَلْقِ الله أمرا، ولا نُحَابِى فى بَسْطِ المَعْدِلَة عليهم زَيْدًا ولا عَمْرا؛ ولا نعدِلُ بهم عمَّنْ إذا رَكِبَ فى مَوْكب نيابتنا زَانَهُ وجَمَّله، وإذا جلس علىٰ بِساط عَدْلنا زَادَه وكَمَّلَه؛ وإذا رَسَم أمرنا أَصْغَتِ السُّيُوفُ إلىٰ مَرَاسِمِه، وإذا نظر بعَيْنِ عنايتنا ثَغْرًا أهدَىٰ الشَّنَبَ إلىٰ مَبَاسِمِهِ؛ وإذا رام فى مصالح الإسلام أَمْرًا قَرَّب علىٰ رَأْيِه بَعِيدُه، وإذا رمىٰ فى حماية الممالك عدوًّا سَبَقَ إلىٰ مقاتله قَبْلَ السيوفِ وَعِيدُه؛ وإذا جرّدَ جيشا إلىٰ أعداء الإسلام جَرَّتْ قبل اللِّقاء ذُيُولَ هزائِمِها، وَرَأَتِ الفِرَارَ أَمْنَعَ لها من صَوَارِمِها، وتَلَتْ مافى كَنَائِنِها من سِهَامٍ ضَعُفَتْ عن الطَّيَرَان قُوَىٰ قوادِمِها.

ولما كان الجناب العالى الفلانىّ هو معنىٰ هذه القرائد، وسرّ هذه الأوصاف التى للشِّرْك منها مَصَائِبُ هى عند الإسلام فوائد، وفارسَ هذه الحَلْبة، التى أحرز [قصَبَ] سبقها، وكُفْءَ هذه الرُّتبة، التى أخَذَها دون الأكفاء بحقِّها؛ لاتأخذُه فى الحَقِّ لَوْمَةُ لَائِم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجِدِّه «وما ليل المُجِدِّ بنائم» يَسْرِى إلىٰ قلوب الأعداء رُعْبُه وهو فى مَكَانه، وتُؤَدِّى مهابَتُه فى نكاية الكُفْر فَرْضَ الجهاد قبل إمكانه؛ ويَشْفَعُ العَدْلَ فى الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعْتَدِينَ وشِدَّة الوَطْأَة عليهم؛ ويقف فى أحكامه مع الشريعة التى أعلى اللهُ تعالى مَنَارَها، ويَسْتَضِىءُ بأحكامها التى هى لأبصار النُّظَّار تُعِير أنوارَها.

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القوّة فى اليمين ، والواسطة فى العقد الثمين ، والإدراك فى الصدور ، والإشراق فى البدور ، وبها الأرض المقدسه ، والحصون التى هى على نكاية الأعداء مؤسّسه ، ولها الجيوش التى ألفت فى الجهاد السُّرى ، وأنفت لسيوفها فى الجفون الكرى ، ومرّت على مقاتل العدا أسنّتها ، وصرّفت فى مسالك الحرب أعنّتها ، وراعت ملوك أهل الكفر سمعة أمرائها ، وحاطتها أمداد النصر فى حروبها من بين يديها ومن ورائها ، وفيها من الأئمة العلماء الأعيان من يعدل دمَ الشهداء مدادُ أقلامهم ، ومن الأتقياء الصلحاء من لا تطيش دون مقاتل أهل الكفر مواقع سهامهم — اقتضت آراؤنا الشريفة أن نمتّع هذه الرتبة السنيّة بجمالها ، وأن نبلّغ هذه الدرجة السريّة بمن حوى هذه الأوصاف الفاخرة غاية آمالها ، ليُصبح بها لِواءُ عدلنا ، مرفوعَ الذوائب ، ومنهلُ فضلنا ، مدفوعَ الشوائب ، وكلمةُ جهادنا ، نافذةً فى المشارق والمغارب ، وقبضةُ بأسنا ، آخذةً من أعداء الدين بالذُّرا والغوارب ، وطليعةُ كتائبنا مؤتمّةً بمن توقنُ الطيرُ أنّ فريقه إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف — لازالت صوارمُه للشرك قامعه ، ومراسمُه لمصالح الدين والدنيا جامعه — أن تفوّض إليه تفويضًا يرفع علَمَه ، ويُمضى فى مصالح الإسلام سيفَه وقلمَه ، وينشُر فى آفاق الممالك الشامية عدلَه ، ويبسُط على رعايا تلك الأقاليم المحروسة فضلَه وظلَّه ، فيطلُع فى أفقِ المواكب هالةَ أهلّتها ، وطرازَ حُلّتها ، وطلْعة لوائها ، وواسطةَ عقودِ مقدّمها وآرائها ، وزينةَ تسييرها ووقوفها ، وحِليَةَ طلائعها وصفوفها ، ويجلِس فى مواطن الجلوس صادعًا بالحق فى حكمه ، آمرًا بإدامة التأنيب للعدو فى أيام سِلْمه ، مُعطيا منصبَ النيابة الشريفة حقَّه من الجلاله ، موفيًا رُتبتَها المنيفةَ مايجب لها من أبّهة المهابة وكفاءة الكفاله ، ولا يزال

لمصالح الجيوش المنصورة مُلَاحِظًا، وعلىٰ إزَاحِة أعذارهم مُحَافظا، وإلىٰ حركات عُدَوِّ الإسلام وسَكَنَاته مُتَطَلِّعا، وإلىٰ مايتعين من إبطال مكايده متسرِّعا، ولِبَوَاطن أحوالهم بحسن الاطلاع مُحَقِّقا، ولجموعهم بيمن الاجتماع للقائهم مُفَرِّقا، فلا يُضمِرُونَ مَكِيدَةً إلّا وعلْمُها عنده قبل ظهورها لديهم، ولا يُسِرُّون غارة إلا ورَايَاتُ خَيْلِه المُغيرَة أسبقُ منها إليهم .

ولْيَكُن لمَنَار الشَّرع الشريف مُعْليا، ولأقدار أربابه مُغْليا، ولرُتَب العلماء رافعا، ولأقوالهم فى الأحكام الشرعية سَامعا، ولِذَوِى البيوتُ القديمة مُكْرِما، ولأهل الوَرَع والصَّلاح مُعَظِّما، وعلىٰ يَد الظالم ضَارِبا، وفى اقتناء الأدعية الصَّالحة لدولتنا القاهرة رَاغِبا، وبجميل النَّظَر فى عِمَارة البلاد مُديما، وبحُسْن الفكر فى أمور الأموال مُعْمِلًا رَأْيًا بمصالحها عليما، ولجهات البرّ بجليل العناية والإعانة عامرا، وعن كُلّ مالا يَجِبُ اعتمادُه ناهيا وبكل مايتعين فعلُه آمرا . وفى كَمَال خِلَالِه، وأَدَوَات جَمَاله، مايُغْنِى عن الوصايا إلّا علىٰ سبيل الذِّكرىٰ التى تنفع المؤمنين، وتَرْفَع المتقين، ومِلَاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من خصائص نَفْسِه الكريمه، وعوائد سِيرَته الحديثة والقديمه، والله تعالىٰ يُسَدِّدُه فى القولِ والعَمَل، ويُؤَيِّده وقد فعل، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام، كتب بها للأمير «سيف الدين تنكز الناصرىّ» فى ربيع الأول سنة اثْنَتَىْ عَشْرَةَ وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلَبِىّ، وهى :

الحمد لله مُفَوِّض أسْنَى الممالك فى أيامنا الزاهرة إلىٰ مَنْ تَزْهُو بتقليده، ومُشَيِّد قواعد أسْمَى الاقاليم فى دولتنا القاهرة بمَنْ يعلو بإيالته ما يُلْقَىٰ إليه مَعَاقِدُ مَقَاليده،

ومُسَدِّدِ الآراء فى تصريف أَعِنَّة جيوشنا المنصورة بتقديم مَنْ تَفْلُو سيوفُه من عُنق كُلِّ مُتَوَّج من العِدا قِلَادَةَ جِيده ، ونَاشِرِ لِوَاءِ العَدْل فى رعايانا وإن بَعُـدُوا بمن تُنِيم كُلًّا منهم فى مَهْـد الأمْنِ والدَّعَةِ يَدُ مَهَابَتِه وتمهيـده ، ومُعْلِي مَنَـارِ الجهاد فى سبيله بمَنْ إذا جرّد سَيْفَه فى وغًى تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أفواه المنايا الضواحِك بين تَجْرِبيه وتجـــريده .

نحمده علىٰ نِعَـمِه التى أيَّدَت آراءَنَا بوضع كُلِّ شَيْءٍ فى مُسْتَحِقِّه ، وقَلَّدت سَيْفَ النَّصر من أوليائنا مَنْ يأخذه فى مصالح الإسلام بِحَقِّه ، وجدّدت آلاءنا لمن إذا جارت الحُتُوفُ سُيُوفَه إلىٰ مقاتل العِدا فاتها وفاقها بمَزِيَّتَيْ كِفَايَتِه وسَبْقِه .

ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لاشريك له شهـادةً لا تَزَالُ أَلْسِنَتُنَا تَرفع مَنَارَها ، وسُيُوفُنَا تصلى من جَحَدها قبلُ نَارَها ، وآراؤُنا تُفَوِّض مصالِحَ جُمْلَتِها إلىٰ مَنْ إذا رَجَتْه لنُصْرَةٍ أنالها وإذا أَسْدَىٰ مَعْدِلَةً أَنَارَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبـده ورسوله الذى أيَّده الله بنَصْرِه ، وجعله سابق مَنْ تقـدّم من الرُّسُل علىٰ عَصْرِه ، وآتاه من الفضائل ما يَضِـيقُ النُّطقُ عن إحصائه ومن المعجزات مايَحُولُ الحَصْرُ دون حَصْرِه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تَمَسَّكُوا بهُـدَاه ، وهجروا فى طاعته مَنْ عاداه ، ونَهَضُوا فى رضا الله تعـالىٰ ورضاه إلىٰ مظَانِّ الجهاد وإن بَعُـدَ مَدَاه ، صلاة يَشْفَعُها التسليم ، ونَبْتَغِي إقامتَها عنـد الله واللهُ عنده أَجْرٌ عظيم ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـد ، فإنَّ أولىٰ ما أَعْمَلْنا فى مَصَالِحه الفِكَرَ ، وتَدَبَّرْنا أحواله بكل رَأْيٍ يُسَدِّدُه الحَزْم المُرَوِّىٰ ويؤيده الإلهَـامُ المُبْتَكَر ، وقَدَّمْنا فيه الاستخارةَ علىٰ ماجَزَم اليَقِينُ بأن الخِيرَةَ للإسلام والمسلمين فى اعتماده ، وتَمَسَّكْنا فيه بحَبْلِ التوفيق الَّذى مازال تَتَكَفَّل

لنا فى كُلِّ أمرٍ بسَدَادِه وفى كُلِّ ثغرٍ بسِدَادِه ـ أمرُ الممالك الشامية التى هى وَاسِطَةُ عِقْد الممالك، ومُجْتَمَع مايُفْضِى إلىٰ مواطن النَّصْر من المسالك؛ ومَرْكَزُ فَلَكِ الأقاليم الذى تَنْتَظِمُ عليه بُرُوجُ ثُغُورِها ، ونُقْطةُ دائرة الحُصُون التى منها مادَّتُها وعليها مَدَارُ أمورِها ؛ وغِيلُ لُيُوثِ الحرب التى كم أنْشَبت أظفارَ أسِنَّتِها فى طُرَّةِ ظَفَر، ومَوَاطِنُ فُرْسَانِ الوَغَى التى كَمْ أسفرَ عن إطلاقِ أعِنَّتِها إلىٰ غايات النَّصْر وجْهُ سَفَر؛ وأن نَرْتَادَ لكَفَالة أمورها، وكِفاية جُمْهُورِها، وحِمايةِ مَعَاقلها المَصُونَةِ وثُغُورها؛ وزَعَامَة جُيُوشِها ، وإرْغَام طَارِقِى أطرافها من أعداء الدين وَثَلِّ عُرُوشِها، مَنْ جَرَّده الدِّينُ فكان سَيْفًا علىٰ أعدائه ، وآنتقاه حُسْنُ نَظَرِنا للسلمين فكان التوفيقُ الإلٰهىُّ مُتَوَلِّىَ جميل آنتقاده وآنتقائه؛ وعَجَمْنا عُودَ أوصافه فوجدْناه قَوِيًّا فى دِينه، مُتَمَكِّنًا فى طاعته بإخلاص تَقْوَاه وصِحَّةِ يَقِينِه؛ متيقِّظا لمصالح الإسلام والمسلمين فى حالَتَىْ حَرَكَتِه وسُكُونِه ، آخذًا عِنَانَ الحَزْم بِيُسْرِ يُسْرَاه وسِنَانَ العَزْم بِيُمْنِ يَمِينِه؛ وَاقِفًا مع الحق لذاته، مقدِّما مَشَاقَّ الجهاد علىٰ سائرِ مآربه ولَذَّاتِه؛ مَاضِيًا كَسَيْفِه إلّا أنه [لا] يألف كالسيف الجُفُون،رَاضِيًا فى رَاحة الآخرة بمتاعِبِ الدُّنيا ومصاعبها فلا يَرْعىٰ فى مَوَاطِن الجهاد إذا حَلَّها أكْنَافَ الهُوَيْنا ولا رَوْضَ الهُدُون،مَانِعًا حِمَى الإسلام لا "حِمَى الوَقَبىٰ بِضَرْبٍ" يُفَرِّقُ بين أسباب الحياة و"يُؤَلِّف بين أشْتَاتِ المَنُون" .

ولـمّا كان فلان هو الذى تشوّفت هذه الرتبة إلىٰ أن نَتَجَمَّل به مواكِبُها، وتتكمل به مَرَاتِبُها، وتَنْتَظِم علىٰ دَسْتِه هَالَةُ أمرائها كما تنتظم علىٰ هالة بَدْرِ السماء كَوَاكِبُها ، فإذا طلع فى أُفُقِ مَوْكِبٍ أعْشَت الأعداءَ جَلَالَتُه ، وأعْدَت الأولياءَ بَسَالَتُه؛ وسَرَىٰ إلىٰ قُلُوب أهل الكُفر رُعْبُه ، وفعل فيهم سِلْمُه مايفعلُ من غيره حَرْبُه ؛ وإذا جلس علىٰ بِسَاطِ عَدْلٍ خَرِسَ الباطل، وأنجز مافى ذِمَّته المَاطِل؛ وتكلّم الحقُّ بمِلْءِ فيه، وتبرأ البـاطل حتّى ممّن يُسِرُّه ويُخْفِيه ؛ وإن نَظَر فى مصالح البلاد أعان الغَيْثَ علىٰ

رَبَّها بِرِفْقِه ، وأعاد رَوْنَق عمارتها بكَفِّ أكُفِّ الظلم ووصول كلِّ ذِى حَقٍّ إلىٰ حَقِّه ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن نَجْعلَ فُنون أفنَانه بِيُمْنِ إيالَتِه دانيةَ القُطُوف ، وأن نُصَيِّر جَنَّتَها تحت ظِلَال سَيْفه : فإن «الجنة تَحْتَ ظِلَال السُّيوف» .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال زَمَنُ عَصْره ، مؤرَّخًا بالفُتُوح ، وسَيْفُ نَصْره ، علىٰ من كَفَر دَعْوَةَ نُوح ـ أن تفوض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس : تَفْويضًا يُحْسِنُ به المَنَابَ فى تلك الممالك عنَّا ، ويَنْشُرُ فيها من العَدْل والإحسان ما يُلَقَّاه منّا ، ويُلْبِسُها من حُلَلِ المَهَابة مايُضَاعِفُ به أَمْنَ سِرْبِها ، وتُصْبِحُ به السُّيوف المجرَّدةُ أحْفَظَ لها من قُرْبِها ، ويطلُعُ فى أفُقِ مواكبها الجليلة طُلُوعَ الشَّمس التى يعُمُّ نَفْعُها ، ويُعْشِى النَّوَاظرَ لَمْعُها ، ويجلسُ فى دَسْتِ نيابَتِنا حاكمًا فيها بأمرنا ، جَازمًا بِحُكْمِ الشرع الشريف الذى قد عَلِمَ أنه حِلْيَةُ سِرِّنا وجَهْرِنا ، نَاشِرًا من مَهَابة المُلْك ماتَرْجُفُ له القلوب من العِدا ، وتُصَبِّحُهم به سَرَايَا رُعْبِه علىٰ بُعْد المَدَى ، مُلْزِمًا مَنْ قِبَلَه من الجيوش المنصورة بمُضَاعَفَةِ إعْداد القُوَّه ، وإدامة التَّأَهُّب الذى لاتبرح بسُمْعَتِه بِلَادُ أهلِ الكُفْرِ مَغْزُوَّه ، مُطَّلِعا علىٰ أحوال العدا بلُطْف مقاصده ، ونِكَاية مكايِده ، وحُسْن مصادره فى التدبير ومَوَارِدِه ؛ فلا يُبْرِمُون أمرًا إلا وقد سبَقَهم إلىٰ نَقْضِ مُبْرَمِه ، ولا يقدّمون رِجْلًا إلا وقد أخَّرها بوَثَبَاتِ إقْدَامه وثَبَاتِ قَدَمه . وليُعظِّم مَنَارَ الشرع الشريف بتكريم حُكَّامِه ، والوُقُوف مع أحكامه ؛ ويرفعْ أقدارَ حَمَلَةِ العلم بترفِيهِ أسرارهم ، وتسهيل مَآرِبِهم وأوطارِهم ؛ ولْيَعُمَّ الرعايا بعَدْلِه وإنْصافه ، ويسترفِعْ لنا أدْعِيَةَ الأولياء والصُّلَحاء بإسْعَاده وإسعَافه . وفى خصائص أوصافه الكريمه ، وسَجَايَاهُ التى هى لمصالح الإسلام مُسْتَدِيمَه ؛ ما يُغْنِى عن تَشَدُّدٍ فى القول والعمل ، والله تعالىٰ يؤيده وقد فعل ، ويجعله من أوليائه المتقين وقد جعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأمير «يلبغا الكاملى» بعد نيابته بحلب وحماة، من إنشاء المقر الشهابى بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله مجرى الأقدار ، برفعة الأقدار ، ومثرى آمال من حسنت له فى خدمتنا الآثار، بمواهب العطايا والإيثار، وممرى غروس نعم أوليائنا التى رعى عهدها عهاد سحب جودنا الغزار؛ جاعل أصفياء مملكتنا الشريفة كل حين فى ازدياد، ومانح المخلصين فى خدمتنا مزيد الإسعاف والإسعاد، وفاتح أبواب التأييد بسيوف أنصارنا التى لا تهجع فى الأغماد .

نحمده على مواهب نصره ، ونشكره على إدراك المآرب من جوده الذى يعجز لسان القلم عن حصره ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تؤيد قائلها فى مواقفه ، وتجمع له من خير الدنيا بين تالده وطارفه؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هدى الله به هذه الأمة من الضلال ، وفضل به المجاهدين حيث جعل الجنة تحت ما لسيوفهم من ظلال . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا انفصام لعروتها ولا انفصال، ولا انقضاء لأسبابها ولا زوال؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإن أولى من انتدب لحفظ ممالك الإسلام، وأتمن على صونها بعزمه الذى لا يسامى ولا يسام؛ وأسند إليه من أمور الرعايا بأجل الممالك ما يقضى بمزيد التكريم ، واعتمد على صيانته وديانته لما شهد الاختبار بأنه أهل للتقديم؛ وجربت الدول مخالصته ، وحقق اهتمامه الذى بلغه من العز غايته؛ وأثنت على حسن سيرته وسريرته سوابق خدمه ، وشكر اهتمامه فى المخالصة التى أعربت عن عزمه؛ ففاق أشباها وأنظارا ، وكفل الممالك الشريفة الحلبية والحموية فأيدها أعوانا وأنصارا؛

وبسط فيها من العَدْل والإنصاف ما أعلى له شأنا ورفَعَ له مقدارا ، وسلك فيها مَسْلَكا شَنَّفَ أسماعا وشَرَّفَ أبصارا .

ولما كان المقر الكريم (إلى آخره) هو صَاحِبَ هذه المناقب ، وفَارِسَ هذه المَقَانِبْ ، ونيِّرَ هذه الكواكب ، كم أبهج النفوس بمَالَهُ من عَزْمٍ مشكور ، وحزم مأثور ، ووَصْفٍ بالجميل مَوْفُور .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف – لازال لسيف أوليائه مُرْهِفَا ، ولا بَرِحَ لأخصائه مُسْعِدًا ومُسْعِفا – أن تفوض إلى المشار إليه نيَابَةُ السَّلطنة الشريفة بالشام المحروس ، على أجمل عوائد من تقدّمه فى ذلك وأكمل قواعده . فليتناولْ هذا التقليد الشريف بيدٍ لم يَزَلْ لها فى الوَلَاءِ البَاعُ المديدُ الطويل ، ويتلقَّ هذا الإحسانَ بالشُّكْرِ الذى هو بدوام النعمة خَيْرُ كَفِيل ، ويضاعفْ ماهو عليه من اهتمامٍ لم يزلْ منه مألوفا ، واحترامٍ إذا لاقَى غَيْرُه مُهِمًّا واحدًا لاقَى هو أُلُوفا ، ويُمْعِنِ النظرَ فى مصالح هذه المملكة الشامية المحروسه ، ويعتمدْ من حُسن تدبيره ما تغدو رُبُوعُها بحسن ملاحظته عَامِرَةً مأنوسه . وهو يعلم أن العَدْلَ من شِيَم دولتنا الشريفه ، وسَجِيَّةُ أيامنا التى هى على هَامِ الجَوْزَاء مُنِيفَه ، فليسلكْ سَنَنَه ، ويتبع فَرْضَه وسُنَنَه ، ويعلمْ أنَّ عدل سَنَةٍ خيرٌ من عبادة ستين سَنَه ، ولينشُرْ على الرعايا مَلَابِسَه الحَسَنَه ، ويعظِمِ الشَّرْعَ الشريفَ وحُكَّامه ، ويُعَيِّنِ الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجبُ الاستحقاق إكرَامَه ، والله تعالى يجعل السَّعْد خَلْفه وأمامه ، ويؤيِّدُه تأييدًا يُبَلِّغُه مُرَادَه من النَّصْر ومَرَامَه ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذى طَهَّرَ الشَّامَ وقَدَّسَه ، وصانَه وحَرَسَه ، وجعل لسلطاننا فيه قواعدَ بالنَّصْر مُؤَسَّسه ، وأنوارا للهُدَىٰ مقتبَسه ، وكَفَلَه بمن إذا صَفَّ له العدُوّ آفترسه ، وأذَلَّه وأرْكَسَه ، وأرغم مَعْطسَه ، وقطَفَ بسَيْفِه أرْؤُسَه ، ومَنْ يُعْطِى النَّصْرَ إذا آمْتَطَىٰ فَرَسَه ، ومن كَرَّم الله نَفْسَه ، وكَثَّر أُنْسَه ، وعَطَّر نَفَسَه ، ومن يُنْصِفُ المظلومَ من ظالمه ويبلِّغ السائلَ مُلْتَمَسَه ، ومن لَبِس ثوبَ العفاف والتُّقَىٰ فكان خيرَ ثَوْبٍ لَبِسَه .

نحمده علىٰ أصْلِ جُودٍ غَرَسَه ، وعارِض سَوْءٍ حَبَسَه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أزالت الشِّرْكَ وَمَحَتْ نَجَسَه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنبع الله من أصابعه عَيْنًا مُنْبَجِسَه ، وآخْضَرَّ العُودُ اليابسُ لَمَّا لَمَسَه ، وأضعف الوساوِس المُختَلِسَه ، وآنتزع الحَقَّ ممن بَخَسَه ، وحماه الله من الشيطان لما وُلِدَ فما نَخَسَه ، ونَوَّرَ القَلْبَ الذى خيم عليه الضلالُ وطَمَسَه ، وكان الشِّرْكُ قد انْبَثَّ فى الأرض فطواه دينُه وكَبَسَه ، ومحاه ودَرَسَه ، وجاء بالقرءان فطُوبىٰ لمن تلاه ودَرَسَه ، وأنزل عليه : ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَه ﴾ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أولجَ اللهُ اللَّيْلَ فى النهار وغَمَسَه ، وميَّز بنصف العدد من الثلث سُدُسَه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن الشَّامَ هو عِقْدُ النِّظَام ، وأجَلُّ ممالك الإسلام ، ومَعْدِنُ النَّصْرِ الذى بُرُوقه تُشَام ، ومُسْتَقَرّ البركات الوِسَام ، وعَسْكَرُه أفضلُ عَسْكَرٍ فى حسن الآعتزاء والآعتزام ، لا يَرْهَبُون الحِمَام ، ويخوضون لُجَجَ المَنُون بالحُسَام ، ونيابةُ السلطنة الشريفة به من أجَلِّ النيابات مقدارا ، وأكْرَمِها آثارا ، وأعَزِّها أنصارا ،

إذ هو تِلْقاء أوامرنا الشريفة المنطويةِ عليها أسرارُ البَريد، ومن عنْده تتفرّع المهمات للقريب والبعيد ، وعنه يَصْدُرُ البريد، وإليه يَرِدُ بكل شاء جديد ، ومنه يأتى إلىٰ مسامعنا الشريفة بما نُريد ، فلا يَحُلُّ دارَ سعادتها إلا من هو منصورٌ سعيد ، وذُو رأْيٍ سديد، وحزمٍ حديد ، وقد آخترنا لها بحمد الله كُفْأَها المعيد .

ولما كان فلان هو الضّارِيَ علىٰ العِدا ، وٱلغَيْثَ المتوالِيَ النَّدىٰ ، والهمامَ الذى جَرَّد سيفَ عَزْمِه أبدا فلا يُرَىٰ مُغْمَدا ، وٱتّصَفَ بحسن الصفات فما سَادَ سُدَىٰ ؛ قد تجملت الممالك بآرائه ورَايَاتِه ، وثَباتِه ووَثَباتِه ، ورَوْضِ تَدْبِيره وطِيبِ نَبَاتِه ، وحُسْنِ آعتماده فى خدمة مُلْكنا الشريف ومهمّاته ؛ إن ذُكِرَت المُوالاة الصادقة كان رَاوِىَ مُسْنَدِها ، وحَاوِىَ جَيِّدها ، والآوِى إلىٰ ظِلِّها المَديد وطِيبِ مَوْرِدِها ؛ وإن ذُكِرَتِ الشجاعةُ كان زعيمَ كَتَائبها ، ومَظْهَرَ عجائبها ، ولَيْثَ مَضَارِبِها ، ومُجَرِّدَ قَوَاضِبِها ، وفارسَ جَنَائبِها ، ومُطْلِبَ أطلابِها ومُنْجِحَ مَطَالِبِها ، ومُجَلِّيَ غَيَاهِبِها — اقتضى حُسْنُ الرأْيِ الشريف أن يُعقَدَ عليه لواء الآحتشام ، فى الشام؛ وأن يُخَصّ بالبركات، المُخَلِّصَة من الدَّرَكات .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، وأن يكونَ داخلا فى نيابته الشريفة ما هو مضافٌ إلى الشام المحروس : من مَمَالكَ وقِلَاع ، ومُدُنٍ وضِياع، وثُغُورٍ ومَوَانِى ، وسَوَاحِلَ فى أقَاصٍ وأدانى ؛ تفويضا آتّسَقَتْ دُرَرُه ، وأشرقت غُرَرُه ، وتُلِيَتْ آياتُه وسُوَرُه .

فلْيُمَهِّد بالعدل أكْنَافَ البلاد ، ولْينظرْ بعين الرعاية والسَّداد ؛ ولْيَنْشُرْ لواء الإنصاف، لتكون الأمّة تحت ظلّه الضّافى وإليه الحَقُّ مضاف. ولْيُبدِرْ الأرزاق

من الأخلاف ، وليأمرْ بإقامة الحدود علىٰ شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلَاف ؛ وليَسْتَرْهِف عزائمَ العَسَاكِر المنصورة فى القِتَال والجهاد ، وليأخُذْهم بحسن الاستعداد ، وليُعْرِف للأمراء منازلهم : فإنهم أركانٌ وأعضاد ، وأنصارٌ وأنجاد، وأولياءُ دَوْلَتِنا الشريفة المَاحُونَ للفَسَاد، ومِمَّن تجمل بهم المَوَاكِب وتتَفطّر بهم للعدا الأكباد ؛ والله اللهَ فى الشَّرع الشريف وإقامة مَنَارِه ، وتنفيذ كَلِمَة أحكامه وإزالَةِ أعذاره؛ والتَّقْوىٰ فهى أفضل شِعَارِه، وقُرَّةُ أبصاره؛ والوصايا فمنه يُشْرِقُ هِلَالُها إلىٰ أن يَتِمَّ فى إبداره، ويتكمَّل بأنواره ، وهو غَنِيٌّ عن إكثاره . فخذْ تقليدَنا هذا باليمين ، والبَسْ من هذا التفويض المَلْبَسَ الأسْنَى الثمين ؛ وأخْبَارَ البريد المنصور فلا تَقْطَعْها عنا ، فمنه إلينا تَرِدُ أخبارُ البريد وإليه تَرِدُ المهماتُ منّا، والله تعالىٰ يخوّله كُلَّ يوم من إحساننا فى الزيادة والحُسنىٰ؛ والخط الشريف أعلاه.

الطبقة الثانيـــة

(مَن يُكتب له تقليدٌ شريفٌ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى»
وهو الوزير من أرباب السيوف، وهو بالمملكة الشامية
علىٰ حدّ الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّدِ سهام الاختيار، ومُسَيِّرِ الأولياء إلىٰ منازل العَلْياء مَسِيرَ الأهلَّةِ إلىٰ منازل الإبْدَار؛ الذى جدّدَ نِعَما ، وجدّد كَرَما، وعلِم مَوَاقِعَ الاضطرار، إلىٰ مَوَاقِع الأوزار، فأرسل إليها مَنْ تستهلُّ آراؤه دِيَمَا .

نحمده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتّخذْ صاحبًا ولا وزيرا ؛ ونصلّى علىٰ سيدنا محمد الذى عمَّر الله به البلاد تَعْميرا، وأحسن بالعَدْل

تقريرا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ظاهروه بالسيوف والأقلام كاتبا وأميرا ؛ صلاةً لا ينقطع تَوَالِيها، ولا تزال الآفاق تَتَناقَلُها وتَسْتَمْلِيها .

وبعد، فانّ أولى من عَظُم شأنُه، وكَرُم مكانُه، وثبت إمكانُه، وأُنبِتَ فى مَنَابِت الرماح قلمُه الذى هو ترجمانه، وبُسِطَتْ فى تشييد الممالك يَدُه وأُطْلِق لِسانُه ــ من كان علاّمة العِلْم، وغَدَا بالنشاط فى كِبَرِه فَتِيّ السِّنّ كَهْلَ الحِلْم، الذى فاق جلالةً ونَسَبا، واستعلى هِمّةً وأدبا، وعُرِف بالديانة التى طار صيتُها فى الآفاق شرقا ومغربا، والهِمّة التى سواء عليها أحمَلَت قلما أم انتضت قُضُبا .

ولما كنتَ أيُّها المجلس الفلانى ــ أدام الله تأييدَك، وتسديدَك وتمهيدَك ؛ وكَبَتَ حَسُودَك، وضاعف صُعُودَك ــ أنتَ المَعْنِيّ بهذه المآثر، المنضّدَةَ عليك هذه الجواهر، الدالّةَ على مناقبك هذه المَفَاخر، الذى وجَدْناك على الانتقاد تزيد استخلاصا، وتعلُو على السَّبْك خَلاصًا .

فلذلك خرج الأمر الشريف أن تُوَزَّر، وتُحْمَى مواردُ آرائك لتُسْتَغْزَر، ويكونَ لك الحكم فى المملكة الشامية عموما، وتَتَصَرَّف فى معاملاتها مجهولا ومعلوما، على أكمل قواعد الوزراء وأتمها، وأجلها وأعمّها، متصرّفًا فى الكثير والقليل، والحقير والجليل، تَعزل وتُوَلِّي مَنْ شِيت، وتَكْفِي وتَسْتَكْفِي من ارتضيت . ونحن نُوصيك بالرِّفْق الذى هو أخْلَق، والعدلِ الذى تُسْتَدَرّ به سُحُب الأموال وتُسْتَغْدق، والحَقّ فإن كل القضايا به تتعلّق، ويُمْنِ السياسة فإن الرِّياسةَ بها تكمل وتُغْدَق، وإيّاك والغرضَ الذى هو يَهْوِى بصاحبه، ويُرْدِيه فى عواقبه ؛ واتّقِ اللهَ الذى لا تتم الصالحات إلا بتقواه، واحذر أن تكون مع من ضلّ سبيلَه واتّبع هواه ؛ واللهُ تعالى يُنْجِحُ رجاءَك ويُوَضِّح منهجك، ويُعْلِي دَرَجك، ويلقّنك إذا خاصمت واختصمت حُجَجَك ؛ إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثالثة

(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شريف، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكْتَبُ له فى قطع النصف وهو نائب قَلْعة دِمَشْق)

إن كان مقدّم ألف كما كان أوّلا ، كتب له بـ « المجلس العالى » . أو طبلخاناه كما هو الآن ، كتب له بـ « السامى » بغير ياء ، وبالجملة فإنه يكتب له مفتتحا بـ « الحمد لله » .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة دِمَشْقَ المحروسة، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ ابن فضل الله رحمه الله ، وهى :

الحمد لله مُشَرِّفِ القِلاع ، ومُصَرِّفِ رجالها فى الامتناع ، ومُعَرِّفِ من جادَلَها أنَّ الشَّمْسَ عاليةُ الارتفاع .

نحمدُه حمْدًا يُشَنِّف الأسماع ، ويُشَرِّف الإجماع ، ويُحَلِّق فى صُعُودِه الملائكةُ أُولِى أجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وثُلاثَ ورُبَاع ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها لما بَقِي من قلاعِ الكُفْر الاقتِلاع ، واستعادةَ ما قرّ معهم من قُرًى وضَاعَ من ضِيَاع ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى حَمىٰ به دِرّة الإسلام من الارْتِضَاع ، وصَانَ به حَوْزَةَ الحق أن تُضاع ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً دائمةً ما أُسْبِلَ للّيلِ ذَيْلٌ وامْتَدّ للشّمس شُعَاع ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الحُصُونَ حواضِرُ كما للبِلَاد، وحَوَاضِنَ تَضُمّ بقاياها ضَمّ الأمّهاتِ للأولاد ، ومَعَاقِلَ يُرجَعُ إليها إذا نَابَتِ النُّوَبُ الشِّدَاد ، ومَعَاقِد يعتصم من منَعَتِها بجِبال ويَتمسك بأطواد؛ وقلعةُ دمَشْق المحروسةِ هى التى تفتخر بقايا البِقَاعِ[1] بالاتصال

(١) لعله القلاع .

بسببها، والتمسك فى الشدائد بذيل حسبها، لا يهتدى فى السلم والحرب إلا بمنارها، ولا يقتدى فى التسليم والامتناع إلا بآثارها، ولا يستقى إلا بما يفيض على السحب من فيض أمطارها، قد ترجلت لتبارز، وتقدمت لتناهز، ودلت بقواها فما احتجبت من سجوف الجبل بحجاب ولا احتجزت من الغمام بحاجز، بل ألقت إلى قرار الماء رجلها، وأثبتت فى مستنقع الموت رجلها، وكشفت للحرب العوان قناعها، وأشعلت أبنيتها من الذهب شعاعها، وأشغلت أفنيتها البروق أن تطاول باعها، أو تحاول ارتفاعها، قد جاورت قبتها الزرقاء أختها السماء، وجاوزت بروجها منطقة البروج اعتلاء، وهى معقل الإسلام يوم فزعهم، وأمن قلوبهم أعاذهم الله من جزعهم، وقد نزل العدو عليها ونازلها زمانا بجموعه وأعانه عليه قوم آخرون، وأقدموا وتقدموا وهم متأخرون، وطاولوها فكانت حسرة عليهم، ونكالا لما خلفهم ومابين يديهم، وثبت الله بها أقدام بقية القلاع، وقوى بعزائمها إقدام من فيها على الامتناع، وقلعة الجبل المحروسة وإياها كالأختين، وهى لها ثانية اثنين، وكلتاهما لكرسى مملكتنا الشريف منزل سعيد، ومتنزه يود صفيح الأفلاك لو ترامى إليه من مكان بعيد.

فلما رسمنا بنقل من كان فى النيابة الشريفة بها فى منازلها من مكان إلى مكان، وقدمناه أمامها كما يهتز فى قادمة الرمح السنان، واتخذنا من بروق عزائمه لبعض ثغورها الضاحكة شنبا، ومن همه المتصلة المدد بها ما نمد منها إلى سمائها سببا اقتضى رأينا الشريف أن نعول فى أمرها المهم، وبرها الذى به مصالح كثير من ممالكنا الشريفة تتم، ونحلى مشارفها بمن تضاحك البروق سيوفه فى ليل كل نقع مدلهم، ونحمى حماها برجل تمنع مهابته حتى عن تقل الأسنة (؟) طارق الطيف أن يلم، وهو الذى لا تزعزع له ذرا، ولا ينام لبادرة سيله فى ذرا، ولا يقدر معه

الأسَـدُ أن يَبِيتَ حول غَابِهِ مُصْحِرًا، ولا الطَّيْرُ أن يُحَلِّقَ إليه إلا مَاسِحًا بجَنَاحِه على الثَّرَى، ولا أدْلَجَتْ إليه زُمَرُ الكواكب إلا تَقَاعَسَت فلا تَسْتَطِيعُ السُّرَى .

وكان فلانٌ هو حَامِىَ هذا الحِمَى، ومَانِعَ ما يَحْلُو فى الثُّغُور من مَوَارِدِ اللَّمَى ، وغَيُورَ الحَىِّ فلا تبرُزُ له إلا من عَقَائِل المَعَاقِل قاصِرَاتُ الطَّرْف كَالدُّمَى ، وحَافِظَ ما آسْتُودِعَ من مَصُون، وآسْتُجْمِع من حُصُون، وآستجهرَ من مَوَارِدِ تَرِدُها من زَرَدِ الدروع عيون، ويُفَرِّق منها المجانيقَ سَحَائِبَ مُمْطِرَةً بالمَنُون ؛ فصَمَّمَ رأيُنا الشريفُ على آختياره لِيُوقِّلَ[1] صَهْوَةَ هــذا الجواد، ويُوَقِّىَ ما يجب لهــذه العقيلة من مرتمق لحظ ومرتمى فؤاد ، ويبحث من الشغف بها عن أمل آمل أو مراد مراد ، ويُعجب من عقيلتها المصونة أن أبراجها تَتَبرّج وما لنُعْمَاهَا إنعامٌ ولا لسُعَادِهَا إسْعَاد .

فرسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ ، المَلَكِىّ، الفلانىّ ــ أعلاه الله وشرفه، وأدام فى الأرض ومَنْ عَلَيها تَصَرُّفَه ــ أن تفوّض إليــه النيابة بقَلْعة دِمَشْق المحروسة : على عادة من تقدّمه وقَاعِدَتِه، ومُقَارَبته ومُبَاعَدَتِه ، وتَخَلِّيه ومساعدته ؛ وكل ما جرت به العوائدُ فى رجالها ورجالها ، ومالها ومآلها ؛ وهـذه نِيَابَةٌ شريفه، وتَحِيَّةٌ مُطِيفَه ؛ ونعمةٌ تُقَابَلُ برعايتها، وتُكْتَمَ نَوَافِلُها بإذَاعَتِها ؛ وتقوى الله حليــة عنقها، وحُلَّةُ أُفُقِها، وتَجْرِى المَجَرَّةُ إجلالا فى طُرُقِها .

فعليك بحفظها لَيْلا ونهارا، وتَفَقُّد أحوال مَن فيها سِرًّا وجِهَارا، وفَتْح بابها وغلقها مع الشمس، وتَصَفُّح ما بها من لَبْس، وتَتَبُّع أسبابها كما فى النفس، والتَّصَدِّى لملازمة الخدمة الشريفة فى أبوابنا العالية ببابهــا ، والأخْذ فى أدَوات حِفْظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها ؛ والتَّجَسُّس على مَن يَلُمُّ فيها جَفْنُه بكَرًى وما أثقله مناما ،

[1] ليوقل ليصعد .

والزام كلّ واحدٍ بما يلزمه من الوظائف فى ليله ونهاره، وإدلاجه وابتكاره، ومن عليه فى هذا المعقل إشراف من شُرُفاته أو تَسَوُّر على أسواره، وإشهار الرَّهَج والصِّيت والسمعة بالاهتمام فى كُلِّ ليلة بزِفَاف عَرُوسها، وضَرْب الجَرَس لنواقيسها، والإعلان لصَبَاح الخَيْر لنا فى صُبُحَاتها والدعاء الصَّالح فى تَغْليسها، وصيانة ما فيها من حَوَاصِل، أو يصلُ إليها من وَاصِل، وما فيها من ذخائر، وما فى خَزَائنها العالية من مَدَدِ البَحْر الزَّاخر، وما تشتملُ عليه دَارُ الضَّربِ من أموالٍ تُضْرَبُ للهِبَات برَسْمِنا، وأموالِ الناس [التى] حُملتْ إليها لتُشَرَّف نقودُها باسمنا، وخزائن السلاح المنصورة وما يُسْتَكْثَر فيها من عَدد، وما يُسْتَغْزَر من مَدَد، والمَجَانيقُ التى تخطرُ منها كلُّ خَطَّارَة كالفَنيق، وتصعَد ومرماها إلى السماء كأنَّما تَخْطَفُه الطَّيْرُ أو تَهْوِى به الرِّيحُ فى مكانٍ سَحِيق، شَائلَةً عَقَارِبُها، آفلةً بالأعمَار كَوَاكِبُها، والخُدُوج والقسىّ والرايات وغير ذلك من سِلَاح، أو دُرُوع تَرُدُّ السِّهامَ على أعقابها وتَحْمِى قامَاتِ العَوَالِى وتُضَيِّقُ صُدُورَ الصِّفَاح. والبحريَّةُ وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة من نجوم آفاقها، وغُيُوم إرْعَادها وإبْرَاقها، وديمها إذا أسبلت المسالمةُ ذيولَها وأعوانها إذا شَمَّرت الحَرْبُ عن سَاقها. وبقيةُ المستخدَمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة أوطانها، وأمارةُ العناية بها من سلطانها؛ فكل ذلك مذخورٌ لمنافع الإسلام، وما رِيشَ السَّهمُ لأنَّه فى كل ساعة يُرْمَى ولا طُبِـعَ السيفُ لأنه فى كل بارقة يُشَام؛ فاحفظْ لأوقاتها تلك المَوَادَّ المذخوره، واحفظ هؤلاء الرجالَ فإنهم ظَهْرُ العساكر المنصوره؛ وخُذْ بقلوبهم وأوصِـلْ إليهم حُقُوقَهم، واجمَعْ على طاعتنا الشريفة مُتَفرِّقَهم وأكْرِمْ فَرِيقَهم؛ ومنهم المماليكُ السلطانيةُ وهم إخْوَانُك فى ولائنا، والذين تَشْرَكُهم فى آلائنا؛ وبَالِـغْ فى حِفْظ المعتقَلين فى سُجُونها، ولفظ المعتقدين خلافا فى مكنونها؛ ونَحْنُ نُعيذُها بالله أن نقول: تفقَّدْها بالترميم والإصلاح، ولكنّا نأمُرك

أن نتعهدها بمـا نتعهده من الزَّيْنِ المِلَاح ؛ ولك مِنْ معاضدة مَنْ فى ذلك الإقليم ، مَنْ لَكَ برأْيِهِ طريقٌ مستقيم ، ومَنْ تُرَاجِعُه فيما أشكل عليك من الأمور ، وتَجِدُ به فى طاعتنا الشريفةِ نورًا علىٰ نُور، وأتبعْ مَرَاسِمَنا المُطَاعةَ فهى شِفَاءٌ لِمَـا فى الصُّدُور ؛ والوصايا كثيره ، والله تعالىٰ يجعلك علىٰ بَصيره ، ويتولَّاك بمـا فيه حُسْنُ السِّـيره ، وصَلَاحُ السريره ؛ والاْعتماد ... ...

✦

وهــذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دِمَشْقَ المحروسة ، كُتِبَ بهـا لحُسَام الدين «لاچين الإبراهيمىّ» من إنشاء الشريف شِهَابِ الدين، رحمه الله، وهى :

الحمد لله الذى صانــ الحُصُونَ بانْتِضَاء الحُسَام، وزَانَ المُلْكَ بارتضاء ذَوِى اليَقَظَةِ من الأوليــاء والاْهتمام ، وأبَانَ ســبيلَ السَّعادة لمن أحْسَنَ بفروض الطاعة وأجْمَلَ القيام .

نحمده علىٰ أن جعل نِعَمَنا لأصفيائنا وَافِرةَ الأقسام، ونَشكره علىٰ أن أقبــل عليهم بأَوْجُهِ إقبالنـا الوِسَام ، ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهــادةً لعُقُودِ إخلاصها آنتظام ، ولسعود آختصاصها آلتئام ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى مَنَحَه الإجْلَالَ والإعظام، ومَدَحَه بالإفضالِ والإكرام، ورَجَّحه بمزايا الفضل علىٰ جميع الأنام ، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصحبه بُدُورِ التمــام ، ورَضِىَ عن أصحابه الذين لهم صِدْقُ الاْعتزام ، صلاةً ورضْواناً لهما تجديدٌ ومزيدٌ وتأبيدٌ ودوام ؛ وســلم تسليما كثيرا .

وبعــد : فإن آلاءَنا لا تزال تَخْتَــارُ الأكفاء، وآرَاءَنا لا تَبْرَحُ تمنحُ ذَوِى المناصحة الإصفاء، ونَعْمَاءَنا تُدِيمُ للملابس إجلالها علىٰ أولِى الخِــدَم الإفاضةَ والإضْفَاء ، وتَفِى بوُعُود جودها لمن أدام لمناهج المُخَالصة الاْقتفاء .

ولما كان فلانٌ هو الذى عُرِفَتْ له فى مُهِمَّاتنا خِدَمٌ سالفه، وأُلِفَتْ منه هِمَّةٌ عَلِيَّةٌ خَصَّتْه بكلِّ عارِفَه، وخَوَّلْناه نِعَمنا الوَاكِفه، وأهَّلْناه لاستحفاظ الحصون فساعده تَوَفُّر التوفيق وسَاعَفَه، ونقَّلْناه فى الممالك فسار سيرةً حميدةً اقتضت لمَوَاهِبنا لَدَيْه المضاعفه ــ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نَرْفَع محلَّه بأعزِّ القِلاع، ونُطْلِعه بأفُقِ سعدها أيْمَن إطلاع، ونَنْدُبَه لضَبْطها فيَحْسُنُ له فيها الاستقرارُ ويُحْمَدُ منها له الاستيداع .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زالت صدقاتُه تُحَقِّقُ الأطماع، وهِبَاتُه تُفِيضُ ملابِسَها التى ليس لها انْتِزاع ــ أن يستقرَّ فى نيابة قلعة دمَشْق ... .

فليباشر النيابة بالقلعة المذكورة باذِلًا الاجتهاد، مُوَاصِلًا للعَزْم والسَّداد، عامِلًا بالحَزْم فى كلِّ إصْدارٍ وإيراد، كافِلًا منها بحسن الاعتماد، حافظًا حَوَاصِلَها من الضَّياع، مقرِّرا أحوالَها علىٰ أجمل الأوضاع، ولْيَأْخُذْ رجالَها بالائتلاف على الخدمة والاجتماع، ولْيُحَرِّضْهم على المبادرة إلى المراسيم والإسراع، ولْيُطالِعْ من أمورها بما يتعين عليه لأبوابنا العالية فيه المطالعة ويَجِبُ لعلومنا الشريفة عليه الاطِّلاع، وليراجِعْ كافل الممالك الشامية بما جَعَلْنا لآرائه فيه الإرجاع، وليَكُنْ له إلىٰ إشارته إصْغاءٌ واستماع، وإلىٰ سبيل هَدْيه اقْتِفاءٌ واتِّباع، ولْيَقِفْ عند ما يَتَقَدَّمُ به إليه فبذٰلك يحصل له الرُّشْد والانتفاع، والله تعالىٰ يجدِّدُ عليه سَوَابِغَ نِعَمِنا التى جادت بأجْناسٍ وأنواع، ويجرِّدُ فى نُصْرَتِنا حُسَامَه الذى من بأسه الأعداءُ تَرْهَبُ وتَرْتَاع، ويديمُ له ولجميع الأولياء من صَدَقَات دَوْلَتِنا الشريفة الإمتاع، والخط الشريف اعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه وصية نائب قلعة أوردها فى "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التى زُفَّتْ إليه عقيلتها المُمَنَّعه، وجليَتْ عليه سافرة ودُونَها السماء بالسُّحُب مُقَنَّعه، وسُلِّمت إليه مَفَاتِيحُها، وخواتيم الثُّرَيَّا أقفال، وأُوقِدَتْ له مَصَابِيحُها، وفَتَائِل[1] البروق لا تُشَبُّ لقَفَّال . فليبدأ بعمارة ما دَعَت الحاجة إليه من تجديد أبنيتها ، وتشييد أَقْبِيَتِها ، وشدّ عقُودها ، وعدِّ ما لا يحصىٰ [فى النخائر[2]] من نُقُودها ، [وتنبيه أعيُنِ رجالها والكواكبُ قد هَمَّتْ برُقُودها[2]] ، والأخذ بقلوب من فيها ، وتَدَارُك بقية ذَمائهم وتَلَافِيها ، وجَمْعِهم على الطاعه . وبَذْرِ الإحسان فيهم إذا عَرَف أرضًا تزكو فيها الزراعه، والتَّنادِى لهم : فرُبَّ رجال تجزىٰ عن عِدَّةِ سنين فى سَاعَه ، وتَحصِينِ هذا الحصْن المنيع بما يفتخر فى حواصله ، ويُسْتَمَدُّ بعمارة البلاد المختصة به من وَاصِله ؛ وما يكون به من المجانيق التى لا تُرْقَىٰ عقَارِبُها ، ولا تُوقَىٰ منها أقاربها ؛ ولا تُرَدُّ لها مَضَارِب ، ولا يُكَفُّ من زُبَانَى زَبَانِيَتِها كلُّ ضارب ؛ ولا يُخْطِئ سَهْمُها ، ولا يَخْفَىٰ بين النجوم نَجْمُها ؛ ولا يُعرَف ما فى صُنْدُوقها [المقفل] ، من البلاء المُرْسَل ، ولا ما فى خَفْنها المُشَمِّرِ السَّاقِ من النشاط الذى لا يكسل ؛ وغيرها من الزيارات التى فى غيرها لا تُشَد ، ولسوَى خَيْرِها لا تُعقَد ؛ وما يُرْمَىٰ فيها من السهام التى تَشُقُّ قلبَ الصَّخر ، وتُبْكِى خَنْسَاءَ كلِّ فاقدة علىٰ صخر ؛ وكذلك قِسىُّ اليد التى لا يَدَ بها ولا قِبَل ، وكنائنُ السِّهام التى كم أصبح رَجُلٌ وبه منها مِثْلُ الجبل ؛ وما يُصَان من اللَّبوس[3] ، ويعدّ للنعيم والبُوسِ ؛ وما يمدّ من الستائر التى

---

(١) الذى فى "التعريف" «وقناديل» .

(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .

(٣) فى "التعريف" «من العدد والعدد والبوس» .

هى أسوارُ الأسوار ، ولمَعَاصِم عقائِل المَعَاقِلِ منها حِلْيٌ سوى كلِّ سِوار ؛ وهى التى تُلَاثُ لُثُمها علىٰ مَبَاسِم الشُّرُفَات ، وتُضْرَبُ حُجُبُها علىٰ أعالى الغُرُفات ؛ وسوىٰ هـذا مما تعتصِم به شوامخُ القِلال ، ويُتَبَوَّأ به مَقَاعِد للقتال ؛ فكُلُّ هذا حَصِّله وحَصِّنْه ، وآحْسبه وحَسِّنْه ؛ وأَعِدَّ منه فى الأمْنِ لأوقات الشدائد ، وآجْرِ فيه علىٰ شأْوِ مَنْ تقدّم وزِدْ فى العَوَائد ؛ وهكذا مايُدَّخَر من عُدَد أرباب الصنائع ، ومَدَد التحصين المعروف بكثرة التَّجَارِب فى الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يَزَال يُفَكَّر فى تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُنْ من هـذا مُسْتَكْثِرا ، وله علىٰ ما سواه مُؤْثِرًا ؛ حتّى لا تزالَ رِجَالُك مُطْمَئِنَّةَ الخَوَاطِر ، طيِّبة القلوب ماعليها إلا السُّحُب المَوَاطِر ؛ وآعمل بعادة القِلَاع فى غَلْق أبْوَابِ هذه القلعة وفتحها ، وتَفَقُّد متجدِّدات أحوالهـا فى مَسَاء كُلِّ ليلة وصُبْحها ؛ وإقامة الحَرَس ، وإدامة العَسَس ، والحِذَارَ ممَّن لعلَّه يكونُ قد تَسَوَّر أو آختَلَس ؛ وتعرَّف أخبارَ مَن جاورك من الأعداء حتى لاتزال علىٰ بصيره ، ولا تبرح تُعِدُّ لكلِّ أمرٍ مَصيرَه ؛ وأَقِم نُوَبَ الحَمَام التى قد لاتَجِد فى بَعْضِ الأوقات سواه رَسُولا ، ولاتَجِدُ غيرَه مخبرًا ولاسواه مسْئُولا ؛ وطالِعْ أبوابنا العالية بالأخبار ، وسَارِعْ إلىٰ ما يَرِدُ عليك منها من آبْتِدَاءٍ وجَوَاب ؛ وصُبَّ فِكْرَكَ كُلَّه إليها وإلىٰ ماتتضمّنه من الصواب .

المرتبة الثـانيـــة

(من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف ـ ما يكتب فى قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولىٰ ــ شَـدُّ الدواوينِ بدمَشْق . وصاحبُـها يتحدّث فيا يتحدّث فيه شادّ الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشدّ الدّواوين بدمشق :

الحمـد لله الذى أرهف لمصالح دولتنا القاهرة من الأولياء ، سيفًا ماضيا ، وجرّد لمهمّات خدمتنا الشريفة من الأصفياء، عضبًا يغدو الملك عن تصرّفه الجميل راضيا ، وجدّد السّعود فى أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج همّه فى عمارة البلاد المحروسـة متقاضيا .

نحمده على نعمه التى تستغرق المحامد ، وتستوجب الشّكر المستأنف على الحامد ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مجاهد لأعدائها، مجاهر لإعلائها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدرا، وأولهم فى الرتبة مكانةً وإن كان آخرهم عصرا؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بما أمروا، وعمّروا الدّين قبل الدنيا فلم تمكن الأيّام من [نقض] ما عمّروا ؛ صـلاةً يتأرّج نشرها ، ويتبلّج بشرها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإن أولى من علق به من مهماتنا الشريفة أعمّها نفعا، وأحسنها فى عمارة البلاد وقعا ، وأكثرها لخزائن الأموال تحصيلًا وجمعا ؛ وأجمعها لمصالح الأعمـال، وأضـبطها لحواصل الممالك التى إذا أعدّ منها جبالًا تلا عليها لسانُ الإنفاق : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَـالِ ﴾ من زانت عزمه نزاهته، وكمّلت قوّته فى الحقّ خبرته ونباهته ؛ وكان من أولياء دولتنا المعدّين لشدّ أركانهـا، وإشادة بنيانها ؛ والنّهوض بمصالحها المتنوّعه ، ونشر كلمة عدلها التى تغدو بالأدعية الصالحة مبسوطةً وبالأثنية العاطرة متضوّعه .

ولمـا كان فلان هو الذى أشير إلى محاسـنه ، ونبّه على إبريز فضـله المظهر من معادنه ؛ مع صرامة تخيف الليوث ، ونزاهة تعين على عمارة البلاد الغيوث ؛ وخبرة بإظهار المصالح الخفية وفيّـه، وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجليّة مليّـه ؛

ومَعْرِفَةٍ تَعُمُّ البلادَ بين الرغبة والرهبه، وتجعل مَثَل ما يُودَعُ فيها بالبركة والنماء مَثَل حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّة ـ اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُنَبِّهَ علىٰ حسن اعتنائنا بأمره، واعتمادنا بما قدّمه من أسباب إسناء رُتبته ورفْعة قَدْره؛ فلذلك، رسم ـ زاد الله فى علائه ـ أن يفوض إليه ... ...

فليباشِرْ ذلك مُظْهِرًا من مصالح الدولة القاهرة ما كان فى ضَمِير كفَايَتِه مَكْنُونا، مُبْرِزًا من تثمير الأموال وتَعْمِير الأعمـال ما يُحَقَّقُ به: من خِصْبِ البلاد بمشيئة الله تعالىٰ ما كان مظنونا؛ مُوَالِيًـا إلى الخزائن المعمورة من حُمُول تدبيره ما يُمْسِى به طَائِرُ تَصَرُّفه ميمونا، وسبَبُ توقفه مأمونا. ولْيَكُنِ النَّظَرُ فى عِمَـارَةِ البلاد هو المهمُّ المقدّمَ لَدَيْه، والأمْرَ الذى يتعـينُ تَوَفُّرُ اهتمامه عَلَيْه، فَلْيَجْتَهِدْ فى ذلك اجتهادًا يَظْهَرُ أثَرُه، ويُجْتَنىٰ ثَمَرُه، ويُحْمَـد وِرْدُه وصَدَرُه؛ وتتفرّعُ عنـه أنواعُ المصالح، وتَتَرَتَّبُ عليه أسبابُ المَنَاجِح؛ ومِلَاكُ ذلك بَسْطُ المَعْدَلَة التى هى خيرٌ للبلاد من أن تُمْطَرَ أربعينَ يوما، واعتمادُ الرِّفْقِ الذى لا يَضُرُّ معـه البأسُ قوما، ولا يجلُبُ علىٰ فاعله مع الحزم لَوْما، ولا يَطْرُدُ عمنْ أنَامَه العَـدْلُ فى مِهَادِ الدَّعَة نَوْما؛ ولْيَصْرِفْ إلى اسْتِجْلَابِ الأموال ومُوَالَاة حَمْلِها هِمَّةً ناهِضَه، وعَزْمَةً إلىٰ ما قَرُب وتَأَىٰ من المصالح رَاكِضَه، وقُوّةً بأسـباب الحَزْمِ آخِذَةً وعلىٰ أعِنَّـةِ التدبير قَابِضَـه؛ وفيما خَبَرْنَاه من عزائمه المشكوره، وسيرتِه التى ما بَرِحَتْ بين أولياء دولتنا القاهرة مَشْهوره، ما يُكْتَفَىٰ به عن الوصايا المُؤَكَّدَه، ويُوثَقُ به فيما عُدِقَ به من الأمور المسدَّده؛ لكنْ تقوى الله تعالىٰ أوْلَى الوَصايا وأوّلُهـا، وأحقُّ ما تُلِيَتْ عليه تَفَاصيلُها وجُمَلُها؛ فَلْيُقَدِّمْ تقوى الله بين يديه، وليجعلْهـا العُمْدَةَ فيما اعتُمِدَ فيـه عليه؛ بعـد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه . .

الوظيفة الثانية — شدّ المهمّات . وصاحبها يتحدّث فيما يُطْلَب للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ عادته أن يكون مقدّم ألف .

وهذه نسخة توقيع بشدّ المهمات بدمشق ، وهى :

الحمد لله الذى شدّ عُرَا المَصالح من الأولياء بكل ذى أَيْد، وكُلّ مَن هو فى المهمات أبطشُ بعَمْرٍو من زَيْد ، ومن له تدبيرٌ كم أغنى باقتناصه لشوارد الأمور عن حِبالة صَيْد .

[وبعد](1) فإن أحق من آستُخْلِص لآستخلاص الأموال ، وآختير لصَوْنها من الآختزال وحِفْظها من الآختلال، وأُهّل قَلَمُه وكَلِمُه : هذا للتمثيل وهذا للامتثال ؛ وفُوّض إليه التّصرّف فى الترغيب والترهيب، والآجتهادُ فى التّمييز والتّحرير والتّوفير إذ كلُّ مجتهِدٍ مُصيب — من اشتهر بأنه ذُو حَزْم لا يَنِى، وعَزْم عن المصالح لا ينْثَنِى، وآحتفالٍ بالأحوال التى منها نُكْرٌ لمن يجْنِى وشُكْرٌ لمن يجْتَنِى ؛ وله نَباهَةٌ يدرِكُ بها كلّ إيهامٍ وكلّ إبهام، ويطَّلِع [بها] على فَلَتات ألسِنَة الأقلام، ويفهمُ بها مقاصدَ كُلّ من هو من الجِنّة فى كل وَادٍ يَهِيم، ولا يخفى عليه جَرائرُ الجَرائد ولا مَخازِى المَخازيم؛ وفيه رحْمةٌ كم أصْبَحَ بها وهو الأتْقَى، ولم يأت قَساوةً يكون بها هو المُنْبَتّ الذى لا أرْضًا قطَع ولا ظَهْرًا أبْقَى؛ وكم ساس الأمورَ ودبّرها فأحسنَ فيها السياسةَ وأجْمَل التدبير، وآستخرج [الشّىءَ الكثير] بالتخويف اليسير؛ حتّى جمع حُسْنَ تدْبيرٍ وآستثْراء، وصنع حَسَنًا وأحْسَنَ صُنْعا .

---

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

ولما كان فلان هو لهذا الأمرِ الجَليلِ المُسْتَرْعَىٰ، واسْمُهُ فى أوّل مَدَارِجِ التَّنْوِيهِ والتَّنْوِيل خَيْرُ مُسْتَدْعَىٰ؛ وفيه من جميل الأوصاف ما يُرضى حسن الاقتراح وقد خَبَرَ أمور الكَتَبَه ، وقد عَلِمَ من أحوالهم ما هو أحْرَىٰ لهم بالتَّجْرِبه ؛ وعَرَفَ خَفَايا المعاملات معرفةً تامَّه ، وأحاط بجزئيات الجهات وكُلِّيَّاتها إحاطَةً خاصَّة وعامّه ـ اقتضىٰ حُسْنُ الرَّأْىِ المُنِيف ، أن رسم بالأمر الشريف ـ لا بَرِحَ يَشُدُّ عَضُدَ كلِّ مُهتَمٍّ من الأولياء بِأَخِى كل عَزْم، ويجعلُ له سلطانًا لا يَكِلُ مصلحةً إلىٰ حزمِ ذى حزم ـ أن يفوّض إليه شدّ المهمات بالشامِ المحروس .

فَلْيَضْبِطِ الأمورَ ضَبْطًا مُسْتَوْعِبا ، ولْيَنْتَصِبْ لذلك انْتِصاباً مُتَرَتِّبا؛ ولْيَحْتَرِزْ مُنَفِّذًا ومُصَرِّفا ، ومُسْرِعا ومُسْتَوقِفا؛ ومَتَىٰ ظهر حَقٌّ يتمسكُ به تَمَسُّكَ الغَرِيم ، ولا يُحَابِ فيه ذَا بَأْسٍ قَوِيٌّ ولا ذَا مَنْهَجٍ إلى المَنْع والدَّفْع غيرِ قَوِيم؛ وما مِنْ جِهَة إلا ولها شروطٌ صَوْبَ الصَّوَاب، ولا يعتمدْ علىٰ غَيْرِ الحقِّ منكِّبًا عن تَرْوِيج الكُتَّاب؛ ولْتَكُنِ الحمولُ مُسَيَّره ، والمتحرِّجات مُتَوَفِّره؛ وجهات الخاص مقرّرة، إذ الضُّمَّانُ لا يُنْتَظَرُ لهم نَظِرَةٌ إلىٰ مَيْسَرَه؛ فإنهم سُوسُ المعاملات، وكَوَاسِرُ الجهات؛ ومنهم يُحْفظ أو يُضَاع ، وبهم يَتَرَقَّى أو يَنْحَطُّ الارتفاع ؛ وجِهَاتُ المُقْطَعِينَ الواجبُ له أن يجعل عليها وَاقِيَةً بَاقِيه، ولْتُحْمَ لهم حَتَّىٰ لا يتطاول إلىٰ ذِرْوَتِها امتدادُ الأيدى المُخْتَرِلَة ولا خُطَا العُدْوان الرَّاقِيه؛ ولْيَصْرِفْ وجْهَهُ بحفظه إلىٰ مراقبة من فى باب الشَّدِّ من مُقَدَّمِين ومن رُسُلٍ يأكلون أموال الناس بالبَاطِل، ويَبِيعُون الآجِلَ بالعَاجِل؛ ويُخِيفُونَ العامَّ والخاص، وكل منهم يروم الغِنَاءَ وهو رَقَّاص .

هـذه زُبْدَةٌ من الوصايا مُقْنِعه ، وعَزَمَاتٌ غَنِيَّة عن تكثيرٍ فى القَوْلِ أو تَوْسعَه؛ والله تعالىٰ يكونُ له ويُعِينُه، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الثـانى

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينيـة ، وجميع ما يكتب
فيهـا تواقيـع ، وهى على مرتبتين)

المرتبـــة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» بالياء» مفتتحا بـ«الحمد لله»)

وبذلك يكتب للقضاة الأربعة بحاضرة دمشق .

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعيـة بدمشق المحروسة ، كتب به لقاضى القضاة «بهاء الدين أبى البقاء السبكى» وهى :

الحمد لله الذى أقرّ أحكام الشّرع الشريف ، فى أيامنا الزاهرة على أكمل القواعد ، وأمرّ مدار الحكم المنيف ، فى دولتنا القاهرة على أجمـل العوائد ؛ وأمضى فصـل القضاء فى ممـالكنا الشامية بيـد إمام غنيت فضائله عن الشواهد ، وأمّته الأئمـة لاقتباس الفوائد ؛ وعقدت أحكام الملّة منه بمجاهر فى الحق مجاهد ، مسدّد فى الدّين سهم اجتهاد رمى به شاكلة الصّواب عن أثبت يد وأشد ساعد .

نحمده على نعمه التى حلّت مناصب الدين فى ممـالكنا الشريفة بأكفائها ، وعلّت رتب العـلم فى دولتنا القاهرة باستقرار من جعلته فضـائله غاية اختيارها ونهاية اصطفائها ، ودلّت على اعتنائنا بتنفيذ أحكام من أتعبت سيرته الجميلة من سهد فى اتباعها وجهد فى اقتفائهـا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال أعلامنا بهـا تنتصر ، وأيامنا على الجهـاد لتكون كلمتها هى العليا تقتصر ، وأقلامنا لنشر دعوتها فى الآفاق تسهب ولا توجز وتطنب ولا تختصر ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من قضت أمته بالحق فعدلت ، ونقلت عنه أحكام ملته

فَفَاقَتْ بذلك الأُمَمَ وفَضَلَتْ ، وحَكَمَتْ بما أَراهَا اللهُ من شِرْعَتِه فما مَالَتْ عن سَنَنِه القويم ولا عَدَلَتْ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين أَسْلَمُوا لله فَسَلِمُوا ، وعَمِلُوا فى دينِ اللهِ بما عَلِمُوا ، وبَذَلُوا النفوس فى طاعته فما ٱسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهم فى سَبِيلِ اللهِ وَلَا أَلِمُوا ، صلاةً نؤدّى بها من أمر الله المُفْتَرَض ، ونُرْغِمُ بإقامتها الذين فى قلوبهم مَرَض ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإن أَوْلىٰ من تَنَقَّل فى رُتَبِه السَّنِيَّه ، ووُطِّدَتْ له بمِصْر والشَّامِ قواعدُ سيرته السَّرِيَّه ، وأَطْلَقَتْ جِيَادُ البَرَاعَةِ فى إمضاء حكمه فى المملكتين مَثَانِىَ أَعِنَّتِها ، وأنطقتْ صِعَادُ البَرَاعَةِ فى إعلاء بهائه فيهما [أَلسنةَ] أَسِنَّتِها ، وأَرَدْنَا أن نَرُدَّه إلىٰ أَعَزِّ الممالك علَينا لِتَقَرَّ عَيْنُها ، وَقصدْنَا أن نُعِيدَه إلىٰ رُتْبَتِه بها لِنُوَفِّىَ باستعادته دَيْنَها ، وٱخترنا أن نجدّد لهذه الوظيفة سَالِفَ عَهْده ، وأن نُرِيَه ٱعتناءنا بأمرِ مَنْصِبِه الذى لم يَلِهِ مِثْلُه من الأَئِمَّةِ من بعده ، وعلمنا أنّ الديارَ المِصْرِيةَ قد ٱختصت بفضائله زمنًا طويلا ، وأَن البلادَ الشَّامِيَّةَ قد أَلِفت من أحكامه ما لم تُرِدْ به بَدِيلا — من ظَهَرَتْ فضائلُه ظُهُورَ نَعْتِه ، وتَهَادَتْ فَوَائدَه رِفَاقُ الآفَاقِ : من علماء زمانه وأَئمة وقته ، وعُلِمَتْ أوصافُ الصُّدُورِ الأُوَلِ من عِلْمِه ووَرَعِه وسَمْتِه ، ونَشَرَتِ الأيامُ من عُلُومه ما لم يُطْوَ بل تُطْوَى إليه المراحل ، ونَقَلَتِ الأقلامُ من فُنُونه ما يُرْوَى فَيَرْوَى به السَّمْع الظَّامِى ويُخْصِبُ به الفِكْرُ المَاحِل ، وأَلِفَتِ الأَقاليمُ من حُكْمِه ما غَدَتْ به بين مسرورٍ بإشْرَاقِه ، ومُرَوَّعٍ بفِرَاقِه ، فمِنْ أَقْضِيَةٍ مُسَدَّدَه ، وأحكامٍ مُؤَيَّدَه ، وأقوالٍ مُنَزَّهَةٍ عن الهَوَىٰ ، وأحوالٍ صادرةٍ عن زَهَادَةٍ مُحْكَمَةِ القواعد ونزاهةٍ مُجْتَمِعَةِ القُوَىٰ ، وإِصَابَةٍ دالَّةٍ علىٰ ما وراءها من عِلْمٍ ووَرَع ، وإجابةٍ فى الحقّ تَحْيَا بها السُّنَنُ وتَمُوتُ البِدَع ، وشِدَّةٍ فى الدِّينِ تَصْدَعُ فى كل حُكْم بالحقّ وإن صَدَع ، وعَدْلٍ لا يُسْتَنْزَلُ

جَانبُه ، وحَزْمٍ لايُستَزَلُّ صَاحبُه ، ولايُسْتَنْزَلُ رَاكِبُه ؛ وقُوَّةٍ فى الحقِّ تمنع المُبْطِلَ من الإقدام عليـه ، ولِينٍ فى الله يُفْسِحُ للحقِّ مَجَالَ القَوْلِ بين يديه ؛ ومَجَالسَ غَدَتْ بالعِلْمِ طَيِّبَةَ الأَرَجِ ، وفَضَائِلَ يُحَدِّثُ فيهـا عن موادّ فكره عَن البَحْرِ ولَا حَرَج ، وبَدائِـعَ تُضْرَبُ إلىٰ ٱستماعها أَكْبَادُ الإِبِل ، وبَدَاية تَهْرَمُ الأيامُ وعُمْرِ شَبَابِها مُقْتَبِل .

ولمـا كان المجلس العالىّ ــ أدام الله نعْمَتَه ــ هو الذى ورَدَ علىٰ أبوابِنَا العالية ونُورُ وَلَائه يسعىٰ بين يَدَيْه ، وصَدَرَ الآنَ عَنْها وحُلَلُ آلائنَا تَضْفُو عَلَيْه ؛ وأقام فى خدْمتنا الشريفة مَعْدُودًا فى أكرمِ مَنْ بها قَطَن ، وعَادَ إلىٰ الشّام مجموعًا له بين مُضَاعفَةِ النِّعَم والعَوْدِ إلىٰ الوَطَن . وهو الذى تختال به المَنَاقب ، وتَخْتَار فَضْلَه العواقب ؛ ويُشْرِقُ قلمُــه بالفَتَاوىٰ إشراق النّهَـار ، وتُغْدِقُ مَنَافعُه إغْدَاقَ السُّحُب بالأَمْطَار ، وتُحْدِقُ الطَّلَبَـةُ به إِحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَالَات بالأَقْمَـار ؛ وهو شَافِي عِيِّ كُلِّ شَافِعِيّ ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِيّ ؛ طَالَمَـا جَانَبَ جَنْبُه المَضَاجعَ سُهَادا ، وقَطَعَ اللَّيْـلَ ثم ٱستمدّه لمَدَدِ فَتَاوِيه مِدَادا ؛ وجمع بين المَذْهَبَيْنِ نظرا وتقليدا ، والمُذْهَبَيْنِ من القَوْلَيْن قديما وجديدا ؛ وسَلَكَ جميعَ الطُّرُق إلىٰ مَذْهَبِ إمَامِه ، ومَلَكَ حِسَانَها فأسْفَرَ له كُلُّ وَجْهٍ تغطَّى منْ أوراق الكُتُب بِلِثَامِه ؛ وٱنفتحت بفَهْـمه للتصانيف أبوابٌ شَـغَلَت «القَفَّالَ» أقفالُها ، وتَفَتَّحتْ [له] نَفَحَاتٌ ما «للماوَرْدِيّ» مِثَالُها ، ومَنَحَت حُلَلًا يَفْخَرُ «الغَزَالِيّ» إذا نُسِجَ علىٰ مِنْوَالِه سِرْبَالُها ؛ فلو أدركه «الرَّافِعِيُّ» لشَرْحِ "الوَجِيز" من لفظه ، وأمْلىٰ أحكامَ المَذَاهب من حِفْظِه ؛ وصَـدَّر المسـائل بأقواله ، وأَعَدَّ لكُلِّ سُؤَالٍ وَارِدٍ حُجَّةً من بَحْثِه وبُرهانًا من جِدَاله ؛ فلَه فى العِـلْمِ المَرْتَقىٰ الَّذى لا يُدْرَك ، والمنتَهىٰ الذى لا يُنَـازَعُ فى تَفَرُّده ولا يُشْرَك ، والغَايَةُ التى أحرزها دون غيره فلولا المشقةُ لم تُتْرَك ؛ وهو الذى ما زال بهذه الرتبة مَلِيًا ، وبمـا عُلِّق بذِمَّته من أحكامها

وَفيًا، وبكلّ ما يُرْضِى الخليقةَ عنه من أحوالها قائما وكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، وبأعبائها مُسْتَقِلًّا من حينَ منحه الله العلم نَاشِئًا وآتاهُ الحُكْمَ صَبِيًّا . وما بَرِحَ تدعوه التَّقوىٰ فيُجيبُها، ويترك ما لا يُرِيبُ نفسه تنزيهًا عمّا يُرِيبُها، فكَمْ فَجَّرَ بالبِلَاد الشّاميَّة من عِلْمه عُيُونا ، وغَرَسَ بها من أفنَانِ فَضْله فُنُونا ؛ وكان لها خيرَ جَارٍ ترك لهـا ماسوَاها ، وأكْرَمَ نَزِيل نَوىٰ بالوصول إليها مَصْلَحَةَ دِينـه فلم يُضَيِّع الله له نِيَّتـه التى نوَاهَا ؛ وألِفَ قوَاعِدَ أهلِهَا وعوَائدَهم ، وعَرَفَ بحُسْنِ اطلاعه ما جبـل الله عليـه غَائِبَهم وشَاهِدَهُم ؛ وعَدُّوهُ من النِّعَم المقبـلة عليهم ، واقتَـدَوْا فى محبَّتِه بالذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؛ ثم قَدِمَ إلى الدِّيار المصرية وما كان قُدُومُه إلا علينا، ووَفَدَ إليها بحُسْنِ مَوَدَّته ومحبته اللَّتَيْن ماوفَدَ بهـما إلا إلينا ؛ فرأينـا منه إمَامًا لا يُحَكِّمُ فى توليته الحكمَ بالهوىٰ، ولا يَنْوِى فى تقليده القضاءَ غيرَ مصلحةِ المسلمينَ « ولِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » ؛ وهو ــ بحمد الله ــ لم يَزَلْ بقواعد هذا المَنْصِبِ خبيرا، وبعوائد هـذه الرتبة بَصِـيرًا ، وبإجرائهـا علىٰ أكمل السُّنَنِ وأوضح السَّنَنِ جَديرا ، وبإمضاء حُكْمِ الله الذى يُحَقِّقُ إيجـادُ الحقِّ فيه للأمة أنَّه من عند الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ؛ مع ماتكلت به فضائلُه من الوقوف مع الحَقِّ المُبِين، والتَّحلِّى بالوَرَع المَتِين ، والتَّخلِّى للعبادة التى أصبح مَنِ اتصف بها مع النَّبِيِّين والصِّدِّيقِينَ والشُّهداء والصَّالِحِين .

فلذلك رسم بالأمر الشريف الأشْرَفِىّ النَّاصِرىّ ــ لازال عَلَمُ العِلْم فى أيامه مرفوعا، وَأَلَمُ الجَهْلِ بما خص الله به دولته من الأئمة الأعلام مدفوعا ــ أن يفوّض إلىٰ المشار إليه قَضَاءُ القضاة الشافعيَّة، ونظرُ الأوقاف بدمشق المحروسة وأعمالها بالبلاد الشامية، وما هو مضاف إلىٰ ذلك من الصدقات والتَّدَارِيس والتصدير وغير ذلك، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذلك وقَاعِدَتِه ومعلومه .

فليقابل هذا التقليدَ السعيدَ بيَدٍ زيدَ في الحقِّ تمكّنُها، وعلى الخير تمرّنها؛ وفي العدل آنبساطُها، وفي احكام الله تعالىٰ بحسن المعاضدة على الحقّ قوّتُها وآحتياطُها؛ وليَمض علىٰ ما أُلِف من سيرتِه التي زان العلمُ أوصافَها، وزان الورعُ آتّصافَها؛ وحلّى العدلُ مَفاخرَها، وأحيا التُّقىٰ مآثرَها؛ وتناقلت رِفاقُ الآفاق أحكامَها، وآستصحبتْ من هدايا هُداها ما تُحِفُ به حُكّامها، وفيما نُعِتَ من محاسِنه ما يُغني عن الوصايا المجدَّده، والإشارات المردَّده؛ لكن الذكرىٰ بتقوى الله تنفع المؤمنين، وترفع المُتّقين، وتجمع مصالح الدنيا والدين؛ فليجعلْها خُلقَه ما استطاع، وليَرَ حُكمَها هو الحُكمَ المتبعَ وأمرَها هو الأمرَ المُطَاع؛ والاعتماد ... ... رابع عشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

قلتُ : ولم أقف علىٰ تفويض لقاضٍ من كتابة من تقدّم سوىٰ تفويض واحد، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، كتبه لقاضي القضاة «شهاب الدين بن المجد عبد الله» بالشام المحروس، علىٰ مذهب الإمام الشافعيّ. وهذه نسخته :

الحمد لله على التّمسّك بشرائعه، والتّنسّك بذرائعه، والتّوسّل إلى الله بتأييد أحكام شارعه، والتوصل به إلىٰ دينٍ يُقطَع به من الباطل أعناقُ مَطَامعه .

نحمده حمدًا يأخذ من الخير بمجامعه، ويُضاهي الغمامَ في عموم منافعه، ويُباهي السيف بقلم الشرع في قهر عاصيه وحماية طائعه . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤدّي للإيمان أمانةَ ودائعه، وتَهْدي إلىٰ صيانة مشارعه، وتقيم من العلماء كلَّ شهابٍ تُقسِم الأنوارُ بلوامعه، وتُقسِم الأبصارُ ببدائعه، وتجولُ الفتاوىٰ في صدره الفسيح وتَجُولُ في شوارعه، وتُرهِف منهم للحكم العزيز كلَّ قلمٍ يَدُلُّ السهمَ علىٰ مواقعه، ويُنبّه الرمح من مقاتل الأعداء علىٰ مواضعه، ويَسْري

غَمَـامُه إلى الأعداء بصواعقه وإلىٰ الأولياء بهوَامعه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أسعد الأمة بطَالِعِه، وأصْعَدَ الأئمة فى مَطَالِعه، وأسْعَفَ المِلَّةَ بما أبقى الله فيها من حسن صنائعه ويُمْن طلائعه، ومن شَرِيعته التى أَمِنَ حَبْلُها الممدودُ من جذب قاطعه، وكُفِيَ شَرَّ قَاطِعِه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاة [تتوالىٰ إليه توالِيَ] العذب إلىٰ مَنَابِعِه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الله لَمَّا أقامنا لحماية شَرْعِه الشريف أنْ يُسْتَبَاحَ حِمَاه، أو يُبَاحَ لأحد من حُكَّامِه أن يركب هواه، أو يتعدَّى حُدُودَه فى سُخْطِه أو رِضَاه، أو يُحْدِث فى أمره ما ليس منه إلا أن يكون رَدًّا علىٰ سِوَاه - [جعلنا] نُجِدُّ علىٰ إقامة مناره أن يُطْمَس ؛ وإدامةَ مبَارِّه أنْ يُقْلَعَ مَنارُها أو يُبْخَس ؛ استدامةً لتأبيس حُكَّامه، وتأييد أحكامه ؛ لأنه سَحَائِبُ أنْوَاءٍ يعمُّ الربيعَ رُبُوعُها ، ومِشْكَاةُ أنوارٍ يُكَاثِرُ الصَّبَاحَ لُمُوعُها، وأَفَاوِيقُ وِفَاقٍ تُنيم به الأمّةَ ضروعُها، وشجرة مباركة إسلامية زَكَتْ أُصُولُها ونَمَتْ فُرُوعُها ؛ شُكْرًا لله علىٰ ما خَصَّنا به : من تحصينِ ممالك الإسلام، وتحسينِ مَسَالكِ دَارِ السلام ؛ لِتَمْنعَ المِحَنَ أن تُسَام، وبُرُوقَ الفِتَنِ أن تُشَام، ووُجُوهَ الفَتْوَىٰ أن تَتَزيَّنَ إلَّا بِشَامَةِ الشَّام ؛ غِبْطَةً بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خَيْرٌ وأَبْقىٰ ، وأشْرَفُ وأتْقىٰ ، وأعْظم بَلَدٍ تتشعَّبُ بالمذاهب طُرُقًا ، وتَوَدُّ المَجَرَّةُ لو وقفَتْ بها عَلىٰ الشريعة نَسَقا. تَتَزَاحَمُ فى مراكزها الأعلام، وتَتَضَافَرُ على الجهاد فى الله بالجلاد والجدال تَارةً بالسيوف وتَارَةً بالأقلام . ودِمَشْقُ حرسها الله هى أمّ ذلك الإقليم ، ومدَدُه الذى يَحْنُو علىٰ مشارعها حُنُوَّ الوالدةِ على الفَطِيم ، وتبهت بها فوائدُ لا تأمن معها الغوانى حَتَّى تَلْمُسَ «جانب العِقْدالنَّظِيم» ؛ وهى دَارُ العِلْم ، ومَدَارُ الحُكْم ، ومَوْطِنُ علماءَ تتعاقب

فيها كواكبهم ، وتتناوب سحائبهم ؛ وتتناهى إلى حكمها العزيز الشكوى، وتنفصل بحكم حاكمها الدعوى، ويمتدّ جناح طيلسانه على رضوى ، ويحلّق البرق وراء فهمه ولا يبلغ غايته القصوى، ويطول قلمه على السيف المشهر، ويرفرف سجلّه على الشرع المطهّر؛ كم حلّت فى صدوره صدور، وكم طلعت منهم شموس وبدور ، وكم حمدت منهم أمور عاقبة ولله عاقبة الأمور ؛ كم أدّاء درس بهم ذكر ، وكم أدب نفس شكر ؛ كم بهم مجد رسخ ، وجدّ للملّة مما لاة نسخ ؛ كم أقضية لهم بالحق وصلت ، وقضية للحق فصلت ، ومهنة من غلبهم اللاحق حصلت ؛ كم سجلّ صاحب هذا المنصب حامل علمه المنشور، ومصباح ديمه الحافلة على ممرّ الدهور ؛ بشرف مدرّس علم يطلع من محرابه، ونسّاك حلم يبدو بدره التمام خلف سحابه ؛ ومجلس إفادة، انعقد عليه فيه الإجماع، ومحفل سادة، كان فيهم واسطة عقد الاجتماع .

[ولما] تزلزلت قدم منابره، وانتهك حجاب ضمائره، واستزلّه الشيطان بكيده المتين ، وأضله على علمه المبين، وسبق القلم الشرعىّ، بما هو كائن، ومضى الحكم القطعىّ ، بما هو من تصرّفه بائن ــ تردّد الاختيار الشريف فيمن نحلّى جيده بتقليدها ، ونؤهل يراعه لتسليم مقاليدها، وصوّبنا صواب النظر فيها مصرًا وشاما ، واستشرفنا أعلاما ، وتيقّنا لأقوى ما يكون [لها] قواما ؛ وابتكرنا أنه لا يصلح إلا من كان لحلّة المجد طرازا ،ويزيد العمل إليه اعتزاء والعلم به اعتزازا ؛ إلى أن أجمع رأينا العالى على من لا ينكر ذو قدم ولا قدم ولا قلم ، أنه السابق ؛ ولا يجحد رب علم ولا عمل ولا علم ، أنه الباسق . ولا يشك أنّ من فوائده يستمدّ المطر ومن توقّد ذهنه يقدح زناد البارق، ولا يرتاب البحر أن فرائده ما يطوّق العنق ويشنّف الأذن ويتوّج المفارق ؛ ولا يمارى فى فضله الذى لو طلب له مثيل لم يصب ، ولو ادّعى الكوكب السارى أنه له شبيه لمسّه النصب ، أو تلفّتت أعناق القنا إلى قلمه لأيقنت أنها كلّ على القضب ؛

وهو الذى أفنى عُمْرَه فى تحصيل العلم آشتغالا ، وجدّ فى الطَّلَب لصالح العَمَل وإن تَغالَىٰ ؛ وبَقِىَ فقيهَ قَوْمٍ ماجدٌ منهم مِثْله مَاجد ، ولا جَادَتْ يَدُ كَرِيمٍ منهم تمتدّ بما هو جَائِدٌ ، ودَرَج أقْرَانُه إلى الله وخُلِّىَ دونهم شَرْعًا لا يردّ واردا ، وخُلِّفَ بعدهم سَهْمًا فى الكنانة وَاحدًا .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تأييده ـ هو الذى تختالُ به المَناقب ، وتختار فَضَائِلَه العواقب ؛ وتُشْرِقُ بقَلَمه الفَتَاوَىٰ إشراق النَّهار ، وتُغْدِق مَنَافعُه إغداق السُّحُب بالأمطار ، وتُحْدِقُ به الطَّلَبَةُ إحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَالَات بالأقمار ؛ وهو شَافِى عِىِّ كُلِّ شَافِعِىّ ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ ؛ طالما جَانَبَ جَنْبُه المضاجِعَ سُهادا ، وقَطَعَ الليلَ ثم آستمدّه لمد فتاويه مِدَادًا ؛ وجَمَع بين المذهبين نَظَرًا وتقليدا ، والمَذْهَبَيْنِ من القولين قَدِيمًا وجديدا ؛ وسلك جَميعَ الطرق إلىٰ مذهب إمامه ، وملك حِسَانَها فأسفر له [كل] وجه تَغَطَّى من أوراق الكتب بلثامه ؛ وآنفتحتْ [بفهمه] للتصانيف أبواب شَغَلَت « القَفَّالَ » أَقْفالُها ، ونَفَحَتْ له نَفَحات ما « لِلْمَاوَرْدِىّ » مِثَالُها ، وسفحت دِيَمٌ غِزَارٌ يسق «المزنى» سجالُها ، ومنحَتْ حللا يَفْخَر «الغزَالِى» إذا نُسِج علىٰ مِنْوَاله سربالُها .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زال يجدّد مَلَابِسَ فَضْله ، ويقلّدُ كُلَّ عَمَلٍ لصالح أَهله ـ أن يفوّض إليه قضاءُ قضاة الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجُنْدها وضَوَاحيها ، وسَائِر الممالك الشامية المُضَافَة إليها والمَنْسُوبة لها والمحسوبَة فيها ؛ يُوَلَّى ذلك وِلايةً صحيحةً شَرْعيه ؛ علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته المَرْعِيَّة ؛ مع ماهو مضاف إلىٰ من كان قبله من تدريس المدارس ، تَفْوِيضًا لا يُنَافِسُه فيه مُنَافس ، ولا يجالسه فى درسه إلا من ارتضىٰ من النجوم ان يجالس ؛ وأَذنًا له أن يَسْتَنِيبَ عنه من

لا يَخْجَلُ عند الله ولا عندنا باستِنَابَتِه، ولا يُدَاخِلُه ظَنٌّ فى خَلَاص ذمته بإنابته إلىٰ الله فى نيابته ؛ علىٰ أنَّه يتفقدُ أعْمالَهم ، ويتَصَفَّحُ أحْوالَهم : فمن نَقَلَ إليه ثِقَاتُه أنه علىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أقرَّه ، وإلا صَرَفَه ثم لايكون لَهُ إلىٰ عَمَلِه كَرَّه؛ وهو القائم بحُجَّة الشرع الشريف وحجةُ الله عليه قائمه ، وعليه إن قَصَّرَ ــ والعياذ بالله ــ فى أموره تَعُودُ اللائمه؛ وأنت تعلم أنَّا ما كُنَّا نعرفك عِيَانا ، وإنَّمـا وُصِفت لنا حتى كأنَّا نَرَاك وسَمِعْتَ بما نحن عليه حتىٰ كأنَّك تَرَانا؛ فَشَيِّدْ لمن شَيَّدَ لك شُكْرُهم أركانا ، وأعْلِ ذِكْرَهُم لِمَجْدِك بنيانا ، وجَعَلَ لك قَدْرُهُم الجميـلُ منَّا سلطانا؛ وأقِمْ بحُسْنِ سُلُوكِكَ علىٰ ماقالوا فيك بُرْهَانَا؛ واعْرِفْ لهم حَقَّ معروفهم وجَازِهِمْ عن حُسْنِ ظَنِّهم بالحسنات إحسانا .

ونحن نُوصِيك بِوَصَايَا تشهد لنـا يوم القيامة عَلَيك ببَلَاغِها ، ويَعْتَرِضُ منهـا فى الحُلُوق شَجًا : فأىُّ الرجال يَقْدِر علىٰ مَسَاغِها؛ فإن قُمْت بها كَانَ لَنـا ولك فى الأجر اشتراك ، وإنْ أضَعْتَ حقوقَها فالله يَعْلَمُ أننا أخرجنا هذه الأمَانَةَ من عُنُقِنَا وقلَّدْنَاك ، والله وملائكتُـه بيننا وبينك شهود علىٰ ماأوليناك وما وَلَّينـاك ؛ فعليك بتَقْوى الله فى السِّرِّ والإعلان ، والعَمَلِ بمـا تعلمه سَوَاءٌ رَضِيَ فُلَانٌ أو سَخِطَ فُلَان ؛ والانتهاء إلىٰ ما يقتضيه عُمُومُ المصالح ، وإمْضاء كل أمْرٍ علىٰ ماأمر الله به رسـولَه صلَّى اللهُ عليه وسَـلَّمَ وكان عليه السَّلَفُ الصَّالح ؛ وإقامَةِ حُدُودِ الله ولا تَتَعَدَّ حدودَه ، وقَمْعِ البِـدَعِ لإظهار الحق لا لإثارة فِتْنَةٍ مَقْصُودَه؛ فقد عَلِمْتَ ما أنكرتَه أنْتَ وأمْثَـالُك من الأئمة العلمـاء عَلىٰ من تَقَدَّمَك من تَسَرُّعِه فى مِثْـلِ ذَلك ، وتَطَلُّعه إلىٰ مَطَالِبَ سقط دُونَها فى مَهَاوِى المَهَالِك؛ فإيَّاكَ إيَّاكَ أن تَتَّبِـعَ فى هذا النَّحْوِ سُبُلَه ، أو «تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَه» .

والصدقات الحكمية على مادة المساكين، وحادة الشاكين، ففرقها على أهلها، وأجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها، ولا تبقي منها بقية تبقى معرضة لآكلها، فلو أراد واقفوها ـ رحمهم الله ـ أنها تبقى مخزونة، لما سمحوا ببذلها، وبقية الأوقاف شارف في أمورها، وشارك الواقفين ـ رحمهم الله ـ في أجورها، وخص الأسارى ـ أحسن الله خلاصهم ـ بما يصل به إحسانك إليهم، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم .

والأيتام ـ جبرهم الله ـ : منهم الطفل والمميز والمراهق ومن لم يملك رشده، أومن يحتاج أن يبلغ في جواز التصرف أشده، وكل هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضره ممن ينفعه ، ولكن الله يعرفه وفي أعماله يرفعه ؛ فاجتهد أن تكون فيهم أبا برا ، وأن تتخذ فيهم عند الله أجرا ، وأن تعامل في بنيك بمثل ما عاملتهم إذا انقلبت إلى الدار الأخرى، واحفظ أموالهم أن تنتهكها أجرة العمال، وترجع في قراضها إلى ما يجحف بربوس الأموال، ومثل أعمالك [المعروضة] على الله في صحائفها المعروضة، واحذر من المعاملة لهم إلا بفائدة ظاهرة ورهن مقبوضة .

والجهات الدينية هي بضاعة حفظك، ووداعة لحظك، فلا تول كل جهة إلا من هو جامع لشرطها، قائم بموازين قسطها .

والشهود هم شهداء الحق، وأمناء الخلق ؛ وعلى شهاداتهم تبنى الأحكام ، فإياك والبناء على غير أساس ثابت فإنه سريع الانهدام، ومنهم من يشهد في قيمة المثل ويتعين أن يكون من أهل البلد الأمثل، لأنه لا يعرف القيمة إلا من هو ذو سعة مول، ومنهم من أذن له في العقود فامنع منهم من تسهل بسبب من الأسباب ، وما تمهل إشفاقا لاختلاط الأنسال والأنساب، يقبل بالتعريف ما يخلو من الموانع

الشرعيةِ مَنْ كان، ولا يُحْسِن فى تزويجه يُمْسِك إمْسَاكًا بمعْرُوفٍ ولا يُسَرِّحُ تَسْرِيحًا بإحسان؛ وهؤلاء مَفَاسِدُهم أكثرُ من أن تُحْصىٰ، والبلاء بهم أكبر من أن يُستقصر أو يُسْتَقْصىٰ؛ فاعْتَبِرْ أحوالَهم اعتبارا جَلِيًّا، وفكِّرْ فى استدراك فَارِطِهم فِكْرًا مَلِيًّا؛ ومَنْ لم يكن له من العِلْم والدِّين ما يُوضِّحُ له المُشْتَبِهات، فإيَّاكَ وتَرْكَه فَرُبَّ مُعْتَقِدٍ[(1)] أنّه يَطَأ وطأً حَلَالا وقد أوقعه هذا ومِثْلُه فى وَطْءِ الشُّبُهات؛ ومنهم من يعمدُ إلىٰ التَّحْليل، ويرتكبُ منه مَحْذُورًا غيرَ قليل؛ وهو بعَيْنِه نِكَاحُ المُتْعَة الذى كان آخِرَ الأمرين من رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم النَّهْىُ عنه، وقام أمير المؤمنين عُمَرُ ابن الخطاب رضى الله عنه مُحَذِّرًا منه؛ فاحْسِمْ هذه المادّة الرَّدِيَّةَ التى تُؤْلِمُ عضوا فيسرى إلىٰ سائر الأعضاء أَلَمُهَا، ويَبْقىٰ فى كثير من الذَّرَارِىِّ المولودة من هذه الأنكحة الفاسدة ثَلْمُهَا.

والرُّسلُ والوكلاءُ بمجلس الحكم العزيز ومَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقات، وما نزل فى أمورٍ ما يريدون بها تقليدَ حكمك بل ما يقضون به الأوقات؛ فلا تَدَعْ ممن تريد منهم إلا كلَّ مشْكُورِ الطريق، مشْهُورِ القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمَكَاتِيبُ هى سهامك النّافذه، وأحكامك المؤاخذه؛ فسَدِّدْ مَرَامِيها، ولا تُرْدِفها ماعرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها؛ والمَحَاضِرُ هى محل التقوّى، فاجتهد فيها اجتهادا لاتَذَرُ معه ولا تُبْقِى.

وأما قضايا المتحاكِمين إليك فى شَكَاوِيهم، والحَاكِمين فى دَعَاوِيهم، فأنْتَ بهم خَبِير، ولهم نَاقِدٌ بصير؛ فإذا أتَوْكَ لتَكْشِف بحكمك لأْوَاءَهم، فاحْكُمْ بينهم بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهْوَاءَهُمْ؛ وقد فَقَّهَكَ الله فى دِينه، وأورَدَكَ من مَوَارِدِ يقِينه، ماجعله لك

(1) فى الاصل: منقعة وهو خطأ.

نُورًا، وجَلَاه لك سُـفُورًا ؛ وأقَامَه عليك سُورًا، وعَلَّمَك مالم تَكُنْ تعلمُ منه أُمُورًا، فإن أشْكَلَ عليك أمرٌ فَرُدَّه إلىٰ كتاب الله وسُنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلم وإجْمَاعِ أصْحَابِه فإن لم تَجِدْ فعِنْدك من العلماء من تَجْعَلُ الأمرَ بينهم شُورَىٰ ؛ ولأمير المؤمنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رضى الله عنــه كتَابٌ كَتَبَه إلىٰ بعض القُضَاه، فَاعْمَــلْ بمقتضاه، وآعلم بأنَّ الله تعالىٰ قد آرتضاك لخلْقِه فاعمل علىٰ رِضَاه .

والأئمة العلمــاء هم إخوانك فى الدِّين ، وأعوانُك علىٰ رَدْعِ المُبْتَدِعين، ولِسَانُك فى المَحْفِلِ وجَنَاحُك إذا جلسوا ذَاتَ الشمال وذَاتَ اليَمِينِ، فَنَزِّلْهم منازلهم التى أحلهم الله فى شُرُفَاتِهـا ، وبوِّأْهُمْ رفيــع غُرُفاتِها ، وتَأَلَّفْ خَوَاطِرَهم فإنَّك تنظر إلىٰ كثـير من الأمور فى صَفَاءِ مُصَافَاتِها .

ومن نُسِب إلىٰ خِرْقَة الفــقر وأهل الصــلاح هم أولياء الله المُقَرَّبُون ، وأحِبَّاؤُه الأقربون ، فَعَظِّمْ حُرُمَاتِهم، وجَانِبْ محاباتهم، فما منهم وإنِ آختلفت أحوالهم إلا من هو علىٰ هُدًى مُبِين، وآحْرِص أن تكون لهم حِبًّا[1] يملأ قلوبهــم فإنَّ الله ينظر إلىٰ قَوْم من قُلُوب قَوْمٍ آخَرين .

وآنْتَصِبْ للدروس التى تَقَدَّمْتَ بها علىٰ وافد الطلبة فإنَّ الكرم لا يمحقه الآلتماس، والمصباحَ لا يُفْنِي مُقْلَه كثرةُ الآقتباس، والغمام لا يَنْقُصُه تَوَالِى المَطَر ولا يَزِيدُه طُولُ الآحتباس، والبحر لا يتغيَّر عن حاله وهو لا يخلو عن الوُرَّادِ فى عَدَد الأنفاس.

والوَصَايا كثيرة وإنَّمــا هذه نُبْذَةٌ جامعه ، وبارِقَةٌ لَامِعَه ؛ ومنك يُسْــتَفَاد بِسَاطُ القَوْل، وآنبسـاط الطَّوْل؛ ولهذا يُكْتَفَىٰ بمــا فيك ، والله تعــالىٰ يَكْفِيك، ويُحْصِى حِسَابَ أعمالك الصَّالحة ليوفيك؛ حَتَّى تَجِدَّ فلا يتخلَّف بك السير، وتَسْتَعِدَّ لِيُخْتَم لك بخاتمة الخَيْر، والآعتماد على الخط الشريف .

(١) فى الأصل «حبلا يملأ فى قلوبهم» فتأمل .

* * *

قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء، أنشأتُه بدمشق للقاضى «شَرَف الدّين مسعود» وهى :

الحمد لله الذى شيّد أحكام الشّرع الشريف وزادَ حُكّامَه فى أيّامنا شَرَفا ، ورَفَع مَنَارَ العِلْم علىٰ كُلّ مَنَار وبوّأ أهلَه من جنّات إحساننا غُرَفا ، وأباحَ دَم من ألْحَدَ فيه عِنَادًا أو وَجّهَ إليه طَعْنا ، وأوْجَبَ الانقيادَ إليـه بقوله تعـالىٰ : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾، وألْهَمَ الصواب فى اختيار من لم يَزَلْ لهذه الرتبة مُعَدًّا ومن رجالها مَعْدُودا ، وصَرَفَ وجه إقْبالِنا إلىٰ من ارتضيناه للسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مَسْعُودا .

نحمده حَمْدَ مَن اعتنىٰ بالقِيَـام بشرائع الإسلام وتعظيم شَعَائره ، ونَصَحَ للرَّعِيَّـة فيمَنْ وَلّاه عليهم وأعطىٰ مَنْصِبَ الشرع حَقَّه بتقديم أكابره . ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لاشريك له شهادة يَقْضىٰ لصاحبها بالنَّجاة من النَّار ، ويُسَجِّلُ لقائلها بالثبوت فى دِيوَان الأبرار ؛ وأن محمدا عبـدُه ورسولُه الذى شَرَطَ الإيمَـانَ بالرضا بحكمه وأوْجَبَ طاعته أمْرًا ونَهْيًا واستجابةً وتحكيما ، فقال تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِـدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّـا قَضَيْتَ وَيُسَـلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . صـلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين نحن بسِيَرِهم مُهْتَـدُون ، وبآثارهم مُقْتَدُون ، وعلىٰ آله وصحبه الغُرّ الكِرَام الذين قَضَوْا بالحقّ وبه كانوا يَعْدِلُون ؛ صلاةً لا يختلف فى فَضْلِها اثنان ، ولا يتنازَعُ فى قبولها خَصْمان ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هى أعْلَى المراتب ، ومَنْصِبُ حُكّامِه فى الورىٰ أرْفَعَ المناصب ؛ إليه تَنْتَهِى المخاصمات فيفصلها ثم لاتعدُوه ، ويحكم فيه على

الخصم فتذعن لحكمه ثم لا يتسنو . . بل يتعزى الخصب وكل مهما يمر قضى له وعليه راض ، ويقول المتمرد الجانح كه . قد رضيت حتات فاقض في ما أنت قاض . وناهيك رتبة كان النبي صلى الله عليه وسلم هو المتصدى للقيام بواجبها ، والخلفاء الراشدون ــ رضوان الله عليهم ــ محافظين على أداء رواتبها ؛ ثم اختص بها العلماء الذين هم ورثة الأنبياء من الخليقه ، واستأثروا بها دون غيرهم من سائر الناس فهم أهلها على الحقيقه ؛ إذ لا يؤهل لهذه الرتبة إلا من ارتقى إلى درجات الكمال ، واتصف بأحسن الأوصاف واحتوى على أنفس الخصال ؛ وتضلع من العلم الشريف بما يرويه ، وفاق فى العقل والنقل بما يحثه ويرويه .

ولما كان المجلس الفلانى : هو عين هذه القلادة وواسطة عقدها ؛ وقطب دائرتها وملاك حلها وعقدها ؛ إذ هو «شريح» الزمان ذكرا ، و «أبو حامد» سيرة و «أبو الطيب» نشرا ؛ لا جرم ألبسته أيامنا الزاهرة من الحكم ثوبا جديدا ، وأفاض عليه إنعامنا نحلة نعقبها ــ إن شاء الله تعالى ــ مزيدا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لازالت الشريعة المطهرة بمناصرته فى أعز صوان ، وحكامها بمعاضدته فى أعلى درجة وأرفع مكان ــ أن يفوض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مثله لمثلها ، وليعمل بما يعلمه من أحكامها فهو ابن بجدتها والخبير بمسالك وعرها وسهلها ؛ فهو الحاكم الذى لا يساوى ، والإمام الذى يقتدى به فى الأحكام والفتاوى ؛ فعليه بالتأنى فى الأحكام ، والتثبت فيما يصدر عنه من النقض والإبرام ؛ ولينظر فى الأمر قبل الحكم المرة ثم الأخرى ، ويكرر النظر فى ذلك ولو أقام شهرا ؛ ويراجع أهل العلم فيما وقف عليه ويشاورهم فما ندم من استشار ، ويقدم استخارة الله تعالى فى سائر أموره فما خاب من استخار ؛ وليبذر

مع الحقّ كيف دَار ، ويتّبع الصَّـوَابَ أنّى توجّه ويقتفى أثَره حيثُ سار ؛ وإذا ظهر له الحقّ قضَىٰ به ولو علىٰ آبنه وأبيه ، وأعزّ أصْدِقائه وأخصّ ذَويه ، غيرَ مُفرّق فى فصْل القضاء بين القوىّ والضّعيف ، والوَضيع والشّريف ؛ ولا مُميِّز فى تنفيـذ الحكم بين الغنىّ والفقير ، والسُّوقة والأمير ؛ وليُسَوِّ بين الخصوم حتّىٰ فى تقسيم النظر إليهم ، كما فى موقف الحكم وسَمَاع الدَّعْوَىٰ وردّ الأجوبة فيما لهم وعليهم ؛ وليَسْتَخْلِف من النوّاب من حَسُنَتْ لديه سيرَتُه ، وحُمِدَت عنده طَرِيقَتُـه ؛ ويُوصِ كُلًّا منهم بمـا نوصيـه به ويُبَالِـغ فى تأكيد وصيته ، ويستحضِر السر فى قوله صلى الله عليـه وسلم : « ألا كُلُّكُمْ راعٍ وكلكم مسئول عن رَعِيَّته » . وليُمْعِن النّظرَ فى أمر الشهود الذين تترتب علىٰ شهادتهم أمور الدنيا والفُرُوج والأموال ؛ ويتفقّدْ أمْرَهم فى كل وقت ولا يغْفَل عنهـم فى حال من الأحوال ؛ ويحمِلهـم من الطرائق علىٰ أحسن وجهها ؛ وأحَقُّهم بإمعان النظر شهودُ القِيمَة والعمائر ، الذين يُقْطَع بقولهم فى أملاك الأيتام والأوقاف ممـا تنفِرعنه القلوب وتَنْبُو عنه الضمائر .

والوكلاء والمُتَصَرِّفون فهم قوم فَضَـلَ عنهم الشرُّ فباعوه ، وآستَحفظُوا الوُدَّ فلم يرعَوْا حقـه وأضَاعُوه ؛ فهـم آفةُ أبواب القضاة بلا نزاع ، كيف وهم الضِّـبَاعُ الضّارِيَة والذِّئَابُ الجِيَـاع . وما تحتَ نظره من أوقاف المـدارس والأسرىٰ والصَّدَقات ، وغيرِها ممـا يَقْصِدُ به وَاقِفُوه وجهَ البر وسبيل القُرُبَات ؛ يُحْسِنُ النظر فى وجوه مَصَارِفها ، مع حفظ أحوالهـا الذى هو أغْيَا مراد واقفها .

وأهل العـلم أبْناءُ جِنْسِه الذين فيهم نَشأ ومنهم نَجَم ، وجُنْـدَه الذين يقصِـدونه بالفتاوىٰ فيما قَضَى وَحَكم ؛ فليُوَفّرْ لهم الإحسان ، ويَصْنَعْ معهم من المعروف ما يبقىٰ ذكره علىٰ ممرّ الأزمان ؛ ومثْـلُه لايحتاج إلىٰ كثرة الوصايا ، وثوقًا بمـا عنده من العِلْمْ

بالأحكام والمَعْرِفَة بالقضَايا ؛ لَـكِنْ عليه بتقوى الله ومراقبته يكن له مما يتَبَوَّءُه ظهيرا ، ويَسْتَرْشده فى سائر أموره يجعـلْ له من لَدُنْه هاديا ونصـيرا ؛ والله تعالىٰ يبلغ وَاثِقَ أَمَلِه من كَرَمِنا مَرَاما ، ويُوَطِّئُ له المِهَادَ بِبلدٍ حَسُنَتْ مسـتقرّا ومُقاما . إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضَاة المـالكية بالشام، من إِنْشَاء الشيخ شِهَاب الدّين محمود الحلبيّ تَغَمَّده الله برحمته، وهى :

الحمد لله جاعل المَذَاهِبِ الشّرعيَّـة فى أيامنا الشريفة زَاهِيَةً بأركانهـا الأربَعَه ، مستقرّةً على النِّظامِ الذى غدتْ به قواعدُ الحُجَّة محكمةً ومَوَاقِعُ الرحمة مُتّسعه، فإذا خلا رُكْنٌ من مُبَاشَرَةٍ أَقَمْنَاَ من تكون القلوب علىٰ أولَوِيّته مُجْتَمِعَه ، وانتقينا له من الأتقياء من تَغْدُو به الأئمةُ حيث كانت مُنْتَفِعَه ، واستدعينا إليه من تَغْدُو الأدعية الصالحة لنـا بتفويض الحكم إليـه مُرْتَفِعَه ؛ الّذى خَصّ منهبَ « إمام دار الهجرة » بكل إمام هَجَرَ فى التَّبحّر فيه دواعى السُّكون وبَوَاعِثَ الدَّعَه ، وجَمّلَ مَنْصبَ حُكْمِه بمن كَمَّلَ بعلوم الدين فَخْرَه فإذا حكم غَدَت الأَقْضِيَةُ لحكمه مُنَفَّذَةً وإذا قَضَىٰ أضحت الأحكام لأقضيته متّبِعه .

نحمَـده علىٰ نِعَمه التى جَعَلَت مُهِمَّ الشَّرع الشريف لَدَيْنَـا كالاسـتفهام الذى له صدر الكلام ، وبمَثَابَةِ النِّيَّة المقدّمة حتّىٰ [علىٰ] تكبيرة الإحرام ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أَثْبَتَ الإخلاصُ حُكْمَها ، وأَحْكَمَ الإيمـانُ عِلمها ، وأَبْقَىَ اليقـينُ علىٰ صَفَحَاتِ الوُجُوهِ والوُجُودِ وَسْمَها المُشْرِقَ وَاسْمَها ؛ ونشهد أن محمّدا عبـدُه ورسولُه الذى أَخَذ الله ميثاق النَّبِيِّـينَ فى الإقرار بِفَضْلِه ، وأرسله ﴿بالهدىٰ

و بِنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، وخَصَّه بالكتاب الذى أخرس الأمم عن مُجَارَاته فلو ﴿اجتمعت الإِنْسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بسنّته وسُنَّته، وأوضحوا شرعه الشريف لمن تلقّاه بعدهم من أئمة أمته، صلاة لا تزال بِقَاعُ الإيمان لأحكامها منبته، وأنواء الإيقان لأُوَامها مُقْلِتَه[(١)]، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنه لما كانت الأحكامُ الشرعيةُ تتوقفُ على ملاحظة قضاءِ قُضَاتِها فى غالب الأمور، وتستند إلى مُرَاجَعَةِ أُصُول حُكَّامها فى أكثر مصالح الجمهور ، لم يكن بُدٌّ من مُرَاعَاةِ أُصُولها التى إنما تَثُوبُ الفروعُ عنها، وتَدَبُّرِ أحوال أحكام حُكَّامها التى تَنْشَأُ أقضية النوّاب منها، ولذلك لمّا أصبح منصب قضاء القضاة على مذهب الإمام «مَالِك بن أَنَس» رضى الله عنه بالشّام المحروس لضَعْف مباشره المتسد ، فى حكم الخالى، وتعطل بعجزه المشتد، مما أُلِف به قديما حال حكمه الحالى، وتَمَادى ذلك إلى أن تَرَقَّى الناسُ منه إلى دَرَجة اليَقِين، وتَنَاهَى الحكمُ فيه إلى أن يعين أن يُرْتَادَ من يَتَعَيَّنُ لمثله من الأَئِمَّة المُتَّقِين ، لِئَلَّا يَخْلُوَ هذا المذهبُ من قاضى قضاة يُقِيمُ مَنَارَه ، ويُدِيمُ أنوارَه ، ويرفع شِعَارَه ، ويُحْيِى مآثِرَ إمَامِه وآثَارَه ، ويُؤَمِّنُ كَمَالَ أفقه أن يُعَاوِدَ سِرَارَه ، وكان المجلس السامى ، القاضوىّ ، الفخرىّ ، هو الذى لا يَعْدُوهُ الارْتِيَاد، ولا يَقِفُ دونَه الانْتِقاءُ والانْتِقاد، ولا تتجاوَزُه الإصابة فى الاجتهاد : لما عليه من عِلْمٍ جعله مخطوبا للناصب، وعَمَلٍ تركه مَطْلوبًا للراتب التى لا تُذْعِنُ لكلّ طالب ، وتُقًى أعاده مُرْتَقِيًا لكلّ أُفُقٍ لا يصلح له كلّ شارق ، ووَرَعٍ فتح له أبواب التَّلَقِّ بالاستدعاء وإن لم تُفْتَح لكلّ طارق ، وقد هَجَر الكرا فى تحصيل مذهب «إمام دار الهجرة» إلى أن وَصَل إلى ما وَصَل، وأنفق مُدّة

(١) الأُوام شدة العطش ومقلته مهلكه .

عُمْره فى ٱقتناء فوائده إلىٰ أن حَصَل من الثَّرْوَة بها علىٰ ما حَصَل ؛ فسارت فتَاوِيه فى الآفاق ، ونَمَتْ بَرَكات فوائده التى أنفقها على الطَّلَبَة فزَكَتْ على الإنفاق — ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نُبْقِى فخرَ هذا المنصب الجليل بفَخْرِه ، وأن نُخُصّ هذا المذْهَبَ النبيل بذخره ، وأنْ نُحَلِّىَ جِيدَهُ بمن نَقَلْنا إلىٰ وِشَام الوسام ما كان من حُسْن شَنَبِ العلم مُخْتصًّا بثَغْرِه .

فرسم بالأمر الشريف — لا زالَ لأحكام الشرع مُقِيما ، وللنظر الشريف فى عموم مصالح الإسلام وخصوصها مُدِيمًا ؛ أن يفوّض إليه ... ... لما تقدّم من تعيِينه لذلك ، وتبَيَّنَ من أنّه لحكم الأولوية بهذه الرتبة فى مذهب الإمام مالك مالك .

فَلْيَلِ هذه الوظيفةَ حاكِمًا بما أراه الله من مَذْهَبِه ، مُراعِيًا فى مباشرتها حقّ الله فى الحكم بين عباده وحقّ مَنْصِبِه ؛ مجتهدا فيما تَبْرَأُ به الذمةُ من الوقوف مع حكم الله فى حالَتَىْ رضاه وغَضَبِه ، وَاقِفًا فى صِفَةِ القَضَاء علىٰ ما نُصّ فيه من شروطه وأُوضِحَ من قواعده وشُرِح من أدَبِه ؛ مُمْضِيًا حقوقَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رأْىُ إمَامِه ، مُتوَخِّيًا الحكمَ بنصوصه المجمع عليها من أئمّة مذهبه فى نَقْض كُلِّ أَمْرٍ وإبرامه ؛ جَارِيًا فى ذلك علىٰ قواعد أحْكام هذا المَذْهَب الذى كان مُشْرِقا فى ذلك الأُفُق بجماله وزَيْنه ، وَاقِفًا فى ذلك جميعه مع رضا الله تعالىٰ فإنّه فى كُلِّ ما يَأْتى ويَذَرُ بعَيْنِه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلّغه من رضاه نِهَايَةَ سُولِه وغَايَةَ أَمَلِه ، بمنّه وكَرَمه! إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة ، كُتِبَ بها للقَاضى عَلَاءِ الدِّين «منجى التنوخى» وهى :

الحمد لله الذى رفع بعَلَاءِ الدِّينِ قَضَاءَ قُضَاتِه ، وأَوْضَحَ الهُدَىٰ فى القيام فى توليتهم بمفترضاته ، وأعلىٰ مَنَارَ الشَّرع بما أَوْقَفَهم عليه من أَحْكامه ووَفَّقَهُم له من مَرْضَاتِه .

نحمده حمدا نَسْتَعِيذُ من بَرَكَاتِه ، ونَسْتَعِيذُ به أَن نَضِلَّ فى ضَوْءِ مِشْكَاتِه ، ونستعينُ ليه بربِّ كل حُكْمٍ يمُدُّنَا قَلْبُه بسُكُونه وقَلَمُه بحَرَكَاتِه ، ويُثْبِتُ من جميل مَحْضَرِه لدينا ما يرفع مَسَّ شَكَاتِه ؛ ونشهدُ أنْ لَا إلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له شَهَادَةً يُسْتَوْدَعُ إخْلاصها فى قلوب تُقَاتِه ، وتُفَوَّضُ أحكامُها إلىٰ ثِقَاتِه ، ويُحْمَىٰ سَرْحُها من أَبْطَالِ الجِلَاد والجِدَال بكل مُشْتَاقٍ إلىٰ مُلَاقَاتِه ؛ ونشهد أَنَّ محمدًا عبده ورسوله أَفضَلُ من حكم بما أَنزل اللهُ من آياته ، وجَاهَدَ فى الله بَرَأْيه ورَايَاتِه ، وشَرَع من الدِّينِ ما يُنَجِّى المتمسكَ به من غَوَايَاتِه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين أَقام شَرْعَه منهم بكُمَاتِه ، وجعل حُكْمَهم دَائِمَ النُّفُوذ أَبدا بأَقلام علمائه وسيوف حُمَاتِه ؛ وسَلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعد ، فَمَنْصِبُ الحكم الذى به تُفْصَلُ الأُمور ، وتَنْفَرِجُ له الصُّدُور ، وتتسَدَّدُ أَقلام حُكَّامه سِهَاما ، وتُفِيضُ غَمَاما ، وتَتَعَلَّمُ منه الأُسُودُ زَئِيرا ، ويطول السَّيْفُ صَلِيلًا والرُّمْحُ صَرِيرا ، وتَنْتَصِب بين يَدَىْ حُكَّامه الأَقْدَام ، وتنتصف علىٰ أَحْكامه الخِصَام[1] ، وتَتَنَكَّس الرُّءُوس لهَيْبَتِه إطراقا ، وتَغُضُّ المُقَلُ لما تُدِيرُ جُفُونا ولا تُقَلِّبُ أَحْدَاقا ، ويَجْرِى بتَصْرِيفه قَلَمُ القَضَاء ، ويُجَارِى مُرْهَفُه البُرُوقَ فتُقِرُّ له بالمَضَاء ؛ وقد شَيَّدَ اللهُ مَبَانِيَه فى ممالكنا الشريفة مِصْرًا وشَامًا علىٰ أَرْبعة أَركان ، وجمع فى قضائه الأَئِمَّةَ الأَربعةَ لتكمل بهم فُصُولُ الزمان ؛ ومَذْهَبُ الإمام أَبِى عبد الله «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ» رضى الله عنه هو بالسُّنَّة النبوية الطِّرَازُ المُذْهَب ، وطريقة

(١) الخصام جمع خصم كبحر وبحار . انظر المصباح .

السلف الصالح فى كُلِّ مَذْهب؛ وقد تجنَّبَ من سَلَف من علمائه التأويلَ فى كثير، ووَقَفَ مع الكِتَاب والسُّنَّة وكلٌّ منهما هو المصباح المنير.

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ هى مَدَارَ قُطْبِهم، ومَطْلَعَ شُموسِهم ونُجُومِهم وشُهُبِهم؛ وأهْلُها كثيراً مَّا يحتاجون إلىٰ حاكم هذا المذهب فى غالب عقد كل بيع وإيجار، ومُزَارَعَةٍ فى غِلَالٍ ومُسَاقَاةٍ فى ثِمَار، ومُصَالَحَةٍ فى جوائحَ سماويَّةٍ لا ضَرَر فيها ولا ضِرَار، وتَزْوِيجِ كُلِّ مَمْلُوكٍ أَذِنَ له سَيِّدُه بحُرَّةٍ كَرِيمَه، وآشتراطٍ فى عَقْدٍ بأن تكون الأمْرَأَةُ فى بلدها مُقِيمه؛ وفَسْخٍ إن غاب زوجُها ولم يترك لها نفقةً ولا أَطْلَقَ سَرَاحَها، وبَيْعِ أَوْقَافٍ دَاثِرَةٍ لا يجد أربابُ الوَقْفِ نَفْعًا بها ولا يستطيعون إصْلَاحَها.

فلما آستأثَرَ اللهُ بمَنْ كان قد تَجَمَّلَ هذا المَنْصِبُ الشريفُ بشرَفِه، وتَجَمَّلَ منه بَقِيَّةُ سَلَفِه؛ حصلَ الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نقلده هذه الأَمَانَةَ فى عُنُقِه، ونُهِيَ هذا المنصب بطلوع هلاله فى أُفُقِه؛ إلىٰ أن ترجح فى آرائنا العالية المُرَجَّحُ المُرَجَّى، وتَعَيَّنَ واحدا لَمَّا آبْتُلِيَ الناس بالقضاء كان المُنَجِّي آبْنَ المُنَجِّي؛ طالما تطرَّزَتْ له الفَتَاوىٰ بالأقلام، وآلْتَفَّتْ به حَلْقَةُ إِمَام، وخاف فى طَلَبِ العِلْمِ من مُضَايَقَةِ اللَّيالى فما نام ــ آقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف أن يفوّض إليه قضاء القضاة بالشام المحروسة علىٰ مذهب الإمام الربانىّ «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل» الشيبانىّ، رضى الله عنه.

فلْيَحْكُمْ فى ذلك بما أَرَاه الله من عِلْمِه، وآتاه من حُكْمِه؛ وبَيَّنَهُ له من سُبُلِ الهُدَىٰ، وعَيَّنَهُ لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم التى مَن حادَ عنها فقد جار وآعتدىٰ؛ ولْيَنظُر فى أُمور مَذْهبه ويَعْمَلْ بكل ما صَحَّ نقْلُه عن إمامه، وأصحابه من كان منهم فى زَمَانِه ومن تَخَلَّفَ عن أَيَّامِه؛ وقد كان ــ رحمه الله ــ إمَامَ حَقٍّ

نَهَضَ وقد قَعَدَ الناسُ تلك المُدَّه، وقام نَوْبَةَ المِحْنَة وقام «سَيِّدُ تَيْمٍ»[1] رضى الله عنه نَوْبَةَ الرِّدَّه، ولم تَهُبَّ به زَعَازِعُ «المَرِيسِيِّ» وقد هَبَّتْ مَرِيسًا، ولا «ٱبْنُ أَبِى دُوادٍ» وقد جَمَع كلَّ ذَوْدٍ وسَاقَ له من كُلِّ قُطْرٍ عِيسًا؛ ولا نَكَث عهدَ ما قَدَّم إليه «المأمونُ» فى وَصِيَّةِ أَخيهِ من المَوَاثِق، ولا روّعه صوتُ «المعتصم» وقد صَبَّ عليه عذابَه ولا سَيْفُ «الواثق»؛ فلْيُقَفَّ علىٰ أَثَرِه، ولْيَقِفْ بمسنده علىٰ مذهبه كله أَوْ أَكْثَرِه؛ ولْيَقْضِ بمُفْرَدَاته وما ٱختاره أصحابُه الأخيار، ولْيُقَلِّدْهم إذا لم تختلف عليه الأخبار؛ ولْيَحْتَرِزْ لدينه فى بَيْع ما دَثَر من الأوقاف وصَرْف ثَمَنِه فى مِثْله، والاستبدال بما فيه المصلحة لِأَهْلِه؛ والفَسْخِ علىٰ مَن غَابَ مسافةً يَسُوغُ فى مِثْلِها الفَسْخُ وتَرَكَ زَوْجَةً لم يترك لها نَفَقَه، وخَلَّاهَا وهى مع بقائها فى زَوْجِيَّتِه كالمُعَلَّقَه؛ وإطلاق [illegible] لتَتَزَوَّجَ بعد ثبوت الفَسْخ بشروطه التى يبقىٰ حكمها به حكمَ المُطَلَّقَه؛ رفيا [illegible] الجار، وما تَفَرَّع علىٰ قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : «لَاضَرَرَ ولَا ضِرَار» . وأَمْرِ وَقْفِ الإنسان علىٰ نَفْسِه وإن رآه سِوىٰ أَهْلِ مَذْهَبِه، وطلعت به أَهِلَّة عُلَمَاءَ لولاهم لما جَلَا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبِه . وكذلك الجوائح التى يخفّف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرىٰ بها الإلزام، ولاتَجْرِى إلا مَجْرَى المصالحة دليلَ الالتزام . وكذلك المُعَامَلَةُ التى لولا الرُّخْصَة عندهم فيها لمَا أَكَل أكثرُ الناس إلا الحرام المحض، ولا أَخذَ قسم الغلال والمُعَامَلُ هو الذى يزرعُ البذر ويَحْرُثُ الأرض؛ وغير ذلك مما هو [محيط] بمفرداته التى هى للرفق جامعة، وللرعايا فى أكثر مَعَايِشِهم وأَسْبَابِهم نافعة، وإذا ٱستقرت الأُصُولُ كانت الفُرُوع لها تَابِعَة؛ والخط الشريف أَعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

المرتبـــة[1] الثـانية

(من تواقيع الوظائف الدينيـة بدمشـق ، ما يُكتب فى قطع الثلث مفتتحا
بـ«الحمـد لله» إن علَتْ رُتْبَـةُ المُتَوَلِّى أو بـ«أمّا بعد حَمْـدِ الله»
إن انحطت رُتْبَتُه عن ذلك بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى — قَضَاءُ العَسْكر . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثـانية — إِفْتَاءُ دار العدل بِدِمَشْق . وبها أربعة : من كل مذهب واحدٌ، كما بالديار المصرية .

الوظفية الثـالثة — الحســبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مُجَدِّدِ النِّعَمِ فى دَوْلَتِنا الشريفـةِ لمَن ضَفَتْ عليـه ملَابِسُها ، ومُضَاعِفِ المِنَنِ فى أيامنا الزاهرة لمن سَمَتْ به نَفَائِسُها ، ومُولِى الآلَاءِ لمَن بَسَقَ غَرْسُها لَدَيْه فزهت بجماله ثَمَرَاتُها وزَكَتْ مَغَارِسُها .

نحمده على نِعَمِه التى تُؤْنِس بالشـكر أَوَانِسُها ، وتُؤَسِّس على التَّقْوى مجَـالِسُها ؛ ونشهد أَنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً استضاء بنور الإيمـان قَابِسُها ، واجْتَنَى ثَمَر الهُدَى غَارِسُها ؛ ونَشْهَدُ أَنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه أَشْرَفُ من أَمْرَقَتْ به معالمُ التوحيد فعَمَرَ دَارِسُها ، وأَشْرَقَ دَامِسُها ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين قلوبهم مَشَاهِدُ الذِّكْر وألسنتُهم مَدَارِسُها ، وسَلَّم تسليمًا كثيرا .

---

(١) فى الأصل الطبقة الثانية .

وبعد ، فإنّ أولىٰ من أُمضِىَ له ما كان به أُمِرَ ورُسِم ، وجُدِّدَ له من المَنَاصِب الدِّينية ما عُرِف به من قَبْلُ ووُسِم ، وأُثبِتَ لترقِّيه ما حُتِم له به من المراتب السنية بمقتضىٰ الاستحقاق وحُكِم ـ من رَقَمَتْ أوَامِرُنا له حُلَّةَ مَنْصِب يجدّدها الإحسان ، وأمَرَتْ له مَرَاسِمُنا بوظيفة تؤكّد عَوَارِفَنا الحِسَان ، وأتْلَتْ [له] نِعَمُنا مَنصِبًا أعدّ له من كَمَال الأهْلِيَّة أكمَلَ ما يُعدّه لذلك الإنْسَانُ .

ولما كان فلان هو الذى تحلّىٰ من إحْسَانِنَا بما يأمن [معه] سعيد رتبته [من] العَطَل ، واتّسَمَ من بِرِّنَا وامْتِنَانِنَا بمـا هو فى حكم المستقِر له وإن ألوىٰ به الدّهْرُ ومَطَل ـ اقتضىٰ إحْسَانُنَا أنْ نُجدِّدَ له مَوَاقِعَ النِّعَم ، ونُشَيِّدَ من رجائه موَاضِعَ ما شَمِلَه من البِرِّ والكَرَم ، ونُرِيَ من عَدَقَ بِنَا رَجَاءَ أَمَلِه أنَّنَا نتعَاهَدُ سُقْيَا آمَالِ الأوْلِياء والخَدَم .

فلذلك رسم ... ـ لا زال بِرُّه شامِلًا ، وبَدْرُه فى أُفُقِ الإحسان كاملا ـ أن يُفَوَّضَ إليه نظرُ الحِسْبَة ويستَمِرَّ فى ذلك علىٰ حكم التوقيع الشريف الذى بيَده : لِمَـا سبق من اختياره لذلك واصْطِفَائِه ، وادِّخَاره لهذا المَنْصب من كُفَاة أعْيَانِه وأعْيَان أكْفَائه ؛ ولِمَـا تحلّىٰ [به] من رِيَاسَـة زانته عُقُودُها ، وتَكَمَّلَ له من أصَالَةٍ ضَفَتْ عليه حِبَرُها وسَمَتْ به بُرُودُها ؛ وتجمّلَ به من نَزَاهَـة أشرقت فى أُفُقِ صُعُودِها إلى الرتبة الجَلِيلة سُعُودُها ، واتّصَفَ به من كَمَال مَعْرِفَةٍ نُجِزَتْ له به من مَطَالِبِ المَنَاصب وُعُودُها .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك مُعْطِيًا هٰذه الوظيفةَ من حُسْنِ النَّظَرِ حَقَّها ، مُحَقِّقًا بجميل تَصَرُّفه تَقَدُّمَ أوْلَوِيَّتِه وسَبْقَها ؛ وليَكُنْ لأمرِ الأقوات مُلَاحِظًا ، وعلىٰ منع ذَوِي الغَـدْرِ من الاحتكار المُضَيِّق على الضُّعَفَاء مُحَافِظًا ؛ وعلى الغِشِّ فى الأقْوَات مُؤَدِّبًا ، ولإجراء المَوَازِين علىٰ حُكْمِ القِسْط مُرَتِّبًا ؛ ولمن يَرْفَعُ الأسعارَ لغَيْرِ سَبَبٍ رَادِعا ، ولمن لا يَزَعُه الكلام من المُطَفِّفِينَ بالتّأديب وَازِعا ؛ ولِقِيَمِ الأشـياء مُحَرِّرًا ، ولقانون الجَوْدَة

فى المَزْرُوع والمَوْزُونِ مُقَرَّرا، ولِذَوِى الهيئات بلزوم شرائط المُرُوءَة آخذا، وعلىٰ تَرْك الجَمع والجَمَاعَات لعامة الناس مُؤَاخِذا؛ ولتَقْوَى الله تعالىٰ فى كُلِّ أَمْرٍ مُقَدَّما، وبما يُخَلِّصُه من الله تعـالىٰ لكل ما تقع به المعاملات بين الناس مُقَوِّما؛ وفى خَصَائِصِ نَفْسِه ما يُغْنِيه عن تَأْكِيد الوَصَايا، وتَكْرَارِ الحَثِّ علىٰ تقوى الله تعالى التى هى أَشْرَفُ المزايا؛ فلْيَجْعَلْها شِعَارَ نَفْسِه، ونَجِىَّ أُنْسِه، ومُسَدَّدَ أَحْوَالِه التى نظْهَر بها مَزِيَّةُ يَوْمِه علىٰ أَمْسِه؛ والخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه .

✦

وهذه نسخة توقيع بنظر الحِسْبَة الشريفة، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابى بن فضل الله، مضافا إلىٰ نظر أَوْقاف المُلُوك، وهى :

الحمد لله مُثِيبِ من ٱحْتَسَب، ومُجِيب المُنِيب فيما ٱكتسب .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطَّرَب[1]، (؟) ونشهد أَنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ظَاهِرَةَ الحَسَب، طاهرة النسب؛ ونشهد أن سيِّدَنا محمّدا عبدُه ورسولُه أَفْضَلُ مَن ٱنتدىٰ وٱنتدب، وأَدَّبَ أُمَّتَهُ فَأَحْسَنَ الأَدَب، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبِه صَـلاةً يُكْتَبُ أَجْرُها فيكتتب، ويستتم بها كل صـلاح [ويغتنم بها كل فلاح] ؛ وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعـد ، فانَّ الحِسْـبَةَ الشَّرِيفَـةَ هى قَانُونُ جَوَادِّ الأوضاع ، ومَضْمُون مَوَادِّ الإجماع، تجمع إلى الشريعة الشريفة سِيَاسَةً يُرْهَبُ حِدُّها، ويُرْهَفُ حَدُّها؛ وتخشى الرعايا سطواتِ مباشِرِها ، وتَتَنَحَّىٰ عمـا تصبُّه سيول بوادرها؛ وأصحابها الآلة التى هى أُخْتُ السَّـيْفِ فى التأثير، ولكُلٍّ منهما سَطْوَةٌ تُخَافُ لافرق بينهـما إلّا ما بَيْنَ

(١) كذا فى غير نسخة بالاهمال ولم نهتد الى تثقيفه .

التأنيث والتذكير، وله التصرف المطلق، والتعرف الذى يفتح من الحوانيت على أربابها كل باب مغلق؛ ولركوبه فى المدينة زينة يحشر لها الناس ضحى، ورهبة يغدو بها كل أمين لشأنه مصلحا؛ وإليه الرجوع فى كل تقويم، وهو المرجو فى كل أمر عظيم؛ وهى بدمشق ـ حرسها الله تعالى ـ من أجل المناصب التى تتعلق [عو]اليها بيد متوليها وتؤمل منازل البدور، وإن ربها ترجع إلى تصريفه أزمة الأمور، وينتجع سحابه المطل غمامة الجمهور؛ وتحيا به سنة عمرية لولاها لضاقت رحاب المعاملات، وضاعت بالغش المعايش المتداخلات؛ وظهر الغبن فى غالب ما يشرى ويباع، وانتشر التطفيف [الذى] يزيل راجحة الميزان وتو الزراع؛ ولكم ناب بحسن تدبيره عن الغمام، ونظر فى الدقيق والجليل للخاص والعام؛ طالما انحط به سعر غلا أن يقوم، ووجد من الأقوات صنف لا يوجد ولو بذل من الشمس دينار والبدر درهم.

وكان المجلس السامى، القضائى، الأجلى، الكبيرى، الصدرى، الرئيسى، العالمى، الكافلى، الفاضلى، الأوحدى، الأثيرى، الماجدى، الأصيلى، العمادى؛ مجد الإسلام، شرف الرؤساء، بهاء الأنام، جمال الصدور، فخر الأعيان، خالصة الدولة، صفوة الملوك والسلاطين: أدام الله علوه، هو الذى ربته السيادة على وسادها، ولبته السعادة إلى مرادها؛ وبنت العلياء قواعدها على عماده، وثنت المراتب أعناقها متشوفة إلى حسن اعتماده؛ وباشر الجامع المعمور خصوصا والأوقاف الشامية عموما فعمرها، وكثر أعدادها وأنمى من بركات نظره متحصلاتها وثمرها؛ وشيد فى كل منها مواطن عباده، وملتقى حلقة ومدار سبحة ومفرش سجاده، وأبى الله أن يقاس به أحد والجامع الفاروق وللذين أحسنوا الحسنى وزياده؛ فأوجب له جميل نظرنا أن نضاعف له الأجر فى كل عمل إليه ينتسب، ونزيده

فى رِزْقه سَعَةً : من حَيْثُ يَحْتَسِبُ ومن حَيْثُ لايَحْتَسِبُ؛ فرَأَيْنَا أنّه أحَقُّ أنْ يُقَلَّدَ من أمور الحِسْبَة الشريفة حُكْمُها المُصَرِّف، وحَكَمُها المُعَرِّف؛ ويقام فيها بهَدْيِ من تَقَدّمه فى تقرير أُمُورها علىٰ أثْبَتِ القواعد، وتقدير مصالحها علىٰ أجْمَلِ ما جرت به العوائد؛ ويُطَهِّرَ أقواتَهَا من الدَّنَس فيما يحضر على الموائد، وإخافة الأعناق من مضاربه التى تقطع ماغفَا السيف عنه من مَنَاط القلائد.

فرُسِمَ بالأمر الشّريف العالى ـ لا زالت مَرَاسِيمه تُتَلَقَّىٰ كُلُّ رُتْبَة، وتَتَوَقّىٰ الدنايا بمن يقوم بالحِسْبَة ـ أنْ يفوّض إليه النّظَرُ على الحِسْبَة الشّريفة بدِمَشْقَ وما معها من الممالك الشامية المضافة إليها، بالمعلوم المستقر، الشاهد به الديوانُ المعمور إلىٰ آخر وقت : مضافا إلىٰ ما هو بيده : من نظر الأوقاف المَبْرُورَة بالشّام، وأوْقاف الملوك. خَلاَ نَظَر الجامع المَعْمُور إلىٰ آخر وقت بحكم إفراده لمن عين له، تَفْوِيضًا يَضُمُّه إلىٰ رَبَائِب كَنَفه، ويعمّه بمَوَاهِب شَرَفه، ويُحِلُّه فى أعْلىٰ غُرَفه، ويُحَلِّيه بما يَحْسُدُ الدُّرُّ مارَمىٰ من صَدَفه.

فَاتّقِ اللهَ فى أحْوالك، وانْتَقِ من يُجْمَع عليه من النُّوّاب فى أعْمالك، وأْمُرْ بالمعروف وآنْهَ عن المُنْكَر، فمِنْك المُنْكَرُ لا يُعْرَفُ والمَعْرُوف منك لا يُنْكَر، وآعْتَبِرْ أحْوَالَ أرْباب المَعَايِش آعْتِبَارًا يُصْلِحُ للناس أقْوَاتَهم، ويُرْغِدُ أوْقَاتَهم؛ ولا تَدَعْ صَاحِبَ سِلْعَةٍ يتعدَّىٰ إلىٰ غيْرِ ماأحَلّه اللهُ له من المَكَاسِب، ولا صَاحِبَ مَعِيشَةٍ [يقدم] علىٰ تَخَلُّل خَلَلٍ فى المَآكِل والمَشَارِب؛ وآقْصِدِ التَّسْوِيَةَ بالحَقّ فإنه سواء فيه البائعُ والمشترى، ولا فَرْق بين الرَّخِيص والثمين؛ وأقِمِ المَوَازِين بالقِسْط حتّىٰ لا تمكن كِفَّاتُها أن تُحامل ولا تتحمل، ولا يستطيع قَلْبُها أن يَمِيلَ مع من يَتَمَوّل، ولا يَقْدِرُ لِسَانُها أنْ يَكتُمَ الشهادة بالحَق وإنْ كانَ مثقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ؛ وآجعلْ لك علىٰ

أهـل المبايعات حفظة لتظل أعمالهم لك تنسخ . وتفقد الأسواق مما يتولد فيها من المفاسد فإن الشيطان ربما باض فى الأسواق وفرخ. وأرباب الصنائع فيهم من يدلس، وفقهاء المكاتب منهم من لعرضه يدنس؛ والقصاص غالبهم يتعمد الكذب فى قصصه ، وأهـل النجامة كم منهم من لعب مرة بعقل امرأة وأمات رجلا بغصصه؛ وآخرون ممن تضـل بهم العقول، وتظل حائرة فيهـم النقول؛ وكثير ممن سوى هؤلاء يدك مبسوطة عليهـم، وأحكامك محيطة بهم من خلفهم وبين يديهم؛ فقوم منهم من مال، وقلد مالكا رضى الله عنه فيما رآه من المعاقبة تارة بإنهاك الجسد وتارة بإفساد المـال؛ فربما أطغى الغـنى والمصـباح فربما قطب ... ...[1] وثم من لا يستقيم حتى يؤدب، ومن لا يلم على شعث وأتى الرجال المهذب؛ وفيك من الألمعية نور باهر ، وكوكب زاهر؛ فلا حاجة إلى أن تلقى الوصايا أقلامها أيها يكفلك ، ولا تنبهك على زينة العفاف فيها وهو حللك ؛ والله تعالى يوفق اعتمادك ، ويوفر من التقوى زادك ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المـال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال، من إنشاء القاضى تاج الدين البارنبارى ، للقاضى نجم الدين أبى الطيب .

الحمد لله الذى جعل الطيبات للطيبين ، وهدى بالنجم المنير السبيل المبين ، وعدق بأئمة الدين مصالح المسلمين، وآتانا بتفويضنا إليه، وتوكلنا عليه، شرفا فى الشأن وقوة فى اليقين .

(١) بياض بالأصل .

نحمده على أن أعان بخيره وهو خير مُعين ، ونشكره على أن بصّرنا فى الإرادات ، بالملائكة المُقرّبين ، ونصّرنا فى الولايات ، بالقوىّ الأمين ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً أنوارُها فى القلب مُشرِقةٌ على الصّفَحات والجبين ، وأذكارُها على اللّسان جعلت الإنسان من صالح المؤمنين ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمّدا عبدُه ورسولُه هادى المهتدين ، ومُوضّحُ شِرْعة الإحسان للمحسنين ، و « أبو الطّيّب » و « أبو القاسم » كُنِّىَ بأولاده المُطهّرين ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان من السّابقين الأوّلين ، ومنهم من كان مَهيبًا للكُفر يُبين ، ومنهم من تزوّج بابنتَى الرسول ولم يتّفق ذلك لغيره فى سالف السنين ، ومنهم من كان الخيرُ ملءَ يديْه : فشمُولُ البركة بشماله وذو الفقار فى اليمين ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فأكرمُ التفويض ما صادف محلّا ، وأبركُ الولايات ماوجد قدْرًا مُعلًى ، وأحسنُ الإحسان ماأصبح به الحال مُحلًى ، وأسنَى الأنجم ما أشرق فى مطلَعه وتجلّى ، وأحقّ [الولاة] بإعلاء منصبه من أقبلت عليه وجوهُ الإقبال حين تولّى ؛ وأولى [الولايات] بإجمال النظر وإمعانه ، فى تشييد شانه ، وتمكين مكانته ومكانه ، وحفظ حوزته من سائر أركانه — وكالةُ بيت المال المعمور التى بها تُصان الأرض المقيسة : ومنها تُستبصر الآراء الرئيسة ؛ وبها يُؤمَنُ الاستيلاء على المحالّ والأبنية من كلّ جائر ، وبها تُزادُ قيمُ المَبيعات ممّا هو لبيت المال ما بين عامرٍ وداثر ؛ وإلى متولّيها تأتى الرّغبات ممن يبتاعُ أرضا ، وبه تُمضَى المصالح وتُقضَى ، وبه يظهر التميُّزُ فى الثمن الأرضَى ؛ وهى فى الشّام فخيمةُ المقدار ، كريمة الآثار ، مرضيّةٌ بالربح فى كل أرض بيّنةُ المصالح فى كلّ بناء دائرةٌ بالنجح فى كل دار ؛ فلا يَشيمُ برقَها ، ويتوّجُ فرقَها ، ويُوفّيها حقّها ، إلّا مَن له علمٌ وتبصّره ، وعِرفانٌ أوضح الطريق وأظهره ، وحُسنُ رأى فيا آثره وأثره ، وصَدارةٌ ورد بها منهل الكرام البرره .

وكان فُلانٌ هو ذُو السُّؤْدُد العَرِيق، والبَاسِقُ فى الدَّوْح الوَرِيق، والمُنْتَسِبُ الىٰ أَعَزِّ فريق، والطَّيِّبُ أَصْلًا وفَرْعًا على التَّحْقِيق، والإمَامُ فى عُلومـه التى أَصَّلَت التَّفْرِيعَ ووَصَّلَتِ التَّفْرِيق، والمُوَفَّقُ فيما يَأْتِى ويَذَرُ واللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيـق؛ قد أَشْرَق بِدَمَشْق نَجْمُه نُورا، وٱبْتَسَمَ البرقُ الشَّامِىُّ به سُرُورا، وتَصَدَّر بمَحَافِلِها فشَرَح صُدُورا، وٱبْتَنىٰ له سُؤْددا وجعَلَ مكَارِمَ الأخلاق عَلَيه سُورا؛ تُلْقىٰ بَحْضَرِه المسائلُ فتَلْقىٰ منه وليًّا مُرْشِدا، وتُذْكَرُ لَدَيْه المَباحِثُ فتَجِدُ علىٰ ذِهْنِـه المُتَوَقِّدِ هُدَىٰ، وإذا ٱضْطَرَبَ قَوْلٌ مُشْكِلٌ سَكَن بإبانَتِه وهَدَا؛ إنْ تَأَوَّلَ أَصَاب فى تأْوِيلِه، وإن نَظَر فى مَصْلَحَةٍ كانَ رَأْيُه فى السَّداد مُوَافِقًا لِقِيلِه، وقد ٱستخرنا الله تعالىٰ ـ وهو نِعْمَ الوكيل ـ فى تَوْكِيلِه.

فلذلك رسِم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فَلْيَأْتِ هذا المَنصِبَ المُنْصَبَّ وَبْلُ بَرَكَتِه من بَابِه، ولْيُخَيِّمْ فى فسيح رحابه، ولْيَنعَمْ بجنَّاتِه فى جَنَابِه؛ ولْيُحَرِّرْ ما يباع من أَمْلَاكِ بيت المـال بشروطه ولَوَازِمِه المسطورةِ فى كِتَابِه، ولْيَرْدَعْ من ٱسْـتَوْلىٰ علىٰ أَرْضٍ باغتصابه، فليس لِعِرْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ : وهو إما بِنَاءٌ بإنْشَائِه وإمَّا غِرَاسٌ بإنْشَابِه، وما يَرْتَجِـعُ الىٰ بَيْت المـال المعمور من أَرْضٍ وعَقَار، وروضاتٍ ذَاتِ غِرَاسٍ وأَنْهار، وقُرًى وما يُضاف إلىٰ ذلك من آثار؛ فلْيُحَرِّرْ مَجمُوعَه، ولْيَسْلُكْ فى ذلك الطريقَةَ المَشْرُوعه. ولْيُشْفِقْ إشْـفَاقَ المتَّقِينَ المـاهدين لمآلهم، ولْيَنْصَحْ لَنَـا وللسلمينَ فهو وَكِيلُ بَيْتِ مَا لهم. ومن مَاتَ ولا وَارِثَ له من عَصَبَةٍ أو كَلَالَه، فإنَّ لبيتِ المَـال أَرْضَه ودَارَه ومَالَه .

وقد وَكَلْنا إليك هذا التقليد وقلَّدناك هذه الوَكَالَه؛ ووَالِدُك ـ رحمه الله ـ كانت مُفَوَّضَةً إليه قديمـا فلذلك أَحْيَيْنَا بك تلك الأَصاله .

وٱعْلَم ـ أعَزَّك الله ـ أنَّ الوَصَايا إنْ طالت فقد طاب سَبْحها ، وإن أوجزتْ فقد كَفَى لَمْعُها ولَمْحُها ، وعَلَى الأمْرَيْن فقد أنارَها هنا بالتوفيق صُبْحُها ، وحسْن بالتصديق شَرْحُها ، وأطرب من حَمَامِ أقلامها صَدْحُها ، والتَّقْوَى فهى أوّلُها وآخِرُها وخَتْمُها وفَتْحُها ، واللهُ تعالى يَسْقِى بك كُلَّ قَضْبَةٍ [ذَوَى] صَبْحُها(١) ، والخير يكون إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخة توقيع شريف بوَكَالة بيْتِ المَالِ بالشَّام أيْضا :

الحمد لله كافِى مَنْ تَوكَّلَ عليْه ، ومُحْسِنِ مآلِ مَن فَوَّضَ أمْرَه إليه ، ومُجْمِّلِ مآبِ مَن قَدَّم رَجاءَنا عند الهِجْرَة إلى أبوابنا بين يديه ، ومُقرِّبِيْن من أشْهر فى آستمطار عَوارِفنا بكمال الأدوات ناظِرَيْه .

نحمده على نِعَمِه التى جعلت سَعْىَ مَنْ أمَّ كَرَمنا ، مَشْكُورا ، وسَعْد من قَصَد حَرَمنا ، مَشْهُورا ، وإقْبالَ مَن أقْبل إلى أبوابنا العالية مُحقَّقا يتقلَّب فى نِعَمِنا مَحْبُورا ، ويَنْقَلِبُ إلى أهْله مَسْرُورا ، ونشهد أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لاشريكَ له شَهادةً نَتَضَمَّدُ فيها بالإخلاص ونَعْتَصِم ، ونَتَمسَّك فى الدُّنيا والآخرة بعُرْوتها ، التى لاتَنْفَصِم ، ونُوَكِّلُ فى إقامة دعوتها ، سُيُوفَنا التى لاتزال هى وأعْناقُ جاحِدِيها تَخْتَصِم ، ونشهد أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أضَاءتْ شريعته ، فلم تَخْفَ على ذِى نَظَر ، وأنَارَتْ مِلَّته ، فأبْصرها القلب قبل البَصَر ، وعَمَّتْ دعوتُه ، فاستوَى فى وجوب إجابتها البَشَر ، وٱخْتَصَّت أُمَّتُه ، بعلماء يُبَصِّرُون من فى طَرْفه عَمًى ويُظْهِرُونَ حَقَّ مَن فى بَاعه قِصَر ، صلَّى الله عليه وعلى آله الذين عَمِلُوا بما عَلِمُوا ، وعَدَلوا فيما حكَموا ، وحَفِظُوا بالحَقّ بيوتَ أمْوال الأئمّة

(١) القضبة الرطبة من النبات وذوى يبس والصبح فى الأصل خروج العنقود من كامه .

فاشترك أهل الملّة فيما غنموا، صلاةً توكّل الإخلاص بإقامتها، وتكفّل الإيمان بإدامتها، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد : فإن أهمّ ماصُرفت إليه الهمم، وأعمّ مانوجب فى اختيار الأكفاء له براءة الذمم، وأخصّ ما اتخذنا الاستخارة فيه دليلا، وأحقّ ما أقمنا عنّا فيه من أعيان الأمة وكيلا، لا يدعُ حقًّا للأمة ما وجد إليه سبيلا – أمرُ بيت مال المسلمين الذى هو مادّةُ جهادهم، وجادّةُ جلادهم، وسببُ استطاعتهم، وطريقُ إخلاصهم فى طاعتهم، وسدادُ ثغورهم، وصلاح جمهورهم، وجماعُ مافيه إتقان أحوالهم واستقرارُ أمورهم، ومن آكد مصالحه وأهمّها، وأخصّ قواعده وأعمّها، وأكمل أسباب وُفوره وأتمّها، الوكالةُ التى تصون حقوقه أنْ تُضاع، وتمنعُ خواصّه أن تُشاع، وتحسنُ عن الأمة فى حفظ أموالها المناب، وتتولّى لكلّ من المسلمين فيما فرض الله لهم الدعوى والجواب، ولذلك لم تزل تتخيّر لها من ذخائر العلماء من زانَ الورعُ سجاياه، وكمّل العلمُ مزاياه، وانعقد الإجماعُ على كماله، وقصرت الأطماع عن التحلّى بجمالِ علمه : وهل يُبارَى من كان علمُه من جماله .

ولما كان المجلس السامىّ، الشيخىّ، الفلانىّ، هو الذى ظهرت فضائلُه وعلومُه، ودلّ على بلوغ الغاية منطوق نعته ومفهومُه، وحلّى علمَه بالورع الذى هو كمال الدين على الحقيقه، وسلك طريقةَ أبيه فى التفرّد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلافٍ صاحبَ تلك الطريقه، مع نسب لنسيب مامرّ حلاله، وتُقىً مما ورِثه من أبيه عن كلاله، وثباتٍ فى ثبوت الحقّ لاتستفزّه الأغراض، وأناة فى قبول الحكم لاتُحيل جواهرَه الأعراض، ووقوف مع الحقّ لا يُبعدُه إلى ما [لا] يجب، وبسطةٍ فى العلم بها يقبلُ مايقبل ويجتنب مايجتنب، وتحقيقٍ تجرى الدعاوى الشرعيةُ على محجّته، وإنصافٍ لا يضرُّ خصمَه معه كونُه ألحنَ منه بحجّته، مع وفادة إلى

أبوابنــا العاليــة تقاضت له كرمنا الجم ، وفضلنا الذى خص وعم ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن يرجع إلىٰ وطنه مشمولا بالنعم ، مخصوصا من هــذه الرتبة بالغاية التى يكبو دونها جواد الهمم ؛ منصوصا علىٰ رفعــة قدره التى جاءت هــذه الوظيفة علىٰ قدر، مداوما [لشكر أبوابنا](١) علىٰ اختياره لهــا بعد إمعان الاختيار و إنعام النظر .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه وكالة بيت المــال المعمور بالشام المحروس .

فليرق هذه الرتبة التى هى من أجل مايرتقىٰ ، و يتلق هذه الوكالة التى مدار أمرها على التقىٰ وهو خير مايتقىٰ ، و يباشر هــذه الوظيفة التى مناط حكمها فى الورى الذى لاتستخف صاحبه الأهواء ولا تستفزه الرقىٰ ؛ ولينهض بأعبائها مستقلا بمصالحها ؛ متصديا لمجالس حكمها العزيز لتحرير حقوق بيت المــال وتحقيقها ، متلقيا مايرد من أمر الدعاوى الشرعيــة التى يبت مثلها فى وجهــه بطريقها ؛ منقبا عن دوافــع ما يثبت له وعليه ، محســنا عن بيت المــال الوكالة فيما جره الإرث الشرعى إليــه ؛ مستظهرا فى المعاقدة بمــا جرت به العادة من وجوه الاحتراز ، مجانبا جانب الحيف فى الأخذ والعطاء بأبواب الرخص وأســباب الجواز ؛ متجنبا فى تشدده عن طريق الظلم الذى من تحلىٰ به كان عاطلا ، سالكا فى أموره جادة العدل فإنه سيان من ترك حقه وأخذ باطلا ؛ مجتهــدا فى تحقيق ما وضح من الحقوق الشرعيــة وكمن ، متتبعا ماغالت الأيام فى إخفائه فإن الحق لايضيع بقدم العهد ولا يبطل بطول الزمن .

و فى أوصافه الحسنه ، وسجاياه التى غدت بهــا أقلام أيامنا لسـنه ، وعلومه التى أسهرت إليها أفكاره والعيون وسنه ، مايغنى عن وصايا يطلق عنان البراعة فى تحديدها ، أو قضايا ينطق لسان البراعة فى توكيدها ؛ ملاكها تقوى الله وهى سجية نفســه ،

(١) فى الأصل « مداوما لهــا على الخ » .

ونَجِيَّةُ أُنْسِه، وحِلْيَةَ خِلَالِه المعروفة فى يَوْمه وأَمْسِه؛ فلْيقدِّمْها فى كُلِّ أَمْر، ويَقِفْ عِنْد رضا الله فيها لا رِضَا زَيْد ولا عَمْرو؛ والله الموفق بمنّه وكَرَمه:

[الوظيفة الخامسة — الخَطَابه[1]].

وهـذه نسخة توقيع بالخَطَابة بالجامع الأُمَوِىّ، كُتِب بهـا لزَيْن الدِّين الفارقىّ، من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين مَحْمود الحَلَبىّ:

الحمد لله رافع الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات، وجَاعِلِ أَرْجَاءِ المَنَابِر بفضائل أَئِمَّة الأُمَّة أَرِجَات، وشَارِح الصُّدُور بذِكْرِه بعد أَنْ كانت من قَبْـل المواعظ حَرِجات؛ الَّذى زان الدِّينَ من العلمـاء بمن سُلِّمت له فيه الإمَامَه، وصَانَ العِـلْمَ من الأئمة المتقين بمن أَصْحَبَ[2] له جَامِحُ الفَضْـل يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَه؛ ووَطَّدَ ذِرْوَةَ المِنْبَر الكَرِيم لمن يحفَظ فى هـداية الأُمَّة حَقَّـه ويَرْعَىٰ فى البِدَايَة بنَفْسِـه ذِمَامَه، ووَطَّأَ صَـدْرَ المحراب المنير لِمَن إذَا أَمَّ الأُمَّة أَرَتْه خَشْيَةُ الله أَنَّ وجْهَ الله الكَرِيم أَمَامَه.

نَحْمَـده علىٰ ما مَنَحنا من صَوْنِ صَهوَاتِ المَنَابِر إلا عن فُرْسَانِها، وحِفْظ دَرَجَات العِلْم إلا عَمَّن ينظر بإنْسَانِ السُّـنَّة ويَنْطِقُ بِلِسَانِها. ونشهد أَنْ لا إله إلَّا الله وحده لاشريكَ له شهادةً لاتزال أَفْوَاهُ المَحَارِيب تُثْبِتُ طُرُوسَها، وأَنْوَاءُ المَنَابِر تُنْبِتُ غُرُوسَها، وأَلْسِنَةُ الإخلاص تُلْقِي على المَسَامِع من صُحُفِ الضَّمَائِر دُرُوسَها. ونشهد أَنَّ محمدًا عبدُه ورَسولُه الذى شُرِّفتِ المَنَابِر أَوَّلًا بِرُقِيِّه إليها، وآخِرًا بذِكْر اسْمِه الكرِيم عَلَيْها؛ فهى الرُّتْبَـةُ التى يَزِيدُ تَبْصِرَةً علىٰ مَمَرِّ الدُّهُور بَقَاؤُها، والدَّرَجَة التى يطول إلا علىٰ ورثة عِلْمِه ٱرْتِقَاؤُها؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الَّذِين ذَكَّرهم بأَيَّامِ الله فذَكَرُوها،

(1) أضفنا هذه الزيادة لاقتضاء الكلام لها.

(2) أى ذلّ وانقاد بعد صعوبة.

وبصّرهم بآلاءِ اللهِ فشكروها ، وعرّفهم بمواقع وحدانيّته فجادلوا بسنّته وأسنّته الذين أنكروها ، صلاةً لا تبرح لها الأرض مسجدا ، ولا يزالُ ذِكرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنجِدا ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّه لمّا كانت الخطابة من أشهر شعائر الإسلام ، واظهر شعارِ ملّةِ سيدِنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، شرعها اللهُ تعالى لإذكار خلقه بنعمه ، وتحذير عباده من نِقَمه ، وإعلام بريّته بما أعدّ لمن أطاعه فى دار كرامته من أنواع كرمه ، وجعلها من وظائف الأمة العامّه ، ومن قواعد وِراثة النبوّة التامّه ، يقِفُ المتلبّس بها موقفَ الإبلاغ عن اللهِ لعبادِه ، ويقومُ النّاهض بفرضها مقام المؤدّى عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلم ـ إلى أمّته عن مُرادِ اللهِ ورسوله دون مُرادِه ، ويُقيمُها فى فروض الكفايات على سنن سُبْلِه[1] ، ويستنزلُ بها موادّ الرحمة إذا ضنّ الغيثُ على الأرض بوَبْلِه ؛ وكان المسجدُ الجامع بدِمَشْق المحروسة هو الذى سارتْ بذِكْره الأمثال ، وقيل هذا من أفراد الدّهر التى وُضعتْ على غيرِ مثال ؛ قد تعيّن أنْ نرتاد له بحكم خُلُوّه من الأئمة مَن هو مِثْلُه فردَ الآفاق ، وواحدُ العصْر عند الإطلاق ، وإمامُ علماء زمانه غيرَ مُدافَع عن ذلك ، وعلّامةُ أئمّة أوانه الذى يُضىءُ بنُورِ فتاويه لَيْلَ الشكّ الحالك ، وناصرُ السُّنّة الذى تَذُبُّ علُومُه عنها ، وحاوى ذخائر الفضائلِ التى تَنْمى على كثْرة إنفاقه على الطّلبَة منها ، وشيْخُ الدُّنيا الذى يُعقَدُ على فَضْله بالخناصر ، ورُحْلَةَ الأقطار الذى عَلَتْ نسْبتُه إلى أنواع العلوم زاكيةَ الأحْسَاب طاهرةَ الأواصر ، وزاهدُ الوقْت الذى زان العِلْمَ بالعمل ، وناسكُ الدّهْر الذى صانَ الورَعَ بامتداد الفضائل وقِصرِ الأمَل ، والعابدُ الذى أصبح حُجّةَ

(١) فى الأصل "نبيه" .

العَارِف وقُدْوَةَ السَّالِك ، والصَّادِعُ بالحقِّ الذى لا يُبَالِي من أَغْضَب إذا رَضِيَ اللهُ ورَسُولُه بذلك .

ولما كان فلانٌ هو الذى خطبَتْه لهذه الخطَابة علومُه التى لا تُسَامَى ولا تُسَام ، وَعيَّنَتْه لهذه الإمَامة فضائلُه التى حَسُنَت بها وجُوهُ العلمِ الوِسَامُ ، حتَّى كأنَّها فى فَم الزمن ابْتِسَام ، وألْقَىٰ إليه مَقَالِيدَها كَمَالُه الذى صَدَّ عنها الخُطَّاب ، وسَدَّ دونَها أبوابَ الخطَاب ، وقيل : هذا الإمام الشافعىّ أوْلَىٰ بهذا المِنْبَر وأحْرَىٰ بهذا المِحْرَاب ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أنْ نُحَلِّيَ أعْطَاف هذا المِنْبَر بفَضْلِه الذى يُعِيدُ عُودَه رَطِيبا ، ويُضَمِّخُ طِيباً منه مَاضَمَّ خَطِيبا ، وأنْ نصَدِّرَ بهذا المِحْرَاب مَن نعلم أنَّه لَدَى الأئمَّة مُنَاجٍ لِربِّه ، وَاقِفٌ بين يَدَىْ مَن يَحُولُ بين المَرْء وقَلْبِه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زال يُولِّى الرُّتَب الحسانَ ، ويَجْرِى بما أمَر اللهُ به من العَدْل والإحْسان ـ أنْ تفوّض إليه الخطَابة والإمامة بجامع دِمَشْق المحروس علىٰ عادة من تقدّمه .

فليَرْقَ هذه الرُّتْبَةَ التى أعْطَاه اللهُ ذِرْوَتَها ، وأعْطَاه الفَضْلُ صَهْوَتَها ، وعَيَّنَه تَفَرُّدُه بالفضائل لإذْكَار الأئمَّة عليها ، ورَجَّحَه لها انعقادُ الإجْمَاع علىٰ فَضْلِه حتَّىٰ كادت للشَّوْقِ أنْ تَسْعىٰ إليه لَوْ لَمْ يَسْعَ إليها ، حتَّىٰ تَخْتَالَ منه بإمَامٍ لا تَعْدُو مَوَاعِظُه حَبَّاتِ القلوب ، لأنها تَخْرُجُ من مِثْلِها ، ولا تَدَعُ خُطَبُه أثَرًا للذُّنُوب ، لأنَّها تُوكِّلُ مَاءَ العُيُونِ بغَسْلِها ، ولا تُبْقِي نَصَائِحُه للدُّنيا عند المُغْتَرِّ بها قَدْرًا ، لأنَّها تَبَصِّره بخِدَاعِها ، ولا تترك بَلاغَتُه للمُقَصِّر عَن التَّوبَة عُذْرًا ؛ فإنَّها تُحَذِّره من سُرْعَة زوال الحياة وانْقِطَاعِها ، ولا تجعل فَوَائدُه لذَوِي النَّجْدَة والبَأْسِ الْتِفَاتًا إلَىٰ أهْلٍ ولا وَلَدٍ لأنَّها تُبَشِّرُه بما أعدَّ اللهُ

لمن خرج فى سبيله، ولا تمكن زواجره من نشر الظلم أن يمد إليه يدًا لأنها تخبره بما فى الإقدام على ذلك من إغضاب الله ورسوله .

فليطل — مع قصر الخطبة — للظالم مجال زجره ، وليطب قلب العالم العامل بوصف ما أعد الله له من أجره ؛ وليجعل خطبه كل وقت مقصورة على حكمه ، مقصودة فى وضوح المقاصد بين من ينهض بسرعة إدراكه أو يقعد به بطء فهمه ؛ فخير الكلام مادل ببلاغته وإن قل ، وإذا كان قصر خطبة الرجل وطول صلاته مئنة من فقهه فما قصر من حافظ على حكم السنة فيهما ولا أخل .

[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأموى ، كتب به للقاضى «تقى الدين السبكى» .

الحمد لله الذى جعل درجات العلماء آخذة فى مزيد الرقى ، وخص برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كل تقى ، وألقى مقاليد الإمامة لمن يصون نفسه النفيسة بالورع ويقى ، وأعاد إلى معارج الجلال ، من لم يزل يختار حميد الخلال ، وينتقى ، وأسدل جلباب السؤدد على من أعد للصلاة والصلات من قلبه وثوبه كل طاهر نقى .

نحمده على أن أعلى علم الشرع الشريف وأقامه ، وجعل كلمة التقوى باقية فى أهل العلم إلى يوم القيامه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عدل[1] قيد الفضل بالشكر وأدامه ، وأيد النعمة بمزيد الحمد فلا غرو أن جمع بين الإمامه

(١) فى الأصل «شهادة عدل فيها قيد الخ» وضبب على لفظة «فيها» .

والزَّعَامَه ، ونشهد أنّ محمدًا عبـدُه ورسـولُه الذى أعلى اللهُ به عَقـيرة مُرَتِّل الأذان ومُـدْرِج الاقامه ، وأغلىٰ ببركَتِه قِيمَةَ مَن تَمَسَّك بسَبِيل الهُـدَىٰ ولازَم طَرِيق الاستقامه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عَقَدُوا عُهودَ هذا الدِّين وحَفِظُوا نظَامَه ، وعلىٰ أصحابه الذين مامنهم إلا مَن اقْتَدىٰ بطَرِيقه فاهْتَدىٰ إلىٰ طُرُق الكَرامه ، صلاةً لاتزال بَرَكاتُها تُؤَيِّد عَقْد اليَقِين وتُدِيمُ ذِمَامَه ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعـدُ ، فإنّ من شِيَم دَولَتِنا الشريفةِ أن تَرفَع كُلَّ عَالِي المِقْدَار مَكَانًا عَليًّـا ، وتجعَـلَ له من اسْمِه وصِفَتِه قَوْلًا مسموعًا وفعلًا مَرْضِيًا ، وتُوَطِّدَ له رُتَبَ المعـالى وتَزِيدَ قَـدْرَه فيها رُقِيًّا ، وتَكْسُوَهم من جِلْبَاب السُّـؤْدُدِ مِطْرَفًا مباركا وَطِيًّا ، وتُطْلِقَ لِسَان إمَامه بالمواعظ التى إذَا تَعَقَّلَها أُولُو الألْباب خَرُّوا لطَاعَةِ رَبِّهم سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

ولـما كان المجلسُ العالِى هو الذى أعَزَّ أحكام الشريعةِ الشَّرِيفـة وشَادَها ، وأبدىٰ من ألفاظه المباركةِ المَوَاعِظَ الرَّبَّانِيَّـةَ وأعَادها ، وأذَاع فيهـا أسْرَارَ اليَقـين وزَادَها ، وأصْلَح فسادها ، وقوّم مُنَآدَها ، وكَيْفَ لا وقد جَمَع من العُـلُوم أشْـتَاتا ، وأحيَـا من مَعَالِم التُّقَىٰ رُفَاتا ، وأوضَح من صفات العلمـاء العاملين بهَدْيِه وسَمْتِه هَدْيًا وسَمْـتا ، فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحىّ العمادى ... ...

⁂

قلتُ : وهـذه نسخة توقيع بخَطَابتـه أيضا ، أنْشأتُه للشَّـيخ « شِهَاب الدين ابن حَاجّى » :

الحمد لله الذى أطْلع شِهَابَ الفَضَائِل فى سَمَاءِ مَعَالِيها ، وزَيَّن صَهَواتِ المَنَابِر بمن قَرَّتْ عُيُونُها من وِلَايَتِه المباركةِ بتَوالِيها ، وجَمَّلَ أعْوادَها بأجَلِّ حَبْرٍ لو تَسْتَطِيع ذ ق

قدرتها لسعت إليه وفارقت ـ خرقًا للعادة ـ مبانيها، وشرّف درجها بأكمل عالم ماوضع بأسافلها قدمًا إلا وحسدتها على السبق إلى مس قدمه أعاليها .

نحمده على أن خص مصاقع الخطباء من فضل اللسن بالباع المديد، وقصر الجامع الأموي على أبلغ خطيب يشيب في تطلب مثله الوليد، وأفرد فريد الدهر باعتبار الاستحقاق برقي درج منبره السعيد . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تخفق على مواكب الصفوف أعلامها، وتتوفر من تذكير آلاء الله تعالى أقسامها : ولا تقصر عن تبليغ المواعظ حبات القلوب أفهامها ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفضل نبي نبه القلوب الغافلة من سناتها، وأيقظ الخواطر النائمة من سباتها ، وأحيا رميم الأفئدة بقوارع المواعظ بعد مماتها؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين علا مقامهم ، ففاتت أعقابهم الرءوس ، ورفعت في المجامع رتبهم، فكانت منزلتهم منزلة الرئيس من المرءوس، صلاة لا تزال الأرض لها مسجدا ، ولا يبرح مفترق المنابر باختراق الآفاق لاجتماعها موردا .

وبعد، فإن أولى ماصرفت العناية إليه، ووقع الاقتصار من أهم المهمات عليه ـ أمر المساجد التي أقيم بها للدين الحنيف رسمه، وبيوت العبادات التي أمر الله تعالى أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ لا سيما الجوامع التي هي منها بمنزلة الملوك من الرعيه، وأماثل الأعيان من بين سائر البريه؛ ومن أعظمها خطرا، وأبينها في المحاسن أثرا، وأسيرها في الآفاق النائية خبرا ؛ بعد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها، ويعول في قصد الزيارة عليها ـ جامع دمشق الذي رست في الفخر قواعده، وقامت على ممر الأيام شواهده، وقاوم الجم الغفير من الجوامع واحده، ولم تزل الملوك تصرف العناية إلى إقامة شعائر وظائفه ؛ وتقتصر من أهل كل فن على رئيس ذلك الفن وعارفه ؛

فما شغرت به وظيفةٌ إلا اختاروا لها الأعلى والأرفع، ولا وقع التردد فيها بين اثنين إلّا تقبّلوا منهما الأعلم والأورع؛ خصوصًا وظيفة الخطابة التى كان النبىّ صلّى الله عليه وسلّم للقيام بها متصدّيا، وعلم الخلفاءُ مقامَ شرفها بعدُ فباشروها بأنفسهم تأسّيا.

ولما كان المجلس العالى، القاضوىّ، الشّيخىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدىّ، الأكملىّ، الرّئيسىّ، المفوّهىّ، البليغىّ، القريدىّ، المفيدىّ، النّجيدىّ، القدوىّ، الحجّىّ، المحقّقىّ، الورعىّ، الخاشعىّ، النّاسكىّ، الإمامىّ، العلّامىّ، الأثيلىّ، العريقىّ، الأصيلىّ، الحاكمىّ، الخطيبىّ، الشّهابىّ: جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العاملين، أوحد الفضلاء المفيدين، قدوة البلغاء المجتهدين، حجّة الأمّة، عمدة المحدّثين، فخر المدرّسين، مفتى المسلمين، معزّ السنة، قامع البدعة، مؤيّد الملّة، شمس الشريعة، حجّة المتكلّمين، لسانُ المناظرين، بركة الدّولة، خطيبُ الخطباء، مذكّر القلوب، منبّه الخواطر، قدوة الملوك والسّلاطين، ولىّ أمير المؤمنين «أبو العبّاس أحمد» أدام الله تعالى نعمته: هو الذى خطبته هذه الخطابة لنفسها، وعلمت أنّه الكفءُ الكاملُ فنسيت به فى يومها ما كان من مصاقع الخطباء فى أمسها؛ إذ هو الإمامُ، الذى لا تُسامىَ علومُه ولا تُسام، والعلّامة الذى لا تُدرك مداركه ولا تُرام؛ والحبْرُ الذى تُعقد على فضله الخناصر، والعالم الذى يعترف بالقصور عن مجاراة جياده المناظر، والحافظُ الذى قاوم علماء زمانه بلا منازع، وعلّامةُ أئمة أوانه من غير مُدافع؛ وناصرُ السُّنّة الذى يذُبّ بعلومه عنها، وجامعُ أشتات الفنون التى يقتبس أماثلُ العلماء منها، وزاهدُ الوقت الذى زانَ العلمَ بالعمل، وناسكُ الدّهر الذى قصّر عن مبلغ مداه الأمل؛ ورحلةُ الأقطار الذى تُشدُّ إليه الرّحال، وعالمُ الآفاق الذى لم يسمح الدّهرُ له بمثال ـ اقتضى

حسن الرأى الشريف أن نرفعه من المنابر على درجها ، ونقطع ببراهينه من دلائل الإلباس الملبسة داحض حججها ، ونقدمه على غيره ممن رام إبرام الباطل فنقض ، وحاول رفع نفسه بغير أداة الرفع فخفض .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، [illegible] — لا زال يرفع لأهل العلم راسا ، ويحقق لذوى الجهل من بلوغ المراتب السنية إياسا — أن يفوض إلى المجلس العالى المشار إليه خطابة الجامع المذكور بالشرائط [illegible] على أتم القواعد وأكملها ، وأحسن العوائد وأجملها .

فليرق منبره الذى عاقب فيه رائحة الطالع أعزل غيره الغارب ، وليتبوأ ذروة سنامه الأرفع من غير شريك له ولا حاجب ؛ وليقصد بمواعظه حبات القلوب ، وليرشق بشهاب قراطيسها المانعة فإنها الغرض المطلوب ؛ وليأت من زواجر وعظه بما يذهب مذهب الأمثال السائره ، ويرسلها من صميم قلبه العامر فإن الوعظ لا يظهر أثره إلا من القلوب العامره ، ويقابل كل قوم من التذكير بما يناسب أحوالهم على أكمل سنن ، ويخص كلا من أزمان السنة بما يوافق ذلك الزمن ؛ والوصايا كثيرة وإنما تهذيب العلم يغنى عنها ، وتأديب الشريعة يكفى مع القدر اليسير منها ؛ وتقوى الله تعالى ملاك الأمور وعنده منها القدر الكافى ، والخاص الوافى ؛ والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرى ، ويرفع على الجوزاء مجلسه العالى : «وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا» .

* * *

الوظيفة السادسة — التَّداريسُ الكِبَار بدِمَشْقَ المحروسة .

وهــذه نسخة تَوقيــع بتَدْريس المدرســة الرَّيْحانية ، كُتِب به لقــاضى القضاة «عماد الدين الطَّرَسُوسىّ» الحَنَفِيّ، عوضا عن جَلَال الدِّين الرَّازِىّ . كُتِبَ بسؤال بعض كُتَّاب الإنشاء، وهى :

الحمد لله الذى جعل عِمَادَ الدِّين عَلِيّا ، وأحْكَمَ مَبَانِىَ مَن حَكَمَ فلم يُدْعَ عَصِــيّا ، وقَضَىٰ فى سَابِق قَضَائِه لِإمْضَاء قَضَائِه أَنْ لا يُبْقِىَ عَتِيّا .

نحمده علىٰ ما وهب به من أوقات الذِّكْر بُكْرَةً وعَشِــيّا ، ونشهد أنْ لا إِلٰه إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنَبِّــه بالعِلْم بوَحْدَانِيّتِــه من كان غَبِيّا ، وتَكْبِتُ لمُقــاتِل سيوف العلمــاء مَنْ كان غَوِيّا . ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُهُ الذى كان عند رَبِّه رَضِيّا ، وعلىٰ ذَبِّه عمّــا شَرَع من الدين مَرْضِيّا ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يزال فَضْلُ قَدِيمِها مِثْلَ حَدِيثِها مَرْوِيّا ، وسلَّمَ تَسليمًا كثيرا .

وبعــد، فلمّا كانت رُتَبُ العِلْم هى التى يُتَنَافَسُ عليها، ويُتَطَاوَلُ إلى التَّنَقُّل إليها، ويُخْتَارُ منهــا ما كُسِىَ بمباشرة المتقدِّم مَلَابِسَ الجَلَال ، وآنَ له أنْ ينتقل إليه البَدْر بعد الهلال، وكانت المدرسة الرَّيْحانيَّةُ بمحروسة دِمَشْقَ هى رَيْحَانَةَ المَجَالِس، ورَوْضَةَ العِلْم الزَّاكِيَةَ المَغَارِس، وبَحْرَ الفَوائِد الذى يُخْرِجُ الفرائد، ومَسْرَحُ العلمــاء الذى قد آن أنْ يظفَر به منهم من الألْفِ زائد .

ولـمّــا تُوُفِّىَ من آلت إليه، وعَالَت مسْأَلَتُها إلّا عَلَيْه، وكان ممّن قد وَلِىَ الأحكام آسْتِقْلَالا ، وكان لبَصَر الدُّنْيــا جلاءً وللدِّين جَلَالا ، لم تَكُن إلّا لمن يُنْمَىٰ به ذلك

الذَّاهبُ ، وينسب إليه علمُ مذْهَبِه كلّه وإن كان لا يقتصر به على بعض المذاهب؛ ويعرفُ مَن هُوَ وإن لم يُصَرّح باسْمِه، ويعرفُ مَن هُوَ وإن لم يُذْكر بعلاء [1] قَدْره العَلِيّ وعِلْمِه؛ ولا يُمْتَرَى أنّه خَلَف «أبا حَنِيفَةَ» فيمن خلف، وحَصَل على مِثْل ما حَصَّل عليـه القَاضي «أبو يُوسُف» وذهب ذلك فى السّلَف الأوّل مع من سَلَف؛ وأعْلَمَ بجِدَاله أنّ «محمدَ بنَ الحَسَن» ليس من أقْران أبِي الحَسَن، وأنّ «زُفَر» لم يُرْزَق طِيبَ أنْفَاسِـه فى بَرَاعة اللّسَـنِ؛ وأنّ «الطَّحَاوِيّ» ما طَمَا به «قَلْبٌ إلى الحِسَانِ طَرُوب» و «القَاضِي خَان» لَدَيْه منه الأنْبوب، وتَلَقّب «شَمْسَ الأئمة» لما طلع عِلْمَ أنّهُ قد حَانَ من شَمْسِ النَّهَـار غُروب، و «الرّازِيّ» لما جاء تيَقّن أنّه يروزه [2] عن علم الجيوب، و «المَرْغِينَانِيّ» مُسّ ولم يُرْغَنْ [3] له فى مطلوب، و «الثّلجِيّ» ما بَرّد لطَالِبِ غُلّه، و «الخَبّازِيّ» لم يُوجَد عنده لطَعَامٍ فَضْلَه، و «الهُنْدُوَانِيّ» ما أجْدَى فى جِلَاد الجِدَالِ ولا هَزّ نَصْـلَه؛ ولم يَزَل يُشَار إليـه والتّقْليدُ الشريف له بالحكم المُطْلَق بمـا تَضَمّنَه من مَحَاسِنِ أوْصافه شَاهِد، ودَسْتُ الحُكْم على عَلِيّ كيوانَ شائد؛ ومدارس العلم تُسرّ من حُبِّه، ما حُنِيت عليه من محاريبها الأضَالع، ومَجَالِسُ القضاء تُظْهِرُ بِقُرْبِه، مالم يكن تُدَانِى إليه المواضع .

وكان الجناب الكريم، العالى، القضَائيّ، الأجَلّ، الإمامىّ، الصّدْرِيّ، العَالِميّ، العَامِلِيّ، العَلّامىّ، الكَامِلِيّ، الفَاضِلِيّ، الأوْحدِيّ، المُفِيدِيّ، الوَرَعِيّ، الحَاكِمِيّ، العِمَادِيّ؛ ضِيَاءُ الإسلام، شَرَف الأنَام، صَدْر الشّام، أثِير الإمَام، سيد العلمـاء والحكّام؛ رَئِيس الأصْحاب، مُعِزّ السُّـنّة، مُؤَيّد المِلّة، جلَال الأئمة؛ حَكَم الملوك والسلاطين، خالِصة أميرِ المؤمنين، أبُو الحسن علِيّ بن الطّرَسوسِيّ الحَنَفِيّ، قَاضِي

---

(١) كذا فى الأصل ولعله من زيادة قلم الناسخ .
(٢) يروزه يسأله ويختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية .
(٣) من أرغن له فى كذا . أطاعه فيه .

القُضاة بالشّام ـ نشر مُلاءَةَ مذهبه ، وحلّى بجلوسه للحكم طرفَى النّهار إضاءةَ مُفضَّضه وتوشيع مُذْهَبِه ؛ طالمـا ساس الرّعيّةَ بحُكْمِه ، وساد نُظَراءَه فى معرفة العلوم الشّرْعيّة بعلمه وحِكَمه ؛ وسار مَثَلُ فَضْلِه فى الأقطار وضَوْءُ الشّمس مَرَدُّ شُعَاعِه ، فطَالَ إلى السّماء وقَصُر الأفق الممتدّ علىٰ طُول بَاعِه ، وفَاضَ فَيْضَ الغَمام وما آكَال البَحْرُ بكَيْلِه ولا صَار مِثْـلَ صَاعِه ؛ وعُرِضت عليـه هذه المدرسـة التى لم يكن لغيره أنْ يحيىٰ رِيحانَتَهـا ، ولا أنْ تؤدّى إلىٰ يَدِ سِوَاه فيُودِعَ أمانَتَها ؛ فآثَرها علىٰ أنّه ترك المدرسةَ المُقَدَّمِيَّة المتقدّمَ له دَرْسُها ، المُعَظَّم به فى كُلِّ حِينٍ غَرْسُها ؛ لِيُوسِّعَ بهـا على الطالب مَذْهَبَـه ، ويَفْرُغَ لهـا سَاعَةً من أوْقاتِه المُنْتَهَبَه ، ويَهَب [لهـا] من حَقّه الذى هو فى يده مالو شاء ما وَهَبَه .

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لاَ زَالَ يُقَرِّبُ الآماد ، ويُرْضِى القَوْم وأقْضاهُم عَلِيّ وأَثْبَتُهم طَوْدًا العماد ـ أن يفوّض إليه تَدْرِيسُ المدرسـة الرَّيْحانية المعيّنة أعْلاه ، علىٰ عادة من تَقَدّمه وقاعِدَته إلىٰ آخروقت ؛ بحكم تركه للقدّمية ليَهُبَّ عليـه رَوْحها وتهب له السّعادةُ رِيحها ؛ ولها من البُشْرىٰ بعلْمِه ما تَمِيس به رَيْحَانَةُ رِيحِها سُرُورا ، وتَمِيدُ وقد أكْنَتْ جَبَلًا من العِلْمِ وقُورا ؛ وتمتدّ وقد نَافَحَت فى مِسْكَة اللّيل عبيرا ، وفى أُقْحُوانَة الصّبَاح كافورا ؛ وما نُوصِى مِثْلَهَ ـ أجَلَّ اللهُ قَدْرَه ـ بوصـية إلا وهو يَعلَمُها ، ويُلَقّنُها من حِفْظِه ويُعلّمها ؛ ومن فصْل قَضَائِه تُؤْخَذُ الآداب ، وتَنْفُذُ سِهامُ الآراء والآرَاب . وتَقْوَى اللهِ بها بَاطِنُهُ مَعْمُور ، وكلُّ أحَدٍ بهـا مَأمور ؛ وما نُذَكِّره بها إلا علىٰ سبيل التّبرُّك بِذِكْرِها ، والتّمسُّك بأمْرِها . والفُقَهاء والمُتَفَقِّهَة هم جُنْدُه ، وبهم يَجِدُّ جِدُّه ، [فليجعلهم له فى المشكلات عُدَّه ، وليصرف فى] الإحسان إليهم جُهْده ؛ والله تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما وَلِى ، ويُعَيِّنُه لكلِّ عَلْيَاءَ لا يصلح أنْ يَحُلَّها إلّا عَلِى . وسبيلُ كلِّ وَاقِفٍ عليه العملُ به بعد الخطِّ الشريف أعْلاه .

⁂

الوظيفة السابعة — التصادير بدمشق المحروسة .

وهذه نسخة توقيع أنشأته لقاضى القضاة «بدر الدين محمد» ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء، وولده جلال الدين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموى بدمشق : أحدهما انتقل إليهما عن سلفهما، والثانى بنزول، وخرج عنهما عند استيلاء «تنم» نائب الشام على الشام فى سنة اثنتين وثمانمائة، ثم أعيد إليهما فى شوال من السنة المذكورة، فى قطع الثلث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين فى أيامنا الزاهرة متواصل رتب الكمال، مترددا فى فلك المعالى بأكرم مساغ بين بهاء وجلال؛ منزها عن شوائب النقص فى جميع حالاته : فإما مرتقب الظهور فى سراره؛ أو متمم بالتمام فى إبداره، أو آخذ فى الازدياد وهو هلال .

نحمده على أن أقر الحقوق فى أهلها، وانتزع من الأيدى الغاصبة ما اقتطعته الأيام الجائرة بجهلها؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحمى قائلها من شوائب التكدير، وتصون منتحلها من عوارض الإصدار إذا ورد أصفى مناهل التصدير؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبى اقتفت أمته آثاره واتبعت سننه، وأكرم رسول دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الحق وأعلام الهدى، وحماة الدين وكفاة الردى؛ صلاة يبقى على مدى الأيام حكمها، ولا يندرس على ممر الليالى رسمها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من رعيت له الحقوق القديمه، وحفظت له مساعيه الكريمه، وخلدت عليه النعم التى حق لها أن تكون بأهلها مقيمه؛ من كرم أصلا وطاب

فَرْعا ، وزَكَا مَنْبِتًا وعَذُبَ نَبْعا ، ووقع الإجْماعُ علىٰ فضله المتواتِر فأعْدِق الحُكْمُ بتفضيله قَطْعا ، ومن إذا تكلَّم فاقَ بفضله نَثْر اللآلى ، وإذا قُدِر قَدْرُه انحطَّت عن بلوغ غايته المَعالى ، وإذا طَلَع بَدْرُه المُضِىءُ من أُفُق مجلسه الموروث عن أبيه وأعْمامه قال : لَيْتَ أشياخى شَهِدُوا هٰذا المَجلِسَ العالى ، ومَن إذا جلَس بحَلْقته البهيّة غشيتْهُ من الهَيْبة جَلالَه ، وإذا أطافَتْ به هَالَة الطَّلَبَة والمُسْتفيدين قيل : ما أحسنَ هذا البَدْرَ فى هذه الهَالة ! ، ومَن تَتِيهُ طَلَبَتُه علىٰ أكابر العلماء بالانْتماء إليه ، وتَشْمَخُ نُفُوس تلامذَته علىٰ غيره من المتصدّرين بالجلوس بين يَدَيْه ، ومَن إذا أقَام بمِصْرَ طلع بالشّام بَدْرُه ، ولو أقَام بالشّام بَقِىَ بمِصْرَ على الدّوام ذِكْرُه .

وكان المجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العَالِمىّ ، العَامِلِىّ ، الأفْضَلِىّ ، الأكْمَلِىّ ، الأوْحَدِى ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدِىّ ، المُفِيدِىّ ، النّجِيدِىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجَّىّ ، المُحَقِّقِىّ ، الإمَامىّ ، الأصِيلِىّ ، البَدْرِىّ ، جَمَال الإسلام والمسلمين ، شَرَف العلماء العاملين ، أوحَدُ الفُضَلاء المُفِيدِين ، قُدْوَةُ البُلَغَاء ، حُجَّة الأدَب ، عُمْدَة المحدِّثين ، فَخْرُ المدرّسين ، مُفْتِى الفِرَق ، أوْحَد الأئمّة ، زَيْنُ الأُمّة ، خَالِصَة المُلُوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو عبد الله ، محمد ابن المجلس العالى ، القاضوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، المَرْحُومِىّ ، البَهَائِىّ ، أبى البَقَاء الشّافِعىّ ، السُّبْكِىّ ، ضَاعَف اللهُ تعالىٰ نِعْمَته : هو مِن أعْيان الزّمان ، والمحدَّثُ بفضله علىٰ مَرّ اللّيالى وليْس الخبرُ كالعِيَان ، ماوَلِىَ مَنْصِبًا من المَناصب الدِّينيّة إلّا كان له أهْلا ، ولا أراد الانصرافَ من مَجلِس عِلْم إلّا قالَ له مَهْلا ، ولا استُبْدِلَ به فى وظيفة إلّا نُسِبَ مُسْتَبْدِلُه إلى الحَيْف ، ولا صُرِفَ عن وِلَايَة إلّا قالَ استحقاقُه : كَيْفَ سَاغَ ذلك لمُتَعاطيه فكَيْفَ وكَيْفَ .

وكان ولدُه المجلسُ السّامىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىُّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، البارعىّ، الأصيلىّ، العريقىّ، الجلالىّ، ضياءُ الإسلام، فخر الأنام، زين الصدور، جمال الأعيان، تجمّل الأفاضل، سليلُ العلماء، صفوةُ الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين، أبو (١) محمد بلّغ الله تعالىٰ فيه [عارفيه] غايةَ الأمل، وأقرّ به عينَ الزّمان كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فعل؛ قد أُرضع لِبانَ العلمِ ورُبِّى فى حِجْرِه، ونشأ فى بيتِه ودَرَج من وَكْرِه؛ وكَمُل له سُؤْدُدُ الطّرفين: أبًا وأُمًّا، وحصل علىٰ شرف المحتِدَيْن: خالًا وعمًّا؛ لم يقعْ عليه بصرُ متبصّر إلّا قال: نِعْمَ الولد، ولا تأمّله صحيح النّظرِ إلّا قال: هذا الشِّبْلُ من ذاكَ الأَسَد؛ ولا رمىٰ والدُه إلىٰ غايةٍ إلّا أدركَها، ولا أحاط به منطقةَ طَلَبةٍ إلا هزّها للبحث وحرّكها؛ ولا اقتفىٰ أثر أبيه وجدّه فى مَهْيَع فضلٍ إلّا قال قائلُه: أَكْرِمْ بِهَا مِنْ ذُرّيّةٍ مَا أَبْرَكَها! .

واتّفق أن خرج عنهما ما كان باسمهما من وظيفتَىِ التّصدير بالجامع الأموىّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدمشق المحروسة: المُنتقلة إحداهما إليهما عن سَلَفِهما الصّالح قِدَما، والصّائرة الأخرىٰ إليهما بطريقٍ شرعىّ مُعتَبرٍ وضعًا وثابتٍ حُكمًا ـ اقتضىٰ حسن الرّأى الشريف أنْ يحفظ لهما سالفَ الخِدمه، ويُرْعَىٰ لهما قديمُ الوَلاءِ فالعِبْرة فى التّقديم عند الملوك بالقِدْمه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال لذوى البُيُوت حافظا، وعلى الإحسان لأهلِ العِلْم الشّريف علىٰ ممرّ الزمان مُحافِظا ـ أن يُعاد ذلك إليهما، ويُوالىٰ مَزِيدُ الإحسان عليهما؛ فليتلقّيا ذلك بالقَبول، ويَبْسُطا بالقَوْل ألسِنَتَهما فمَن شَمِلَه إنعامُنا الشريفُ حقّ له أنْ يقولَ ويطُول؛ ومِلاكُ أمرِهما التّقوىٰ نهى خَيْر زاد، والوَصَايا

(١) بياض بالأصل.

وإن كَثُرَتْ فمنهما تؤخذ ومنهما تُسْتَفاد، والله تعالى يُقِرُّهما بهذا الاستقرار عَيْنا، ويُبْهِجُ خَوَاطِرَهُما بهذه الوِلَاية إبْهاجَ من وَجَدَ ضَالَّته فقال : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ . والاعتماد فى ذلك على الخَطِّ الشَّرِيف أعْلاه الله تعالى أعْلاه، حُجَّة بمُقْتضاه؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثامنة — النَّظَــر .

وهذه نسخة تَوْقيع بنظر البِيمارَسْتان النُّورِىّ، كُتِب بها لمن لَقَبُه «شِهَابُ الدِّين» وهى :

رُسِمَ ... ... ـ لا زَالَ يُطْلِـعُ فى سماء المناصب السَّنِيَّة من ذَوِى الأَصالَة والكفَاية شِهَابا، ويُوزِعُ المُسْتَحِقِّين بجِهَات البِرِّ شُكْرَه إذ اختارَ لهم من أهْل النَّهْضَة من ارتدى العَفَاف جِلْبَابا، ويُودِعُ صَحَـائِفَ الأيَّام ذِكْرَه الجميلَ حين أَحْيـا قُرُبَاتِ المُلُوك السَّالِفين بانْتِخَاب مَنْ يُجَـدِّد لهم بحُسْنِ المُبَاشَرَة ثَوَابا ـ أنْ يُحَمَّـل «مجلِس الأمير» فُلَان : أعَزَّه الله تعالى فيما هو بيده من نظر البِيمَارَسْتان النُّورِىّ بِدِمَشْقَ المحروسة، على حُكْمِ التَّوْقيع الكريم والوِلَاية الشَّرْعية اللَّذَيْن بيَدِه، واستقراره فى ذلك بمُقْتَضَاهما استقرارا يَبْسُط فى هذا المَنْصِبِ يَدَه ولِسَانَه، ويُظْهِرُ شِهَابَ عَدْلِه الذى يُحْرِقُ من الجَوْرِ شَيْطَانَه، ويُبْرِزُ من مُبَاشَرَتِه ما عُرِفَ جَوْهَرُه بحُسْنِ الانْتِقَاء وإبْرِيزُه بحسن الانتقاد، ومن تأثيره ماتَبْلُغ به الأنْفُسُ المُرَادَ بأوْسع مَرَاد؛ ويُبْـدِى من تدبيره، ما يُنْتِج تمييز الوقف وتَثْمِيره .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك على عادة مُبَاشَرَتِه الحَسَـنَة، ولْيَسْلُكْ فيها ماعُهِدَ من طَرِيقَتِـه المُسْتَحْسَنة؛ مُحَصِّلًا من المفردات مايصرفها لمُسْتَحقِّها وقت الحاجة إليهـا، مُثَابِرًا

علىٰ حُسن مُعالجَة المَضْرُور الذى لا تَقدِرُ يَدُه من العَجْز عليها ؛ مُواصِلًا فِعْلَ الخيْر باستمرار صدقات الواقف ليُشارِكه فى الأَجْر والثّواب ، مُستَجْلِبًا له من الدعاء ولنـا بمُشارَكته فى الأمْر بالعمَل بسُنّته إلىٰ يَوم المَآب ، ضَابِطًا أموال هـذه الجهة بتحرير الأُصول والمطلق والحِساب والحُسّاب ؛ متقدمًا إلى الخُدّام والقَوَمة بحسن الخدْمة للعَاجِز والضّعِيف ، مُؤكّدا عليهم فى أخْذهم بالقَوْل اللّين دُونَ الكلام العَنِيف ؛ مُلْزِمًا لهم بجَوْدَة الخدمة لَيْلًا ونَهارا ، مُؤاخِذًا لهم بمـا يُخِلُّونَ به من ذلك إهمـالا وإقصارًا ؛ مُتَقدِّمًا إلىٰ أرْباب وَظَائف المعالجة ببَذْل النّصيحه ، واستدراك الأَدْواء المُسْقِمَة بإتقان الأَدْوِية الصّحِيحَه ؛ وليَتفَقّد الأحْوال بنَفْسـه : ليَعلَم أهْلُ المكان أنّ وَرَاءَهم من يقابلهم على التّقصير ، وليَبْذُل فى ذلك جُهْدَه فإنّ الاجتهادَ القَليـلَ يُؤثّر الخيْرَ الكثِير . والوَصَايا كَثيرةٌ وعنده من التّأدّب بالعِلْم وحُسْنِ المُباشَرة ما فيـه كِفَايَه ، وفى أخْلاقه من جَميل المآثِر وما حَازَه فى البِدايَة ما يَنْفعُه فى النّهَايَه ؛ ولكنْ تَقوى الله عزّ وجَلّ هى السّبَبُ الأقْوىٰ ، والمَنْهَلُ الذى مَن وَرَدَه يَرْوىٰ ؛ فليَجْعَلْها له ذَخِيرةً ليَوم المَعَاد ، ومَعْقِلًا عند الخُطُوب الشّدَاد ، والله تعالىٰ يُبلّغُه من التوفيق الأَمَلَ والمُرَاد ؛ بمَنّه وكَرَمه ! ، والاعتماد ... ... إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصـــــنف الثـالث

(من تواقيع أرباب الوظائف بحاضرة دِمَشْقَ ــ تَوَاقِيعُ أَرْباب الوظائف الدِّيَوانِيَّة ، وفيهـا مرتبتان)

المرتبـــــة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصـف بـ«ـالمجلس العالى» وهى على ضربين)

الضـــــرب الأوّل(١)

(تواقيع الوزارة بالمملكة الشّامِيّة على ما آستقرّ عليه الحـال)

فقد ذكر فى "التعريف" أنّه يكتب بالشام للصـاحب [عزّ](٢) الدين أبى يعلى «حَمْزَة بن القَلَانِسىّ» رحمه الله بـ«ـالجناب العالى» بجَلَالَة قَدْره ، وسَابِقَة خِدَمِه ، وعناية من كَتَب له بذلك . لكنّه لم يُبيِّن مِقْدَارَ قَطْعِ الورق لذلك . ولا يخفى أنه كُتِب به فى قَطْع الثُّلُثَيْن ، على القاعدة فى أنّه يُكْتَب لِجَنَاب فى قَطْع الثلثين . وقد ذكر بعـد ذلك أنّ الذى آستقرّ عليه الحال أنّه يكتب للوزير بالشّام « المجلس العـالى » بالدعاء ، كما كُتِب للصّاحب أَمِينِ الدِّين أَمِينِ المُلْك .

[وفيـــه وظائف :

الوظيفة الأولى ــ ولاية تدبير الممـالك الشامية](٣) .

وهـذه نسخة تَوْقِيع للصاحب « أَمِينِ المُلْك» المذكور بتدبير الممـالك الشّامِيّة والخَوَاصّ الشريفة والأَوْقاف المَبْرُورة ، من إنشاء الصّلَاح الصَّفَدىّ ، وهى :

(١) لم يذكر الشـانى .

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من "التعريف" (ص ٧٥)

(٣) زدنا مابين القوسين لاستيفاء المقام وتتميم الكلام .

الحمد لله الذى جعل وَلِىَّ أيّامنا الزّاهرة، أميناً، وأحلّه من ضمائرنا الطاهرة، مكاناً أيْنما تَوجّهَ وجَدَه مَكيناً، وخَصّه بالإخلاص لدولتنا القاهرة، فهو يَقِيناً يَقِيناً، وعضّد بتدبيره ممالكنا الشّريفة فكان على نَيْل الأمَل الذى لا يَمِين يَميناً، وزيّن به آفاق المَعالى فما دَجا أمْرٌ إلّا كان فِكْرُه فيه صَحِيحاً مُبِيناً، وجمّل به الرُّتَبَ الفاخرة فكَمْ قلّد جِيدَها عِقْداً نَفِيساً ورصّع تاجها دُرًّا ثَمِيناً ، وأعانَه على ما يَتَوَلّاه فهو الأسد الأسَدُّ الذى اتّخذ الأقْلام عَرِيناً .

نحمَده على نِعَمِه التى خَصّتْنا بوَلِىٍّ تتجمّل به الدُّوَل، وتَغْنَى المَمالكُ بتَدْبيره عن الأنْصار والخَوَل، وتحسُدُ أيّامَنا الشّريفةَ [عليه] أيّامُ من مَضى من الدُّوَل الأُوَل . ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَسـتَمْطِر بها صَوْبَ الصَّوَاب، وتَرْفُل منها فى ثَوْب الثَّوَاب، ونعتدُّ بِرّها وَاصِلًا ليوم الفَصل والمَآب، ونَشْهدُ أنّ محمّداً عبدُه الصّادقُ الأمين، ورسُولُه الذى لم يكن على الغَيْب بضَنِين، وحَبِيبُه الذى فَضَلَ المَلَائكة المُقرّبين ، ونَجِيُّه الذى أسْرَى به من المَسْجد الحَرام إلى المَسْجد الأقصى حُجّةً على المُلْحِدين، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين صَحِبوا ووَزَرُوا، وأيّدُوا حِزْبَه ونَصَرُوا ، وعدَلُوا فيما نَهَوْا وأمَرُوا، صلاةً تكونُ لهم هُدًى إذا حُشِرُوا ، وتُضَوِّعُ لهم عَرْفَهُم فى الغُرَف وتُطَيِّب نَشْرَهم إذا نُشِرُوا ، وسلّمَ تَسْليما كثيرا إلى يَوْم الدِّين .

وبعد، فإنّ أشْرف الكَواكِب أبْعَدُها دَارا ، وأجَلَّها سُرًى وأقلَّها سِرَارًا ، وأعْلاها مَنَارا، وأطْيَبَ الجَنّات جَنَاباً ما طاب أرَجًا وثِمَارًا ، وبُحِّر خِلَالَه كُلُّ نَهرٍ «يَروعُ حَصاه حَالِيَةَ العَذارَى»، ورَنّحتْ مَعَاطِفَ غُصُونه سُلَافُ النَّسيم فتَرَاها سُكَارَى، ومدّت ظِلالَ الغُصُونِ فتخال أنّها على وَجَنات الأنْهار تدبّ عِذارا .

وكانت دمشق المحروسة لها هذه الصفات ، وعلى صفاها تهب نسمات هذه السمات ، لم يتصف غيرها بهذه الصفه ، ولا اتفق أولوا الألباب إلا على محاسنها المختلفه ؛ فهى البقعة التى يطرب لأوصاف جمالها الجماد ، والبلد الذى ذهب بعض المفسرين إلى أنها إرم ذات العماد ، وهى فى الدنيا أنموذج الجنة التى وعد المتقون ، ومثال النعيم للذين عند ربهم يرزقون ؛ وهى زهرة ملكا ، ودرة سلكا ، وقد خلت هذه المدة ممن يراعى تدبيرها ويحمى حوزتها ويحاشيها من التدمير ويملأ خزائنها خيرا يحلى ، إذا ملأنا ساحتها خيلا ورجلا ـ تعين أن ننتدب لها من جربناه بعدا وقربا ، وهززناه مثقفا وسللناه عضبا ، وخبأناه فى خزائن فكرنا فكان أشرف مايدخر وأعز مايخبى ؛ كم نهى فى الأيام وأمر ، وكم شد أزرا لما وزر ، وكم غنيت به أيامنا عن الشمس ولياليا عن القمر ، وكم رفعنا راية مجد تلقاها عرابة فضله بيمين الظفر ، وكم علا ذرا رتب تعز على الكواكب الثابتة فضلا عمن يتنقل فى المباشرات من البشر ، وكم كانت الأموال جمادى وأعادها ربيعا غرد به طائر الإقبال وصفر .

و [لما] كان [الصاحب أمين الملك] (1) هو معنى هذه الإشاره ، وشمس هذه الهاله وبدر هذه الداره ؛ نزل من العلياء فى الصميم ، ونخرنا بأقلامه التى هى سمر الرماح كما نخرت بقومها تميم ؛ وحفظت الأموال فى دفاتره التى يوشيها فأوت إلى الكهف والرقيم ، وقال لسان قلبه : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ وعقيم الزمان أن يجىء بمثله «إن الزمان بمثله لعقيم» وتشبه به أقوام فبانوا وبادوا ، وقام منهم عباد العباد فلما قام عبد الله كادوا ـ أردنا أن تنال الشام فضله كما نالته مصر فما تساهم فيه سواهما ، ولا يقول لسان الملك لغيره :

حللت بهذا حلة ثم حلة * بهذا فطاب الواديان كلاهما

(1) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه فى ذلك .

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعهده، والحزم الذى شاهدناه ونشهده، والتدبير الذى يعترف الصواب له ولا يجحده، حتى يثمر الأموال فى أوراق الحساب، وتزيد نموا ونموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب ؛ مع رفق يكون فى شدته، ولين يزيد مضاء حدته ، وعدل يصون مهلة مدته ؛ والعدل يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر، بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها ، والمعالم تطلع بدور بدرها كاملة كل هلال على أصحابها، والرسوم لا تزداد على الطاقة فى بابها، والرعايا يجنون ثمر العدل فى أيامه متشابها ؛ وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحل فلا يكدر وردها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأبوابنا بمهم فليكن الإسراع إليه يخجل البرق المتألق فى السحاب المسخر، فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من كنانه، وشهم لا ينتهى إلى الباطل عيانه وعنانه ؛ فاشكر هذه النعمة على منائحها، وشنف الأسماع بمدائحها ؛ متحققا أن فى النقل، بلوغ العز والأمل، وأنه لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى «لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل» ؛ فاستصحب الفرح والجذل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام ، كتب بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضى ناصر الدين بن النشائى، فى مستهل ذى القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله مُجزِل المَنّ والمَنح، ومُرسِل سَحائِب العَطاء السَّمح، ومُعمِل فِكرنا الشَّريف في انتِقَاب مَن أَورَى زَنْدَ الخيرِ بالقَدح، ومُنَزِّل السَّريينَ الأفاضل من صَدْرٍ إلى صَدْرٍ بِحِمًى يصونُ له السَّرح، ويُغْنِي مَشهورُ ألفَاظه عن الشَّرح، ومُجَمِّل بِنَاءِ الدِّين، بمَا سَكن به من صَميم الفَضل المُبين، وما اقترنَ بأبوابه من حَرَكة الفَتح.

نحمَــده على نِعَم عَاطِرَةِ النَّفح، ونَشكره على مِنَنٍ عَالِيَـةِ السَّفح. ونَشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ شهادةً تُنجِّي قَائِلَهـا من حَرِّ الجَحِيم وتقِيــه شَرَّ شَرَرِ ذَلكَ اللَّفح، وتَخطُبُ بها ألسِـنَةُ الأقلام على مَنَابِرِ الأنامِلِ فَتُنْشِئُ عنـدها من مُطرِبات الوُرْقِ على غُصُون الأوراق هَدِيلَ الصَّدح. ونشهدُ أنَّ محمدًا عَبدُه ورسولُه الذى بَلَّغ الرِّسالةَ وأدَّى الأمانَةَ وعَامَل الأمَّة بالنُّصح، وأزالَ عنهم التَّرَحَ وأمِنَه اللهُ على أسرار وَحْيِــه فكان أشرَفَ أمِينٍ خَصَّــه اللهُ في مُحكَم آياتِه بالمَدح، وجعلَه أعظَمَ من أمَرَ بالمعروف ونَهى عن المُنكَرِ فلم تَأخُذْه في الله لَومَةُ لائِمٍ ممَّن لحَا وممَّن لم يَلح، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحَابه أهلِ الوَفَاء والصَّفَاءِ والصِّفَاح والصَّفح، والَّذين جَاهَدُوا في الله حَقَّ جِهَـادِه بالنَّفسِ والمَـالِ والكَدّ والكَدح، ورفَعوا أعلَامَهم المُظَلَّلَه، ونَصَـبُوا أقلامَهم المُعدَّلَه، فكَمْ لَهم في المُشرِكين من جِرَاحٍ لا تَعرِف الجَرح، وذَادُوا عن حَوْزَةِ الدِّين، بإرَاقَة دَمِ الكُفَّار المُتَمَرِّدين، فحَسُن منهــم الذَّبُّ والذَّبح، وكانُوا فُرسَـانَ الكَلَام، وأسُودَ الإقدَام، الَّذين طَالمَـا خَسَـأتْ بهم كِلَابُ الشِّرْك فلم تُطِق النَّبح، صلاةً دائمةً باقيةَ الصَّرح، ما اقترن النَّظَرُ باللَّمح، وما هَطَل السَّحَابُ بالسَّح، وسـلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

وبعــد، فإنَّ أولى من خَطَبَتِ المَنَاصِبُ العَلِيَّه، مَحَاسِنَه الجَلِيلةَ الجَلِيَّه، ورَغِبت المَراتِبُ التى هى بالخَيْر حَرِيَّه، في جَمِيل حَالَتِه التى هى بعُقُود المَفَاخِر حَالِيَه، وسَحَبت

سحائبُ الإقبال الوابليه، ذُيولَ فضائِلِه الفاضليّه، واكتسب العلومَ الفرعيّة والأصليّه، من مجاميع فُنُونه التى تُعرب عن أنواع الفوائد الجُمْلِيّة والتفصيليّة ـ من شَهِدت المفاخرُ بأنّه لم يَزَل الشَّهِيدَ لهـا وابْنَ الشَّهِيد، وحُمِـدَت المآثرُ التى هو الشَّهيرُ بها لهـا عليها فى جميل الأدوات من مَزِيد، وتَشَـيَّدت مَبانِى مَعالِيه التى اقترن بابُ خيرِها منـه بالفتح المُبِـين، وتَمَهَّدت مَعانِى أمالِيـه بالتَّخَيُّل اللَّطِيف واللَّفظ المَتِين، وتَعَدَّدت أوصاف شِيَمِه فهى لمحَـاسن الدّهر تَزِيدُ وتَزِين، وغَدَا من الكَاتِبِين الكِرَام والكِرَام الكَاتِبِين، الذين تَضِحُ بأطْلاعِهم مَراصِدُ المَقَاصد وتَبِين. طالمَـا اتَّسَق عِقدُ نَظْمِه المَتِين، وبَسَق غُصْنُ قَلَمِه المُثْمِر بالدِّين، وأضَاف إلى أدَب الكُتَّاب حِلْيَةَ العُلَمـاء المُتقِين، وارتَقَبَ أفعال الجميلِ التى استَوجب بها حُسْن التَّرَقِّى إلى أعلى دَرَجات المُتَّقِين، وقلّد أجْيادَ الطُّروس جَواهِرَ ألفاظه التى تفُوقُ الجوهرَ عن يَقِين؛ فهى بنُضَار خَطِّه مَصُوغَةٌ أبْهَجَ صِيَاغَه، وفى طَرِيق الإنْشاء سَالِكَةٌ نَهْجَ البلاغَه، وكذا بِحَارُ الفَضائل وارِدَةٌ مَناهِلَها المُساغَه؛ كم أعْربَ كَلِمُهُ الطَّيِّب، عن نَوْءِ سَحَاب الصَّوَاب الصَّيِّب؛ وكَمْ أغْنَى فى المُهِمَّات بكُتُبِه، عن جَيْش الكَتَائب وقُضُبِه؛ وكَمْ عَزَأتْ صَحائفُه بالصَّفَائح؛ وكَمْ أغنَت رَاشِقَات فِكْرِه الثابتة العِلْم عن سَهْو السَّهْم الرَّائِح؛ وكَمْ تَشاجَرت أقلامُه البِيضُ الفِعَالِ هى وسُمْرُ الرِّماح فكان نَصْرُها اللائح؛ وكَمْ تَعارَضَ نَشْرُ وَصْفِه وشَذَا الطِّيبِ فألفَى الزَّمانُ ثَنَاءَه هو الفَائح. وكَمْ اشتمَلَ على أنْواعٍ من النَّفاسَة فاستوجَبَ مِنَّامَنّاً يقضى له بأجْزَلِ المُنَى والمَنَائح.

ولمـا كان المجلسُ العالى، القَاضَوِىّ، الأجَلِّىّ، الكَبِيرىّ، العَالِمِىّ، الفَاضِلِىّ، الكَامِلِىّ، الأوْحَدِىّ، الأثِيرِىّ، الرَّئِيسِىّ، البَلِيغِىّ، الفَرِيدِىّ، المُفِيدِىّ، الأصِيلِىّ، العَرِيقِىّ، العَابِدِىّ، الزَّاهِدِىّ، المُؤْتَمَنِىّ، الفَتْحِىّ؛ جَمَـال المُلوك والسلاطين، ولى

أمير المؤمنين ، محمد بن الشهيد ، أدام الله نعمته : هو الذى أعرب القلم عن صفاته ، وأطرب المسامع ما أدّاه اليراع عن أدواته ، ورام البنان أن يستوعب بيان شكره فلم يدرك شأو غاياته ، وتسارعت بدائع البداية من أفكاره فسابقت جريان يراعه فى أبياته ، ورافقت أماليه ، لناقلى ألفاظه ومعانيه ، فشكر السمع والفهم بها هبات هباته ، فآدابه مشهوره ، وعلومه مذكوره ، وتحلّيه بمذاهب الصوفية ارتاضت به نفسه الخيّرة الخبيره ، وإخلاصه فى عبادة الله تعالى حسنت به منه السيرة والسريره ، وصيانته للأسرار الشريفة استحق بها إسناد أمرها إليه ، وإيداع غوامضها لديه ، والتعويل فى حفظها وفى لفظه للفظها عليه — اقتضى حسن الرأى الشريف أن نجتبيه لما تحققنا منه من ذلك ، ونخصه بصحابة ديوان الإنشاء الشريف فى أجل الممالك ، ونجعل قدمه ثابتة الرسوخ ، والصعود فى مشيخة الشيوخ ، ليسلك فيها أحسن المسالك .

فلذلك رسم بالأمر الشريف (١) الأشرفى ، الناصرى — لا زال لأبوابه الشريفة فتح فى الخير يقدمه النصر ، ولسحابه منح ما يعرف مدد أمداده القصر — أن تفوض إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف ، ومشيخة الشيوخ بالشام المحروس ، على عادة من تقدّمه وقاعدته ومعلومه الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت .

فليباشر ذلك بوافر عفافه ، ووافى إنصافه ، ومشهور أمانته ، ومشكور صيانته ، كاتماً للأسرار ، كاتباً للبار ، ليكون من الأبرار ، عالقاً مصالح الأنام بإرشاد رأيه وصوابه ضابطاً أحوال ديوانه ، متحرياً فى كثير الأمور وقليلها : فإن الكتاب يظهر من عنوانه ، محرراً لما يملى معتبراً لما يكتب ، مجلداً للطالعات الكريمة بفكره المتسرع

(١) بياض بالأصل ولعله "العالى" .

وتصوره الأرتب ، حافظًا أزمّة ما يصدُر من مثال وما يرِدُ فى المهمّات الشريفة فهو أدرى وأدرب بما على ذلك يترتّب ، محافظًا كعادته على دينه ، لازمًا لصدق يقينه ، خافضًا لأهل الخير جناحه ، مانحًا لهم نجاحه ، معاملًا للفقراء بكرم نفس بالله غنيّه ، ملاحظًا لأحوالهم بالقول والفعل والعمل والنيّه ، محترمًا لكبيرهم ، حانيًا على صغيرهم ، مفكرًا فيما يعود نفعه عليهم ، راكنًا فى الباطن والظاهر إليهم ، معنيًا لهم بالاشتغال بالعباده ، مسلكًا لهم الطريق إلى الله فإنها الطريق الجادّه ، مستجلبًا لدعواتهم الصالحه ، مستفيدًا من متاجر بركاتهم الرابحه . والوصايا كثيرة ومن نور إفادته تقتبس ، ومن مشهور مادته تلتمس ، وملاكها التقوى وهى أول كل أمر وآخره ، وبملازمتها تتم له مفاخره ، والله تعالى يحرسه فى السرّ والنجوى ، ويظهر بإرشاده للمعانى والبيان كل نجوى ؛ بمنّه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .

⁂

وهذه نسخة توقيع بكتابة السرّ بالشام ، كتب به للقاضى « شرف الدين عبد الوهّاب » بن فضل الله ، عند ما رسم بنقله من القاهرة إلى دمشق ، فى ذى الحجّة سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين « محمود الحلبى » وهى :

الحمد لله الذى خصّ دولتنا الشريفة برعاية الذمم ، وحفظ ما أسلفه الأولياء من الطاعات والخدم ، وإدامة ما أسدته إلى خدم أيامنا الزاهرة من الآلاء والنعم ، وإفاضة حلل اعتنائها ، التى هى أحبّ إلى من شرف بولائها ، من حمر النعم ، وإبقاء عوارفها على من لم يزل معروفًا فى صون أسرارها بسعة الصدر وفى تدبير مصالحها بصحة الرأى وفى تنفيذ مراسمها بطاعة اللسان والقلم .

نحمده على نعمه التى ما آستهلّت على ولىّ فأقلع عنه غمامُها، ولا آستقرّت بيد صفىّ فانتزع من يده حيثُ تصرّف زِمامُها، ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا نزالُ نعتصم بحبلها المتين، ويتلقّى عَرابةُ إخلاصنا رايةَ فضلها باليمين؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أكرمُ مبعوثٍ إلى الأمم، بالإحسان والكرم، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه الّذين كرُمت أنسابُهم، وأضاءت لهم وجوهُهم وأحسابُهم، فرفلوا فى حُلَلِ ما آكتسوه من سُنَنه، وآكتسبوه من سَنَنه، فحسُن منها آكتساؤُهم وآكتسابُهم؛ صلاةً لا تزال لها الأرض مسجدا، ولا يبرح ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنجدا؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنّ أولى من خوّلته مكارمُنا الإقامةَ حيثُ يهوى من وطنه، وبوّأته نعمُنا الجمعَ بين ذِمام بِرِّنا وبين ما فارقه من سَكَنه، وملّكته عواطفُنا، زِمام التصرّف حيثُما أمكن من خدمتنا الشريفه، وعرّفته عوارفُنا، أنّ مكانته عندنا على حالها حيثُ أدّى ما عُدق به من وظيفه — مَن لم يزل قلمُه لسانَ مَراسِمنا، وعِنانَ ما تُجريه فى الآفاق من سوابِق مكارمِنا، وتُرجمانَ أوامرِنا، وخطيبَ آلائنا التى غدت بها أعطافُ التقاليد من جملة منابرِنا .

ولمّا كان المجلس العالى : هو الذى لم يبرح صدرُه خزانةَ أسرارِنا، وفكرُه كنانةَ إعلانِنا فى المصالح وإسرارِنا، وخاطرُه مرآةَ آرائنا، ويراعُه مشكاةَ ما يُشرق: من أنوار تدبيرنا، أو يبرق: من أنواء آلائنا؛ ينطِق قلمُه فى الأقاليم عن ألسنة أوامرنا المُطاعه، وينفُذ كلِمُه عن مَراسِمنا فى ديوانِ الإنشاء بما تُقابِلُه أقلامُ الجماعة بالسمع والطاعه؛ وكانت سِنُّه قد علت فى خدمتنا إلى أنْ رأينا توفيرَ خاطرِه على البركات، عن كثير ممّا يتبع ركابَنا الشريفَ من لوازم الحركات، وأنْ نُعفيَه ممّا يُلزِم الإقامةَ بأبوابنا

الشريفـة من كثرة المُثول بين يدَينا، وأن تقتصر به على أخفّ الوظيفتين إذ لا فرق في رُتبة السّرّين ما يصدُر عنّا أو ما يرِدُ إلينا .

فرُسم بالأمر الشّريف، العالى، المَولوىّ، السُّلطانىّ، المَلكىّ، الفُلانىّ، الفلانى، أنْ يكونَ فلانٌ صاحبَ ديوانِ الإنشاء الشّريف بالشام المحروس ، بمَعلومه الشّاهد له به الديوان المعمور بالأبواب العالية، عِوَضًا عن أخيه المجلس السامىّ، القضائىّ، المُحيوىّ « يَحيى بن فَضْـل الله» ويستمرّ أخوه القاضى «مُحيى الدّين» المـذكور مع جُمْـلة الكُتّاب بديوان الإنشاء الشّريف بالشّام المحروس ، بالمعـلوم الشّاهد به الدّيوانُ المَعمور .

فليُباشِر هذه الرُّتبة التى تأثّلت به قواعِدُها وعن تقريره وتحريره أخَذَ كلّ مَن كانَ بأنواعها وأوضاعها عليما ؛ فإنّه لم يخرج عن أخيه شىءٌ وَصَل إليه، ولا فُوِّض له إلّا ما هو بحكم عموم الأَوْلَويّة والأوّليّة فى يدَيه ، وأمّا ما يتعلّق بذلك من وَصايا تُبسَط ، وقَواعِدَ تُشرَط ، فإنّها منه استفادها من رقَمها، وعَنه ارتَوىٰ بها ورَواها من تعلّمها ؛ ونَحنُ نعلَم من ذلك ما لا يحتاجُ إلىٰ أنْ يزدادَ فيه يَقينًا ، ولا أنْ تَزيدَه بذِكْرِه معْرِفةً وتَمكينًا ، والاعتماد ....

قلتُ : ومن غَريبِ ما وقع : أنّه كتب للمَقرّ الشّهابىّ بن فَضْـل الله بكِتابة السِّر بالشّام، حين وَليَها بعد انفصاله من الديار المصرية توقيعٌ مُفتتح بـ«أمّا بعدَ حَمْدِ الله» من إنشاء المَولى «تاج الدّين بن البارنبارى» وكأنّه إنّما كُتب بذلك عند تغيُّر السلطان الملكِ النّاصر «محمد بنِ قلاوُون» عليه، علىٰ ما هو مذكور فى الكلام علىٰ كُتّاب السِّر فى مُقدّمة الكتاب .

وهذه نسخة توقيع بكتابة السر بالشام المحروس :

أما بعد حمد الله مُنقِّل الشهب فى أحب مطالعها ، ومُعلى الأقدار بتصريف الأقدار ورافعها ، ومُبهج النفوس بمعادها إلى أوطانها ومواضعها ، ومُمضى مشيئته فى خليقته بالخيرة فيما يشاء لطالعها ؛ والشهادة له بالوحدانية الآخذة من القلوب بمجامعها ، والصلاة على سيدنا محمد الذى بصّر الأمة بهديها ومنافعها ، وصان شرعته الشريفة تلو الملل بنسخ شرائعها ، وعلى آله وصحبه الذين استودعوا أسرار الملة فحفظوا نفيسها وودائعها ـ فإن ممالكنا الشريفة هى سواء لدينا فى التعظيم ، وأولياء دولتنا الشريفة يتنقلون فيها فى منازل التكريم ، وعندنا من « فضل الله » رعاية للعهد القديم ، وتأكيد لأسبابه التقديم ؛ فلا غضاضة لمن نقلناه من أبوابنا إليها ، ولا وهن يطرأ على علو المراتب وعشريها ؛ حيث صدقاتنا دائمه ، وثغور إقبالنا باسمه ، ومراسمنا لمساعدة الأقدار فى الأيام حاكمه ؛ و « الشهاب » لو لم يسر فى سمائه ، لما اهتدى الناظرون بضيائه ؛ والدرة لو مكثت فى صدفها ، لما حظيت فى العقود بشرفها .

وكان المجلس العالى ، القضائى ، الشهابى ، قد أقام فى خدمتنا الشريفة بالأبواب العالية حافظا للأسرار ، قائما بما نحب ونختار ؛ ثم لما أخذ حظه من القرب من أيدينا الشريفة : رأينا أن عوده إلى أوطانه ، وأهله من تمام إحسانه ؛ وأن مرجعه إلى محله ، من نعم الله عليه وفضله ؛ وما سار إلا والإقبال يزوده ، والاستقبال به وأهل بيته يسعده ويصعده .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن ينقل إلى كتابة الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة ، وأن يكون متحدثا عن والده ، على ما كان عليه بالديار المصرية ، وليقرر له من المعلوم كذا وكذا .

فَلْيَسِرْ إلىٰ دَارِ كَرَامَتِه ، ولْيَسْتَقِرَّ فى مَوْطِن إقَامَتِه ، قَرِيرَ العَيْن ، مَمْلُوءَ اليَدَيْن ، مَسْرُورًا بِرَفْعِ المَحَلِّ فى المَمْلَكَتَيْن ، ولْيَكُنْ لوَالِده - أعَزَّه اللهُ تعالىٰ - عَضُدًا ، ولْيُصْبِحْ له فى مهماتنا الشريفة سَاعِدًا ويَدًا ، ولْيُضْحِ به اليومَ بَرًّا لِيَجِدَ رِضَا الله غَدًا ؛ فإنَّ والِدَه بركةُ المَمالك ، وله قَدِيمُ هِجْرَة ، وسَالِفُ خِدْمَة ، وحُسْنُ طَوِيَّة ، فنحن نَرْعَاه لذلك ، والمُهِمَّاتُ الشريفةُ يَتَلَقَّاهَا بنَفْسه ، ولْيُصْدِرْ فُصُول المطالعة مُدَبَّجَة علىٰ عَادَتِه فى تَدْبِيجِ طِرْسِه ؛ ولْيَسْتَعِنْ بالله فهو وَلِيُّ الإعَانَة ، ولْيَعْتَمِدْ على الرِّفْق فى أمْرِه فما كان الرِّفْقُ فى شَىْءٍ إلَّا زَانَه ؛ وما بَعُدَ عَنَّا ، مَن كان بَعِيدًا بالصورة قَرِيبًا بالمَعْنىٰ ، والله تعالىٰ يزيده مِنًّا مَنًّا ! ؛ والخط الشريف أعْلاه حُجَّة فيه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة — نَظَر الجيوش بالشَّام .

وشَأْن صَاحِبِها كِتَابَة المُرَبَّعَات التى تُنْشَأُ من الشَّام ، وتَنْزِيلُ المَنَاشِير الشريفة التى تصدر إليه .

وهذه نسخة تَوْقِيع شريف من ذلك ، كُتِبَ به «لموسىٰ بن عبد الوهاب» من إنْشَاء السيِّد الشريف شِهَاب الدِّين ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل إحْسَانَنَا عَائِدًا بِصِلَاتِه ، وفَضْلَنا يَجْمَع شَمْلَ الإسْعاد بعد شَتَاتِه ، وعَوَاطِفَنا تُنَبِّه جَفْنَ الإقبال من إغْفَائِه وسِنَاتِه .

نحمَدُه علىٰ أنْ نَصَرَ بِنَا جَيْشَ الإسلام فى أرْجاء مُلْكِنَا الشَّرِيف وجِهَاتِه ، وجعل البَرَكَة واليُمْنَ بِأمْرِنا فى حَالَتَىْ مَحْوِه وإثْبَاتِه ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً زادت فى جَزَاء المُخْلِص وحَسَنَاتِه ، وأضْحَتْ نُورًا يَسْعىٰ بين يديه إلىٰ رحمة رَبِّه وإلىٰ جَنَّاتِه ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسُوله الذى أظْهَرَ اللهُ به وَاضِحَ آيَاتِه ،

وأصبح النشر عابقا من نشر راياته، ومحا الفترة بهديه وسر سرائر أوليائه وأكمد قلوب عداته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماتأرج النسيم فى هباته، وأبهج العطاء بجزيل هباته، وسلم تسليما .

وبعد، فإن من النعم ما إذا عادت أقرت العيون، وحققت الآمال والظنون، ورفعت الأقدار وإن لم تزل رفيعا محلها، وجمعت المسار الممتد على الأفئدة ظلها وعمرت ربوع الإحسان، وغمرت بمنائحها الحسان، كهذه النعمة التى تلقت الإقبال من حافل غمامه، وجمعت شمل التقديم مشفوعا بإكرامه، وأعادت سماء التكريم هادية بقطبها، مشرقة الأرجاء بنور ربها، وسفرت بدورها بمن هو أولى باجتلائها، وتهيأت رتبها لمن هو جدير باعتلائها، وحقيق بأن تعود المواهب بعد فترتها، وأن تقبل عليه وجوه المنائح بعد لفتتها، لتصبح كواكب الإسعاد كأنها ما أفلت، وعطايا التخويل كأنها ما انتقلت، ويعود عليه اليوم كأمسه، ويرجع أفق العوارف الحسام مشرقا ببدر الأجتباء وشمسه .

ولما كان فلان هو الذى حسنت فى الخدم الشريفة آثاره، وحمد إيراده فى المهمات الشريفة وإصداره، وشكره شامه ومصره، وسما فى كل جهة حلها محله وقدره، وتحققت منه رآسة قضت له بإبداء النعم وإعادتها، وأن تجرى له الدولة من الإكرام على أجمل عادتها، وأن نرعى له حقوق ألفها حديثا وقديما، وتنشر عليه ظلال الفضل حتى لايفقد منها على طول المدى تكريما .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ... لازال ... أن يستقر ... تجديدا لملابس سعده، وتأكيدا لقواعد مجده، وترديدا للفضل الذى حلا منهل ورده، ورعاية لخدمه التى أكبت عليها السيوف والأقلام، وشكرت تأثيرها جنودنا ــ نصرها الله

تعالىٰ ـ بمصرَ والشَّام ؛ ولِمَا له من حُسْنِ سَمْتٍ زَادَه وَقَارُهُ ، وأَصْلٍ صالحٍ طَابَتْ منه ثِمَارُه .

فَلْيَسْتَقِرّ فى هذه الوظيفة المباركة : عَالِمًا أنّ لِسَانَ القَلَم أَمْسَك عن الوصايا لأنّه خَبَرَ هَذِه الوظيفةَ فَرْعًا وأَصْلا ، وأَلِفَتْ منــه نَاظِرًا عَلَا قَدْرًا وكَرُم مَحْتِدًا وفَضْــلا ؛ وهو بحمد الله أدرىٰ بسُلُوك مِنْهَاجِهَا القَوِيم ، وأَدْرَبُ باقتفاء سَنَنِها المُسْتَقِيم ؛ والخير يكون ، والاعتماد فى ذلك علىٰ الخَطِّ الشَّريف إن شاء الله تعالىٰ أعْلاه ، حُجَّة بمقتضــاه .

المرتبـــــــة الثـانية

(من مَرَاتب أرباب التَّواقيع الديوانية بدِمَشْق ـ مَن يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس الساميّ» باليــاء مفتتحا بـ«الحمد لله» إن عَلَت رُتْبته وإلا بـ«أما بعدُ» ، وتشتملُ علىٰ وظائفَ)

منها ـ نَظَر الخِزَانَة العاليــة ، وشأْنها هناك نظير الخِزَانَة الكُبرىٰ بالديار المصرية فى القديم ، ونَظِيرُ خِزَانة الخاصّ الآن .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنَظَر الخِزَانة العَالية :

أَمَّا بعدَ حمــدِ الله علىٰ نِعَمِه التى خَصَّت المَنَاصبَ السنيةَ فى أيَّامنا الزَّاهرة بكُلِّ كُفْءٍ كريم ، وجعلت علىٰ خَزَائِن الأرض من أولياء دَوْلَتِنا القاهرة كلَّ حَفِيظٍ عَلِيم ؛ وأفَاضت ظِلَّ إنْعامنا علىٰ من إذا أُنْعِمَ النَّظَر فى حقِّ ذَوِى البُيُوت القديمة كان أحقَّ بالتَّقْدِيم ؛ والصَّلاة علىٰ سيدنا محمد أفضل من حَبَاه بفَضْله العَمِيم ، واجْتَبَاه لهِــدَايَة خَلْقِه إلىٰ السَّنَن القَوِيم ، وجعل سلامة الصَّلاة المقبولة من النقص مقرونةً بالصلاة عليه والتَّســليم ـ فإنَّ أَوْلىٰ من رجَّحَه لخِدْمَتِنا الاخْتيار ، وقدَّمه فى دَوْلَتِنا الاخْتيار ؛

وأخلَصه حسنُ نَظَرِنا الشّريف رُتْبَةَ أبيه من قبْل ، وأغدق له سَحَابُ بِرّنا صَوْبَ إحسانٍ فلم يُصِبْه طَلٌّ بَلْ وَبْل ـ من حُمْدَ سَيْرِه وسِيَرِه ، وشُكْرٍ فى طَاعَتِنا وِرْدُه وصَدَرُه ، وزَانَ الأصالةَ بالنَّباهَه ، والرّآسَةَ بالوَجَاهه ، والمعرفةَ بالنَّزاهَه ، وجمع بين الصَّلَف والاطّلاع ، والتَّضَلُّع من العِفَّة والاضْطِلاع ، والصِّفات التى لو تَخَيَّرها لنَفْسه لم يَزِدْها علىٰ مافيه من كَرَم الطِّبَاع .

ولمـا كان نَظَرُ الخزانة العاليـة بدِمَشْق المحروسةِ رُتْبَـةً لا يَرْقىٰ إليها من الأكْفَاء إلا مَنْ ومَنْ ، ولا يُقَدَّم لهـا من الأولياء إلا مَن تَعَـيَّن من رُؤَساء العَصْر وفُضَـلاءِ الزَّمَن ؛ وكان فلانٌ هو الذى عَيَّنه لهـا ٱرْتيادُ الأكْفاء ، وٱصْطُفِى هو من أهْـل الصَّفَاء ، وتَقَدَّم من وَصْف مَحَاسِـنه ما لا يَرُوع تَمَـامُ بَدْره وظُهُورُه بالنَّقْص والاختِفَـاء .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أنْ يفوض إليه نَظَرُ الخزانة المذكورة .

فليُباشِرْ ذلك مباشرةَ من يحقِّقُ فى كِفَايَته وتَفْضِيلَته التَّأْميل ، ويُظْهِرُ حسنَ نَظَرِه الذى هو كالنهار لا يحتاجُ إلىٰ دَليل ؛ وليَجْرِ علىٰ جميل عادته فى النهوض فى خِدْمَتِنا بالسُّـنَّة والفَرْض ، ويُضَاعِف ٱجْتِهَـادَه الذى بمثله جُعِـل مَن ٱخْتِيرَ علىٰ خَزَائِن الأرْض ؛ وهو يعلم أنَّ هذه الرتبةَ مآلُ الأموال ، وذَخَائِرِ الإسلام التى هى مَادَّة الجُيوش ومَوَارِدُ الإفْضَال ؛ فلْيُعْمِلْ فى مَصَالِحها فِكْرَه ودَأْبَه ، وإذا كان حسنُ نَظَرِنا الشريف قدجعله المُؤْتَمَنَ عليها: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَانَتَه ولْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّه﴾ . وفى سيرته التى عُرِفت ، وصِفَاته التى إنْ وُصِفَت فمـا أُنصِفَت ؛ مايُغْنِى عن تَفَاصِيل الوَصَايا وجُمَلِها ، وإعَادَة مزايا التأكيد : قَوْلهـا وعَمَلِها ؛ لكنْ مِلاَكُها الصِّيَانَة التى هو بها مَوْصوف ، والتَّقْوى التى هو بها مَعْروف ؛ والاعتماد علىٰ الخط الشّريف أعلاه .

ومنها ـ صحَابة دِيوانِ النَّظر، وصحَابة دِيوانِ الجَيْش ونحو ذلك من الوظـائف الديوانية بدِمَشْق .

قلتُ : هـٰذا إن كتب من الابواب الشَّريفة السُّلطانية ، وإلّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السَّلطنة بدِمَشْق .

الصـــنف الرابع
(من الوظائف بدِمَشْـــق وظائفُ المُتَصوِّفة ومَشَايخ الخَـوَانِق، وفيهـا مرْتبتان)

المرتبـــة الأولى
(ما يكتب فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السَّامِى» بالياء، مفتتحا بـ«ـالحمدُ لله». وبذلك يُكْتَب لشَيْخ الشُّيوخ بالشَّام، وهو شَيْخ الخَانِقاه الصَّلاحية، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة توْقِيع بذلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى اختار لعِمَارة بُيُوته أوْلِياءَ يُحِبُّونَه ويُحِبُّهم ، وأصْـفِياءَ حَقَّهُم برَحْمته فاجْتَهدوا فى طَاعَته فازداد قُرْبهم ، وأتْقِياءَ زَهِدُوا فى الدُّنيا وأبْدلوا الفَانِىَ بالبَـاقِى وطَابَ فى مَوْرِدِ الصَّفَاءِ شِرْبُهم .

نحمدُه حَمْدَ من جعل حُبَّ الله دِثَارَه ، ومَلَابِس التَّقوىٰ شِعَارَه ، ونَشكُره والشُّكْر لمَزِيد النِّعَم أمَارَه، وللقُلُوب الدَّاثِرَة عِمَارَه، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةَ مُخْلِص فى التَّوْحِيد، يَتَبوَّأُ بهـا جِنَانَ الخُلْدِ ويَخْلُص من سَمَاع قَوْل جَهَنَّم :

هَلْ مِنْ مَزِيد ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أسْرىٰ به إلىٰ حَضْرَة أُنْسه ، وحَظِيرَة قُدْسه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن سَبَق الأُمّةَ بشىْء وقَرَ فى صَدْره ، ومنهم من دلّت وَاقِعَةُ سَارِيَةَ علىٰ عُلُوّ شأنه ورفعة قَدْره ؛ صَلاةً لاتزالُ الأرضُ لها مَسْجدا ، ولَا يبرحُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدًا ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنّ أحقَّ مَن عُومِل بالتَّقديم ، وأجْدَرَ مَن يُخَصُّ بالتَّكْريم ؛ مَن كَان قدْرُه فى الأولياء عَظِيما ، وذِكْرُه فى الآفاق بين أهْل المَعْرفة قَديما ؛ وتَجْرِيدُه عن الدنيا مَشْهورا ، وسَعْيُه علىٰ قَدَم الطاعة مَشْكورا ؛ وشُهُوده لمَقَام الكَمَال مُسْتَجْليا ، واستِجْلَاؤُه لموادّ الأُنْس مُشْتَمِليا ؛ فهو فى هذه الطائفة الجليلة سَرِىُّ المِقْدار ، مَعْرُوفُ الصفة فى حِلْية الأولياء ومَنَاقِب الأبْرار ، والمُتَقدِّم من الإمامة فى جمع الأخيار .

ولما كان المجلسُ السامىّ ، الشَّيْخىّ ، الكَبِيرىّ ، العَالمىّ ، العَامِلىّ ، الأوْحَدىّ ، الزّاهدىّ ، الوَرَعىّ ، الأصِيلىّ ، الفُلَانِىّ ؛ جَلَال الإسلام والمسلمين ، وشَرَف الصُّلَحاء فى العالَمين ، شيخُ الشُّيوخ ، قُدْوَة السَّالكين ، مُعْتَقَد الملوكِ والسَّلَاطين ، أعاد اللهَ تعالىٰ من بَرَكاته : هو المقصودَ من هذه العبَاره ، والملْحُوظَ بهذه الإشَاره — اقتضىٰ حسنُ الرَّأى الشريف أنْ يُخَصّ فى الدنيا بالتَّعظِيم ، ويُميَّزَ فى هذه الأُمّة بالتَّكْريم .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف — لا زالَ له من جُنُود اللّيل جيْشٌ لا تَطِيشُ سِهَامه ، ومن فُرْسانِ المَحَارِيب مَدَدٌ لا تَزِلُّ فى مُلَاقاة الرِّجال أقْدامهُ — أنْ يستقرّ فى كذا .

فلْيُقَابِلْ هذه النعمةَ بالسُّرور ، وليتأَلّ هذه الفَضِيلة بحَمْدِ اللهِ الشَّكُور ، ولْيُوَاظِبْ علىٰ وظيفة الدعاء بدَوَام أيّامنا الزّاهِره ، ولْيَسْتَمْطِرْ جَزِيلَ الفَضْل من سَحَائب جُودنا

الخاطِره، وليَبْسُطْ يدَه فى عَمَل المَصالح. وليَستمِرّ على السَّعْيِ الحَسَنِ والعَمَلِ الصَّالح؛ فإنّ هٰـذه البُقعةَ مأوَى القادِم والقاطِن، وتَسْمُو علىٰ أمثالهـا من المَواطن؛ وليَكُن لأسْرارِهم مُوَقِّرا، ولِأقْواتِهـم المُعينَة على الطّاعة مُيسِّرا؛ والله تعالىٰ يجعـل خَلَواته مَعْموره، وأفعالَه مَبْروره؛ والاعتماد فى ذلك علىٰ الخطّ الشّريف .

قلتُ : هٰذا إن وليهـا شيْخٌ من مَشايخ الصُّوفية، علىٰ عادَة الخَوانق . وقد يَليها كاتبُ السِّرّ بالشّام، فيُكْتَب تقليده بكِتابة السِّرّ فى قَطْع النّصف «بالمجلس العالى» علىٰ عادة كُتّاب السِّرّ، ويُشار فى تقليده إلىٰ بعض الألفاظ الجامعة بين المقامين، ويُضاف إلىٰ ألقاب كِتابة السِّرّ بعضُ ألقـاب الصُّوفية المُناسبـة لهذا المقام . علىٰ أنّه رُبَّمـا كُتِب بوِلايَتِها عن نائب السَّلطنة بالشّام لكاتب السِّرّ أو غيره .

المرتبـــــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسِم»)

وهذه نسخة توْقيع من ذلك، وهى :

رُسِمَ بالأمْر الشّريف ـ لا زالت أوامِرُه تُحِل القُرُباتِ مَحَلَّها، ومَراسِمُه تُسْـنِد الرُّتَبَ الدِّينيةَ لِمَن إذا خُصُّوا بمَواقِعها كانوا أحَقَّ بهـا وأهْلَها ـ أنْ يُرتَّب فلانٌ فى كذا : إذ هو أوْلَى من خُصَّ بمَواطِن العِباده ، ونَصَّ بترْفيـه الأسْرار على التَّحَلِّي بإفاضَـة الإفاده ؛ ووفَّر كَدَّه علىٰ اجتلاء وجوه المعارف من أفق المراقبـه ، وجَمَع خاطِرَه لاجتناء ثَمَرة الأُنْس من أفنان الطّاعات النّابِتَة فى رِياض المُحاسَبَه؛ مع تَمسُّكه بعُلُوم الشريعة الذى [خلص] معرفته من الشَّوائِب، وأحْيَا الدُّجىٰ من اقتبال شَبِيبَة

ظَلَامِه إلىٰ أن تَشِيبَ منه الذَّوَائب ؛ ونَفعٍ متَعَدٍّ إلىٰ كلِّ طَالِبِ فَضْـلٍ وملتمس ، ودين باهر من مصباح مِشْكَاة العِلْمِ والعَمَل لكُلِّ بَاغِي نُورٍ ومُقْتَبِس .

فليَسْتقِرّ شَيْخًا بالمكان الفُلَانىّ : لتعمُرَ أرجَاؤه بتَهجُّدِه ، وتُشْرِق خَلَوَاتُه بتَعبُّدِه ، وتَعذُبَ مَوَارِدُه بأوْرَادِه ، وتُطْلِعَ مَجَالِسُه نُجُومَ مَعرفته البَازِغَةَ من أُفُقِ إرادِه ؛ [و]لتَغْدُوَ هـذه البُقْعَة رَوْضَةَ أفكار ، وقِبْـلَةَ أذْكَار ، ومَرَاقِيَ دَعَوات ، ومَرَافِعَ بَرَكات ، تُستَنزَل بين صَلَوات مَقبولة وخَلَوات ؛ ولْيَتَنَاوَلِ المعلومَ المسـتقرَّ له تَرْفيهًـا لِسِرِّه ، وتَنْزِيهًا لفِكْرِه ؛ وإعَانَةً علىٰ الانقطاع بهـذه البقعة التى تتصل به أسْـبابُ السَّعادة فى أرْجَائها ، وتَخْصِيصًا لها منه بإمَامٍ تُقًى لو كان لبُقْعَةٍ أنْ تَجْتنِيَ بَرَكَتَه لكان مُنْتَهىٰ رجائِها ، وليَرْفَعْ من الأدْعِية الصالحة لأيَّامنا المباركةِ مالا تَزَال مَوَاطِنُ القَبول لنَفَحَاته المُتَرقِّبَـة مُتَلَقِّيه ، وما لا تَبرَحُ النفوسُ لخَشْيَتِه المَـانِعَةِ مُتَوَقِّيَه ؛ والاعتماد علىٰ الخطِّ الشَّريف أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

قلتُ : هٰذا إن كُتب عن الأبواب السُّـلطانية . وإلَّا فالغالبُ كتَابة ذلك عن نائب السلطنة بالشَّام .

النـــــوع الثـــانى

(من وظائف دِمَشْق ماهو خارج عن حاضرَتها)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية : أنَّ لدِمَشْقَ أرْبعَ صَفَقات ، وهى : الغَرْبية ، والشَّرْقية ، والقِبْلية ، والشَّمَالية .

فأمَّا الصَّفْقة الغَرْبية : وهى المعبَّر عنها بالسَّاحِلِيّة والجَبَلِيّة ، على ماتقدّم فيها ، ففيها من وظائف أرْباب السيوف عدّةُ وظَائف ، وتُوَلِّى فيها الأبْوابُ السُّلْطانية .

منها ــ نِيَابَة القُدْس . وقد تقــدّم أنّها كانت فى الزّمن المتقدّم وِلَايَة صغيرةً يَلِيها جُنْدِىٌّ ، ثم آستقرّت نيابةَ طَبْلَخَاناه . فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وأنّ العادةَ جرت أنْ يُضَاف إليها نَظَر الحَرَمَيْن : حَرَمِ الخَلِيل عليه الســلام ، وحَرَمِ القُدْس . والذى يكتب له مرسومٌ فى قَطْع الثُّلث بـ« السَّامِىّ » بالياء .

ومنها ــ نيابة قلعة الصُّبَيْبَة . وقد تقدّم أنّها من أجَلّ القِلَاع وأمنَعها ، وأنّه كان يَلِيها نَائِبٌ مُفْرَد من أجْناد الحَلْقَــة أو مُقَدَّمِيها عن نائب دِمَشْــق ، ثم أُضِيفت إلى وَالِى بَانِيَــاس . ثم آستقرّت فى ســنة أرْبعَ عَشْرةَ وثمــانمــائة فى الدولة الناصرية « فرج » نِيَابَةً .

ومنها ــ نيابة قَلْعة عَجْلُونَ . وقد تقــدّم أنّها على صِغَرِها حِصْنٌ حَصِينٌ ، مَبْنِيَّــةٌ على جَبَل عوف[1] ، بناها أُسَامَة بن مُنْقِذ ، أحَدُ أُمَراءِ السُّلطان صَلَاحِ الدِّين « يوسف آبن أيُّوب » فى سَــلْطَنة العادل أبِى بَكْر ، وأنّه كانــ مَكَانَها رَاهِبٌ آسمه عَجْلُون ، فسُمِّيت به . ثم آستقرّت فى الدولة الناصرية « فَرَج » فى سنة أرْبعَ عَشْرَةَ وثمانمائة إمْرَةَ طَبْلَخَانَاه .

وقد تقدّم أوّلَ هذا القِسْم ما يُكْتَب للقدمين ، وما يكتب للطَّبْلَخَاناه ، وما يكتب للعَشَرات .

أمّا أرباب الوظائف الدِّينيّة .

فمنهــا ــ مَشْيَخَة الخَانِقَاهِ الصَّلَاحية بالقُدْس . وتَوْقِيعُها يُكْتب فى قَطْع الثلث مفتتحا بـ« الحمــد لله » .

(١) فى تقويم البلدان ص ٢٢٨ أن جبــل عوف كان أهله عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على الغور .

ومنها ـ خَطَابَة القُـدْس ، وتوقيعها كذلك .

ومنها ـ مَشْيخة حَرَم الخليل، وتَوْقيعُها فى العَادَة يكتب مفتتحا بـ«مرسم» .

وأمّا الصَّفْقة القِبْليّـة ، فالّتى يولّى بها من الأبواب السُّلطانية نِيَابةُ صَرْخَد . وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المملكة الشّاميّـة أنّه قد يجعـل فيها من يَقْرُب من رُتَبِ السَّلْطنة ، وحينئذ : فإن وَلِيَها مُقَدّم أَلْف ، كان مَرْسُومُه فى قَطْع النّصف بـ«بالمجلس العالى» . وإنْ وَلِيَها أميرُ طَبْلَخَاناه، كان مَرْسُومه فى قَطْع النّصف أيْضا، بـ«السّامىّ» بالياء .

وأما الصَّفْقة الشّرْقية فالنّيابات بها على طَبَقَتَيْن :

الطبقـــة الأولى

(ما يُكْتَب به مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع النّصف، وهو ما يَلِيه مُقَدَّمُ أَلْفٍ أو طبلخاناه ، وفيها نيابات)

النيـابة الأولى ــ نيـابة حمْص .

وقد تقدّم أنّها كانت نِيَابَةً جليلةً ،كان يَلِيها فى الدّولة النّاصرية «محمد بن قلاوون» مقدَّمُ أَلْف ، وأنه ذكر فى " التّثقيف " أنّها صارت الآن طَبْلَخَاناه . وحينئـذ : فإن كان بها مُقَدّمُ ألْف، كان مَرسومُه فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كان مَرسومُه فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء .

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة السلطنة بحمْص :

الحمد لله مُقَدِّرِ كلّ أجلٍ إلى حِين، ومُقَرِّرِ أُمورِ الممالك فى عِبَاده الصّالحين ، الذى جعل بِنَا أوْلِيَاءَنا من الرّاجحين، وحَفِظ ما اسْتَرْعَانا من أُمور عِبَاده بولاية النّاصحين .

نحمدُه علىٰ آختيارٍ لا يَصِلُ إليه قَدْحُ القَادِحين ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نكونُ بها فى غَمَرَات الحُرُوب علىٰ السَّوَابح سَابحين، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه أكرم المَانحين، وأعْظم الفَاتحين، وأشْرَف من وَلّى الأعْمال الكُفَاةَ الوُفَاةَ المُكَافِحِين، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً لا تزال فيها الحَفَظَةُ على أعْمالنا مُمَاسِين ومُصَابِحين، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ مَرَاسيمنا الشَّريفةَ وإنْ تأخّر وقتُها إلىٰ أجلٍ مَعْدُود، وأمَدٍ مَمْدُود، ومَضَتْ أيّامٌ وليَالٍ ولها بابٌ مَسْدود، وعَمَلٌ سَبَبُه غيرُ مَشْدُود ـ فإنّا كالسَّيْف يتَلاهَىٰ ثم إذَا صَمّم لا يَرْجِع، وكالغَمَام تَتَمَادَىٰ مُدَدُ مَدّه ثم يجُود فلا يُقْلِع، ولم تَزَلْ منذ فوّض اللهُ أُمُورَ بِلاده إلينا ، وصرّف أُمور جُمْهور عباده بيَدَيْنا ، نرىٰ أنْ نَحْمِيَ غَابَاتها بأشَدّ الأُسُود ، ونَرْمِيَ غَايَاتهَا بمَن هو لأمْرٍ مّا يَسُود ، ونَحُوطَ جَنَبَاتها بمَن لا يَسْتَبِيحُ حَرَمَه إلا الوُفُود، ونَحُطّ رَكَائبَ رَعَايَاها منه علىٰ من هو المَقْصود، ونُنِيب إلىٰ ما يَتَرَجّح من مَصَالحهم لَدَيْنا ، ونَسْتَنِيبَ لمَن يترجّىٰ الحُسْنَىٰ إذا عُرِضَت مُتَجدّداتُ أُمورهم عَلَيْنا ، وإذَا آنفرد بحُكْم لا يَظُنّ إلّا أنّه بِسَمْعٍ من أُذُنَيْنا ، ومَرْأًى من عَيْنَينا، لأنّ نُوّابَ الممالك الشريفة فُرُوع عَدْلنا الشَّريف ونحن أصْلُها، وأسْبابُ إحْسَانٍ بأوَامِرنا المُطاعة قَطْعها ووَصْلُها .

وكانت حِمْصُ المحروسةُ من أكبر المَمَالك القَديمَه ، والمُدُن العَظيمَه ، تَغرَقُ الأقَاليمُ فىٰ مَدّها ، وتَمْتَدُّ عساكرُها فتعدُّ حُمَاةً حمَاةَ من جندها؛ وهى من الشام المحروس فى مُلْتَقَىٰ مَوَاكبه، ومَجَرّ عَوَالِيه ومَجْرَىٰ سَوَابِقِه ومَجْمَع كَتَائبه؛ طَالَما كان بها الحَرْب سِجَالا ، وطالما سابَقَتْ بها الرِّجالُ آجالا ؛ وكان لنا بها فى الحَرْب يومَان عَوّضنا اللهُ أدْناهما بما حفظت المعارك ، وضاقت الأرْضُ بدمَاءِ القَتْلىٰ ففَاضَ إلىٰ

السّماء ما ٱلتقىٰ بالشفق من [تلك المسالك][1]، وٱتّصلتْ بالبرّ والبَحْر من جَانِبَيْهـا ؛ وٱتّصفَت بأنّها مَهَبُّ الرِّياح، ومَرْكَزُ الرِّماح؛ لِمَا يَهُبُّ لنا من بُشْرى النصر ويَخْفِقُ من عَصَائِبنا المنصورة عليهـا .

فلمّـا تَطَاوَلَ الأمَدُ علىٰ خُلُوّها ممّن يَنُوب عن السّـلْطنة الشّريفة فى أحْكَامها، ويَثُوبُ إلىٰ تَسْـديد مَرَامِى سِهَامِها ؛ لم تَزَلْ آراؤُنا العاليـةُ تَجُولُ فيمَن يَصْلُح أنْ يُقَـدِّم قَدَمَه إلىٰ رُتْبتها العَلِيـه ، و يُجَرِّدَ منها عَزَائِمَه المَشْرَفِيَّه ؛ ويَجْمع بها علىٰ طَاعَتِنا الشّريفةِ مَن فِيها من العسَاكر المَنْصُورَه ، والقَبائِل المَشْهُوره ، والطّوَائف المَذْكوره ، ويَبْسُط بِسَاط العَـدْلِ فى كافّة جُنُودها ورَعَايَاها فإنّهـا بهؤُلا... ...ء معموره ـ فرَأينا أنّ أولىٰ من حَكَمَ فى عَاصِيها والمُطِيع ، وٱتّخذَ لسُورِها السُّو... ...يع ؛ مَن هو المَوْثُوق بمـا أمْضت السُّيوفُ من هِمَمه ، وأرْضَت التّجَارِبُ من سَـوَابِق خِدَمه ؛ وطارتْ سُمْعَـةُ شُكْرِه فى الآفاق ، وطَابَتْ أثْنِيَتُـه فجاءت بمـا يُعْرف من الطَّرب لإسحاق[2] ؛ وكان قد تقدّمت له فى عَيْنْتَاب، نِيَابَةٌ كَمْ أصابه فيها رَجُلٌ بالعَيْن ثم إنّه من العَيْنِ تَاب ؛ وقَام بين أيْدى كفلاء مَمَـالِكنا الشريفَـة حَاجِبا ، وفَهِم من أحْكَامهم التى تَلقَّوْها مِنّا ما أصْبح لهـا صَاحِبا ؛ فمـا للنِّيَابَةِ إحْكَام أحْكَام إلّا وهو به عَالِم ، ولا تَوْلِيَة حُكْمٍ إلا وقد ٱسْتَحقّها لِقُرْب ما بَيْن الحَاجِب والحَاكِم .

وكان فلانٌ هو المُرْتَضَىٰ لِلبْس هـذه المَفَاخر، والمُنْتَظَرُ الذى كَمْ تَرَكَ الأوّلُ فيه للآخِر ـ فٱقتضتْ مَرَاسِيمنا المُطَاعةُ أنْ يُزَانَ جِيدُه بهٰذا التقليد، وتُلْقىٰ إليه المَقَالِيد؛ وتُمَدَّدَ هذه الرتبة لتَلقّيه ، وتخضعَ عُنُق هذه المرتبة لترَقّيه؛ وتحوّل اليه هذه النّعمة

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى مُغَنّى الخلفاء المشهور .

التي ألحقت قدره بالأكفاء، وأهلت هممه للاكتفاء، وشرفت مكانه بما أجمعت عليه آراؤنا الشريفة له من الاصطفاء، وأحسنت به الظن لما رأت نيته الجميلة ممثلة من خاطره في مرآة الصفاء.

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زال مرفوعا به كل علم، ممنوعا به حمىٰ كل حرم ـ أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بحمص المحروسة وأعمالها، وجندها وعما لها، وعساكرها وعشائرها، وعامرها وغامرها، وأولها وآخرها، ودانيها، وقاصيها، وكل ما في حدودها الأربعه، وداخل في جهاتها المنعه، علىٰ أكمل ماجرت به عوائد من تقدمه، واستقرت عليه القواعد المتقدمه.

فاتق الله في أمورك، واجعل الشرع الشريف مشكاة نورك، وعظم حكامه، ونفذ أحكامه، فهم أمنع سورك. واعدل فهو قرار خواطر جمهورك، وتيقظ لسداد سداد ثغورك، وارفق لتطلق به نطق نطاق شكورك. وأقم الحدود فإنها زيادة في أجورك. وأما العساكر المنصورة، فجمل بهم في خدمتنا الشريفة مواكبك، وكل بعزائمهم مضاربك، ولا تستخدم منهم إلا من يسرك أن تراه في يوم العرض، وتعقد هوادي جياده السماء بالأرض، واحم أطراف بلادك من عادية الرجال، واحفظ جانبيها من تخطف الغارات فسر قيامها [لايدفعه] غير احتيال، واهتم بالجهاد تحت صناجقنا المنصورة لأعداء الله متىٰ أجمعوا، وضرسهم بأنياب أسنتك فأنت صاحب العصا وهي تتلقف ماصنعوا، وعمر بلادها بملاحظتك الجميله، وثمر أمورها فهي قوام الجنود وهم إلىٰ الثقة في النصر الوسيله، وسارع إلىٰ ما ترد به مراسمنا الشريفة عليك لنهديك إلىٰ صراط مستقيم، وعجل البريد فإنك تعلم به مالست بعليم،

وبقيةُ الوصايا لاحاجةَ إليها لما تعرفه من قديم، والله تعالى يُمتّعك بكلّ خُلُق كريم؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ... .

النيابة الثانية — نيابة الرَّحْبة .

وهذه نسخةٌ بنيابتها :

الحمدُ لله الذى أمدّنا بنَصْره، وشمِل بجُود سلطاننا أهلَ عَصْره؛ وأيّده بجنودٍ أوّلُها متّصلٌ بأوّل عِراقه وآخرُها بآخِر مِصْره، وفرّق بسهامه الأعداءَ فى حَواصل الطير بين حضْنه وخَصْره .

نحمدُه حمدًا يقومُ بشكره، ويحافظُ على حُسْنِ ذكره، ويُستعاذ به إلّا ممّا يُدَمّر على العِدَا من عواقب مكره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُرْغِم مَن جادلَه بكُفْره، وتُمزّقه بين كل نابِ سيف وظُفْره؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أرسله مُقيمًا لأمره، ومُديمًا فى الجهاد لإعمال بِيضه وسُمْره، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه حَمَلة سِرّه، ونَقَلة هَدْيه بأسْره؛ صلاةً باقيةً فى الوجود بقاء دَهْره، راقيةً ارتقاء زُهْره .

وبعدُ، فإنّ الثغورَ بسِدَادها، والبُحُور بإمدادها، والنُّحُور لا تحلّى بأحسنَ من حلْية نِجادها؛ والممالكَ المحروسةَ لا تُحْرَس إلا بشُهُب خُرْصانها، ولا تُسْقَى بأنقعَ ممّا تُطِلّه من الدّماء سُحُبُ فُرْسانها؛ والفُرات لا تُحمَى مَوارِدُها إلا بأمثال سيوفها القَوَاضب، ولا تُمنَع مَخاوِضُها[(1)] إلّا بدَمٍ خاضب؛ والحصونَ لا يَرضى بها كلُّ مَنْجنيق غضبانَ إلا بوِصَال مُغاضِب، والقِلاعُ لا تَطّلع عيونُ دَيادِبها إلا لمن ماءُ الكَرَى

(1) فى الأصل مخالصها .

فى جُفُونه نَاضب ، والمَعَاقِلَ لا تَسْـمَح بعقَائِلها إلّا لمن هو علىٰ خِطْبَتها مُوَاظِب ، وكانت الرَّحْبة ـ حَرَسها الله تعالىٰ ـ هى أوسَعُ مكانٍ رِحَابا، وأدْنىٰ إلىٰ مطرٍ سحابا، وأوْثَقُ ماأُغْلَق على البـلاد بَابا ، وأقـرب ما سَمِـع حُرَّاسُها فى السماء دُعَاءً مُجَـابا ؛ قد ملئت سَمَـاؤُها حَرَسًا شَـديدا وشُهُبا، ومَدّتْ كواكبَ الدلو واسْتَقَتْ من الغَمَام قُلُبـا ، وعدّت ماوراء المَجَرَّة فعُمِّيَت دونهـا المَسَالك ، وحُسِبَت لِلْك ونُسِبَت إلىٰ مالك ؛ ومالكٌ ـ لا أعني إلا آبن طَوْقٍ ـ خَازنُهـا ، ومَنْزِلُ أَمْنٍ وفى غَاب الأُسْـد مَسَاكنُها ؛ قد وقَفَت لبَغْدادَ فى فَمِ المَضِيق ، وهَمَّت بلادُ العدا أن تَخُوضَ الفُرَاتَ إليها فقالت : مالَكِ إلىَّ طَرِيق ؛ قد آفْتَرَّ فى وَجْه العساكرِ المنصورةِ ثَغْرُها الضَّاحك ، وردّ قَرْنَ الشمس فَرْعُها المُتَمَاسك .

فلمـا أُغْمِد حُسَامها المسْلُول ، وأقْلع غَمَامُها وكلُّ هُدْب بالبكاء عليـه مَبْلُول ـ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نجـدّد لعَرُوسها زِفَافا، ولبيوتها أفْوَافا ، ولسُيُوفها جلاء ، ولسقوفها إعلاء ، ونولّيها لمن تكون هِمَّتُه فيها جَديدةَ الشَّباب ، أكيدةَ الأسْـباب ؛ ليكون أدْعىٰ لمصالحها ، وأرْعىٰ لمنَاجحها ، وأوْعىٰ لمـا يجمعه سَمْعه من مَصَالحهـا ، وأسْـعىٰ فى حِمَاية مَمَاسيها ومصَابحها ؛ وكان فلانٌ هو أصْلَبَ مَن فى كَنَائننا الشريفة عُودا ، وأنجزَ وُعُودا ، وأصْدقَ رُعُودا ، وأيْمَن إذا طلع نجمُه فى أُفُقٍ سُعُودا .

فرسم بالأمر الشريف أن تفَوَّض إليه نيابةُ الرَّحْبة المحروسة ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدَته ؛ [فليتول ذلك] مقدّمًا تقْوَى الله والعملَ بما شَرَع ، وآتباعَ مَرَاسمنا الشريفة فمِثْلُه مَن آتّبَع ، وحِمَايةَ أطرافها ، من كل طَارقٍ إلا طَارقًا يَطْرُقُ بخَيْر ، وصيانةَ أكْنَافها ، من كل عِصَابةٍ مُحَلِّقةٍ إلىٰ جَوِّها كالطَّيْر ، وحفظَها من عَادِيَة كلِّ أفّاك وسفّاك ، وبَادِيَة أعْرَاب وأتْراك ، وكلِّ فارس فَرَس وزَاكب بَعِير ، وكلِّ وقفة مُحَاصِر وخَطْفة مُغِير ؛

وجانبَىْ برٍّ وبحرٍ : فى أحدهما المسالكُ تَعمَىٰ والآخر لا يُعَام ، وصاحِبَىْ سرٍّ وجهر : هذا تخشىٰ له عاقبة كلامٍ وهذا مُعاقبة كلام .

وليتخطَّف من الأخبار ما تلمع لدينا بوارقُه ، ويتقطَّف من الأقوال ثمراتها ولا يدَعْ كلَّ ما تجمعه حدائقُه ، وليجعلْ له من المناصحين طلائعَ ما منهم إلَّا مَن هو فى انتهاب الأخبار أبو الغارات ، ومَن إذا ألجمه الخوفُ كان له فى لمع البُروق إشارات ؛ وليتَّخِذْ من الكشَّافة من يَسبِق قبلَ أن يرتدَّ إليه طَرْفُه ، ومن الخيَّالة من لا يرتدّ عن وَقْدِ الرِّماح طرْفُه ؛ ومن القُصَّاد مَن لا يَطوِى عنه خبرا ، ومن الدَّيادب من يُعيره وقلَّ أن تُعار العيونُ نظرا ؛ وليتحفظ التجَّار فى مذاهبهم غُدُوًّا ورواحا ، ومَساءً وصَباحا ؛ وليستوص بهم خيرًا فإنَّهم طالما ازدانت بهم صدورُ الخزائن على امتلائها انشراحا ، وليأخذْ منهم ما لبيت المال فكم وجدُوا بعطائه أرباحا ؛ وليُوصِّلْ إلىٰ أرباب القرارات ما لهم من مُقرَّرٍ معلوم ، وليُعطِهم ما تصدَّقنا به عليهم وهو مشكورٌ وإلَّا أعطاهم وهو مذموم ؛ وليُعمِّر البلادَ بتوطين أهل القُرىٰ ، وإنامتها بالعدل ملاءةَ الجُفُونِ من الكرىٰ ؛ وليكنْ للفُرات متيقِّظا لئلَّا يطغىٰ بها التيَّار ، ويغلب بمدِّها الغَمْر علىٰ سكرِها من السُّكر الخمَّار ؛ ويقوِّىٰ علىٰ سدِّها قبل أن لا يقدر علىٰ مُقاواة البحار ؛ ويتفقَّد مبانيها فإنَّها من أسنىٰ ما تتفقَّده الأبصار ، وليغلق زُروعها لتكون : ﴿ كَمَثَلِ زَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ وليَعِفَّ فإنَّ العَفاف هو الغنىٰ ، وليُؤمِّنْ من يَليه فإنَّ الأمانَ هو المُنىٰ ؛ وليُقِرَّ ما استقرَّ بيننا وبين القوم من صُلحٍ أكَّدتْ أواخيه ، وأصبح كلٌّ من أهل الجانبَيْن لا يفرُّ من أخيه ، ولا يرخِّص لأحدٍ فيما ينقُضه لا فى عاجل أمرٍ ولا فى تراخيه ؛ حتَّىٰ إذا كشفت الحربُ عن ساقها ، وشدَّت عقدَ نِطَاقها ؛ فليكنْ بحسب مراسمنا الشريفة اعتمادُه فى شنِّ كلِّ غارَه ، وسَنِّ كلِّ ماضٍ

مُرْهِقًا غِرَارَه ، وجَوْس خِلَال دِيَارِ العِدا وٱخْتِطَاف كُلِّ قمرٍ من دَارَه ؛ والمُحْرِقَات التى لا تُحْرِقُ نبَاتا حتَّى تَشِبّ فى ضلوعهم ، والعَيَّارة فهى الزَّلازل التى تَتَساقطُ منها مَبَانِى رُبُوعِهم ، ومُوَالاة البُعُوث : فإنَّ كلَّ بَعْثٍ يتكفَّل بشَتَاتِ جُمُوعِهم ؛ والعمل بكلِّ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنا العاليه ، والمُواصَلة بكُتُبِه التى تَرْفُض ما سوىٰ أخبارها المُتَوالِيه ، وإرسال كل بريد وحمام تُحَلِّق بهما : إمَّا رِيحٌ ظاهرة وإمَّا رِيحٌ عَادِيَة ، والله تعالىٰ يقرب له الغايات المنادية ؛ بمنه وكرمه ! .

النيابة الثالثة — نيابة مِصْيافَ .

وهذه نسخة مَرْسوم بنِيَابتها :

الحمدُ لله الذى صرَّف ممالكَنا الشَّرِيفَةَ فى المَمَالك ، وشَرَّف بنا كلَّ حِصْن لا تَعرِضُ له المَجَرَّةُ فى المسالك ، وعَرَّف بالتَّرْبِيَة فى خِدْمة أبوابنا العاليَة إلىٰ أيْنَ يَنْتَهِى السَّالك .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى نَعْتَدُّ بها الحمد من ذلك ، ونَرْغب أن تَلْقَ الله علىٰ أداء الأمانة فيها كذلك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له فيما هو مَالك ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أضاء به كلَّ حَالٍ حَالِك ، وأُنْجِىَ به من مَهَاوِى المَهَالِك ، وجَمَع به من الأُمَّة ما وَهَىٰ وهِىَ كالعِقْد المتهالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة يَجِدُ بها قائلُها فى الدار الآخرة كُلَّ هَنَاءٍ هُنالك ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ النظرَ فى أُمُورِ الممالك هو أوْلَى مايقدّمه المَلِك ، وأولىٰ مايتقدّم إليه مَن سَلَك ؛ ومملكة بَيْت الدَّعْوة هى من أجَلِّ ماتفرّدت به ممالكُنا الشَّرِيفَه ، وامتدّت به فى الأماكِن المُخِيفَه ، وأرْسَلت من قِلَاعِها من يَقْتَلِعُ العِدا بُوثُوبِه ، ويُسَابِق السَّهم إلىٰ مَطْلُوبِه ، ويتعبَّد بمُوَالاتنا التى وَرِثها عن سَلَفه فى طَاعَة أئِمَّتهم ،

وعَلِمُوا بهـا أن الدَّوْلة العلوية ما آنقضت حتّى آنتقلت إلينا الوِلَايةُ علىٰ شِيعَتِهم ؛ وأن المُلْك الإسْماعيلىّ فينا قد آنحصر ميرَاثُه ، وأن كلَّ مَن مات من الخلفاء الفَاطميِّين ـ رحمهم الله ـ نحن وُرَّاثُه ؛ فهمْ بهذا يبْذُلون نفُوسَهم فى الطاعة الشَّريفة التى يَرَوْنها فرضًا عليهم ، ويَبْلُغون بنـا أعلىٰ مَرَاتب الإيمـان : لأنهم إذا رَأَوْا مُنْكرا أزَالُوه بيَدَيْهم ، كَمْ هجمُوا علىٰ عدوٍ من أعْداء الله هَجْمة طَيْف ! ، وكَم آسْتَطالُوا بسِكِّين لا يتطاوَلُ إلىٰ مُبَارَاتِهـا سَيْف ! ، وكَمْ أوْقَدوا لهم بَارِقةَ عَزْمٍ فقيل : هذه سحابة صيف ! ، وكَم ورَدُوا بالدِّماءِ خدًّا غَدَا ينَادِى : يا كرام الوِرْدِ ضَيْف ! . وكانت مَصْياف ـ حرسها الله تعـالىٰ ـ هى كُرْسىّ هـذه المَمْلكه ، وقَلْعتُها هى التى بذَوَائِب الجَوْزاءِ مُتَمَسِّكه ؛ وآقتضتْ مَرَاسِمُنا المُطاعةُ نقْلَ النائب بها إلىٰ مارسَمْنا به الآن ، فخلتْ ممَّن يترقَّىٰ فيها إلىٰ أعَزِّ مكان ، واحتاجَتْ إلىٰ مَن تَغْنىٰ به عمـا يقال : من آعْتِقَال رُمْحٍ وتجْريدِ سِنَان .

فحصَل الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نُقَلِّده هٰذه النِّيـابَه ، ويتقلد أمْر هـذه العِصَابَه ؛ ويتصَرَّف فى أُمُورها بمُقْتضَىٰ ما تَرِد به مَرَاسِمُنا المُطاعَه ، ويُعـلم أنَّه من شِيعَتِنا : لأنَّه دَاعِينَا فى هَذه الجَمَاعَه ؛ فرأينا أنَّ أحَقَّ [الناس بها] من قدّمه وَلَاؤُه ، وعظَّمَه آنْتمـاؤُه ؛ ونَبَّهَ عليه آهْتِمَامُ هِمَمه التى لا تُشابِهُها الكَواكبُ فى سَيْرِها ، وعَزائِمه التى طَالمَـا كان بها فى خِدمَتنا الشريفة «يَظَلُّ بمَوْمَاةٍ ويُمْسى بغَيْرِها» ؛ ولم تَزَلْ به مَساعِيه حتَّىٰ وصل إلىٰ المَزِيد ، وأسْرعَ له الشَّيبُ فى طاعتنا الشَّريفَة : لأنَّه فى كلِّ وقْتٍ [كان] يسمعُ قَعْقَعةَ لجام البَرِيد ، وكان فلانٌ هو الذى أشار إليـه القَوْل بوَصْفه ، ودلَّ عليه ثَنَاؤُه بعَرْفه .

فرسم أن تفوَّض إليه النيابةُ بمَصْيَاف وأعْمالهـا ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته فليقدِّم تقْوَى الله تعالىٰ فيما وُلِّيه ، ولْيَنْشُرْ جَناحَ عَدْلِنا الشريف علىٰ من يليه ، ولْيَعْمَلْ

بالأحكام الشّرعيــة فى كل ما يقضيــه ؛ وليسلُك فى أهلها أوضح المَراشــد ، وليبيّن لهم أنّه يدعوهم إلىٰ سبيل الرشاد إلا ما آدّعاه راشــد ؛ وليوصّل إلى المجاهدين أرزاقهم التى هى أثمـانُ نفوسهم ، وثِمَـار مادنّى القِطَاف من رءوسهم . وأهـلُ من مات أو يموتُ منهـم علىٰ طاعتنا الشّريفــة فكُنْ عليهـم متعطّفا ، ومَن طلب منك الإنْصَافَ فكُنْ له مُنصِفا ، وآفعــلْ معهم أحْسنَ الأُسْوَه ، وقل لهم عنّا : إنّ الصّدَقاتِ الشّريفةَ قد آسْتَجابتْ لكم يا أهلَ الدّعْوه ، وخُذْ بقُلُوبهـم ، لتزْدادَ من حُبِّهم ، وقل للمُجاهِدين : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبِّهِـمْ ﴾ . والأَمْوال فصُنْها من الضّيَاع ؛ وعِمَـارة البِلاد عَلَيْك بها فإنّ القَلْعة لا تكون إلا بالمَدينَة والمدينَةَ لا تكونُ إلا بالضّيَاع ؛ وآمْتِثال مَرَاسِمنا الشّريفة وكُلّ ما يُرسَم به سَارِعْ إلىٰ آعتماده ، وطائِفة المُجاهِدين لا تَدَعْ منهـم إلا مَن هو معتـدّ لجهاده ؛ والكِتْمانَ الكِتْمانَ ! فبه تُنـالُ المَطالِب ، وتُدْركُ المآرِب ؛ وعَلَيْك بقَمْع المُفْسِدين ، ورَدْع المُعْتدين ، وإقامةِ الحُدُودِ : فإنّ بها أقام اللهُ هــذا الدِّين ؛ ونحن نَكْتَفِى بمـا فيــك من المَعْرفه ، وبمـا انت عليــه ــ بحَمْد الله تعـالى ــ من كمالِ كُلّ صِفَه ، عن آستيعاب الوصايا التى لم تَبْرحْ سَجاياك بها متّصِــفَه ، والله تعالىٰ يزيدُك من كلّ نَوْعٍ أشرفه ؛ والخط الشريف أعلاه ... .

*
* *

وأما الصّفْقةُ الشّمالية ، فالذى يولّى بهــذه الصّفْقة عن الأبواب السلطانية ، نِيابةُ بعلَبَكّ فقطْ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشّامية أنّهـا كانت أوّلا إمْرةَ عشرة ، ثم صارت طبلخاناه ، وأن نائبَ الشّام يو ، بها ، وربمـا ولّيتْ من الأبواب الشّريفَةِ السُّلطانية . وحينئذ فيكون مَرْسومُ نائبها فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامى» بالياء .

وهذه نسخة مرسوم بنيابة بعلبك :

اما بعد حمد الله على أمل حقق مناه ، وصدق غناه ، وفرق عليه سحب اعتناء أورق به عوده وطاب جناه ، والصلاة والسلام على نبيه سيدنا محمد الذى كمل بناه ، وعلى آله وصحبه ما شيد معقل نخار مبناه ـ فإن من أعظم مدن الشام القديمه ، ودور الملك التى ذهب من يحلها من الملوك وبقيت آثاره مقيمه ، مدينة بعلبك وهى التى تحصن الإسلام بقلعتها ، وتحصل الرعب فى قلوب الأعداء [بمنعتها][1] بنيت على عهد سليمان بن داود عليهما السلام وأتقن بناؤها ، وهالت أسوارها حتى نسب إلى صنعة الجن بناؤها ، ودعمت السماء عمدها ، فطالت شرفها حتى كادت تخضخض فى تجلل السحاب يدها ، وجمعت محاسن فى سواها لا توجد ، وتقرر بملكها من الملوك : تارة سعيدا وتارة أمجد ، وما خلت من علماء عظيمى الشان ، وصلحاء يلمهم الجبلان : سيس ولبنان ، وهى باب دمشق المفتوح ، وسحاب الأنواء المسفوح بالسفوح ، وباب البروق التى آلت أنها بأسرارها لا تبوح ، ومآب السفارة التى تغدو محملة أوقار ركائبها وتروح ، ولها العين المسبلة الرواتب ، والجبال الراسية الوقار لمفرقها الشائب ، العالية الذرى ... ...[2] من قطع السحائب ، و[لما] كان من فيها الآن ممن لا تستغنى الدولة القاهرة عن قربه ، ولا تستثنى أحدا معه فى تجريده سيفه المشهور من قربه ، أجلنا الرأى فى كفء لعروسها ، ومماثل لمركز تأود غروسها ، فلم نجد أدرى بأحوالها ، وأدرب بما يؤلف على الطاعة قلوب رجالها ، كمن استقر به فيها مع أبيه الماضى ـ رحمه الله ـ الوطن [ونالا منه الوطر] ، ومرت [عليهم فيه]

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

(٢) « « ولعله : التى كأنها متلفعة من الخ .

سنون وأيامٌ هتف بها داعى قصر، ولا غِنًى [عنه] مع مالَهُ من وِلَايات صَحِب فيها الناسَ وفارَقهم على وَجْهٍ جَميل، ورافَقهم ثم انْصرفَ وانصرفوا عنه وما ذَمَّهُ فى النّازِلِين نَزِيل، وكان فلانٌ هو المتوقِّد الشِّهاب، المُتوقِّل فى تلك الهِضَاب، المشكورَ قولًا ودِينا، المشهورَ بوضْع كلِّ شَىْءٍ فى مَوْضعه شِدَّةً ولِينا .

فلذلك رسم ... ... ــ لا زال إحسانه أحمد واختياره مُقدَّما ــ أن يُرتَّبَ فى نيابة بعَلَبكَّ على عادة من تقدّمه وقاعدته، مُبتَدِئًا حُسْن النظر فى الأمور العامه، لا يَدَعُ ظُلامَه، ولا يَدَعُ سالكَ طريقٍ إلى سلامه، ولا يُعدُّ سَمعًا إلا لسَماع شُكرٍ لا مَلامَه؛ ولْيَنظُرْ فى المظالم نظرًا يَجلِى به سَدَفها، وليشكر العشير توطيا يوطأ به هدَفُها؛ وليُلاحِظ الأمورَ الديوانية بما يُنمِّى به أموالَها، ويُندِّى بسحابه المُتدفِّق أحوالَها . والأوقاف فليشارِكْ واقِفِيها فى إحسانهم، وليُجْرِ حَسَناتِها على ما كانت عليه فى زمانهم؛ وليكن لها نعم الكَنَفِ فى دوام المحافظة وليتَفَقَّدْ ما فيها من الحواصل والزَّرَدْخاناه مما يُدَّخَر لوقته، ويُؤخَّر لفَرْط الشَّغَف به لا لمَقْته . ومن أهمِّ ما يُحتفَظُ به قلوبُ الرجال، وعِمَارَةُ الأسْوار فإنها للفُرسان المُقاتِلَة مَجَال، وعليها تُنصب المجانيق وتُخْتَطَف الآجال . وأمَّا الشَّريعةُ المطهَّرة : فإنَّ من تعدَّى غرِق أو أوْشك أنْ يغرَق، واتِّباع أوَامِرها : وإلَّا ففيمَ يُعذَّبُ من يعذِّبُ ويُحْرِق من يُحْرِق؛ وتقوى الله تعالى هى الوَصيَّة الجامعه، والتَّذْكِرة التى تَرتَدُّ بها الأبصارُ خاشعه؛ ولْيفهَم هذه الوَصَايا ولا يُخْرِجْ شيئا منها من قَلْبه، ولْيتَبيَّنْ معانيَها ليكونَ بها على بَيِّنةٍ من رَبِّه؛ والله تعالى يكْشف عنه غِطَاءَ نُجْبته، ويَزَعُه عما يأخُذُه ويؤاخذه من نِيَّته؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الثانى[1]

(ممّن [هم] خارجَ دِمَشْق : ممّن يُوَلّىٰ عن الأبواب السلطانية ـ أمراءُ العُرْبان ، وهم علىٰ طبقتين :)

الطبقـــة الأولىٰ

(من يُكْتَبُ له منهم تقليدٌ فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العالى» وهو أمير آل فَضْل خاصّةً : سواءٌ كان مستقلًّا بالإمارة أو شريكًا لغيره فيها)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشاميــة نقلا عن "مسالك الأبصار" أنّ ديارَهم من حِمْص، إلىٰ قلعة جَعْبَر، إلىٰ الرَّحْبَة، آخذين علىٰ شِقّى الفُرات وأطراف العِــرَاق .

⁂

وهذه نسخةُ تقليــد بإمْرة آلِ فَضْل : كُتبَ به للأمير شجاع الدين « فضل بن عيسىٰ » عوضًا عن أخيه مُهنَّا ، عنــد ما خرج أخوه المذكور مع قَرا سنقر الأقوم ومن معهما من المتسحبين، وأقام [هو] بأطْراف البلاد ولم يُفَارِق الخِدْمة، فى شهور سنة آثنتى عَشْرة وسَبْعِمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبىّ، وهو :

الحمد لله الذى مَنَح آل فَضْل فى أيّامنا الزاهرةِ بحُسْنِ الطاعة فَضْلا، وقدّم عليهم بقــديم الإخلاص فى الوَلاءِ من أنْفُسِهم شُجَاعًا يجمعُ لهم علىٰ الخــدْمة أُلْفَةً ويَنْظِم لهم على المخالصة شَمْلا ؛ وحَفِظ عليهم من إعْزَازِ مكان بيتهم لَدَيْنا مكانةً لا تَنْقُصُ لهـا الأيامُ حُكْمًا ولا تَنْقُص لهـا الحوادثُ ظلًّا .

---

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصناف ولعل مراده أن ما تقدّم من التولية فى الصفقات صنف أول وهذا صنف ثان . طبعه .

نحمده علىٰ نعمه التى شملت برّنا، الحضر والبدو، وألهجت بشكرنا، ألسنة المعجم فى الشدو والعرب فى الحدو، وأعملت فى الجهاد بين يدينا من اليعملات ما يُبارى بالنّصّ والعنق الصافنات فى الخبب والعدو ؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له شهادة تدرأ بها الأمور العظام، ونقلّد يُمنها ما أهمّ من مصالح الإسلام لمن يجرى بتدبيره علىٰ أحسن نظام ؛ ونشهد أن محمّدا عبده ورسوله المبعوث من أعلىٰ ذوائب العرب وأشرفها، المرجوّ الشفاعة العظمىٰ يوم طول عرض الأمم وهول موقفها ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين كرمت بالوفاء أنسابهم ، وأضاءت بتقوى الله وجوههم وأحسابهم؛ صلاة لا تزال الألسن تقيم نداءها، والأقلام ترقم رداءها؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنّ أولىٰ من أجنته الطاعة ثمرة إخلاصه، ورفعته الخالصة إلىٰ أسنىٰ رتب تقريبه واختصاصه؛ وألّف بمبادرته إلىٰ الخدمة الشريفة قلوب القبائل وجمع شملها ، وقلّده حسن الوفاء من أمر قومه وإمرتهم ما يُستشهد فيه بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ــ من ارتقىٰ إلىٰ أسنىٰ رتب دنياه بحفظ دينه ، ودلّ تمسّكه بإيمانه علىٰ صحّة إيمانه وقوّة يقينه؛ ولاحظته عيون السّعادة فكان فى حزب الله الغالب وهو حزبنا ، وقابلته وجوه الإقبال فأرته أنّ المغبون من فاته تقريبنا وقربنا؛ ورأىٰ إحساننا إليه بعين لم يطرفها الجحود ، ولم يطرقها إعراض السّعود ؛ فسلك جادّة الوفاء وهى من أيمن الطّرق طريقا ، واقتدىٰ فى الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله : ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ .

ولمّا كان المجلس العالى ... هوالذى حاز من سعادة الدّنيا والآخرة بحسن الطّاعة ما حاز، وفاز من برّنا وشكرنا بجميل المبادرة إلى الخدمة بما فاز؛ وعلم مواقع إحساننا

إلَيه فعَمِل على آستدامة وَبْلِها ، وآستزادة فَضْلِها ؛ والأرتواء من معْروفِها الذى بآء بالحِرْمان [منه] من خَرج عن ظلِّها ؛ مع ما أضاف إلىٰ ذلكَ : من شَجاعَةٍ تَبِيتُ منها أعداءُ الدِّين علىٰ وَجَل ، ومَهَابَةٍ تَسْرى إلىٰ قلوب من بَعُدَ من أهْـل الكُفر سُرَىٰ ما قَرُب من الأجَل ـ آقتضتْ آراؤنا الشريفة أن نمُدَّ علىٰ أطْراف الممالك المحروسة منه سُورًا مصَفَّحًا بصِفَاحِه ، مشَرَّفا بأسِنَّةِ رِمَاحِه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ـ لا زال يقلِد وَلِيَّه فَضْلا ، ويَمْلأُ ممالِكَه إحسانا وعَدْلا ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : لمَا تقدّم من أسْباب تَقْديمه ، وأُومِىَ إليه من عِنَايَتِنا بهـذا البيت الذى هو سِرُّ حَديثِـه وقَديمِه ؛ ولِعِلْمِنا بأوْلَوِيَّتِه التى قُطْبُها الشَّجَاعَه ، وفَلَكُها الطَّاعه ، ومادَّتُهـا الدِّيانةُ والتُّقىٰ ، وجادَّتُها الأمانةُ التى لا تستَزِلُّها الأهواء ولا تَسْتَفِزُّها الرُّقىٰ .

ولْيكُنْ لأخبار العَدُوّ مُطّالِعا ، ولنَجْوىٰ حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم علىٰ البُعْد سَامِعا ، ولديارِهِم كلَّ وقْت مُصَبِّحًا حتّىٰ يظنوه من كل ثَنِيَّةٍ عليهم طَالِعا ؛ ولْيُدِم التأهُّبَ حتّىٰ لا تَفُوتَه من العَدُوّ غارةٌ ولا غِرّه ، ويُلْزِمْ أصحابَه بالتيقُّظ لإدامة الجهاد الذى جَرَّب الأعداءُ [منه] مَوَاقِعَ سيوفهم غير مَرَّه ؛ وقد خَبَرْنَا من شَجَاعَتِه وإقْدَامِه ، وسياسته فى نَقْض كلِّ أمْر وإبْرامِه ؛ ما يُغْنِى عن الوصايا التى مِلاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من سجاياه التى وُصِفَت ، وخَصَائِصِه التى أُلِفَت وعُرِفَت ؛ فلْيَجْعَلْها مِرْآة ذِكْرِه ، وفاتِحَةَ فِكْرِه ، والله تعالىٰ يؤيِّدُه فى سرِّه وجَهْرِه ؛ بمنه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة مَرْسوم شريف بإمْرة آل فَضْل ، كُتب بها للأمير حُسام الدين «مهَنَّا بن عيسى» من إنشاء الشيخ شهاب الدِّين محمود الحلبى ، وهى :

الحمد لله الذي أرهف حسام الدين في طاعتنا بيد من تُمضي مضاربه بيديه، وأعاد أمر القبائل وإمرتهم إلى من لا يصلح أمر العرب إلا عليه، وحفظ رتبة آل عيسى باستقرارها لمن لا يزال الوفاء والشجاعة والطاعة في سائر الأحوال منسوبات إليه، وجعل حسن العقبى بعنايتنا لمن لم يتطرق العدو إلى أطراف البلاد المحروسة إلا وردّه الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عقبيه.

نحمده على نعمه التي ما زالت مستحقة لمن لم يزل المقدم في تمييرنا، المعوّل عليه في أمور الإسلام وأمورنا، المعين فيما تنطوي عليه أثناء سرائرنا ومطاوي صدورنا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب على قائلها حسن التمسك بأسبابها، وتقتضي للمخلص فيها بذل النفوس والنفائس في المحافظة على مصالح أربابها، وتكون للحافظ عليها ذخيرة يوم تتقدم النفوس بطاعتها وإيمانها وأنسابها؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث من أشرف ذوائب العرب أصلا وفرعا، المفروضة طاعته على سائر الأمم دينا وشرعا، المخصوص بالأئمة الذين بثوا دعوته في الآفاق على سعتها ولم يضيقوا لجهاد أعداء الله وأعدائه ذرعا؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حازوا بصحبته الرتب الفاخره، وحصلوا بطاعة الله وطاعته على سعادة الدنيا والآخره، وعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يزحزحهم عن ظلها الركون إلى الدنيا الساحره، صلاة تقطع الفلوات ركائبها، وتسري بسالكي طرق النجاة نجائبها، وتنتصر بإقامتها كتائب الإسلام ومواكبها، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد، فإن أولى من تلقته رتبته، التي توهم إعراضها بأيمن وجه الرضا، واستقبلته مكانته، التي تخيل صدودها بأحسن مواقع القبول التي تضمنت الاعتداد من الحسنات بكل ما سلف والإغضاء من الهفوات عما مضى، وآلت إليه إمرته

التى خافَت العَطَلَ منه وهى به حَالِيَه، وعادَتْ منْزِلَتُه إلى ما ألِفَتْـه لدينا : من مَكَانَةٍ مكينةٍ وَعَرَفْته عندنا : من رُتْبةٍ عَالِيه ـ من أمِنَت شمْسُ سعادَته فى أيّامنا مِن الغُرُوب والزوال، ووَثِقت أسْـبَابُ نِعَمِه بأن لا يُرَوِّعَ سَرِيرُها فى دَوْلتنا بالاَنتقاض ولا ظِلَالُها بالانتقال، وأغنَتْه سوابقُ طاعتِه المحفوظةُ لَدَيْنا عن توسُّط الوسائل، وآحتجّتْ له مواقِعُ خِدَمِه التى لا تُجْحَدُ مواقِفُها فى نِكايَةِ الأعداء ولا تُنْكَرُ شُهْرتُها فى القَبائِل، وكَفَل له حُسْنُ رأينا فيه بمـا حقّق مَطَالِبَه، وأحْمَد عَوَاقِبَه، وحَفِظَ له وعليه مكانَتَه ومَرَاتِبَه، فمـا توهَّم الاعداءُ أنَّ بَرْقَه، خَبَا حتّى لَمَع، ولا ظَنُّوا أنّ وَدْقَه، أقْلَعَ حتّى هَمَى وهَمَع، ولا تخيَّلوا أنّ حُسَامَه نَبَا، حتّى أرْهَفَته عنايَتُنا فحيثما حَلَّ من أوْصالهم قطَع، وكيف يُضَاعُ مثلُه ؟ وهو من أركانِ الإسلام التى لا تزل الأهواء ولا تَرْتَقِى الأطْماعُ مُتُونَها، ولا تَسـتقر(؟)[1] الأعداءُ عند جهادها وآجتهادها فى مصالح الإسلام حَسَبهَا ودِينَها .

ولمـا كان المجلس العالى... هو الذى لا يَحُولُ آعتقادُنا فى وَلَائه، ولا يَزُولُ آعتمادُنا على نَفَاذِه فى مصالحنا ومَضَائه، ولا يتغيَّر وُثُوقُنا به عمّـا فى خَوَاطِرنا من كمال دِينه وصِحّةِ يَقِينه؛ وأنّه ما رُفِعت بين يَدَيْنا رايةُ جِهادٍ إلّا تلقّاها عَرَابةُ عَزْمه بيَمِينه؛ فهو الوَلِىُّ الذى حسُنت عليـه آثارُ نِعَمِنا، والصَّفِىُّ الذى نَشَأ فى خِدْمة أسْلافنا ونَشَأ بَنُوه فى خدَمنا، والتَّقِىُّ الذى يأبى دِينُـه إلا حِفْظَ جانبِ الله فى الجهـاد بين يدى عزيمتنا وأمام هممِنا ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُصَرِّحَ له من الإحسان بمـا هو فى مَكْنُونِ سرائِرنا، ومَضْمُونِ ضمـائرنا؛ ونُعْلِنَ بأنّ رتبتَـه عندنا بمكانٍ لا تتطاوَلُ إليه يَدُ الحوادث، ونُبَيِّنَ أن أعْظم أسباب التقدّم ما كان عليـه من عنايتنا وآمتناننا أكْرَمُ بواعث .

(١) لعله "ولا تستقل" .

فلذلك رُسم أنْ يعادَ إلى الإمرة علىٰ أمراء آل فَضْـل ، ومشايخهم ومقدّميهم ، وسائر عُرْبانهم ، ومَن هو مضافٌ لهم ومنسوبٌ إليهم ، علىٰ عادته وقاعدته .

فليَجْرِ فى ذلك علىٰ عادته التى لا مَزِيدَ علىٰ كمالها ، ولا تَحِيدَ عن مَبْدئها فى مصالح الإسـلام ومآلهـا ؛ آخذًا لجهاد أُهْبَتَـه من جَمْع الكلمة وآتّحـادها ، وآتّخاذِ القُوّة وإعدادها ، وتَضَافُر الهمَم التى ما زال الظَّفَـر من موادّها والنَّصْرُ من أمـدادها ؛ وإلزامِ أُمَراءِ العُرْبان بتكميل أصحابهم ، وحِفْظ مراكزهم التى لا تُسدّ أبوابُها إلّا بهم ؛ والتَّيقُّظ لمَكَايد عدُوِّهم ، والتَّنبُّه لكَشْف أحوالهم فى رَوَاحهـم وغُدُوّهم ؛ وحفظ الأطراف التى هم سُورُها من أنْ تَسَوَّرَها مَكَايد العِـدا ، وتَخَطُّف من يتَطَرّق إلى الثغور من قبـلِ أنْ يرفعَ إلىٰ أفُقها طَرْفًا أو يمدّ على البعـد إلىٰ جهَتها المَصُونَة يَدًا ؛ وليَبُثَّ فى الأعداء من مكَايد مَهَابَتِـه ما يمنعهم القَرار ، ويُحَسِّنُ لهم الفِرَار ، ويَحُولُ بينهم وبين الكرىٰ لاشتراك آسم النَّوْم وحَدّ سَيْفه فى مُسمَّى الغِرَار .

وأما ما يتعلقُ بهـذه الرتبة من وصايا قد أُلِفَت من خِلَاله ، وعُرِفَت من كماله ، فهو آبن بَجْدَتها ، وفارسُ نَجْدَتها ، وجُهَيْنة أخبارها ، وحَلْبة غايتها ومضمارها ، فَيفْعلُ فى ذلك كلّه ماشُكِر من سيرته ، وحُمِد من إعلانه وسَرِيرَته ؛ وقد جعلنا فى ذلك وغيره من مصالح إمْرته أمْرَه من أمرِنا : فيعتمِدُ فيه ما يُرضى الله تعالىٰ ورسوله ، ويُبَلّغُ به من جهاد الأعداء أمَلَه وسُولَه ؛ والله الموفق بمنه وكرمه ! والاعتماد ... .

الطبقة الثانيـــــة

(من عرب الشام ـ من يكتب له مرسوم شريف)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى — من يُكتب له فى قَطْع النصف، وهم ثلاثة :

الأوّل — أمير آل عَلِيّ، ورتبته «السامى» بالياء . وقد تقدّم أن منازلهم مَرْجُ دِمَشْق وغُوطَتُها، بين إخوانهم آل فَضْل وبَنى عَمِّهم آلِ مِراء، ومنتهاهم إلى الحَوْف والجبابنة، إلى السكة، إلى تَيْمَاء، إلى البرادع . وأنه ذكر فى "التعريف" : أنهم إنما نزلوا غُوطَةَ دِمَشْق حيث صارت الإِمْرَة إلى مُهَنّا بن عيسى .

وهـذه نسخةُ مرســوم شريف بإمْرة آل عَلِيّ ، كُتبَ به للأمير عِزّ الدّين «جماز» بعد وفاة والده محمد بن أبى بكر ، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله الذى أجْمع بنا كلّ وَسِيلَه ، وأحْسن بنا الخَلَفَ عمّن قَضَى فى طاعتنا الشريفة سَبِيلَه ، ومَضَى وخَلّى ولَده رَسِيلَه ، وأمسك به دَمْعَةَ السُّيوف فى خُدُودها الأسِيلَه ، وأمضى به كلّ سيف لا يُرَدّ مَضَاءُ مَضَاربه بحِيلَه ، وأرْضى بتقليده كلّ عُنُق وجَمّل كلّ جَمِيلَه .

نحمده على كلّ نعمة جزيله ، ومَوْهِبَة جميله ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرْشِدُ من اتّخـذ فيها نجوم الأسِنّة دليلَه ، وتجعلُ أعداءَ الله بعِزّ الدّين ذَليـلَه ، وأنّ محمّدا عبـدُه ورسولُه الذى أكرم قَبِيلَه ، وشرّف به كُلّ قَبِيلَه ، وأظهر به العَرَبَ على العَجَم وأخمد من نارهم كلّ فَتِيلَه ، صلّى الله عليـه وعلى آله وصَحْبِه صلاةً بكلّ خَير كَفِيلَه ، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ دولتَنا الشريفــةَ لمَّا خَفَق على المَشرِق والمَغرب جَناحُها، وشَمِلَ البَــدْوَ والحَضَر سَمــاحُها، ودخَل فى طاعَتِها الشريفةِ كُلُّ راحِلٍ ومُقيم فى الأقطار، وكُلُّ ساكِنِ خَيْمَةٍ وجِدار - تَرْعَى النِّعَم بإبقائها فى أهلهــا ، وإلقائها فى مَحلِّها ، مع ما تقدَّم من رِعايةٍ تُوجِب التَّقديم ، وتُودَعُ بها الصَّنائعُ فى بَيْتٍ قَديم ، وتُزَيِّن بها المَواكِبُ إذا تعارضت بَجحافِلِها، وتَعارَفَتْ شُعُوبُها وقبائلُها، واَستَولَتْ جِيادُها على الأمَــدِ وقد سَـبقت أصائِلُها ، وتَداعَتْ فُرْسانُها وقد اَشتبهت مَناسِبُها ومَناصِبُها ومَناصِلُها ؛ وكانتْ قبائلُ العُرْبانِ مِمَّن تعمُّهم دَعْوتُنا الشَّريفَــه ، وتَضُمُّهم طاعتُنا التى هى لهم أكْمَلُ وَظِيفَه، ولهم النَّجْدةُ فى كلِّ باديةٍ وحَضر، وإقامةٍ وسَفَر، وشَامٍ وحِجاز، وأنجادٍ وأنجاز، ولم يَزَلْ (لآلِ عَلِيٍّ) فيهم أعلىٰ مَكانَه ، وما منهم إلا من تَوسَّد سَيْفَه واَفترَش حِصانَه ، وهم من دِمَشْق المحروسةِ رَدِيفُ أسْوَارِها، وفَرِيدُ سِوارِها ؛ والنَّازلون من أرضِها فى أقرب مكان، والنَّازِحُون ولهم إلى الدار بها أقْطار وأوْطان؛ قد أحْسَنُوا حَوْلَ البِلادِ الشامية مُقَامَهم ، واَستَغْنَوْا عن المُقارَعَةِ على الضِّيفَانِ لمــا نصــبوا بقَارِعَةِ الطريق خِيامَهُــم ، وبَاهَوْا كلَّ قبيلةٍ بقَوْمٍ كاثَرَ النُّجومَ عَدِيدُهم ، وأوْقَدوا لهم فى اليَفَاعِ نارًا إذا هَمَى القَطْر شَبَّتْها عَبِيدُهم ؛ وهم مِن آلِ فَضْلٍ حيث كان عَلِيُّها ، وحديثُــه فى المسامع حُلِيُّها ؛ فلمــا اَنتهت الإمْرَة إلى الأمــير المرحوم شمس الدين ، محمد بن أبى بَكْر رحمــه الله - جمعهم علىٰ دَوْلتنا القاهره ، وأقام فيهم يَبْتَغِى بطاعتِنا الشريفةِ رِضا اللهِ والدَّارَ الآخره ؛ ثم أمدَّه الله من ولده بمن ألقىٰ إليه هَمَّه، وأمضىٰ به عَزْمَه، ونَفَّذ به حُكْمَه، ونَفَّل قَسْمَه .

وكان الذى يَحمل دُونَه مشقَّاتِ أمورهم ، ويتلقَّىٰ شكاوىٰ آمِرِهم ومأمورِهم ، ويردُ إلىٰ أبوابنا العاليــة مستمطرا لهــم سحائب نعمنا التى أخصب بهــا مَرَادُهم ،

وساروا فى الآفاق ومن جَدْواها راحلتهم وزادهم ؛ وتفرّد بما جمعه من أُبوّته وإبائه ، وركّز فى كلّ أرض مُناخ مطيّه ومَرسَى خِبائه ؛ وضاهى فى المُهاجَرة إلى أبوابنا الشريفة النجومَ فى السُّرى ، وحافظ على مَراضينا الشّريفة فما انفكّ من نار الحَرْب إلا إلى نار القِرَى ؛ ووَرَد عليه مَرسُومنا الشريفُ فكان أسرعَ من السّهم فى مَضائه . كَمْ له من مَناقبَ لا يُغطّى عليها ذهَبُ الأصيل تمويها ! ، وكَم تنقّل من كُورٍ إلى سَرْجٍ ومن سَرْج إلى كُورٍ فتمنّى الهلالُ أنْ يكونَ لهما شبيها ! ؛ كم أجمل فى قَوْمه سِيرَه ! ، وكم جمّل سَريرَه ! ؛ كَمْ أثمر لها أملا ! ، كم أحسن عملا ! ؛ كَمْ سدّ خَللا ! ، كَمْ جمع فى مُهمّاتنا الشريفة كلَّ مَن امتطى فرسا وركب جملا ! ؛ كَمْ صفوف به تقدّمتْ ، وسيوف أقدمت ، وحُتُوف حمائمُ الحِمَام بها على الأعداء ترنّمتْ ! ! .

وكان المجلسُ السامىّ الأميرىُّ ، الأجلّىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيّدىّ ، العَضُدىّ ، النصيرىّ ، الأوحدىّ ، المقدّمىّ ، الذُّخرىّ ، الظّهيرىّ ، الأصيلىّ : مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، هُمامُ الدّوله ، حُسام الملّة ، رُكْنُ القبائل ، ذُخر العشائر ، نُصْرةُ الأُمراء والمجاهدين ، عضدُ الملوك والسلاطين «جماز بن محمد» أدام الله نعمته — : هو المُرادَ بما تقدّم ، والأحَقّ بأنْ يتقدّم ، والذى لَوْ أنّ الصباحَ صَوارِمُ والظّلامَ جَحافلُ لتقدّم ؛ فلمّا مات والده رحمه الله نحا إلى أبوابنا العالية ، ونُورُ وَلائه يَسْعى بين يَدَيْه ، ووقف بها : وصدَقاتُنا الشريفةُ تُرَفْرِفُ عليه ؛ فرأينا أنّه بقيّةُ قومه الذين سَلَفُوا ، وخَلَفُ آبائه الذين عن زَجْر الخيل ماعَزَفُوا ؛ وكبيرُهم الذى يعترفُ له والدُهم ووليدُهم ، وأميرُهم الذى به تُرْعَى عُهودُهم ، وشجرتهم التى تلتفّ عليه من أنسابهم فُروعُها ، وفَريدُهم الذى تجتمع عليه من جَحافِلِهم جُموعُها .

ورسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة آل على : تامة عامة ، كاملة شاملة ؛ يتصرف فى أمورهم ، وآمرِهم ومأمورهم ؛ قربًا وبعدا ، وغورًا ونجدا ، وظعنًا وإقامه ، وعراقًا وتهامه ؛ وفى كل حقير وجليل ، وفى كل صاحب رُغاء وثُغاء وصرير وصليل ، على أكمل عوائد أمراء كل قبيله ، وفى كل أمورهم الكثيرة والقليله .

ونحن نأمرك بتقوى الله فيها صلاحُ كل فريق ، وإصلاحُ كل رفيق ، ونجاحُ كل سالك فى طريق . والحكمُ : فليكن بما يوافق الشرعَ الشريف . والحقوقُ : تخلّصها على وجه الحق من القوىّ والضعيف . والرفقُ بمن وليته من هذا الجمّ الغفير ، والجمع الكبير ؛ وإلزامُ قومك بما يلزمهم من طاعتنا الشريفة التى هى من الفروض اللازمة عليهم ، والقيامُ فى مهمّاتنا الشريفة التى تبرزُ بها مراسمُنا المطاعةُ إليك وإليهم ؛ وحفظُ أطراف البلاد والذبُّ عن الرعايا من كل طارق يطرقهم إلا بخير ، والمسارعةُ إلى ما يُرسم لهم به ما دامت الأسفار فى عصاها سير ؛ والإفراج لعربك لا تسمح به إلا لمن له حقيقةُ وُجود ، وله فى الخدمة الشريفة أثر موجود ؛ ومنعهم : فلا يكونُ إلا إذا توجّه منعهم ، أو توانت عزائمهم وقلّ نفعهم ؛ والمهابةُ : فانشرها كسُمعتك فى الآفاق ، ودعْ بوارق سيوفها تُشام بالشام وديمَها تُراق بالعراق ؛ وخيولَ التقادم : فارتدْ منها كل سابق وسابقة تقفُ دونهما الرياح ، ويحسُدُهما الطير إذا طارا بغير جناح ؛ ولا تتخذ دوننا لك بطانةً ولا وليجه ، ولا تقطع عنّا أخبارك البهيجه ؛ وليَعرف قومُه له حقّه ، ويُوفوه من التعظيم مُستحقّه ؛ فإنه أميرهم وأمره من أمرنا المُطاع ، فمن نازع فقد خالف النص والإجماع ، والله تعالى يُوفّقه ما استطاع ، بمنه وكرمه! والخط الشريف ... ...

[الثانى — أمير آل فضـل[1]] .

وهذه نسخة مرسوم شريف بالتقدمة على عربى آل فضل وآل على ، كتب به للأمير شرف الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمدُ لله الذى خصّ من والى هـذه الدّولةَ بالتّقدمة والفخر ، ورمى من عاداها بالمذلّة والقهر ، ومدّ فى عمر أيّامها حتّى يُستنفد الدّهر ، وحتّى توصف أيّامها — وإن قصرت — بالمسارّ : كلُّ شهرٍ يمرّ منها كالعام واليومُ كالشّهر .

نحمده على ما منحنا : من تأييد وظفر ، وطوى دعوة من عاندنا بعد النّشر ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له شهادةً إن دخلتْ شواهدُها تحت الإحصاء فلا تدخلُ فوائدُها تحت الحصر ، وأنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعل اللهُ به الهداية فى المبدإ والشّفاعةَ فى المعاد يوم الحشر ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تُسعدُ بعد الشّقاء وتجبُر بعد الكسْر .

وبعـدُ ، فإنّ اللهَ سبحانه وتعالى لمـا مكّن لنا فى الأرض ، وجعل بيدنا البسْطَ والقبْض ، وأرانا كيف تصنعُ الجميلَ وتُجمّلُ الصُّنع ، وكيف نجبُر قلبَ من جُعـل فى أيامنا جبْرُه بعد الصّـدْع ، وكيف تُصبحُ أنجُمُ ذوى الأقـدار فى سمـاء مملكتنا نيّرةَ المطالع ، وكيف نُلقِّى الخيرَ فى مراصِها من رآمهُ إذا كان على الخيرِ فى غير أيّامنا مانع ، وكيف نُحِلُّ التقدمةَ فيمَن إذا عقل فى حُلَلها قيل : هـذا هو أحقُّ بها ممّن كان ، وهذا الذى ما برحتِ التقدمةُ فى بيْته فى صدْرِ الزّمان ، وهذا الذي إذا ذُكر آلُ فضـل وآلُ علىّ كانت له مرتبـةُ الشّرف ولا غرْوَ أنْ تكون مرتبة الشّرف

(١) الزيادة من المقام .

لُغْيان، وأنّا لا نُعْطِى صَهْوَةَ العِزِّ إلّا لأهلها، ولا نَنْسَخُ الآيةَ لمن تَقَدَّمَ فى التَّقدمة إلا بخَيْرٍ منها أو مِثْلِها، ولا نُسَلِّمُ رايَتَها، إلا لمن تُعْقَد عليه الخَناصِر، ولا يَتَسَنَّمُ ذِرْوَتَها، إلا من هو أحَقُّ بها وأهلها فى الأوّل والآخِر.

ولما كان المجلسُ السّامىّ، الأميرىّ، فخرُ الدين، عثمان بن مانع بن هبة: هو المُرادَ بهذا القَوْل الحَسَن، والمَمْدُوحَ بحَشْدِ هذا المَدْح الذى يَسُرُّ السِّرَّ والعَلَن، والحَقِيقَ من الإحسان بكُلِّما والخير بأن، والخصيصَ من سَوَالِف الخِدَم بما والمُفَضَّلَ على سائر النُّظَراء ولو قِيسَ بمَن ـ اقتضى حسنُ الرَّأْى الشَّريف، أن رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال ذو القَدْر فى أيّامه يَرْتَفِع، وذُو الفَضْل فى دَوْلَتِه لا يَعِزُّ عليه مَطْلَبٌ ولا يَمْتَنِع، وذُو الأصَالة التى يجتمعُ له فيها من النَّعْماء ما لا يَلْتَئِم له فى غَيْرِها ولا يَجْتَمع ـ أن تُفَوَّضَ إليه التقدمةُ على العُرْبان بالشّام المحروس، وهم من يأتى ذِكْرُه، على ما استقرّ عليه الحالُ فى تَرْتِيبِهم، وأنّ مَنازِلَه الدّاروم: بُعْدًا وقُرْبا، حَضَرا وبَدْوا، عَامِرًا وغَامِرا، رَائحًا وغَادِيا، من الرُّسْتَن إلى المَلُّوحة. والعَرَبُ: آل فَضْل وآلُ عَلِيّ حيثُ ساروا نزلوا منزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبى بَكْر، والخدمةُ واحدَه، والكَلمةُ على اتّفاق المصالح مُتَعاضِدَه.

فليكن للقُوى جسدَ رُوحِها لا بَلْ رُوحَ جَسَدِها، ومجموع القبائل أوْحدَ عُدَدِها إذا صح الأوّل من عَدَدِها، وقُطْبَ فَلَكِها الذى على تدبيره مَدارُها، وعلى تقريره اقْتِصارُها، وعلى تَقْدِمَتِه تَعْوِيلُها، وإلى نسبة إمارته جُمْلَتُها وتَفْصِيلُها، ولْيَجْمَعْهُم على الطّاعة فإن الطّاعةَ مِلاكُ الأمْرِ للآمر، وأُسُّ الخير للبادى والحاضر، وليعلم أن لِكُلٍّ منهم نِقَابَةً تُعْرف، وعَلَمِيّةَ أصالةٍ بها يُعرَف، وَمَنْزِلَةً يَرِثُها الوَلَد عن الوالد، وَمَشْيَخَةً ترجع من ذلك البَيْت إلى ذلك الواحد، فلْيَحْفَظْ لهم الأنْساب، ولْيَرْعَ لهم

الأسباب، وإذا أُمِرُوا بأمرٍ من مَهَامِّ الدَّوْلَة يتلُو عليهم: ﴿ ٱدْخُلُوا الْبَابَ ﴾ . والأَلزام له ولهم مَخَاوِض تحفظ ، ومَفَاوِز تُلحَظ ، ومَطَارِحُ لا تُلفَظ ، ومَشَاتٍ ومَصَايِف ، ونفَائض ومَصَارِف، ومَرَابِع ، ومَرَاتِع ، ودُنُوٌّ وٱقتراب، وتَوَطُّن وٱغتراب، وإغَارَةٌ ونَهِيض، وبَرْقٌ ووَمِيض .

فلْيُرَتِّبْ ذلك أجمل تَرْتِيب، ولْيَسْلُك فيه خَيْرَ مَذْهب وتَهْذِيب؛ وليَدَعِ العَادِى، ويُلَاحِظ الرَّائح والغَادِى ، وليُؤَمِّن ذلك الجانب فأمْنُنا تُطْرِب أبيَاتُه المَحْدُوَّ والحَادِى؛ وعليهم سداد مقرّر، وقَانُونٌ مُحَرَّر؛ ولْيَكُن علىٰ يَدِ شَادّه شَادّا؛ ولسَبَبِ تأْيِيدِهم مَادّا ، ويعلم أنّه وإن كان قد أغمض من جُفُونه فيما مَضىٰ، وأعْرض عنه فى الزَّمن الأوّل الذى ٱنقضىٰ؛ وقُدِّمَ عليه من كان دُونَه، فقد ردّ الله له أبْكَارَ الأمر وعُونَه؛ فلا يجعَلْ لقائلٍ عليه طَرِيقا، ولا يَدْخُلْ فى أمْرٍ يقال عنه فيه : كان غَيْرُه به حَقِيقا ؛ بل يَفُوقُ مَن تَقَدّم فى الخِدْمة والهِمَّه ، والصَّرامَة والعَزْمه ، والله يُوزِعُه شكرَ هذه النِّعمه؛ والخط الشريف ... ... :

الثالث — أمير آل مِراء، ورتبته «السامى» بالياء .

وقد تقدّم أنّ منازلهم حَوْرَانُ . وعن "مسالك الأبصار" أنّ دِيارَهُم بين بلاد الجيدور والجولان، إلى الزرقاء، إلىٰ آخر بُصْرىٰ . ومشَرِّقا إلىٰ حَرَّة كشت ، علىٰ القرب من مكّة المشرّفة، زادها الله شرفا .

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريف بإمْرَة آل مِراء ، كتب بها للأمير بدر الدين «شطى بن عمر» وهى :

الحمد لله الذى زَيَّنَ آفاقَ المَعَالِى بالبَدْر ، ورفع بأيّامنا الشريفة خَيْرَ وَلِيٍّ أضحىٰ بين القبائل جليلَ القَدْر ، ومنَحَ من أخلص فى خِدَم دَوْلَتنا الشريفة مَزِيدَ الكَرَم

فأصبح بإخلاصه شديدَ الأزْر، وأجزل برّه لأصائل العَرَب العَرْباءِ فوفّر لهم الأقسام، وأسبغ ظلالَ كَرَمه علىٰ من يَرْعَى الجارَ ويحفَظُ الذّمام .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمٍ هطَل سَحابُها ، ومنَنٍ تفتّحتْ بالمسارّ أبوابُها ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُقَرِّبُ صاحِبَها يوم الفَزَع الأكبر، من المَحَلّ الآمن، وتُورِدُه نَهر الكَوْثَر الذى ماؤُه غيرُ آسن ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثـه اللهُ من أشرف القبـائل ، وأوضح بنُورِ رسالتـه الدَّلائل ؛ فأنقذ الله به هذه الأمّةَ من ضَلالهـا ، وبوّأها من قُصُورِ الجنَانِ أعلىٰ غُرَفِها وأشرَف ظِلَالهـا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أوضَحُوا مناهِجَ الإيمـان ، وشيّدُوا قواعِدَ الدّين إلىٰ أن علَتْ كلمتُـه فى كلِّ مكان ، [فكان] عَصْرُهم أجملَ عَصْر وقَرْنُهم خيرَ أوَان ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ أولىٰ من أدْنَيْنا من بِسَاطِ الاصْطِفاء مَحَلّه ، وأرْتَشَف من سَحاب مَعْروفنا طَلّه فوَبْلَه ، ونَالَ من عواطِفنا منزلةَ القُرْبِ علىٰ بُعْد الدار ، وحكم له حسنُ نَظَرِنا الشريف بتوالى غَزِيرِ كَرَمنا المِدْرار (١) .

ولمـا كان المجلس الفلانىّ : هو المشارَ إليـه بهذا النّعت الحَسَن ، والمَوْصوفَ بالشّجاعة فى السِّرّ والعَلَن ـ رسم بالأمر الشريف ـ لا زال بَدْرُه ، ساطعَ الأنوار ، وبِرُّه ، هامِعَ القِطَار ، وخيرُه يشمَلُ الأولياءَ بجَزِيل الإيثار وجميلِ الآثار ـ أن يستقر المشارُ إليـه فى كَيْت وكَيْت : لأنّه البَطَل الشّـديد ، والفَارس الصّـنْديد ، وليْثُ الحروب المذكور ، ومَن هو عندنا بعَيْن العِناية منْظُور .

---

(١) لم يذكر خبرا لإن ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل « من كرم أصلا ومحتدا ، وسل سيف عزيمته حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

ولْيثِق من صَدَقاتنا الشّريفة بما يُؤمِّلُ ويتعهد ، ولْيتحقّق قُرْبه من مَقامنا الشّريف والعَوْدُ أحْمد ؛ ولْيتلقّ هذا الإحسان بقَلْب منْشَرِح ، وأمَل مُنْفسِح ؛ وليجتهِدْ فى أمْر عُرْبانِه الذين فى البلاد ، فإنّا جعلنا عليه فى أُمورهم الأعْتِماد ، وقد أقمْناه أميرا علىٰ عَرَب آلِ مِراء ؛ فلْيُشَمِّرْ عن ساعد الأجتهاد فى مصالح دولتنا الشّريفة بغير زُورٍ ولا مِرَاء ؛ وليَقْمَع المُفْسِدَ من عُرْبانه ويقابلْه بالنَّكَال ، والصَّالحُ الخيِّرُ منهم يُجزِلُ له النَّوَال ، والوصايا كثيرةٌ ومِثْله لا يُثقال ؛ والخط الشريف أعلاه حجة فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنِصْف إمْرَة آل مِراء ، كُتِب به لسناة بن نجاد ، فى العشر الأخَر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . من إنشاء المقرّ الشِّهابِيّ بن فَضْل الله ، وهى :

الحمدُ لله الذى ٱستخدَم لنَصْرنا كلَّ سَيْف وقَنَاه ، وكلَّ سُرْعةٍ وأنَاه ، وكُلَّ مُثقَّف تُسْلِي[1] جنايَاتُه ويَعْذُبُ جَنَاه ، وكُلَّ ماضٍ لا يعُوقُه عن مَقاصده الصالحةِ يَعُوقُ وهو عَبْدُ مَنَاه .

نحمَدُه حمْدَ من أغْناه ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَستمِدّ من قبلِها فَلَقُ الصَّباحِ سَنَاه ، ويُفلّ منها من قَبْضةِ السُّيوفِ عُنَاه ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى [بَوّأه منازل الشرف] وبنَاه ، وأحلّه من العَرَب فى مكان يَخضَع له رَأْسُ كلِّ جَبّار ويَخْشَع بصَرُه ونستَمِعُ لما يُوحَىٰ أُذُناه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَخُصُّهم من كل شَرَف بأسْماه وأسْناه ، وسلم تسليما .

---

(١) تسلى جناياته — تترك فلا يقتص منه .

وبعـدُ، فإنّ لكلّ ثاكلةٍ قَرارا، ولكلّ هاجِرةٍ مَزارا؛ ولكلّ مِعْصَمٍ سوارا لايليقُ إلا بزَنْده، ولكلّ عُنُقٍ دُرًّا لا يصلُح إلا لعِقْده ، ولكلّ سَيْفٍ طال هُجوعُه فى غِمْدِه آنسلالا، ولكلّ قَنـاةٍ لم تُعْتَقَل مُدّةً آعْتِقالا؛ وكانت إمْرةُ آلِ مِراء قد ثُبِّتت من البَيْت الأحْمدىّ بأوْثق أوْتادها ، ووصلت منه فى الرِّفعة إلىٰ نِجادها ؛ ولم تزلْ تتنقلُ فى آفاقها بُدُورُهم الطّالعه ، وتُضيءُ عليها من صِفاحِهم بُروقُهم اللّامعه؛ وتَجُولُ فيها من سوابقهم السُّحُب الهـامِعه ، وتُغْنِى فى حروبها عزائمُهـم إذا وقَعت الواقِعه؛ وتقدَّمَتْ للمجلس السامىّ، الأميرىّ، الفُلانِىّ ، بركابنا الشّريف صُحْبـةٌ حَمِدَ فيهـا السُّرىٰ، وخِدْمةٌ أوقـدَتْ له نارَ القِرىٰ ؛ وهاجَر إلينا فى وَقْتٍ دلّ علىٰ وفائه،؛ وسَهِر إلىٰ قصدنا اللّيْـلَ وله النجم محيط المُقَلِ بإغفائه ؛ وآنْقطعَ إلينا بأمَلِه ، ولازم من عهدنا الشريف صالحَ عَمَلِه ؛ وآسـتحق تَعْجيلَ نِعَمِنا الشريفة وإن تأخرت لأجل مَوْقوت، وأمل نَجاحُه لا يَفُوت .

فلما آنَ أنْ تُفاضَ عليه ثيابُها ، ويُضافَ إليه ثوابُها ؛ ويُصَرَّفَ فى قَوْمه أمْرُه ، ويشرُفَ بينهم قَدْرُه ؛ ويَعْرِفَ من لم يَعْرِف المِسْـكَ أنّه عندنا ذِكْرُه ، ومَنْ جهل البِرَّ : أنه علىٰ مايُحمَد عليه شُكْره، ومن أنْكر أنّ شيئا أصْعَبُ من المَوْت: أنّه فى مجال الموت صَـبْرُه، ومن خالف فيما هو أمْضىٰ من القَضاء : أنّه فى البيعة صَدْره، ومن آدّعى أنّه لا تصيبه البِيضُ والسُّمْر: أنّها مُثقّفتُه وبُتْرُه، وزال منْ هذا البَيْتِ العَريق الطَّوْدُ وهو ثابت ، ونُزِعَ منـه السِّنان لولا أنّه فى قَنَاته نابت؛ و[لولاه] لهـاجت هذه القبيلة إلىٰ من يُقْبِل على نباتها، ويَقِيلُ بها : تارة يُنْجِدُ فى نجدها وأُخرىٰ يَجُول فى جَوْلَاتها ــ رسم بالأمر الشريف أن يُقلَّد من إمْرة آلِ مراء ما كان الأمير «ثابتُ آبن عسّاف» رحمه الله يتقلده إلىٰ آخر وقْتٍ ، ويُرْفَع فيها إلىٰ كلّ مسافته ومُمْتد ؛ ليُجمِّل ما نقصَ من التمـام بعد . . . يعلم أنه حلّ إليه . . . نصف البَدْر

فاختطف النِّصفَ وذلك النِّصْفُ هو نِصْـفُه ؛ ليكون لهم إحدىٰ اليدين، وأخرىٰ تقع لسيف بحدّين .

وتقوىٰ الله أبركُ ما اشتملت عليه عُودُها، واتخِذت له زَبِيدُها؛ فليتخذْها له ذروةً يهتدى بها أنَّىٰ سلك من الفِجَاج ، واقتحم من حَلَك العَجَاج . وعليه بحسْن الصُّحْبة لرَفيقه، ويُمْن القَبُول علىٰ فَريقه، وإقامة الحُدُود علىٰ ما شرع الله من دِينِه القَوِيم، وإدامَة التَّيقُّظ [للثَّار] المُنِيم ؛ وإنزال عَرَبه ومن يَنزِل عليه أو ينزل عليهم فى منازلهم .

وليجمَعْ قَوْمَه علىٰ طاعتنا الشَّريفة كُلَّ الجَمْع، ويُقابِل ما تَرِدُ به مَراسِمُنا المطاعةُ عليه بما أوجب الله لها من الطَّاعة والسَّمْع ؛ وليأخُذْ للجهاد أُهْبتَه، ويعجِّل إليه هَبَّتَه؛ وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دَرِيئةً لأسوارها المَنِيعَه، ونطاقا علىٰ مَعَاقلها الرفيعه ؛ وسَدًّا من بين أيْديها وخلفها لباب كُلِّ ذَرِيعَه، وخَنْدَقًا يحوطُ بلادها الوَسِيعَه ، وحِجابًا يمنع فيها مَن تعدَّى الحَقَّ وخَاضَ الشَّريعَه ؛ ولا يُفارِق البِلادَ حتَّىٰ يُعبِّس فى وجوهها السَّحاب، ولا يَعُود حتَّىٰ تُؤْذِنَ زُرُوعُها المخيِّمة بذَهَاب ؛ والكَرَمُ هو لِيه سجايَا، والعَزْم ما بَرِح لِوشَّان(؟) أسِنَّته بكلِّ قَنَاةٍ لحايَا[(1)]، والحَزْمُ بيده المَرَاوِيَّة من آل مِرَاءٍ يظْهَرُ له الخفايا، والشجاعةُ هو فى رُباها المنيرة «ابنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنايا» ؛ وما رضع المُرمِل كأفاوِيق الوِفَاق، ولا وضع شيْئًا فى موضعه كمُدَارَاة الرِّفاق؛ فلْيكن لرَفيقه أكْثَر مساعدةً من الأخ لأخيه ، وأكْبرَ مُعاضَدَةً من المِصْرَاع لقَسِيمه والجَفْن لجَفْنه والشَّيْء لما يُؤاخيه . هذا يجب ويتعيَّن وليس يجمعهما فردُ طاعه، ولا يلزمهما لشيءٍ واحدٍ استطَاعَه ؛ فكيف وهو [و] رفيقه إلينا اعتزاؤُهما ومنَّا إعزازُهما، وهما قَرِعانِ معتَنِقانِ : لدَيْنا إجْنَاؤُهما وبيدنا إهزازُهما .

(1) يريد لحاء بالهمز فاضطر القلب مراعاة للسجع .

وليحَصِّل من الخيل كلَّ سابقةٍ تليق أن تقــدَّم إلينا، وسابحةٍ فى كل مَهْمهٍ حين يَقْدَمُ علينا . والشَّرعُ الشريفُ يكون إليه مآبُك، وعليه عَفْوُك وعقابُك؛ و بمقتضاه عَقْدُ كلِّ نِكاحٍ لا يصح إلا علىٰ وَجْهِه المَرْضِىِّ وإلَّا فهو سِفاح، والميراثُ علىٰ حُكمه لمن جَرَّه إليه وإلا فهو ظُلْمٌ صُراح، وبقيةُ ما نوصيه به إذا آنتهىٰ منه إلىٰ هذه النُّبْذَة فما عليه فى سواها جُنَاح . وسبيلُ كلِّ واقفٍ علىٰ تقليدنا هذا أن يُنيبَ إلىٰ نُصُوصِه، ويؤُوبَ إلىٰ عُمومه وخُصُوصه؛ والحَذَرَ من الخُروجِ عنــه بقَوْلٍ أو عَمَلٍ ، فالسَّيْفُ أسبقُ من العَذَل ؛ والله تعالىٰ يُمتِّعه بمـا وهبه من العزِّ فى النُّقَل، والمحَاسن التى هى بدُ المسامع والأفواه والمُقَل؛ والخط الشريف أعلاه ... ...

المرتبـــة الثـانيـــة

(من أرباب المراسيم من العرَب — من يكْتَبُ له فى قَطْع الثُّلث بـ«السَّامى» بغير ياء، مفتتحا بـ«أمَّا بعدُ» وهم ثلاثة أيضا)

الأوّل — أمَراء بنى مَهْدِىّ ، وهى مقسومة بين أرْبعــة . ورتبةُ كلٍّ منهــم «مجلسَ الأمير» .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم البَلْقاءُ، إلىٰ مائر، إلى الصوان، إلىٰ عَلَمِ أعفَر .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ برُبْع إمْرة بنى مَهْدِىّ، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى حقَّقت فى كَرمنا المآرب، وأجْزلتْ من آلآئنــا المَواهب، وقرَّبتْ لمن رَجانا بإخْلاص الطاعة ما يأْبَىٰ عليه من المَطَالِب؛ والصَّلاةِ والســلامِ علىٰ ســيدنا محمدٍ المبعوثِ من أشْرف ذَوَائبِ لُؤَىِّ بن غَالِب، المخصوص باللِّواء الذى لا يَضْحَىٰ مَن أوىٰ إلىٰ ظِلِّه والحَوْض الذى لا ظَمَأَ بعــدَ وُروده

لشارِب ، وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فازُوا من صُحْبته وطاعتِه بأسْمى المَراتب وأسْنَى المناقِب ـ فإنّ أولىٰ من رَفَعت رعايتُنا قَدْرَه ، وأطلعتْ عنايتُنا فى أُفق السعادة بَدْره ، وحقّقتْ آلاؤُنا سُولَه ، وبلّغتْه صدَقاتُنا مَرامَه ومأمُوله ـ من أحكم فى طاعتنا أسْبابَ وَلائِه ، وأتقن فى خِدْمَتِنا انْتساب بعيده وانْتمائه ، وتقرّب إلينا بإخْلاصه فى اجتهاده ، ومَتَّ بما يُرْضِينا من احْتِفاله بأمورِ جِهاده ، مع ما تميّز به من أسْباب تتقاضَى كَرَمنا فى تقديمه ، وتقتضِى إجراءه علىٰ ما أَلِف أولياءُ الطاعة من حَديث إحسانِنا وقَديمه .

ولما كان فلانٌ هو الذى اختصّ بهذه المقاصد ، وعُنِيَ بما ذكر من المصادر والمَوارد ـ رُسِمَ أن يُرتّب فى رُبْع إمْرة بَنِي مَهْدِىّ .

فليُرتّب فيما رُسِم له به من ذلك قائماً من وظائفها بما يَجِب ، عالماً من مصالحها بما يأْتِى وما يجتنب ، واقفًا لاعْتماد ما يَرِد عليه من المَراسِم وقُوفَ المنتَظِر المُرتقِب ، مُلْزِمًا عَرَبَه من الخِدَم بما يُؤكّد طاعتَهم ، ومن إعداد الأُهْبة بما يُضاعِف استِطاعتَهم ، ومن المُحافَظة علىٰ أسْباب الجهاد بما يجعل فى رِضا الله تعالىٰ ورضانا قُوّتَهم وشَجاعتَهم ، ولْيُقَدِّم تقوى الله تعالىٰ بين يديه ، ويجعلْ توفيقَه العُمْدةَ فيما اعْتمد فيه عليه ، والخيْرُ يكون ، إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نُسخةُ مَرْسومٍ شريف برُبْع إمْرة بَنِي مَهْدِيٍّ أيضا :

أمّا بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى جدّدتْ لمن أخلص فى الطّاعة رُتَب السُّعود ، ورَفعتْ مَن نَهض فى الخِدَمِ الشّريفة حقّ النُّهوض إلىٰ مَناصب الجُدود ، والصّلاة والسّلام علىٰ سيدنا محمد المخصوصِ بلواءِ الحَمدِ المَعْقود ، وظِلِّ الشّفاعة المَمْدود ،

والحَوْض الذى لا يَنْضُبُ علىٰ كَثْرة الوُرود ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّوْا بالعهود ، وبَدَتْ سِيمَاهُم فى وجوهِهم من أثَرِ السُّجود ـ فإنَّ أَوْلىٰ من ٱجْتَلىٰ وُجوهَ النِّعَم ، وٱجْتَنىٰ ثَمَرَة ما غَرَس من الخِدَم ، وٱرْتَقىٰ إلىٰ ما أُنْعِم به عليه من التَّقدُّم الذى أقامه السَّعْدُ لٱستحقاقه علىٰ أثْبتِ قَـدَم ـ من نشأ فى طاعتنا الشَّريفـة يَدِينُ بوَلائِهـا ، ويتَقلَّب فى خَيْرِ نِعَمِها وآلائِها ، ويتَعبَّدُ بمـا يُؤَهَّل له من خِدَمِها ، ويبادِرُ إلىٰ ما يُنْدَب له من المَهامِّ الشَّريفةِ بين يَدَىْ مراسمنا أو تحتَ عَلَمِها .

ولمـَّا كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ طاعتُه، وشُكِرت خِدَمُه وشَجاعتُه ـ رُسم ... ... أنْ يُرتَّب فى رُبْع إمْرة بَنِى مَهْدِىّ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه .

فليرتَّبْ فى ذلك ، قائمـًا بمـا يجب عليه من وظائفها المَعْروفةِ المألُوفَة ، وخِدَمِها التى هى علىٰ ما تبرُزُ به أوامِرُنا الجاريةُ موقُوفَة ؛ وليكنْ هو وعَرَبُهُ بصَدَدِ ما يُؤْمَرون به : من خِدْمةٍ يبادرون إليها، وطاعةٍ يُثَابِرون عليها، وتَأهُّبٍ للجهاد، حيثُ سَرَت الجيوشُ المنصـورةُ لم يَبْقَ لهم عائقٌ عن التَّوجُّه بين يديها ؛ وسياسَـةٍ تأخذُهم من الطرائقِ الحميدةِ بسُلُوك ما يجب، ويعرفُ بها سلُوكَ ما يَسْلُك وٱجتنابَ ما يجتَنِب؛ والخير يكون، إن شاء الله تعـالىٰ .

الثـانى ـــ مقدّم زُبَيْـد . ومنازلُ بعضِهم بالمَرْج وغُوطَةِ دِمَشْق ، وبعضهم بصَرْخَد، وحَوْران .

⁂

وهذه نسخةُ مَرْسوم شريف بتَقْدِمة عرب زُبَيْد، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أبْقىٰ بنا للنِّعَم تأبيدا ، وأحْسن العاقِبَة لأحسن عاقِبَةٍ أدام لهم فيها تخليدا ، وأحْيا به منهم حَيًّا نكتب لأمرائهم وإمْرتهم فى كُلِّ حِين تقليدا ؛

ونَفَّل منهم نَوْفَلًا فلا تزالُ تُجدِّدُ فيهم مَلَابِس الفَخَار بذكر آسمه تَجْديدا، ورَعَىٰ بنا أبناءَ بيْتٍ تَاسَقُوا أبْنـاءً وجُدُودا، وتَبَاشَرُوا بولَدٍ لمَّا خَلَف وَالِدَه بأنَّ آبنَ سَـعيد لا يكون إلّا سَعيدًا ؛ والصَّلاة والسَّلام علىٰ نبيه محمد الذى أهْلك بسَيْفِه كلَّ غَاشِم ، وأنْجل بسَيْبِه كلَّ غمام لوَجْنَةِ الرِّياض وَاشِم ، وأسْـعد بسَبَبِه نَوْفَلًا وعبْـدَ شَمْس بأُخوّتهما لهاشم ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه خُلَاصَةِ العَرَب ، صلاةً لا يُعَدُّ ضربيا لهـا الضَّرَب ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ العساكرَ المنصورةَ الإسلاميةَ : منهم حاضرَةٌ أهلُ جِدَار ، وباديةٌ فى قفَار ، وقَومٌ هم الُمدُن المُمـدَّنَةُ وقومٌ عليها أسوار ؛ وهم صنفان : صِنفٌ لا تَمَلُّ السيوفَ عَواتِقُهم ؛ وصنفٌ سيوفُهم تُحبَس بها مَناطقُهم ؛ والعَرَبُ أكرم [أهل] البَوادى ، وأعظمُ قَبائِلهم تَضَرُّمًا كالبَرْق مُباراةً للسُّحُب الغَوادِى ؛ قد نَصَبُوا بقارعَة الطَّريقِ خِيامَهم ، وسَرَّحوا مع أسراب الظِّباء سَوَامَهم ؛ ووقفُوا دُونَ الممالك المحروسة كَتَائبَ مصْفُوفه ، ومَواكبَ بمـا تُعْرَفُ به العرَبُ من الشَّجاعة موصوفه ؛ وزُبَيْـد من أنفَرِها قَبيله ، وأكثرِها فوارسَ : [فأمَّا أحْسَابها] فكريمةٌ وأمّا وجوهها فجميلَه ؛ شَامِيَّةٌ أعْرقَتْ أنْسابا فى يَمَنِها ، وأتْهمتْ بشَطْء أسِنَّتِها ماتفَتَّح فى المجَرَّة من سَوْسَنِها ؛ لهـا يَبِيتُ بَطَلٌ منهم علىٰ دِمَن ، ولا يُعْرفُ فارسٌ إلا إذا تَمَلَّ فى الخَليطَيْن من شَام ومن يَمَن ؛ كَمْ فيهم بمَواقِع الطِّعانِ فَطِنٌ ذو كَيْس ، وكَمْ صَبَغ منهم بالدِّماء رايةً حَمراءَ يَمَنِيٌّ لا يُنْسب إلىٰ قَيْس ؛ كَمْ كَرَّ علىٰ مَعْديكَرِب منهم فَارِس ، ونُسِب إلىٰ زُبَيْـدٍ وهو خَشِنُ الملابس ؛ منهم صاحب الصَّمْصامة بَقِى مثلها السَّيفَ فردا ، وكَمْ قتل من أقرانه الشُّجعان مِن أخٍ صالحٍ وبَوَّأه فى العَجَاج بيديه لَحْدا ؛ ومن نجومهم الزواهرُ السُّمراء ، وغيومهم الأكابرُ السَّراه ، من لم يَزَلْ حَوْلَ دِمَشْق وما يليها من جَوْرَان ، مَنَارَةَ مَنازِلَ وأوْطان ؛ حَامَوْا عن جَنابِها المَصُون ، وحَامُوا حَوْلَ غُوطَتِها تَشَبُّهًا بحمائمها

علىٰ الغُصُون ، وماثَلُوا بسيوفهم أنهارَها ، ورِمَاحهم حَوْلَ دَوْحاتِ الأَيْك أشجارَها ، وآستلأموا بمثل غُدْراتِها دُرُوعا ، وحَكَوْا بما أطَلُّوا من دِماء الأعْدَاء شَقائق رَوْضِها ، وبما جَرُّوا من حُلَلِهم المُسَهَّمَة سيلا ، ولم يَزَلْ لهم من البَيْت النَّوْفَلِيّ مَن يجمع جماعتهم ، ويضُم تحتَ رايةِ الدولة الشريفة طاعَتَهم ، يَخْلُف ٱبنٌ منهم لأبيه أو أخٌ لِأخيه ، وينتظِم كُلُّ فَرْقَد مع من يناسِبُه وينضاف كلُّ كَوْكَب إلىٰ مَن يُوَاخيه .

وكان مجلس الأمير الأجلّ ، فلان بن فلان الزُّبَيْدى ـ أدام الله عزه ـ هو بَقِيَّة من سلف من آبائه ، وعرف مثل الأسَد القَسْوَرة بإبائه ، وٱنحصر فيه من ٱستحقاق هذه الرتبة مِيراثُ أبيه ، وٱستغرَق جميع ما كان من أمْر قَوْمه وإمْرتهم يَلِيه .

فرسم بالأمر الشريف ـ زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وذَخَر به لكلّ سَالِف خَلَفا ـ أن يرتّب فى إمْرة قَوْمه من زُبَيْد النّازلين بظاهر دِمَشْق وبلاد حورانَ المحروس . علىٰ عادة أبيه المستقرّه ، وقاعِدَته المستمرّه ، إلىٰ آخر وقت ، من غير تنقيص له عن نَجْم سَعْده فى سِمَةٍ ولا سَمْت ، تنفيذمة تَشمَلُ جميعَهم ممّن أعْرَقَ وأشأم ، والنجد وأتْهَم ، لا يخرج أحدٌ منهم عن حُكْمه ، ولا ينفردُ عن قِسْمه ، لا ممّن هو فى جِدَار ، ولا ممّن هو مُصْحِرٌ فى قفار ، يَمْشِى علىٰ ما كان عليه أبُوه ، ويقومُ فيهم مَقَامَه الذى كان عليه هو وأُولُوه .

ونحنُ نُوصِيك بتقْوَى الله تعالىٰ ، وباتِّباع حكْم الشَّريعة الشريفة ما أقمْتَ علىٰ بلد أو أزْمَعتَ ٱرْتحالا ، وجَمْع قَوْمِك على الطاعة فُرْسانًا ورُكْبانا ورِجَالا ، واتباع أوامرها الشَّريفة وأمْر نُوَّابنا الذين هم بإزائهم ، وما ٱعْتزازُ من قَبْلك إلا لِمَا مالوا إليه فى ٱعتزائهم ، والتأهُّب أنت وقَوْمك لِمَا رسم به فى لَيْل أو نهار ، وحمايةِ حِمىً أنتم حوله فى صَحْراءَ مُصْحِرة أو من وَرَاء جِدار ، والمطالعة بمن يَنْتَقِلُ من أصحابك

بالوَفَاه، والوصايا كثيرة ومثلك أيسَرُ ماقال له آمرؤ كَفاه، والله تعالىٰ يوفقك لما يرضاه، ويُؤْثِرُك فى كلِّ أمْرٍ للعمل بمقتضاه، وسبيل كلِّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخط الشريف شرّفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية ـ نيابة حلب . ووظائفها التى يكتب بها من الأبواب السلطانية علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(من بحاضرة حَلَب ، وهم علىٰ أصناف) .

الصنف الأوّل

(منهم أرباب السُّيوف ، وهم علىٰ طبقتين)

الطَّبَقة الأولىٰ

(من يُكتب له تقليدٌ ، وهو نائب السَّلطنة بها ؛ وتقليده فى قَطْع الثُّلثين بـ«الجناب الكريم»)

وهذه نسخةُ تقليدٍ شريفٍ بنيابة السلطنة بحَلَب ، كُتب به للأمير استدمر، من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ لله حافظِ ثُغُور الإسلامِ فى أيّامنا الزّاهرة، بمن يَفْتَرّ عن شَنَب النّصر سَيفُه، وناظِمِ نِطاق الحُصُون فى دَوْلتنا القاهرة، علىٰ هِمَم من لم يَزَلْ يغزُو عدوّ الدّين قبلَ طُلوعِ طَلائعه طَيْفُه، وناشرِ لواءِ العَدْل فى أسْنىٰ ممالكنا بيَد من لايُؤْمَنُ فى الحق فوتُه

ولا يُرْهَبُ فى الحُكْمِ حَيْفُه، ومدّخِر [أجر] الرِّباط فى سَبيله لمن لم يَبِتْ لَيلةً إلا والتأْييد نَزِيلُه والنَّصر سَمِيرُه والظَّفَرُ ضَيفُه، الذى جعلَ الجهاد فى أطراف الممالك المحروسة سُورًا لَعواصِمِها، والصِّعادَ فى مَقَاتِل أعْداء الدِّين شَجًا فى صُدُورِها وشَجًى فى غَلاصِمِها؛ والسُّيوفَ الحِدَادَ تُزْهَىٰ بمشاركتها لاسم من بُليَتْ منه أجْساد أهْلِ الكُفْر بقاسِمِها، ورُمِيتْ منه أعمـارُهم بقاصِمِها؛ وأرْهفَ لهذا الأمرِ من أوْلِيائنا سيفًا تحلّى الشَّهْباء بجواهرِ فِرِنْدِه، وتَتَوقَّع الأعْداء مواقعَ فَتَكَاتِه قبـلَ تألُّقِ بَرْقِه من سُحُب غِمْـده، ويعرفُ أهْلُ الكُفْرِ مَضَارِبَه التى لا تُطِيقُ مَقَاتِلُهم بحَدْها، وتتفرّقُ عُصَب الضلال فَرَقًا من مهابته التى طالما أغارَتْ علىٰ جيوشهم المتعدِّدَة وحْدَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت النَّصْر لأجياد ممالكنا عُقُودا، والكُفْرَ للَهَب صَوارِمِنا وَقُودا، والتأْييدَ من نتائج سُـيوفنا التى تأْنَف أن تُرىٰ فى مَضاجِع الغُمُود رُقُودا؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُعْلِي مَنارَ الهُدىٰ، وتُطفِئ أنْوار العِدَا، وتُخْلِي أجْسادَ أهلِ الكُفْر من قُوىٰ أرْواحِهم فتغْدُو كديارِهم التى لا يُجِيبُ فيها إلا الصَّدَىٰ؛ ونشهد أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أعْلىٰ الله بِناءَ الإيمـان بتأذِينِه، وأيّدنا فى الذَّبِّ عن مِلَّتـه ، بكل وَلِيٍّ يتلقَّى رَايةَ النَّصْر بيَمِينِه، وأعانـنا علىٰ مصالح أمّته، بكلِّ سيفٍ تتألّق نارُ الأجل من زَنْدِه ويَتَرقْرقُ ماء الحياة من مَعِينه؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَسَمَتْ أسِنَّتُهم من وجوه الكُفْر أغْفالا، وكانتْ سيُوفُهم لمَعاقِلِ أهْل الشِّرك مَفاتِحَ فلمَّا فُتِحت غَدَت لهـا أقْفالا؛ فمنهم مَن فَازَ بمَزِيَّة السَّبْق إلىٰ تَصْديقه ، ومنهم من كان الشيطانُ يَنْكُبُ عن طَرِيقه؛ ومنهم مَن أمَر بإغْماد سَيْف الانْتِصَار لدَمه عن مُرِيقه ، ومنهم من حاز رُتْبـة أختانه وصِهْره دون أُسْرته الكِرام وفَرِيقِه ؛ صلاةً دائمـةَ الخُلود، مُسْتَمِرَّةَ الإقامة فى التَّهـائم والنُّجود ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ من حُلّيت التقاليدُ بلآلئ أوصافه، ومُلّكت الأقاليمُ بمواقع مَهابته وإنصافه؛ ورِيعتْ قلوبُ العدا بطُروق خَياله قبلَ خَيْله، وخافَ الكُفْرُ كلَّ شيء أشبه ظُبَاه من توقُّد شموس نهاره أو حكىٰ أسِنّته من تألُّق نجوم ليله؛ ومُدَّ على الممالك من عزماته سُورٌ مُصفَّحٌ بصِفاحه، مُشَرَّفٌ بأسنّة رِماحه؛ سامِيَةٌ علىٰ مِنطَقة الجَوْزاءِ منطَقةُ بُروجه، نائيةٌ علىٰ أماني العدا مسافةُ رِفْعته فلا يَقْدِر أملُ باغٍ علىٰ ارتقائه ولا رَجاءُ طَاغٍ علىٰ وُلُوجه ـ من تمهَّدتْ بسَداد تَدْبيره الدُّوَل، وشَهِدت بسيَر محاسنه السِّيَرُ الأُوَل؛ وتوطَّدتِ الممالكُ علىٰ أسِنّته فحقَّقت أنّ أعلَى الممالك ما يُبْنىٰ على الأسَل، وسارَتْ فى الآفاقِ سُمْعَتُه فكانت أسرىٰ من الأحْلام وأسْبق من الأوهام وأسْيَرَ من المَثَل؛ وصانَتِ الثُّغورَ صَوارِمُه فلم يَشِمْ بَرْقَها إلا أسيرٌ أو كَسير، أو مَن إذا رَجَع إليها بَصَرَه انْقلبَ إليه البَصَرُ خاسئًا وهو حَسير؛ وزانَت الأقاليمَ مَعْدلَتُه فلا ظُلْمَ يَغْشَى ظَلامُه، ولا جَوْرَ يُخْشَىٰ إلمامُه، ولا حَقَّ تُدْحضُ حجّتُه ولا بَاطِلَ يَعْلُو كلامُه؛ فالبلادُ حيثُ حلَّ بعَدْله مَعْموره، وبإيالته مغْموره، وسُيوفُ ذَوِى الأقْلام وأقلامُهم بأوامره فى مَصالح البلاد والعباد مَنْهيّةٌ ومأْموره.

ولما كان الجنابُ العالى هو الذى عانَقَ المُلكَ الأعزَّ نِجادُه، واللَّيثَ الذى لم يَزَلْ فى سبيل الله إغارَتُه وإنْجادُه؛ والكَمِيَّ الذى كَمْ له فى جِهاد أعْداء الله من مَوْقِف صِدْقٍ يضِلُّ فيه الوَهْم وتَزِلُّ فيه القَدَم، والهمامَ الذى إنْ أنكرتْ أعْناقُ العدا مواقِعَ سيُوفه «فما بالعَهْدِ من قِدَم»؛ والمِقْدامَ الذى لا تُنْكَرُ مَشاهِدُه فى إرْغام الكُفْر ولا تُكْفَر، والزَّعيمَ الذى حَمَتْ مَهابَتُه السَّواحلَ فخاف البَحْرُ: وهو العَدُوُّ الأزْرق، من بأسه الأحْمَر، علىٰ بَنِى الأصْفر، والمُقدَّمَ الذى كَمْ ضاقتْ بسَرايا شيعَته الفِجَاج، ! وكَمْ أشْرقتْ نُجُوم أسِنّته من أُفُق النَّصْر فى ظُلَم العَجَاج، ! وكَمْ حَمَى العَذْبَ الفُراتَ على البُعد بسُيوفه وهى مجاورةٌ للمِلْح الأُجَاج ! ! ؛ مع سَطْوَة أنامَت الرَّعايا فى مِهاد أمْنِها،

ورَأْفَةٍ غَمَرتِ البرايا بعاطِفَةِ إقبالهـا ويُمْنِها ، ورِفْقٍ تكَفَّل لسَهْلِ البلاد وحَزْنِها بإعانة مُزْنِها ، وشَجاعةٍ أعدَّت الجيوشَ التى قِبَـلَه فغدَتْ آحادُها أُلُوفا ، وفتكاتٍ عوّدَتِ الطَّيْرَ الشِّبَعَ من وَقائِعِه فباتَتْ علىٰ راياته عُكُوفا ، ومَعْدِلَةٍ عَمَّت مَن فى إيالَتِه فأَضْحىٰ الضَّعيفُ فى الحَقِّ قَوِيًّا عنده والقَوِيُّ فى الباطل ضَعِيفًا .

وكانت البلاد الحَلَبِيَّة المحروسةُ هى المملكةَ التى لا تُجارىٰ شَهْباؤُها فى حَلْبَةِ فخَـار ، والرُّتْبَـةَ التى لا يُؤَهَّلُ لهـا من خَواصِّ الأَوْلياء الأَعِزَّةِ إلّا مَن ٱستخرنا اللهَ تعـالىٰ فى تَقْليـد جِيد مَفَاخِره بلآلِئِ كَفالَتِها فخَـار ؛ فهى سُورُ المـمالكِ الذى لا تَتَسَوَّرُه الخُطوب ، وأُمُّ الثُّغور التى ما بَرِح يَسْـفِر بِٱبْتِسـامِها عن شَنَبِ النَّصْر وجْهُ الزمن القَطُوب ؛ ومَوْطِنُ الرِّباط الذى كلُّ يوم وليـلة [فيـه] خير من الدُّنْيا وما فيها ؛ وعقيـلةُ الأقاليم التى كَمْ أَشْجىٰ قلوبَ الملوكِ الأكابِرِ صُـدُودُها وأَسْهر عيونَ العظماءِ الأكاسرةِ تَجافِيها ؛ بل هى عِقْـدٌ دُرُّه حُصُونُه ، ورَوْضٌ سـيوفُ الكُماةِ جَداولُه ورِماحُ الحُمـاةِ غُصُونُه ؛ وحِمًى لم تَزَلْ عيونُ عنايَتِنا بعَوْنِ الله تَحُفُّه وأيدى تَأْييـدنا بقُوَّة الله تَصُونُه ــ ٱقتضت آراؤُنا الشريفـةُ أن نُرْهِفَ بحمايَتِها هـذا السَّيفَ الذى تُسابِقُ الأَجَلَ مَضارِبُه ، وتبطل الحِيَـلَ تَجارِبُه ، ويتقَـدَّم خَبَرَ عَزائِمه خَبَرَها فلا يُدْرَىٰ : هلْ ريحُ الجَنُوب أَسْرىٰ وأَسْرع أَمْ جَنائِبُه ؛ وتَبُثُّ مَهابَتُه أمام سراياه إلىٰ العِدَا سرايا رُعْبٍ تَفُلُّ جَمْعَهم ، وتَسْـبِقُ إلىٰ التَّحرُّز من بَأْسِـه بَصَرهم وسَمْعَهم ؛ وتسفر بكل أفق عن تعثها مغيره،[1] أو كَتِيبَةٍ تجعلها لمعالى النصر الكامنة مُثِيره .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشَّريفِ العـالى ــ لا زالت أوامرُه مبْسُوطةً فى البَسيطَه ، ومَمالِكُه مَحُوطَةً بهاباتِه الشّامِلَةِ ومَعْدِلته المُحِيطه ــ أنْ تفوّض إليه نيابةُ السَّلْطنة الشَّريفة بالمملكة الحَلَبِيَّة : تفويضًا يعوّذُها من عيون العِدا بآياتِ عَزائِمه ، ويعوّدُها

(١) كذا فى نسختين ولعل الصواب "عن شيمة" الخ .

اجتناءَ ثَمَر المُنىٰ والأمنِ من وَدْقِ صَوارِمه ؛ وينظِم دَرَارِىَّ الأسِنَّة من أجياد حُصُونها فى مَكان القَلائد ، ويجعلُ كُمَاةَ أعدائها لخوفه أضعفَ من الوُلْدانِ وأجبنَ من الوَلائد ، ويُجَرِّدُ إلىٰ مُجَاوِرِيها من هِمَّته طلائعَ تحصُرُهم فى الفَضاء المتَّسِع ، وتسُدُّ عليهم مَجالَ الأرض الفسيحةِ فيَغْدُو لهم حَزْنُها الحَزَن الشّامِل وسَهْلها السَّهْل المُمتَنِع .

فليَتقَلَّدْ هـذه الرتبةَ التى بمِثْلها تُزْهَى الأجياد ، وبتَقَلُّدِها يَظْهَر حسنُ الانْتِقَاء لجواهر الأولياء والانْتِقَاد ، وبتَفْويضها إلىٰ مِثْـله يُعلَمَ حسن الارتياد لمصالح البلاد والعباد ، وليَزِدْ جيوشَها المنصورة إرْهابا لعَدُوِّهم ، وإرْهافاً لصَوارِم الجهاد فى رَواحِهِم وغُدُوِّهم ، وإدامةً للنَّفير الذى حَبَّبَه اللهُ إليهم ، وقُوَّةً علىٰ مجاوريهم من أهل النِّفاق الذين يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم فإنَّهم فُرْسان الجلاد الذين ألِفُوا الوقائع ، وأسْوار القُراتِ الذين عُرِفُوا فى الذَّبِّ عن مِلَّتِهـم بحِفْظ الشَّرائع ، وكَشَّافةُ الكُرَب الذين لا يزالُ لهم فى سائر بلاد العِـدا سرايا وعلىٰ جميع مطـالع ديار الكُفـر طلائع ؛ وهم بتَقْدمته تتضاعفُ شَجاعَتُهـم ، وتَزِيدُ اسْـتِطاعَتُهم وطَاعَتُهم ؛ وليأخُذْهم بمضاعفة الأُهَب وإدامةِ السَّـعْى فى حِفْظ البلاد والذَّب ، والتشبُّه بأُسُود الغابات التى هَمُّها فى المَسْلُوب لا السَّلب ؛ وليهتمَّ بكَشْفِ أحْوال عَدوِّ الإسلام لِيَبْرحَ[(1)] آمنًا علىٰ الأطراف من حَيْفهم ، متيقِّظًا لمكايِدِهم فى رِحْلَتَىْ شتائِهم وصَيْفهم ؛ مُفَاجِئًا لهم فى كلِّ منزل بسَيْرٍ يُرَوِّعُ سِرْبَهم ، ويُكَدِّرُ شِرْبَهم ؛ ويَجْعـلُ رُوحَ كلٍّ منهم من خَوْف قُدُومه نافرةً عن الجَسَد ، ويَسْلُبُهم بتَوَقُّع مُفاجَآته القَرَارَ « ولا قَرَارَ علىٰ زَأْرٍ من الأسَد » ، ولا تزالُ قُصَّادُه بأسْرار قُـلوب الأعْداء مُناجِيـه [ولا تبرح له من أعيـان عيونه بين العِـدا فرقة ناجيـه][(2)] وليَحْتَفِل بتَـدْرِيج الحَـمَام التى هى رُسُـل أعِنّته ،

(1) مراده ليبقى على الدوام آمنا الخ إلا أن هذه المادة لا تؤدى هذا المعنى إلا بسبق النفى . تأمل .

(2) الزيادة مما يأتى قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الدَّيادِب الذين إذا دَعَوْا هَمْهَمَةً بألسِنَةِ النِّيران لبَّتْهم ألسنةُ أسِنَّته، وليُملِئْ قلوب أعدائه بوَجَلٍ لِقائِه قبل الأجَل، وليَزِدْ في الحَزْم على ابن مزْيَد الذي لم يُرَ في الأمن إلا في درْعٍ مُضاعَفَة «لا يأمنُ الدَّهرَ أنْ يُدْعَى على عَجَل»(١) وليجعل أحوال القلاع المحروسة دائماً بمرأى منه ومَسْمَع، وينشئها من ملاحظته باحتفالٍ لا يَدَعُ لشائمٍ برْقَها وحول أموالها [مطمعا] فقد استكمل حُسْنَ النظر في مصالحها أجمع؛ وليُقِم منارَ الشرع الشريف بمُعاضَدَةِ حُكّامه، والانقياد إلى أحكامه، والوقوف مع نقضه وإبرامه:

فليجعل حُكْمَ الشريعة المطهَّرة أمامَه وإمامَه، وليُقِمْ أمرَ الله فيمن اقتاده الشرعُ إلى حكمه بجاذب زِمامه؛ وليُعظِّم حَمَلةَ العِلْم الذي أعلى اللهُ منارَه، وأفاض على الأمة أنواره، وحَفِظ بهم على الملَّة سُنَّة نبيهم صلى الله عليه وسلم وآثارَه؛ وليكن لأقدارهم رافعا، ولمضارِّهم دافعا، ولأوقافهم بجميل الاحتفال عامرا، وفي مصالحهم بتَحْلية الأحوال آمرا؛ ولينشر لواءَ العدل الذي أمر اللهُ بنَشْره، ويشفعه بالإحسان الذي هو المألوف من سجاياه ومعروفٌ من طلاقة بِشْره؛ ويمدَّ على الرعايا ظِلَّ رأفته الذي يُضْفِي في النِّعَم لِباسَهم، ويُديمُ إلْفَهم بالرفاهية واستئناسَهم؛ ويُقِمْ حُكْمَ سياسته على مَن لم يستقِم، ويقف مع رضا الله تعالى في كل أمر: فإذا رَحِمَ فلله فليرحَمْ وإذا انتقم فلِغَيْرِ الله لا يَنْتَقِم؛ وليُعْتَنِ بعمارة البلاد ببَسْط العدل الذي ما احتمى به مُلْكٌ إلا صانَه، والرِّفْقِ الذي لم يكن في شيء إلا زانَه، وتوخِّي الحق الذي من جعله نُصْبَ عينَيْه وفَّقه اللهُ له وأعانَه. وكذلك أمر الأموال: فإنها ذخيرة المُلْك وعتادُه، ومادَّةُ الجيش الذي إذا صُرِفَتْ إلى مصالحهم هِمَمُه لم يُخْشَ عليه انقطاعُه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيباني وهو:

تراه في الأمن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

تَقادُه، وجميعُ الوصايا قد ألِفنا من سيرته فيها فَوْقَ ما نقترح، وخَبَرنا من مقاصده فيها ما يقولُ للسانِ قلمِها : قد عرفتُ ما أَوْمأْتَ إليه من مَقاصدك فاسْتَرح ؛ وملاكُها تقوى الله تعالىٰ ورضانا ؛ وهو المألوف من عَدْله وإنصافه ؛ والله تعالىٰ يُديمُها بتأييده وقد فعل ، ويجعله من أركان الإسلام وأعلام المسلمين وقد جعل ؛ بمنّه وكَرَمه، والاعتمادُ ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخةُ تقليدٍ شريفٍ بنيابة حَلَبَ أيضا، كُتب بها عن السلطان المَلِك النّاصر «محمد بن قلاوون» للأمير شمس الدّين «قراسُنْقر» باعادته إليها . من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحَلَبيّ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل العَواصمَ بإقامة فَرْض الجهاد فى أيّامنا الشريفة مُعتَصِمَه ، والثُّغورَ بما تفترُّ عنه من شَنَب النّصر فى دَولتنا القاهرة مُبتَسِمَه، والصَّوارِمَ المُرهَفة فى أطراف الممالك بأيدى أوليائنا لأرواحِ مَن قَرُب أو بَعُد عنها من الأعداء مُقتَسِمَه ، والحُصونَ المُصفَّحة بصِفَاحنا بأعلام النّصر مُعلَمَةً وبسِيما الظَّفَر متَّسِمَه ؛ مُعْلى قَدْرِ مَن أحْسن فى مصالح الإسلام عَمَلا ، ورافِع ذِكْرِ مَن يبسط إلىٰ عِزِّ طاعة الله ورسوله وطاعتنا أمَلا ، ومُجدِّد سَعْد مَن تَلْبَس الأقلامُ من أوصافه أفخر الحُلَل إذا خَلعَتْ من المحامد علىٰ أوصافه حُلَلا، ومُفوِّض زَعامة الجُيوش بمواطن الرِّباط فى سَبيله إلىٰ مَن إذا قلَّتْ مَقاتِلُ العِدا سيوفَ الجلاد كانت عَزائمه من السيوف المُرهَفَة بَدَلا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت طاعَتنا من آكَد أسباب العُلُوّ ، وخِدمَتنا من أنجح أبواب الرِّفعة بحَسَب المبالغة فى الخِدْمة والغُلُوّ، ونِعَمنا شاملةً للأولياء بما يُربى على

طَوامِح الآمَال فى البُعْد والدُّنو ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُستنزلُ بها موادُّ النَّصر والظَّفَر ، وتُستَجزَلُ بها ذخائرُ التأييد التى كَمْ أسْفر عنها وَجْهُ سَفَر ، وتُرْهَفُ بهـا سيوف الجهاد التى كم آلفَتْ من آمَن وكَفَّتْ من كَفَر ؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسولُه الذى أنزل سَكينَتَه عليـه ، وزُوِيَتْ له الأرضُ فرأىٰ منهـا ما يَبْلُغ مُلْكُ أُمَّتِه إليه ، وعُرِضتْ عليه كُنوزُ الدُّنيا فأَعْرَضَ عمَّا وُضِع من مقاليدها بيدَيْه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين رضى الله عنهم ، ونَهَضُوا بمـا أُمِروا به من طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أُولى الأمْر منهم ؛ صـلاةً دائمةَ الظِّلَال ، آمنةً شمسُ دَوامِها من الزَّوال ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإن أولىٰ من طُوِّقَتْ أجْيادُ الممالك بفرائد أوْصَافه ، وفُوِّقَتْ إلىٰ مَقاتِل العِدا سِهامُ مَهابَتِه التى تَحُولُ منهم بين كُلِّ قلْبٍ وشِغَافِه ؛ وخُصَّتْ به أُمُّ الثُّغور التى دَرَّ لها حَلَبُها ، ومَدّت عليها أفْياءَ النَّصر المَمْدودةَ ذَوابِلُها وقُضُبُها ، وأهْدىٰ أرجَ التَّبلُّج افْترَارُها وشَنَبُها ــ مَن تقومُ مَهابَتُه مقامَ الأُلُوف ، وتَجْتَنِى شُمْعتُه من ذَوابِل العزائم ثَمَر النَّصر المَأْلُوف ؛ ويَسْبِقُ خَيالُه سرايا خَيْلِه التى هى أسْرىٰ من هُوج الرِّياح إلىٰ هَزْم الجُمُوع وتَفْرِيق الصُّفُوف ، وتَنْظِمُ أسِـنَّةُ رِماحِه فى الوَغَىٰ قلوبَ العِدا نَظْمَ السُّطورِ وتَنْثُرُ صِفَاحُه رءُوسَهم نَثْرَ الحُرُوف ؛ وتُحِيطُ بِنِطَاق المَمَـالك المُتَطَرِّفَة صَوارِمُه إحاطةَ الأسْوار بالحُصُون ، والخَمائِل بالغُصُون ، والهَالات بالأقْمـار ، والجَوانح بالأسْرار ؛ ولا تَبِيتُ مُلُوكُ العِـدا منه إلّا علىٰ وَجَل ، ولا يُرىٰ فى الأمْن إلا فى دِرْعٍ مُضَاعَفَة «لا يأْمَنُ الدهرَ أنْ يُدْعَىٰ علىٰ عَجَل» ؛ ولا يَخْفَىٰ عن ألْمَعِيَّته ما يُضْمِرُ الأعداءُ من الحركات قبلَ إظْهارها ، ولا يَبْعُد علىٰ عَزَماتِه ماهى مَليَّةٌ به من بِدَارِها أعْدَاءَ الدِّين

بِدَارِها، وإذا جلس لنَشْر المَعدلَة تبرأ الظلم من فكر[(١)] البغى والجَوْر على إنسان، وشَفَع ما تَصَدَّى له من ذلك بما أمَر اللهُ به من العَدْل والإحسان .

ولما كان الجناب العالى الفُلانىّ هو الذى مُلِئَتْ قلوبُ العدا بُرعْبِه، وانطوتْ قلوبُ الرعايا على حُبّه، وتهلّلتْ وجوهُ المُنَى في سِلْمِه واستهلّتْ سُحُب المنايا فى حَرْبِه. وجمع بين حِدّةِ البأس ولُطْفِ التُّقَى فكان هو الكَمِىّ الذى شَفَع الشَّجاعةَ بالخُضوع لِرَبِّه، وحاطَ ماوَلِيَه من الأقاليم بسُورَىْ بأسه وعَدْله فبات كلُّ أحَدٍ وادِعًا فى مِهادِه آمنًا فى سِرْبِه، وأغارتْ سَرايَا مَهابَتِه قبل طُلوع طَلائعه فأصْبَح كلٌّ من العِدا أسيرَ الذُّعْر قبلَ إمْساكه — قتيلَ الخوف قبلَ ضَرْبِه، مع احتفال بعمارة البِلاد، أعان السُّحُبَ على رَيِّها، واشتمالٍ على مصالح العِباد، قام فى تَيْسيرِ أرزاقهم مقامَ وَسْمِىِّ الغمائم ووَلِيِّها، وتيقُّظ لمصالح الثُّغور أنامَ عنها عيونَ الخُطوب، وإشراقٍ فى أُفُق المَواكب كَسَا وجْهَ الدِّين نُورَ البِشْر ووَجْهَ الكُفْر ظلامَ القُطوب .

وكانت المملكة الحلَبِيّة عقيلةَ المَعاقِل، وعِصْمَةَ العَواصِم، ووَاسِطةَ عُقود وسِلْكَ فرائد النَّصْر التى كم أصاءَتْ بها إلى الكُفْر وجُوهُ المسالك، لا تُدْرَكُ فى مِضْمار الفَخار شَهْباؤُها، ولا تُرَى إلا كما تُرَى النجوم فى عيون العِدا حَصْباؤُها؛ ولما من الحُصون المَصُونَة كلُّ قَلْعة يتَهَيّبُ الطَّيْفُ سلوكَ عِقابِها، ويتقاصر لَوْحُ الجوّ عن منال عُقابِها؛ فهى عَزِيزَةُ المَنالِ، إلّا على كريم كَفاءَتِه، بعيدةُ مَجال الآمال، إلا على ما أَلِفَت من إيالة كِفايَتِه؛ ساميةُ الأُفُق إلا على شَمْسِه، نابيةُ الطَّرف إلا على ما عَرَفت من سلوكه فى أمْسِه، ظاميةُ الغُروس التى أنْشأها فى مصالحها إلىٰ ما اعتادَتْه من سُقْيا غَرْسِه — اقتضت آراؤنا الشريفة أنْ تَزِيدَها إشراقًا بشمس

(١) بياض بالأصل .

جَلاله ، واعتلاءً بسَيْفه الذى رياضُ الجَنّة تحتَ ظِلاله ، وأن نُعيدَ أمْرها إلىٰ من طالما حَسن عَدْلُه بُقعتَها ، وحصّن بأسُه قلْعتَها ، وأطارت مَهابَتُه سُمْعتَها ، وأطالتْ سِيرَتُه سُكُونَ رعاياها فى مِهاد الأمْن وهَجْعتَها ، وأعاد وُجودُه أحْوال مُجاوريها من العدا إلى العَـدم ، وأبَاد سَيْفُه أرْواح مُعانِديهـا : فلو أنْكَرتْه أعْناقُهم لم يكن بالعَهْد من قدَم .

فلذلك رُسم بالأمْر الشّريف ــ لا زالتْ شَمْسُ عَدْله ، مُشْرِقةً فى الوجود ، وغَيْثُ فَضْله ، مستهلَّ الجُود فى التّهائم والنُّجود ــ أنْ تفوّضَ إليه ... ... تفويضًا يُجدّد آرتفاعها ، ويُعمّر وهادَها ويِفاعَها ، ويُؤيِّدُ آنْدفاعَ مَضارّها وآنتفاعَها ، ويُعيدُ الإشْراقَ إلىٰ مَطالِعِها ، والأُمُورَ إلىٰ مواقِعها من سَدَاد التدبير ومَواضِعِها ، والإقدامَ إلىٰ جُيُوشها وأبْطالها [والشجاعة الى حماتها ورجالها] .

فلْيَطْلُعْ فى أُفُق مَواكبِها طلوعَ نَعْتِه الكريم ، ويُجْر فى جَوانبها ما ألِفَتْه من موارد عَدْله الذى فارَقها غَمامُه وأثرُ سَيْلِه مُقيم ، ويُعاودْ مصالحَ تلك المملكة التى لا تصلُحُ أمورُها إلّاعليه ، ويُراجعْ عِصْمةَ تلك العَقيلة التى لا تطمَحُ أبْصارُ عَواصِمِها إلّا إليه ، ويُلْقِ فى قُلوبِ مُجاوريها ذلك الرُّعْبَ الذى نَمَىٰ إلىٰ كلٍّ منهم نَفَسَه وأسْلاه عمّا فى يَدَيْه ، ويُثَبِّتْ تلك المهابةَ التى جعلت مَنايا العدا براحَتِه يأمُرها فيهـم وينْهاها ، ويَنْشُرْ فى الرعايا تلك المَعْدلةَ التى هى كالشَّمْس : لا تبْتغى بمـا صَنعتْ مَنْزلةً عندهم ولا جاها ؛ ولْتكُنْ أحْوالَ عدوّ الإسـلام بمرْأًى منه علىٰ عادته ومَسْمَع ، ويكُفَّ أطماع الكُفّار علىٰ قاعدته فلا يحدُثُ لهم إلىٰ شَيْم برْق الثُّغور مطْمَعٌ ولا فى السلم بشَنَبِها مَطْمَع ؛ وليكنْ من أرصاده ، نَهارُ عدوِّ الدِّين ولَيْلُه ، ومن أمْداده ، مجازُ الجهاد وحقيقتُه فلا يبرحُ يُبيِّتهم خَيالُه إذا لم تُصبِّحْهم خَيْلُه ، ولا يبرحُ له من أعْيان عُيُونه

بين العدا فِرقةٌ ناجيَهْ، وطائفةٌ بأسرار قلوب القوم مُناجِيَه، لتكونَ له مَقاتلُهم على طُول الأبَد بأدِيَه، وتَغْدُو منازِلُهم خاوِيَةً بين سراياهُ الرائحةِ والغاديَه. ولْيَتَعاهَدْ أحوالَ الجيوشِ بإدامةِ عَرْضِها، وإقامةِ واجباتِ القُوَّةِ وفَرْضِها، وإطالةِ صِيتِ السُّمعةِ المشهورةِ لكُماتِها فى طُولِ بلادِ العِدا وعَرْضِها، وإزاحةِ أعذارِها للرُّكوب، وإزالَةِ عوائقِ ٱرتيادِها للوُثُوب، وإعدادِ العُدَدِ التى لها من أيديهم طلوعٌ و[فى] مقاتلِ أعدائهم غُروب. وليتفقدْ أحوالَ الحُصونِ المَصُونة بسِداد ثُغُورها، وسَداد أُمُورها، وإزاحةِ أعذار رجالها، وإرهاف هِمَم حُماتِها التى تضيقُ على آمالِ العِدا سَعةُ مجالها، وتوفير ذخائرها، وتعمير بواطِنها وظواهِرها، وتحصينِ مَسالكها التى يرْهَبُ الخيالُ المتولى إلى العيون سلوكَ مَحاجِرِها.

ولْيُعْلِ منارَ الشَّرعِ الشريف بتَشْييد منارِه وأحكامه، وتنفيذه لقضايا قُضاته وأحكام حُكّامه، والوُقوفِ فى كلِّ أمرٍ مع نَقْضِه فى ذلك وإبرامه، ورَفْعِ أقدار حَمَلةِ العِلْم على ما أَلِفُوه من الرِّفعةِ والسُّموّ فى أيّامه. ولْتكُن وطأةُ بأسه على أهل الفَسادِ مُشْتَدَّه، وأوامِرُه مُتَقَدِّمةً بوضعِ الاشياء فى مواضعها: فلا تُوضَع الحِدَّةُ موضعَ الأناةِ ولا الأناةُ موضعَ الحِدَّه. وليراعِ عُهودَ المُوادِعِين مهما ٱستقاموا، ويجمع عليهم إن يَكُفُّوا أناملَ بأسِه التى هم فى قبضتِها رَحلُوا أو أقاموا، ولتخبر ألسنةُ النيران بشَبِّها على اليَفاع [والآكام] مَنْ قدم لمكيدة أو طعن بمَطارِ الحَمام — وجميع ما يتعلَّق بهذه المَرْتبة السنِيّة من قواعدَ فإلى سالفِ تدبيرِه يُنْسب، ومن سوابقِ تقريرِه وتحريرِه يُحْسَب، فهو ٱبن بَجْدَتِها، وفارس نَجْدَتِها، ومؤثِّلُ قواعدِها، ومؤثِّر ما حُمِد من ٱمتداد عَضُدِها إلى مصالح الإسلام وسَاعِدِها؛ فلْيفعلْ فى ذلك ما يشكره الله والإسلام عليه، ويُثْبِت الحُجّةَ عند الله تعالى فى إلقاء المقاليد إليه؛ وملاكُ

الوصايا تقوى الله وهى سَجِيَّة نَفســه، وثَمَرَة ما اَجْتَنَى فى أيّام الحيــاة من غَرْسه، ونَشْرُ العَدْل والإحسان فبهما تظهر مَزِيّة يَوْمه الجميل على أمسه؛ والله تعالى يجعل نِعَمَه دائمة الاستقبال، وشَمْسَه آمنة من الغُروب والزّوال؛ والاعتماد ... ... :

الطبقة الثانيــــة

(من يكتب له فى قَطْع الثُّلُث بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفــــة الأولى

(نيابة القَلْعة بها)

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريف بنيابة قَلْعة حَلَب :

الحمدُ لله مُعْلِي قَدْرِ من تحلَّى بالأمانة والصَّوْن، ورافع مكانة من كان فيما عَرَض من العَوارض نِعْمَ العَوْن، ومُؤَهِّلِ من أرْشَدَنا إليه لِلاجْتِبَاءِ حسنُ الاختبار، ومُبَلِّغ الإيثار من شُكِرَتْ عنه محامدُ الآثار .

نحمدُه حمدَ الشَّاكرين، ونَشْكُره شكرَ الحامدين، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِصٍ فى اعتقاده، مُبَرَّإٍ من افْتِراء كلِّ جاحِدٍ وإلحاده، ونشهد أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله بالحقّ بشيرًا ونذيرا، وأيّده بسُلْطانٍ منه وطَهَّر[به] الأرضَ من دَنَسِ الضَّلالِ تَطْهيرا، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً لا يَزال عَلَمُ العِلْم بها مَنْشورا، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعــدُ، فإنّ العِنايةَ بالحصُون تُوجِب أن لا يُختارَ لهــا إلا من هو مَلِيٌّ بحِفْظها؛ مُوَفِّر[لهــا] من حُسْنِ اللُّبِّ غايةَ حَظِّها؛ حَسَنُ المُرَابَطَه، مُبَرَّأٌ من دَنَس الأفعال

السَّاقطه ؛ ذو قلْب [قوى] وقَالِب ، وعَزْمٍ مازال لمهمات الأمور أشجعَ مُغالِب ؛ إذْ هو للمُرابطين بها أوْثقُ حِرْزٍ حَرِيز، وأصْوَنُ حِجاب لمُبارَزَة ذَوِى التَّبرِيز؛ [فتصبح به] مستورا عَوارُها ، كاتمةً لأسْرارِها أسْوارُها ؛ تخاطبُ مُنازليها من مجانيقها بأبْلغ لِسان ، وتُسافهُ مُلاجيها من أنَفةِ أنْفها إلا أنه بأعلىٰ مكان .

ولما كانت القلعةُ الفلانية بهذه المنْزِلة الرَّفيعه ، والمَكانَةِ التى كلُّ مكانَةٍ بالنِّسْبة والإضافة إلىٰ عُلُوِّ مكانها المَكانَةُ الوَضِيعَه ـ اخْتَرْنا لها وٱبْتَغَيْنا ، وٱستوعَبنا بالتَّأهيل لنيابتها ولم نترك فى ٱستيعابنا ولا أبْقَيْنا ؛ فلم نَجِدْ لولايتها كُفْئاً إلا من نُظِمَتْ عُقود هذا التَّقْليد لتَقْليده ، ورُتِّلتْ سُوَرُ هذه المحامدِ بمُبْدِئ لسان تَقْريظه ومُعيده ؛ إذ هو أوْثقُ من يُلْقىٰ إليه إقْليدُها ، وأكفأ من يُحْرَزُ به مَوْعُودُها ؛ إذ كان المَكين ، والثِّقةَ المُتَحلِّىَ إذ كان التحلِّى مما يَزِينُ العاطِلَ المَشِين ؛ إن ذُكِرَ الرَّأْىُ فهو المتَّصفُ بسَديده ، أو العَزْمُ فهو الموسُومُ بشَديده ، أو التَّثبُّت فهو من صِفة شَجاعَته ، أو حُسْنُ المُظافَرة فهو الباذل فيها جُهْدَ ٱستطاعته .

ولما كانت هذه المناقبُ مَناقِبَه ، وهذه المَذاهبُ مَذاهِبَه ؛ رُسم بالأمر الشَّريف العالى ـ زاده الله مَضَاءً ونَفاذا ، وٱستِحْواذاً وٱستِحْواذا ـ أن تفوَّض نيابة السَّلْطنة بالقَلْعة الفُلانيَّـة وما هو منسوبٌ إليها من رُبُض ونَواح ، وقُرًى وضَواح ، للمجلس السَّامى فُلان .

فلْيَرقَ إلىٰ رُتبتها المُنِيف قَدْرُها ، المُهِمِّ سِرُّها وجَهْرُها ؛ وليَكُن من أمْر مصالحها علىٰ بَصِيرَه ، ومن تَفقُّد أحوالها علىٰ فِطْنةٍ مازالت منه مَخْبُورَه ؛ وليأخُذ مُحْرِزَها من الجُنْد وغيرهم بالمُلازمَة لما عُدِق به من الوظائف ، وليتَقدَّمْ إلىٰ واليها مع طَوَّافيها أوّل طائف ؛ وليتفقَّدْ حواصِلَها من الذَّخائر ، ووَاصِلَها من التَّبْذير بمن

يرتّبه على حفظها من الأخاير، ومهما عرض يُسرع بالمطالعة بأمره، والإعلام بنفعه وضره .

هذه نُبذةٌ كافيةٌ للوثوق بكفايته، والعلم بسديد كفالته ؛ والله تعالى يحسن له الإعانة، ويجزل له الصيانة ؛ والخط الشريف أعلاه ... ... :

الوظيفة الثانية

(شدّ الدواوين بحلب)

وهذه نسخةُ توقيع بشدّ الدواوين بحلب :

الحمدُ لله الذى أرهف فى خدمة دولتنا كلّ سيف يزهى النصر بتقليده ، ويروى نبأ الفتح عن تجربته فى مصالح الإسلام وتجريده، ويروى حدّه إذا قابله عدوّ الدين من قلب قلبه وموارد وريده .

نحمدُه على نعمه السابغة حمدَ متعرّض لمزيده، ونشكره على مننه السائغة شكرَ مستنزل موادّ تأبيده، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مُقرّ بتوحيده، مُسرّ مثل ما يُظهرُ من الخضوع لكبرياء تقديسه وتمجيده، مُصرّ على جهاد من ألحد فى آياته بنفسه وجنوده ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من دعت دعوته الأممَ إلى الاعتراف بخالقها بعد جحوده، وأنجزَ لأمّته من الاستيلاء على الكفر سابق وعوده، وأمالَ به عمودَ الشرك فأهوى إلى الصعيد بعد صعوده ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من بذل فى طاعة الله وطاعته نهايةَ مجهوده، وأطفأ نارَ الكفر بعد وقودها بإيقاد لهب الجهاد بعد خموده ؛ صلاةً تقترن بركوع الفرض وسجوده، وتُقامُ أركانُها فى أغوار الوجود ونجوده ؛ وسلّمَ تسليماً كثيراً .

وبعدُ ، فإنّ أولىٰ ما أجملنا فى مصالحة النّظر ، وأعملنا فى آرتياد الأكفاء له بوادر الفكر ، وآخترنا له من الأولياء من كان معدودا من خواصّنا ، محبوّا بمزيد تقريبنا ومزيّة آختصاصنا ، أمر الأموال الدّيوانيّه بالمملكة الحلبيّه وتفويض شدّ دواوينها المعمورة إلىٰ من تضاعفها رتبتُه المكينه ، ونزاهته المتينه ؛ ويده التى هى بكمال العفّة مبسوطه ، وخبرتُه التى بمثلها يحسُن أن تكونَ مصالحُ الدولة القاهرة منوطه ؛ ومنزلتُه التى تكفّ عن الأموال الأطماعَ العاديه ، ومهابتُه التى تكفى الأولياءَ من ضبط الأعمال بما يروى الآمالَ الصّاديه ؛ لأنّها موادُّ الثّغور التى مابرحت عن شنب النّصر مفترّه ، وأمدادُ الجيوش التى جعل الله لها أبدًا علىٰ أعدائه الكرّه ؛ ورياضُ الجهاد التى تُجتنىٰ منها ثمراتُ الظّفر الغضّه ، وكنوزُ المُلك التى يُنفقُ منها فى سبيل الله القناطيرَ المُقنطرةَ من الذّهب والفضّه .

ولما كان فلانٌ هو الذى آخترناه لذٰلك علىٰ علم ، ورجّحناه لما آجتمع فيه من سُرعة يقظة وأناة حلم ؛ وندبناه فى مهمّاتنا الشريفة فكان فى كلّ موطنٍ منها سيفا مُرهفا ، وآخترناه فكان فى كلّ ما صدّقناه به بين القويّ والضّعيف مُنصفا ؛ وعلمنا من معرفته مايستثيرُ الأموال من مكامنها ، ومن نزاهته مايُظهرُ أشتات(؟)المصالح من معادنها ، ومن معدلته ما يمتّع الرعايا بآجتناء ثمر المُنىٰ من إحسان دولتنا القاهرة وآجتلاء محاسنها ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُحلّيَ جيدَ تلك الرتبة بعقود صفاته الحسنه ، وأن نُنبّه علىٰ حُسن همه التى مابرحت تسري إلىٰ مصالح الدولة القاهرة والعيونُ وسِنه . .

فلذٰلك رُسم أن يفوّض إليه ذلك تفويضًا يبسُطُ فى مصالح الأموال لسانه ويده ، ويقصُرُ علىٰ مضاعفة آرتفاع الأعمال يومه الحاضرَ وغده ، ويُحسّنُ بسدّ الخلل

وتَتَبُّع الإهمـال مصْدَرَه الجميلَ ومَوْرِدَه ؛ ويجعل [له] فى مصالحها العَقْدَ والحَلّ ، والتَّصَرُّفَ النافذَ فى كلّ مادَقّ من الأموال الدِّيوانية وجَلّ .

فليُباشرْ ذلك بهمّةٍ علِمْنا فى الحق مَواقِعَ سَيْفِها ، وأمِنّا على الرعايا بمـا اتّصفتْ به من العدل والمعرفة من مواقع حَتْفِها ، وأيقظتِ العيونَ الطّامحةَ لسلوك ما [لا] يجب بما لم تزلْ تتخيّلُه من روائع طَيْفِها ؛ وليُثمّر الأموالَ بالجَمْع فى تحصيلها بين الرَّغْبة والرَّهْبة ، ويحصّلْ مايَستخرِجُ منها ببركة العِفّة والرِّفق : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ . وليُعَفِّ أثرَ الحمايات ورَسْمَها ، ويُزِلْ بالكلّية عن تلك الممالك الحسَنةِ وَسْمَها القَبيحَ واسْمَها ؛ وليكُنْ مُهِمُّ الثغورِ هو المُهِمَّ المقـدّمَ لديه ، والنَّظَرُ فى كُلَفِ القِلاعِ المحروسةِ هو الفَرْضَ المتعيِّنَ أداؤُه عليه ، فيحْمِلُ إليها من الأموال والغلال ما يَعُمُّ حواصِلَها المَصُونَه ، ويكْفِي رِجالَهـا الفِكْرَ فى المَئُونَه ؛ ويضـاعفُ ذخائرَها التى تُعَدّ من أسْباب تحْصينها ، ويُصْبِح به حملُ عامها الواحدِ كِفَايةَ مايستقبلُه مع موالاة الحُول من سِنِيها ؛ وماعدا ذلك من الوصايا فقد ألْقَينا إلىٰ سَمْعه ما [عليـه] يعتمد ، وعَرَّفْناه أنّ تقوى الله أوفىٰ مابه يَسْتبدُّ وإليه يَسْتَنِد ؛ بعد الخط الشّريف :

الصـــنف الثـانى

(من أرباب الوظائف بحَلَب ـ أرْبابُ الوظائف الدِّينية)

وهم علىٰ طبقتين أيضا :

الطبقـــة الأولىٰ

(من يُكْتب له فى قَطع الثلث بـ«السّامى» بالياء ، وتشتمل علىٰ وظائفَ)

منهـا ـ قَضاء القُضَاة . وبها أرْبعة قُضاة : من كل مذهب قاضٍ ، كما فى الديار المِصْرية والشّام . والشافعىُّ منهم هو الذى يولّى بالبلاد كما فى مِصْر والشّام .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الشّافعية :

الحمد لله الذى رفع منارَ الشّرع الشريف وأقامَه ، ونوّر به كلّ ظلام وأزالَ به كلّ ظُلامَه ، وجعله صِراطًا سَوِيًّا للإسلام والسّلامه ؛ الذى جعل القضاة أعلامًا ، بهم يُهتَدىٰ ، ونَصَبَهم حُكّاما ، بمراشدهم يقتاد ويُقتَدىٰ ، وأخذَ بهم الحقّ من الباطل حتّى لا يُعتَلَّ فى قضيّة ولا يُعتَدىٰ ؛ والصّلاة علىٰ سيدنا محمد الذى أوضح اللهُ به الطّريق ، وأبدىٰ به بين الحلال والحرام التّفريق ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً تتكفل لرغَبات قائلها بالتّحقيق .

وبعدُ ، فإنّ أحقّ ما وَجّهت الهِمَمُ إلىٰ تصريفه وجْهًا مُسْفِرا ، وقربتْ إلىٰ يَدِ الاقتطاف من شجرته المباركة غُصْنا مُثمِرا ،[1] وسهّدت فى الاختيار له والاصطفاء لحظًا ما زال للفكْر فى مصالح الأُمّة مُسْهِرا ــ الشرعُ الشريفُ الذى حرس اللهُ به حَوْمَةَ الدّين وحَمىٰ جانبَه ، وحفظ به أقوالَ الهُدَى عن المجادلة من المُبتَدعين وأطرافَه من المجاذَبَه ؛ وكانت حِراستُه معدُوقةً باختيار الأئمّة الأعلام ، وموْقوفةً علىٰ كلّ مَن يُطاعِنُ البِدَعَ عند الاستفتاء برِماح الخَطّ وليست رماحُ الخطّ غيرَ الأقلام ؛ ومُصَرّفةً إلىٰ كلّ مُنصِف فى قضاياه حتّى لو ترافعت إليه اللّيالى لأنصفها من الأيّام .

ولما كان فلانٌ هو مَدْلولَ هذه العبارَه ، ومُرتمىٰ هذه المشارَه ، ومُرتَمَق هذه الإشارَه ؛ وقد حَلّ من الممادح فى محل صَعْبِ المُرْتَقىٰ علىٰ مُتَوَقّله ، وطلع من منازل سعودها فى بُرُوج بَعيدَةِ الأوْج إلا علىٰ سَيْر بَدْره وتَنَقّله ؛ وطالما حَكَم فأحْكم ؛ وفَصَل ففصّل ، ورُوجِعَ فما رَجَع وعدَل فعدّل ؛ وشهدت مراتبُه الشريفةُ بأنّه خيرُ من تَوَلّها ميراثا واستحقاقا ، وأجلّ مَن كادت تزْهو به مَطالِعُ النجوم إشراقًا وإشراقا ؛ وكانت حَلَبُ المحروسةُ مركزَ دائرة لأيّامه ، وسلكَ جوهرِ تصريفه الذى

(١) فى الأصل «وصلت» ولم نفهم له معنى يناسب .

طالما تقلدت أحسن العقود بنظامه، وقد افتخرت به افتخار السماء بشمسها، والرّوضة بغرسها، والأفهام بإدراك حسّها، والأيام بما عملته من خير في يومها وأسلفته في امسها، وقد اشتاقت إلىٰ قربه شوق النّفس إلىٰ تردّد النّفس، والليلة إلىٰ طلوع النّجم أولا فإلىٰ إضاءة القبس.

فلذلك خرج الأمر الشّريف بأن يجدّد له هذا التوقيع بالحكم والقضاء، بالمملكة الحلبيّة وأعمالها وبلادها، علىٰ عادته.

فليستخر الله تعالىٰ وليستصحب من الأحكام ما همّته مليّة باستصحابه، ويستوعب من أمورها ماتتوضح المصالح باستيعابه، ويقم بها منار العدل والإحسان، وينهض بتدبير ما أقعده منها زمانة الزّمان. وعنده من الوصايا المباركة، مايستغني به عن المساهمة فيها والمشاركة؛ لكن الذّكرى النافعة عند مثله نافقة، فإن لم يكن شعاع هلال فبارقه؛ وليتّق الله ما استطاع، ويحسن عن أموال اليتامى الدّفاع؛ ويحرس موجود من غاب غيبة يجب حفظ ماله فيها شرعا، ويقطع سبب من رام لأسباب الحقّ قطعا، ولا يراع لحائف حرمة فإنّ حرمات الحائفين لا ترعىٰ؛ وينظر في الأوقاف نظرا يحرسها ويصونها، ويبحث عنها بحثا يظهر به كمينها؛ والله تعالىٰ يسدّده في أحكامه بمنه وكرمه!.

قلت: وعلىٰ ذلك تكتب تواقيع بقية القضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية.

ومنها — وكالة بيت المال المعمور.

وهذه نسخة توقيع من ذلك، كتب بها لمن لقبه «كمال الدّين» وهي:

الحمد لله الذي جعل كمال الدّين موجودا، في اقتران العلم بالعمل، وصلاح بيت المال معهودا، في استناده إلىٰ من ليس له غير رضا الله تعالىٰ وبراءة الذّمة أمل،

وارتقاءَ رُتَبِ المتّقين مقصورًا علىٰ من بارتقاءِ مثلِه من أئمّة الأمّة تزهى مناصبُ الدّول، والاكتفاءَ بالعلماءِ مخصُورًا فى الآراء المَعْصومة بتوفيق الله من الخلَل .

نحمـدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت مُهِـمَّ مصالح الإسلام، مُقَدَّمًا لدَينا، واختصاصَ المراتب الدّينية بالأئمّة الأعْلام، مُحَبَّبا إلينا؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رفَع الجهادُ عَلَمها، وأمضىٰ الاجتهادُ كَلِمَها؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ الذى أشرقتْ سماء ملّتِه، من علماءِ أُمّتِه، بأضْوإ الأهلّة، ونطقتْ أحكام شِرْعَتِه، علىٰ ألسِنَةِ حَمَلَةِ سنّتِه، بأوضح الأدِلّة، و بزغتْ شمسُ هِدايَتِه فى تهائِم الوجود ونُجُودِه فانطوت بها ظُلَمُ الأهواءِ المُضِلّة؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصحوا لله ولرسـوله، وآثروا رضاه علىٰ نفوسِهم فلم يكنْ لهم مُرادٌ سوىٰ مَرادِه ولا سُؤْلٌ غير سُولِه؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

و بعـدُ ، فإنّ أولىٰ من تلقّـاه كرمُنا بوجْه إقباله، واختارتْ له آلاؤنا من الرُّتَبِ ما صدّه الإجمال فى الطّلبِ عن تعلّقه ببالِه؛ ورأىٰ إحسانُنا مكانَه من العلمِ والعمَل فعَـلَق به من مَصالح المسـلمين ما لم يتركْه أوّلًا إلّا موافقةً له لا رَغْبةً عن خَيالِه، ورَعىٰ بِرُّنا وِفادَتَه فاقتضى إعادته من مَناصبِه إلىٰ مالم يزَلْ مُشْرِقَ الأُفُق بكمال طَلْعته وطَلْعـة كماله ــ مَن ظهرتْ لَوامِعُ فوائده، وبَهرتْ بدائعُ فرائده؛ وتدفّقتْ بحـارُ فَضائِله، وتألّقتْ أشِعّة دلائِله؛ وتنوّعتْ فُنُونه : فهو فى كلِّ علمٍ ابنُ بجْدَتِه، وفارسُ نَجْدَتِه، وحامِل رايَتِه، وجوادُ مضماره الذى تقِفُ جيادُ الأفكار دُون غَايته .

ولـمّا كان فلانٌ هو هذا البحرَ الذى أُشير إلىٰ تدفُّقه، والبدْرَ الذى أُومِئَ إلىٰ كمال ما تألّق به من أُفُقِه؛ وكانت وكالَة بيْتِ المـال المعمورِ بحلَب المحروسةِ من المناصب التى لايتعيّنُ لها إلا من تُعقَدُ الخناصر عليه، ويُشارُ ببنَانِ الاختصاص إليه، ويُقْطَعُ

بجميل نُهوضِــه فيما يُوضَع من المصالح الإســلامية بيَدَيْه ؛ وله فى مباشرتها سَوابِق ، وآثارٌ [إن] لم تَصِفْها ألسِنَةُ الأقلام أوْحتْ بها تلك الأحْوالُ الحالِيةُ وهى نَواطِق — اقتضتْ آراؤُنا الشريفــةُ إنْعام النَّظَر فى الإنعام عليــه بمكانٍ ألِفَه ، ومَنْصِبٍ رَفَع ما أسْلفه فيه من جميل السِّيرة قدرَه عندنا وأزْلَفَه .

فرسم بالأمر الشريف — لازال بَابُه ثِمالَ الآمال ، وأُفُقَ السَّعْد الذى لو أمَّهُ البَدْرُ لَمَـا فارق رُتَبَ الكمال — أنْ يفوَّض إليه كذا : لمـا ذكر من أسْبابٍ عَيَّنَتْه ، وفَضائِلَ تزيَّنَتْ به كما زَيَّنَتَه ، وفوائدَ تقاضَتْ له نُزُلَ الكرمْة ، واقتضتْ له موادَّ الإحسان ومواردَه فى السُّرىٰ والإقامَه .

فلْيَلِ هذه الرتبــةَ التى علىٰ مِثْله من الأئمَّة مَدَارُ أمْرِها ، وبمِثْل قُوَّته فى مصالحها يتَضاعَفُ دَرُّ احْتِلابِهــا ويترادفُ احتــلاب دَرِّها ؛ مُراعِياً حقوقَ الأُمَّة فيما جرّه الإرْثُ الشرعىّ إليهم ، مُناقِشًا عن المسلمين فيما قَصَره مذْهبُه المُذْهَبُ من الحقوق المَـالِيَّة عليهــم ؛ وَاقِفًا بالحقّ فيما يثْبُت بطَرِيقِه المُعْتَبر ، تابِعًا لحكْم الله فيما يختلف سبيله [و]فيما يحرّر بالعِيان أو يُحقَّقُ بالخَبَر ، مُحافِظًا علىٰ مايئُول إلىٰ بيْتِ المال بلُطْف تَدْقيقه ، وحُسْن تَحْقِيقه ، وقَبولِ الدَّافِع بوجْهه ودَفْعِــه بطَرِيقِه ؛ ولا يمْنَعُ الحقّ إذا ثبت بشروطه التى أعذر فيها ، ولا يَدْفَع الواجب إذا تعيَّن بأسْبابِه التى يتقاضاها الشَّرْعُ الشَّرِيفُ ويقْتَضِيهـا ؛ وهو الوكيل عن الأُمَّة فيما لهم وعليهــم ، ومتولِّى المدافَعــة عنهم فيما يُقرُّه الشرعُ فى يَدَيْهِم ؛ فلْيُؤَدِّ عنهم أمانَةَ دِينِــه ، ويجْتهِدْ لهم فيما وضعناه من أمْر هذه الوكالة الشريفة بيَمِينه ؛ ومِلاكُ هذا الأمْر الوقوفُ مع الحقِّ الجلىّ ، والتَّمسُّكُ بالتَّقوى التى تظهر بها قُوَّةُ الأمِين وأمانةُ القَوِىّ ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه ويسـدِّده .

قلتُ : وفى معنى ما تقدّم من قَطْع الورق والألقـاب الحسبةُ ، ونظرُ الأوقاف الكِبَار، وخَطابَةُ الجوامع الجليـلة ، وكِبارُ التَّدَارِيس ، وما يجرى مجرى ذلك : إذا كُتِب به من الأبواب السُّلطانيـة . وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك جميعـه عن نائب السَّلطنة بها .

الطبقـــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة «بالسامى» بغير ياء ، أو «بمجلس القاضى»)

قال فى "التثقيف" : وهم مَن عَدا القضاة الأربعة من [أرباب] الوظائف الدينية . فيدخلُ فى ذلك قَضاءُ العَسْكر ، وإفتاءُ دار العَدْل ، وما يجرى مجرى ذلك ، حيثُ كُتِب من الأبواب السلطانية .

الصـــنف الثـالث

(من أرباب الوظائف بحَلَب ـ أرباب الوظائف الديوانية ،

وهـــم على طبقتيـــن)

الطبقـــة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء . وتشتمل على وظائف)

منها ـ كتابة السرّ . ويعبّر عنها فى دِيوَانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ـ بصاحب دِيوان المُكاتَبات ، ورُبّما قيلَ : صاحبُ ديوان الرسائل . قال فى "التثقيف" . ورُبّما كُتب له فى قَطْع النّصف .

وهذه نسخة تَوْقيع شريف من ذلك، وهي :

الحمـدُ لله الذى زان الدَّوْلةَ القاهرةَ، بمَن تغدُو أسْرارُها من أمانَتِـه فى قَرارٍ مَكين، وحلَّىٰ أيَّامنا الزاهرةَ، بمن تَبْدُو مَراسِمُها من بلاغَتِه فى عِقْد ثمِين ، ويُجَمِّـل الكُتب السائرة، بمَن إذا وَشَّتْها بَراعتُه وبَراعتُه قيل : هذا هو السِّحْر البَيانِىُّ إن لم يكن سِحْرٌ مبِين .

نحمـدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت الأسْرار الشريفة بمن لم يَرِثها عن كَلالَه ، ونَصَّتْ فى تَرَقِّى مناصبِ التَّنفيـذِ علىٰ من يَسْـتَحِقُّها بأصالَةِ الرَّأْيِ وقِدَمِ الأصَالَه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رقَمَ الإخْلاصُ طُروسَها، وسَقَى الإيمـانُ غُروسَها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى آتاه جَوامِعَ الكَلِم ، ولَوامِعَ الهُدىٰ والحِكَم ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِــه الذين كَتَبَ فى قلوبهم الإيمـانَ ، وكَبَتَ بهم أهلَ الطُّغْيان ، صلاةً يشْفَعُها التَّسلِيم، ويَتْبَعُها التَّعظِيم ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ أوْلىٰ الرُّتبِ بارتيادِ مَن تُعْقَدُ علىٰ أوْلَوِيَّتِـهِ الخَناصِر ، ويُعْتمدُ علىٰ أصالَتِه التى ما بَرِحَتْ فى الاتِّصال والاتِّصاف بها ثَابِتَةَ الأواصِر ، ويعتَقَدُ فى أمانَتِه التى تأْوِى بها الأسْرارُ إلىٰ «صَخْرةٍ أعْيا الرِّجالَ انْصداعُها» ويعتَضَدُ بفضائله التى يَقِلُّ فى كثيرٍ من الأكْفاءِ اجْتِماعُها ، ويعوَّلُ فيها علىٰ بَلاغَتِه ، التى أعْطتْ كلَّ مقامٍ حقَّه مَن الإطْنابِ والإيجاز ، ويرجَعُ فيها إلىٰ بَدِيهَتِه ، التى جَرَتْ بها سوابِقُ المعالى إلىٰ غاية الحَقِيقَةِ فى مِضْمارِ المَجاز ـ رُتْبَـةٌ هى خِزانةُ سِرِّنا ، وكِنَانَةُ نَهْيِنا وأمْرِنا ؛ فلا يتعـينُ لبلوغها إلَّا مَن ومَن ، ولا يعين لتَلَقِّيها وتَرَقِّيها إلَّا أفراد قلَّ أنْ يكثُرَ مِثلُهم فى زَمَن ؛ ولا يَحْسُنُ أنْ تكونَ إلَّا فى بَيْتٍ عرِيقٍ فى أنْسابها ، وَثِيقٍ فى تَمَكُّنِ عُرَا أسْبابها ، علمٍ بقواعدها التى إذا اشْتبهت طُرُقُ آدابِها كان أدْرَىٰ بها .

ولما كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ أسباب تعيُّنه لهذه الرُّتبة وتعيينِه ، وفُتِحتْ أبواب أَوْلَوِيَّتِه بتَلَقِّى رايةِ هذا المنصب بيَمِينه ؛ مع أدواتٍ كَمَّلتْ مفاخِرَه، وصفاتٍ جَمَّلت مآثره؛ وكتابةٍ ،إذا جادت أنواؤُها أرضَ طِرْسٍ أخذت زُخْرُفَها، وإذا حاذَتْ أنوارُها وجْهَ سماءٍ وَدَّتِ الدَّرارِيُّ لو حكتْ أحْرُفَها ؛ وبلاغةٍ، إن أطْرتْ بوَصْفِ أغارَت القَرائِد، وأعارَت دُرَرَها القَلائِد، وأتت من رِقَّة المعانِى بما هو أحسنُ من دُموعِ التَّصابِى فى خُدودِ الخرائِد؛ وإن أغْرَتْ بعَدُوٍّ أعانتْ علىٰ مَقَاتِلِه السُّيوف، ودَلَّتْ علىٰ مَكامِنِه الحُتوف ؛ ودِيانةٍ ، رفعَتْه عند الله وعندنا إلىٰ المكان الأسْنىٰ ، وصيانةٍ ، جمعتْ له من آلائنا وآعْتِنائنا بين الزِّيادة والحُسْنىٰ ؛ وأمانةٍ ، أغنَتْه بجَوْهرِ وصْفِها الأعْلىٰ عن التَّعرُّض إلى العَرَضِ الأدْنىٰ ، وبَراعَةٍ ، آعْتضَدَ بها يَراعُه فى بُلُوغ المقاصد آعْتِضادَ الرِّقْص بالمَغْنىٰ .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف أن يفوَّض إليـه كذا فلْيُبْشِر بتَلَقِّى هذا الإحسان، بيـد الاسْتحْقاق ، وليَتَلَقَّ عقودَ هذا الآمتنان، الذى طالما قلَّد فَخْرَه الأعْناق؛ وليُباشِر ذلك مباشَرةً يسرُّ خَبَرُها ويَسْرِى خَبَرُها ، ويَشْنُف الأسْماعَ تأثيرُها وأثَرُها ؛ وليَسْلُكْ فيها من السَّدادِ، ما يُؤَكِّد حَمْدَه، ومن حسن الآعْتماد، ما يُؤَيِّد سَعْدَه ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها خَبيرٌ عليم ، حائزٌ منها أوفَرَ الأجْزاء وأوْفى التَّقْسيم[1] ؛ وملاكُها تَقْوَى الله فلْيجْعلْها عُمْدَته، وليتَّخذْها فى كلِّ الأُمور ذخيرته ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له من لدُنَّا إحسانا ، ويرفع له قَدْرًا وشانا ؛ والآعْتماد فى ذلك علىٰ الخطِّ الشَّريف أعلاه اللهُ تعالىٰ أعْلاه .

ومنها ــ نظر المملكة الحلبيَّة القائم مقام الوزير .

---

(١) فى الاصل : وأوفى التقصير، ولا معنى له .

وهــذه نسخةُ توقيعٍ من ذلك : كُتب به لعماد الدّين «سعيد بن ريان» بالعَوْد إليها ، وهى :

الحمدُ لله رافعِ قَدْرِ مَن جعل عليه آعتمادا ، ومُجدِّدِ سَعدِ مَن غدا فى كُلِّ مايُعْدَقُ به من قواعد النَّظرِ الحَسَنِ عِمادًا ، ومُسَنِّى حَمْدِ مَن تكفَّل له جميلُ التّصرُّف أن لا تُبْعِدَ الأيامُ عليـه مُرادا ، ومُجزِلِ مَوادِّ النِّعم لمَن إذا آستمْطر قلمـه فى المصالح همىٰ فافتنَّ أفنانًا وأينع تثميرًا وأثمر سَدادا ، وإذا أيقظ نظَرَه فى مُلاحظَة الأعمال آستجلىَٰ وجُوهَ المصالح آنتقاءً لِمَا خَفِى منها وآنتقادا .

نحمَده علىٰ نِعَمِه التى لا تزالُ النِّعمُ بها مُجدَّدَة ، والقواعدُ مُوَطَّدة ، والكرمُ مُعادا ؛ وآلائه التى جعل لهــا الشُّـكْرَ آزديادا علىٰ الأبَد وآزديادا ؛ ومِنَنِه التى لا يقومُ بهــا ولا بأداءِ فَرْضها الحمْــدُ ولو أنَّ ما فى الأرض مِنْ شَجَرةٍ أقلامٌ أو كان البَحْرُ مِدَادا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهــادةً لا تألُو هِمَمُنا آجتهادا فى إعلاءِ منارِها وجِهادا ، ولا تكْبُو جيادُ عَزائِمِنا ، دُون أن تُسكِنَها من الجاحدين قُلوبًا وتُجرِىَ بها من المنكرين ألسنَةً وتُقلِّدَها من المشركين أجيادا ، ولا تَنْبُو صَوارمُنا ، حتّى تتّخِذَ لهــا من وَرِيدِ كلِّ مُعانِدٍ مَوْرِدًا ومن قِمَمِ كلِّ ناكِثٍ أغمادا ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبــدُه ورسوله الذى أسرى اللهُ به إليه فبلغ فى الآرتقاء سَــبْعا شِدَادا ، وأنزل عليه أشرفَ كُتُبِه بيانًا وأعْجَزها آيةً وأوْضَحها إرْشادا ، وبعثَه إلىٰ الأحْمر والأسْـوَد فسَعِد من سَعِد به إيمَــانًا وشَقِىَ من شَقِىَ به عِنادا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين لم يألَفُوا فى طاعة الله وطاعتــه مِهادا ، صلاةً لا تستطيعُ لهــا الدّهورُ نَفَادا ، ولا تَمَلُّها الأسْماعُ تَعْدادًا وتَرْدادا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإن أولىٰ من سَمَا به منصبُه الذى عُرِف بهتقديما، وزُهِيَتْ به رتبتُه، التى لم يزلْ فيها لاقتناء الشكر مُستديمـا ؛ وتحلّتْ به وظيفتُه، التى لم يبرحْ يلبَس بها ثوبَ الثناء قشيباً ويجرُّ بها رداءَ السعد رقيما، وتقاضتْ له عوارفَنا معارفُه التى لم يزلْ عقدُها فى جيد المراتب السَّنِيَّة نظيما ؛ وتطلّع إليـه مكانُه فكأنّه بقدَم هجرته لم يبرحْ فيه وإن بعُدَ عنه مُقيما ـ من لم يزلْ قلمُه بصَرْفه فى أسنىٰ ممـالكنا الشَّريفـة كاسْمِه سَعيدا، وطَرْف نَظرِه فيما يَليـه من المناصب السَّنِيَّة يريه من المصالح ما كان غائبـا ويُدْنِى إليـه من أسباب التدبير ما كان بعيدا ؛ فمـا أعمل فى مصالح الدولة القاهرة قلمَـا إلا وأقبلتْ نحوَه وجوهُ الأموال سافِرَه ، ولا لحَظَ فى مُهِمّات وظائفها أمرًا إلّا وعاوَدَتْه أسـبابُ التثمير النافِرَه ، ولا آعترض[(1)] قلمُـه بنُطْقه وفكْرِه إلّا وعَقدت الثلاثةُ علىٰ كلّ مافيه عِمارةُ ما يُفَوَّضُ إليه من الأعمال مُتضافِرَه ؛ وذلك لِمَـا اجتمع فيـه من عِفّة نَفْسه وكمال معرفته وطهارة يَراعِه ، وآتّصفَ به من حسن اضْطِلاعِه وجميـل آطّلاعه ، وجُبِلَتْ عليه طباعُه من نَزاهَةٍ زانت خِبْرَته ومَنْ يُنقَلُ مشكورا عن طباعه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى حَنَّت إليـه رُتبته وتلَفَّت إليه مَنْصِبُه ودَعَتْه وظيفتُه النّفيسـةُ إلىٰ نَفْسها ، وآعتذرتْ بإقبالها إليه فى يَوْمِها عن نُشُوزها عنه فى أمْسِها ، وآشتاقَتْ إلى التحلّي بفضائله التى لم تزلْ تزْهَىٰ بما أَلِفَته منها علىٰ نُظَرائها من جِنْسِها ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُجمِّل لها عادتها ونُجدِّدَ له من الإحسان بمباشرتها السّعيدة إعادَتَه ، ونُعيدَ إليه بمباشرة نَظرِه الجميل مَسَرّته التى أَلِفَها وسعادَتَه .

فلذلك رسم ... ـ لا زال برُّه لعماد الدِّين رافعا ، وأمْره بالإحسان شافعا ـ أنْ يفوَّضَ إليه نظر المملكة الحلبيّة علىٰ عادة من تقدّمه .

---

(١) لعله : "آعتضد" .

فليباشر هذه المملكة التي هي من أشهر ممالكنا سُمعه ، وأيمنها بُقعه ، وأحسنها بلادا ، وأخصبها رُبًا ووهادًا ، وأكثرها حصونا شواهق ، وقلاعا [سوامى](١) سوامق ، وثغورًا لا تَشيمُ ما أفترَّ منها البروقُ الخوافق ، مباشرةً تزيد مصالحها علىٰ ما عرفته ، وتُربيها من خِبْرته فوق ما ألِفته ، وتدلُّ علىٰ ما فيه من كفاءة هذَّبتها التجارب ، وهدَتها الأنوارُ الثَّواقب : وصرفتها الأفكارُ المطَّلعة على الطوالع من المغارب ، وسدَّدها إلى الأغراض الجميلة الخُلُوُّ من الأغراض ، ووقَّفها علىٰ جواهر الصَّواب عدمُ اعتراض النَّظر إلى الأعراض ، وأراها التَّوفيقُ ما تأتى من وجوه التدبير وما تَذَر ، وعرَّفتها المعرفةُ الاحتراسَ من مخالفة الصَّواب فما تزالُ من ذٰلك علىٰ حَذَر ، وفتحتْ لها الدُّرْبَةُ أبوابَ التَّثمير فما لحظت أمْرًا من الأُمور الديوانية إلا وبدت البِدَر ؛ ولتكن النعم المصونةُ المقدَّم لديه ، والنظرُ في مصالح القِلاع المحروسة هو الغرَضَ المنصُوصَ عليه ؛ فليُضاعف ذخائرها ، ويتفقَّد مواردَ أمورها ومَصادِرَها ؛ وفي معرفته بقواعد هذه الوظيفة ما يُغني عن الوصايا ، لكن ملاكُها تقوى الله ، فليجعَلْها نجيَّ نَفْسه ، وسمير أُنْسه ؛ والخط الشريف ... ...

***

ومنها ـ نظر الجيش بها .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش بالمملكة الحلبيَّة ، وهي :

الحمدُ لله الذي جعل أُفُقَ السعادة بطلوع شمسه منيرا ، وأقرَّ في رُتَبِ العَلْياء مَن يغدُو ناظِرُها بحسْنِ نَظَرِه قريرا ، وحلَّىٰ مفارِقَ المناصب السَّنِيَّة بصَدْرٍ إذا تعالَىٰ

---

(١) الزيادة مما يأتي بعد نحو عشر صفحات .

اللسانُ فى وَصْفه كان بَنَانُ البيانِ إليه مُشيرا ، واَختار لأمصارِ ممالكنا الشريفة من إذا فُوِّض إليه نظَرُها كان بنِسْبَتِه إلىٰ الإبْصار حَقيقًا به وجَدِيرا .

نحمدُه وهو المحمود، ونشكُره شكرًا مُشْرِقَ السُّعود، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عذْبةَ الوُرود ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أصْحت به شيوخٌ من الإسلام منْشُورة البُنُود ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أَوْرق عُود ، وأُولِجَ نهارُ السيوف فى لَيْلِ الغُمُود، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإن الله تعالىٰ لمــا خصَّ كُلَّ مملكةٍ من ممالكنا الشريفة بكَثْرة الجُيُوش والأنصار ، وجعَل جُيُوشَنا وعساكِرَنا تُكاثِرُ عددَ النُّجومِ فى كلِّ مِصْرٍ من الأمْصار، وكانت المملكةُ الشريفةُ الحلبيَّةُ هى ركْنٌ من أرْكان الإســلام شَديد، وذُخْرٌ مادعاهم دَاعٍ إلّا ولبَّــاه منهم عَدَدٌ عَديد ـ وجب أن يُختارَ للنَّظر عليها من الأكْفاء من سَمَا فى الرآسة أصْلُه وزَكا فَرْعُه ، فاستحقَّ بمــا فيه من المعرفة تمْييزَ قَدْره ورَفْعه ، وفَاقَ فى فَضْل السِّيادَةِ أبْناءَ جِنْسِه ، وأشْرقتْ أفْلاكُ المعالى بطُلُوع شَمْسه ، وأقَرَّ [بنظره] نظرَ الجيوشِ المنصوره، وسارت الأمْثِلَةُ بما اتُّفِق عليه [فيه] من حُسْنِ خِبْرة وخيَره ، وكان فلان هو الذى طلع فى أُفُق هذا الثَّناء شَمْسًا مُنيره ، واَختبر بالكِفايَة والدِّرايَة واَختِير لهذا المَنْصِب علىٰ بَصِــيَره ، وهو الذى له من جميــلِ المباشرة فى المناصب السَّنية ما هو كالشَّمْس لا يَخْفىٰ والذى أحْســن النَّظرَ فى الأوْقاف المبْرورَة حتَّى تمَنَّىٰ كلُّ منصبٍ جليلٍ أن يكونَ عليــه وقْفا ، وهو الذى حَوىٰ من الفضائلِ ما لا يُوجَدُ له نَظيرٌ ولا شَبيه ، والذى سمــا إلىٰ رتبة من المعالى رَفيعةٍ وكانـ ذا الجَــدِّ النَّبيه والأب النبيه .

فلذلك رُسم ... ... ـ لا زالَ يُقِرُّ الناظر بجُوده ، ويُحسِنُ النظر فى أمر جُيُوشه وجُنوده ـ أن يفوّض إليه كذا : علماً بأنه أحقُّ بذلك وأولىٰ ، وأنَّ كفايتَه لا يُستثنى فيها بإلّا ولا بلَوْلا ، وأنَّ السَّدادَ مقترنٌ بحسن تَصْريفه ، وعلْمَه قد أغنىٰ عن تعليمه بمواقع التَّسْديد وتَوْقيفه .

فليباشِرْ ذلك بصدْرٍ مُنْشرِح ، وأملٍ مُنْفَسِح ، عاملًا بالسُّنة من تقوى الله تعالىٰ والفَرْض ، عالمًا بأنّا عند وُصُولنا إلى البلاد نَأْمُر بعَرْض الجيوش : فليَعْمَل علىٰ مايُبَيِّضُ وجْهَه يوم العَرْض ، وليُلْزِمْ عِدَّةً من المباشرين بعَمَل مايلزمُهم من التَّفْريع والتَّأْصيل ، والتَّجْريد والتَّنْزيل ، وتَحْريرِ الأمْثلة والمقابلة عليها ، وسُلُوكِ الطَّريق المُسْتقيم التى لا يتطرَّقُ الذَّمُّ إليها ، والملاحظةِ لأُمُور الجيوش المنصورة فى قَليل الإقطاعات وكَثيرها ، وجَليلِها وحَقيرها ، بحيثُ يكون علْمُه محيطًا بذلك إحاطَةَ اللَّيل ، ويشْتَرِطُ علىٰ من يتعيَّن تنزيلُه ما آستطاع من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، ويقابِلُ الأُمورَ المضطرِبَةَ بالإضْراب ، ويسلكُ أحسنَ المسالك فى سَيْرِه وسِيرَته : فإنّنا فوّضْنا إليه الجيوشَ المنصورةَ من جُنْد المملكة الحَلَبيَّة ومن أهْل المدينَة ومَن حَوْلهم من الأعْراب . والوَصايا كثيرةٌ وإن كثُرتْ فعِلْمُها عنده ، وقد ضُرِب له منها مَثَلٌ فليَكُنْ علىٰ سياقَتِه فيما لم يُذْكر فى العِدّه ، وأهمُّ الأُمور أنْ يتمسكَ من خَشْيةِ الله بالسَّبَب الأقْوىٰ ، ويجعلَ تقْوَى الله عمادَه فى كلِّ الأمور : فإنَّ خيرَ الزَّاد التَّقْوىٰ ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه حجةٌ فيه .

الطبقــــة الثـانية

من يكتب له من أهْل المملكة الحَلبيَّة فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رسم» إمَّا مع «مجْلِس القاضى» أو مع «القاضِى الأجَلّ» ككُتَّاب الدَّرج ومن فى رُتْبتهم ، إن كُتب

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . و إلّا فالغالبُ آستبدادُ نائب السَّلْطنة بها بالكتابة في ذلك . فإن كُتب شَيءٌ منها من الأبواب السلطانية، فلْيمش فيه علىٰ نحو ما تقدّم في الديار المصرية والمملكة الشامية التى قاعدتُها دِمشق .

النــــــوع الثـانى

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية ـ من هو خارجٌ عن حاضرتهـا ، وهم علىٰ أصناف)

الصــــنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وهم غالبُ مَن يكتب لهم عن الأبْواب السُّلْطانية)

وقد تقدّم أنّ العادةَ جاريةٌ بتَسْمية مايُكْتب لمن دون أرْباب النيابات العظام: من دمَشْق، وحلَب، وطَرَابُلُس ، وحَماة ، وصَفَد ، وغَزّة ، والكَرَك ـ مراسيم . وأنّ التقاليدَ مختصــةٌ بالنّوّاب العظام المقدّم ذكرهم . ولا يخفىٰ أنّ النياباتِ الدّاخلةَ في المملـكة الحلَبِّية : ممـا هو تحت أمر نائب السّـلْطنة بحلَب أكثر من كل سائر الممـالك الشامية .

وبالجُمـلة فأمْرهم لا يخرُج عن ثلاثة أضْرب : إما مُقَـدّم ألف ، كنائب البِيرَة ، ونائب قَلْعـة الرُّوم المعبرِ عنها في ديوان الإنشاء بقَلْعة المسـلمين ، ونائب مَلَطْيَة ، ونائب طَرَسُوس ، ونائب البُلُسْتَين ، ونائب البهَسْنَىٰ ، ونائب آياس المعبّر عنها بالفتوحات الجاهانية . وإمّا طبلخاناه، كنائب جعبر، ونائب دَرَنْدة ونحوهما . وإما أمير عشرة ، كنائب عين تاب ، ونائب الرّاوَنْدان ، ونائب كَرْكَر، ونائب بَغْـراس، ونائب الشُّغْر وبَكَاس ، ونائب الدّرْبَساك، ونائب سرفَنْـدكار، ومن فى معناهم .

وقد تقدّم فى الكلام على المكاتبات نقلًا عن "التثقيف" : أنّ هؤلاء النوّاب تختلف أحوالهم فى الارتفاع والانحطاط : فتارةً تكون عادةُ تلك النيابة أميرَطبلخاناه، ثم يولّى فيها عشرةٌ وبالعكس . وقد تكون عادتُها طبلخاناه فيستقرّ بها مقدّمُ ألف وبالعكس . والضابط فى ذلك أنّ من يُكتب له المرسوم : إن كان مقدّمَ ألف، كُتِب مرسومُه فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كُتب له مرسومُه فى قَطْع النصف أيضا بـ«السامىّ» بالياء . وإن كان أميرَ عشرةٍ كُتِب مرسومُه فى قَطْع الثلث . فأمّا ما يُكتَب فى قطع النّصف، فإنّه يفتتح بـ«الحمد لله» سواء كان صاحبُه مقدّمَ ألف أو أميرَ طبلخاناه .

* * *

وهذه نسخة مرسومٍ شريف بنيابة آياس، وهى المعبَّر عنها بالفُتوحات الجاهانيّة، يستضاء بها فى ذلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل من أولياءِ دَوْلتنا الشّريفة كلَّ سيفٍ لا تنْبو مَضارِبُه ، واصطفى لبوادر الفُتوحات من أنصارنا من تُحمَدُ آراؤه وتجاربُه ، وألهمنا حسْنَ الاختيار لمن تؤمَن فى المحافظة مآربُه ، وتعذُبُ فى المخالطة مَشَارِبُه ، وحقّق آمالَنا فى مضاعفة الفَتْح التى أغْنَى الرُّعْبُ فيها عما تُدافِعُه سيوف الإسلام وتُحاربُه .

نحمدُه حمدًا يضاعِفُ لنا فى التّأييد تمكينا، ونشكُره شكرًا يستدعى أن يزيدنا من فضله نَصْرا عزيزًا وفتحًا مُبِينا ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُخلِصُ فيها يقينًا من المخاوف يقِينا ، ونَرِدُ من نَهَلها مَعِينا ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بالملائكة والرُّوح، وزَوَى له الأرضَ فرأى مشارِقَها ومَغارِبَها ونرْجو أنْ يكونَ ما زَواهُ له مُدّخَرًا لنا من الفُتوح؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه

الذين هم خيرُ أمّة أُخرِجتْ للإسلام ، والذين ما زال الإيمانُ بهم مرفوعَ الألوية والأعلام ، والذين لم يبرحْ داعى الضّلالة تحتَ قهر سيوفهم : فإذا أغفَى «جرَّت عليه سيوفَها الأحلام» ؛ صلاةً يطيب اللّسانُ منها فيُطرِب ، ويُعرِب عن صدق الإخلاص فى تكرارها فيُغرِب ؛ وسلّمَ تسليماً .

أمّا بعدُ ، فإنّ أولى من تستندُ أمورُ الممالك لعزمته ، ويُلْقَى أمرُ بوادرِ الفتوحات السّعيدة لهمّته ، ويُعتمَدُ فى تدبير أحوال البلاد والعباد على يُمْنِ تصرّفه وممتدّ نهضته ــ مَن لم يزلْ معروفاً سدادُ رأيه ، مشكوراً فى الخدمة الشريفة حُسْنُ سعيه ؛ مؤيّداً [فى] عزمه ، مظفرا فى حزمه ؛ مأمونَ التّأثير ، ميمون التـدبير ، كافياً فى المهمات ، كافلاً بعلوّ الهمّات ، إذا همّ ألقَى بين عينيه [صادق] عزْمه ، وإذا اعتُمد عليه فى مُهمّ تلقّاه بهمّته وحزمه ؛ وإذا جُرّدَ كان هو السّيفَ اسمًا وفعلا ، وإذا دارتْ رحَى الحَربِ الزَّبُون فهو الشهمُ الذى لا يخافُ سهمًا ولا يرهبُ نَصْلا .

ولمـا كان (١) هو بدْرَ هذا الأفُق ، ومُقلَّدَ هذا العِقْد ولا يصلُح هـذا الطّوق إلا لهـذا العُنُق ؛ وهو الذى فاق الأوليـاءَ اهتماما ، وراقَ العُيونَ تقدّمًا وإقداما ؛ وأرضَى القلوبَ نُصحًا ووفَاء ، وأنضَى الهِممَ احتفالا للصالح واحتِفاء ؛ طالمـا جُرِّبَ فحُمِد عند التجارب ، وجُرِّدَ فأغنَى عن القواضب ؛ واختُبِر فاختِير ، ونُظر فى خصائِصه فلم يُوجَدْ له نظير ــ اقتضَى حسنُ الرّأي الشريف أن نقـلّده فتوحات أنقـذها الله تعـالى من شَرَك الشِّرْك ، وأخرجها إلى النّور بعد ظلام الإفْك ؛ وبشّرها أنّ هـذه سحـابةُ نَصْر يأتى وابلُه إن شاء الله تعـالى بعد رَذَاذه ، وأنّها مقدَمةُ سَعْد تتلو قولَه تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

---

(١) بياض بالأصل والمراد المولى باسمه ولقبه .

فلذلك رُسم ... ... ـ لا زال الفتح فى دولته يَزْهو بانتظام سلكه، وأيامُه الشريفةُ تستردّ مغتَصَبَ البلاد من يد الكفر إلىٰ بَسْطَة مُلْكه وقبضة مِلْكه، وإحسانُه يحمى الحصونَ بسَيْف يُرَوِّعُ العدا ببأسه وفَتْكه ـ أن يُفوَّض ... ... اعتمادًا علىٰ مَضَائه الذى لا ينكر مثله للسَّيف، وركونًا إلىٰ همَّته التى تَسْرى برُعْبها إلىٰ قلوب الأعداء سُرَى الطَّيْف.

فليباشِرْ النيابةَ المذكورة : مُعْمِلًا رأيَه فى تمهيد أحوالها، وتقرير أمورها التى رَاقَ الأولياءَ وراعَ الأعداءَ ما كان من مآلها ؛ مُجتَهِدًا فى حفظ ما بها من القلاع والحُصون، مُبادِرًا [إلى] كلِّ ما يَحْمِى حِماها ويَصُون ؛ قائمًا حقَّ القيام فى مصالح تقريرها، وأحوال تحريرها ؛ وأمور تُمهِّدُها، ومنافِعَ تُشَيِّدُها ؛ وحواصِلَ تَكْفيها، وأسباب مصْلَحةٍ تُوافيها بمزيد الاهتمام وتُوَفِّيها ؛ وليكنْ بأحكام الشَّرع الشريف مقتَديا، وبنُور العَدْل والاحسان مهْتَديا ؛ وبتقوَى الله عزَّ وجلَّ مُتمَسِّكا، وبخَشْيَة الله مُتنَسِّكا ؛ وهو يعلم أنَّ هذه الفتوحات [قَذًى] فى حدَقة العَدُوِّ المخذول وشَجًا فى حُلُوقهم، وغِلَّةً فى صُدورهم وحَسْرَةً فى قُلوبهم .

فليكن دأبُه الاجتهادَ الذى ليس معه قَرار، والتَّحرُّزَ الذى يحلِّيها أو يحْميها فيكونُ عليها بمنزلة سُورٍ أو سِوَار ؛ ويُصَفِّحُها من عَزْمه بالصِّفاح، ويجعلُ عليها من شُرُفات حَزْمه ما يكون أحدَّ من أسنَّة الرِّماح ؛ ثم لا يزالُ احتياطُه محيطًا بها من كلِّ جانب، وتيقُّظُه لأحوالها بمنزلة عَيْنِ مُرَاقِب، واحتفالُه الاحتفالَ الذى بمثله يُصانُ رداؤُها من كلِّ جاذِب ؛ ثم لا تزالُ قُصَّادُه وكُشَّافُه وطَلائعُه لا يقرَبهم السُّرىٰ، ولا يعرِفُون طَعْمَ الكَرىٰ يطَّلِعون من أخبار العدا علىٰ حقائقها، وتحيلُ كلُّ فرقَة منهم على معرفة الأحوال بينهم بمكرٍ من تعدُّد طُرُقها واتِّساع طرائقها، لتكونَ المتجَدِّداتُ عنده بمنزلة مايراه

فى مِرْآة نَظَره، وسرُّ أمور العِدا لَديه قبلَ أنْ يشيع بينهم ذِكْرُ خَبَره، والوصايا كثيرةٌ وهو بحمد الله لا يحتاج مع معرفته إلىٰ تَبْصِرَه، ولا يفتقرُ مع حسن بصيرته إلىٰ تَذْكِرَه، والله تعالىٰ يتولّاه، ويُعينُه علىٰ ما وَلّاه، بعد الخطّ الشريف أعلاه .

وأما من يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«ـمجلس الأمير» وهم العشرات [فقد ذكر فى "التعريف" : أنَّه يكتب لهم من الأبواب السلطانية علىٰ ذلك .

قلت : وقد تقدّم فى الطبقة السابعة أنَّ الكَخْتا، وكَرْكَر، والدَّرْبَساك، قد تكون عشرةً أيضا . وفى معنىٰ ذلك نيابة عين تاب ، والراوَنْدان ، والقُصَير ، والشُّغْر وبَكَاس، إذا كانت عشرة . ونيابة دَبْرَكى إذا كانت عشرة] (١) فيفتتحَ فيها بـ«أما بعد حمد الله» علىٰ عادة ما يُكتب للعشرات .

* * *

وهذه نسخةُ مرسومٍ شريف من هذه الرتبة، كُتب به لنائب حَجَر شُغْلان من معاملة حَلَب ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى شيَّد المعاقلَ الإسلامية بأكْفائها، وصان الحُصونَ المحروسةَ بمن شُكِرتْ هِمَّتُه فى إعادتها وإبدائها، وحَمَىٰ سَرْحَها بمن أيقظ [فى] الخدْمة الشَّريفة عيونَ عَزْمِه فما ألمت بعد إيقاظه بإغفائها، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى انتضىٰ سيوفَ التأييد فأعزَّتِ الهدىٰ وأذلَّتِ العِدا حين انتضائها ، وعلىٰ آله وصحبه ما بَدَت النجومُ فى ظَلْمائها ، وسرتْ الغيوم فى فَضائها - فانَّ من شُكِرت هِمَمُه، وثَبَتتْ فى الطاعة الشريفة قَدَمُه، وأشبه عَزْمُه فى مَضَائه صَارِمَه، وأضحتْ

(١) ما بين القوسين المربعين [ ] وجد ملحقا بهامش نسخة ومؤشرا عليها بالتصحيح فأثبتناه فى الصلب عملا بتلك الاشارة .

نُفُور تقديمه باسمه، أولىٰ بأنْ ترفعَ هذه الدولةُ الشريفةُ من محلّه، وتنشُر عليه [من] كريمها وارفَ ظِلّه؛ وترتضيه لقلاع الإسلام وتشييدها، وتجتبيه لصَونها وتأييدها، وتجعلُه قُرّة عينها وحِليةَ جِيدها؛ وتُمضي كلمتَه في مصالحها، وتُعدق به أسباب مَناجحها؛ فيُصبِحُ ولقدره منّا إعلاءٌ وإعلان، ويُمسي وله شُغْلٌ بطاعتنا العالية الشّان؛ وشغل بالمَعقِل الذي يُحرَز بعزمه ويُصان، فلأجْلِ ذلك غدا وله من هذه النيابة على الحقيقة شُغلان .

وكان [فلان] هو الذي جادَتْ عليه دَوْلَتُنا الزاهرةُ بسحائبها، وأشرقَتْ علىٰ حظوظه سُعودُ كواكبها؛ وأسْمتْ له قَدْرا، وجعلت له إمْرةً وأمْرا؛ وصرَفَته إلىٰ نيابةَ مَعْقِلٍ معدودٍ من قلاع الممالك الإسلامية وحُصُونِها، ومَعاقِلِها التي علَتْ علًّا فالجبالُ الشُّمّ من دُونِها؛ قد أصْبح شاهقًا في مَبْناه، ممنعًا في مَغْناه؛ مُحَصّنًا برجاله، مَصُونًا من ماضِيَيْن: السَّيفِ في مَضَائه والعَزْم في آحتِفاله ـ آقتضىٰ حُسن الرأيِ الشريف أن نُوَقِّله رتبةَ هذه النيابه، ونَنْشُر عليه من إحساننا سَحابَه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال ... ... أن يستقر ... ...

فليحُلّ هذه النيابةَ المباركةَ مُظْهِراً من عَزْمه ما تُحمَد عَواقِبُه، وتَعْلُو مَراقِبُه؛ وتَسْمو مَراتِبُه، وتَتوضّحُ سُبُلُه ومَذاهبُه؛ مُحصِّنًا لسَرْحه، معزِّزًا موادَ نُجْحه؛ مُراعيًا(1) أحوالَ رجاله، المُعدِّين من حُماته وأبطاله؛ حتّى يَغْدُوا يَقِظين فيما يَنْدُبهم إليه ويَسْتَنْهِضُهم فيه، مبادِرين إلىٰ كل ما يَحْفَظُ هذا الحِصْنَ ويَحْمِيه؛ ومَن بهذا المَعْقِل من الرّعية فليَرْفُق بضُعَفائهم، وليُعامِلْهم بما يَسْتَجْلِب لنا به صالحَ دُعائهم؛ والوصايا كثيرةٌ وملاكُها التّقوىٰ، فليَتمسَّكْ بها في السِّرّ والنّجوىٰ؛ وليَغْرِسْها في كل

(1) في نسخة: مُرتقبا والمعنى واحد .

قول يُبْدِيه ، وفِعْل يرتَضِيه ، فإنّ غُروسَها لا تَذْوَىٰ . والله يوفقه لِصالح القَوْل والعَمَل ، ويصُونُه من الخَطَإ والخَطَل ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والحمدُ لله وحده .

قلتُ : وقد تقدّم أنّه لا يكتب عن السلطان مَرْسومٌ بنيابة فى قَطْع العادة ، لأنّ ذلك لا يكون إلا لجُنْدِىٍّ وهو دون ، ومثل ذلك إنما يُكْتب عن نوّاب الممالك .

الصنف الثانى

(ممّا هو خارجٌ عن حاضرة حَلَب ـ الوظائفُ الدِّينية بمعاملتها : من القِلاع وغيرها)

وهى فى الغالب إنّما تصدر الكتابةُ فيها عن نائب حَلَب أيْضا أو قاضيها ، إنْ كان مرجِعُ ذلك إليه . فإن صَدَر شىْءٌ منها عن الأبْواب السُّلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتَحًا بـ«رُسِم» .

وهذه نسخةُ توْقيعٍ من هٰذا النّمَط يُنْسج علىٰ مِنْواله ، كُتِب به لقاضى قلعة المسلمين ، وهى :

رُسِم بالأمْر الشريف ـ لا زال عَدْلُه مؤيّدًا للحُكّام ، ورأيُه مسدّدًا فى النّقْض والإبْرام ، وسُلْطانُه يختار للمناصب الدِّينية مَن نطقَتْ بشُكْرِه ألْسنةُ الأنَام ـ أن يستقرّ فى كذا : لِمَا اشْتَهر عنه من عِلْمٍ ودِين ، وظهر من حُسْنِ سيرةٍ اقتضتْ له التّعْيين .

فليباشر هذه الوظيفةَ المباركَةَ بالحقّ حاكما ، وللرِّفقِ مُلازِما ، وللتَّقوىٰ مداوما ؛ وهو غَنِيٌّ عن الإسهاب فى الوصايا ، مَلِيٌّ بسُلُوك تقوى الله فى القَضايا ، والله تعالىٰ يَزيدُه تأييدا ، ويضاعِفُ له بمَوَادِّ السعادة تجديدا ؛ والعلامةُ الشريفةُ أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الصــــنف الثـالث

(ممـا هو خارج عن حاضرة حَلَبَ ـ الوظائفُ الدِّيوانية)

وهى إنَّمـا تصدُرُ فى الغالب أيضا عن نائب حَلَب . فإن كُتب شىءٌ منهـا عن الأبواب السلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك ، يستضاءُ به فيما يُكْتَب من هذا النوع ، كُتب بها بنَظَر جَعْبَر ، من مُعاملة حَلَب ، وهى :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زال مُنْهِلَّ النَّدىٰ ، مُسْتَهَلَّ الجَدىٰ ، مُعيدًا للإحسان كما بَدا ـ أن يُعادَ فلانٌ إلىٰ وظيفته : لمـا أَلِفتْ من سِيرةٍ له لم تَزَلْ تُحمَد ، وسِيما خَيرٍ منه علىٰ مِثل الشَّمس تَشْهَد ؛ ولأمَانَتِه التى لم تزَلْ تَفْتَرُّ بها الثُّغور ، وتَحْضَرُّ بها المَعاهدُ : تارةً فى طَوْقِ النَّحْر وتارةً فى نُحُور البُحور ؛ وأصالةٍ امتدَّ ظلُّها الظَّليل ، وعُرِف منها فى العَصْر حسنُ الأَصيل ، وأيْنَعتْ أكْرَمَ فَرعٍ زَكا مَنْبِتُه[1] فى الأرضِ المُقدَّسة وجِوار الخَليل ، ولِمَـا أسْلف فى هذه المباشرة من عَمَلٍ صالح ، وسَدَادِ اعتمادٍ لم يخرجْ عن تحرير تَقْرِيرٍ وتقريرِ مصالح ؛ وكِتَابةٍ رآها الرَّائى ونقلها النَّاقل ، وكفايةٍ حفَّتْ عليه مثل العروس المجْلُوّة من عقائل المعاقل .

(١) فى الأصل «منبتها» بالتأنيث .

فليباشِرْ هذه العَرُوسَ فقد أنقدها[1] سالفَ الخدَم وأمهرها ، وليُثابِرْ سُقْيَا الغُروس التى أنشاها فى هـذه الجهة ونمّرها ، وليَسْلُكْ مَسْلَكه الذى لم يزل مُحْنَيًا علىٰ رءُوس القُـنَن ، ومهوِّما به طَرْفُ الأمن لليقظة الذى لا يُلِمُّ به الوَسَن ، مُخَوَّلًا فى وظيفتـه المبَرَّات ، مُسْتقبِلًا للمَسَرّات ، مفتخرًا بمباشراته التى تَجْرِى مَجارِيَ البحار : تارةً المِلح الأُجاجَ وتارةً العذْبَ الفُرات ، وهو أعرف بمـا يقدّمه من أمانةٍ بها يتقدّم ، وديانةٍ يُرَجَّب بهـا آستكفاؤُه ويُحكَّم ، وتقوى الله جماعها فليكُنْ بهـا مُتَمَسِّكا ، و بمشاغلها مُتَنَسِّكا ، والله تعالىٰ يجعل عطاءه مُوَفَّرا ، وعَمَله مُتَدَفِّقا لِيُرِدَّ جَعْبرًا جَعْفَرا .

النيـابة الثـالثـــة

(نيـابة طَرَابُلُس ، ووظائفها التى جرت العـادةُ بالكتابة فيهـا من الأبواب السُّلطانية علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(ما هو بحاضرة طَرابُلُس ، وهو علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصِّـــنف الأوّل

(أرباب السيوف ، وهم علىٰ طبقتين)

الطبقـــة الأولىٰ

(من يكتب له تقليـد)

وهو نائب السلطنة بها . ومرسومه فى قَطْع الثُّلثين ، ولقبُه « الجناب العـالى » مع الدعاء بمُضاعَفَة النعمة .

---

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة الناسخ فتنبه .

وهذه نسخةُ تقليد شريف بنيابتها :

الحمـدُ لله الذى جعل لنـا التأييدَ مَدَدا ، والنَّصرَ عتادًا لا نفقـدُ مع وجوده من لأوليـاء أحَدا ، والعزَّ وَزَرًا تُصِمُّ شُهُبه مَسامِعَ العِدا : ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِـدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدا﴾ . والفتحَ ذُخْرًا فحيثُ ما نشاء مَدَدْنا إليه بقوة الله يدا ، وشَدَدْنا عليه بمعُونته عضُــدا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت مَراتِبَ دَوْلتنا فَلَكًا تُشْرِقُ فيــه رُتَبُ الأوْلياء إشْراقَ البــدُور ، وثُغُورَ ممـالكنا أُفُقًا حيثما شامَته العِـدا ضُرِبَ بينهم وبينه من سـيوف مَهابَتِنا بسُور ، وفواتِحَ الفُتوحِ التَّاليةِ دانيةً من هِمَمِ أصْفيائنا فإذا يمَّمُوا غَرَضًا طارتْ إليه سهامُهم بأجْنحة النُّسُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يرفعُ الجهادُ عَلَمَها ، وينصُر الإيمانُ كَلِمَها ، ويُزْجِى الإيقانُ إلىٰ رياض التأييد دِيَمَها ، ويَسْتَنْطِقُ التوحيدُ بإعلانها وإعْلائها سيف أيامنا الزاهرة وقَلَمَها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الهــادى إلى الحقِّ وإلىٰ طريقٍ مُسْتقيم ، ونبيُّه المخصوصُ بالآيات والذِّكرِ الحكيم ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصرُوا الله فنَصَرهم ، وأظْهروا دِينَــه فأعَزَّهم وأظهرهم ، ويسَّرُوا لأُمَّته سبُلَ الهُـدىٰ فهداهم وللسَّبيل يسَّرهم ، صلاةً لا يزال اليقينُ يُقيمُ دعوتَها ، والتَّوحيدُ يعْصِمُ من الانْفِصام عُرْوتَها ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تفْتَرُّ الثُّغورُ بإيالتِــه ، عن شَنَبِ النَّصْر ، وتَرْمِى الحصونُ بكفالته ، مَن شَامَ من العِدا بَرْقَها بشَرَرٍ كالقَصْر ، وتُقَسِّمُ السَّواحلُ بمَهابته ، مَن جاور من أهْلِ الكُفْر بَحْرها بين الحَصْـد والحَصْر ، وتمنعُ عَزَماتُه شَوانِىَ العدا أن تدِبَّ عقارِبُها ، أو تَرْكَبَ اللُّجَجَ بغير أيامه[1] مَراكِبُها ، أو ينْتقِلَ عن ظَهْر البَحْر إلىٰ غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قيوده محاربها - من لم يزل فى نصرة الدّين لامعًا كالبرق شهابُه ، زاخرًا كالبحر عُبابُه ، واصبًا على الشّرك عذابُه ، ظاميًا إلى موارد الوريد سيفُه ، ساريًا إلى قلوب أهل الكفر قبل جفونهم طيفُه ؛ قائمةٌ مقام شُرَف الحصون أسنّة رماحه ، غنيّةً بروجُ الثغور عن تصفيحها بالحَلَمد بصَفا صِفاحه ؛ مع خبرة بتقدمة الجيوش تضاعف إقدامها ، وتثبّت فى مواطن اللّقاء أقدامها ؛ وتسدّدُ إلى مقاتل أهل الكفر سهامها ، وتقرّب عليها فى البرّ والبحر منالَها وتُبعدُ مراميها على من رامها ؛ ومَعْدلة للرّعايا السُّكونُ فى مهاد أمنها ، والرُّكونُ إلى رُبا إقبالها ووِهاد يُمنها ؛ فسِرْبُ الرعايا مصُونٌ بعدْله ، والعَدْلُ مكنونٌ بين قوله وفعله .

ولما كان فلانٌ هو اللّيثَ الذى يُحمىٰ به غابُه ، والنَّيِّرَ الذى يُزهىٰ أفقٌ تألّق فيه شهابُه ، والهُمامَ الذى تُعدى همَمُه فُرسانَ الوَغىٰ فتُعدُّ آحادُها بالألوف ، والشُّجاعَ الذى إذا استعانت سَواعدُ الشُّجعان بسُيوفها استعانتْ بقُوّة سَواعده السُّيوف - اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُحلّى به جِيدَ مملكة انتظمتْ على وِشام البَحْر ، وأحاطت بما فى ضميره من بلاد العدا إحاطةَ القلائد بالنَّحْر .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أنْ يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : لِمَا أشير إليه من أسباب تعيّنه لهذه الرُّتبة المَكينه ، وتحلّيه بما وُصف من المحاسن التى تُزهىٰ بها عقائلُ الحصون المصُونه .

فليَلِ هذه النيابةَ الجليلةَ بعزْمَة تُجمّلُ مواكبَها ، وهمّة تُكمّلُ مراتبَها ، ومَهابة تحُوط ممالكَها ، وصَرامَة تُؤمّن مسالكَها ، ومَعْدلة تُعمّر ربوعَها ورِباعَها ، ويَقَظة تصُون حُصونَها وقلاعَها ، وشجاعَة تَسْرى إلى العدا سرايَا رُعبِها ، وسَطْوَة تُعْدى السُّيوفَ فلا تستطيع الكُماةُ الدُّنُوَّ من قُربِها ؛ وسُمْعَة تُرهِبُ مُجاوريه حتى يتخيَّل البحر[أنه] من أعوانه على حَربِها .

ولْيُؤْتِ تقدمة الجيوش الإسلاميه حقَّها من تدبير يجمع على الطاعة أمرها وأمراءها، ويرفع فى مراتب الخدمة الشريفة على مايجب أعيانها وكبراءها، ويرهب بإدامة الاستعداد قلوبَ أعدائها، ويربط بإزاءِ كها شوانِى البحر حتى تَعُدَّ الرباط فى ذلك من الفروض التى يُتعبد بأدائها؛ فلا يلوح قِلْع فى البحر للعدا إلا وهو يرهب الوقوعَ فى حبالها، ولا تلحظ عينُ عدوٍّ منا البرَّ إلا وهى تتوقَّع أن تُكْحَل بنصالها؛ وليُقِمْ منار العَدْلِ بنشر لوائه، ويعضُدْ حكم الشَّرعِ الشريف برجوعه إلى أوامره وانتهائه؛ وليكُفَّ يدَ الظُّلْمِ [عنها] فلا تمتد إليها بنان، وليشفع العدلَ بالإحسان إلى الرعيَّة فإن الله يأمر بالعدل والإحسان؛ وفى سيرته التى جعلته صَفْوةَ الاختيار، ونُخْبة ما أوضحته الحقيقةُ من الاختبار، ما يُغنى عن الوصيَّة إلا على سبيل الذكرى التى تنفع المؤمنين، وترفع قَدْرَ الموقنين؛ وملاكُها تقوى الله تعالى: فليجعلها أمام اعتماده، وإمام إصداره وإيراده. والله تعالى يُديم موادَّ تأييده وإسعاده؛ إن شا الله تعالى.

الطبقة الثانيـــــة

(من يُكتب له مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السامى» بغير ياء، وتشتمل على وظائف)

منها — شدُّ الدواوين بطرابُلُس.

وهذه نسخةُ توقيع بها:

الحمـدُ لله مُجدِّدِ الرُّتبِ لمن نهض فيها بإخلاصه بما يجب، ومُولى المِنَنِ لمن إذا اعتُمد عليه من مهمَّات الدولة القاهرة فى أمرٍ عرف ما يأتى فيه وما يجتنب،

ومُؤَكِّدِ النِّعَمِ لِمَن إذا ٱرْتِيدَت الأَكْفاءُ فى الخِدْمة الشَّريفة كان خِيرَةَ مَن يُختار ونُخبةَ من يُنْتَخَب .

نحمدُه على نِعَمِه التى سَرَتْ إلى الأوْلِيـاءِ عَوارِفُها ، وٱشْتَمَل على الأصْـفِياءِ وافِرُ ظِلَالِهـا ووَارِفُها ، ونشهدُ أنْ لا إِلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لديه ، وتكونُ لقائلهـا ذَخِيرةً يوم العَرْض عليه ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه أشرفُ مَبْعوث إلى الأُمَم ، وأكْرم منعُوتٍ بالفَضْـل والكَرَم ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وُلُّوا أمْر الأُمَّة فعَدَلُوا ، وسَلَكُوا سَنَن سُنَّتِه فمـا مالُوا عنها ولا عَدَلُوا ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلى ما ٱختِيرَله من الأوْلياءِ كلُّ ذى هِمَّة عَلِيَّــه ، وعَزْمَة بمصالحِ ما يُعْدَقُ به من مُهِمَّات الدَّولة القاهرة مَلِيَّه ، وخِبْرة بكلِّ ما يُرَاد منها وَفِيَّه ، ويَقَظة تلْحَظ فى كلِّ ما قرب ونَأى من المصالحِ الأمُورَ الباطنةَ والأحْوالَ الخَفِيَّه ، وصَرامَة تُؤْيِسُ من ٱسـتِلانة جانِبِه ، ونَزاهَـة تُؤَمِّنُ من إمالة رَأْيِه فى كلِّ أمْرٍ عن سـلوك واجِبِـه ، ومعْرِفَة مُطَّلِعـه ، ونَهْضه بكلِّ ما إن حُمِّلَه من أعْباء المهمَّات الشَّريفـة مضطلِعَه ـ أمْرُ الأموال الديوانية : فإنَّها معادنُ الأرْزاق ، ومَوَادُّ مصالحِ الإسلام على الإطـلاق ، وخزائنُ الدَّولة التى لو ملكَتْها الغمائمُ لأمْسكتْ خَشْـيةَ الإنْفاق ، وذخائرُ الثُّغورِ التى مواقعها من أعْداء الدِّين مواقع الشَّـجَا فى القُـلوب والقَذَى فى الأحْداق .

ولمـا كان المجلس السامى هو الذى سَمَتْ به هِمَمُه ، ورَسَخَتْ فى خِدَمَ الدَّولة القاهرة قَدَمُه ، وتبارَىَ فى مصالحِ ما يُعْدَقُ به من المُهِمَّات الشَّريفة سيفُه وقلمُه ؛ وكانت المملكة الطَّرابُلُسِيَّة من أشْهر ممـالكنا سُمْعَــه ، وأيْمنِها بُقْعه ، وأعْمرها بلادا ،

وأخصبها رُبًا ووهادا، وأكثرها حُصونا شَواهِق، وقِلاعًا سَوامِيَ سَوامِق، وثغورا لا تشيمُ ما افترّ من ثُغُورها البروقُ الخَوافِق ؛ ولها الخواصُّ الكثيره، والجهات الغزيره، والأموالُ الوافره، والغَلّاتُ المتكاثفةَ المُتكاثِرَه ـ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَرْتادَ لها من يسُدُّ خَلَلَ عَطَلِها، ويشُدُّ عَضُد مَيَدِها ومَيَلِها، وينْهَضُ من مصالحها بما يُراد من مِثْلِه، ويعيدُ لها بحُسْنِ المباشرة بَهْجة مَن فَقَدَتْه(١) من الأكفاء من قَبلِه .

فلذلك رسم ... ... أن يفوّض إليه شَدُّ الدواوين المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيةّ والحصون المحروسة، على عادة من تقدّمه فى ذلك .

فلْيباشِرْ ذلك بمعْرِفة تستخرج الأموال من معادِنها، وتَسْتثير كوامِنَ المصالح من مكَامنها، وتُثمّر أموالَ كلّ معاملة بحسن الاطّلاع عليها، وصَرْف وَجْه الاعتناء إليها ؛ وتفقّدِ أحْوالِ مُباشِريها، ومُباشَرةِ مايتجدّدُ من وجوه الأموال فيها ؛ وضَبْط ارتفاعها بعَملِ تَقْديره، وحِفْظ متَحصّلِ ضِياعها من ضَياعه وصَوْنِ بِذارِها عن تبْذيره ؛ ولْيَجْتَهِدْ فى عمارة البلاد بالرِّفْقِ الذى ما كان فى شَىْء إلا زَانَه، والعَدْلِ الذى ما اتّصفَ به مُلْكٌ إلا صَانَه، والعفّة التى ما كانت فى امرئ إلّا وفقه الله تعالى فى مقَاصِده وأعانَه ؛ ولْيُقدّم تقوى الله بين يديه، ويعتَمِدْ على تَوْفِيقه فيما اعتَمِدَ فيه عليه، إن شاء الله تعالى .

قلتُ : وعلى ذلك يكتبُ شدُّ مراكز البريد ونحوها .

---

(١) لعله "مافقدته من عمل الأكفاء" .

الصنف الثانى

(من الوظائف بطرابلس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدينية ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء، وتشتمل على وظائف)

منها ـ القضاء . وبها أربعةُ قُضاة من المذاهب الأربعة : من كُلِّ مذهب قاض .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الشّافعيّة بها، يُنسجُ على منواله ، وهى :

الحمدُ لله الذى أعزّ الدّينَ بعلمائه ، وعضّدَ الحكمَ بالمتّقين من أوليائه، وأوضح الرُّشد للمقتدين بمن جعلهم فى الهداية كنجوم سمائه ، وجعل لكلٍّ من الأئمة من مطالع الظهور أُفقًا يُهتدىٰ فيه بأنواره ويُقتدىٰ بأنوائه .

نحمدُه علىٰ أنْ جعل سهمَ اجتهادنا فى الارتياد للأحكام مُصيبا ، وقسم لكلٍّ من أُفقَى ممالكنا من بركة علماء قسيمه الآخر نصيبا، ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصمُ من الهوىٰ فى الحُكْمِ لعباده، وتفصم العرا ممن جاهر فيها بعناده ، ونشهدُ أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أضاءتْ أنوار ملّته ، فاستكشف العلماءُ لوامعَها، ووضحتْ آثارُ سُنّته ، فأحرز أئمّةُ الأمّة جوامعها، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين دُعوا إلى الله فأجابُوا، ودَعَوْا إلى الحُكْم بسنّته فأصابُوا، صلاةً لا تزال الألسُن تُقيمها، والإخلاصُ يُديمُها، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ ماأدّىٰ فيه الاجتهادُ جُهْدَه ، وبلغ فيه الارتيادُ حدّه، واستضىء فيه بنور التّوفيق ، واستُصْحبَ فيه من استخارة الله خيرُ رفيق ـ أمرُ الحُكْم العزيز

وتفويضه إلى من وسّع الله تعالى مجالَ علمه، وسدّد مَناطَ حُكْمه، وطهّر مَرامَ قلبِه، ونوّر بصرَه فى الحكم وبصيرتَه فأصبح فيهما على بيِّنَة من ربّه؛ فأجرى الحق فى البحث والفُتْيا على لسانه ويمينه، ونزّهه عن إرادة العلم لغير وجْهه الكريم، ونبّهه على ٱبتغاء ما عند الله بذلك والله عنده أجرٌ عظيمٌ .

ولما خَلا مَنْصبُ قَضاء القُضاة بطَرابُلُس المحروسة على مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه : وهو المَنْصب الذى يُضىءُ بالأئمة الأعلام أُفُقُه، وتلْتقى بالفُضَلاء الكرام طُرُقُه ؛ وتَحْتوِى على أرْباب الفُنون المتعدّدة مَجالِسُه ، وتزكو بالفوائد المختلفة مَغارِسُــه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أُشيرَ إلى خصائص فَضْله ، ونُبِّه على أنّ الاجتهاد للأمّة أفضىٰ إلى إسناد الحكم منــه إلى أهلِه ؛ وأنّه واحدُ زَمانِه ، وعلّامة أوانه ؛ وجامعُ الفضائِل على ٱختــلافها ، وقامِعُ البِـدَعِ على ٱفتراق شُبَهِها منــه وأْتلافها ؛ وحاوِى الفروع التى لا تَتناهى ، والمُرْبِى على رَبِّ كلّ فضيلةٍ لا يَعْرف غيرها ولا يألَفُ سواها ــ ٱقتضت آراؤنا الشريفــة أن نجزم من ٱرْتيـادِه لهذه الرتبــة بهذا الرّأى [السديد] ، وأن تُقَرِّب سُراهُ إلى هذا المَنْصِب الذى ناداه بلسان الرَّغبة من مكان بَعيد .

فلذلك رُسِم بالأمر الشّريف ــ لا زال إحسانُه كالبَدْرِ يملأ المشارقَ والمغارب، وبِرُّه كالبَحْر، يَقْــذِف للقَريبِ الجواهر ويبْعثُ للبعيــد السَّحائب ــ أنْ يفوّض إليـــه كذا .

فليطلُعْ بذلك الافق الذى يترقَّبُ طلوعَه رِقْبــةَ أهلَّةِ المواسم ، ويُسْرِعْ إلى تلك الرُّتْبة التى تَكاد تَسْتطلِــعُ انباءه من الرياح النَّواسم؛ وينْشُرْ بها فَرائدَه التى هى أحقّ

أن تطوى إليها المراحل ، ويَقْدُمَ بها على الأسماع الظّامية لعَذْبِ فوائِدِه قُدومَ الغَمام على الرَّوض الماحل ؛ ويَلِى هـذا المَنْصبَ الذى هو فيـه بين عَدْل ينْشُره ، وحقّ يظهره ، وباطل يزهقُه ، وغالب يُرْهقُه ، ومظلوم ينْصُره .

وليَكُنْ أمرُ أموال الأيْتام المُهِمَّ المقدّمَ لديه ، وحَديثُ أوْقاف البِرِّ من أوّل وأوْلى ما يَصْرِف فِكْرَه الجميـلَ إليه ؛ ويتعاهَدُ كَشْفَ ذلك بنَفْسـه ، ولا يكتفى فى علمه فعـل اليوم باطّلاعه عليـه بأمْرِه فى أمْسِه (١) ؛ وهو يعلم أنّ الله يجعله بذلك مشاركًا للواقفين فى الأجْر المختصّ بهم والشُّكْر المنسوبِ إليهم ، خارجًا من العُهْدَة فى أمْر اليتامى باستعمال الذين يَخْشَوْنَ لَو تَرَكُوا من خَلْفِهِم ذُرّيَّةً ضِعافًا خَافُوا عَلَيْهِم ؛ وليُقِمْ مَنارَ الحق على ما يجب وإن سَرّ قومًا وساء قومًا ، ويَقُمْ بالعَـدْل على ما شُرِع : فإنّ « عَدْلَ يومٍ خيرٌ للأرْض من أنْ تُمْطَرَ أرْبعين يومًا » .

وأمّا ما عدا ذلك من أحْوال الحكم وعَوائِدِه ، وآداب القَضـاء وقواعِده ، فكُلّ ذلك من خصائصه يُسْـتفاد ، ومن مَعارِفه يُسْـتزاد ؛ ومِلاكُ ذلك كلّه تقوى الله وهى من أظْهرِ حِلاهُ الحَسَـنَه ، وأشْرفِ صِفاتِه التى تتَداوَلُهـا الألْسنَة ؛ فلْيجْعَلْها وسيلةَ تَسْديدِه فى القَوْل والعَمل ، وذَخيرةَ آخرته التى ليس له فى غيرها أمَل ، ويقلد العلى فيما حَدّثَتْه من أسـباب تَقلّبِه فإن كَمالَ العِزّ فى النُّقَل ؛ والله تعـالى يمدّه بموادّ تأييده وقد فعل ، ويجعَـلُه من أوليائه المتّقين وقد جَعَل ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، إن شاء الله تعـالى .

قلتُ : وعلى ذلك تكتب تواقيع القُضاة الثلاثة الباقين .

ومنها ـــ وكالة بيت المـال .

---

(١) لعله « على أمره فى أمسه » .



وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهي :

الحمدُ لله الذي عَمَر بيْتَ مال المسلمين بسَدَاد وَكيله ، ونموّ تحصيله ومَزيد تمويله ، وتمسّكه بالصِّدْق من قِبله ، وسُلُوكه ماتبيّن [من] سبيله ، وآعتماده الحق في دليله ؛ ودَفعه المَضارّ وجَلْبه المسارّ بتخويله .

نحمدُه علىٰ برّه وتَفضيله ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ تنزّه عن ندّه ومَثِيله ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذي بعثه الله لتمـام هذا الدِّين وتكْميله ؛ وأنزل عليه المُعْجزات في تنزيله ، وحَفِظ به الذِّكْرَ الحكيمَ من تَبْديله ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه وقَبِيله ، وسلّمَ تسليماً .

وبعـدُ ، فإن بيْتَ المالِ المَعْمورَ هو نِظامُ الإسلام ، وذُخْر الأنام ، وفيه مَحصولُ المسلمين تحتَ نَظَرِ الإمام ، وفيـه مادّةُ المجاهدين في سبيل الله علىٰ تَطاوُلِ الأيّام ؛ وإليه تُجْبىَ القَناطيرُ المُقَنْطَرةُ من الأموال ، وعنه تصدُر المبيعاتُ من الأملاك ما بين أراض وأبْنية ومَحال . والوكيلُ علىٰ ذلكْ عنّا بالمَمْلكةِ الطَّرابُلُسيّة المحروسة هو الذّابُّ عن حَوْزَته ، القائمُ بتأْمين رَوْعَتِه ، المجتهدُ في تمييز رَجْعته ؛ وينبغي أنْ يكونَ من العلمـاء الأعْلام الائمّـه ، المعوّلِ عليهم في الأُمور المُهِمّه ، البَصيرِ بمـا يترجح به جانبُ بيتِ المـال المعمورِ ويَكْشِف كلَّ غُمّه ، العَريقِ في السِّيادةِ التي آنقادت إليها السجايا الجميلةُ بالأزِمّه .

ولمـا كان فلانٌ هو الرّاقيَ هَضْبَةَ [هذه] المآثِر ، الطّالِـعَ كَوكَبُ مَجْده السّافر ، المستَحِقّ لكلّ آرتقاءٍ على المنابر ، ويَعُدُّ سَلفًا كريمـًا نَصيرًا في المفاخر ، ويَمُتُّ ببَيْتٍ

بحره زاخر؛ وله فى مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه بَحْثٌ فاق به الأشباهَ والنظائر، وعنده عِلْمٌ بالمسائل المضروب مَثَلُها السّائر ـ فلذلك رسم ... ...

فليباشر هذه الوظيفةَ مُحترِزًا فى كلّ ما يأتيه ويَذَره، ويقصِدُه ويُحرّره، ويُورِدُه ويُصْدِرُه، ويبيِّنه ويقدّره، ويُخفيه ويُظهِرُه، ويُبْدِيه ويَسْتُره، ويُدْنيه ويُحْضِرُه؛ ويحترز جانبَ بيْت المال المَعْمور، بما فيه الحظُّ المَوْفُور؛ والغِبطَة فى كلّ الأُمُور. وهو عالمٌ بما فيه صلاحُ الجُمْهور؛ ومن رَغِب فى ٱبْتِياع أرَاض وقَرَاح، وأبْنِيَة وأمْلاك ورِحاب فِسَاح؛ مما هو جَار فى مِلْك بيْت المال فليُوَفّر جانبَ القِيمَة علىٰ ما فيه الصّلاح، وهو بحمد الله من بَيْت الدِّين والصّلاح والإصْلاح، وهو يُقَوِّى بإسناده الأحاديثَ الصِّحاح؛ ومن له حقٌّ فى بيْت المال فليَسْمَعْ دعوىٰ مُدَّعِيه، ولا يصرِف دِرْهَمًا ولا شَيْئًا إلا بحقّ واضح فيما يثبته فيه. وهو وَكِيلٌ مأمونٌ فى تأَتِّيه، ومَعْنى الوكيل الذى يُوَكَّل إليه الأمْر الذى يَلِيه .

والوصايا كثيرةٌ وأجلُّها تَقْوَى الله بالسَّمْع والبَصَر واللسان، فمن تَمسَّك بها من إنْسان فإنّه يفوز بالإحسان؛ وهو غَنِيٌّ عن الوصايا بما فيه من البيان، والله يجعله فى كَلاَءَة الرَّحْمن؛ بمنّه وكَرَمه ! . والخطّ الشريف أعلاه ... ... ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وقد يُكتب لوكالة بيت المال ونحوها بالافتتاح بـ«أمّا بعدُ» علىٰ قاعدة أصْل الكتابة فى قَطْع الثلث . والكاتب فى ذلك علىٰ مايراه بحسب مايقتضيه الحال .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بطَرابُلُس ــ مَن يُكتب له في قطع العادة ، مفتتحا بـ«رُسم»)

وهذه نسخةُ تَوقيع من هــذه الرتبة بوظيفــة قراءة الحديث النّبوىّ ، على قائله أفضل الصلاة والسلام، لمن آسمه «يحيى» ينستضاء به فى ذلك، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال رَميمُ الفَضْل بأرواح عنايته يَحْيا، وأحاديثُ مِنَنه الحِسانِ تَميها أُذُنٌ وَاعِيةٌ من طِيب السَّماع لا تَعْيَا ؛ ولا بَرِحتْ أولِيـاءُ خِدَمه تُثْنى علىٰ صدقاته بألسِنَةِ الأقلام ، وتُديرُ(١) على الأسمـاع من رَحِيقِها كُئُوسًا مِسْكِيّةَ الخِتَام ــ أنْ يستقرّ فى كذا آستقرارًا تَرشُف الأسماعُ ، كُئُوسَ روايتها فلا تَروىٰ، ورتب كماله يقْصُر عن طلوعها كلُّ باعٍ ، فَمُناواتُه لا تُتوَىٰ؛ ورُبُوعُ معروفه لا تَبِيد، وآياتُ صِـلاتِه ينْطِقُ بتلاوتها كلُّ بليغ فَيُبْدِئُ ويُعيد ؛ لأنّه العـالِمُ الذى أحْيا من مَدَارِس العُلوم مادَرَس، والفاضلُ الذى أضاءَ بِبَصَر عُلُومه ليلَ الجَهْـل ولا غَرْوَ : «فَطْرَةُ الصُّبْح تَمحى آيةَ الغَلَس» ؛ والكاملُ الذى لا يَشُوبُ كماله نَقِيصَه، والأمثلُ الذى أتتْه المعالى رَخِيصَه ؛ والإمام الذى تأتَّمّ وراءَه الأفاضِـل، وتأخّر عصْرُه ففاقَ الاوائل؛ مادَرّس إلا وجَمع من فوائد «أبى حَنِيفة» و«آبن إدريس» ، ولا عرّس بليْل الطَّلَب إلّا حَمِد عنـد إدراك طَلِبه ذلك التّعرِيس؛ ولا أعاد الدُّروسَ للطّلبـة إلا وترشّحتْ منه بالفَوائد، ولا جَمع ما فصّله العلماءُ إلا وأتىٰ بالجَمْع الذى لا نظيرَ له فى الفَرائد .

---

(١) فى الأصل : وتقدمرّ وهو تحريف واضح .

فليباشر هذه الوظيفة مباشرةً أنوارُ هداها لا تُخمد[1]، وليُلازمها ملازمةً تشكره عليها الألسنة وتحمد؛ وأنت ـ أدام الله تعالى فوائدك ـ لا تحتاج إلى الوصايا إذ أنت بها عالِم، وبأسبابها متمسِّكٌ وبالقيام بها يقظٌ غيرُ نائم؛ لكن التقوى [أولى] بمن عرف الأمور، ولِباسُ سوابغها يُبْعِدُ كلّ محذور؛ والاعتماد على الخطّ الشريف أعلاه.

الصـــنف الثـالث

(من الوظائف بطرابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّيوانية، وهى على مرتبتين)

المرتبـــة الأولى

(ما يكتب فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء، وتشـتمل على وظائف)

منها ـ كِتابةُ السِّرّ، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ«صاحب ديوان المكاتبات».

وهذه نسخةُ توقيعٍ من ذلك، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الأسرارَ عند الأحرار، وطوى الصُّحُفَ على حَسَنات الأبرار، وأجرى الأقلامَ تَرْجُماناً للأفكار، وجعل الحَفَظَةَ يكتُبون الأعمالَ مع تطاوُل الأعمار، آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وبَسط المعانِى أرواحا، والألفاظَ لها أشباحا، مع التَّكرار، وأبهج الصدور بصُدُور الكُتُب والإيراد والإصدار.

---

(١) فى القاموس خمدت النار كنصر وسمع.

نحمده على فضله المدرار، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إقرار، وعمل بالجوارح بلا إنكار؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المصطفى من مضر بن نزار، المخصوص بالمهاجرين والأنصار، الثاوى بأشرف بقعة تزار، المشرف كتاب الوحى : فهم يكتبون بما يمليه عليهم المختار، وجبريل يلقى على قلبه الآيات والأذكار، عن رب العزة المسبل الأستار، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما نفح روض معطار، وسح صوب أمطار، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن ملاك الملك الشريف حفظ سره، والاحتفال بكتبه الشريفة ولفظها ودره، وخطابها ونثره، وخطها ونشره، وختمها وعطره، وتجهيزها مع الأمناء الثقات الذين تؤمن غائلة أحدهم فى كل أمره؛ وما ألقى السر الشريف إلا لأكمل الأعيان، وصدر الزمان، وبليغ كسحبان، وفصيح كقس فى هذا الزمان، وأصيل فى الأنساب، وعريق فى كرم الأحساب، وفاضل يعنو له فاضل بيسان، وينشى لفظه الدر والمرجان، وكاتب السر فلا يفوه بلسان .

ولما كان فلان هو واسطة عقد الأفاضل، ورأس الرؤساء الأماثل، وحافظ السر فى السويداء من قلبه، وناظم الدر فى سطور كتبه؛ والمورد على مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظا عذابا، القائل صوابا، والمجيد خطابا، وإذا جهز مهما شريفا راعاه بعينه عودا وذهابا، وإذا استعطف القلوب النافرة عادت الأعداء أحبابا، وإذا أرعد وأبرق على مارق أغنى عن الجيوش وأبدى عجبا عجابا، وإذا كتب أنبت فى القرطاس رياضا خصابا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا . فليحل هذا المنصب الشريف حلول القمر هالته، وليعد إليه أيام سره وسروره الفائتة، وليعرب عن أصول ثابتة،

وفُروعٍ فى منابت الخيْرِ نابِتَة ، وليتفقَّدِ المهماتِ الشَّريفةَ أوّلاً فأوّلا من غير أنْ يعْدِق مُهِمًّا بغيره أو يُبَيِّتَه إلىٰ غَدِه، وليُجرِّرِ البَرِيدَ المنصورَ بيديه غير معتمد فيه علىٰ غير رَشَدِه، ولا يَغِبْ عن وظيفته طَرْفةَ عيْنٍ بل يكون كالنَّجمِ فى رَصَدِه لمُرْتَصِدِه ، وليُوصِ كُتَّاب الإنشاء لدَيْه ، والمتَصَرِّفين بين يديه ، بكتمِ السِّرِّ فإن ذلك إليه ؛ فإذا أفشىٰ أحدٌ من السِّرِّ كلمة، فليَزْجُرْه وليأمُرْه أن يحفظ لسانَه وقلَمه، وليُعْطِ كلَّ قضيَّةٍ ما استحقها من تنفيذ كلمة ؛ والابتداءاتُ والأجوبةُ فلتكُنْ ثغورها بألفاظه متشنِّبة وعُقودُها بإملائه مُنتظِمة ؛ فأمّا الابتداءُ فهو على اقتراحه ، وأمّا الجوابُ فهو علىٰ ما يقتضيه الكتابُ الوارد باصطلاحه ، ولا على إلّا إلىٰ ثقاته ونُصّاحه ؛ والكتبُ الملوكية فليوفِّها مقاصِدَها ، وليراعِ عَوائدَها ؛ والتقوىٰ فهى الهامُّ [من] أمْرِه، وخِتامُ عِطْره ، وتَمامُ بَدْره ؛ والوصايا فهى كثيرةٌ لديْه وفى صَدْره، والله تعالىٰ يكمِّلُ به أوقات عَصْره، بمنّه وكرمه ! والخطُّ الشَّريف أعلاه ... .

ومنها ـ نظر المملكة، القائمة بها مقامَ الوِزارة .

وهذه نسخةُ توقيعٍ من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله مُفيضِ حُلَلِ إنعامِنا علىٰ من أخلص فى طاعتنا الشَّريفة قلبَه ولسانَه ، ومُولِي فَضلِ آلائنا العَميمةِ علىٰ مَن أرْهَف فى مصالحها آلةَ عَزْمه وبنَانَه، ومُحلِّي رُتَب علْيائنا الشَّريفة بمن أشْرق فى سماء المَعالى بَدْرُه وإنسانُه، وأينعتْ فى غصون الأمانِ قُطوفُه وأفنانُه .

نحمَدُه حمدًا يبلُغُ [به] أقصى غاية المجْد مَن تبَسَّم بجميل نَظَرِه الثُّغور، وتعتصِمُ بجميد خَبَره وخِبْرته الأُمور ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرق بها

البُـدور، ويُعتمَدُ عليها فى الايَّام والدُّهور ، ونشهدُ أنَّ سـيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الهـادى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْـتقيم، والنَّاشرُ لواءَ العَدْل بسَنَنِه الواضحِ وشَرْعه القويم ؛ وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين آهتدىٰ بهَدْيِهـم ذَوُو البصائر والأبْصار، وآرتَدَى بأرْدِيَتِهم المُعْلَمة مقتفى الآثار من النُّظَّار، وسلَّم تسليما .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من أسْندنا إلىٰ نَظَره الجميلِ رُتْبَةَ عِزٍّ ما زالتْ بَنُو الآمال عليها تَحُوم، وعلَّقْنا بتَدْبِيره الجميلِ مَنْصبَ سِيادَة ما برِحتْ الأمَانِيُّ له تَرُوم، واعتَمَدْنا علىٰ هِمَمِه العَلِيَّة فصَـدَّق الخُبْرُ الخَبَر، وركَنَّا إلىٰ حَميـد رأيه فشَهِد السَّمعُ له وأدَّى النَّظَـر .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى رَقِىَ فى ذِرْوَةِ هَذِه المعالى، وانتظم به عِقْدُ هذه اللَّآلى، وحَوىٰ بفَضِيلة البيانِ واللِّسان مالم تدركه المُرْهَفاتُ والعَوالى ؛ فمـا حلَّ ذِرْوةَ عزٍّ إلَّا حلَّاها بنَظَرِه الجميـل ، ولا رَقِىَ رُتْبة سِـيادَة إلا وأسْفر فى ذِرْوتها وجهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنَظَره كَفالَةُ رُتْبة إلا وكان لهـا خيرَ كَفِيل .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال ينْتَقِى للرُّتَب العَلِيَّـة خيرَ مُنْجِد ومُغِـير، ويَخْتارُ للمناصب السَّنِيَّة نِعْمَ المَولىٰ ونِعْم النَّصِير ـ أن يفوِّضَ إليه كذا فإنَّه القَوِىُّ الأمين ، والمتمسكُ من تَقْوى الله تعالىٰ وكِفايَته بالسَّبَب المَتِين ، والمُسْتَنِدُ بجميـل كَفالَتِه وحَمِيد ديانَتِه إلىٰ حِصْن حَصِين، والمُسْتَذْرِى بأصالَتِه الطَّاهرة وإصابَته إلى الجُنَّة الواقِيَة والحَرَم الأمِين .

فليَقْدَمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ ويُباشِرْ الجهةَ المذكورةَ بعَزْم لا يَنْبُو، وهِمَّة لا تَخْبُو، وتَدْبِير يتضاعفُ علىٰ مَمَرِّ الأيَّام ويَرْبُو ؛ ونَظَر لا يعزُب عن مبـاشرته مثقالُ ذَرَّة إلا وهى من خاطره فى قَرار مكين ، وضَبْط لا تمتدُّ إليـه يدُ ملْتَمس إلا ويَجِدُ من مُرْهَفه

ما يكُفّ كَفّها بالحدّ المَتِين . وليضاعِف هِمّته، فى مصالح هذه الجهة التى عَدَقْناها نظره السعيد ، وليُوفِّر عزْمته ، فإنّ الحازِمَ من ألْقَى السّمْعَ وهو شهيد ؛ والوصايا كثيرةٌ ومثله لا يُدَلّ عليها ، والتّنبيهاتُ واضحةٌ وهو ـ وفقه الله تعالىٰ ـ أهْدىٰ من أنْ يُرشَدَ إليها ؛ واللهُ يوفّقه فى القوْل والعَمَل ، ويُصْلِحُ بجميل تدبيره وحَميد تأثيله كلّ خَلَل ؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف ، إن شاء الله تعالىٰ

ومنها ـ نظر الجَيْش بها :

وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه «شمْس الدِّين» وهى :

الحمدُ للهِ الذى أطْلع فى سماء المَعالِي شَمْسًا مُنيرَه ، وأيْنع غُروسَ أُولِى الصَّدارَةِ بعِهادِ سُحُب عَوارِفهِ الغَزِيرَه ، وأبْدع الإحْسانَ إلىٰ من قَدّمه الاختبارُ والاختيارُ علىٰ بَصيرَه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى عَمّ فَضْلُها ، ومُدّ علىٰ أوْلياء الدولة القاهرة ظِلُّها ؛ ونشهدُ أنْ لا إِلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لَدَيْه ، وتُسْلِفُ ما يجِدُه المتمسّكُ بها يَوم العَرْض عَلَيْه ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بُعِثَ إلى الأُمَم كافّه ، وأكْرَمُ مَن غدَتْ أملاكُ النّصر بآيته حَافّه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازوا بصُحْبته الشّرف ، وفازُوا بطاعة اللهِ وطاعَتِه من الجنان بغُرَف من فَوْقها غُرَف .

وبعدُ ، فإنّ أوْلىٰ ما صُدِق بالاكْفاء ، وأحَقّ ما صُرِف إليه وجه الاعْتناء ، وأجْدرَ ما أُوقِظَ له طَرْفُ كافٍ لا يُلِمّ بالإغْفاء ـ أمْرَ الجيوش المنصورة بطرَابُلُس

المحروسة التى لا ينهَض بأعباء مصالحها إلا مَن عُرِف بالسَّداد فى قلمه وكَلِمه، وأُلِف منه حُسْنُ التصرُّف فيما يُبْـديه من نزاهَته ويُظْهِرُه من هِمَمِه، بخبرة مُؤكَّده، وآراء مسَدَّده، ومعرفة أوضاع تَرْتِيبها وأحوالها، وقواعد مُقدّميها وأبطالها، وكفاية تفتحُ رحاب حالهـا .

ولمـا كان فلانٌ هو الصَّـدْرَ المَلِيّ بوافِى الضَّـبْط ووافِر الاهْتِمام، والكافِىَ الذى نطقَتْ بكفايتِه ألْسِنَةُ الخِرْصان وأفواهُ الأقلام، والضَّابِطَ الذى لا يَعْجِزُ فَهْمُه عن إحاطة العِلْم بذَوِى الآلام .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال يقَدِّمُ للراتب، كافيًـا مَشْكُورا، ويُرَشِّح للناصب، صَدْرًا أضْحَى بالأمانَة مَشْهُورا ـ أنْ يفوّضَ إليه كذا : لأنَّه الصَّدْر الذى تزاحَمَتْ ألْسِـنةُ الثَّناء عليـه، وترادَفَتْ بين أيْدينـا مَحامِدُه فقرَنّا العوارِفَ لَدَيْه؛ وشُكِرتْ عندنا هِمَمُه فى سَداد كُلِّ ما يُباشِرُه، وذُكِرتْ لدَيْنا بالخير سيرَتُه وسَرائرُه .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفـةَ الجليلةَ مُتَحَلِّيًا بين الأنام بعُقودِها، مُطْلِعًا شَمْس نزاهَتِـه فى فَلَكِ سُـعُودِها، ناهِضًا بأعْباءِ مَنْصِبه السعيد، ضَابِطًا قواعِدَه بكلِّ تحرير تأييد، متقِنًا دِيوانَ الجيوش المَنْصورَه، مُعْمِلًا فى ملاحظتها نافِذَ البَصَر وحُسْنَى البَصيره؛ مُحرِّرًا أوراق المدَّة والعُـدَّه، باذِلًا فى ضَبْـط الحِلَى اهْتِمامَه وجُهْدَه؛ والله تعـالى يُسْعِدُ جَدَّه، ويُجدِّدُ سَعْدَه، والخَطُّ الشريفُ أعلاه ... ... إن شاء الله تعالى .

قلتُ : ورُبَّمـا كُتِب مفتتحًا فى هـذه الرتبة بـ«أمَّا بعد» فإنها أصْل ما يكتب فى قطْع الثلث .

المرتبـــة الثـانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابُلُس ــ مَن يُكْتب له فى قَطْع العادة بـ«مَجْلس القاضى»)

وهو قليلُ الوقوع . والغالب فى ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هذه الرتبة بكتَابة الدَّسْت بطرابُلُس ، يقاسُ عليه ما عداه من ذلك ، وهى :

رُسم بالأمْرِ الشَّريف ــ لا زال أمْره الشريفُ ، يزيد من يَصْطَفِيه شَرَفا وبِرُّه المُنيفُ ، يُفيد من يَجْتَبِيه تُحَفا ، وخَيْرُه المُطيفُ ، يُجِيد لمن يختاره جُودا ، ويسُرُّ قَلْبَ مَن رفعه إلىٰ صَــدْر الدَّسْت صُعودا ، فيبُوِّئُه من جَنَّات العَلْياء غُرَفا ــ أنْ يَسْتقرَّ فى كذا : آستقرارًا تُجْتَنَىٰ منه ثِمـار الخيرات ، وتُجْلَىٰ عليه عَروسُ المَسَرَّات ؛ لأنَّه الرئيس الذى تَفْتخِرُ هــذه الوظيفةُ بٱنتسابها إليه ، وتُجمِّلُ حُلَلُها وألْوِيَتُها إذا نُشِرت عليه ؛ والفَاضلُ الذى ألْقَتْ إليه البلاغةُ زِمامَها ، والكامِلُ الذى ملك بيانَها ونِظامَها ؛ والأديبُ الذى لا يُدْرَكُ فى الآداب ، واللَّبِيبُ الذى يقصُر عنه طُولُ عامَّة الطُّلاب ؛ كَمْ له من كِتابَةٍ حَسَنة الأتِّساق ، وبَلاغَة حصَل علىٰ فَضْلِها الأتِّفاق ، ودِيانَةٍ أطْلَق فيها لِسانَهُ ويَدَه فشكرها الناسُ على الإطْلاق ؛ فهو مُسْتَنَد الرآســه ، وٱبْنُ من حاز كُلَّ فَخَار ورَآســه ؛ والعَلَمُ المشهورُ عِلْمُه ، وصاحبُ القَلَم المشكورُ رَقْمُه ؛ فالمناصبُ بارتفاعه إليها مُفْتخِرَه ، والمراتبُ بعَلاَئه مُسْتَبْشِرَه ؛ والأسْمــاعُ بفضائله مُشَــنَّفه ، والأسْجاعُ بكَلِمه مُشَرَّفَه .

فليباشِرْ هــذه الوظيفَه ، وليَسلُكْ فيها طَرِيقَ نَفْســه العَفيفَه ، ولْيُدَبِّجِ القِصَص بأقْلامه ، ولْيُبهِج التَّواقيعَ بمــا يُوقِّع مُبْرَمُ فصيحِ كَلامه ، ولْيَزِيِّنِ الطُّروسَ ، بكِتَابتِه ،

ولْيُنْعِش النُّفوسَ ، ببلاغَتـهِ ؛ وليَجْمُلْ من المبـاشرة ما تُصْبح منـه مطالعُ شَرَفه مُنيره ، وتُمسِى به عينُ مُحِبِّه قَرِيرَه ؛ والوَصايا فهو خَطيبُ مِنْبَرِها ، ولَبِيبُ مَوردِها ومَصْدَرِها ؛ والتَّقوىٰ فلْيلازِمْ فيها شِـعَارَه ، ولْيداوِمْ بها علىٰ ما يَبْلغُ به أوْطارَه ؛ واللهُ تعالىٰ يجعـلُ سُعودَه كلَّ يَومٍ فى آزدياد ، ويسهلُ له ما يرفعُ ذِكْرَه بين العباد ، بمَنّه وكرمه ! . والآعتماد فى ذلك على الخطِّ الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـانى

(من الوظائف بطرابُلُس ـ ما هو خارجٌ عن حاضرتهـا ،
وهــــم علىٰ ثلاثة أصْناف أيضـا)

الصِّـــــنْف الأوّل

(أرْباب السيوف)

وقد تقـدّم أنّه ليس بها مقدّمُ ألْف سوىٰ نائب السَّلْطنة بها ، وحينئذ فالنيابات بمعاملتها علىٰ طبقتين :

الطبقــــة الأولىٰ

(الطَّبْلَخاناه)

ومَرَاسِيمُهم تُكتبُ فى قَطْع الثلث بـ«السّامىّ» بالياء ، مفتتحة بـ«الحمد لله» .

وهـذه نسخةُ مرسوم شَريف من ذلك بنيابة قَلْعة ، تصلح لنائب اللّاذقيّـة ، يُنْسج علىٰ منوالهـا ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الحُصونَ الإسلاميّةَ فى أيّامنا الزّاهرة ، مصَفّحةً بالصِّفاح ، والثُّغورَ المَصُونَةَ فى دَوْلتنا القاهرة ، مشَرّفةً بأسنّة الرِّماح ، والمعاقلَ المحروسةَ مخصوصةً من أوليائنا بمن يَعُدُّ بَأْسَه لها أوقَى الجُنَنِ وذَبَّه عنها أقوَى السِّلاح .

نحمَدُه على نِعَمه التى عَوارِفُها عَميمَه ، وطوارِفُها كالتّالدةِ للمَزيد مُسْتَديمَه ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطِقُ الضمائرُ قبل الألْسنة بإخلاصِها ، وتُشرِقُ القلوبُ بعموم إحاطَتِها بها وآختِصاصِها ، ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أشرقتْ بنورِ مِلَّتِه الظُّلَمُ ، وآرتوت بفَوْرِ شَريعَتِه الأُمَمُ ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين آمتَطَوْا إلى جهاد أعْداء الله وأعدائه غاربَ الهِمَم ، صلاةً سارِيةً كالرِّياح هامِيَةً كالدِّيَم ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أولَى ما عُقِدَ عليه فى صِيانَة الحُصونِ الخناصِر ، وآعتُمِدَ على مِثله فى كفايةِ المَعاقِل إذا لم يكُنْ غيرَ تأييدِ اللهِ وحدَّ السّيفِ ناصر ــ من هو فى حِفْظ ما يليه كالصُّدور التى تصونُ الأسْرار ، والكَمائم التى تَحُوط الثِّمار ، مع اليَقَظَة التى تَذُود الطَّيْفَ أنْ يُلِمّ بِحِماه حِماه ، والفِطْنة التى تصُدُّ الفِكْرَ أنْ يتَخَيَّلَ فيه ما آشتمل عليه وحَواه ، والأمانَةِ التى ينوِى فيها طاعةَ الله وطاعةَ رسوله صلّى الله عليه وسلم وطاعَتَنا الشريفة ولِكُلّ آمرِئٍ ما نواه .

ولما كان فلانٌ هو السيفُ الذى تروق تجرِبَتُه ويَرُوع تجريدُه ، وإذا ورد فى الوَغَى مَنْهَلَ حَرْبٍ فَشَرَعُه من كلّ كَمِيٍّ وَرِيدُه ــ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرهِفَ حدَّه بِحِفْظ أسْنَى الحصونِ عندنا مكانًا ومكانَه ، وأسْمى المعاقل رِفْعةً وعِزةً وصيانَه .

فرُسِم بالأمرِ الشّريفِ أن تفوّض إليه النيابةُ بقلعة كذا .

فليباشِرْ هذه النِّيابةَ السَّامِيَ قدرُها ، الكاملَ فى أفُقِ الرُّتب بدْرُها ؛ مباشرةً تصُدُّ الأفكار ، عن توهُّمِها ، والأبصارَ ، عن توسُّمِها ؛ والخواطِرَ ، عن تخيُّـل مَغْناها ، والسَّرائرَ ، عن تمثُّل صورتها ومعْناها .

وليكُنْ لمصالحها متأمِّلا ، ولنجْوىٰ رجالها متصَـفِّحا ؛ ولأعْذار حُماتها مُزيحا ، وللخواطر من أسباب كفايتها مُريحا ؛ ولمواطنها عَامِرا ، وبما قَلَّ وجلَّ من مصالحها آمِرا ، ولوَظائفها مُقيما ، وللنَّظَر فى الكبير والصغير من أُمُورها مُديما ؛ ولخدَمَتِها مُضاعِفا ، ولكلِّ ما يتعينُ الاحْتفال به من مُهِمَّاتها وَاقِفا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقْوَى الله : وهى أوَّلُ ما يقـدِّمه بين يديه ، وأوْلىٰ ما ينبغى أن يصْرِفَ نظرَه إليه ؛ فليجعَلْ ذلك خُلُقَ نَفْسه ، ومَزِيَّةَ يومِهِ علىٰ أمْسه ؛ والخير يكونُ . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــة الثـانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كُتبت من الأبواب السُّلطانية ففى قَطْع الثلث بـ«السَّامى» بغير ياء ، مفتتحة بـ«أمَّا بعد» إلا أنَّ الغالبَ كتابتُها عن نائب السَّلطنة .

وهذه نسخةُ مَرْسوم شَريف بنيابة قَلْعة بَلاطُنُس ، من معاملتها وهى :

أمَّا بعـدَ حمد الله علىٰ نِعَمٍ توالَىٰ رِفْدُها ، ووجب شكْرُها وحَمْدُها ، وعَذُب لذَوِى الآمال وِرْدُها ؛ والصَّلاة والسـلام علىٰ سيـدنا محمد الذى رُفع به لقُرَيْش مَجْدُها ، فعَلا جَدُّها ، وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يُحصَىٰ عَددُها ولا يحصَرُ حَدُّها ــ فإنَّه لـمَّا كان فلانٌ ممن قَدُمَتْ تقادمُ خدمه ، وتعالَىٰ به إلىٰ العلياء سَامِى هِمَمِه ، وترفَّع به حُسْنُ

ولائه حتّى أعلت الدولةُ من شأنه ورفعتْ من عَلَمه، وآستكفته لَصُون الحصُون، وجادَتْ عليـه بصَوْب إحسان روّى الأمانىّ فأضحت نَضِرَةَ الغُصون ؛ وكانت قلعةُ فلانة هى القلْعةُ التى شمخَتْ بأنفها علىٰ القلاع عُلُوّا، وسامَتِ الجَوْزاءَ سُمُوّا، فوجب أن لا يُستَحفظَ عليهـا وفيها ، إلّا مَن عُرِف بحسْن المحافظة وتوفّيها ؛ وكان المشار إليه هو عينَ هـذه الأوْصاف ، والوارِدَ من حُسْن الطاعة الموردَ الصّاف ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشّريف أن نُنَوّه بذكره، ونَرْفَعَ من قَدْره .

ولذلك رُسم ... ... ـ لا زال ... ... أن تفوّضَ إليه النيابةُ بهذه القلعة المحروسه، وأن تكون بأوَانِس صِفاته مأنُوسه .

فليكن فيما آستُحفِظَ كُفُوا ، وليُورِد الرّعيّةَ من حُسْن السّيرة صَفْوا ، وإذا تعارَضَ حكمُ الانتقامِ وكان الذنبُ دُونَ الحدّ فلْيقَدّمْ عَفْوا . وعليـه بالعَدْل ، فإنّه زِمامُ الفَصْل؛ والقلْعةَ ورِجالهَـا، وذَخائرَها وأمْوالهَـا، فليُمعِنِ النظر فى ذلك بُكْرَةً وأصيلا، وإجْمالا وتَفْصيلا، وتَحصِيناً وتَحْصِيلا . وعليه بالتّمسُّك بالشّريعة المطَهّره، وأحْكامها المحرّره ؛ وليَرْدَعْ أهْـل الفساد، ويقابِلْ من ظَهر منه العناد، بمـا يُؤَمّن المناهج، ويحدّدُ المَناهج؛ والوصايا كثيره، فليكُنْ ممّـا ذكر على بَصيره؛ أعانَه الله علىٰ ما أوْلاه ، ورَعاه فيما آسترعاه؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه؛ والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــــنف الثـــانى

(مما يكتب بالنيابة عن حاضرة طرابُلُس ــ الوظائفُ الدّينية)

والغالبُ كِتابتها عن نائب السلطنة بطرَابُلُس . فإن كُتب شىْءٌ منها عن الأبْواب السلطانية، كان فى قَطْع العادة «بمجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» .

وهذه نسخة توقيعٍ من ذلك بنظر وَقْف علىٰ جامع بمعاملة طرابُلُس ، كُتب به لمن لقبه «زَيْن الدِّين» وهى :

رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال كَرِيمُ نَظَرِه يستنيبُ عنه بمصالح بيُوت الله تعالىٰ من تزدادُ بنظره شَرَفًا وزَيْنا ، ويعيِّنُ لها من الأعيان من تُسَرُّ به خاطِرًا وتَقَرُّ به عَيْنا ، ويمنحُها من إذا باراه مُبَارٍ وُجِد بينهما بَوْنا وبَيْنا ، ويقرر لها كلَّ كافٍ إذا فاه رَاءٍ بوصْف آرائه المَمْوحَةِ عيَّن صَوابها ولا يَجِدُ عليها عَيْنا ـ أنْ يستقرّ بالنَّظر علىٰ كذا : آستقرارًا يَرَى الوقْفُ بنَظَرِه علىٰ رَبْعه طَلاوَه ، ويجِدُ بمباشرته فى صَحْنه حَلاوَه ؛ ويُعرِب عن آستمراره علىٰ حُسْن الثَّناء ، ويَجدُ من نيلِ رَيْعهِ أكمل وَفاء ؛ لأنَّه النّاظرُ الذى لا يَمَلُّ إنْسانُه ، من حُسْن النَّظر ، ولا يكِلُّ لِسانُه ، عن الأمر بالمصالح ولفْظُه عن إلْقاءِ الدُّرَر ؛ والشَّريفُ الذى وُجِدَتْ مخايِلُ شَرَفه من فَضْل خِلالِه ؛ والجَوادُ الحائزُ بجُوده قَصَب السَّبْق علىٰ أمْثاله ؛ والكاملُ الذى لا تُوجدُ فى صفاته نَقيصَه ، والفاضِلُ الذى أتتْه الفضائل علىٰ رَغْمها رَخِيصَه .

فليُباشِرْ هذا النَّظَر مباشرةً ما تَكَحَّل ناظِرُه فيها بالوَسَن ، ولْيُقَابِلْها من جميل سُلوكه بكل وَجْه حَسَن ؛ ولْيَبْتَدِئْ أوْقاف الجامع المذكور بالعِماره ، ولْيقطَعْ بمُدْيةِ أمانَتِه يَدَ من يَشُنُّ على ماله الغَاره ؛ ولْيأمُرْ أرْبابَ وظائفه باللُّزوم ، وليخُصَّ كُلًّا منهم من فَضْله بالعموم ؛ وليتّقِ اللهَ تعالىٰ فى القَوْل والعَمَل ، وليجتَهِدْ علىٰ أن لا يَتخلَّل مباشرته الخَلَل ؛ والاعتِمادُ علىٰ الخطِّ الشَّريف أعْلاه .... .

الصـــــنف الثـالث

(ممـا هو خارجٌ عن حاضرة طرابُلُس ـ أرباب الوظائف الدّيوانية)

وقلّ أن يُكتب فيهـا شئٌ عن الأبواب الشّريفة السُّلطانية، وانّ الغالبَ كتابةُ ما يكتب فيها من نائب السّلطنة بطرابُلُس . فإن اتّفق كتابةُ شئٍ من ذلك عن الأبواب السلطانية ، مَشىٰ الكاتِبُ فيه علىٰ نَهج ما تقدّم فى الوظائف الدّينيّة : من كتابته فى قَطْع العادة بـ«مجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» لا يختلف الحال منـه فى ذلك إلّا فى الفَرْق بين التّعلُّقات الدّينية والدّيوانيّـة . والكاتب المـاهر يصرِّفُ قلمه فى ذلك وفى كلّ مايحدُث من غيره علىٰ وَفْق ماتقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيـابة الرابعـــة

(نيابة حَماة . ووظائفُها التى تُكْتب بها من الأبواب السلطانية،
ما بحاضرتها خاصّة ، وهى علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصــــنف الأوّل

(أرباب السيوف)

وليس بهـا منهم إلّا نائبُ السلطنة خاصّة . ويُكْتَب له تقليـدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بمضاعَفَة النّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة حَماة :

الحمدُ لله ذى التّدبير اللّطيف ، والعَوْن المُطيف ، والحِياطَة التى تَسْتوعبُ كُلّ تَصْريف وكلّ تَكْليف .

نحمده بمحامدَ جميلةِ التفويف، حَسَنةِ التأليف، مُكمَّلةِ التكييف، بريَّةٍ من التطفيف، حريَّةٍ بكلِّ شكرٍ مُنيف، وذِكْرٍ شريف؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً خلص تحريرها عن كلِّ تحريف، وتنزّه مقالُها عن تسويد تفنيد أو تسويف؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه صاحبُ الدِّين الحَنيف، والمبعوثُ بالرَّحمة والتخفيف؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً متناوبةً تناوُبَ الصَّرير والصَّريف، والشِّتاء والمَصيف، وسلّمَ تسليمًا كثيرا.

وبعدُ، فإنّ من شِيَمِ الدولةِ وسجاياها، وأحكامِها وقضاياها، تقديمَ الأهمّ فالأهمّ، وتحتيمَ الأتمّ من الرأي وتحكيمَ التدبير الأعمّ، وفعلَ كلِّ ما يَحُوط الممالك ويحفظُها، ويُذْكِي العيونَ لملاحظتها ويُوقظُها: لِمَا أوجبه اللهُ من حقوقها، وحَظَره من عُقُوقها؛ ولا يكونُ ذلك إلا باختيار الأولياء لضبطها، والتعويل على الأملياء بالقيام بشرطها، والاستنادِ من الزعماء إلىٰ من يُوفّي من الخَرّاجة(١) والعيون وافِيَ قِسْطها.

ولمّا كانت المملكةُ الحَمَويّةُ جديرةً بالالتفات، حقيقةً بالحياطة من جميع الجهات؛ مُستدعيةً من جميل النظر كلَّ ما يحرُس رَبْعَها، ويُديم نفعها، ويُحفِّل ضَرْعَها، ويَلُمّ شَعَثَها ويَشْعَب صَدْعَها، ويسُرّ سَمْعَها، ويُفعم شِرْعها، ويُعظّم شَرْعها؛ ويكتنفُها اكتناف السُّور والسِّوار، والهالةِ للبَدْر والأكمام للثِّمار؛ وكان فلانٌ هو المتقشّعُ سحابُ هذا الوصف عن بَدْرِه المُنير، والمتقلّعُ ضَبابُ هذا التفويض عن نُور شمسه المُنعِشةِ قُوىٰ كلِّ نبت نضير، والذى بأهليّته لرُتبة هذا التفويض ما خاب المستخير، ولا نَدِم المستشير، والذى يُفرِدُه استحقاقُه بهذه الرتبة فلا يقول أحدٌ من كبيرٍ ولا صغيرٍ امتثالًا للمراسيم الشريفةِ فى حقّه: «منّا أميرٌ ومنكم أمير» - اقتضىٰ

(١) فى القاموس "رجل خرّاج ولّاج كثير الظرف والاحتيال" ولعله المراد هنا .

جميلُ الرأيِ المُنيف ، أن خرج الأمرُ الشريف ـ لا برح يُحسِن التّعويل ، ويَهْدى إلىٰ سواء السبيل ، ويَمْضِى مَضاءَ القضاءِ المُنَزَّل والسيفِ الصَّقيل ـ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة المعظمة فى مملكة كذا وكذا .

فليَقْـدَمْ خيرَةَ الله قائلًا وفاعلا ، ومُقيما وراحِلا ، ومُوجِّهًا ومواجِهًا ومُسَـجِّلا وساجلا ، وعالِمًـا وعامِلا ؛ ومعتمِدًا على الله فى أمْرِه كلّه . وليكُنْ من هذه المعرفة قريبًا ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ حتّىٰ علىٰ نفسهِ رَقيبا ؛ وإذا آتّقىٰ اللهَ كفاه اللهُ الناس ، وإن آتقى الناس لَم يُغْنُوا عنه من اللهِ شيئًا فلْيَقِسْ علىٰ هذا القياس ، ويقْتَبِسْ هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مِخْلبُ الظّفَرِ وظُفْره ، وبهـم يُكْشَف من كل عَدُوٍّ سِرُّه ، ويُخلّىٰ وطنُـه وَوَكْرُه ، ويضْرَبُ زيدُه وعَمْره ؛ ويبدَّدُ جَمْعه ، ويُساء صُنْعه ، ويعمىٰ بصَرُه ويُصَمّ سَمْعُه ؛ وهم أسْوارٌ تُجاه الأسْوار ، وأمواجٌ تَنْدفِعُ وتَنْدَفِقُ أعظم من آندفاق البحار ، وما منهم إلا مَن هو عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ؛ فأحسِنِ استجلابَ خواطِرِهم ، وآستِخْلاب بواطنهم وسرائرهم ، وآستِحْلاب الشائع[1] من طاعاتهـم فى موارِدِهم ومصـادِرِهم ؛ وكُنْ عليهـم شَفُوقا ، وبهـم فى غير الطاعة والاستعباد رَفُوقا ، وأوْجِب لهـم بالجهاد والاجْتِهـاد حُقُوقا ، وآصرف لهم جمْـلا لأعباء المهِمّات والملمّات مُطيقا ؛ وآستَشِرْ منهم ذوى الرأْيِ المصيب ، ومن أحْسن التّجرِيب ، ومن تَحقّقَ منـه النُّصْحَ من الكُهُول والشّيب ، ممن كلل بغيرة منـه ما شَبَّ فإنَّ المرْءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا آجتمعتْ غُصونٌ فى يد أيِّدٍ عَسَتْ[2] علىٰ قَصْفه وقَصْفُ كلِّ واحدَة فواحدَة لا يُعْييه .

(١) فى الأصل "السامع مع من" الخ وهو تحريف كما لايخفى .

(٢) فى اللسان "عسى القضيب يبس" . وهو مناسب للقام .

والجهـادُ[1] فهو مِلاكُ كلِّ ٱستحواءٍ وٱستحواذ ، وبه تميزُ أفعـال الكُفّار بالنّفاد وأفعالُ الدِّين الحنيف بالنَّفاذ ، وماجعل اللهُ للدافعين عن دِين الله سواه ، ولامُرْجِى صَوْبِ صَواب إلا إيّاه ؛ وعلىٰ ذلك جعـل الله أرزاقَهم ، وهيَّأ لهم به إرْفاقَهـم ؛ فليكْرِمْهم بأخذِ الأُهْبَه ، فى الاعتلاء والانْصباب فى كلِّ هَضْبه ، والاستعداد برباط الخَيْل وكلِّ قُوّه .

ومن الوصايا التى ينبغى أنهـا ترسَمُ فى جبهات الفِكَر [دون توانٍ] أو ركون أن لا يسْتَحقِر عدوا ، ولا يَسْتهزِئ بقِلّته لا رَواحًا ولا غُدُوًّا ، وليكُنْ للاستظهار مُسْتَوعبا ، ولإعْمـالِ المكايد مسْتَوثبا ، وللكَشْف بعـد الكَشْف مُسْتَصْحِبا ؛ وغير ذلك من الأُمور ، التى بها صلاحُ الجُمْهور .

والشَّرع الشريف وتنفيذ أحكامه ، وتقْوية أيْدى حُكَّامه ؛ فهو ميزانُ الإسلام والسَّـلامه ، وقِوامُ الصَّلاح والاستقامه ، وأُخوه المُرْتَضِعُ من ثَدْيِ الحَقِّ ، العَـدْلُ الذى كم شَاق وكثيرا ما علىٰ أهـل الباطل شَقّ ؛ وعمَّ القريبَ والبعيـدَ ، والسائِق والشَّهيد ، والمُرِيبَ والمرِيد ، وكلَّ ذِى ضَعْف مُبِيد ، وكلَّ ذِى بأْس شَـديد ، وكلَّ مُسْتَشيرٍ ومُسْتَرِيد ؛ فإنَّ ذلك إذا شَمِل حاط ، وتمّ به الارتيـادُ والارْتباط ، وهدَىٰ إلىٰ أقْوَمِ صِراط .

والحدُود فهى حياةُ النفوس ، وبها تُزَالُ البُوس ؛ فأَقِمْهـا ما لم تُدْرأْ بالشُّبُهات الشرعيه ، والأُمور المَرْعِيَّه .

والأموالُ فهى مَجْلَبـة الرِّجال ، ومَخْلبةُ الآمال ؛ وبهـا يُشَـدُّ الأزْر ، ويَقْوَى الاستظهارُ [و]الظَّهر ، فيشْـدّ من الذين أمْرُها بهم معْذُوق ، ويُقَوِّى أيْديهم بكلِّ طريق فى كلِّ طُرُوق ، بحيث لا يؤخَذ إلا الحق ولا يترك شَىْءٌ من الحقوق .

(١) فى الأصل "والاجتهاد" وهو غلط .

والرعيةُ فهُم عند وَالِى الأمْر ودَائِعُ : ينبغى أنَّها تكون مَحْفوظه ، وبعين الاعتناء ملحُوظَه ؛ فأحسن جِوَارَهم ، وأَزِلْ نِفَارَهُم ، واكْفُفْ عنهم مَضارَّهم ، ولا تعامِلْهم إلَّا بمـا لا تُسْأَلُ عنه غدًا بين يَدَى ربِّك فإنَّه يراك حِين تَقُوم ، وأَعِدْ جواباً لذلك فكلُّ راعٍ مَسْئُول .

وأمَّا غير ذلك فلا بدّ أن تُطْلِعَك المباشرةُ علىٰ خفايا تُغْنيك عن المُؤَامره ، وستَتَوالَىٰ إليك الأَجْوِبةُ عنـد المُسافَرَة فى المكاتبات الوَارِدَة والصَّادره ؛ واللهُ يوفقك فى كلِّ مَنْهجٍ تسلكُه وتقْتَفِيه ، ويسدِّدُك فيما من ذلك تَنْتَحِيه .

قلتُ : أمَّا سائرُ أرْباب الوظائف بهـا : كشَدِّ الدواوين ، وشدِّ مراكز البَرِيد وغيرهما ، فقد جَرت العادة أنَّ النائب يستقلُّ بتوليتها . فإن قدِّر كتابةُ شيء من ذلك لأحد بهـا ، كُتب لمن يكون طبلخاناه فى قَطْع النصف بـ«السامى» بغير ياء ، ولمن يكون عشرة فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» كما فى غيرها .

الصـــــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم علىٰ مَرْتبتين)

المرتبة الاولىٰ — من يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ بالياء» . وهُم قُضاة القُضَاة الأرْبعة .

المرتبة الثانية — من يُكتب له فى قَطْع العادة : إمَّا فى المَنْصُورىّ ، مفتتحًا بـ«أما بعدُ» وإما فى الصَّـغير مفتتحًا بـ«رُسِم» . وعلىٰ ذلك تُكْتب تواقيع قضاة العَسْكر بهـا ، ومفتى دار العَـدْل ، والمُحتَسِب ، ووَكِيل بيْت المـال ، ووظائف

التّداريس والتصادير، ونظر (١) إن كتب شيءٌ من ذلك عن الأبواب السلطانية، وإلا فالغالبُ كتابةُ ذلك عن النائب بها (٢) .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفد)

قد تقدّم في الكلام على المكاتبات أنّها في رتبة نيابة طرابُلُس وحَماة في المكاتبة، وأنّها تُذكر بعد حَماة في المطلقات .

ووظائفها التي تولّى من الأبواب السّلطانية على ثلاثة اصناف .

الصنف الأوّل

(أرباب السيوف، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(نيابة السلطنة بها، ويكتب تقليده في قطع الثلثين)

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السّلطنة بصَفَد، كُتب به لسيف الدين «قطلقتمس» السلحدار الناصري، في سابع رمضان سنة عَشْر وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ، وهي :

الحمدُ لله الذي صانَ الثّغورَ المحروسةَ من أوليائنا بسَيْف لا تَنْبو مَضاربُه، وخصّ أسنى الممالك المصُونة من أصفيائنا بعضْب لا يَفُلُّ غَرْبَه مُحاربُه، وقدّم على زَعامة

---

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصّنا لَيثًا يسكُنُ إليه كلُّ أسَدٍ من أُسدٍ ذائلةٍ(١) تُغالبُه ، حافِظ(٢) نطاق البَحْر من أبطال دولتنا بكلِّ كَمِيٍّ تصُدّ البحرَ مهابتُه أن يَسْتقلَّ براكبه أو تستقِرّ علىٰ ظهره مَراكِبُه ، وناشِر(٢) لواءِ عدلِنا فى أقاليمنا بما يُغنى كلَّ قُطْر [عن] أن تتدفّق جَداولُه أو تستهلّ به سَحائبُه .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى جعلتْ سيْفَ الجهاد رائدَ أوامرِنا ، وقائدَ جيوشنا إلىٰ مواقف النَّصر وعَساكرنا ، وذائدَ أعداءِ الملة عن أطْراف ممالكنا التى أسْبَق إليها من رَجْع النَّفَس فى الدُّجىٰ تألُّقُ نجوم ذَوابِلنا ، وفى الضُّحىٰ تبلُّجُ غُرَرِ صَوارمنا ؛ ونَشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يستظلُّ الإيمانُ ، تحت لِوائها ، وتَعبَق الأكوانُ ، بما تنطِق به الألْسنةُ من ارواتها ، ويُشرق الوجودُ بما يبدو على الوجوه من رُوَائها ، ونُجادِلُ أعداءَها فى الآفاق لرفع كَلِمة مِلّتها على المِلَل وإعلائها ؛ ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتَمُ الأنبياء ، وأشرف حَمَلة الأنْباء ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المخصوصِين بأسْنىٰ مراتِب الأجْتِباء ، صلاةً دائمةً بدوام الأرْض والسماء ؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنّ أوْلىٰ من فُوِّضتْ إليه زَعامةُ الجيوش بأسْنَى المَمالك ، وعُدِق به من تقدُّم العساكرِ ما يُرجِفُ بمهابته هُناك أرْضَ العدوّ هُنالك ؛ وعُقِدَ به للرعايا لِواءُ عدلٍ تَجَلّىٰ بإشراق لَيْلِ الظُّلْم الحالك ، وعُوِّلَ عليه من جميل السيرة فيما تَعْمُر به البلادُ وتأمَنُ به الرعايا وتَطْمئنُّ به المسالك ــ من لم يزَلْ فى خدمة الدولة القاهرة سيفًا تَرْهَبُ العِدا حدَّه ، ويخافُ أهلُ الكُفر فَتَكاته تحقُّقًا أنّ آجالَهم عِنْدَه ، ويتوقّعُ كلُّ كَمِيٍّ من عظماء الشِّرك أنّ رأسَه سيكونُ غِمْدَه ؛ مع سياسة تشتملُ على الرعايا

---

(١) ذائلة طويلة الذيلة .

(٢) حق التركيب «وحفظ عطفا على صان» ... ونشر لواء .

ظلالُها الممتدَّه، وسيرة تضعُ الأشياءَ مواضِعَها فلا تَضَعُ الحِدَّةَ موضع اللِّين ولا اللِّينَ موضعَ الحِدَّه؛ وتَوفُّرٍ علىٰ عمـارة البلاد يُعينُ علىٰ رَيِّها طَلَّ الأنْواء والوابل ، وبراعةٍ تجعلُ ما يودَعُ فيها بالبركَة والنَّمـاءِ : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى هو السيفَ الذى علىٰ عاتِقِ الدَّولة نِجادُه، واللَّيثَ الذى لم يزلْ فى سبيل الله إغارَتُه وإنجادُه؛ والغيْثَ الذى يُخْصِبُ بمعدِلَتِه البلَدُ المـاحل ، والأسَـدَ الذى تَصُدُّ ساكنى البَحْر مهابَتُه فيتحقَّقُون أنَّ العَطَبَ لا السلامةَ فى الساحل ـ اقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نَزِيدَ حدَّ عزمه إرْهافا، وأن نُرهِبَ العدا بيَأسه الذى يردُّ آحادَ ما تقدَّم عليـه من الجيوش آلافا ، وأن نُفوِّضَ إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند[1] إليه يُوسِعُهم عَدْلًا وإنْصافا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف : أن تفوَّضَ إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بصَـفَد المحروسة : تفويضًا يُعلِي قَدْرَه، ويُمضِى فى عموم مصالحها وخُصوصِها نَهْيه وأمْره، ويُرْهِفُ فى حفْظ سواحلها وموانيها بِيضَه وسُمْرَه، ويُصْلِي مُجاوِرَها من ساكنى المـاء من بَأْسه المُتَوقِّد جَمْرَه .

فليَتَلقَّ هذه النعمةَ بباعِ شُكرِه المَديد، ويَترقَّ هذه المرتبةَ بعزيَّةِ اعتزامه التى ليس عليها فيما يُعدَقُ به من مصالح الإسلام مَزِيد؛ وينشُرْ بها من عموم مَعْدلَتِه مالايُخَصُّ دونَ قومٍ قَوْما، ويعمُرْ بلادَها بالعَدْلِ : فإنَّ «عدْلَ يومٍ واحدٍ خيرٌ للأرض من أنْ تُمطَرَ أرْبعين يَوْما» ؛ ويبسُطْ فيها من مَهابَتِه مايَكُفُّ أكُفَّ البُغاةِ أن تَمْتدّ، ويمنع رُخَاء أهْويةِ أهْلها أن تشتدّ ؛ ويؤمِّنُ المسالك أن تُخاف ، والرعايا أنْ يُجار عليهـم أو يُحاف ؛ وليكُنْ مَن فى تَقدِمَته من الجيوش المنصورةِ مكَمَّلى العَدَد والعُدَد ،

(١) فى الأصل "رعايا يا أسند اليه ما" الخ وهو خلط من الناسخ .

ظَاهرِى اللَّأْمَةِ التى هى مادّةُ المجالدَة وعَونُ الجَلَد، مُزاحِى الأعْذارِ فيما يُرْسم لهم به من الرُّكوب، مُزالِى العوائق فى التّأهُّب لما هم بصَدَدِه من الوُثوب، حافِظى مَراكِزِهم حفْظَ العيون بأهدابها، آخذِى أخْبار ما يشْغَلُ البَحْر من قطَع العِدا فى حال بُعْدها كحال اقترابها، بحيثُ لا يُشْرِفُ علىٰ البرّ من قِطَع المخذُولين إلا أسيرٌ أو كَسير، أو مَن إذا رجَعَ بَصَرَه إلى السَّواحل ينقلب إليه البَصَرُ خاسئًا وهو حَسير؛ وليكُنْ أهْلُ الجبالِ بمهابَته كأ[هل ا]لسَّهل فى حُسن انقيادهم وطَاعَتِهم، ويصدّ عنهم بسطوته مَجَال الأوْهام المتَّصلةِ فلا تتَّصرف إلىٰ غير مُجاوِريهم من الأعْداء مواقعُ بأْسِهم وشَجاعَتِهم؛ ومِلاكُ الوصايا تقوى الله: وهى من أخصِّ أوْصافه، والجمعُ بين العَدْلِ والإحسان وهما من نتائج إنْصافه؛ فلْيجْعَلْهما عمدَتىْ حُكْمه فى القول والعمل، والله تعالىٰ يجعلُه من أوليائه المتَّقين وقد فَعل؛ والاعتماد ... ... إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفة الثانية

(نيابةُ قلْعة صَفَد)

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف بنيابة قلْعة صَفَدَ المحروسةِ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ابن فضل الله، كُتب به للأمير سيف الدين «أزاق الناصرى» خامس المحرّم سنة أربعٍ وثلاثين وسبعمائة، وهى:

الحمدُ لله الذى خصَّ الحصونَ برِفْعةِ ذُراها، وسُمْعَةِ مَن فيها من رجالٍ تَحْمِى [حم]اها، وتَخْطَفُ أبصارَ السيوف بسَناها، وتُصيبُ برميها حتىٰ قوْسَ قُزَحَ إذا راماها.

نحمدُه حمدًا تبرُزُ به المعاقلُ فى حِلاها، وتفْخَرُ به عقائل القِلاع علىٰ سوَاها، وتَشْرُفُ به شُرُفاتها حتىٰ تجرى المجرّةُ فى رُباها؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يطيب جَنَاها، ويطنب فى السماء مُرْتقاها؛ ونشهدُ أنّ سيّدنا

محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كَتَب به للأُمّةِ هُـداها ، وكَبَت عِداها ، وبوّأها مقاعدَ للقتال تَقصُر دُونَها النجومُ فى سُراها ؛ صلّى اللهُ عليـه علىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينقَطِع عنهم قِراها ، وسلّمَ تسليمًا كثيرًا دائمًـا إلىٰ يوم الدين .

وبعـدُ ، فإنّ صفَدَ صفَتْ ، ووفَتْ ووَفَتْ ، وكَفَّتْ وكَفَتْ ، وجاورتِ البَحْرَ فمـا غَمَضَتْ عنـه لدَيادِبها عُيون ، ولا خيطَتْ لسيوفها بالكَرىٰ جُفُون ، ولا وَنَتْ لرماحها عَزائِمُ شابَتْ لِمَمُها ، ولا ٱنتَشَتْ من السِّهام نِبالٌ تَفيضُ ديَمُها ، ولا أطالَتْ مجانيقُها السُّكوتَ إلا لتَهْدِرَ شَقاشِقُها ، وتُهَدِّ بها من الجبال شَواهقُها ، وتَهولَ العدا بمـا تُريهم من التَّهْويل ، وتَرْمِى به من كفّاتها الحجارةَ من سِجِّيل .

وهى القلعةُ التى يضرَب المثَـلُ بحَصَانَتها ، ويَطْمَئِنُّ [أهْلُ] الإسـلامِ فى إيداع أموالهم وأهْلهم إلىٰ أمانَتِها ؛ قد أطلّتْ على الكواكب نزولا ، وجَرّدَتْ علىٰ مِنْطَقَة بُروجِها من البُروق نُصُولا ، وأتعبتِ الرياحَ لمـّا حلّقَتْ إليها ، وأخافَت الهلالَ حتّى وقَف رَقِيبًا عليها ؛ وفيها من جنودنا المؤيَّدةِ مَنْ تَزيدُهم بها مَدَدا ، وتَطيبُ قُلوبُهم إذا خرجُوا لجهاد أعداء الله وخَلَّوْا لهم فيهـا مالًا ووَلَدا . وكانت النيابةُ بهـذه القلعةِ المحروسةِ قد كادتْ تَنطِقُ بِشَكْواها ، وتَتَظلَّمُ ممّن أساء صُحْبتَها لمـّا تَوَلّاها ؛ واقتضتْ آراؤُنا العاليةُ أن نُزَحْزِحَ ظَلامَه ، عن صَباحِها ، ونُقَوِّضَ خيامَه ، عما فَرَش على الفُلْك الشاهقةِ من بِطاحِها ؛ وفَكَّرْنا فيمَن له بالقِلاع المحروسة دُرْبَةٌ لا يخفَىٰ عليه بها سُلُوك ، ولا يُخاف معه علىٰ هذه الدُّرّة الثمينة فى سُلوك ؛ ممّن حُمِـد فى دَوْلتنا الشريفةِ مَساءَ صَباح ، ومَن كان فى أبْوابنا العاليـة هو الفَتّاح ؛ ومَن له هِمّةٌ تُناطُ بالثُّرَيّا مطالبُها ، وعَزْمَةٌ ما ٱلقضاءُ إلا قَواضِبُها ، ومعرِفَةٌ ما الرُّمْحُ المثقّفُ إلّا تَجارِبُها ، وكفايةٌ ما الغُرُّ الزواهرُ إذا عدِّدت إلّا مَناقِبُها .

وكان المجلس السامىّ ـ أدام الله عِزّه ـ هو المحلِّق إلى هذه المرْتَبَه، والمخلِّق بالأصيل أرْدِيَتَها المُذْهَبه ؛ والمحقِّق فى صفاته الوَرَع، والمنزَّه عن تدْنِيس طِباعه بالطَّمَع ؛ وله فى الأمانة اليَـدُ المشكُورَه ، وفى الصِّيانة مايمتع به ذُيولَ السَّحاب المجْرُورَه ؛ ومن التقْوى ما قرَّب عليه المطالِبَ البَطِيَّه، ومن الفُروسيَّة ما آتخـذ كلَّ ذِرْوةِ صَهْوَةً وكلَّ جَبَلٍ مَطِيَّه، ومن الاستحقاق مايُسَهِّل له من صـدقاتنا الشريفة صَفَدَ : وفى اللُّغة أنَّ الصَّفَد هو العَطِيَّه

فرسُم بالأمْر الشريف ـ شرّفه الله وعظمه، وأحْكمه وحكَّمه ـ أن يرتَّبَ فى النيابة بقَلْعة صَـفَد المحروسة : على عادة من تقـدّم وقاعدته فى التقرير، وأمّا كيفَ يكون آعتِماده، فسنُرْشِدُه منه بصُبْحٍ مُنِير .

فقـدّم تقوى الله فى سِرِّك ونَجْواك، وآقْصُر على القَناعة رَجْواكَ (١) ؛ وآحْفَظْ هذه القلعةَ من طوارِقِ اللَّيل والنَّهار، وأعِدَّ مَنْ قِبَلَك للقتال فى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أو من وراء جِدَار، وآملأْ سَماءَكَ حَرَسًا شديدًا، وشُهُبًا وكَثِّرْ رجالَها لتبارِى بهم النُّجومَ فى أمْثالها من بروج السماء عَديدا ، وخُذْ إلى طاعَتِنا الشريفة بقُلُوبهم وهم على ذلك ولكنَّا نُرِيدُ أنْ نزيدَهم توْكيدا ، وتألَّفهم على مُوالاتِنا حتَّى لا تَجِدَ أنت ولاهم إلى المزيد مزيدا ؛ وتَفَقَّد الذخائرَ والآلات، وتيقَّظْ لما تُلْجِئُ إليه الضائقَةُ فى أوْسع الأوْقات ؛ وحَصِّنْ مبانِيها ، وحصِّلْ فيها من الذخائر فوقَ ما يَكْفِيها ؛ ومن السِّلاح ما هو أمنعُ من أسْـوارِها ، وأنْفعُ فى أوْقات الحاجة ممـا تكْنِزُه الخزائن من دِرْهَمِها ودينارِها ، : من مجانيقَ كالعَقارِب شائلةً أذْنابَها ، دافعةً فى صدْر الخَطْبِ إذا نابها ؛ ترْمِى بشَرَر كالقَصْر، وتنْزِل من السماء بآيات النَّصْر ؛ ومن قِسِيٍّ : منها ما تُدَافِعُ بالأرْجُل مَرامِى

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعه ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدرا للرجاء ليس فيما بأيدينا من كتب اللغة فتنبه .

سهامه، ومنها ماتدور بالأيدى كأس حمامه؛ ومنها مايسكت إذا أطلق حتى لايسمع كلام كلامه، ومنها ما يترنم إذا غنى بالحمام صوت حمامه؛ و[من] ستائر يستر بها وجهها المصون، ومناير يشاهد منها أقرب من يكون أبعد مايكون؛ ورهجية تجلى بها فى كل ليلة عروسها الممنعه، ودراجة تحاط بهم من جهاتها الست وحدودها الأربعه؛ وأقر نوب الحمام الرسائلى فبها تسقط علينا وعليك الأخبار، ويطوى المدى البعيد فى أول ساعة من نهار؛ وافتح الباب وأغلقه بشمس، واحترز على ما اشتملت عليه من مال ونفس؛ وبقية الوصايا أنت بها أمس، والله تعالى يزيل عنك اللبس؛ والاعتماد ... .

الصنف الثانى

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذين يكتب لهم من الأبواب السلطانية صاحب ديوان الرسائل، وناظر المال، وناظر الجيش، ووكيل بيت المال. وما عدا ذلك فإنه يكتب عن نائبها، وربما كتب عن الأبواب السلطانية.

الصنف الثالث

([أرباب] الوظائف الدينية، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى: ما يكتب فى قطع الثلث بـ«السامى» بالياء، وهم القضاة الأربعة.

المرتبة الثانية: من يكتب له فى قطع العادة، وتشتمل على قضاء العسكر، وإفتاء دار العدل، والحسبة، ووكالة بيت المال.

الصنف الرابع[1]

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بها ـ ثلاث وظائف، يُكْتَب لكلّ منهم فى قطع الثلث بـ«السامىّ » بالياء؛ وهم : صَحابَةُ ديوان المكاتبات ، ونَظَرُ المَال، ونظَرُ الجَيْش . فإن كُتب لأحد غير هؤلاء ، كتب له فى قَطْع العادة .

النيابة السادسة

(نيابة غَزَّة)

وقد تقدّم أنّها تارةً تكون نيابةً، وتارة تكون تقدمةَ عَسْكر، ومُقدَّمُ العسْكَر بها يراجع نائبَ الشَّام فى أموره . وبكلّ حال فالوظائف التى تُولَّى بها من الأبواب السلطانية على صِنْفين :

الصِّنف الأوّل

(أرباب السُّيوف)

وليس بها منهم إلّا نائبُ السَّلطنة إن كانت نيابةً، أو مُقدَّمُ العَسْكر إن كانت تَقْدمةَ عسكرٍ . فكيْفما كان فإنّه يُكتب له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابتها : كُتِب به للأمير « عَلَم الدِّين الجاولى » من إنشاء الشَّيخ شِهاب الدِّين محمود الحلَبِيّ، وهو :

---

(١) هذا الصنف زائد على ما فى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصنف الثانى وغاية ما فى هذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق كتبه .

الحمدُ لله رافعِ عَلَمِ الدِّين فى أيّامنا الزّاهرة، بإقامة فَرْض الجهاد وإدامتِه، وجامعِ رُتَب التّقديم فى دَوْلتنا القاهرة، لمن تَفْتَرُّ الثُّغور بين تَرَقرُق عَدْله وتألُّق صرامتِـه، وقاطِع أطماع المُعْتدين بمَن يتَوَقّد بأسُـه فى ظِلال رِفْقه توقُّد البرق فى ظُلَل غَمامته، وقامِعِ أعدائِه الكافرين بتفويض تَقدمة الجُيوش بأوامرنا الى كلّ وَلىٍّ يُجتَنى النَّصر ويُجتلَى من أفنان عَزَماته ووجاهَه زَعامَته .

نحمدُه على نِعَمِه التى سدّدتْ ما يصـدُر من الأوامر عنّا، وقلّدت الرُّتَبَ السَّنِيَّة بتقليدها أعزَّ الأولياء منّا مَنّا، ورَجّحتْ مُهمّاتِ الثّغور لدَيْنا على ما سواها فلا نَعدِق أمورَها إلا بمن تُعْقَدُ عليـه الخناصرُ نَفاسةً به وضَنّا، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَهُ شهادةً لا تزالُ القلوبُ بإخلاصها مُتَدَيِّنه، والألسنةُ بإعلانها مُتَزيّنه، والأسنّةُ والأعِنّةُ مُتباريَيْن فى إقامة دَعْوتها التى لا تحتاج أنوارُها البيّنةُ إلى البيّنه؛ ونشهدُ أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه أشرفُ مَبعوثٍ إلى الأُمَم، وأكرمُ مَنعوتٍ بالفضـل والكَرَم، وأعزُّ مَنصورٍ بالرُّعْب الذى أغمـدتْ سُيوفُه قبـل تجريدها فى القِمَم؛ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين نَهَضُوا بجهاد أعداء الله وأعدائه على أثبت قَدَم، وسَرَوْا لفَتْح ما زُوِى له من الأرض على جِياد العزائم ونَجائب الهِمَم، وبذَلُوا نفائسَهم ونُفوسَهـم للذَّبّ عن دِينه فلم تَسْـتَزِلَّ أقدامَهم حُمْرُ النَّعَم، ولم يَثْنِ إقدامَهم بِيضُ النِّعَم؛ صـلاةً لا يَمَلُّ السامعُ نِداءَها، ولا تَسْأمُ الألسُنُ إعادَتَها وإبداءَها؛ وسـلّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنّا من حينِ مكّن اللهُ لنا فى أرْضِه، وأنهضَنا بمَسْنُون الجهاد وفَرْضه؛ وقلّدنا سَيْفَ نَصْره الذى انتضاه، وأقامَنا لنُصْرةِ دِينـه الذى ارتضاه؛ لم يَزَلْ مُهِمُّ كلِّ ثَغرٍ مقدَّما لدَينا، وحفْظُ كلِّ جانبٍ جاوَر العـدُوَّ بَرًّا وبحرًا مُتعيِّنا على اعتنائنا

ومُحبّباً إلينا ؛ فلا نُرهِف لإيالة الممالك إلّا من إذا جرّد سيفَه أغمده الرُّعبُ فى قلوب العِدا، ومَن إنْ لم تَسلُكِ البحرَ خيلُه بثّ فى قلوب ساكنيه سرايا مهابةٍ لا تَرهبُ موْجًا ولا تستبعِدُ مدىً؛ ومَن إذا تقدّم على الجيوش أعاد آحادها إلى رُتَب الألوف، وجعل طلائعهم رُسُلَ الحُتوف ؛ وأمدّاهم بأسُه فاستقلّوا أعداءَهم وإن كثُروا ، وأغراهُم بمعنى النِّكايةِ فى كتائبِ العِدا : فكَمْ من قلْب بالرِّماح قد نظَموا وكَمْ من هامٍ بالصِّفاح قد نثَروا .

ولذلكَ لمّا كان فلانٌ هو الذى ما زال الدِّين يرفعُ علَمَه ، والإقدامُ والرأْىُ يبثّان فى مقاتِل العِدا كُلومَه وكَلِمَه ، والعَدْلُ والبأْسُ يتولّيانِ أحكامه فلا يُمضيان إلّا بالحقّ سَيْفَه وقلَمَه ؛ فكَمْ نكّس رايةَ عدُوٍّ كانت مُرتفِعه ، وأباح عَزْمُه وحَزْمُه معاقِلَ شِرْكٍ كانت مُمتنِعه ، وكَمْ زلزَلَ ثباتُه قدَم كُفْرٍ فأزالها ، وهزَم إقدامُه جيوشَ باطِلٍ ترهبُ الآسادُ نِزالَها ؛ فهو العَلَمُ الفرْد ، والبطَلُ الذى لأوليائه الإقبالُ والثّبات ولأعدائه العَكْسُ والطَّرْد ، والولىُّ الذى لولا احتفالُنا بنِكايةِ العِدا لم نسمَحْ بمِثْله ، والهُمام الذى ما عدَقْنا به أمْرًا إلا وقع فى أحسن مواقعه وأُسْنِد إلى أكمل أهْله .

وكانت البلادُ الغزّاويّة والسّاحِليّة والجبليّة على ساحل البَحْر بمنزلة السُّورِ المشرَّف بالرِّماح ، المضفَّح بالصِّفاح؛ مُروجُه الحُماة، وقُلَلُه الكُماة ؛ لايَشيمُ برقَه من ساكنى البحْرِ إلا أسيرٌ أو كَسير، أو مَن إذا رجع إليه طَرْفَه ينقلِبُ إليه البَصَرُ خاسئًا وهو حَسير؛ وبها الجيشُ الذى كَمْ لسيوفه فى رِقابِ العِدا من مَواقِع ، ولسُمْعته فى قلوب أهْل الكُفْر من إغارة تَركتْها من الأمْن بَلاقِع ؛ وبها الأرض المقدّسه ، والمَواطنُ التى هى على التقوىٰ مؤسّسه ؛ والمعابِدُ التى لا تُعْدَق أمورُها إلا بمِثْلِه من أهْل الدِّين والوَرَع ، والأعمالُ التى هو أدرىٰ بما يأتى من مصالحها وأدْربُ بما

يدع — اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعدق به نيابة ملكها ، ونزين بلاليء مفاخره عقود سلكها ؛ وأن نفوض إليه زعامة أبطالها ، وتقدمة عساكرها التى تلقى البحر بأزخر من عبابه والأرض بأثبت من جبالها ؛ وأن نرمى بحرها من مهابته بأهول من أمواجه ، وأمر فى لهوات ساكنيه من أجاجه ، لتغدو عقائل أهله ، أرقاء سيفه الأبيض وذابله ، ويتبر العدو الأزرق من بنى الأصفر ، خوف بأسه الأحمر .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كيت وكيت : تفويضا يحقق فى مثله رجاءها ، ويزين بعدله أرجاءها ؛ ويصون ببأسه قاطنها وظاعنها ، ويعمر ويغمر برفقه وإنصافه مساكنها وساكنها .

فليباشر هذه الرتبة التى يكمل به سعودها ، ويجمل به عقودها ، مباشرة يخيف بأسها الليوث فى أجماتها ، ويعين عدلها الغيوث على دفع أزماتها ، ويغدو بها الحق مرفوع العلم ، مسموع الكلم ، ماضى السيف والقلم ، ممدود الظل على من بها من أنواع الأمم . وليأخذ الجيوش التى بها من إعداد الأهبة بما يزيل أعذارهم عن الركوب ، ويزيح عوائقهم عن الوثوب ، ويجعلهم أول ملب لداعى الجهاد ، وأسرع مجيب لنداء ألسنة السيوف الحداد ، وينظم أيزاكهم على البحر انتظام النجوم فى أفلاكها ، والشذور فى أسلاكها ، فلا تلوح للأعداء طريدة إلا طردت ، ولا قطعة إلا قطعت ، ولا غراب إلا حصت قوادمه ، ولا شامخ عمارة إلا وأتيح له من اللهاذم هادمه . وليعل منار الشرع الشريف بإمضاء أحكامه ، ومعاضدة حكامه ، والانقياد إلى أوامره ، والوقوف مع موارد نهيه ومصادره ؛ ولتكن وطأته على أهل العناد مشتدة ، ومعرفته تضع الأشياء مواضعها : فلا تضع الحدة موضع اللين ولا اللين موضع الحدة ، وليعلم أنه وإن بعد عن أبوابنا العالية مخصوص منا

بمزيّة قُرْبه ، مختص بمنزلة إخلاصه التى أصبح فيها على بيّنة من ربّه ؛ وجميع ما يذكر من الوصايا فهو مما يُحْكىٰ من صفاته الحسنه ، وأدواته التى ما برحت الأقلامُ فى وصف كمالها فصيحة الألسنه ؛ وملاكها تقوى الله وهى فى خصائصه كلمة إجماع ، وحِلْيةُ أبصار وأسماع ؛ والله تعالى يُعلى قدْره وقد فعل ، ويؤيّده فى القول والعمل ؛ والاعتماد ... .



وهذه نسخةُ تقليد بتقدمة العسكر بغزّة المحروسة :

الحمدُ لله مُبْدئ النِّعَم ومُعيدها ، ومؤكّد أسبابها بتجديدها ، ومُعْلِى أقدارِها بمزايا مَزِيدِها ؛ الذى زيّن أعناق الممالك من السيوف بتقليدها ، وبيّن من ميامنه ما رُدّت إليه بمقاليدها .

نحمدُه بمحامده التى تفوت الدّرارىّ فى تنضيدها ، وتفوق الدُّرّ فيتمنّى منه عقدَ فريدها ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نافعةً لشَهيدها ، جامعةً لتوحيدها ، ناقعةً لأهل الجحود بمّا يُوَرّدُ الأرضَ بالدّماء من وَريدها ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى كاثر الأُمَم بأمّته فى عَديدها ، وظاهَر على أعداء الله بمن يفُلّ بأسَ حديدها ، فيُرسِلُ من أسنّته نجومًا رُجومًا لمَريدها ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً تتظافر بتأييدها ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ من عوائد دولتنا القاهرة أنْ تعُودَ بإحسانها ، وتجُود بثُبوت كلّ قَدَم فى مكانها ؛ وإذا ولّت عرف تجابها عن جهة عادتْ إليها ، أو سَلبت لها رونقًا أعادت بهجته عليها ؛ وكانت البلاد الغزّاويّة وما معها قد تمتّعتْ من قدماء ملوك[1]

(١) فى الأصل «ممالك» وهو لا يناسب المقام .

بيتِنا الشَّريفِ بسَيف مشهور، وبطَل تُشامُ بَوارِقُ عَزْمِه فى الثُّغور؛ وهو الذى عمّ بَصَيِّبِ بلادَها سَهْلًا وجَبَلا ، وعمَّر روْضَها بعدْل أغناها أن يَسقِيَ طلٌّ طَلَلا ؛ وجَمع أعمالَها برًّا وبَحرا، ومنع جانبَيْها شامًا ومِصْرا ؛ وألِف أهلُها منه سِيرةً لولا ما ٱستأثرنا اللهُ به من سرِّه لما أفقدناهم فى هذه المدَّةِ حلاوةَ مَذاقِها ، وسَرِيرةً لا نرضىٰ معها بكَفِّ الثُّريَّا إذا بُسِطت لأخذ ميثاقِها ؛ ولم نَرْفعْ يدَه إلا لأمرٍ قضَى اللهُ به لأجَل موقُوت ، ومضَىٰ منه ما نَعْلَم أنَّه بِرجُوعِه القَريب لا يفُوت؛ لأنَّ الشمسَ تَغيبُ لتطلُعَ بضَوْءٍ جديد، والسَّيفَ يُغْمدُ ثم يَنْتضَىٰ فيقُدُّ القَدَّ والجيد ؛ والعُيونَ تُسهَّدُ ثم يُعاوِدُها الرُّقاد، والماءَ لو لم يُفقدْ فى وَقْت لما وُجِد لمَوْقِعه بَرْدٌ على الأكْباد .

فلمَّا بلَغَ الكِتابُ أجلَه ، وأخذَ حقَّه من المَسْألَه ؛ وٱنتقل مَن كان قد استقرّ فيها إلىٰ جِوارِ ربِّه الكريم، وفارق الدُّنيا وهو علىٰ طاعَتِنا مُقِيم - ٱقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن يُراجِعَ هذه العقيلةَ كفؤُها القديم ، وتَرجِعَ هذه الأرضُ المقدَّسةُ إلىٰ مَن فارقها وما عَهْدُه بذَميم ، من لم تزلْ به عقائلُ المَعاقل تُصان ، وخُصُورُ الحُصون بحمائِل سُيوفه تُزان، ومَباسِمُ الثُّغور تُحْمَىٰ فى كلِّ ناحية من أسِنَّته بِلسان؛ وحَمى الثَّغرَيْنِ وما بينهما من الفِجاج ، وجاوَر البَحْرَيْن فمنَعَ جانبَيْهما : فهذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاج؛ وله فى العِدا وقائعُ زُلزِلَت لمواقعها الألُوف، ومواقفُ لولا ما نَعَقَتْ فيها من غِربان البَيْنِ لطالَ على الدِّيار الوُقوف؛ وهو الذى مُدِحتْ له فى بَيْتِنا المنصور المنصوريِّ من الخِدْمة سَوابِق ، وحُمِدتْ طرائق ؛ وكَثُرتْ محاسن ، وكَبُرَتْ مَيامِن؛ ولمَعَتْ كواكب ، وهَمَعَتْ سَحائِب؛ وصدَحَتْ حَمائِم ، وفُتِّحتْ كَمائِم ؛ وعَزَّتْ جيوشُنا المؤيَّدةُ له بمضارب، وهزَّتْ سيوفًا حِدادًا وهو بالسَّيف ضارب .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تعالى نعمته ـ هو الذى حُمدتْ له آثار، وحسُنتْ أخبـار، وعمّتْ مِدَح، وتمّتْ مِنَح ؛ فرسمنـا بإقراره[1] من هذا المَنْصب الشّريف فى محلّه ، وإعادته إلى صيّب وَبْله ، وإنامة أهلها مُطْمَئنّين فى عَدْله ، وإقرار عُيون من أدرك زمانَه بعوده ومَن لم يدرك زَمانَه بمـا سَيَرَوْنه من فَضْله .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لازالتْ ملابِسُ نِعَمه ، تُخْلَع وتُلْبَس بُرودُها ، وعَرائس كرمه ، تُفارَق ثم تُراجَع غِيدُها ـ أنْ تفوّض إليه أُمور غَزّة المحروسة وأعمالها وبلادها ، والتّقْـدِمةُ على عساكرها وأجْنادها ، والحكمُ فى جميع ما هو مُضافٌ إليهـا من سَهْل ووَعْر ، وبَرّ وبَحْر ، وسَواحِل ومَوانى ، ومَجْرى خُيول وشَوانى ، ومَن فيها من أهْل عَمَد ، ورعايا وتُجّار وأعيان فى بَلَد ، ومن يتعلق فيها بأسْباب ، ويعدّ فى صف كتيبة وكتّاب ، على عادة من تقدّم فى ذلك ، وعلى ما كان عليه من المسالك .

وسنختَصر له الوصايا لأنّه بها بَصير ، وقد تقدّم لهـا على مسامعه تَكْرير ، ورأْسُ الأُمورِ التّقْوى وهو بها جَدير ، وتأْييدُ الشّرع الشريف فإنّه على هُدًى وكتاب مُنير ، والاطلاع على الاحوال ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبير .

والعدْلُ فهو العُرْوةُ الوُثْقى ، والإنْصاف حتّى لايَجِد مسْتَحِقّا ، والعَفافُ فإنّ التّطلع لمـا فى أيْدى النـاس لا يَزيدُ رِزْقا ، والاتّصافَ بالذّكر الجميـل هو الذى يَبْـقَى ؛ وعَرْضُ العَسْكر المنصور ومن ينْضَمُّ إليـه من عَرَبه وتُرْكُمانه وأكْرادِه ، وكلّ متكبّر فى جَحافِله ومكثّرٍ لسواده ؛ وأخْذهم بالتأهُّب فى كلّ حركةٍ وسُكون ، والتّيقُّظ بهم لكلّ سيف مشْحوذ وفُلْكٍ مشْحون ، والاحتراز من قِبَـل البرّ والبَحْر ، وإقامة كلّ يزك فى موضعه كالقِلادة فى النّحْر ؛ ولا يعيِّن إقطاعًا إلا لمن يَقْطَع باستحقاقه ،

(١) فى الأصل «من اقراره فى» وهو تصحيف الا أن يكون الأصل فرسمنا مارسمنا من الخ .

ويقمعُ العِـدا بمـا يعرفُ فى صفَحات الصِّفاح من أخلاقه ؛ ولا يُخلِ المبـاشرين من عناية تمدُّ إليهم ساعِدَ المساعدَه ، فلا يُخلُّوا فى البلاد بعمارة تغدُو فى حُلَلِها مائِدَه ؛ وليحفَظ الطُّرقات حفظًا تكون به مَمنوعه ، ويمسِـك المسالكَ فإنّه فى مفرِّق طرقاتها المجموعه ؛ وليقدِّمْ مُهمَّات البَرِيد وما ينْطِق علىٰ جناح الحمـام ، وليتَّخذْهما نُصْب عيْنَيه فى اليَقَظة والمَنـام ؛ فرُبَّ غفلة لا يَسْتدرِكُ فائتَها رَكْض ، ورسالة لا يبلّغُها إلّا رسولٌ ينزل من السماء وآخرُ يَسِيحُ فى الأرْض ؛ ويرصُد ما ترِدُ به مراسِمُنا العالية ليسارع إليه مُمتثِلا ، ويطالعُنا بمـا يتجدّدُ عنده حتّى يكون لدينا مُمثَّلا ؛ وهو يعلم أنّه واقفٌ من بابنا الشريف بالحجاز ، وقُدّام عيننا حقيقةً وإن قيل علىٰ طريق المجاز ؛ فليؤاخِذْ نفْسَه مؤاخَذَةَ من هو بين يدينا ، ويعمَلْ بمـا يسُرُّه أنْ يقـدَّمَ فيما يُعرَضُ من أعْمـاله علينا ؛ واللهُ تعالىٰ يَزِيدُه حُظْوَةً لدينا ، ويؤيّد به الإسلامَ حتّى لا يَدَعَ علىٰ أعداءِ الله للدِّين دَيْنا ، والاعتماد ... .

الصـــــنف الثـانى

(الوظـائف الديوانيـــة بغزّة)

وبها ثلاثُ وظائفَ : يُكْتَب لكلٍّ منها فى قَطْع العادة بـ«السامى» بغير ياء . وهى : كتابةُ الدَّرْج القائمـةُ مقـام كتابة السِّرّ ، ونظرُ المـال ، ونظرُ الجيش . قال فى "التثقيف" : أمّا قاضيها ومحتسبُها ووكيلُ بيت المـال بها ، فإنّهـم نوّابٌ عن أرباب هذه الوظائف بالشّام ، فلا يكتَبُ لأحد منهم شيءٌ عن المواقف الشريفة .

قلتُ : وما ذكره بناءً علىٰ أنّها تَقدمةُ عسكر . أمّا إذا كانت نيـابةً فإنّ هذه الوظائفَ يكتَبُ بهـا عن الأبواب السُّلطانيـة . وقد يكْتَب حينئذ بوكَالة بيْت

المال والحِسْبة عن النّائب ، ويكون ذلك جميعُه فى قطع العادة ، مفتتحًا بـ«أمّا بعدُ» فى المنصورىّ ، أو بـ«رُسِم» فى الصّغير، علىٰ حَسَب ما يقتضيه الحالُ . علىٰ أنّه قد حدث بها فى الدولة الظاهرية قاضٍ حَنَفىٌّ يكْتَب له من الأبْواب السُّلْطانيــة .

النيـابة السابعـة

(نيابة الكَرَك . وأرْبابُ الولايات بها من الأبْواب السلطانية علىٰ أصْناف)

الصـنف الأوّل

(أرْبابُ السيوف)

وليس بها منهم غيرُ نائب السّلطنة، ويُكْتَبُ له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«المجلس العالى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السّلطنة بالكَرَك، كُتب به للأمير «سيف الدين ايتمش» من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحلبىّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى خصّ بعزائمنا معاقلَ الإسلام وحُصُونَه ، وبصّرنا باختيار من نُرَتِّبُه فى كلّ مَعْقِل منها من أمْجاد الأُمَراءِ ليحْفَظَه ويَصُونَه ، وجعلَها بعنايتنا روْضًا تَجْتلِى أبصارُ الأولياءِ من بيضِ صِفاحنا نُوره وتَجْتنِى من سُمْر رِماحنا غُصُونَه، وعوّذَها من آيات الحَرَس بما لا تزالُ حُماتُها وكُماتُها يَرْوُونَ خَبره عن سَيْفنا المُنْتَضَىٰ لحفْظها ويقُصُّونه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أعلَتْ بنا بناءَ الممالك، وحاطَتْها من نَبْل مهابتنا، بما لو تَسَلّلَتْ بِنُسه الأوهامُ ضاقتْ بها المسالِك، وصفّحتْها من صِفاح عنايتنا، بما يَحُولُ برْقُه

بينها وبين ما يستُرُ طَيْفَ العِدا من الظّلام الحالك ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعصِمُ من أوىٰ إلىٰ حَرَمِ إخلاصِها ، وتُنجِي غدًا مَن غدَا من أهْل تقريبها واَخْتِصاصها ؛ ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتْ ملّتُه ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى بَصَر ، وعلَتْ شرْعَته ، فغَدا باعُ كلِّ ذى باعٍ عن معارضتها ذَا قصَر ، وسَمَتْ أُمّتُه ، فلو جالدها مُعاد أوبقَه الحصْرُ أو جادَلها مُناو أوثقَه الحَصَر ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانت مَعاقِلُهم صَهَوات جِيادِهم ، وحُصُونُهم عَرَصاتِ جِلادهم ، وخيامُهم ظلالَ سُـيوفهم وظلالُهم أفياء صعادهم ؛ صلاةً لا يزال الإخلاصُ لهـا مُقيما ، والإيمـانُ لها مُديمـا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ أوْلىٰ الحُصون الإسلامية بأنْ تَحُوطَ عنايَتُنا أركانَه ، وتتعاهَدَ رعايَتُنا مكانَه ، وتُلاحظَ مهابَتُنا أحوالَه فتُحَلِّيها ، وتشاهدَ أوامرُنا قواعدَه فتشيِّدُها بجميـل النّظر وتُعليها ؛ وتَحُول سَطَواتُنا بين آمال الأعداء وتوهُّمه ، وتَحْجُبَ مخافَةُ بأسنا أفكارَ أهـل العناد عن تأمُّلِ ما فى الضّمير وتوسُّمه ـ حِصْنٌ انعقد الإجمـاعُ على انقطاع قَرِينِه ، وامتناع نَظيره فيما خصّه الله به من تَحْصِينه ؛ فهو فَرْد الدّهْر العزيزُ مِثالُه ، البَعيدُ مَنالُه ؛ المسْتَكِنّةُ فى ضمـائر الأوْدِيَة الغوامض بُقْعته ، المسْتَجِنّة بقُلَل الجبـال الشواهق نَقْعتُه ، السّائرُ فى أقْطار الأرْض صِيتُه وسُمْعتُه .

ولمـا كانت قلعـةُ الكَرَك المحروسـةُ هى هذه العَقيلَة التى كَمْ ردّتْ آمالَ المُـلوك رَاغمَـه ، ومنَعتْ أهواءَ النّفوس أن تُمثِّلها فى الكَرَى الأجْفانُ الحالمَه ؛ وكان فلانٌ ممّن ينهضُ مِثلُه بحِفْظِ مِثلِها ، ويعلم أنّ أمانَتها التى لا تَحمِلها الجبالُ قد أُودعتْ منه إلىٰ كُفْئها وضعت كفايَتها فى أهْلها ؛ فهو سَيفُنا الذى يَحُوطها ذُبابُه ، ووَلِيُّنا الذى مَن طَمَحَ بَصَرُه إلىٰ أُفُق حَلّه أحرقه شهابُه ، ونَشْءُ أيّامنا التى تُنْشِئُ كلّ لَيث يَقْنِص

الظَّفَر ظُفْرُه وينبو بالسيوف نابُه ، وغَدِىٌّ دَوْلتنا الذى ما اعتمدْنا فيه على أمرٍ إلّا كَرُم به نُهوضُه وحَسُن فيه مَنابُهُ ـ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصَّها بمهابة سَيْفِه ، ونُحَصِّنَها بمـا فيه من قُوّة فى الحقّ تكُفُّ كلَّ باغٍ عن حَيْفه .

فلذلك رُسم بالأمر الشّريف ـ لازالت الحصونُ المصونةُ تختالُ من ملكه فى أبْهى الحُلَل ، وتعْلو معاقلَ الكُفر بسُلْطانه عُلُوَّ ملّة الإسـلام على المِلَل ـ أنْ تفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفـة بالكَرَك المحروس تفويضًا يُعْـلِى قَدْرَه ، ويُطْلِـعُ فى أُفُقها بَدْرَه ، ويُطْلِقُ فى مصالحها سـيْفَه بالحقّ وقَلَمه ، ويُمْضِى فى حمايتها أفْعالَه وكَلِمَه ، ويسدِّدُ فى أمورها آراءَه المقْرونةَ بالصَّواب وهِمَمَه .

فليباشرْ هذه الرُّتبـةَ العَليَّة صورةً ومَعْنَى ، المليّةَ إذا طاولَتِ الكواكبَ بأنْ لا يعلم لهـا أسْمىٰ وأسْنىٰ[1] ، وليَجتَهِدْ فى مصالحها اجتهادًا يُوالى له من شُكْرنا المِنَح ، ويأْتِى فيـه من مَراضينا بالغَرَض المُقْترح ، ويزيدُها إلىٰ حَصانَتِهـا حَصانةً وقُوّه ، ويَزِينُها بسياسته التى تَغْدو قلوبُ أهْل العِناد بمخافَتِها مَغْزُوّه . ولينظُرْ فى مصالح رجالها فيكونُ لحُمـاتهم مُقدِّما ، ولمقدَّميهم مُكْرِما ، ولأعذارهم مُزِيحا ، ولخواطرهم بتيْسـير مقرّراتهم مُرِيحا . وليَكُنْ لمنَار الشَّرع الشريف مُعظِّما ، ولأحْكامه فى كل عَقْد مُحَكِّما ، ولمَـا قَرُب وبَعُد من بلاد نيابته عامِرا ، ولأكُفّ الجَوْر عن الرعية كافًّا : فلا يبرحُ عن الظُّلْم ناهيًا وبالعَـدْل آمِرا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقوَى الله فليجعَلْها حِلْيةَ نَفْسـه ، ونجىّ أُنْسـه ، ووظيفةَ اجتهادِه التى تَظْهَر بهـا مَزِيّةُ يومه على أمسه ؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْواله ، ويعضُدُه فى أفعاله وأقواله ؛ بمنّه وكرمه ! .

---

(١) لعله «بأن لا يعلم أسمى منها وأسنى» .

***

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السّلطنة بالكَرَك ، كُتب به للأمير «تلكتمر الناصرىّ» عند ما كان المقرّ الشّهابىّ أحمد ولدُ السلطان الملك النّاصر بالكَرَك ، وهو :

الحمــدُ لله الذى جعل بنا المَمالكَ مُحصَّنةَ الحُصون ، مَحْميّةً بكلّ سيف يقْطُر من حدّه المَنُون ، مُمنّعةً لا تَتخطّىٰ إليها الظُّنون ، مُحجّبةً لا تَرَاها من النجوم عُيون ، رافلةً من الكواكب فى عقْــد ثَمِين ، منيعةً أشبهت السّماءَ وٱشْتَبهت بهــا فأصْبحتْ هذه البروجُ من هذه لا تَبِين .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى رفَعت الأقْدار ، وشرّفَت المِقْدار ، وحلّت فى ممالكنا الشّريفة كلَّ عَقِيــلة ما كان مِعْصَمُها المُمتَــدُّ إلى الهلال لِيُترَكَ بغَيْر سِوار ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفعت للحصون العاليــة رُتَبا ، ومُلِئَتْ بهــا سَمَاؤُها حَرَسًا وشُهُبا ، وأعْلتْ مكانَهــا فاقتَبسَتْ من البرق نارًا ووَرَدتْ من السّحاب قُلُبا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مَن بعثَ وُلاةً على الأمْصار ، وكُفَاةً على الأقطار ، صلّى اللهُ عليــه وعلىٰ آله وصَحْبِه ما صدَحت الحَمــائم ، وسفَحتِ الغمائم ؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنّ خيرَ من حُمِيتْ به المَمالك ، وحُمِيتْ ـــ ولله المِنّةُ ـــ منه المسالك ، وٱرتقتْ هِمَمُه إلى الشّمس والقَمر والنُّجوم وما أشْبه ذلك ، مَنْ حصل الوُثُوقُ به فى أشْرف مملكةٍ لَدَيْنا ، وأفضل ما يُعرض فى دَوْلتنا الشريفة من أعْمالهــا الصالحة علينا : وهى التى قعدتْ من الجبال علىٰ مَفارِقها ، وٱتّصلتْ من النُّجوم بعلائقها ؛ وتحدّرت الغَمائمُ من ذُيولها ، وطفَتْ على السماء وطافَتْ على الكواكب بجَرّت المَجرّة

من سُيُوها. وكان الكَرَك المحروسُ هو المُراد، ومدينتُه التى لم يُخْلَق مثلُها فى البلاد، وقلعتُه تتشكّى الرِّياحُ لها طلوعَ وَاد ونُزول وَاد؛ وهى أرْضٌ تَمُتُّ بأنّها لنا سَكَن، ونَمّت مناقبُها بما فى قلوبنا من حُبِّ الوَطن؛ وٱستقرّت للقامات العالية أوْلادنا -أعزّهم الله بنَصْره- فانتقلَتْ من يَمين إلىٰ يسار، وتقابلت بين شُموسٍ وأقْمار، وجادَ بها البَحْر علىٰ الأنهار.

فلمّا خَلَتْ نيابةُ السلطنة المعظمة بها عَرَضْنا علىٰ آرائنا الشّريفة مَن تَطْمئِنُّ به القلوب، ويحصلُ المطلوب، وتَجرِى الأُمُور به علىٰ الحُسنىٰ فيما ينُوب؛ وتُبارى عزائمُه الرياح برمى كل مقلة وهزّة جيد، ولا يُشَكُّ فى أنّه كُفؤُ هـذه العَقيله، وكَافى هذه الكَفالَةِ التى ماهى عند الله ولا عندنا قَليلَه، وكافلُ هذه المملكة التى كَمْ بها بَنِيّةٌ أحْسنُ من بَنِيّة ونَحِيلةٌ أحسن من نَحيلَه؛ من كان من أبوابنا العالية مَطْلَعُه، وبين أيدينا الشّريفةِ لا يُجهلُ مَوْضعُه، طالما تكمّلتْ به الصفوف، وتَجمّلَتْ به الوقوف، وحَسُنَ كلّ موصوف، ولم تخف مَحاسِنُه التى هو بها معروف؛ كَمْ له شِيَمٌ عَلِيَّه، وهِمّةٌ جَلِيَّه، وتَقدِماتُ إقدام بكلّ نهايةٍ غايةٌ مَلِيَّه، وعَزائمُ لها بنَعْته مَضاءُ السّيف وباسمه قُوّةُ الحديد وهى بالنسبة إليه مُلْكيَّه؛ وكان المجلس العالى -أدام الله نِعْمته- هو لابِسَ هذه البُرود التى رُقِمَتْ، والعُقودِ التى نُظمت، وجامِعَ هذه الدُّرَرِ التى قُسِمت، والدَّرارِىّ التى سَمتْ إلى السماء لما وُسِمَت؛ وهو من المَلائِك فى الوَقار، وله حُكْمٌ كالمَاسِ وبأْسٌ يقْطَعُ الأحْجار، وهو مَلَكٌ نِصْفُه الآخَرُ من حَديد كما أنّ لله مَلائِكَةً نِصْفُهم من الثّلج ونصفهم من نَار؛ وهو الذى ٱقتضت آراؤُنا الشريفة أن نجعلَه فى خدمة ولدنا -أمْتعه الله ببقائنا- نائبا بها، وقائما بحسن مَنابها؛ والمتصرِّف فيها بين أيديه الكريمه، والمتلقّ دُونَه لأُمورها التى قَلّدنا بها عنُقَه أمانةٌ عظيمه.

فلذلك خرج الأمر الشريف ـ لا زال به سَيْفُ الدِّين ماضيا ، ولا بَرِحَ كلّ واحد بحكم سَيْفِهِ فى كلّ تجريد وقلمه فى كلّ تقليد راضيا ـ أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس وما معه على عادة من تقدّمه فيها ، وقاعدته التى يتكفل لها بالإحسان ويكفّ العُدوان ويكفيها ؛ وكلّ ما فيها من أمرٍ فهو به منوط ، وكلّ عمل لها به محوط ، وحكمُه فى مصالحنا الشريفة فى جميع بلادها مبسوط ، وله تُطالَعُ الأُمور ومنه تصدر المطالعه ؛ وبه تُزالُ كلّ ظُلامَه ، وتُزاحُ كلّ مَلامَه ؛ ويُؤَيَّدُ الشرعُ الشريفُ ويؤبّد حُكمُه ، وينشر علمُه ويُنْشَر عَلَمُه ؛ وتُقامُ الحدودُ بحدّه ، والمهابةُ بجِدّه . ورجالُ هذه القلعة به تتألّف على طاعتنا الشريفة قلوبُهم ، والرعايا يعمهم بالعدلِ والإحسان وأيسرُ ما عندنا مطلوبُهم ؛ وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعيّتُنا الذين هم لنا ولك ؛ فرفرِف عليهم بجناحك ، وخُذهم بنجاحك ؛ والمسارعةُ إلى امتثال مراسمنا الشريفةِ هى أوّلُ ما نُوصيك باعتماده ، وأَولى ما يُقتبس من نُوره ويُستمدُّ من امداده ، فلا تقدّمْ شيئاً على الانتهاء إلى أمرنا الشريف والعملِ فى السّمع والطاعة بأكمل ما يمكنُ أنْ يستطاع ؛ وخِدْمةَ أولادِنا فلا تدعْ فيها مُمكِنًا ، واعلم بأنّ خدمتهم وخدمتَنا الشريفةَ سواءٌ لأنّه لا فرْقَ بينهم وبيننا ؛ وهذه القلعةُ هى التى أودعناها فى يمينِ أمانتِك ، وحمَيْناها بسَيفِك وصُنّاها بصيانَتِك ؛ فاللهَ اللهَ ! فى هذه الوَديعــَة ، وأدِّ الأمانةَ فإنّها نِسبتِ الذّريعَه ؛ واحفَظْها بقوّةِ الله وتحفّظْ بأسوارها المَنيعَه ، وعليك بالتّقوى لتقوى والوُقوف عند الشّريعَه ؛ والله تعالى يَزيدُك علوّا ، ويبلّغك مَرْجُوّا ، والاعتماد ... .

قلتُ : ورُبّما ولى نيابةَ الكَرَك من هو جَليلُ الرتبة رَفيعُ القَدْر ، من أولاد السلطان أو غيرهم ، فتعظُم النيابةُ بعِظَمِه ، ويُرفَعُ قدرُها بارتفاع قَدرِه ، وتكونُ مكاتبتُه وتقليدُه فوقَ ما تقدّم ، بحسب مايقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب بها عن السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » لولده الملك الناصر « أحمد » قبل سَلْطَنته ، وكتب له فيه بـ«الجناب العالى» ، من إنشاء الشريف شهاب الدّين، وهى :

الحمدُ لله الذى أسعدنا بوِرَاثة المُلْك والممالك، وأرشدنا للرّأى المُصيب فى أنْ نَستنيبَ من نشاء من ذلك ، وأيّدنا بالعَوْن والصَّوْن فى حِفْظ ما هُنا وحَظْ ما هنالك، وعوّدنا الإمدادَ بيُمْنه المتداوَل والإنجادَ بمنّه المتدارَك ، وسدّدنا بالفضل والإسعاف إلى أن نَتّبع من العَدْل والإنصاف أنجحَ السُّبل وأوضحَ المسالك، وعضّدنا من ذُرّيتنا بكلّ نجل مُعْرِق، ونجم مُشْرِق، يَرْشُق شهابُه، فى الكَرْب الحالك، ويأتلق صَوابُه، فى الخَطْب الحالك، وأفردنا بالنّظر الجميل، والفكر الجليل، إلى أسعد تخويل تنير بمرآته فى الآفاق الشُّهبُ الطوالعُ وتَسيرُ ببُشْراه فى الأقطار النُّجُب الرّواتك(1) .

نحمَدُه ! وكيف لا يَحمد العبدُ المالك ! ، ونشكُره على أنْ أهّلنا لإقامة الشّعائر وإدامة المناسك ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له جل فى جبَروته ، عن مُشابِهٍ وتعالَى فى مَلَكُوته ، عن مُشارِك ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أنجد جنودَه من الملإ الأعلى بالملائك ، وأمدّ بُعوثَهُ بالنّصر والظَّفَر فى جميع المواقف والمَعارك ، وأيّد أمّتَه بولاية ملوك يجلسُون فى النّعيم على الأرائك ، ويحرُسُون حِمَى الدِّين بجِهادِهم واجتِهادِهم من كلّ فاتِنٍ وفاتِك ، صلّى الله عليه وعلى آله سُفُن النّجاة المؤمّنين من المخاوف والمنقِذين من المَهالك ، ورَضِىَ الله عن أصحابه الذين نظَمُوا شَمْل الإيمان ، وهزَموا جَمْع البهتان ، بكلّ باترٍ وفاتِك ، صلاةً ورضواناً يُضْحِى لقائلهما

(1) أى القربيات الخطا .

في اليوم العبوس الوجهُ الطَّلْق والثَّغر الضَّاحك، ويُنْشَر فيُحْشَر مع النَّبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُن أُولئك، ما ابْتَهَل بصالح الدُّعاء، وناجح الاستدعاء، لأيامنا كلُّ عابدٍ وناسكٍ، وعوَّل حُسْنُ آرائنا على تقديم مَن هو لجميل آثارنا سالك، وأقبل بالإقبال منّا شهابه المُنير يجلو ما أثير من ليل نقعها السّنابك، لحصل للكرك والشَّوْبَك بهذا القُدوم فخار مسيرك بينهما وبين النجوم الشَّوابك .

أمّا بعدُ، فإن الله تعالى آثرنا بتوفير التوفيق، ويسَّرنا من الهُدى إلى أقوم طريق؛ ووهبنا في الملك النَّسب العليّ العريق، والحسبَ الذي هو بالتَّقديم والتَّحكيم حقيق؛ وقلّدنا من عَهْد بَيْعة السَّلطنة ما لحمده في الآفاق تَطْرِيق، ولِعِقْدِه في الأعناق تَطْوِيق؛ ففيَّأنا من شجرة هذا البَيْت الشريف النّاصريّ المَنْصُوريّ كلَّ غُصْنٍ وَرِيق، وهيَّأ للبريَّة تكريمًا عميمًا بتقديم من له المَجْدُ يتعيّن وبه السُّؤْدُدُ يليق؛ وأطلع في أُفُق أعزّ الممالك علينا من بيتنا شِهابَ عُلًا هو للبدر في الكمال والجمال شبيهٌ وشقيق، وأطعنا أمر الله تعالى في معاملة الولد البارّ معاملة الوالد الشَّفيق؛ وأودعنا لديه ما أودعه الله تعالى لدينا : مملكةً مرتفعةً متسعةً ليرتفع محلُّه ويتَّسع أملُه ولا يَضيق، وجمعنا له أطرافَها لتكونَ لكلمته العُليا بها الاجتماعُ من غير تفريق .

ولمّا كان الجناب العالي، الولديّ، الشهابيّ، سليلُ الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين : هو الذي تُشير رُتَب الكَفالة بترقِّيه، وتقرُّ عيونُ الأولياء بتعيُّنه لإلقاء أمرنا المُطاع وتلقِّيه ؛ وتلهَجُ الألسنةُ ضارعةً إلى الله تعالى أن يخلِّد مُلكَ بيته الشريف ويُبقيه، وتعرُجُ إلى السموات دعواتُ الأتقياء أن يُوقِّيَه اللهُ ممّا يتَّقيه؛ ونُمسكُ في هذا المقام لسانَ المَقال عن مَدْحه أدبا ، ونترك الافتخارَ بالمال والعَديد إيثارًا لثواب الله وطَلَبا ، ونُدرك موعظة الله سبحانه في كتابه قصْدًا وأَرَبا :

﴿والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثوابًا وخيرٌ عُقبا﴾(١) . وببركة هذا القصد يتمّ لنا فيه المراد، ويعمّ هذه المملكة النفعُ بهذا الإفراد ؛ فإنها معهدُ النصر والفتح، ومشهدُ الوفْر والمنح ؛ ومصعدُ العزّ الذى لما وطئنا صرحه تدكدك للعدا كلّ صرح، وتملّك المهتدى كلّ سَرْح ؛ وتنشقنا بها لقرب المزار من طيب طيبة أعظم نفح، وقد بقينا بجاه الحال بها فى تيسير التأييد فكان كاللّمح ؛ وجرى خلَفنا السَّمْح بعد ذلك على عادته فى الحكم والصفح، وسرى ذكرنا فى الشرق والغرب وللحداة به أطرب صدح، وآتى الله من فضله مُلكا نعماً تجلّ عن العدّ والشرح ؛ فيها منشأ دولة الدول ومنها فتح الفتوح ، وبإضافته إلينا تفاؤل خير مشهور ملموح ؛ كما قيل قبلها كَرَك نوح ، فبتطهير الأرض من الكفّار، عزائمنا تغدو وتروح ، وبالاستناد بأطول الأعمار ، أمارةٌ باديةُ الوضوح ؛ وآثار بركة الاسم الشريف المحمّدى تظهر علينا فى الحركات والسكنات وتلوح ؛ ولخبار هذه المملكة المباركة : لاختصاصها بالحرمين الشريفين عليها طلاوةٌ وسعادةٌ وفيها رُوح ؛ ولمّا قد سلكنا بهذا الولد النبيل، سنّةَ أبى الأنبياء إبراهيمَ الخليل، فى ولده إسماعيل، عليهما السلامُ التامُّ فى كلّ بكْرة وأصيل ؛ حيثُ فارقه وأفرده، وتفقّده فى كلّ حين وتعهّده ؛ حتّى شدّ الله تعالى به عضُده ورفع هُو وأبوه قواعدَ البيت وأعانه لما شيّده، فأجمل الله لنا هذا القصدَ وأحمده ، وكمّل هذا الشروع وأسعده ؛ وأجزل [له] من فوائده أوفر هبة وأنجز له من عوائده أصدق عدَه ؛ فأحللناه فى هذه المدّة بمملكة الكَرَك فسلك من حُسن السجايا أحسن مسلك، وملك قلوبَ الرعايا وبما وهب من المنح تملّك ؛ وبسُنّتنا فى التواضُع للحقّ مع الخَلْق تمسّك، وبشيمنا وخُلقنا فى الجُود تخلّق فبذل وما أمسك .

---

(١) التلاوة «وخير أملا» أما وخير عقبا فهو فى آية قبلها .

ولما بلغ أشُدَّه واستوىٰ، وبَزَغ شِهابُ عُلاه الذى هو وبَدْرُ السماء سَواء، وحاز مكارمَ الأخلاقِ وحَوىٰ، وفازَ سلطاننا فى نجابتِه بحسن النية : "وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَىٰ" ـ حكَّمْناه فى هذه النيابة التى أَلِفَها وقرَّبها، وعرف أمورَها وجرَّبها، واستمال خواطرَ أهلِها واستجلَبها، وأدنىٰ لهم لمَّا دَنَا منهم المَيامنَ ولمَّا قرَّبها منهم قرَّبها، واستحقَّ كَفَالَتها واستوجَبها، وأظهرَ اللهُ تعالىٰ فيه من الشَّمائِل أنجبَها، ومن الخلائق أرحَبَها، ومن الأعراق أطيَبَها، ومن العوارف أنسَبَها، ومن العَواطف أقربَها، ومن البَسالة أرهَفَها وأرهبَها، ومن الجلالة أحبَّها إلى القلوب وأعجَبَها، ومن السيادة ما أخذَتْ نفسُه لها أُهبَها، ومن الزيادة ما يتعيَّن [له] شكرُ الله الواهبِ الذى وهَبَها، ومن السَّعادة ما رفَعت الأقدارُ علىٰ مناكِبِ الكواكبِ رُتبَها، وأطلعتْ لحُماتِه سماءُ العَلْياء شُهُبَها، ورقَّتْ علىٰ هامَةِ الجوزاء مَنصبَها، واستصحبتْ من العناية لهذا البَيْت مَزيَّةً فرض اللهُ بها له الطاعةَ وكَتَبها، فاستخَرْنا الله تعالىٰ الذى يختار لنا ويَخير، وسألْناه التأييدَ والتيسير، وفوَّضْنا إليه وهو الكَفيلُ لنا بالتدبير، فى كلِّ مَبْدَإٍ ومَصير، واستَعَنَّا به وهو نِعْمَ النَّصير، واقتضىٰ حسنُ الرأْيِ الشريف أن نُسْرِج شِهابَه المُنير، ونُنْتج للأولياء يمن التأْثيل بحسن هذا التأْثير، ونُنْهِجَ فى بِرِّه سُبُلًا تهلَّمنا إليها كلُّ ذى منبَرٍ وسَرير، ونُثْلِجَ الصُّدورَ ونُقِرَّ العيونَ بسَعيد هذا الإصدار وحَميد هذا التقرير.

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا برح أمرُه يصيب السَّدادَ فيما إليه يصير، وخبرُه يحمل الموافاة فللألسنة عن مكافَأَةِ بِرِّه تقصير ـ أن تفوَّض نيابةُ السَّلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروسِ والشَّوبك للجناب العالى، الولدىّ، الشهابىّ، وما ينضم إلىٰ ذلك وينضاف، من جميع الأقطار والأكناف، وجمعنا له من هذه المملكة الأطراف، وجعلنا له علىٰ سَهْلِها وجَبَلِها إشراف، وصرَّفناه منها فيما هو عن علمه

الكريم غير خاف ؛ نيابةً كاملة ، كافلةً شاملة ، عامّة ، تامّة ، وافرة ، سافرة ، يستلزم طاعته فيها الافتراض ، ونحسم عنه فيها موادّ الاعتراض ، وتنفذ مراسمه من غير توقّف ولا انتقاض ، وتُبسط يده البيضاء من غير انقباض ، ويرتفع رأيه من غير انخفاض .

فلتقدُر رعيّةُ هذه البلاد نعمةَ هذا التفويض قدرها ، وليسألوا الله أن يوزعهم لحسن هذا التفويض شكرها ، فقد أنشأ لهم يُسْرها ، وأفاء لهم برّها ، وألقى إليهم جودها وخيرها ، وأبقى عندهم عزّها ونصرها . وليتّبعوا السّبيل القويم ، وليُجمعوا على الطاعة التى تُبقى عليهم نعمة العافية وتُديم ، وليَسْمَعوا ويُطيعوا لما يرد إليهم من المراسيم ، فمن لم يستقم كما أُمر لا يستمرّ بهذه البلاد ولا يقيم ؛ والعاقلُ لنفسه خصيم ، والجاهل من عدم النعمة وحُرم النّعيم ؛ وفراستنا تلمح نتائج الخير من هذا التقديم ، وسياستنا تُصلح ما قرب منّا وما بعُد بتعريف أحكام التّحكيم ؛ وكيف لا ؟ وهو الكريم بن الكريم ، المؤمّل لتمام السُّؤدد قبل أن يُعقد عليه التّميم ؛ المشتمل على الخلال الموجبة له الفضل العميم ، المتوصّل بيُمن حركاته إلى أن يكون لمثل هذا الملك العظيم ، وإلى أمانته استيداعٌ وإلى صيانته تسليم ، المقبل وجهدنا الإقبال فتتلو الرّجال : ﴿ماهذا بشرًا إن هذا إلّا ملكٌ كريم﴾ .

ونحن نأمرك من التقوى بما به من الله أُمرنا ، ونبصّرك من الهدى بما له هُدينا وبُصّرنا ، ونُبقى لديك من بدائعها ما به خُصصنا وأُوثرنا ؛ ونوصيك اتّباعًا للكتاب والسّنّة ، ونؤتيك من الهداية ما لله فى الإرشاد إليه المنّة : فقد وعظ ووصّى لقمان ــ عليه السلام ــ ابنه ، وأوصى رسول الله صلّى الله عليه وسلم معاذ بن جبل لمّا بعثه إلى اليمن فحقّق الله تعالى فى نجاحه رجاءه وفى فلاحه ظنّه ؛ ونذكّر جنابك ، ونرجو أن

تكونُ ممن تنفعه الذِّكرىٰ، ونُيَسِّرِ شهابكَ، إلىٰ أُفُق السَّعد ونأْمُل أن تُيسَّر لليُسرىٰ، ونُؤمِّرك فتَزيدُ علَم عِزِّك رفعًا ولِواءَ مَجْـدِك نَشْرا، ونأْمُرك ثقةً بحُسْنِ أخلاقك، فيتلُو لسانُ وِفاقِك: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. فمثلك من أيَّدتْه العِصَم، وأصْعدتْه الهِمَم، وحَمِـدَتْه الأُمَم، وأرْشدَتْه إلىٰ الحُكْم ما عَهِدَته فِكْرتُه من الحِكَم، وسدَّدتْه أعْراقُه وأخلاقُه فلا نُزَاد علىٰ ما فيه من كَرَم؛ فلا نُذَكِّر منك نَاسِـيا، ولا نُفَكِّر لَاهِيا؛ ولا نَأْمُر وتَنْهىٰ إلَّا مَن لم يَزَلْ بالمعروف آمرًا وعن المُنْـكر نَاهِيا.

فاتَّقِ اللهَ تعالىٰ: فعلَى التَّقوىٰ مَرْباك، ورَاقِب اللهَ تعالىٰ: فالمراقبـةُ للملوك من بيْتِك مِلَاك، وجِدَّ في نُصْرةِ الحقِّ ولاتَأبَ: فقد أنجد الله تعالىٰ بذٰلك جَدَّكَ وأباك، وٱعدِلْ فبالعَدْل تعْمُر الدُّوَل وأقِمْ منَارَ الشَّرع، فهو الأصْل الذى يُرَدُّ إليه من القضايا كلُّ فَرْع، ومجالُه الرَّحْبُ إذا ضاق الذَّرْع؛ فأيِّدْ حاكِمَه، وشَـيِّدْ معالِمَه؛ وأكِّد الإلزامَ بأحكامه اللَّازِمَه.

والأُمراءُ والجُنْد فهم جَناحُ النَّجَاح، وصِفَاحُ الصِّفاح؛ فاعتمِدْ أحْوالَهم بالصَّلاح، وأرِدْ فيهم ما ٱستطَعْتَ الإصْلاح. والخَيَّالةُ والرَّجَّالةُ الذين يُحْمىٰ بهم مَصُونُ الحُصون أن يُستباح، فالحَظْ أُمُورهم بعَيْنِ فِكْرك فى كلِّ مَساءٍ وصَباح، فمَن نهض فى الخِدْمة تعيَّن مِن النِّعمة أن يُزادَ ومَن قصَّر فى العَزْم قضَى الحَزْمُ أن يُزاح؛ والرعايا فهم للإحسانِ ودَائِـع، وللامْتِنانِ صَنائِـع؛ فاعْذِبْ لهم من المَعْدلة المشارِع، وٱنْصِبْ لهم من إقامة الحُرْمة الزواجِرَ والرَّوادِع؛ وأخْصِبْ لهم من النِّعمة مَرْبعًا يُرغِّبُ إلخاجِعَ ويقرِّبُ الطائع. وأهْلُ الذِّمة فآوِهِم إلىٰ كَنَف العَـدْل الواسِع، وٱحْمِهم أن تمتـدَّ إلىٰ أنفُسِهم يَدُ جَانٍ وإلىٰ أموالهم يَدُ طَامِع، وأقِمْ عليهم بَأسًا يُحِلُّ بهـم إذا ٱعتدَوا

القَواصِمَ والقَوارِعَ ، وأدِمْ لهم مهابة تَسُدُّ من فساد الذّرائـع ، وعاوِدْ آراءَنا الشّريفَة وراجِع ، وواصِلْ بأنْبائِك السارّة وأفعالِك البارّة وتَابِـع ، وبمـا نتطلّع إليه خَواطرُنا العاطفة من مُتَجَدّداتِك المباركة أتْحِف وطالع ؛ والله تعـالى يُشَنّف بحسْنِ سيرتِك المسامع ، ويشرّفُ بحلُول عَدْلِك المَحافِلَ والمَجامِع ، ويُوزِعُك شكْرَ نعمتِه ويجعلُ لك من عِصْمَتِه أعْظَمَ وازِع ، ويمتّعُـك بأيّامِنا التى فيها الخـيْرُ الشّامِلُ والبِرُّ الجـامِع ، ويصونُ بجلالك الحُسنَى ما اسْتَطعْتَ(١) من أسْنَى الودائع ، ويُزَيّن سمـاءَ العَلْياء بجلالك فمنهـا لك قمـراها والنجوم الطوالع ، ويوفّقُ بجميل قصـدك إلى أن تأخذ من القـلوب بالمجامع ، ويحقّقُ فى إسْـعاد جَنابِك المطالب ويُشْرِق بإصْعادِ شِهابِك المطالع ؛ والعلامة ... .

الصنف الثـانى — أرْباب الوظائف الدّينيـة . وبهـا قاضٍ واحدٌ شافعىّ ، وتوقيعُه فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء .

الصنف الثـالث — الوظائف الدّيوانية . وهى ثلاثُ وظائِفَ ، يكْتَب لكلٍّ منهـا توقيعٌ فى قَطْع العادة . الأُولى كتابة الدّرج . الثانيـة نَظَر المـال . الثالثـة نَظَر الجَيْش .

القســـم الثـالث

(ممـا يكْتَب من الولايات عن الأبْواب السلطانية بالديار المصرية — ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية)

وقد تقدّم أنّهـا تشتمِلُ على ثلاث قواعد :

---

(١) لعله «ما استحفظت»

القاعـــدة الأولى

(مكة المشرفة ، وبهـا وظيفتان)

الوظيفـــةُ الأولى

(الإمارة)

وقد تقـدّم أنّ إمارتهـا فى بنى الحَسَنِ بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وأنهـا كانت تُولّى من أبواب الخلافة ببغدادَ إلى حين انقراضها ، إلّا ما تغلّب عليه الفاطميّون أصحابُ مصر فى خلال ذلك . ثم استقرّت آخرًا من جهة ملوك مصر إلى الآن . ويُكتب له تقليـدٌ فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العـالى» بزيادة ألقاب تخصّه ، وقد تقدّمت ألقابه فى أوّل هذا الطَّرَف .

وهذه نسخةُ تقليد بإمْرة مكّة المشرّفة : كُتب بها عن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» لأسد الدّين «رميثة» بن ابى نُمَىّ ، بإمرة مكّة المشرّفة ، عوضًا عن أخيه «عطيفة» عند قتل الامير الدمرجان دار وولده خليل ، من إنشاء المولى تاج الدين ابن البارنبارى رحمه الله ، فى المحرّم سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الحكيم : فالشّريفُ من اتبع أوامرَه ، العظيم : فالسّعيدُ من اتّقى غَضَبَه بأعماله الزاكية ونيّاته الطاهرَه ، الكَريم : فالفائزُ من سلك مَراضيَه فى الدنيا ليأمَنَ فى الآخره ، ومن أخاف ما كفّ حَرَمِ الله وباديَه فقد باءَ بالأفعال الخاسره ، ومن عَظّم شعائرَ الله فقدْ رفَل فى حُلَلِ الإقبال الفاخرَه .

نحمدُه على ألطافه الباطنة والظّاهرَه ، ونشكرُه ونرجُوه وما زال يُنجِحُ راجيَه ويَزيدُ شاكرَه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من اتّخذ الحق ناصرَه ،

وأودع إخلاصها ضمائره ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى بعثه الله من الحرم فألف القلوب النافره ، وفتح مكة فطهرها من الزمرة الكافره ، وقال فى ذلك اليوم : «من أغلق عليه بابه فقد أمن» فأمسى أهلها ونفوسهم بالأمن ظافره ؛ صلى الله عليه وعلى آله بنى الزهراء العترة الزاهره ، وعلى صحبه النجوم السافره ؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن الحكم [بالعدل] شعارنا ، و بالله اقتداؤنا واقتدارنا ؛ وفى الإحسان رغبتنا ، وفى كل عنق مننا ؛ نصفح ونمنح ، ونرعى من أمسى قديم الهجرة فى ولايتنا وأصبح ؛ ونقيم من أهل البيت لحفظ ذلك البيت الأصلح فالأصلح ، ونقدم من لم يزل مقدما وإلى صوب الصواب يجنح فينجح ، ونحيى من المملكة من لاح له منهج الخير فسلكه فأفلح .

وكانت مكة المعظمة هى أم القرى ، والبلد الأمين المجزل فيه القرى ؛ نشأ الإسلام فى بطحائها ، وحرمها الله فلا ينفر صيدها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد تأكيدا لتشريفها وإعلائها ؛ وطلعت شمس النبوة من شعابها ، وغسلت الذنوب بوبل سحابها ؛ فيها زمزم وكرة جبريل ، وفيها بدأ الوحى والتنزيل ، وإليها أعنقت الركاب ففى كل أبطح للطى مسير ومسيل ؛ فكم أتى إليها من سائر الناس سائر ، وكم أتى إليها الناس رجالا وعلى كل ضامر ؛ فالرحمة مستقرة بين نواحيها والعيون تملى بأنوار تلك الأستار حتى تجتليها ، والشفاه تتشرف بتقبيل ذلك الحجر الذى يشهد لها فى غد وبقيها ؛ فطوبى لمتقيها ، وسحقا لمن أخاف وفد الله فيها ؛ ونحن قد بصرنا الله بخدمة بيتها المحرم ، وحرمها المعظم ، وكرر إليها حجنا وكرمه : فلله الحمد أن كرر حجنا وكرم ؛ وما برحنا نقيم فى إمارتها من العترة النبوية كل شريف النسب ،

وكلٌّ من يكْتَسِب فيها رضَا الله تعـالىٰ : وكلُّ ٱمْرِئٍ وما ٱكْتَسب ؛ فمن أصْـلح منهم أقْنـاه ، ومن حَاد عن الطاعة وجَحَد النِّعمة أزلْناه ؛ ومن أخاف فيه السبيلَ لم نجعـلْ له إلى الخَيْر سبيلا ، ومن ٱسـتقام على الطريقـة توكّلْنا على الله ووَلّيناه : وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلا .

وكان فلانٌ هو الذى مازالت خواطِرُنا الشريفةُ تقدّمُه علىٰ بَنِى أبيه ، وتَخْتارُه أميرًا وتَجْتَبِيه ؛ ورُبّمـا سلفَتْ من بَيْتِـه هَنَاتٌ صفَحْنا عنها الصَّفْح الجميل . وما قابلْناهُم إلا بمـا يَليقُ لمجْدِهم الحَسَنِيِّ الحَسَنِ الأصِيل ؛ والإمْرةُ وإن كانت بيَـدِ غيره هذه المدّة فمـا كان فى الحقيقة أميرٌ عندنا سواه ، لأنّه كبيرُ بيْتِه المشكورُ من سائرِ الأفْواه .

والآن قد ٱقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُقِيمه فى بلده أميرًا مُفْرَدًا إليه يشار ، وأنْ نَصْطَفِيَه : وإنّه عنـدنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ، وأن نجعلَ الكلمةَ واحدةً ليأْمن النَّزيلُ والجار ؛ ومَتَىٰ تجاذب الأمْرَ كلمتان فَسَدَ نِظامُه ، ومَتَىٰ أُفْرِد الحُكْمُ حسُنَتْ أحكامُه ؛ ومتَىٰ توحّد الأمْرُ زال الٱختلاف ، وزاد الٱئتِلاف ، وأقبلتْ أيّامهُ .

فلذلك رسم بالأمْر الشّريف أن تفوّضَ إليـه إمْرةُ مكّةَ المشرّفة ، علىٰ عادة والده . فلْيتقلّد ما فوّضناه إليـه من الإمْرة والنيـابة بمكة المعظمة : شاكرًا ما أنعم اللهُ به عليـه من مراضِينا التى لا نَجاةَ لمَن لم ينَـلْ منها نَصِيبًا مَوْفُورا ، ولا فوْزَ لمن لم يُدْرِكْ منها حظًّا كبـيرا ؛ ولْيشْرَعْ فى تمهيد البـلاد من إزالةِ المَظْلِمَه ، ولْيُطَهِّرها من كلِّ مُجْـتَرِئٍ على الله تعـالىٰ فى البُقْعة المحرّمه ؛ ولا يُقَرِّبْ مَن فى قَلْبـه مرضٌ يُعْدِيه ، ولا يرجِعْ لمن فيه شـقاقٌ ظاهِرٌ فى صفَحَاتِ وجْهِه وفَلَتَاتِ فِيـه ؛ ولْيعلَمْ أن هـذا بلدٌ حرامٌ حرّمـه اللهُ يوم خَلَق السّمواتِ والأرْض ، وصيرّ حَجَّ بيْتِـه علىٰ مستَطيعه من الفَرْض ؛ وجعله للنّاس مَعادًا ومَعاذا ، وقال صلّى الله عليه وسلم يوم

عَرَفَةَ : « إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُمْ وأعْراضَكُمْ عَلَيكُمْ حَرامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُم هَـذا فى شَهْرِكُم هَذا فى بَلَدِكُمْ هذَا » .

فلْيَمْنع الدِّماء من أنْ تُراق ، والأموالَ من أن تُؤْخذَ بغيرِ آسْتِحْقاق ؛ والظُّلْمُ فى البَلَد الحرامِ حَرام ، وبَنُو حَسَن أَحَقُّ باتباع سُنَّة الإسلام ؛ وآتّقِ اللهَ لِتَلْقاه بالوَجْه الأبْيض والعَمل الأغَرّ ، وآتّبع سُنَّة جَدِّك : فعلَى آتِّباعِها حَثَّ وأمر ؛ وآلْقَ وفْدَ الله فى البرّ والبَحْر بالحُسْنىٰ فهم أضْيافه ، وأمِّن الحَجَّ ليَتِمَّ نُسُكُه وطَوافُه .

هذا تَقلِيدُنا لك أيُّها الشَّريف : فطِبْ نَفْسًا بِمَراضِينا ، وصَفَحْنا عما مَضىٰ ومَنَحنا الرِّضا حقًّا يَقِينا ، لأنّا نَتحقَّقُ أنَّ الإحسانَ يَحرُسُنا ويَقِينا ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ .



وهذه نسخةُ تَقْليد شريف لأمير مَكَّةَ المشَرَّفة :

الحمدُ لله الذى جعل البَيْتَ مَثابَةً للناس وأمْنا ، ونَصَب فيه للقانتِين رُكْنا ، وجعل أرْضَ الحَرم لاتَبِيدُ بركاتُها ولا تَفْنىٰ ، وجعل لشَجَرة النَّسب الهاشِمىّ فيها أصْلًا شريفًا كَمْ أخرج غُصنا ، وآتىٰ بَنِى الحَسَن فيها إحسانًا من لَدُنْه وحُسْنا ، وأقام منهم أميرًا فى ذلك المحلِّ الأسْنىٰ .

نَحمَدُه فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً كاملةَ اللَّفظِ والمَعنىٰ ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى شيَّد اللهُ به للدِّين خيرَ مَبْنىٰ ، وأضحت الضُّلوع علىٰ مَحبَّته تُحْنىٰ ، وثِمارُ الخَيْر ممابين رَوْضَته ومِنْبره تُجْنىٰ ، وخصَّه اللهُ بالشَّرع المستقيم والدِّين الأهنىٰ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً فى الصدور لها سُكْنىٰ ؛ وسلَّم تسليمًا .

وبعـدُ ، فإنّ أمّ القُرى ، خَيرُ البِلاد بلا مِرَا ، قد جعل اللهُ للناس إليها رِحلةً وسُرى ، وهجَروا فى قَصْدِهم إليها لَذيذَ الكَرى ، ونصَبَ فيها بيتًا متِينَ العُرى ، وأنبع فيها بِئرًا ماؤُها يشفِى السَّقيمَ ويُبْرِئُ الوَرَى(١) ، وجعل فيها للشّرف بيتًا عالِىَ الذُّرى ، فأميرُها المُطاع ، من أهْل بيْتِ النُّبوَّة لا يُخَيَّبُ ولا يُضَاع ، ذُو هِمَّة تخافُها السِّباع ، ويرهَبُها البَطَلُ الشُّجاع ، يَعُدّ من الآباء أسْلافا كِراما ، كمصابيح السماء تجلو ظَلَاما ، وقد طيّب اللهُ مُقَامَهم وأعلىٰ مَقَامَهم حين جاوَرُوا مَقاما .

ولمـا كان ... ... هو شريفَ العَرَب ، المُعْرِقَ فى النَّسَب ، الطَّيِّبَ الحَسَب ، المُحيِىَ من آثار آبائه ما ذَهب ، الشَّريفَ النَّفْس : فلا يلْتَفِتُ إلىٰ العَـرَض الأدْنىٰ من الرِّقّة وأكّد شكْرَه الحَـرمُ وأهلُه ، وأثنىٰ علىٰ صَـفاءِ سيرتِه الصّفا وعلىٰ مروءته المَرْوةُ إذ طاب أصْلُه ، قد اقتفىٰ فى الكَرم أباه وجدَّه ، وأمَّن سَبِيلَ الحاجِّ من جهـة البرّ ومِن جِهَة البَحْر من جُدَّه .

فلذلك رُسم أن يفوِّضَ إليـه ... ... فليحُلَّ البـلَدَ الحرامَ حاكمًا وآمرا ، وليسْتَجْلِبْ له من العاكف والبَـادِ شاكرا ، وليُحسِنْ للطّائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود ، وليتّبِـع آثارَ آبائِه أهْـلِ الكَرم والجُود ، وليؤَمِّن الخائفَ فى تلك التهائم والنُّجود ، وليَرْدَع الحائفَ عن حَيْفه فلا يعُود ، وليعلَمْ أنّه بوادٍ غيرِ ذى زَرْعٍ ولكن فيه للبركات ظِلٌّ مَمْدُود ، وخيرٌ مَشْهُود ، وبمكة مولِدِ أشرفِ مَوْلُود ، وجدّه الحَسَن رضى الله عنه فليَكُنْ حسَنَ الفِعال فكما سَاد يَسُود ، وليُعرِبْ عن الثّناء الأبيض عند ما يتمسك بتلك السُّتورِ السُّود ، وليتَلَقَّ المَحْمَلَ الشريفَ فى كلّ عام ، بالاحتفال والإكْرام ، والطاعةِ التى يَبلُغ بهـا المرام ، وليَقِفْ مع أمراء الحـاج مقيما لحُرْمتِهـم بجَميل الاحتِرام ، وليَكُفَّ الأشرارَ من العبيد والمَوالِى ، عن النَّهْب والتّخطُّف لوفد

(١) الورى اسم للقيح يكون فى الجوف .

الله الذى قطع السُّرىٰ بالأيّام والليالى ؛ وليُلازِمْ خدمَةَ المَحمِل الشريف علىٰ مايناسب شَرَفَه ، حتّى يقف بعَرَفَه ، ثم يدْفع إلى المُزدَلِفَــه ، إلىٰ أنْ يقضىَ الحَجَّ ويرحلَ من مكّة المشرّفه ؛ وليكُنْ سِياجًا على الحُجّاج ، فى تلك الفِجاج ، حتّى لا يفقِد أحَدُهم عِقالا ، ولا يجِــدَ اْختزالا ، ويرحَلُون عن مكّة المعظمَة من الذّنوب خِفافًا وبمَنِّه ثِقالا . والوصايا كثيرةٌ وهو غنىٌّ عن أن نُطيلَ له فيها مَقالا ، وتقوَى الله فمن تمسَّكَ بها حَسُنَ حالا ، وأنتم أهلها كرَّمكم اللهُ أهْلًا وآلا ، واللهَ اللهَ فى حِفْظ جانب الصّحابة رضى الله عنهــم فليرْدَعْ عن الخَوْض فيهم جُهّالا ، واللهُ يجعلُه مغموَرًا مسرورًا بنِعَم الله تعالىٰ ؛ بمَنّه وكرمه ! .

⁂

وهذه وصيّةٌ لأمير مكّة ، أوردها فى "التّعريف" :

وليعْلَمْ أنّه قد وُلّىَ حيثُ وُلِد بمكّة فى سُرّةِ[1] بَطْحائها ، وأُمِّر عليها ما بين بَطْنِ نَعْمانها إلىٰ ذِرْوَة رَوْحائها ، وأنّه قد جُعلتْ له ولايةُ هذا البَيْت الذى به تَمَّ شرفُه ، وطَتْ غُرَفُه ، وعَرَفَ حَقّه له أبطحُه ومُعرَّفُه ، إذ كانــ أولىٰ وُلاةِ هذا الحَرَم بتعظيم حُرُماته ، وسُرور جوانبه بمــا يلُوح من البِشْر علىٰ قَسَماته ؛ ولأنّه أحقُّ بنى الزَّهْراء بمــا أبقته له آباؤُه ، وألقته إليه من حديث قُصَىٍّ جدّه الأقصىٰ أنباؤُه ؛ وهو أجدرُ من طهّر هذا المسْجِدَ من أشياءَ يُنَزه أن يلحَق به لُحْشُ عابهــا ، وشَنعاءَ هو يعرف كيف ينْكبّها «وأهلُ مكّة أعْرفُ بشِعابها» .

فليتلقَّ رايةَ هذه الوِلايةِ باليَمين ، وليَتوقَّ ما يَخُوف به ذلك البَــلَدَ الأمينــ ؛ وليعلَمْ أنّه قد أعطى الله عَهْدَه وهو بين رُكْن ومَقام ، وأنّه قد بايَع اللهَ : واللهُ عزيزٌ ذو انتقــام ؛ وليعمُرْ تلك المَواطن ، ويغمُرْ بِرّه البــادّ والقاطن ؛ وليعملْ فى ذلك

(١) فى الأصل «ثمرة» والتصحيح من "التعريف" (ص ١٠٤) .

بما يُحَبُّ عنه نَجِارُه[1] ، ويأمَنُ به سُكَّانُ ذلك الحَرَم الذى لا يُرَوَّعُ حَمامُه فكيف جَارُه ، وليُنصِتْ إلى ٱسْمِه [عزّ وجلّ] حيث يُعلِنُ به الدّاعى علىٰ قُبَّة زَمْزَم فى كلِّ مساء وليَعْرِف حقّ هذه النّعمه ، وليعامِلْ من وُلِّىَ عليهم بما يليق أنْ يعامَلَ به من وقَف تحتَ ميزابِ الرّحمــه ، وقد أكّد مَوْثِقَه والله الله فى نَقْضِــه ، ومدَّ يَدَه على الحجَرِ الأسْودِ يَمينِ اللهِ فى أرضه ، وليَتبصَّرْ أيْنَ هُو فإنَّ الله قد ٱستأمَنه علىٰ بيْته الذى بَناه ، وسلَّمه إليه بمَشْعَرِه الحَرامِ ومَسْجِد خَيْفِه ومِناه ، وأنّه البَيْتُ المقصود : وكُلُّ من تَشَوَّق حِمَىٰ لَيْلَىٰ فإنَّما قصَدَه أو تَطَلَّعَ بلَمْلَمٍ فإنَّما عَناه ، وفى جَمْعه يجتمِعُ كلُّ شَتِيت ، وفى ليالى مِنَاه يَطيبُ المَبِيت ، وبِحَصَّبه تُقام المواسِم ، وتفترُّ الثغور البَواسِم ، وتَهُبُّ من قبل نَعْمانَ الرِّياحُ النَّواسِم ، وفى عَقْوَة دارِهِ تُحطُّ الرِّحال فى كلِّ عام ، ومقرّ كل ذات عُود تُجذَبُ بقِلْعٍ وعُودٍ تُقادُ بزِمام ، وإليه تضرِبُ التُّجّار البرارِىَّ والبِحار ، وتأتيه الوُفودُ علىٰ كلِّ قِطارٍ يُحدَىٰ من الأقطار ، وكلُّ هؤلاء إنّما يأتُون فى ذِمَام الله بيتِــه الذى مَنْ دخله كان آمِنــا ، وإلىٰ مَحَلِّ ٱبن بنْتِ نَبِيِّه الذى يلزمه من طريق بِرِّ الضيف ما أخذ لهم وإن لم يكُنْ ضَامِنا .

فليأخُذْ بمن أطاع مَن عَصىٰ ، وليَرْدَعْ كلَّ مفسِــد ولا سِيَّــا العبيدُ فإنَّ العبــدَ المفسدَ لا يَزْجُره إلا العصا ، وليتلَقَّ الحُجّاجَ بالرُّحْب والسَّعَه ، فهم زُوّارُه وقد دعاهم إلىٰ بيْتِــه وإنّمــا دعاهم إلىٰ دَعَه ، وليتلَقَّ المَحْمِلَ الشريفَ والعصائبَ المنصوره ، وليخْدُمْ علىٰ العادة التى هى من الأدب مع الله تعــالىٰ مَعْنًى ومعَنا صُــورَه ، وليأخُذْ بخواطر التُّجّار فإنّهم سبَبُ الرِّفقِ لأهل هذا البلد وتَوْسِعَةِ ما لَدَيْهم ، والمُسْتَجابُ فيهم دَعْوةُ خليــله إبراهيم ــ صلوات الله عليــه ــ إذ قال : ﴿ وٱجْعَلْ أفئدَةً مِنَ النَّاس تَهْوِى إلَيْهِمْ﴾ . ولا تُحَيِّفْ أموالَهم بغرامَةٍ يَقِلُّ بها الغُنْم ، ولا بظُلامَةٍ فإنّه بإزاء هذا

---

(١) يحب يستخرج ونجاره أصله .

البيتِ الذى يُرَدُّ دُونَه من أراد فيه إلحادًا بظُلْم ؛ ولْينظُرْ كيف حُبِس دُونَه الفيل ، وليكُفّ عادِيَةَ مَنْ جاوره من الأعراب حتّى لا يخاف ابنُ سبيل ؛ وليُقِمْ شعائرَ الشَّرع المطَهّر ، وأوامرَ أحكامه التى قامت بأبويه : بحُكْم جدّه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسَيْف أبيه حَيْدر . وليأمُرْ طوائفَ الأشراف وأشياعَهم وسائرَ أهلِ موالاتهم وأتباعهم بلزُوم ما كان عليه صالحُ السَّلَف وما عليه الإجماع ، وتجنُّبِ ما كانت الزَّيديّةُ زادت فيه وكَفِّ الأطماع ، وليتّق الله فإنّه مسئُولٌ لدَيْه عما استرعاه وقد أصبح وهو له رَاع ؛ وإيّاه أن يتّكل علىٰ شرف بلَدِه ، فإن الأرض لا تُقَدِّسُ أحدا ، أو شَرفِ محْتِدِه ، فإنّ فى يوم القيامة لا ينفعُ وَلَدٌ والدًا ولا وَالدٌ ولَدًا .

الوظيفة الثانية

(قضاءُ مكّة ، ويكتَب به تَوقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«السامى» بالياء)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقضاء مكّة المشرّفة :

الحمدُ لله الذى أنفذ الأحكام ، بالبَلَد الحَرام ؛ وأيّد كلمةَ الشَّرعِ فى بلَدِه ومنْشَئِه بين الرُّكْن والمَقَام ، وجعلَ الإنْصافَ الجَزِيل ، حَوْل حِجْرِ إسْماعيل ، مُتّسِق النِّظام .

نحمدُه حمدًا حَسَنَ الدّوام ، ونشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ قائمٍ بحقِّها أحْسنَ القيام ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه السّامِى من ولد سَام ، والذى قام لله حتّى ورِمَت منه الأقْدام ؛ وأُسْرِىَ به من مَكّةَ إلى السماء مرّتَين : فى اليَقَظة والمَنَام ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمّة الصّلاة والصّيام ، وسلّمَ تسليمًا .

وبعـد، فإنَّ وظيفةَ القضاءِ بمكَّةَ المعظمةِ هى أجَلُّ منْصبٍ بتلك الأباطح، ونُورُها فى الجبين لائح؛ فإنَّ الشَّرع نَشأ منها والوَحْىَ أنزل فيها فزُهيت البطائحُ، وظهرتِ النَّصائح، وأطربت الصَّوادح، وأسكتت النَّوائح، وغمرت المنَائح، وانتشرتِ المَصالح، فمن وَلِىَ الحُكْمَ بها وعدَلَ فذلك هو العَدْلُ الصالح، وكيف لا؟ وماءُ زَمْزمَ شرابُه، وأستارُ البَيْت تَمسُّها أثوابُه، وعلى اللهِ أجْره وثوابُه؛ وفى ذلك الجناب الشريف كَرُم جنابُه، وإذا دَعا اللهَ عند المُلتزَمِ جاءه من القبول جوابُه .

ولمَّا كان فلانٌ هو فرعُ الدَّوْحَةِ المثمِره، ومحَصِّـل من العلوم الشَّرعيةِ المـادَّةَ المُوَفَّره، وله البُحوثُ التى [هى] عن أحْسن الفوائد وغُررِ الفرائد مُسْفِره، ورِضىُّ أهْلِ الحرَم، لمَـا جُبِلَ عليه من خَيْرٍ وكَرَم، [تمسك] بالعروة الوثقى والقوى الأتقى فلا جَرَم .

فلذلك رسم ... ... - لا زال ... ...

فليكن فى أُمِّ القُرى، كالوالدِ المُشْـفِق على الوَرى، وليَتمَسَّكْ من التَّقْوى بأوثق العُرا، وليخْشَ رَبَّ هـذا البَيْتِ أنّه سميعٌ يسـمَعُ ويَرى، ووَفْد اللهِ قطعُوا إليـه المَراحِلَ فى السُّرى، ليصالحُوا كفَّه المضَمَّخَ عنْبرا، وليقْضِ بين الخصوم بالحقِّ فمثْلُه من دَرأَ الباطل: قد جعله اللهُ جارَ بَيْتٍ عَالِى الذُّرا، وفى أرضٍ شرَّف اللهُ جبالهـا وقدَّس غِيرَانَها فمنها غَارُ ثَوْرٍ وغَارُ حِرَا، لأنَّ النبىَّ صلَّى الله عليه وسلم كان يتَعَبَّدُ فى غَارِ حِرا، وأوى إلى غَارِ ثَوْرٍ لمـا هَاجرَ مُؤَيَّدًا مظَفَّرا، والوصايا كثـيرةٌ وملاكُها تقوى الله فليتمسَّكْ بها من أمامٍ ووَرا، والله تعالى يجعلُ نهاره منوّرا، ولَيْلَه مقْمرا، بمنّه وكرمه! .

القاعدة الثانيـــة

(المدينةُ النبويةُ، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفـــة الأولىٰ

(الإمارةُ)

والأمرُ فيها علىٰ مامرّ فى إمارة مكّة المشرّفة .

وقد تقـدّم أن إمارتها فى بنى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهـما ، ويكتبُ لهـا تقليدٌ فى قَطْع النّصف بـ«المجلس العـالى» أيضا بألقاب مخصوصة ، وقد تقدّم ذكر ألقابه .

وهـذه نسخةُ تقليـد شريف بإمارة المدينة النبوية، كُتب به للأمير بدر الدين «وُدَىّ[(1)] بن جماز» من إنشاء المقرّ الشهابىّ بن فضل الله ، سقى اللهُ عَهْده :

الحمدُ لله الذى صرّف أمرنا فى أشرف البِقاع ، وشرّف قَدْرنا بمُلْك ما انعقد علىٰ فَضْله الإجماع ، وعرّف أهلَ طَيْبَةَ الطيّبة كيف طلع البدرُ عليهم من ثنيّات الوَدَاع ، وأمدّها بوُدَىّ صُغّر للتحبُّب وإلّا فهو وادٍ متدفّقُ الأجْرَاع .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أغنتْ مَهَابطَ الوَحْى عن ارتقاب البَرْد اللّمّاع، وارتقاء النظر مع بدره المنير إلىٰ كلّ شمس سافرة القِنَاع، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُخْمِد من الضلال ما شاع، ومن البِدَع ما استطار له فى كلّ أُفُقٍ شُعاع ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدا عبــدُه ورسولُه أشرفُ من أنِفَت به حَمِيّة الامتناع، وأَلِفَت

---

(١) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكبير تبعا لضبط النسخة والظاهر ماهنا .

بنا سُنّته أن ترعىٰ لأهلها ولا تُراع، وعصفت ريحُها بمن يمالى دينه فمال إلىٰ الابتداع ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ليس فى فَضْل أحدٍ منهم نزاع، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإن الاهتمام بكلّ جهة علىٰ قَدْر شَرَفها، وعلىٰ حَسَب الدُّرّة الثمينة كرامةُ صَدَفها، والكِمامةُ بثَمرها، والغَمامة بمطَرِها، والهالَةُ بما يجلو الدُّجىٰ من قَمرها؛ والمدينة الشريفة النبويّة لولا ساكنُها ما عاجَتْ إليها الركائب، ولا ناجَتْ حدائقَها غُرُّ السَّحائِب، ولا وقفت بتأرُّج شَذَا الرّوضة الغنّاء بها الجَنائب، ولا بكى متيَّمٌ دِمَنَ العقيق بمثله من دم ذائب، ولا هاج إليها البرقُ متألّقا، ولا هام صَبٌّ فيها بظَبَياتِ سَلع والنّقا، ولكنّها مَثوَى النُّبوّة تُرابُها، ومَهوَى الرُّسل جَنابُها، ومأوىٰ كتاب الله الفَسيحُ رِحابُها، دارُ الهِجرة التى تعالتْ شمسُ الشريعة بأُفُقِها، وتوالَتْ سُحُب الهُدىٰ من بين أُبيرِقها، وهى ثانيةُ مَكّة المعظمة فى فَضْلها إلّا ماذهب إليه فى تفضيلها علىٰ مكّة مالكُ بن أنس، ومنها انبعثَتْ للهُدىٰ نوّارة كلّ نُور وشُعاعُ كلّ قَبَس، وكانتْ لنبيّ هذه الأمّة صلّى الله عليه وسلم أبقىٰ داريْه، وأعلىٰ سماء حوتْ ثلاثةَ أقمارٍ منه ومن جارَيْه .

ولما كان بها لبعضِ الوُلاة من الشّيعة مُقام، ولهم فيها تحامُلٌ لا يجوز معه من الانتقاد إلّا الانتقالُ أو الانتقام؛ حتّى إنّه فيما مضىٰ لمّا كثُر منهم علىٰ بُغْض الصاحِبَيْن ـ رضى الله عنهما ـ الإصْرار، واشرأبّوا فى التّظاهُر بسَبّهما إلىٰ هَتْك الأستار؛ دبّ من النار فى هذا الحَرَم الشريف ما تعلّق بكلّ جِدار، وأبَتْ لها حَميّة الغضب إلّا أنْ يطَهّر ما سَنّته أيدى الرّوافِض بالنّار؛ فلما اتّصل بنا الآن أنّ منهم بقايا وَجدُوا آباءَهم علىٰ أُمّة، واقتدَوْا بهم فى مَذْهب الإماميّة بما لاأراده اللهُ تعالىٰ

ولا رسوله صلّى الله عليه وسلم ولا أولئك الأئمه ؛ وحضر المجلس العالى الأميرىّ، الأصيلىّ، الكبيرىّ العادلىّ، المجاهدىّ، المؤيّدىّ، الزّعيمىّ، المقدّمىّ، الذّخرىّ، الكافلىّ، الشّريفىّ، الحسيبىّ، النّسيبىّ، الأوحدىّ، البدرىّ : عزّ الإسلام والمسلمين، شرف الأمراء فى العالمين، نصرة الغزاة والمجاهدين ؛ جمال العترة الطاهره، جلال الأسرة الزّاهره ؛ طراز العصابة العلويّه، كوكب الذّريّة الدّريّه، خلاصة البقية النّبويّه ؛ ظهير الملوك والسلاطين، نسيب أمير المؤمنين ؛ ودىّ بن جمّاز الحسينى — أدام الله تعالى نعمته — بين أيدينا الشريفة بمحضر قضاة القضاة الأربعة الحكّام، وتذمّم بأنّ مع طلوع بدره المنير لا تبقى ظلامة ولا ظلّام ؛ وتكفّل لأهل السّنة بما أشهدنا الله به عليه ومن حضر، وتلقّى بإظهار فضل الترتيب كما هم عليه : النبىّ صلّى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ؛ فما اختصّهما الله بجواره إلا ليثبت لهما على غيرهما إفضالا، وليجعل قبورهما فى معرفة أقربهم منه درجة مثالا ؛ لما تواترت به الأحاديث الشريفة فى فضائلهما ممّا هو شفاء الصّدور، ووفاء بعهده إذ يقول : « عليكم بسنّتى وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدى عضّوا عليها بالنّواجذ وإيّاكم ومحدثات الأمور » ؛ فلم يسعنا إلا أن نجعل له منّا تقليدا يمحو بحدّه ما حدث من أحداث البدع، ويجدّد من عهد جدّه نبينا صلّى الله عليه وسلم فى معرفة حقّ أصحابه رضى الله عنهم ما شرع ؛ وثوقا بأنّه من بيت كان أوّل هذا الدّين[1] الحنيف من دلّه، ومبدأ هذا الحقّ الظاهر ما أثّلته ومثّلته فى سلفه الشريف بأقارب متصله ؛ وأنّه هو الموروث من الفخار ما ورثه عن آبائه الكرام، المحدّث عن كرم الحدود بما لا يحقر له جوار أو يخفر ذمام ؛ المشرق من الأسرة العلويّة بدرا تماما، المحقّق به من الكواكب العلويّة ما يظن به(؟) أبا تسمّى وأبنا

(١) الدّلّ الحسنى.

تساميٰ ، المنتخَبُ من آباء صدَق أحسن فى ديارهم الصنيع ، وحفظ من حسَبهم الكريم ما أوشك أنْ يَضيع ، وآستضاءَ بلامِعَةٍ من هُدَىٰ سَلَفه السابق ، وهامِعَةٍ من نَدَىٰ ما يُرْوِيه السَّحابُ عن الجُودِ والبَرْقُ عن المَهارِق ؛ تهتزّ بمَقْدَمه المدينةُ سرورا ، وتفترّ رُباها منه بنَسَب كأنّ علىٰ نَسَبِه من شمس الضّحىٰ نُورا ؛ ويتباشَر ما بين لابَتَيْها بمن يَحْمِي حِماها ، ويُحيِي مُحيّاها ؛ وتتشوّف منه رُبَا كلِّ ثَنِيَّة إلىٰ آبن جَلاها ، وطَلّاعِ ثَنايَاها ؛ مع ما لا يُجحَدُ من أنّ له فيها من أبيه حقّ الوِراثَه ، وأنّه لما كان هذا ثانِيَ المسجِدَيْن آحتاج إلىٰ ثانِي آثنَيْن تعظيمًا للواحد وفِرارًا من الثّلاثَه ؛ ليكونَ هو ومَن فيها الآن بمنزلة يدَيْن كلتاهُما تقْبَل الأُخرىٰ ، وأُذُنَيْن كلتاهما تُوعِي دُرّا ، وعَيْنَيْن مامنهما إلا مايُدرِك أمْرًا بعيدا ، وفَرْقَدَيْن لا يصلُح أن يكون أحدُهما فَرِيدا ، وقَمَرَيْن لا يغْلِبُ أحدُهما على الآخر فى التّسمية بالقَمَرَيْن ، وعُمَرَيْن وكَفىٰ شرفًا أن لا يُوجَد فى الفَضْل ثالثٌ للعُمَرَيْن .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى ـ زاد الله به المواطِنَ شرفا ، وزاد به البواطن الشريفةَ حبًّا وشَغَفا ـ أن يفوّض إليه نِصْف الإمْرة بالمدينة الشريفة علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ، شريكًا للأمير سَيْف الدين ابن أخيه ، ورَسِيلًا معه فيما يَلِيه ، ولكلٍّ منهما حقٌّ لا يكاد الآخر يُخفيه ، هذا له برُّ الوَلَدِ وهذا له حرمةُ الوالِد لأنّ آبن الأخ ولدٌ وعمّ الرّجل صِنْوُ أبيه ؛ فتُقْسَمُ الإمرة بينهما نِصفَيْن ، وتوسَم جِباهُ الكُتب الصادرةِ عنهما لهما بآسْمَيْن .

والوصايا تمتدّ من عنانها ، وتعدّ من أعْيانها ؛ فأوّلها تقْوى الله فإنّها من شعائر القلوب ، وبشائر الغُيوب ، وأمائر نجاح كلِّ مَطْلوب ؛ والاعتصامُ بالشّريعة الشريفة : فإنّها الحبلُ الممدود ، والجَبَل الذى كَمْ دُونَه من عَقَبة كَئُود ؛ والانتهاءُ إلىٰ مانص عليه

الكتابُ والسنةُ والإجماع ، وقصَّ جَناحَ مَن مالَ به الهوىٰ إلىٰ مجاذبة الاطماع ، وتلقَّ وفدِ الله الزائر بما ألِفه نزيلُ هذا الحِمىٰ من كرامة المُتقىٰ ، وتوقَّ المَذمّة فإنها دنَس لا يَجحدُ مثلَه نقاءُ هذا النقا ، ونعني بالمَذمّةِ ما نُسِب إلى الرّوافِض من البِدَع التى لا تُطهِّرها غُرُّ السحاب ، ولا يستبيح معها لدخول المَسجد الطّاهر من قَنِع بمقامه حَوْله التيممَ بالتراب ؛ ولا يَدَعُ أحدًا من هذه الفِرقَة الضّالّة بعنى ولا يعيِّره بما يكون به مثْلَه ، ولا يشَبِّه قلبه فى محبّة أهلِ البَيْت ــ سلام الله عليهم ــ بإناءِ امتلأ ماءً ولم تبق فيه فضْلَه .

ولا يظنُّ جاهلٌ منهم أنَّ عليًّه ــ كرّم الله وجْهَه ــ كان علىٰ أحد من الصاحِبَيْن معاتبا أو عاتب ، أو أنّه تأوّل فى خِلافتهما معتقدًا أنَّ أحدًا منهم غَاصِب ؛ فما تأخّر عن البَيْعةِ الأُولىٰ قليلًا إلّا لاشتغاله بما دَهَمه بموتِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم من المَصائب ، وإلّا فقد اتخذ أمَّ ولَدٍ من سَبْيِ أبى بكرٍ رضى الله عنه لا كما يدّعيه كلُّ كاذب ، وقد تزوّج عمرُ بن الخطّابِ رضى الله عنه ابنتَه أمّ كُلثوم وأقام بأمْره الحُدودَ وناب عنه وهو غائب ؛ فيكُفُّ من عاديَة هؤلاء الروافِض الأشرارِ ما سيَصْلَوْنَ فى المُوافقة بنَاره ، وسَيصلُون إلىٰ الموافقة علىٰ ما طار من شَرارِه ؛ ولا يَدَعُ للإماميّة إمامًا يقتدى به منهم قومٌ شِرار ، ولا قاضيًا يقضى بينهم : فإنّه إنّما يقطعُ لمن قضىٰ له أو عليه قِطعةً من نار ؛ ولا عالمًا يرفَعُ له علَمٌ ؛ ولا يُفْتح لهم بفَتوىٰ علىٰ مذاهبهم فم ، حتّى ولا ما يتحرّكُ به فى فَمِ الدواة القلَم .

ولْيطهِّرْ هذا المسجدَ الشريفَ من دَنَسِهم ، ولْيمُطْ مايحملُه أديمُ مجلّداتِ التّصانيف من نَجَسِهم ؛ وسُكّانُ هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خالطَهُم من زُمَرِ المقيمين والسائرين ؛ يُحسِنُ لأُمورِهم الكَفَالَه ، ولا يتعرضُ لأحدٍ منهم بما يؤذى نفسَه ولا يَنَاله ؛ فهم فى جوار نبينا صلَّى الله عليه وسلم وفى شفاعته ،

وكلٌّ منهم نَزِيلُ حَرَمِه ومكَثِّرُ سَوادِ جماعتِه ، وحقُّهم واجب على كل مُسْلِم فكيف على حَامِي ذلك الحِمَى ، بل من له إلى نسبه الشَّريف مُنْتَمَى .

واْصحَبْ رفيقَك بالمعروف فإنّكما مفترقان والسعيد من لا يُذَمُّ بعد فِراقِه ، ومُسْتَبِقَان إلى كلِّ مَوْرِدٍ لا يُدْرَى أيّكما المُجِدّ فى سِبَاقِه ، ومتّفِقَان على فَرد أمرٍ وأفضَلُكما من داوم صاحبهُ على إرفاقه ، وحَبَّبه على وِفَاقِه .

وأمّا ما للمدينة الشريفة من تَهائِمَ ونُجودٍ مُضافةٍ إليها ، ومُسْتظلَّةٍ بجُدُرِها أو متقدِّمة فى الصَّحراء عليها ، فهى ومَن فيها : إما أنْ تُوجدَ بقلوبهم فهم أعْوان ، وإما أن تَنفِرَ فهم أشبهُ شىءٍ بالإبل إذا نَفَرتْ تعلّق بذَنَب كلٍّ بَعيرٍ شيطان ، فأقربهُما إلى المصلحة تقريبهم ، وتأْليفُهم بما يَقْرُبُ به بعيدُهم ويَزْدادُ قُرْبى قَريبُهم ، والرُّكبان التى تتقد بهم جَمَراتُ الأصْباح (١) والعَشايا ، ويعتقِدُ كلٌّ منهم فى مَعاجِه إلى المدينة الشريفة أنَّ تمامَ الحَجِّ أن تَقِفَ عليها المَطايا ، فهم هُجودُ سُرىً ، ووُفودُ قِرىً ، ورُكُودٌ فى أُفُق الرِّحال خَلَعتْ مُقَلُهم على النجوم الكَرى ، ومعهم المَحامِلُ الشريفة التى هى مُلْتَفُّ شِعابِهم ، ومحتَفُّ رِكابِهم ، وهى من أسِرَّتنا المرفوعه ، ومبرَّتنا المَشْروعه ، فعَظِّمْ شعائر حُرُماتها ، وقَبِّلْ أمام منابرها المُمثلة مراكزَ راياتها ، وأكْرِمْ من جاء فى خِفارَتها ، ومن جالَ فى دُجى اللّيل لا يَسْتضِىءُ إلّا بما يبدو من إشارَتها ، وقد أشهدْنا عليك مَن هو لك يَوم القيامة خَصِيم ، وأنت وشأنَك فيما أنْت به عَليم .

وباقى الوصايا أنْت لها مُتَفطِّن ، وعليها مُتوطِّن ، وما ينتفِع الشريفُ بحَسَبِه ، إنْ لم يكُنْ عملُه بحَسَبه ، ولا يرتفِعُ بنَسَبِه ، إن لم يَجْتنِب مكانَ نَشَبه ، والله تعالى يمتّعُ بدوام شرفه ، ولا يضيِّع له أجرَ حَالِّ عمله الصالح وسَلَفِه ، والاعتماد ... .

---

(١) فى الأصل «والأجناح» .

وهذه نسخةُ تقليد شريف بإمْرة المدينة النبوية ، علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام :

الحمدُ لله الفَرْدِ بلا شريك ، الواحدِ لا من أعْداد تقتضِى التَّشريك ، المليك الذى يتناهَىٰ إليه تقليدُ كلِّ مَليك .

نحمَدُه حمدًا يكمِّل مواهِبَ التَّمليك ، ويُحْمِد عواقِبَ التَّسليك ؛ ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصدَعُ بالتَّشكيك ، وتصدُّ كلَّ إفيك ، وتَسُدُّ خَلَلَ التَّدريك ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خيرُ من حُمِى به عرينٌ ، وحمى عليه تريك ، وحمل حتَّى تأتَّىٰ له التحريرُ فى التَّحريك ، وتأتَّىٰ وما فاته على أعدائه النَّصر الوَشِيك ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تخلُص كالذَّهب السَّبيك ، وترفَعُ ما شُيِّدَ وتمنَعُ ماشِيك ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فلمَّا كانت المدينة الشريفة النبوية ــ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ــ حَرَمًا لا يُسْتَباح ، وحِمًى ليس إلَّا لمن انتهكه دَمٌ مُباح ، وجَنابًا ما علىٰ من حَلَّه جُناح ، ومَهْبِطَ وَحْيٍ لا يُمسَحُ بأركانه لغير الملائكة جَناح ؛ ولا يُمسَكُ بعصْمَة من أغضىٰ فيه على قَذًى ، وسكت لساكنيه على أذًى .

ولمَّا اتصل بنا عن الرَّوافِض مالا صَبْرَ لمسلم يرجُو اللهَ واليومَ الآخر عليه ، ولا وَجْهَ لمن قَنِع فيها بإخراج يديه ؛ ولا عُذْرَ لمن لَقِيَ اللهَ مُغْضَبا لما يُنْهَى إليه ، لامغضبًا لما ينال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من التعرّض إلىٰ صاحبيه ، ممَّا تقاضىٰ منَّا ما يمحو ظَلَامه الممتدّ ، وظُلْمه المشتَدّ ، وبِدَعَهم فسواءٌ من ابتدَعها ومن ارتَدّ ــ فكنَّا بتقليدنا الشريف من أعطى اللهَ وأعطانا على قوْله مَوْثقا ، وجرَّد عزائمَ لا تَرُدُّها من

خدعهم الرُّقَىٰ ؛ وأشهدَ اللهَ عليه ومَن حضر انَّه لايَدَعُ هذه الفرقةَ الضالَّة حتى يَدَعَ يَتِيمَها ، ويُعِدَّ لمَقاتِلِ السُّيوف حَطيمَها : ممَّـا تضمنه نَصُّ ماضِى ذلك التَّقليـد ، وما ضم ذِكْرىٰ لمن كان له قَلْبٌ أو ألْقَى السَّمعَ وهو شَهِيد ، ونَبَّهنا علىٰ أنَّه بَدْرٌ لم يبق مع طلوعه ظُلْمَةٌ ولا ظُلامَـه ، ولا إضاعةٌ ولا إضامَه[1] ، ولا ما تَجنَّبُ به الرَّكائبُ تمام الحَجِّ فى مواقِفِها ، ولا تُنكِر ما جهِلتْ فى قِبَاب قُبَاءٍ من معارفها ، وتَرِدُ أعطانَها ولا يَسُوقها إلىٰ الأبرقِ بارقٌ على أطلالِه ، ولا يُعجِبها إن خيل لهـا فى النخيل مَقيل فى ظِلاله .

وكان المجلس العـالى ـ أدام الله تعالىٰ نِعمتـه هو المتكَفِّلَ بتطْهِير ذلك الحَرَم الشريف من ألَمِّ كلِّ قولٍ يُفْتَرىٰ ، ولَمِّ كلِّ باطِلٍ يُلِمُّ يقظةً أو طيْفَ كَرىٰ ، وإزالةِ كلِّ شَجٍّ فيها على من أمَّلَ قِرَىٰ أُمِّ القُرىٰ ، وإماتةِ كلِّ بِدْعة تُسْكَبُ على مِثْلها العبَرات ، وإماطةِ كلِّ أذَى من طريق مِنًى والجَمرات ، ومَنْعِ شَقاشِقِ شيعَةٍ تَغْلِى مَراجِلُها من الزَّفرات ، وقَطْعِ كلِّ نَجْوىٰ يُنـادُون بها من وراء الحُجُرات ، وقَلْعِ طائفـةٍ لولا إقامةُ حُدود اللهِ لكفاهم ما يُقَطِّع أكبادَهم من الحَسَرات ؛ وكان بها من أولاد أخيه ، بل بعضُه منه وبعضُه من بنى أبيه ، من انْتهىٰ عمَّا تَحلَّىٰ به شِيَمُ الشريف الشريفه ، وانتهىٰ إلى ما لا يَعنيـه ولا يُغْنِيه فى تأخير خَلِيفة وتقـديم خليفه ، وأهْمل حقوقاً عواقبُها مع الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليـه وسلم مُخِيفَه ، وأوهم عقوقا لأصحابه بل له لقوله : «دَعُوا لِى أصحابى فلو أنْفق أحَدُكم مِثْلَ أُحُدٍ ذَهبًا ما أدرك مُدَّىَ أحدِهم ولا نَصِيفَه» . وبقِى يتَّصل بنا فى هـذا المعنىٰ ما لا يُقالُ ممَّـا يقالُ عنهم ، ويَصِل أذاهم إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم فى صاحِبَيْه وقد قال : «إن أهل الدرجات

(١) مراده اضاعة الحق كله أو نقص شىء منه الا أنا لم نجد فيا بأيدينا من كتب اللغة من هـذه المـادة فعلا رباعيا ليكون هذا مصدرا له ولعله استعمل اللغة العامية ترويجا للسجع .

العُلَى لِيَراهم مَنْ تحتهم كما يَرَوْنَ النَّجْمَ الطالع فى أفق السماء، وإنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ منهم» يطلبون فى التقـديم على من قدّمه الله رَدّ فائتِ ما جرى به القَدَر(١)، ويضربون صَفْحًا عمـا لا أراده الله ولا رسولُه صلّى الله عليه وسلم فى قوله : « لا أدرى ما قد بَقِيَ لى فيكم فاقتدُوا باللّذيْن من بَعـدِى : أبِى بكرٍ وعُمَر» . مع ما أضـيف إلى هذا من قَوادِح نواب، وفواتح أبواب؛ وحَوادِثَ تُزعِجُ مقرّ النبوّة أبناؤُها، وتمتدُّ على مشارق الأنواء ظَلْمـاؤُها ؛ وتُغَـيِّر عوائد الوفـود فى كرامة زائرهم ، وإدامَةِ بشاشَـةِ المُلتَقَى لسائرهم ؛ وأمْن سِرْبهم أن يُراع ، وشِرْبِهم أن يتمثّـلَ به لغيرِ برق شُعاع ، وضَمِّهم إلى ذلك الحىِّ الذى لا يُضامُ نَزِيلُه ، ولا يُرام فى طَرِيق المَجرّة سَبِيلُه ؛ ولا يضِـلُّ سارٍ إليـه ووُجوهُ سكّانِ الحىِّ دَلِيـلُه ، ولا يضيع وقد تلقّاه من النَّسيم بِلَيْلِه بَلِيلُه ، ولا يقِفُ وقفة المُرِيبِ وضَوْءُ الصباح من أيْمَن النَّقا قِنْدِيلُه، ولا يَخْشى وشَعْبُ ذلك الحىِّ شَـعْبُه وقَبِيلُه قبيله ؛ وإراحة ركابهـم التى أزْعجها حَادى السرى، وإمْتاعهم بقرب الجوار عوضًا من دُموعِهم عمّا جَرى .

فلمّـا لم يَبْقَ لمن أشَرْنا إليه ــ مِمّن أعطانا عَهْدَ مَوْثِقِه، وسارَ لا يُرِيد إلا تَقاءَ نَقاه وبراءة أبْرقه ــ إلّا أن يَحُطَّ بالمدينة الشريفة رِكابَه، ويُبْعِدَ الشَّكْوى ممـا لا عَهِدَ من معاهدها اقترابَه ــ أصَرَّ مَن فيها من ذَوى قَرابَته على مَنْعه أن يدخُلَها إلّا بقتال يُحِل مَقاعدَ الحَرَم ، ويَحُلّ معاقد(٢) الحُرَم، ويُشْعِلُ نارًا يصْلى بها من لم تمتدّ له يدٌ إليها إلى وقود، ويَروعُ من الآلِف فيها من يمتـدّ له فى غير مراتع غزْلان النّقا سِجاف قيام معقود، وقدِم إلى أبوابنا العاليـة مَنْ كان فيها مقيما ، وأنْعمنا عليـه بإبقاء النّصْف

(١) مراده أنهـم يطلبون فى تقديم علىّ رد فائت ما أراده الله من تأخيره عنهما و يتركون أيضـا ما ورد فى الحديث من الأمر بالاقتداء بعده بأبى بكر وعمر . الا أن العبارة سطت عليها يد النساخ فزادت فيها ما غير مبناها وشوش معناها . تأمل .

(٢) فى الأصل «مقاعد» وهو تصحيف .

ففاته الكُلُّ لمـَّا لم يقْنَعْ أنْ يكون قسيا، فأبَتْ حميَّتنا لله ولرسوله صلّى الله عليه وسلم ولتلك المواطن المعظمة إلّا أن نُطَهِّرها ممـا أسبَلت علىٰ سريره أذيالَها، وما أطاقت (١) علىٰ مضَضه الأليم احتمالَهـا .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لازال قَدْرُه عاليا، وبِرُّه لايخل بوُدّى ولا يخلى مُواليا ـ أن تفوّض إليه إمْرةُ المدينةِ الشريفةِ النبَوِيَّةِ على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام : مستقِلًّا بأعبائها ، مستهِلًّا سَحابُهُ علىٰ أرجائهـا ، إمْرةً تستوعِبُ جميعَها ، وتَسْتوعى لمراسمه رُباها ورُبوعَها وعاصِيَها ومُطيعَها، وتهائمها ونُجودَها، وقريبَها وبعيدَها، وكلّ مايدخلُ لهـا فى حَدّ، وينتظِمُ لها فى عَدّ، وأهْلَ حاضِرَتها وباديَتها، وما تقف عليه من السحب(؟) ركائب رواعيها وغاديَتها، ومن تتبسَّم بهم ثناياها، وتتنسّم لهم أرواح بكَرِها وعشاياها، ومن يضُمُّهم جَناحُها المفضَّـل، ويلمُّهم وِشاحُها المفصَّـل، ويجمعهم جَيْشُها السائر، ويلُفُّهم فى شَمْلةِ الدُّجىٰ قمَرُها الزّاهر ـ تفويضًا يدخل فيه كلُّ شريف ومَشْروف، ومجهول ومَعْروف، ومستوطن من أهْلها، وغريب انتهت [به] إليها مطارح سُبُلِها، مافيه تأويلٌ، ولا تعْليلٌ، ولا استثناءٌ، ولا انْثناء، ولا تخرج منه الأرض المغبَرّةُ ولا الرَّوْضَة الغنّاء، لاشُبْهَةَ فيه لداحِض، ولا حُجّةَ لمعارِض، يستقلُّ بها جَميعِها بَدْرُه التمـام، وبرُّه الغَمام، وبحْرُه الذى يأبىٰ فَريدُه أنْ يُؤاخىٰ فى نظام، وأمْره الذى يتلَقّىٰ به عن الثقة من سادات بيته مَقاليدَ الأحكام، وتَقاليدَ مايجرى به القـلَمُ ويَمْضى السيفُ الحُسام، إفرادًا له فى التحكيم، وأنَفةً لمثْلِه مـن ضرب التقْسيم، وفِرارًا من الشّرِكة المشتقة من الشِّرْك : ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظيم﴾. ولايةً تامه، عامه، كامِلَه، شامِلَه، لايبقىٰ من أهْل نجْدٍ من لايدخل فى حُكْمِها، وينْضافُ

(١) فى الأصل « وأطفات » .

إلى قِسْمِها، تَقابَلُ السّوابِقُ فى غاياتها، وتُقاتِلُ الجحافِلُ تحت رَاياتِها، ويعدُّ مع أهْلِ بَدْر فيها، ويُعِدّ من حقوقها ما يُوفِّيها .

وقد سبق من الوصايا ما فيه غِنىً، إلّا ما لا تخل العوائد به ممّا يُذْكر هنا، وقد حَوَيْتَ بحمد الله فى جميع طباعك، وجميل أنطباعك، من حقّ آحترامك، وصدق ٱلتزامك، ما هو كالسّنا للشّمْس، والمُنىٰ للنّفس، ممّا تحسدُ علىٰ شَرَفِه النُّجوم، وتنافسُ العَلْياء ما تعلق به الغُيوم .

فكمِّل بتقْوى الله شَرفَك، وٱتّبعْ فى الشريعة الشّريفة سَلَفَك، وكتابُ الله المنزَّل، أنتم أهل بَيْت فيكم تَنَزَّل، وسنةُ جدّكم سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم لاتُهمَلْ، وهى مجدكم المؤثل، ومعرفة حقّ من مضىٰ عنكم، وإلا فممّن تُنقل، ومنكم، وإلا فممّن تُؤمّل، وإزالةُ البِدَعِ وإلّا فلأىِّ شَىْءٍ سيوفكم تُصْقَل، و[لماذا][1] رِماحُكم تُعدّل، والرافضةُ وغلاةُ الشّيعة هم دنَس من انتمى إلىٰ هذا البَيْتِ الشريف بولائه، وسبَبُ وقُوف من يقصد الدّخول تحت لِوائِه، فهم وإن حُسِبوا من امداده، لَيْسُوا ــ وحاشىٰ نورُه الساطع ــ إلّا من المكثِّرين لسواده، أرادُوا حفْظ المودّة فى القُربىٰ فأخلُّوا، وقصدُوا تكثيرَ عدَدِهم فقلُّوا، وأنِفَ من هو برىءٌ من سُوءِ مذْهَبِهم، أن يتظاهَرَ بالوَلاء فيُعَدّ من أهْلِ البِدَعِ بسَبَبِهم، مع أنّهم طمعُوا فى رِضا الله فأخطأتْهم المَطامِع، وصحيحٌ أنّهم زادُوهم عدَدًا إلّا أنّها كزيادة الشّغياء[2] أو كزيادة الأصابِع .

فصَمِّمْ عَزْمَك على ماعاهدْتَ الله عليه من رَفْع أيْدى قُضَاتِهم، ومَنْعِهم هُم ومَن ٱتّبع خُطُواتِ الشّيطانِ فى سبيل مَرْضاتِهم، وحذِّرْهم ممّا لا يعودُ معه علىٰ أحد منهم سِتْرٌ يُسْبَل، ولايبقىٰ بعده لغيرِ السّيف حُكْم يُقْبل، فمَن خاض للسّلَف الصالح بِمَ ذَمّ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٠٧ .

(٢) فى القاموس : الشغياء السن المخالفة الخارجة عن نبتة الأسنان .

أغرق فى تيّاره، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره، وألزم أهل المدينة الشريفة - على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن المعظمة أعلامها، وسمعت فى تلك الحجرة المكرمة أحكامها، مع تعفية آثار ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتى لا ينعقد لها نقع مثار، وتوطئة أكناف الحمى لئلا يبقى به لمبطل فى مدارج نطقه عثار، والوصية بسكان هذا الحرم الشريف ومن ينزل به من نزيل، ويجاور به مستقرا فى مهاد إقامة أو مستوفزا على جناح رحيل، ومن يهوى إليهم من ركائب، ويأوى إليهم من رفقة مالت من نشوات الكرى بهم راقصات النجائب، ومن يصل من ركبان الآفاق، وإخوان نوى يتشاكون إليهم مر الفراق، ومن يتلاقى بهم من طوائف كلهم فى بيوت هذا الحى عشاق، وأمم شتى جموعهم: من مصر وشام ويمن وعراق، وما يصل معهم فى مسيل وفودنا، وسبيل جودنا، ومحاملنا الشريفة التى ينصب لنا بها فى كل أرض سرير، وأعلامنا التى ما سميت بالعقبان إلا وهى إليها من الأشواق تطير، فمتى شعرت بمقدم ركابهم، أو برقت لك عوارض الأقمار من سماء قبابهم، فبادر إلى تلقيهم، وقبل لنا الأرض فى آثار مواطيهم، وقم بما يجب فى طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا [وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم عن جماعتنا] (1).

وأهل البادية هم حزبك الجيش اللهام، وحربك إذا كان وقودها جثث وهام، وهم قوم لم يؤدبهم الحضر، ولا يبيت أحد منهم لأنفته على حذر، فاستجلب بمداراتك قلوبهم الأشتات، وبادر حبال إبلهم النافرة قبل البتات، وترقب مراسمنا المطاعة إذا ذرت لك مشارقها، وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك من الحروب بوارقها، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولولا أن السيف لا يحتاج إلى حلية

(1) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨).

لأ طلْنا حمائل ما نُمليه عليك؛ فما شَهِد للشَّريف بِصحّة نَسَبه، أزكى من عمله بحَسَبِه؛ والله تعالى يقَوِّى أسْبابَك المَتينَه، ويُمْتِعُ العيونَ بلوامِعك المُبينَه، ويُمسك بك ما طال به إرْجافُ أهل المدينه؛ والاعتماد .... .



وهذه نسخةُ تقليد بإمْرة المدينة النبوية، وهى .

الحمدُ لله الذى خصّ بالنُّصْرة، دارَ الهِجْره، وأطْلع للإيمانِ بفَجْره، بتلك الهُجْره، وطيب طَيْبَةَ وأوْدع فيها سليل الأُسْره .

نحمدُه حمدًا نأمن به مكْرَه، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةَ عبد تمسّكَ بالحَجّ وتَنسّك بالعُمْره، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرّف اللهُ قَدْرَه، وأنفذَ أمْره، وأيّده فى ساعة العُسْره، وكان أكْرَمَ الناس فى العِشْره، وأسخى العالَمِينَ إذ يبسُطُ بالجُود راحَتَيْه فما أسمح عَشْرَه، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه صلاة ثَبَتَتْ شجرتُها من الأرض فاتّصلتْ فروعُها بالسِّدْره، وسلّمَ تسليما .

وبعدُ، فإنّ المدينةَ النبويةَ مَعدِنُ الهُدى والوَقار، ومَسْكَنُ الرِّضوانِ والأنوار، ومَهْبِطُ الملائكة الأبرار، ومنْزِلُ الوَحْى فى اللّيل والنهار، ودارُ الهِجْرةِ للنبىّ المختار، وتُرْبةُ مَدْفَنِه الزّاكى المِعْطار، تُشَدُّ الرِّحالُ إليها من أقاصى الأقطار، ويأتى إليها الظّالمون لأنفسهم بالاستغفار، فيرجعون وقد مُحِيتْ عنهم الأوْزار، فقلوبُ أهل الاشتياق مُقيمةٌ فى فِناء تلك الدّار، وإن كانت أجسامُهم بعيدةً من وَراءِ البِحار، وبها من آلِ البَيْت سادةٌ أطهار، وأمراءُ كِبار، يُتقرّبُ إلى اللهِ بحُبّهم فى الإعْلانِ والإضْمار، ويُتوسَّلُ بولائِهم فى دَعْوة الأسحار، قد ضَمّوا إلى كَرَم الراحَه، وسَماحة

الأنفس المُرتاحه ، شجاعةً وبسَالة ، وعَلويَّةً فعَاله ، وتمسُّكًا بالمُروءَة المعروفة بشَرف الأصاله ؛ وهم يتوارثون إمرتها عن آباء سادات ، وكرام لهم فى الفضل عادات .

ولما كان فلان هو بَقيةَ الأُسرة المتضوِّعه ، وثمرة الشَّجرة المُتفرِّعه ؛ والمخصوص بالوَصْف الذى رفَعه ، والقَول الذى اتَّبعه حين سَمِعَه — ما زال فى المدينة النبويَّة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام مشكورَ الطَّريقه ، محفوظَ الوَثيقه ، معروفَ الحَقيقه ، موصوفَ الآثار الحسَنة بين الخَليقه ، يجتنِي لكلِّ صالحة من تلك الرَّوضة الشريفة المُثمرة الوَريقه ، ويحمِي السَّرحَ أنْ ينتهب ، ويطفِئُ نارَ الفتَن لما تلتهب ، ويُعظِّم المجاورين والواردين والقادمين علىٰ حِمىٰ سيِّد العَجَم والعَرَب .

فلذلك رسم أن يستقر... ... ...

فليحلَّ هذا الرَّبع المعمورَ بالتُّقىٰ ، وليُباشِرْ هذه الإمرةَ الشَّريفةَ زادها الله عُلوًّا وارْتقا ؛ وليستعملِ السكينةَ فإنَّها جملة التُّقا ، وليَسْلُكِ الأدبَ مع ساكن النَّقا ، وليعتَمِدْ علىٰ حُسن اليَقين فإنَّه له وِقًا ، وقد جاورَ العَقيقَ فأصبح بقلائِدِه الفاخرة مُطوَّقًا ، وليَحكُمْ بالعَدْل فى بلدٍ نشأ منه العَدْلُ والإنصافُ فمُنذُ اجتمعا فيه ما افترقا ؛ وليصُنْ شَرفَه من الوُلوج فى فِتَنه ، وليغمِدْ سيفَه ولا يَشْهرْه فى وقت مِحَنه ، ويحقِن الدِّماءَ أن تُراق ، وليتلقَّ الزُّوارَ بالإرفاق ، فإنَّهم جاءوا من أقاصي الآفاق ، رجالًا وعلىٰ النِّياق ، تحثُّهم الصَّبابةُ والأشواق .

وكلمةُ الشَّرع وشِعارُ السُّنَّة فليكُنْ معظِّمًا لها باتفاق بغير شِقَاق ، وشيخَ الحَرم الشَّريف وخدَّامَه ومُجاوِرِيه فليُكرِمْ مُحسِنَهم ويعامِلْه بحسن الأخلاق ، وليتجاوزْ عن مُسيئِهم بطيب أخْلاق ، وحواصلَ الحَرم الشَّريف المخزونةَ فيه فلتكُنْ محميَّةً من التبذير فى وقت الإنفاق ، وتلك دارٌ هم سُكَّانُها الطيِّبو الاعراق ، والتَّقوىٰ فمن يتبعهم

الشَّريف آثارُها الإشراق ، وعليهم نَزل القُرْقانُ والتَّحْريم والطَّلاق ، فماذا عسَىٰ أن نُوصِيَه وهو أهل الفَضْل على الإطلاق ، والله تعالىٰ يجعلُ نِجارَه فى الفخر مُجَلِّيه فى السِّياق ، بمنّه وكَرَمه! .

⁂

وهذه وصية لأمير المدينة أوردها فى "التعريف" ، وهى :

فكَمِّل بتقوَى الله شَرَفك ، واتَّبِعْ فى الشريعة الشريفة سَلَفك ، وكتابُ الله المنَزَّل ، أنتم أهْلُ بيْت فيكم تَنَزَّل ، وسنةُ جدِّك سيدنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لاتُهْمل ، وهى مَجْدُكم المؤَثَّل ، ومَعْرفةُ حقِّ مَن مضىٰ ، منكم ، و إلا فمعمَّن تُنْقل ، ومنكم ، و إلّا فممَّن تُؤَمَّل ، وإزالةُ البِدَع وإلّا فلأىِّ شىءٍ سُيوفكم تُصْقَل ، ولماذا رِماحُكم تُعَدَّل ، والرافضةُ وغُلاةُ الشِّيعة هم دَنَس من آنتمىٰ إلىٰ هذا البَيْت الشريف بولائه ، وسبَبُ وقُوف من يقصِد الدُّخول تحت لِوائه ؛ فهم وإن حُسِبوا من أمداده ، ليسوا ــ وحاشىٰ نوره الساطع ــ إلا من المكَثِّرِين لسَوادِه ؛ أرادُوا حِفْظ المودَّة فى القربىٰ فأخَلُّوا ، وقَصدُوا تكْثيرَ عددهم فقلُّوا ؛ وأنِف مَن هو برىءٌ من سُوءِ مَذْهَبِهم ، أنْ يتظاهَرَ بالوَلاءِ فيُعَدَّ فى أهل البِدَع بسَبَبِهم ؛ مع أنَّهم طمِعُوا فى رضا الله فأخْطأتْهم المطامِع ، وصحِيحٌ أنَّهم زادوهم عدَدًا إلّا أنَّها كزيادة [الشُّغياء أو كزيادة] (1) الأصابع .

فصَمِّم عَزْمَك علىٰ ماعاهدْت الله عليه من رَفْع أيدى قُضَاتِهم ، ومَنعِهم من آتِّباع خُطُوات الشيطان فى سبِيل مَرْضَاتِهم ، وحَذِّرْهم مما لا يعود معه علىٰ أحد منهم سِتْر يُسْبل ، ولا يبقىٰ معه لغير السَّيف حُكْمٌ يقبل ؛ فمن خاض للسَّلَف الصالح يمَّ ذَمٍّ أغْرِق فى تيَّاره ، أو قَدح فيهم زِنَادَ عِناد أُحْرِق بناره ؛ وألْزِمْ أهلَ المدينة الشريفة النبويَّة

---
(1) الزيادة من "التعريف" . (ص ١٠٧) ومن التقليد الذى سبق ، انظر (ص ٢٥٢) .

بكلمه السُّنَّة فإنَّها أوّل ما رُفِعتْ بتلك المَواطِنِ المعظمةِ أعْلامُها ، وسُمِعتْ فى تلك الهِجْرة المكَرَّمةِ أحْكامُها، مع تعْفِيَة [آثار] ما ينشأُ علىٰ هذه البِدْعةِ من الفِتَن حتّى لاينْعَقد لها نَقْعُ مُثار، وتَوطِئَة أكْناف[ذلك] الحِمىٰ لئلّا يبْقىٰ به لمُبْطِل فى مدارج نُطْقِه عِثَار ؛ والوَصِيّةُ بسُكّان هذا الحَرَم الشريف علىٰ الحالِّ به أفضل الصلاة والسلام ومن ينزل به من نَزِيل ، ويجاوِرُ به مُسْتَقِرًّا فى مِهادِ إقامة أو مُسْتَوفِزًا علىٰ جَناح رَحِيل ؛ ومن يَهوِى اليهم من ركائب، ويأوى اليهم من رُفْقَة مالَتْ من نَشَوات الكَرىٰ بهم رَاقِصاتُ النَّجائِب ؛ وَمن يَصِلُ من رُكْبان الآفاق ، وإخوانِ نَوًى يَتَشاكَوْن اليهم مُرَّ الفِرَاق؛ ومن يتلاقىٰ بها من طوائِفَ كُلُّهم فى بُيوتِ هذا الحَىِّ عُشّاق، وأَمَم شَتّىٰ جُموعُهم من مِصْرٍ وشام [و يمَن][(1)] وعِرَاق؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودِنا ، وسَبيل جُودِنا ؛ ومَحامِلِنا الشريفةِ التى يُنْصَبُ لنا بها فى كلِّ أرض سَرير ، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبان إلّا وهى إليها من الأشْواق تَطِير .

فمتىٰ شَعَرتَ بقَدَمِ رِكابِهم، أو بَرَقتْ [لك][(1)] عوارِضُ الأقْمـار من سَماءِ قِبابِهم؛ فبادِرْ إلىٰ تَلَقِّيهم، وقبِّـلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم، وقُمْ بمـا يجب فى طاعة الله وطاعة رسـوله صلّى الله عليه وسـلم وطَاعَتِنا ، وأخْرِجْ عنهم كلَّ يَد ولا تُخْرِجْهم عن جمـاعتنا .

وأهْلُ البادية هم حِزْبُك الجيشُ اللُّهام ، وحَرْبُك إذا كان وَقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يؤدِّبْهـم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهم لأنفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْتجلِبْ بمداراتك قُلوبَهم الأشْـتات ، وبادِرْ حبـال إبلهم النّافِرةِ قبـل الأنْبِتات؛ وترَقَّبْ مراسِمَـا المطاعةَ إذا ذَرَّت لك مَشارِقُها ، وتأهَّبْ لجهادِ أعداءِ الله متىٰ لَمَعتْ لك

(1) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحُروب بوَارِقُها ، وأحْسِنْ كما أحْسن اللهُ إليك ، ولولا أنّ السّيف لا يحتاج إلى حِلْيَة لأظلّنا حَائِل ما نُمليه عليك ، فما شَهِد للشّريف بصحّة نَسَبِه ، أزْكَى من عَمَله بحَسَبِه ، والله تعالى يُقَوِّى أسْبابَك المَتِينَه ، ويُمْتِعُ العيونَ بلَوامِعك المُبِينَه ، ويُمْسك بك ماطال به إرْجاف أهلِ المَدِينَه .

الوظيفة الثانية
(القضاء)

وكان فى الزّمن القديم بها قاض واحدٌ شافعىٌّ ، ثم آستقرّ بها قاضيان آخران : حَنَفِىٌّ ومالِكىٌّ ، يُكتَبُ لكلٍّ منهم تَوْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«ـالسامى» بالياء .

وهذه نسخةُ تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمدُ لله الذى جعل الشرعَ الشريفَ دافِقَ السّيول ، وفى طَيْبَةَ له الأُصول ، ومنها نَشأ وتفرّع فله فى البَسيطة عُمومٌ وشُمُول ، وكلُّ قُطْر به مَشْمُول ، وكل رَبْع به مأهُول ، وتأكّد به المعلومُ وتبدّد به المَجْهول ، وزالَتِ الشرائعُ كلُّها وهو إلى آخر الدّهور لا يزُول .

نحمدُه وحمدُه يَطول ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَمرتْ [بها] طُلُول ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ رَسول ، وأكرمُ مأمول ، وأفضلُ مَسْئُول ، ومُهنّد من سيوف الله مَسْلُول ، صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الطيبى الفُروع والأُصول ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ الشرعَ الشريفَ مَعْدِنُه فى أرض ثَوَى خيرُ الرُّسلِ فيها ، ومنْشأه فى بَلَدٍ ملائكةُ الله تَحْميها ، فلا يَلِى أقْضيةَ الناس إلّا من طالَتْ ذَوائِبُ عِلْمه ،

وأشرقتْ ثواقبُ فهمه ، وبُنيتْ على الأصول قواعدُ حُكْمِه ، وتحلَّى بالورع فتجلَّى في سماء النجاة كنجْمه .

ولما كان فلانٌ هو الذى جذبتْه السعادةُ إلى مَقرّها ، وخطبتْه المغفرةُ إلى موطن برِّها ، وأهّلتْه الأقدار إلى جوار نبىٍّ هو خاتم الأنبياء وفاتحُ أمرها ؛ وأصبح للحُكْم فى المدينه ، مستحقًّا لما فيه من سَكينته ، وتحصيل للعلْم ومَن حَصَّل العلْمَ كان الله مُعينَه .

فلذلك رسم أنْ يستقر.... ... ...

فليباشرْ منصباً جليلًا فى محلٍّ جليل ، وليَعلمْ أنَّ سائر الأمصار تغبطُه وتحسُدُه وما لمنصبه من مثيل ؛ أينَ يوجد سواه فى كلِّ سبيل ؟ من قاض هو بسيِّد المرسلين نزيل ، ومن يُصْبحُ ويُمسى جارًا للمُستجير فى المحشر الطَّويل .

فاحكُمْ بين نَاس طَيْبَةَ بورَعٍ وتأصيل ، وتحرير فى تحريم وتحليل ، واتَّق اللهَ فى كلِّ فعْل وقيل ، واستقمْ على الحقِّ حذارَ أن تميل ، فصاحبُ الشَّرع أنت منه قريب . والنبىُّ من الله قريبٌ وحبيبٌ وخليل ، وما ذا عسى أنْ نُوصيه وهو بحمد الله تعالى كالنَّهار لا يحتاج إلى دَليل .

وأما الخَطابة : فارْقَ دَرَجَ منبرِها ، وشنِّفِ الأسماعَ من ألفاظك بدُرِّها ، وحرِّرْ ما تقوله من المواعظ فإنَّ صاحب العظات يسْمعُك ، وتواضَعْ لله فإنَّ اللهَ يرفعك ؛ وهذا المرْقى فقد قام فيه النبىُّ الأمىُّ سيدُ الثَّقلين ، ومن بعده الخليفتان قُرَّتا العَيْن ، ومن بعدهما عُثْمان ذو النُّورين ، وعلىٌّ رضى الله عنه أبو الحسَنيْن ؛ فاخْشَعْ ، عند المَطْلَعْ ، واصْدَعْ ، بما ينْفَع ؛ وانْظُرْ لما تقولُه فإنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم

هناك يسمع، وقاضى المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع، بمنّه وكرمه ! .

الوظيفة الثالثة

(مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادةُ أن يكون له خادمٌ من الخصيان المعبّر عنهم بالطّواشيّة ، يُعيّن لذلك من الأبواب السلطانية ، ويُكتب له توقيعٌ فى قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ«الحمد لله» .

وهذه نسخةُ توقيع شريف من ذلك :

الحمدُ لله الذى شرّف بخدمة سيّد الرّسل الأقدار، وفضّل بالتأهّل للدّخول فى عداد كرمه بخدمته من اختاره لذلك من المهاجرين والأنصار، وجعل الاختصاصَ بمجاورة حرمه أفضلَ غاية تُهجَر لبلوغها الأوطانُ والأوطار، وعجّل لمن حلّ بمسجده الشريف تبوّأ أشرف روضة تردُها البصائرُ وتُرودُها الأبصار .

نحمدُه على نعمه التى أكملُها خدمةُ نبيّه الكريم، وأفضلُها التوفّرُ على مصالح مجاورى قبر رسوله الهادى إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم، وأجملُها الانتظامُ فى سلك خدمة حرمه [لأنها] بمنزلة واسطة العقد الكريم النّظيم، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً مُزلِفةً لديه، مُقرِّبةً إليه، مدّخَرةً ليوم العرْض عليه، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرف نبىّ بُعث إلى الأسود والأحمر، وأكرمُ من أنار ليْلَ الشّرك بالشّرع الأقمر، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نخرت الحبَشةُ بهجرتهم الأولى، ونجا النّجاشىُّ بما اتّخذ عندهم من السّابقة الحسنة واليد الطُّولى، وأولى

بِلَاَلُهُم من السَّبق إلىٰ خِدْمة أشرف الأنبياء عليه وعليهم أفضــلُ الصلاة والسلام أفضلَ مايُولىٰ؛ صــلاةً لا يزال شهابُها مُرْشِدا، وذِكْرُها فى الآفاق مُغيراً ومُنْجِدا؛ وسلّمَ تسليماً كثيرا .

و بعــد، فإنّ أوْلىٰ ما(١) اعْتمد عليه من أفَاء اللهُ عليه من نِعَمِه، وأفاض عليــه من مَلابِس كَرَمِه، وشرّف قَدْرَه بأن أهّله لِخدمةِ سيدِ الرُّسل بل لمَشْيَخة حَرَمِه؛ وخَصّه برُتْبة هى أسْنى الرُّتَب الفاخِرَه، وأجْمعُ الوَظَائف لشَرف الدُّنيا والآخِره ـ من رجّحه لذٰلك دِينُه المتِين، ووَرَعُه المكِين، وزُهْدُه الذى بَلَغ به إلىٰ هذه الرتبة التى سيكونُ بها ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ وَجِيهاً فى الدُّنيا والآخِرَة ومن المُقَرَّبين .

ولـمّـا كان فلانٌ هو الذى ادرك من خِدْمة سيِّد الرسل غاية سُولِه، وزَكَتْ عند الله هِجْرتُه التى كانت على الحقيقة إلىٰ الله ورسوله؛ وسلك فى طريقِ خِدْمتِه الشَّريفة أحسنَ السُّــلوك، وانتهتْ به(٢) السّعادةُ إلىٰ خِدْمةِ رسول الله صــلّى الله عليه وســلم لِيُعْرِضَ بجَوْهَرِها الاعْلىٰ عن عَرَضِ خِدْمَة الملوك؛ وفَازَ من مُجاوَرَة الحُجْرة الشريفة بمــا عَظُمَتْ عليه [به] المِنّه، وحلّ به ممــا بين القبْرِوالمِنْبر فى رَوْضَة من رِياضِ الجَنّه؛ وأقام فى مَقــامِ جبْرِيل، ومَهْبِطِ الوَحْيِ والتّــنزِيل؛ يَتَفَيّأُ ظلالَ الرَّحمــة الوَارِفَه، ويتَهيّأُ من تلك النّعمة بالعَارِفَة بعــد العَارِفَه ـ تعــيّن أن يكونَ هو المحلّىٰ بعُقُود مَشْيَخةِ ذٰلك الحرَم، والمتولّيَ لمصالحِ هــذه الطائفة التى له فى التّقــدُّم عليهم أثبتُ قَــدَم .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أن تفوض إليــه المَشْيَخة علىٰ خُدّام الحَرَم الشريف النّبوىّ: للعِلْم بأنّه العامِلُ الوَرِع، والكافِلُ الذى يعْرِف أدبَ تلك

(١) لعله "من اعتمد عليه من" الخ .

(٢) فى الأصل "اليه" .

الوظيفة : من خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم – على ما شُرِع ؛ والزاهدُ الذى آثر جِوَارَ نَبِيِّه على ما سواه ، والخاشعُ الذى نَوَى بخِدْمَتِه الدُّخولَ فى زُمْرة من خَدَمه فى حياته : « ولكُلِّ امرِئٍ مانَواه » .

فليستقرّ فى هذه الوظيفةِ الكريمةِ قائمًا بآدابها ، مشرَّفًا بها نفْسَه التى تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابها ؛ سالكًا فى ذٰلك مايجب ، محافظًا على قواعد الورَع فى كلّ ما يأتى وما يجتنب ؛ قاصدًا بذٰلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّبُ لِرَاجٍ أملا ، ولا يُضَيِّعُ أجْرَ مَنْ أحْسن عَمَلا ؛ مُلزِمًا كلًّا من طائفة الخُدَّام بما يُقَرِّبُه عند الله زُلْفَى ، ويُضاعِفُ الحسنةَ الواحدةَ سبعين ضِعْفا ؛ هاديًا من ضَلّ فى قوانينِ الخِدْمة إلى سواء السبيل ، مُبْدِيًا لهم من آداب سُلُوكه ما يغدُو لهم منه أوْضحُ هاد وأنورُ دَلِيل ؛ وفيه من آداب دِينِه مايُغنِي عن تَكْرار الوصايا ، وتجْديد القَضايا ؛ واللهُ تعالى يسدّده فى القَوْل والعَمل ، ويوفّقه لخِدْمة سيّد المرسلين صلّى الله عليه وسلم وقد فَعَل ؛ بمنّه وكرمه .

القاعدة الثالثة اليَنْبُع

(وبها وظيفةٌ واحدةٌ ، وهى النيابة)

وقد تقدّم أنّ نيابتها فى بَنِى الحَسَن ، من بنى قتادةَ أيضا . وعدل بها عن لفظ الإمارة إلى لفظ النيابة تصغيرا لشأنها عن مَكّة والمدينة . ويُكتَبُ لنائبها مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثلث «بالمجلس السامى» بغيرياء .

وهذه نسخةُ مرسوم شريف بنيابة اليَنْبُع ، كُتب به «لمخذم بن عقيل» فى عاشر رجب الفرد سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فَضْل الله ، وهو :

الحمدُ لله الذى أتمّ لدولتنا الشريفة أنْعُما، وأحسن فى تقديم شريف كلّ قوم تقدُّما، وأمضىٰ فى كفّ كفّ الأعداء رُمحًا سَمْهريًّا وسيفًا مِخْذَما .

نحمَدُه حمدًا يكاثر عددَ القَطْر إذا هَمَىٰ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة تؤمّن بالإدمان عليها مُنْجِدًا ومُتْهِما ؛ ونشهد أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه الذى شَرّف من إليه آنتمىٰ ، وعلىٰ نَسَبِه الشريفِ آرتمىٰ ، وبجوارِه المَنِيعِ آحتمىٰ ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين طَلَعوا فى صباح كلِّ نَهَارٍ شُموسًا وفى عشيّة كلِّ لَيل أنجما ، وسلّم تسليمًا .

وبعدُ ، فإنّ أولىٰ من أعدْنا له سعادة جَدّه ، وعُدْنا إلىٰ عَوائِدِه الحُسنىٰ لأبيه وجدّه ؛ ورَعَتْ صدَقاتُنا الشريفةُ له قَصْدَه الجَمِيل ، وشَرَفه الذى سما به من أصْلِه إلى النَّجْم فرْع لا يُنالُ طَويل ؛ وأُقِرّت عينُه بسَكَنِه ، وآستقرّتْ به مراسمنا العالية فى مَسْكَنِه ؛ وأغنَتْه عِنايَتُنا الشريفةُ عن آنتظار كلّ نَجم سعادة يَطْلُع ، وبَعَثَتْ إليه كلّ خير إلىٰ وَطَنِه وهو « يَنْبُع » ، منزلةُ نسبه الصّميم ، والحَسَبِ الذى يتمسّكُ به فى قومه كلُّ كريم ، والشَّرف الذى أثارت كَوا كِبُه ، والوَصْف الذى ينظم الدُّرّ ثاقبُه[1] .

ولمّا كان المجلسُ السّامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الشريفُ ، الحسيبُ ، النَّسيبُ ، الأوحدُ ، العضُدُ ، النصيرُ ، الأصيلُ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، زين الأنام ، شرفُ الأمراء الأشْراف ، فخرُ العِتْرة الطّاهره ، جمالُ الأُسرة الزاهره ، نَسِيبُ الخلافة ، عَضُدُ الملوك والسلاطين « مِخْذَم بن عقيل » أيده الله تعالى ـــ هو الذى تقدّمت إليه كلُّ إشاره ، وحسُنَتْ به كلُّ شارَه ، وتعجّلَتْ له بمراضينا الشريفة من مُخَلَّق الشَّفَقِ كلُّ بِشارَه ؛ وحصل فى اليَنْبُع ما حصل من الاعتداء ، وآمتدّتِ الأيدى به إلىٰ ما كان لحُجّاج بيت الله من وَدِيعَه ، وظنّ أنّه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبرا لإن وهو معلوم من نظائره وكثيرا ما ورد كذلك ونبهنا عليه .

فى البَيْداء ، نخالف الواجبَ وتعدّى الشّريعَــه ؛ فاقتضت آراؤنا الشريفة تفويضَها إلى العارف منها بمــا يجب ، العالِمِ من طريق سَلَفِه الصّالح بمــا يأْتِى فيها ويجتَنِب ؛ العاملِ فى طاعتنا الشريفةِ بمــا هو به وبمِثْلِه من أهلِ الشّرف يَلِيق ، المَــاشى فى خدْمتنا الشريفة وفى خدْمَة الوُفود إلىٰ بَيْت الله الحرام على الطّريق .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ أعلاه الله تعالى وشَرّفه ، وأنفــذه وصَرّفه ــ أن تُفوّضَ إليه النيابة باليَنْبُعِ على عادة من تقــدّمه وقاعدته إلىٰ آخر وقْت :

فليُقدِّم تقوى الله فى كلّ ما تقدَّم ، وليَقِفْ مع حكْم الشرع الشريف فإنّه المُهمُّ المقدَّم ؛ ولْيَسْتَوصِ بالحُجّاج خيْرًا فإنّهم وَفْدُ الله وهو عليه سَيَقْدَم ، وليؤمّن الطّريق فإنّه بين حَرَمين : بَيْتِ الله ومَسْجِدِ رسوله صلّى الله عليه وسلم ؛ وليحفَظْ أمانةَ الله فيما يخلّى ويخلّف عنده الحجاجُ كتب الله سلامتهم من وِداعه[1] ، وليأْخُذْ بقلوب الجَلّابَةِ فإنّهم فى توسيعهم علىٰ أهلِ الحرمين كالمُتصدّقين وإن كانوا تجّارا ببِضَاعه ؛ وليُوصِّلْ من تأخّر من أبناء السبيل إلىٰ مأْمَنِهم ، وليخُصَّ بالعَدْل أهْلَ بلَدِه ليستقرّوا آمنين فى مَوْطِنِهم ، والرِّفْق فهو الذى بحُلَله يُزيِّن ، وبحِلْيِه يُستحسن ، والتّأنّى فى معرفة الحقّ من الباطل فإنّ به الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسودِ من الباطل يُبيّن ؛ ولزُوم الطاعة ، التى أوجبها الله لنا علىٰ عباده وندَب إليها ، ومُلازَمة الجماعةِ ، التى يكفيه من بركاتها أنّ يَد الله عليها ؛ وإقامة الخِدْمة فيما قِبَلَه من البــلاد ، وكلّ حاضِرٍ وباد ، وكلّ من كادَ أو كاد ، أو تعرّض لعِنادِ العِبــاد ؛ فمن أقدم علىٰ محــذُور ، أو تقدّم إلىٰ محظُور ، أو ارتكب فى الخــلاف أمْرًا من الأمور ؛ فجُرّه بالبَغْي إلىٰ مَصْرَعه ، وحرّك السيفَ لمضْجعه ، ودَعِ الرُّمْحَ الذى اعتقــله للشّقاق يبكى للإشــفاق عليه بأدْمُعِه ؛ وقد رأيتَ كيف

(١) مراده «وديعة» ولكن إضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنبه .

طريقتنا المُثْلَى، وسيرتُنا التى لا تجد لها مِثلا؛ فاسْلُكْ هذه المحجّه، وحَسْبُك أن تتّخذ بينك وبين الله حُجّه؛ وفى هـذا عن بقية الوصايا غِنَى؛ والله يُزيل عنك الخوف فى الخَيف ويُبلّغك المُنى فى مِنى؛ والاعتماد ... .

القســـم الرابع (١)

(مما يُكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ـ مايقَعُ على سبيل النُّدور، وهو الذى يقع فى حين من الأحيان من غير أن يسبق له نظير)

قال الشيخ شهابُ الدين محمودٌ الحلَبيُّ فى "حُسْن التوسل": ويحتاج الكاتبُ فيه الى حُسْن التّصرُّف على ما يقتضيه الحال .

[فمن ذلك] ما يُكتبُ به للنيابة الخارجة عن المملكة إذا رغب فيها مُتَولّيها .

وهذه نسخةُ تقليد شريف من ذلك، كُتب به المولى الفاضلُ شهابُ الدين محمود الحلبيّ لمتملّك سِيس، بإقراره على ما هو قاطع النّهر من بلاده، وهى :

الحمــدُ لله الذى خصّ أيّامنا الزاهرة، باصْطناع مُلوك المِلَل، وفضّل دولتنـا القاهرة، بإجابة من سألَ بعضَ ماأحرزَتْه لها البِيضُ والأسَل؛ وجعل من خصائص مُلْكنا إطْلاقَ الممـالك وإعطاءَ الدُّوَل، والمَنّ بالنُّفوسِ التى جعلها النّصرُ لنا من جُملة الخوَل؛ وأغْرى عَواطِفَنا بتحقيقِ رَجاءِ مَن مدّ الى عَوارِفنا كَفَّ الأمَل، وأفاض بمواهِبِ نَعْمائنا، على من أناب إلى الطاعة حُلَل الأمْنِ بعد الوَجَل؛ وأنترع بالآئنا،

(١) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد فى الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون هذا زائدا على الأقسام .

لمن تمسّك بولايتنا ، أرواحَ رعاياه من قبضةِ الأجَل ، وجعل بَرْدَ العَفْوِ عنه وعنهم بالطاعة نتيجةَ ما أذاقهم العصيانُ من حرارةِ الغَضَب : إذ «رُبّما صحّت الأجسامُ بالعلَل» .

نحمدُه على نِعَمه التى جعلت عَفْوَنا ممّن رجاه قريبا ، وكرَمنا لمن دعاه بإخلاص الطاعة مجيبا ، وبِرّنا لمن أقبل إليه مثيبًا بوجه الأمل مُنيبا ، وبأسَنا مصيبا لمن لم يجعل اللهُ له فى التمسّك بمراحمنا نصيبا ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعصِم دَمَ من تمسّك بذمامها ، وتحسِمُ موادَّ من عاندها بانتقام حُسامها ، وتفصِمُ عُرَا الأعناق ممّن أطمعه الغُرور فى انفصال أحكامها وانفصامها ، وتقصِمُ مَن قصد إطفاءَ ما أظهره اللهُ من نُورِها واقتطاعَ ما قضاه من دوامِها ، وتجعلُ كلمةَ حملتِها هى العُليا ولا تزالُ أعناقُ جاحديها فى قبضة أوليائها وتحت أقدمها ، ونشهدُ أنَّ محمّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالهدىٰ ودينِ الحقّ إلىٰ كلّ أمّه ، المنعوتُ فى الكُتُب المنزّلة بالرأفة والرحمه ، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخمس : منها الرُّعبُ الذى كان يتقدّمه إلىٰ من قصَده ويَسْبِقُه مَسيرةَ شهرٍ إلىٰ من أمّه ، المنصوصُ فى الكُتُب المحكَمة علىٰ جهادِ أمّتِه الذين لا حياةَ لمن لم يتمسّكْ من طاعتهم بذِمّه ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين فتحُوا بدَعْوته الممالكَ ، وأوضحُوا بشرْعته إلى اللهِ المسالكَ ، وجلَوْا بنُور سنّته عن وجه الزمن كلَّ حالٍ حالك ، وأوردُوا من كفَر بربّه ورُسُلِه مواردَ المهالك ، ووثِقُوا بما وعد اللهُ نبيّه حين زوَىٰ له ذلك ، صلاةً لا تزال الأرضُ لها مسْجِدا ، ولا يبرحُ ذكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدا ، ما استفتحتْ ألسِنةُ الأسِنّةِ النّصرَ بإقامتها ، وأبادتْ أعداءَها باستدامتها ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّه لما آتانا اللهُ مُلْكَ البَسيطه ، وجعل دَعْوتنا بأعنّة ممالك الأقطار مُحِيطه ، ومكّن لنا فى الأرض ، وأنهضنا من الجهاد فى سبيله بالسُّنّة والفَرْض ،

وجعل كلَّ يوم تُعرَضُ فيـه جُيوشَنا من أمثلة يوم العَرْض، وأظلّتنا بوادِرُ الفتوح، وأطَلّتْ علىٰ الأعداءِ سُيوفُنا التي هي علىٰ من كَفَرَ بالله وكفر النِّعْمةَ دعوةُ نُوح؛ وأيَّدنا بالملائكة والرُّوح، علىٰ من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً: فانتصر بالأب والابْن والرُّوح؛ وألقتْ إلينا مُلوكُ الأقطار السَّلام، وبذَلتْ كرائمَ بلادها وتِلا دِها رَغبـةً في الالتجاء إلىٰ ظِلٍّ أعلىٰ من الأعلام؛ وتوسَّـلَ من كان منهـم يُظْهِر الغِلْظةَ بالذِّلّة والخُضوع، وتوصَّـل من كان منهم يُبْـدِى القُوّةَ بالإخلاص الذى رَأوه لهم أقوى الجُنَنِ وأوْقَى الدُّرُوع ـ عاهَدْنا اللهَ تعالىٰ أن لا نَرُدَّ منهم آملا، ولا نَصُدَّ عن مَشارِعِ كَرمِنا نَاهِلا، ولا نُخَيِّبَ من إحساننا راجيا، ولا نُخَلِّيَ عن ظِلِّ بِرِّنا لَاجيا؛ علمـا أنَّ ذلك شكرٌ للقُـدْرة التي جعلها الله لنـا علىٰ ذلك الآمل، ووُثُوقًا بأنه حيثُ كان في قبضتنا متىٰ نَشاءُ نجمع عليه الأنامِل؛ اللَّهمَّ إلَّا أن يكونَ ذلك اللَّاجئُ للغِلِّ مُسِرّا، وعلىٰ عَداوَةِ الإسلام مُصِرّا؛ فيكونُ هو الجانِيَ علىٰ نَفْسه، والخَائِنَ علىٰ مَوْضعِ رَمْسه، والمُفرِّطَ في مَصْلحة يَومِه وغده بتذكير عَداوَةِ أمْسه .

ولمـّا كان من تقدَّم بالمملكة الفلانيـة قد زَيّنَ له الشيطانُ أعمالَه، وعقَد بحِبَالِ الغُرورِ آمالَه؛ وحسَّن له التَّمسُّـكَ بالتَّتار الذين هم بمهابتنـا محصورون في ديارهم، مأسُورُون في حبائل إدْبارِهم؛ عاجِزُون عن حِفْظِ ما لَدَيْهـم، قاصِرُون عن ضَـبْط ما استَلَبتْهُ السَّرايا المنصورةُ من يَدَيْهم؛ ليس منهم إلَّا مَن له عند سُيُوفنا ثَار، ولهـا في عُنُقِه آثار، ومن يعلَمُ أنّه لابدَّ له عندنا من خُطَّتَيْ خَسْف: إمّا القتلُ أو الإسار.

وحينَ تمـادَى المذكورُ في غَيِّه، وحمـله الغُرورُ علىٰ رُكوبِ جَوادِ بَغْيِه، أمَرْنا جُيوشَنا المنصورةَ فجاسَتْ خِلَالَ تلك الممـالك، ودَاسَتْ حَوافِرُ خَيْلها ما هُنالك، وساوتْ في عُموم القَتْل والأسْر بين العَبْد والحُرِّ والملوك والمـالك؛ وألحقتْ رَواسيَ

جبالهم بالصعيد ، وجعلت حماتهم كزروع فلاتهم منها قائم وحصيد ؛ فأسلمهم الشيطان ومر ، وتركهم وفر ؛ وما كرهم وما كر ، وأعلمهم أن موعدهم الساعة والساعة أدهى وامر ؛ وأخلفهم ما ضمن لهم من العون ، وقال لهم : ﴿إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون﴾ .

وكان الملك فلان ممن تدبر طرق النجاة فلم ير إليها سوى الطاعة سبيلا ، وتأمل أسباب النجاح فلم يجد عليها غير صدق الانتماء دليلا ؛ فأبصر بالخدمة موضع رشده ، وأدرك بسعيه تأفر سعده ؛ وأراه الإقبال كيف ثبتت قدمه فى الملك الذى زلت عنه قدم من سلف ، وأظهر له الإشفاق على رعاياه مصارع من أورده سوء تدبير أخيه موارد التلف ؛ وعرفه التمسك بإحساننا كيف احتوت يده على مالم يبق غضبنا فى يد أخيه منه إلا الأسى والأسف ؛ وحسنت له الثقة بكرمنا كيف يجمل الطلب ، وعلمته الطاعة كيف يستنزل عوارفنا عن بعض ماغلبت عليه سيوفنا : وإنما الدنيا لمن غلب ؛ وانتمى إلينا فصار من خدم أيامنا ، وصنائع إنعامنا ، وقطع علائقه من غيرنا ؛ فلجأ منا إلى ركن شديد ، وظل مديد ، ونصر عتيد ؛ وحرم تأوى الملة إليه ، وكرم تقر نضارته ناظريه ، وإحسان يمتعه بما أقره عطاؤنا فى يديه ، وامتنان يضع عنه إصره والأغلال التى كانت عليه ــ اقتضى إحساننا أن نغضى له عن بعض ما حلت جيوشنا ذراه ، وحلت سطوات عساكرنا عراه ، وأضعفت عزمات سرايانا قواه ، ونشرت طلائع جنودنا ما كان ستره صفحنا عنهم من عورات بلادهم وطواه ؛ وأن نخوله بعض ما وردت خيولنا مناهله ، ووطئت جيادنا غاربه وكاهله ، وسلكت كماتنا فملكت دارسه وآهله ؛ وأن يبقى ملك هذا البيت الذى مضى سلفه فى الطاعة عليه ؛ ويستمر ملك الأرمن الذى أجمل السعى فى مصالحه

بيديه ؛ لِتَتَيَمَّن رعاياه به ، ويعلموا أنّهم أمِنُوا على أرواحهم وأولادهم بسَبَبه ، عن طوية مخلصة ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يَدٌ جائرة ، ولا سريّةٌ فى طلب الغِرّة سائرة ، ولا تَطْرُق كَنَاسه أُسْدُ جيوش مفترسة ، ولا سباعُ نِهاب مُختلِسة ، بل تستمرّ بلادُه المذكورةُ فى ذِمام رعايتنا ، وحَضانة عِنايتنا ، وكَنَف إحساننا ، ووديعة برِّنا وآمتناننا ، لا تطمَحُ إليها عينُ مُعاند ، ولا يمتدُّ إليها إلّا ساعدُ مُساعِد وعَضُد مُعاضِد .

فليُقابِل هذه النِّعمة بشُكْر الله الذى هداه إلى الطاعه ، وصانَ بإخلاص وَلائه نَفْسَه وتَفائس بلاده من الإضاعَه ، وليَقْرِنْ ذلك بإصْفاء موارد المَوَدَّه ، وإضْفاء ملابس الطاعة التى لا تزدادُ بحسْنِ الوفاء إلا جِدَّه ، وآستمرارِ المُناصحة فى السِّرّ والعَلَن ، وآجتنابِ المُخادعة ما ظَهَر منها وما بَطَن ، وأداءِ الأمانة فيما آستقرّ معه الحلف عليه ، ومُباينة ما يُخشىٰ أن يتوجّه بسببه وجهُ عَتْب إليه ، وآستدامة هذه النِّعمة بحفظ أسبابها ، وآستقامة أحوالِ هذه المِنّة برَفْض موجِبات الكَدَر وآجتنابها ، وإخلاص النِّيّة التى لا تُعتبر ظواهرُ الأحوالِ الصالحة إلّا بها .

* * *

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رُماة البُنْدق

قد جَرَت العادةُ أنّه إذا كان للسلطان عنايةٌ برَمْي البُنْدق ، أقام لرُماته حاكمًا من الأمراء الذين لهم عنايةٌ برَمْي البُندق .

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك :

الحمدُ لله الذى خصّ أيّامنا الزاهرةَ ، باستكمالِ المحاسنِ فى كلّ مَرام ، وجعل [من] أولياءِ دَوْلتنا القاهرة ، من أصاب من كلّ مَرْمًى بعيد شاكلةَ الصّوابِ حتّىٰ أصبح

حاكمًا فيه بين كلّ رام ، وجمع لخواصّنا من أشتات المفاخر ما إذا برزوا فيه الرياضة ليلا [أغنت] قسيّهم عن الأهلّة ورجومها عن رجوم الظّلام ، وسدّد مقاصد أصفيائنا فى كلّ أمر فما شغلوا بمسرّة سرّ إلا وكانت من أقوى أسباب التمرّن على خوض الغمرات العظام ، واقتحام الحرب اللّهام ، واشتمال جلابيب الدّجى فى مصالح الإسلام .

نحمده على نعمه الوسام ، وأياديه الجسام ، وآلائه التى ما برحت بها ثغور المسارّ دائمة الابتسام ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً تعصم من الزّلل ، وتؤمّن من الزّيغ والخلل ، وتلبس المتمسّك بها من أنوار الجلالة أبهى الحلل ، ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله المنزّه عن الهوى ، المخصوص بالوحى الذى علّمه شديد القوى ، الدّالّ على اعتبار الأعمال بصحّة القصد بقوله صلّى الله عليه وسلم : « إنّما الأعمال بالنّيّات وإنّما لكلّ امرئ ما نوى » . صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفّق الإخلاص مساعيهم ، ووفّر الإيمان دواعيهم ، صلاةً دائمة الاتّصال ، مستمرّة الإقامة بالغدوّ والآصال ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنّه لمّا كان رمى البندق من أحسن ما لهت به الكماة ، فى حال سلمها ، ومن أبهج ما حفظت به الرّماة ، حياة نفوسها وعزّة عزمها ، على ما فيه من اطّراح الراحة واجتنابها ، واستدعاء الرّياضة واجتنائها ، وخوض الظّلمات فى الظّلام ، وتوخّى الإصابة فى غمرات الدّجى التى تخفى فيها المقاتل على حدق السّهام ، وارتقاب ظفر ، يسفر عنه وجه سفر ، ومهاجمة خطر ، تفضى إلى بلوغ وطر — وله شرائط تقتضى التقدّم بين أربابه ، وقواعد لا يخالفها(1) من كان مبرّزا فى أصحابه ، وأدوات

(1) فى الأصل «فى تخالفها» ولا معنى له . تأمل .

كمال، لابُدّ للتحلّي بهذه الرُّتبة منها، وحُسْن خِلال، تُهْدَرُ أعمالُ من بَعُد عليه مَرامُها وقَصُرتْ مَساعِيه عَنْها، وعوائدُ معلومةٌ، بين أرْباب هذا الشّأْن وكُبرائه، ومقاصِدُ مَفْهومةٌ، فيما يتميز به المُصيبُ الحاذقُ على نُظَرائه .

ولَمّا كان الجنابُ العالى الفلانىُّ مِمّن يشارُ إليه فى هذه الرتبة بَبَنان التّرْجيح، ويُرجَع إلى أقواله فيما اقتضَى التّعديلَ فيما بين أرْبابها والتَّجْريح؛ ويُعملُ فيها بإشارَته الخالصة من الهَوىٰ والأغْراض، ويُعوّلُ فيها على قَدَم مَعْرفتـه المميزة بين أقْدار الرُّماة مع تَساوِى إصَابة الأغْراض، لاحْتوائه على غايات الكمال فيها، وسَبْقه منها إلى مقامات حسان لايُعْطيها حَقَّها [الا] مِثْلُه ولا يُوَفِّيها ـ اقتضىٰ رأْيُنا الشريفُ أن نَعدِق به أحكامَها، ونَرُدّ إلى أمْرِه ونَهْيه كُبَراءَها وحُكّامَها .

فرُسِم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُنْدق لمـا يتعين من اخْتِصاصِها بجَنابه، ويتبين من أوْلَويّته بالحُكْم فى هذا الفَنّ على سائر أرْبابه .

فَلْيَلِ ذلك حاكمًا بشروطه اللّازمة بين أهْلِه، المعتَبَرة بها خلالُ الكمال فى قَوْل كلّ أحد منهم وفِعْله؛ المُمَيِّزة بين تَفاوُتِ الرُّماة بحسب كيفيـة الرَّمْي وإتْقانه، المرجحـة فى كَثْرة الطّير بإمكانه له فى وَقْت البروز ومكانه؛ المُهْدِرَة ما يجب بين أهْـل هذا الفَنّ إهْدارُه، المُثْبِتَة مايتعينّ فى كمال الأدَوات إثباتُه فى قِدَم الكُبَراء وإقْرارُه؛ ولْيَعْمَلْ فى ذلك جميعه بمـا تقتضيه مَعْرفَتُه المجمَعُ فى فَنّه عليها، ويتقدّمْ فيه بمـا تدله عليـه خِبْرتُه التى مابَرِحَ وجْهُ الاخْتيار مصروفًا إليها؛ والله تعالىٰ يسدّدُه فى القَوْل والعَمَل، ويبلّغه مراتبَ الرِّفعة فى خلاله الجميلة وقد فعل؛ والخيرُ يكون، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : ورُبّمـا كان المرسـومُ المكْتَتَب لمن هو دُون من تقـدّم من أمير عشرة أو مَنْ فى معناه، فيفتتح بـ«أمّا بعد» ويكمل على نحو ماتقدّم .

وهذه نسخةٌ ثانيةٌ لحاكم البُنْدق، مفتتحةٌ بـ«أما بعدُ» وهى :

أمّا بعدَ حَمْدِ الله الذى لا مُعَقِّب لحُكْمِه ، ولا يَعزُب شَىْءٌ عن عِلْمِه ، ولا قُنُوطَ من رَحْمته وسَعَةِ حِلْمِه ، مُلْهِمِ أهل محاربة أعداء دينِه بالرِّياضة لهـا فى أيّام سلْمِه ، ومُنْجِز وُعُود السُّعود لمن كان النَّجْم مَبْدأ هِمَّتِـه ، والصِّدْقُ حُلَّةَ سَجِيَّته ، والعِزُّ حلْيَةَ ٱسْمِه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى هدَى اللهُ بنُورِ ملَّته العادلة من تردَّىٰ فى ظُلُمات ظُلْمِـه ، ورَفَع منارَ النُّبوَّة بمـا خصه به من ٱفتتاح التقدّم فى رتبتها وخَتْمِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سَرىٰ كلٌّ منهم إلىٰ غاية الكمال علىٰ نَجائِبِ هِمَّتِـه وجِيادِ عَزْمه ــ فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيَتْ له أسْباب قِدَمِه وتَقدُّمِه ، وفُتِحتْ له أبْواب حُكْمه فى رُتْبته وتَحَكُّمِه، وأُعِيدَ إلىٰ مكانته التى رَقَاها باسْتِحقاقه قديمـا ، ورُفِعَ إلىٰ منزلته التى لم يَزَل بقواعدها خبيرًا وبأوْضاعها عَلِيما ــ مَن ٱرتقىٰ فى رتبته إلىٰ نَجْمِ أُفُقِها، وٱقتدىٰ فى مَناهِجه بدَليـل مسالكها وطُرُقها ؛ فأتىٰ فى مصالحها بيوتَ الإصابَةِ من أبوابها، ونَقَل فيهـا أَوْضاعَ الإجادة عمَّن كان أدْرىٰ بها ؛ وتقـدَّم فيها تقدُّمَ هِجْرته وسَبْقِ قِدَمِه ، وبلَغ فى مقاماتها الغايَةَ بين وَثَبات سَاعِده وثَبـاتِ قَدَمِه ، وجمع من أشـتات الطَّير ما ٱفترق فى غيره ، وحَوىٰ من السَّبْق إلىٰ أنْواعها ما حكم بسَعْد نَجْمِـه ويُمْن طَيْره؛ فكَمْ ليلةٍ أسْفر فيا أبْرزُوه عن صباح نَجاحِه، وكَمْ طائرٍ زاحمَ النَّسْرَيْنِ بقوادمه أصْبح لدَيْه محمولًا بجَناحِه ؛ وكَمْ أنزلت أهِلَّةُ قِسـيِّه الطَّيْرَ علىٰ حُكْمها ، وكَم حَكَتْ بَنادِقُه فى رُجوم الطَّيْرِ المُحلِّقـةِ إلى السماء ٱنقضَاضَ نَجْمِها، وكَمْ أبصَرَ مقاتِلَ الطَّير وهى من اللَّيل فى ظُلُماتٍ بعْضُها فوقَ بَعْض ، وكَمْ ٱشتغل من الطير الواجب بنَدْب رَمْيٍ لم يشْغَلْه من إعداد الأُهبـة للجِهاد عن الفَرْض؛ حتّىٰ كاد النَّسر الطائر إذا تَوهَّم أنَّ الهلالَ قَوْسُه يَغدوكأخيه واقعا ، والمرْزَم المحلِّق فى الأُفُقِ يُمسِى لإشارة

بنادقه الصُّمِّ متثبِّتًا ؛ حتى أصبحَ وهو الكبير فى فنّه بآداب التعريف ، وأضحىٰ وهو الخبيرُ بنَوْعه بطريق النّقل والتّوْقيف .

ولمَّا كان فلانٌ هو كبيرَ هـذا الفنّ وخبيرَه ، ومُقـدَّمَ هذا النّوع الذى لم يزل بتجلاته عظيمَ كلِّ عَصْر وأميره ؛ وقديمَ هذا المَرْمَى الذى جُلُّ المراد به الجدُّ لا اللّعب ، وأليفَ هذا المَرام الذى يَنْشَطُ إليـه اللّاعِبُ ويستَرْوِحُ إليه التَّعب - اقتضى الرأىُ الشريف أن نجعلَه حاكمًا فى هـذه الرتبة الجليـلة بمـا علم أو عُلِّمَ منها ، فاصلًا بين أهْلِها بمعرفتـه التى ما برِحَتْ يُؤْخذ بهـا فى قواعدها وينقَلُ عنهـا - فرُسِم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُندق .

فلْيَسْتقِرَّ فى هذه الرتبة التى تلقّاها ؛ بيمين كِفَايَتِه ويُمْنه ، وارْتقاها ؛ بتفرّده فى نوعه وتقـدُّمه فى فنّه ؛ وليعتمِدِ الإنصافَ فى أحكام قواعِدها ، وإجْراءِ أمْر أربابها على أحوالهـا المعروفة وعَوائِدها . ويُنافِس المعْروفين بها على التّحلّى بآدابها ، والتَّمسُّـك من المرُوءَة والأُخُوّة بأفضـل أهْدابها ؛ ويُنْصِف بينهم فيما يُعْتَـدُّ به من وَاجِبِها ، ويُلْزِم الداخلَ فيها بالمَشْيِ على المألُوف من طُرُقها والمعروفِ من مَراتِبِها ؛ ولا يَحكُمْ فى التقديم والتأخير بهَوَى نَفْسه ، ولا يقْبَلْ من لم يتَحَرَّ الصِّدْقَ فى يومه أنّه قُبِل منه فى أمسه ؛ فإنّ اسْتِدامةَ شروطها أمانٌ من السُّـقوط عن دَرَجِها ، وإذا حَكّمتْ نفوسُ أهْلِها الصِّدْقَ فى أقوالها وأفعالها فقد خرجَتْ من خَطِّ حَرَجِها ؛ وليَرْعَ لذَوِى التقدُّم فيها قِدَم هِجْرتِهم ، واشْتِهارَ سيرتِهم الحسنة بين أُسْرتِهم ؛ وقد خُبِرَ من أوْصافه الحَسَنه ، وسَابِقِ رُتْبته التى لم تكن عَيْنُ العِناية عنها وَسِنَه ، ما اقتضَى استقرارَ رُتْبته علىٰ مكانتها ومكانهـا ، واكتُفِى له من مَبْسوط الوصايا بعُنْوانها ؛ فلْيتّقِ اللهَ فى قوله وعمله ، وبجعلِ الاعتماد علىٰ توفيقه غايةَ أمله ؛ والخيرُ يكون : إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

ومن ذلك ما يكتب به فى إلباس الفتوة .

اعلم أن طائفة كبيرة من الناس يذهبون إلى إلباس لباس الفتوة، ويقيمون لذلك شروطا وآدابا جارية بينهم . ينسبون ذلك فى الأصل إلى أنه مأخوذ عن الإمام على كرم الله وجهه .

والطريق الجارى عليه أمرهم الآن أنه إذا أراد أحدهم أخذ الطريق عن كبير من كبراء هذه الطائفة، اجتمع من أهلها من تيسر جمعه، وتقدم ذلك الكبير فيلبس ذلك (١) ثيابا ، ثم يجعل فى كوز أو نحوه ماء ويخلط به بعض ملح، ويقوم كل منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره . وربما اعتنى بذلك بعض الملوك . وقد جرت العادة فى ذلك أنه إذا ألبس السلطان واحدا من الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعا :

وهذه نسخة توقيع بفتوة، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر، وهو :

الحمد لله الذى جعل أنساب الفتوه، متصلة بأشرف أسباب النبوه، وأفضل من أمده منه بكل حيل وقوه ، وأسعد من سما فكان عليا على كل من سام علوه .

نحمده حمدا تغدو الأفواه به مملوه ، ونشكره على مواهبه بآيات الشكر المتلوه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رواحه وغدوه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى شد الله أزره بخير من أفتى وفتى فنال كل فتوى من الفتيان به شرف الأبوة والبنوه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا وليه وخذلوا عدوه، صلاة موصلة إلى نيل الأمانى المرجوه .

---

(١) بياض بالأصول، ولعله : المريد أو نحوه .

وبعدُ، فإنّ خير من آتّصل به رجاءُ الرجال الأجْواد، وطوَى البعيدُ إلىٰ تحصيل مَرَامِه كلَّ طَوْد من الأطْواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لِثَامَ كلِّ جُود وآمتطىٰ ظهرَ خيرِ جَوَاد، وآستَمسَكَ من ملابس الشَّرف بما يُؤمِّن ويؤمِّل وما يشدّ به من كلِّ خيرِ لباسَ التّقْوىٰ، وما تُؤيِّد به عزيمته فتقوىٰ؛ وما يتقيد به علىٰ رءوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحسنُ آيةٍ من هذا الكتاب ـ من آشْتَهر بالشَّجاعة التي تقدَّم بها علىٰ قوْمه، وحَمِدَ أمْسَها في يَوْمه؛ وبالشَّهامة التي لها ما للسِّهام من تَفْويق، ولزُرْق الأسِنّة من تحْذيق؛ ولبِيض الصِّفاح من حِدَّة مُتُون، وللسَّمْهَرية من آزْدحام إذا آزْدحَمت المَنُون؛ ومن صِدْق العَزِيمَه، ما يشهد به كرمَ الشِّيمَه؛ ومن شِدَّة الباس، ما يجتمع [به] علىٰ طاعته كثيرٌ من الناس؛ ومن صِدْق اللَّهْجَة واللِّسان، ما آتّصف عَفافُه منهما بأشرف ما يتَّصِفُ به الإنسان؛ ومن طَهارَةِ النَّفْس ما يتنافَسُ علىٰ مِثْله المُتَنافِسُون، ويَسْتضيءُ بأنواره القَابِسُون، ويَرْفُلُ في حُلَلِ نَعْمائه اللَّابِسُون؛ و[كان] من الّذين أبانُوا عن حُسْن الطاعة وأنابُوا، وإذا دُعُوا إلىٰ آسْتِنفار جهادٍ وآجتهاد لبَّوْا وأجابُوا؛ والذين لا يَلْوُون ألْسِنَتهم عن الصِّدْق، ولا يُولُّون وجُوهَهم عن الحَق؛ والذين لا يُقْعِدهُم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حُبُّ الأوْطان، وإذا نَفَذُوا في حَرْبِ حِزْب الأعْداء لا يَنْفُذُون إلا بسُلْطان .

ولما كان فلانٌ ذُو المَفاخِر، والمآثِر، أميرُ الفِتْيان، مُمَيَّزُ الإخْوان والأعْيان، هو صاحِبَ هذا المَحْفِلِ المَعْقود، والممْدُوحَ بهذا المَقالِ المحْمود، والممنوحَ بهذا المقام المشْهُود، والثَّناءِ الذى سَرَّ بالَهُ بما سَرْبَلَه أثوابَ العِزَّة والفَخار، والاعتناءِ الذى آستخير اللهُ في آصْطفائه وآخْتيارِه في ذلك نَخارِ ـ آقتضَىٰ حُسْنُ الرأْيِ الشريف ـ كَرَّم اللهُ أنصارَه، وأعلىٰ مَنارَه ـ أن نُجِيبَ وَسائِلَ مَن وَقَف في هذا القَصْد وَقفَةَ سائل، لِيَنالَ بذلك كلَّ إحسانٍ وإحْسانَ كلِّ نائِل؛ ودعا إلى الكريم العامِّ بالإنعام،

والدعاء لسُلْطان يُدّعَىٰ له ويدعو كلُّ الأنام ، فقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطانَ الأرض، مَلِكَ البَسِيطَةِ إمامَ العَصْر، رافِعَ لِواءِ النَّصْر، ناصرَ المِلّةِ المُحَمّديّة، مُحيي الدّولة العبّاسيّة، فاتحَ البلادِ والقِلاعِ والأمصار، قاهرَ الكُفّار مُبِيد الفرنج والأرمن والتتار، سُلطانَ الزّمان، خُسْرُوانَ إيران، شاهنشاه القان ، سُلطانَ العالَمِ وارثَ المُلْك ، سُلطانَ العَرَبِ والعَجَم والتُّرْك، الذى انتهىٰ إليه عن أمير المؤمنين الإمام الأوّاب، المِغْوار، علىّ بن أبى طالب ذِى الفَخَار، شَرفُ الفُتُوّة واتّصالُ الأنساب .

قلتُ : هـذا ما وقفْتُ عليه من نُسْخة هذا التّوقيع . وقد ذكر الشيخُ شِهابُ الدّين محمودٌ الحَلَبىُّ فى كتابه "حسن التوسل" نسخةَ تقليد أنشأه فى الفُتُوّة ، أسقط منه أوّل الخُطبة وهو : ــ وابتدأ منه بقوله :

نحمَـدُه علىٰ ما مَنَحنا من نِعَم شَتّىٰ ، ووَهَبنا من عِلْمٍ وحِلْمٍ غَدَوْنا بهما أشْرف من أفتىٰ ؛ وآتانا مُلك خِلال الشّرَف الذى لا ينبغى لغيرما اختصنا به من الكمال ولا يتأتّىٰ ؛ وخَصّنا به من رَفْع أهـلِ الطّاعة إلىٰ سماء النِّعَم يتبوّءُون من جِنانِ الكَرَم حيثُ شَاءُوا : وغيرُهم لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخلون الجنّة حتّىٰ ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ من انتمىٰ فى فخار أُبُوّة التُّقىٰ إلىٰ حَسَب علِىّ ، وانتهىٰ فى بأوةِ البُنُوّةِ إلىٰ سَبَبٍ قوىٍّ ونَسَب زكىّ ، وارتدىٰ حُلَلَ الوَقار بواسطة الفُتُوّة عن خيرِ وَصِىٍّ عن أشرف نَبِىّ ؛ ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى نُور شريعتِه جَلِىّ ، وجاهُ شفاعته مَلِىّ ، وبسَيْفه وبه حازَ النّصرَ من انتمىٰ وفاءً إليـه : فلا سَيْفَ إلّا ذُو الفَقارِ ولا فَتَى إلّا علِىّ .

وبعـدُ ، فإنّ أولىٰ من لَبّىٰ إحسانُنا نِداءَ وُدِّه ، ورَبِى امتنانُنا نِتاجَ وَلائه الموروث عن أبيه وجَدّه ، ورقّاه كرمُنا إلىٰ رُتْبة عَلاءٍ يقفُ جَوادُ الأمل عن بلوغها عند حَدّه ،

وتلقت كرائمنا وفد قصده بالترحيب، وأنزلت جار رجائه من مصر نصرها بالحرم الآمن والربع الخصيب، وأدنت لأمله ما نأى من الأغراض حتى بلغه بفضلها سهم اجتهاده المصيب، وأعدت له من حلل الجلالة ما هو أبهى من رداء السماء الذى تزداد على الأبد جدة برده القشيب، وخصته لأبناء المجد بأجل بنوة جعلت له فى إرث خلال الشرف أوفر حظ وأوفى نصيب - من سمت منابر المجد بذكره، وابتسمت أسرة الحمد بشكر أوصافه ووصف شكره، واختالت مواد الثناء بحسن خلاله، واختارت كواكب السناء إقبال طوالعه بطوالع إقباله، وتمسك من طاعتنا بأمثل أسباب الهدى، واعتصم بعروة بنوة الأبناء فأوطاه التوثق بها رقاب العدا، واتصف بمحاسن الشيم فى مودتنا فأضحى فتى السن كهل الحلم يهتز للندى، وانتمى إلينا فأصبح لدينا مليكا مقربا، وأوجب من حقوق الطاعة علينا ما أمسى به لدينا - مع جلالة الأبناء - ابنا وغدونا له - مع شرف الآباء - فى نسب الفخر العربى أبا، ونشأ فى مهاد الملك فسما به للعلم والعلم، بالسيف والقلم، والبأس والكرم، واعتزى إلى أبوة حنونا ببنوة رجائه فتشبه بعدل أيامنا: «ومن يشبه أباه فما ظلم»، وتحلى بصدق الولاء وهو أول ما يطلب فى سر هذا النسب ويعتبر، وتخلى لنكاية عدو الإسلام بلطف مكايدة: السيوف تجز الرقاب «وتعجز عما تنال الإبر».

ولما كان فلان هو الذى زان بموالاتنا عقود مجده، وزاد فى طاعتنا على ما ورث من مكارم أبيه وجده، وزان الملوك فى إقبال شبابه، وصان ملك أبيه عن عوارض أوصابه باتباع ما أوصى به، وأنفت صوارمه أن تكون لغير جهاد أعداء الله معدة، وعزائمه أن تتخذ عدو الله وعدوه أولياء تلقى إليهم بالمودة، وسهامه أن تسدد [إلا] إلى مقاتل العدا، وأسنته أن يبل لها من غير مناهل صدور الكفر صدى، مع اجتماع خلال الشرف لشرف خلاله، وافتراق أسباب السرار عن هالة كماله؛

وسُؤَالِهِ ما ليس لغيرِه أنْ يمدَّ إليه يدا ، والتمــاسه من كَرمنا العميم أجَلّ ما نَحَلَ والدٌ وَلَدا ، وأنّه وقف على قَدَم الرَّجاءِ الثّـابِت ، ومتّ بقــدَم غُروسِ الوَلاءِ التى أصْلها فى رَوْض المَوَدّة ثابِت ، وقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطان الأرض ، القـائمَ بِجهادِ أعْداء الله بالسُّـنّة والفَرْض ، فاتحَ الأمْصار ، الذى لم تَزلْ سُيوفُه تُهاجِرُ فى سبيل الله عن غُمودِها إلى أن صار له من الملائكة الكِرَامِ أنْصار ، الذى كَرَّم الله شرَفَ الفُتُوّة بانْتمائها إليه ، وأعلى قَدْرَ بُنوّة المُرُوءَةِ باتّصالها به عن الخلفاء الراشدين عن أب أوّاب عن أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب رِضْوانُ الله عليــه ، وأورثَه من خُلُقــه الكَرَمَ والبَأْسَ فَتَحلّيا منه بأجَلّ مُوافٍ مُوافِق ، ومنَحَه بحِفْظ العَهْد من خصائِصه ماعَهِدَ به إليه النبىُّ الأُمّىُّ من أنّه ما يُحِبّه إلا مُؤْمنٌ ولا يُبْغضه إلا مُنافِق ؛ أعزّ الله سلطانه ، وأوْطأ جِيادَه مَعاقِلَ الكُفْر وأوْطانه ، أن يتقبّــلَ قَصْدِى بقَبُولٍ حَسَن ، ويُقبِــلَ بوَجْه كَرَمِه على أملِى الذى لم يَقْعُد به عن فُروض الطاعات وسُننها وسَنَن ، ويَنْظمنى فى سلك عقود الفُتُوّة ملْتَزِمًا بأسْبابها ، مقْتَديا بطاعته التى هى أكْملُ أنْسابِها ، متّصفًا بموالاته التى لا يَثْبُت لهــا حُكْمٌ إلّا بها ، آتيًا بشروط خِدْمتِه التى من لم يأتِ بها على ما يجب فمــا أتى البيوت من أبوابها .

فاستخرنا اللهَ تعالى فى عَقْد لِواءِ هذا الفَخار لمجْده فخّار ، ونظمْناه لعقْدِ هذا المقام الكريم واسطةً لمثْله كان يَزِينُها الادّخار .

فرُسم بالأمرِ الشريف ــ لازال جُودُه يُعْلِى الجُدُود ، ويُوَطِّدُ لأبْناء ملوك الزّمن من رُتَب الشرف فوقَ ما وطّدَت الآباءُ والجُدُود ــ أن نَصِلَ سَبَبه بهذا السَّبَب الكريم ، ونعْقِدَ حَسَبه فى الفُتُوّة بأواخى هذا الحَسَب الصّميم ، ونعْلِقَ نَسبه بأصالة هَذِه الأُبوّة التى هى إلا عن مثْله عَقيم ، ويُفاضَ عليه شعارُ هذا الخُلُق المتّصلِ عن أكرم وَصىٍّ بمن قال الله تعالى فى حَقّه : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

فليحُلّ هذه الهَضْبَةَ التى أخَذَتْ من مرافق العزّ بالمَعاقل، ويُحَلّ هذه الرتبةَ التى دُونَ بلوغها من نوع الفَراقِد ألْفُ رَاقِد؛ ويَجُرّ رِداءَ الفَخْرِ علىٰ أهداب الكواكب، ويُزاحِمْ بمواكب مَجْده النجومَ علىٰ وُرُود نَهْر المَجَرّة بالمناكب؛ ولْيصِلْ شرف هذه النسبة من جِهَتِه بمن رآه أهْلًا لذلك، ولْيَفْتِ فى الفُتُوّة بما عَلِم من مذهبنا الذى انتهىٰ فيه مِنّا إلىٰ مالك؛ وليطّلِ علىٰ مُلوك الأقطار، بهذه الرتبة التى تفانَى الرِّجالُ علىٰ حُبِّها، ويَصُلْ علىٰ صُروف الأقدار، بهذه العناية التى جعلَته ـ وهى حِلْيَةُ حِزْبِ الله ـ من حِزْبها؛ وليصِلْ سِرَّ هذا الفَضْل العميم بإيداعه إلىٰ أهْلَه، وانتزاعه ممن لم يَرَه أهْلًا لِحَمْله .

قلتُ : وما تقدّم ممـا يُكْتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية ، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم : من التّقاليد ، والتّفاويض ، والتّواقيع ، والمراسيم : المُكبَّرة والمصغَّرة ، ليس هو علىٰ سبيل الاستيعاب، بل علىٰ سبيل التّمثيل والتّذكير، لِيُنْسَجَ علىٰ مِنْواله ، ويُنْهَجَ علىٰ نَهْجه . فإنّ استيفاءَ ما يكتب فى ذلك مما يَشُقّ ، ويقِفُ القَصدُ دونه . بل لا بدّ من حوادثَ تحدُث لم يسبق لها مثال يقتفىٰ أثرُه . فيحتاج الكاتب إلىٰ حُسْن التّصرّف فى إيراد ما يلائم ذلك ويُناسبُه . وكلُّ كاتب ينفِقُ من كَسْبه، علىٰ قَدْر سَعَته، والله تعالى هو الموفق إلىٰ نَهْج الصواب ، والهادى إلىٰ طريق الحقّ فى الأُمور كلِّها ، بمنّه وكَرَمه .

الفصــــل الثـالث

من البـاب الرابـع من المقـالة الخامســة

(فيما يكتب من الولايات عن نوّاب السلطنة ؛ وفيه طرفان)

الطـــرفُ الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصدُ)

المقصــد الأوّل

(فى بيان مَن تصدُر عنه الولايات : من نوّاب السلطنة)

اِعلم أنّ نوّاب السلطنة بالديار المصرية لا تصدُر عنهم ولايةٌ فى جَليل ولا حَقير، بل التولية والعَزْل مَنُوطانِ بالسُّلطان ، والكِتابةُ فى ذلك مَعْدُوقةٌ به ، سواءٌ فى ذلك النائبُ الكافلُ ، ونائبُ الإسكندرية ، ونائبَا الوَجْهين : القبليّ والبحريّ ، إلا ما يكتبُ عليه النائبُ الكافلُ من القِصَص فى صغائر الولايات : من نَظَر الأوقاف وغيرها ، ثم تُعيَّنُ ويُكْتب بها تواقيعُ سلطانية .

أمّا نوّاب السلطنة بالممالك الشامية : وهم نائبُ السّلطنة بالشام، ونائبُ السّلطنة بحَلَب ، ونائبُ السلطنة بطرَابُلُس ، ونائبُ السلطنة بحَمَاة ، ونائبُ السّلطنة بصَفَد، ونائبُ السلطنة بغَزّة، إذا كانت نيابةً لا تَقدمةَ عَسكر . (1)

---

(1) يظهر أن هنا سقطا ولعله «فتصدر عنهم الولاية» أخذا مما تقدّم .

المقصـــد الثـانى

(فى بيان الولايات التى تصدر عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية بالممالك الشامية ، أنّ نُوّاب هذه الممالك يَسْتَبِدّون بتَوْلية وُلاة الأعمال، وقد يَسْتَبِدّون أيضا بتولية صِغار النُّوّاب ، كالقِلاع والبُلدان التى تكون نيابتها إمْرة عَشَرة . ورُبّما آستبدّوا بتولية بعض النيابات التى تكون نيابتها إمْرَةَ طَبْلخاناه ، إلّا أنّ تولية العشرات عن النوّاب أكْثرُ، وتوليةَ الطبلخاناه عن السلطان أكثر . أمّا النيابات التى تكون نيابتُها تقدِمَةَ ألف ، فإنّها مختصةٌ بالسلطان . والنياباتُ التى يكون مُتولّيها جُنْديًّا أو مقـدّمَ حَلْقة فإنّها مختصةٌ بالنوّاب . وأنّ توليةَ أكابر أرْباب الأقلام : ككاتبِ السِّرّ، والوزيرِ بالشّام، حيث جعلت وزارةً ، وناظرِ النُّظّار ، حيث جعلت نَظَرا ، وأصحاب دواوين المكاتبات ، ونُظّارِ المال بسائر الممالك ، ونُظّارِ الجَيْش ، وقُضاةِ القُضاة بها ـ فإنّ التوليةَ[1] فى ذلك تختص بالسلطان دون النوّاب . وما عدا ذٰلك يولّى فيه السلطانُ تارةً، والنوّابُ أخرىٰ . ورُبّما حصلتِ الولاية فى بعض ذٰلك من بعض النوّاب ثم يُكْتب من الأبواب السلطانية بالحَمْل عليها، علىٰ ما تقدمَ بَسْطُ القول فيه هنالك، فلْيُراجَعْ منه .

---

(١) أعاد هذه الكلمة لطول الفصل .

المقصـــــد الثـالث

[فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية أنّه يراعىٰ فيها بَراعةُ الاستهلال فى الافتتاح وأنّ الافتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلىٰ من الافتتاح بـ«أما بعدُ» والافتتاحَ بـ«أمّا بعدُ» أعلىٰ من الافتتاح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» وأنّ لفظَ «أمّا بعدُ» أعلىٰ من لفظ «وبعدُ» وأنه يراعىٰ فى الولايات وصفُ المتولّى والولاية، ويُؤْتىٰ لكلّ أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح، ثم يقال: "ولما كان فلان هو المشارَ إليه بالصفات المتقدّمة، اقتضىٰ حسنُ الرَّأى أن يستقرّ فى كذا ونحو ذلك". ثم يؤتىٰ من الوصايا بما يناسبُ مقام الولاية والمتولّى لها، ثم يؤتىٰ بالاختتام: من المَشيئة والتَّاريخ، والحَمْدَلة، والتَّصلية، والحَسْبَلة.

والأمر فيما يكتب عن النوّاب جارٍ علىٰ هذا المَنْهج إلّا فى أُمور قليلة:

منها — أنّ جميعَ ما يُكْتب عن النوّاب بالشَّام يقال فيه «تَوْقيعٌ» ولا يقال فيه «تَقْليدٌ» ولا «تَفْويضٌ» وربما قيل «مَرْسُومٌ» فى أُمورٍ خاصّة.

ومنها — أن التَّوقيع يوصف بـ«الكَريم» لا بـ«الشَّريف» فيقال: «توقيعٌ كريمٌ أنْ يستقرّ فلانٌ فى كذا» أو «مرسومٌ كريمٌ لفلان بكذا» بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية، فإنّه يوصف بكونه «شَريفًا» فيقال: «تقليدٌ شريفٌ» و«تَفْويضٌ شريفٌ» و«مَرْسومٌ شريفٌ» و«تَوْقيعٌ شريفٌ» علىٰ ما تقدّم ذكره.

ومنها — أنّ[1] الكاتبَ يأْتى بنون الجمع [جاريا][2] فى ذلك علىٰ من تصدر عنه الولاية، كما أنّ الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها علىٰ][2] العادة فى الكتابة

(١) ذكر هذا فى المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لا يخفىٰ. (٢) بياض بالأصل.

عن الملوك . وكأنهم راعوا فى ذلك أنَّ المكتوبَ عنه هو السلطانُ فى الحقيقة ، وفعلُ النائبِ كأنَّه فعلُه نفسه ، كما يقال : هَزَم الأميرُ الجيْش ، وفتح السلطانُ المدينةَ ، والذى هَزَم وفتح إنَّما هم جُنْدُه لا هو فى نفْس الأمر .

ومنها — أنّه إذا آفتتح التوقيع بـ«رُسِم بالأمر» — لا يوصف بـ«الشَّريف» بل بـ«العالى» على ما تقدّم . فيقال : «رُسِم بالأمر العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الفُلانى الفلانىّ» . وكذلك إذا أُتِى بذكر «رسم» بعد الافتتاح بـ«الحمد لله وأما بعد» فإنّه يقال فيه : «العالى» دون «الشريف» .

قلتُ : هذا ما كان الأمرُ عليه فى الزّمن المتقدّم كما أشار إليه المقرُّ الشِّهابىّ آبن فَضْل الله فى "التعريف" . ثم آستقرّ الحال على وَصْف الأمر بـ«الشريف» فيقال : «رسم بالأمر الشريف العالى» إلى آخره ، كما يكتب عن السلطان .

ومنها — أنّه يقال فى آخر التوقيع : «والاعتمادُ على الخط الكريم أعْلاه» ولا يقال : «على الخط الشريف» ، كما فى السلطان .

ومنها — أنّه لا يذكر فى تواقيع النّوّاب مستندُ كتابتها ، كما يُكْتب فيما يُكْتب عن السلطان .

المقصد الرابع
(فى بيان الألقاب)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية أنّ أعلى ما يكتب لأرباب السيوف «المقرّ الكريم» ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» ثم «المجلس السامىّ» بالياء ، ثم «المجلس السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لارباب الوظائف الديوانية : « الجناب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم «مجلس القاضى» ثم «القاضى» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : «المجلس العالى» . ثم آستقرّ أعلىٰ ما يكتب لهم : «الجناب العالى» و«المجلس العالى» بعده ، ثم «السامىّ» بالياء ، ثم «السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس القاضى» ثم «القاضى» علىٰ ما تقدّم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلّا فيما يقعُ الآختلاف فيه من الألقاب والنُّعوت الخاصّة بكلٍّ منهما .

وأنّ أعلىٰ ما يُكتب لأرباب الوظائف الصُّوفيّة : « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنه يُكتب لأرباب الوظائف العادية : «المجلس السامى ، الصدر الأجل» أو «مجلس الصدر» أو «الصدر» .

وأنه يُكتب لزعماء أهل الذِّمة ألقابُهم المتعارَفةُ . فيُكتب لرئيس اليهود : «الرئيس» ولبطاركة النّصارىٰ : «البَطْرك» ونحو ذلك .

فأمّا ما يُكتب عن نوّاب الشام ، فعلى أصناف ، كما تقدّم فى الألقاب التى تكتب عن الأبواب السلطانية ، مع آختلافٍ فى بعض الألقاب بزيادة ونقص ، وعلو وهُبُوط .

الصنف الأوّل

(أرباب السيوف، ولألقابهم مَرَاتِبُ)

المرتبة الأولى — المقرّ الشريف . وبذلك يُكْتب للطبقة الأولى من مقدّمى الألوف بالشّام، وحَلَب، وطَرابُلُس، إذا وُلّى أحدٌ منهم نَظَر وقف، أو نحو ذلك . أمّا غير هذه الممالك الثلاث ، فقد تقدّم أنّه ليس فى شىء منها تقدمةُ ألف، ويقال فيه عندهم : « المقرّ الشريفُ، العالى، المولَوِى، الأميرى، الكَبِيرى، العالمى، العادلى، العَوْنى، الغياثى، الزّعيمى، الظّهيرى، المخدومى، الفُلانى، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأُمراء فى العالَمين ، ناصِر الغُزَاة والمجاهدين ، زَعِيم جُيوش الموحّدين ، عَوْن الأُمّة، كَهْف الملّة ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى : أعزّ الله تعالى أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمى الألوف ، ويقال فيه : « المقرّ الكريم ، العالى ، المولَوِى » . بنحو الألقاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — المقرّ العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمى الألوف، ويقال فيه : « المقرّ العالى، المولوى » بنحو الألقاب المتقدّمة أيضا [كما][1] يكتبُ لنقيب الأشراف بحَلَب، وهى : « المقرّ العالى، الأميرى، الكَبِيرى، النَّقيبى، الحَسِيبى، النَّسِيبى ، العَرِيقى، الأصيلى، الفاضِلى ، العلّامى، العارِفى، المُحِقّى، القُدْوى، النّاسكى، الزّاهدى، العابدى، الفُلانى، جَلال الإسلام والمسلمين ، جمال الفُضَلاء البارعين، فَخْر الأُمراء الحاكمين، زَيْن العِتْرة الطاهرة، شَرَف الأُسرة

(١) بياض بالأصول .

الفاخرة، حُجّة العصابة الهاشمية، قُدْوة الطائفة العَلَوية، نُخبة الفرقة الناجية الحَسَنيّة، شَرَف أُولى المراتب، نَقِيب ذوى المناقب، مَلاذ الطُّلّاب الدّاعين، بركة الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله عليه ظلاله » .

المرتبة الرابعة — الجَناب الكريم . وبه يُكْتب للأُمراء الطَّبلخاناه، ويُقال فيه : « الجناب الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، المجاهدىّ، المُؤيِّدىّ، الذُّخرىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانىّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزاة والمُجاهِدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان : أعزّ الله تعالىٰ نُصْرته » .

المرتبة الخامسة — الجناب العالى . وبه يُكْتب لأُمراء العِشْرِينات، ويُقال فيه : « الجناب العالى، الأميرىّ، الكَبِيرى، الذُّخرىّ، النَّصيرىّ، المجاهِدىّ، المؤيِّدىّ، الأوحَدىّ، الأكْمَلىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانى، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالىٰ نِعْمته » .

المرتبة السادسة — المجلس العالى . وبه يُكْتب لأُمراء العَشَرات، ويُقال فيه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، الأجَلّ، المُجاهِدىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، الهُمامىّ، الأوحدىّ، الذُّخرىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزَاة والمجَاهِدين، عَضُد الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رِفْعَته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامىّ بالياء . وبه يُكْتب لمقدَّمى الحَلْقة، وأعْيان جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « المجلسُ السامىّ، الأميرىّ، الأجَلّ، الكَبِيرىّ،

المُجاهدىّ، الأعَزِّىّ، الأخَصِّىّ، الأكْمَلىّ، الأوْحدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الأُمراء، زَيْن الأكابر، ذُخْر المجاهدين، فلان : أدام الله توفيقه » .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغير ياء . وبه يُكْتَب للطّبقة الثانيــة من جُنْد الحَلْقة ، ويقال فيـه : « المجلسُ السامِى، الأمير، الأجلّ، الكَبِير، الغَازِى، المُجاهِد، المرْتَضىٰ، المُختار، فلان الدِّين، مَجْد الإسلام، بَهاءُ الأنام، زَيْن الأُمراء، فَخْر المجاهِدين، عُمْدة الملوك والسلاطين، فُلان : أعَزَّه الله تعالىٰ » .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير . وبه يُكْتَب للطّبقة الثالثة من جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « مجلس الأمير، الكبير» . بنَحْو ألقاب السّامى بغير ياء .

المرتبة العاشرة — الأمير . وبه يُكْتَب لجُنْد الأُمراء ونَحْوهم ، ويقال فيه : «الأمير الأجلّ» .

الصـــــنف الثـانى

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أرباب الوظائف الديوانيـــة ، وفيهم مَرَاتِب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبه يُكْتَب لكَاتِب السِّرّ بالشّام، وصاحب ديوان الرسائل بحَلَب، ومَنْ فى معناهما .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لكاتِب السِّرّ بِدمَشْق بولاية مَشْيَخة الشُّيوخ، وبُولِغَ فيها جِدَّ المبالغــة، إلّا أنّها ليستْ حَسَنَةَ التّأْليف، ولَا رائقَــة التّرتيب؛ وهى : « المقرُّ الشّريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ، القاضَوِىّ، الكَبِيرِىّ، العَالِمىّ، العَامِلىّ، العَــلّامِىّ، الإمامِىّ، الفريدىّ، المُفيــدىّ، القُدْوِىّ، الحُجِّىّ، الأجَلِّىّ، الحَـبْرِىّ، المُحَقِّقىّ،

المُدقِّقِىّ، الزاهِدِىّ، العارفىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُسَلِّكِىّ، العابِدِىّ، المُرْشِد الرَّبَّانِىّ، الورَعِىّ، المهدِّىّ، المشَيِّدِىّ، المُشِيرِىّ، السَّفِيرِىّ، اليَمِينِىّ، المَلاذِىّ، الشَّيخِىّ، الفُلانىّ، جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأكابر والرُّؤَساء فى العالَمين، عَوْن الأُمَّه، صلاحُ اللّه، جمالُ المملكة، نِظام الدَّوْلة، عِزُّ المُلْك، لِسانُ المَمَالِك، زَيْن الأولِيــاء، مُظهِر أنباء الشَّريعــة وناصِرُها، مُؤَيِّد الحقّ والمُعِينُ علىٰ إظهاره، قَامِعُ البِــدَعِ ومُخْفِى أهْلها، رُحْلَة الحُفَّاظ، عَلَم المُفَسِّرين، حُجَّة الطالبين، سَيْف المناظرين، قُدْوة العُبّــاد والزُّهّاد، ملْجأُ الصُّلَحاء والعارِفين، حَسَــنةُ الأيَّام، فَرْد الزَّمان، غُرَّة وَجْه الأوان، شيخُ المشايخ، مُفِيد كلِّ غَاد ورَائِح، مُوَصِّل السَّالكين، مُرَبِّى الأتْقِياء والمُرِيدين، كَنْز السَّالِكين والمُرْشِدين، مُمَهِّد الدُّوَل، مُشَيِّد المَمَالك، مُجَمِّلُ الأمصار، مدَبِّر أُمورِ سُلْطانه فى اللَّيل والنَّهار، مُجْهِدُ نَفْسه فى رِضا مولاه، مُعين الخلائق علىٰ حُقُوقِهــم، مُذِلُّ حِزْب الشَّــيْطان، مَلاذُ البُلَغاء والمُتَكلِّمين، خُلاصَة سَلَف القَوْم المُبَارَكين، بَركَةُ الملوك والسلاطين، وَلِىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ : أسْبغ اللّهُ تعالىٰ ظلاله» .

المرتبة الثانية — المَقَرُّ الكريم . وبه يُكْتب للطبقة الثانية من أرْباب الوظائف الديوانية . ويقال فيه : «المقرُّ الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القَاضَوِىّ» . بنَحْو الألقاب السابقة مع «المقرّ الشريف» .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وبه يُكْتَب للطبقة الثالثة من أرْباب الوظائف الديوانية . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض الكُتّاب بكتابة الإنشاء والجَيْش بحَلَب، وهى : «الجنابِ الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، البارِعِىّ، الكامِلىّ، الماجدىّ، الأوْحدىّ، الأثِيرىّ، الأثِيلىّ، الأصِيلىّ، القَوامىّ،

النظامىّ، الفُلانىّ، ضياء الإسلام والمسلمين، أوحد الفُضلاء فى العالَمين، خالِصة الملوك والسلاطين، فلان . ضاعف الله تعالى نعمته» .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى. وبه يُكتب لكُتّاب الدَّست ونحوهم . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض كُتّاب الدَّست بالشّام، وهى : «الجناب العالى، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكمَلىّ، البارعىّ، الأوحدىّ، القوامىّ، النّظامىّ، المُفوّهىّ، الرّئيسىّ، الماجدى، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شرف الرُّؤساء فى العالَمين، أوحد الفضلاء الماجدين، قُدْوة البُلَغاء، جمال الكُتّاب، زَيْن المُنْتشِئين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى نعمته» .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهذه ألقاب كُتب بها لكاتب دَرْج بالشام جَليل القَدْر : وهى : «المجلس العالى، القضائىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الرّئيسىّ، الأوحدىّ، الأثيرىّ، الأصيلىّ، العَريقىّ، الفلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤساء فى الأنام، حُجّة البُلَغاء، قُدْوة الفضلاء، أوحد الأُمناء، زَيْن الكُتّاب، رَضِىُّ الدّولة، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله علوّه» .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ بالياء وهذه ألقابٌ كتب بها لبعض كُتّاب دِمَشْق بنَظَر الرِّباع وهى : «المجلس السامىُّ، القَضائىُّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، الرّئيسىّ، الأوحدىّ، الأكمَلىّ، الماجِدىّ، الأثيرىّ، الأثيلىّ، الأصيلىّ، الفُلانىّ مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤساء، أوحد الفُضلاء، صَفْوة الملوك والسلاطين، أدام الله تعالى علوّه» .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغير ياء. وهذه ألقابٌ كُتب بها لكُتّاب دَرْج بالشام ، وهى : «المجلسُ السامى، القاضى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، الأوحدُ،

الأثيرُ، الرئيسُ، البليغ، الأصيل، فلان الدِّين، مجدُ الإسلام، بهاء الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحد الفُضلاء، زَيْن الأعيان، فخرُ الصدور، مجْل الأكابر، سَليلُ العلماء، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رفعته » .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى، الاجلُّ، الكَبيرُ» والباقى من نسبة ألقاب السامى بغيرياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : «القاضى، الأجلُّ» . ورُبَّما زِيد على ذلك قليلا ، كما تقدّم فى السلطانيات .

الصنف الثالث

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية — أرباب الوظائف الدِّينية ، وفيه مراتب)

المرتبة الأولى — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكتب لقُضاة القضاة ومن فى معناهم .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لقاضِى القضاة المـالكىّ بدِمَشْق بتصديرٍ، وهى : «المقرُّ الشريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، الإمامىّ ، العالِمىّ ، العلّامىّ ، الفريدىّ ، المُفيدىّ ، الخاشعىّ ، النّاسكىّ ، الرُّحْلِىّ ، القُدْوِىّ ، المَلاذىُّ ، العابدىّ ، المحقِّقىّ ، المدقِّقىّ ، الحسنىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ، جلالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ العلماء فى العالَمين ، قُدْوة البارِعين ، سيِّدُ المناظرين ، لسانُ المتكلِّمين ، مَلاذُ الطالبين ، كَنْز المتفقِّهين ، إمام الأئمة ، حجة الأُمّة ، ناصِرُ الشريعة ، فَرْد الزمان ، أوحد الوَقْت والأوان ، رُحْلة القاصدين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله ظلاله » .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبه يُكتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألقاب كُتب بها لقاضى القُضاة بحَلَب بوظيفة دينيّة ، وهى : « المقرّ الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوىّ، الكَبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، الأصيلىّ، العَريقىّ، القوَامِىّ، النِّظامىّ، الإمامىّ، العلّامىّ، القُدْوىّ، المُفيدىّ، الشّيخىّ، الرُّكنىّ، الصاحبىّ، الحاكمىّ، المحسنىّ، الفُلانىّ، فلانُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الفُضَلاء فى العالَمين، قُدْوة العلماء العاملين، لسانُ المتكلمين، بُرْهان المناظرين، صَدْر المدرِّسين، رُحْلَة الطالبين، بَقيّة السلف الكرام الدارجين، برَكَةُ الملوك والسلاطين، خالِصةُ أمير المؤمنين ، فلان : أعزّ الله تعالى أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض المشايخ بتَدْرِيس بالشّام، وهى: « الجنابُ الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، القضائىّ، الكَبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، المُفيدىّ، الفريدىّ، المحقِّقىّ، المدَقِّقىّ، الأوْحدىّ، الأكْملىّ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ العلماء فى العالَمين ، جمالُ الفُضَلاء المدرِّسين، خالصةُ الملوك والسلاطين، فلان : أَسْبغ الله تعالى ظِلّه » .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى . وهذه ألقابٌ من ذلك كُتِب بها لقاض من قضاة العسكر بالشام ، وهى : « الجنابُ العالى ، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الرئيسىّ، الأكملىّ، الإمامىّ ، العَلّامى ، المفيدىّ، المحقّقىّ ، الفَريدىّ، البارعىّ، المدَقِّقىّ، الأوحدىّ، القُدْوىّ، الحَبْرِىّ، الحافظىّ، الأصيلىّ، الأثيرىّ، النّاسكىّ، الوَرَعىّ، العَلّامىّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، شَرفُ العلماء العاملين، زَيْن الحُكّام فى العالمين، حُجّةُ المذهب، إمام البلغاء، مُفْتى المسلمين، مُفِيد الطالبين، قُطْب الزُّهّاد، مَلاذُ العُبّاد، خالصةُ الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى نعمته» .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهى : « المجلسُ العالى ، القضائىُّ ، الأجلّىُّ ، الكبيرىُّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الرَّئيسىّ ، الأوحدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام ، شَرفُ الرُّؤَساء فى الأنام ، حُجّة الفُضَلاء ، صَدْر المدرِّسين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالى عُلوّه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء . وهى : « المجلسُ السامىُّ ، القضائىُّ ، العالمىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الأوحدىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، المحقِّقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين ، صَدْر المدرِّسين ، أوحد المفيدين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أدام اللهُ سعادته » .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامى بغير ياء . وهى : « المجلس السامى ، القاضى ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الأوحد ، المرتضى ، الأكملُ ، فلانُ الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، زَيْن الفُضَلاء ، أوحدُ العلماء ، رَضِىُّ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله عِزّه » .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضى ، الأجلُّ » بنَحْوِ الألقاب المذكورة فى « السامى » بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : « القَاضِى الأجلُّ » على ما تقدّم .

الصـــنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية — مشايخ الصوفية)

ولم أقف على شىء من ألقاب ما كُتب من هذا الباب ، سوى [ما كُتب] فى مَشْيخة الشيوخ بالشام لكاتب السِّرّ ، وقد تقدّم ذكره فى أثناء الألقاب الديوانية

هنالك. وألقاب الجناب العالى فيما كُتِب به فى مشيخة الزاوية الأمينيّة بدمَشْق، وهى: « الجنابُ العالى ، الشيخىُّ ، العالمِىّ ، العاملىُّ العلّامىّ ، الأوحدىّ ، القُدْوىّ ، العابِدىّ ، الزاهدىّ ، الوَرَعىّ ، الناسِكىّ ، الخاشعىّ ، المُسَلِّكىّ ، المُرَقِّىّ ، الربانىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام ، حَسَنةُ الأيام ، قُدْوة الزُّهّاد ، ملاذ العُبَّاد ، جمالُ الوَرِعِين ، مُرَبِّى المريدين ، أوْحد السالكين ، خلفُ الأولياء ، بركة السلاطين ، فلانٌ : أعاد الله تعالىٰ من بَرَكته » .

ومن هذا يُؤْخذ ما حدث كتابته ممـا هو فوق ذلك أو دُونه .

الصـــنف الخـامس

(من أرباب الولايات بالممـالك الشامية ـ أُمراء العُرْبان)

ولم أقِف علىٰ شىءٍ ممـا كُتِب به من ألقابهـم ، سوَىٰ ألقابِ « السّامِى » بغير ياء لبعض أمَراء بنى مَهْـدِىّ ، وهى : « المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، المجاهدُ ، الأصيلُ ، العَرِيقُ ، الأوْحد ، فلانُ الدين ، مجدُ الإسلام ، بهـاءُ الأنَام ، شرفُ العُرْبان ، زَيْن القبائل ، عُمْـدة الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أعَزّه الله تعالىٰ » . وعليه يُقاسُ ما عساه يُكْتب من هذا النَّمَط .

الصـــــنف السادس

(من أرباب الولايات بالممـالك الشامية ـ أربابُ الوظائف العادية ، كرآسة الطِّبّ ونحوها)

وألقـاب رئيس الطِّبّ : « المجلسُ العـالى ، القضائِىُّ » علىٰ نَحْو ما تقـدّم فى الدِّيوانيات .

الصـــنف السـابع

(من أرباب الولايات بالنيابات الشامية ـ زعماءُ أهلِ الذّمّة)

وهى رآسة اليهود، وبَطْرَكيّة النّصارىٰ .

أما رئيسُ اليَهُود، فالذى رأيتُـه لهم من ألقـابِه فى عَهْدٍ قديمٍ، كَتَبه ٱبن الزكى فى الدولة الأيّوبية . قال فى ألقابه : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأجلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكَبير، شَرَفُ الداوودِيين، فُلانٌ» .

وأما بَطْرَك النّصارَىٰ، فرأيتُ لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأُولىٰ : «البَطْرَكُ المحتَشِمُ، المبَجَّلُ، فلانٌ، العالِمُ بأُمور دِينِه، المُعَلِّم أهْل مِلّته، ذُخْر المِلّة المسيحيّة، كبيرُ الطائفة العيسَوِيّة، المشكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين، وفقه الله تعالىٰ» .

الطريقة الثـانية : «مجلسُ القِسِّيس، الجليل، الرُّوحانِيّ، الخطير، المتبتل، ابن المَطْران، النّاصِب، الخاشِع، المبجّل، قُدْوةُ دِينِ النّصرانيّة، فَخْرُ الملة العِيسَويّة، عمـاد بنى المَعْمُوديّة، جمالُ الطائفة الفُلانيه، صَفْوة الملوك والسـلاطين، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ بهْجَته» .

المقصـــد الخـامس

(فى بيانــ مقاديرِ قَطْع الوَرَق المستعمل فيما يُكْتب
عن نوّاب الممـالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة، فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الوَرَق، أنّ الورقَ المستعملَ فى دواوين الممـالك الشامية علىٰ ثلاثة مقادير : قطع الطلحية الشامية الكاملة، وهو

فى عَرْض الطُّلحية المعبر عنها بالقَرْخة وطُولها. وقطع نصف الحَمَوِىّ، وهو فى نصف عَرْض الطلحية التى فى قَطْع الحموىّ وطُولها ، ورُبَّمــا نقصتْ فى الطول . وقَطْع العادة، وهو علىٰ نَحْوٍ من قَطْع العادة البلدى . وقد تقدّم ذكره .

فمــا كان منهــا فى طول الشامىّ الكامل كُتب بقــلم الثلث . وما كان فى قَطْع نِصْف الحموىّ كُتب بقَلَم التوقيعات . وما كان فى قَطْع العــادة كُتب بقَلم الرِّقاع . ثم ما كان فى قَطْع الطلحية، آفتتح ما يكتب فيــه بـ«الحمدُ لله» . وما كان فى قَطْع نِصْف الحَمَوِىّ، آفتتح ما يكتب فيه بـ«أمّا بعد حمد الله» . وما كان فى قطع العادة، آفتتح ما يُكتب فيــه بـ«رُسِم بالأمرِ الشريف» ســواء فى ذلك علَتِ الألقــابُ أو آنحطّتْ، حتّىٰ إنه رُبَّما كتب بـ«المقرّ» فى قَطْع العادة، آعتباراً بحال الوَظِيفة .

المقصـــــد السادس

(فى بيانـــ ما يكتب فى طُرَّة التواقيع)

اعلم أنّ النوّابَ بالممــالك الشاميّة عادتُهــم فى العلامة كتابة اسم النائب ، كما أنّ السلطانـــ فيما يُكتب عنه من الولاية يكتب فى العلامة اسمه . وحينئذٍ فيحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أنْ يكتُبَ فى أعْلى الدَّرْج فى الوســط ما صورته : « الآسم الكريم » ثم يكتبَ من أوّل عَرْض الدَّرْج ما صورته : «توقيعٌ كريم باستقرارِ المقرِّ الشريف أو الكريم ، أو الجناب الكريم أو العــالى ، أو المجلس العالى أو السامى ، أو مجلس الأمير أو القاضى، أو الشيخ، ونحو ذلك، فى كذا وكذا إلىٰ آخره» . فإن كان فيــه معلومٌ كتب آخرا : « بالمعلوم الشاهــد به الديوان المعمور، أو الشاهــد به كتابُ الوَقْف » ونحو ذلك ثم يكتب : «حَسَب ما رُسم به علىٰ ما شُرِح فيه » . ولفظ :

«حَسَب ما رُسم به» مما جرت به عادة كُتّابهم، بخلاف ما يكتب به من الأبواب السلطانية على ما تقدّم ذِكْره .

وهذه طُرّة توقيع بنقابة الأشراف بحَلَب المحروسة ، كُتب به للشريف «غياث الدين احمد» بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن المدوح ، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بآستقرار المقرّ العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الشّريفىّ ، النّقيبىّ ، الحسيبىّ ، الأصيلىّ ، العزّىّ ، بركة الملوك والسلاطين ، أحمد آبن المقرّ العالى ، الشّريفىّ ، النّقيبىّ ، الشّهابىّ ، أحمد الحسينى ، أسبغ الله ظلالها ، فى وظيفة نقابة السّادة الأشراف ، ونظر أوقافها ، والحكم فى طوائفهم على آختلافهم أجمعين ، عِوَضًا عن والده المشار إليه برِضاه ، على عادته فى ذلك ومُسْتقرّ قاعدته ، وتعاليمه المستمرة إلى آخر وقت ، حسب مارُسم به بمقتضى الخطّ الكريم ، على ما شُرح فيه .

❖

وهذه نسخة طرة توقيع بكشف الصفقة القبلية بالشام ، مما كُتِب به لـ«غرس الدين خليل الناصرىّ» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ الجنابُ الكريمُ ، العالى ، المَوْلوىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الغَرْسىّ ، ظهير الملوك والسلاطين ، خليل الناصرى ، ادام الله تعالى نعمته ، فى كَشْف البلاد القبلية المحروسة بالشام المحروس ، على عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتَقرّ قاعدته ، حسب ما رُسم به ، على ما شرح فيه .

❖

وهذه نسخة طُرّة تَوْقيع بالمِهمنْداريّة بالشام المحروس ، كُتب به لـ«غرس الدين خليل الطناحى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ باستقرار الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الغَرْسِىّ، عَضُد الملوك والسلاطين، خليل الطناحى، أدام الله تعالىٰ نعمته، فى وظيفة المِهْمَنْدارِيّة الثانية بالشام المحروس، عِوضًا عن حُسام الدِّين حَسَن بن صارُوجا، بحُكْم شُغُورِها عنه، لمـا اتفق من الغَضبِ الشّريف عليـه، واعتقاله بالقَلْعـة المنصورة بحَلَب المحروسة، علىٰ أجمل عادة، وأكْمل قاعدة، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شُرِح فيه .

وهـذه نسخةُ طُرّة توقيع بتَصْـدير الجامع الأُمويّ بالشام، كُتِب به للقـاضى «ناصر الدين» بن أبى الطَّيِّب كاتبِ السِّر بالشام، وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ المقرّ الشريف، الناصرىُّ، محمدُ بن أبى الطيب العمرىّ، العثمانىّ، الشافعىّ، صاحبُ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشاميّة المحروسة، عظّم اللهُ تعالىٰ شأْنَه، فى وظيفة التّصدير بالجامع الأُموىّ المعمور بذِكْرِ الله تعالىٰ، عِوَضًا عن القاضى صَدْر الدِّين عبد الرحمن الكَفَرىّ الشافعىّ، بحُكْمِ وفَاتِه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، بمالَه من المعلوم الذى يشهدُ به دِيوان الوقف المبرور، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شرح فيه .

وهذه نسخةُ طُرّة تَوْقيع بإعادة مَشْيخة الشُّيوخ بالشام إلى القاضى «ناصر الدين ابن أبى الطَّيِّب» المذكور أعلاه، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن تُفوّضَ إلى المقرّ الشريف العـالى، المَوْلَوِىّ، القاضوىّ، النّاصرىّ، محمد بن أبى الطيب العمرىّ، العثمانىّ الشافعىّ، صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفـة الشامية المحروسـة، أعاد اللهُ تعالىٰ من بَرَكاته، وأسْبغ

ظلالَه ، مشيخةُ الشُّيوخ بالشام المحروس ، وَظيفتُه التى خرجتْ عنه ، المرْسُومُ الآن إعادتها إليه ، عوضًا عمن هى بيده ، بمعلومه فى النظر والمشيخة ، الشاهدِ بهما ديوانُ الوَقْف المبرور ، إلىٰ آخر وقت ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكْمل القواعد ، حسب ما رسم به ، علىٰ ما شرح فيه .

⁂

وهذه طُرَّةُ توقيعٍ بالحَمْل على النزُول والتقرير الشَّرعىّ ، بالزاوية الأمِينيّة ، بالقُدس ، كُتب به للشيخ «برهان الدين المَوْصلىّ» وهى .

توقيعٌ كريمٌ بأن يُحْمَل الجناب العالى ، الشيخىّ ، البرهانىّ ، إبراهيم ٱبن سيدنا المرحوم الشيخ القطب ، تقىّ الدِّين أبى بكر المَوْصلىّ ، رضى الله عنه وأعاد من بركاتهما ، فى وظيفتى النظر والمشيخة ، بالزاوية الأمِينية بالقُدس الشريف ، علىٰ حُكْم النزول الشَّرعىّ ، وٱستمرار ذلك بمقتضاهما ، ومَنْع المنازع بغير حُكْم الشَّرع الشَّريف ، حسب ما رُسم به ، علىٰ ما شُرح فيه .

⁂

وهـذه طُرَّة مَرْسومٍ برُبْع تَقْـدمة إمْرة بنى مَهْـدىّ ، كُتب به لـ«عيسى بن حناس» وهى :

مَرْسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامى ، الأمير ، شرفُ الدِّين ، عيسى بن حناس(؟) ، أعزّه الله تعالىٰ ، فى ربْع تَقْدمة بنى مَهْدىّ ، علىٰ عادة من تقدّمه ، حملا علىٰ ما بيده من التّوقيع الكريم ، علىٰ ما شُرح فيه .

⁂

وهذه طُرَّةُ توقيـع ببَطْركية النصـارىٰ المَلَكِيَّة بالشام ، كُتِب به لـ«داوُد الخورى» وَهى :

تَوْقيعٌ كَرِيمٌ بأن يستقرّ البطريرك ، المحتَشِمُ ، المبَجَّل ، داود الخُورى ، المشكور بعَقْله لدى الملوك والسلاطين ، وفّقه الله تعالىٰ ، بطريركَ المَلَكيَّة بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، حسَب ما اختاره أهلُ ملّتـه المقيمُون بالشام المحروس ، ورَغِبوا فيـه ، وكتبوا خُطُوطَهم به ، وسألُونا تقريرَه دون غيره ، حسب ما رُسِم به ، علىٰ ما شُرِح فيه .

المقصـــــد السابع
(فى بيان كيفية ترتيب هـــذه التواقيع)

قَدْ جرتْ عادةُ كُتَّاب هـذه النيابات أنْ تُكتب الطُّرَّةُ بأعلى الدَّرْج كما تقـدّم . ثم يترك وَصْلان بياضًا بمـا فى ذلك من وَصْـل الطُّرة ، ثم تُكتب البسملة فى أوّل الوَصْـل الثالث ، ثم يُكتب تحت البَسْملة علىٰ سمت الجلالة : «المَلَكِيُّ الفلانىُّ» ثم يخلّىٰ بيت العلامة نحو ستة أصابع معترضة ، ثم يُكتب السطر الثانى ويوافى كتابة السطر ، ويكون ما بينهما بقَدْر أصبعين ، والباقى علىٰ نحو ما تقدّم فى السلطانيات .

الطـــــرف الثانى
(فى نُسَخ التواقيع المكتتبة عن نُوَّاب السلطنة بالممـالك الشامية)

قد تقـدّم فى المقالة الثانية أنَّ بالبلاد الشامية سَبْعَ نيابات : دِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَد ، وغَزّة إن كانتْ نيابة ، والكَرَك . وأنَّ اعلاها دمَشْق ، ثم حَلَب ، ثم طَرَابُلُس . وفى معنىٰ طَرَابُلُس حَماةُ وصَفَدُ .

وقد اقتصرت فى نسخ التواقيع علىٰ ما يكتب فى ثلاث نيابات [تقديمـا لهـا](1) على ما عداها .

(١) بياض بالأصل .

النيابة الأولى الشام
(والتواقيع التى تُكْتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأوّل
(ما يُكْتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل
(ماهو بحاضرة دِمَشْق، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى
(ما يفتتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة تَوْقيع بولاية دِمَشْق :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الأيّامَ الزاهرةَ تنقُلُ أوْلياءَ آلائه الشريفة إلى أعْلى المراتب، وتُجْزِل لهم من مِنَنِه الجمَّة المواهب، وتُضاعف لهم النِّعمةَ بكرمها الذى إذا انْهمَلَ كان كالغَيْث السَّاكب .

نحمَدُه على أنْ جعل نَظَرنا يلْمَحُ أهلَ الهِمَم ويُراقب، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَبْلُغ قائلُها ببركتها المُنىٰ والمآرب، وتَهُونُ عليه كلُّ المَصاعب، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ ببِعْثَته الحقَّ فى المشارق والمغارب، وأثار به ظُلَمَ الغَياهِب، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصْحابه الذين شيّدوا مَنَار الإسلام وأقاموه بالسيوف القَواضب، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا

وبعـدُ ، فإنّ المناصب بمُتولّيها ، والمَعالِيَ بمُعلّيها ، والعُقودَ ليْسَتْ بمن تُحلّيه بل بمن يُحلّيها ، وأطْيَب البِقاع جنابًا ماطاب أرجًا وثمارا ، وبحُرّ خلالَه كلُّ نَهرٍ «يروع حَصاه حالِيَةَ العَذارَىٰ» ورنّحتْ مَعاطفَ غُصُونه سُلافُ النّسيم فتراها سُكارَىٰ ، وتمتدُّ ظلال الغُصون فيخال أنّها علىٰ وجَنَات الأنْهار عذَارا .

ولمّـا كانت دمَشْقُ المحروسة لهـا هـذه الصفات ، وعلىٰ صَفَحاتها تَهُبُّ نَسَماتُ [هذه] السِّمات ، لم يتّصف غيرُها بهذه الصفه ، [ولا اتفق أولو الألباب إلا علىٰ محاسنها المختلفه[1]] وكان الجنـابُ الكريمُ هو من أعيان الدّولة وأماثِلهم ، ووُجُوه رُؤَسائهم وأفاضلهم ، وله فى طاعتها آسترسالُ الأمْنِ من سُوء مَواطِن المخَـاوف ، ووَصل فى وَلايَتها القديمَ بالحديث والتّالِدَ بالطّارِف ، وتولّىٰ مُهِمّاتِ الخِـدَم فأبانَ فى جميعها عن مَخايلِ نجابته ، وكان من حُسْنِ آثاره فيهـا ما شَهَر خُفُلَها بوَسْمِه ، فمن نَاوَاه من أقرانه أربىٰ عليه وزاد ، ومن بَارَاه من أنْظارِه أنسىٰ ذِكْرَه أو كَاد .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ فى ولاية مدينة دِمَشْق المحروسة .

فليباشِرْ هـذه الولاية : عامِلًا بتقْوَى الله تعالىٰ التى أمر بهـا فى مُحكَمِ الكِتاب ، حيثُ يقولُ : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ . ولْيَشْمَلْ كافّةَ الرَّعايا بالحِفْظ والرِّعايه ، ويُجْزِلْ حَظَّهم من الملاحظة والعِنايَه ، ولْيُساوِ فى الحقِّ بين ضعيفهم وقوِيِّهم ، وكبيرهم وغَنيِّهم ، ولْيُلْزِمْ أتباعَه بحِفْظِ الشوارع والحارات ، وحِراسَتها فى جميع الأزمنة والأوْقات ، مع مُواصَلة التّطْواف كلَّ ليلة بنفْسِه فى أوْفىٰ مدّه ، وأظْهرِ عُدّه ، مُنْتَهيا فى ذلك وفيما يُجارِيه إلىٰ مايَشْهد باجتهاده ، ويُعْرِبُ عن سَـدادِه ، ويُعلَم منه صوابُ قَصْدِه وآعْتِماده ، وبَذْلُ مُناصحَته فى إصْدارِه وإيرادِه ، واللهُ تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما ولّاه ، ويَحفَظُ عليه مانوّله وأوْلاه ، بمنّه وكرمه .

---

(١) الزيادة مما تقدم فى المذهب الثالث فى تواقيع أرباب الوظائف فى حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر الجامع الأموىّ، لصاحب سَيْف : كُتِب به فى الدّولة الظّاهِرية « برقوق » لناصر الدين « محمد » آبن الأمير جمال الدين، عبد الله ابن الحاجب، عند مُصاهَرته الأمير بطا الدوادار، وهى :

الحمدُ لله الذى قدّم أعظمَ الأمراءِ ليَعُمّ مَواطِنَ الذّكر بنَظَرِه السّعيد، وأقام لتعْظِيم بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ، [أميرا] فى الاكتساب للأُجور أسْرعَ من البَريد، وأطْرب المَسامِعَ بِسيرَتِه فى أحْسن مَعْبَدٍ جُلِّيَتْ فيه عَرُوسٌ مَهْرُها كتابُ الله تعالىٰ والنُّورُ من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيّةٍ ولا غَرْبِيّة ومَرْثىّ(1) عليه من مكانٍ بَعيد .

نحمدُه علىٰ أنْ أحلَّ ناصرَ الدين بجَماله الأسْنىٰ أشْرفَ المراتب، وبَوّأه المحلَّ الرّفيعَ الذى بَلَغ به الأُمّة المحمديةَ المآرب، وسارَ خبرُ سيرَتِه فى المشارق والمغارب، وبَلّغَ بمُشارَفَةِ نَظَره السعيدِ الشّاهدَ والغائب ؛ حمدًا نرفعُه على النّسر الطائر ، ونتمثّلُ بقول القائل : كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِر؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى خلق العباد لعبادته، وفضّلَ بعضَ المساجد علىٰ بعضٍ لِمَا سبق فى عِلْمه من إرادته ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدا خيرَ الخلائق عبدُه ورسولُه الذى سنّ الجُمعة والجَماعه، وعَمَر المساجِدَ بالرُّكوع والسُّجود إلىٰ قيام السّاعَه ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه الذين آتّبَعُوه فى قيام الليل إلّا قليلا، ولازَمُوا المساجِدَ بُكْرةً وأصيلا، وحضُّوا على الجماعة إلىٰ يوم تَكُونُ الجبالُ فيه كَثِيبًا مَهيلا، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فلمّا كان جامِعُ دِمَشْقَ المحروسةِ رَابِعَ المساجد ، ومَوْطِنَ كلِّ راكِعٍ وساجد، وتَقْصِدُه الأُمَمُ من الأقطار، ولم يَخْلُ من العبادة فى اللّيل والنهار، ورَواتِبُ حُكّام الشريعة عليه، والعُلماءُ الأعْلام تَبُثُّ فيه العلومَ وتأْوِى إليه ؛ وغالبُ المساجد

(1) فى الاصل «ومرثية» ولم نفهم معناه .

إلىٰ سِمَاط وقْفه مُضافَه، وخطابَتُه تُضاهِي مَرْتبةَ الخلافه ؛ وهو أجلُّ عجائب الدُّنيا التى وُضِعت علىٰ غير مِثال، وبه يَفْتخِرُ أهلُ الهُدىٰ علىٰ أهلِ الضَّلال ـ تعيَّن أنْ يكونَ الناظِرُ فى أمْره مَن عَظُم قَدْرا ، وطاب ذِكْرا ؛ وفتح لوقفه بابَ الزِّيادَة علىٰ مُضِىِّ الساعات، وجَمع أمْوالَه بعد الشَّتات؛ ووصَل الحُقُوقَ لأربابها الذين كأنَّهم جَرادٌ منتَشر، ولم يُضِعْ من ماله مِثْقالَ حَبَّةٍ ومن قال : إنَّه صدَقَةٌ فيومُه يومٌ عَسر؛ وعَمّ جميعَ المساجد المضافةِ إليه بالفَرْش والتَّنْوير، وبَدَأ الأئمَّة والمُؤَذِّنين والخَدَمةَ بعد العمارة على الكبير والصَّغير .

وكان الجنابُ الكريم ـ ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَته ـ هو الذى يقوم فى هذا الأمر أحسن مَقَام، ويَصْلحُ له فى مَصْلَحَتِه الكَلَام .

رُسم بالأمْر العالى، المَوْلَوِىّ، السُّلْطانِىّ، المَلَكِىّ، الظَّاهِرِىّ، السَّيْفِىّ ـ لازال هـذا الدِّين القَيِّمُ قائمًا بحُمِّدِه ، والمساجدُ المعمورةُ [معمورةً] بإكرام مسْجِدِه ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ الناصِرِىُّ المشار إليه فى النَّظَر السعيدِ على الجامع الأُمَوِىّ المعمور بذِكْر الله تعالىٰ ، وأوْقافه المبرورة ، علىٰ أجْمِلِ العوائد ، وأكْمل القواعد ؛ بالمعلوم الشاهد به ديوانُ الوقْف المبرور، إلىٰ آخر وقت .

فلْيُباشِرْ ذلك : لِمَا يُعْرفُ من فِعالِه الحَسَنَه، وخِبْرتِه التى نَطقَتْ بها من المحابِر الأفْواهُ ومن الأقْلام الألْسِنَه ؛ ولِمَا حازه من فَضِيلَتَىِ السَّيْف والقَلَم ، وأعمال التى بَدَتْ لمُهْتدِى بها كنُورٍ لا نَارٍ علىٰ عَلَم؛ ولْيُعَمِّرْ مادَثَرَ من الأوقاف ولْيُوَصِّل الحُقوقَ إلىٰ أرْبابها ، ولْيَـدْفَع الأموالَ إلىٰ مَن هو أوْلىٰ بها ؛ ويكُفَّ كَفَّ الظُّلْم ولْيُبلِّغ المستَحِقّ المآرِب ، وليَحْجُبِ الخَوَنَةَ عن التَّوصُّلِ إلىٰ مِثْقال ذَرَّةٍ بجِدِّه فهو كجَدِّه حَاجِب؛ ولْيَبْدَأ بالعمارة والفَرْش والتَّنْوير فى جميع الأوقات ، وأرباب الصَّلاة

والصَّلات . والوَصايا كثيرةٌ وهو بها أدْرَى، وتقوَى الله عزّ وجلّ مِلاكُها ولا زال يُفيدُها كما يُعلِّمُ الشَّجاعَةَ زيدًا وعَمْرا؛ والله تعالى يجعلُه أبدًا للدِّين ناصِرا، ويُصْلِحُ عمَلَه أوّلًا وآخرا؛ والاعتماد فى معناه، علىٰ الخطّ الكريم أعْلاه .

المرتبـــة الثـــانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعـد حمدِ الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخة توقيع ... ... الزكاة(١)، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة، وهى:

أمّا بعدَ حمدِ الله مُسْعِدِ من زكّاه عمَلُه، ووفّاهُ وعْدَ الخَيْرِ أملُه، ومُصْعِدِ من وَفَتْ فى تدبير الوظائف تَفاصيلُ أمْرِه ووفَّرَتْ فى تثمير الأموال جُمَلُه؛ والصّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى أمَرَنا بالصّلاة والزّكاه، وشفَىٰ جانبَ الدِّين القيِّم من الشَّكاه، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سارَ علىٰ نَهْجِه القَويم سائرُهم، وتزكَّى ـ وإنّما يتزكَّىٰ لنفسه ـ مُنْجِدُهم وغائرُهم ـ فإنّ أحقَّ الوظائف أنْ يُنـدَبَ لحمايتها الحُسام، ويترتَّبَ لكفايتها من تحلّت بالمحامد شِيَمُه الجِسام ـ وَظيفةُ الزّكاة التى وصلت سبب مكانها بإمكانها، وبُنِيتْ شريعة الإسلام علىٰ أحَدِ أرْكانها، ومُدِحَت المملكةُ بمعالِى البِرّ والإحسان المُنَظَّمَة من ديوانها .

ولمـا كان فلانٌ ممّن زكَتْ صِـفاتُه ، وسَمَتْ بالجميـل سِماتُه ؛ ووَضَحَتْ كَفاءَتُه ودرايتُه، وصَلحَتْ حِمايتُه الحُساميّة ووِقايتُه؛ وكان اليُمْنُ فى قَبْضة مَضائه، وتجريده وانْتضائه، وكان نُفُوذ أمْرِه واقفًا عند حدّه واقعًا علىٰ وَفْقِ ارْتضائه ـ تعيّن أنْ يُوصَلَ سَبَبُ الشّدّ بأسْبابِه، ويُرْجَعَ إليه فى الزكاة المستَحَقّ نِصابُها حتّىٰ يقال : رَجَع الحقّ بالحُسام إلىٰ نِصابِه .

(١) بياض بالأصل ولعله : بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب ... ... عِلْمًا بأنّه الكافى الذى إذا شَدَّ سَدّ، وإذا قَصَر رَأْيَه علىٰ الصُّنْع الجميـل مَدّ؛ والخبيـرُ الذى إذا جَمـع مالًا وعَدَّده كان مَشْكُورا، وإذا فَرّقه فى مُسْتَحِقّيه كان خِلافَ الغَيرِ بالخَيرِ مَذْكورا؛ والنَّاهِضُ الذى ما تبَرَّم بمَضايِقِ المُهِمّات ولا شَكاها، والمَهِيبُ الذى قد أَمِنَ مَن سار بالبضاعة إليـه وقد أفلَح من زَكّاها .

فلْيستَقِرّ فى هذه الجهة آستقرارًا يَزِيدُ مَكانه وإمكانَه ، ويُثَمِّـرُ عمَلَه وديوانَه ، ولْيوَصِّلْ كُلّ ذى حقٍّ إلىٰ حَقِّه فإنّمـا بُسِطتْ أَيْدى وُلاةِ الأُمورِ ليَبْسُطَ عَدْلَه مُتوَلّيها وإحسانَه . وتقْوَى الله تعالىٰ هى العُمْدة : فلْيُحَقِّقْ بآعتمادها فيـه ظُنونَ الرّاجين ، ولْيَسْتَعِنْ بها علىٰ رِضا المستنهِضين له وعلىٰ رِضا المحتاجين ، والله تعـالىٰ يلْهِمُه الخيرَ فى ذَوِى الصادرِ والوَارِد حتّى يكونُوا إلىٰ خيرِ «لاجِين» خيرَ لاجِين .

⁂

وهـذه نسخةُ توقيع بشَـدّ الحوطات بدِمَشْق . كُتب به لشَرف الدين يحيى بن العفيف، [بإجرائه] علىٰ عادته، وحمله علىٰ مابيده من التّوقيع الشّريف، وهى :

أمّا بعـدَ حمدِ اللهِ الذى سهّل الخيْراتِ بأسْبابها ، وأقَرّ فى الوظائف السَّنية كُفَاةَ أَرْبابِها، وكَمّلَ أدواتِ من حنّكتْه التّجارِبُ فى المُباشرات حتّىٰ دخل المَناصبَ العَلِيّةَ من أبوابها ؛ والصلاةِ والسـلامِ الأتَمّين الأكْمَلين علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى جاءَ برشد الشريعـة وصَوابِها ، وعَرّفَ بحُسْنِ الصَّنيعة وثَوابِهـا ؛ وعلىٰ آله وصَحْبـه وعِتْرته الطاهرين ـــ فإنّ أوْلىٰ من لَفَتْنا إليه جِيـدَ الإحْسان ، وألْقَينا إليه طُرَفَ التّكْريم فبلغ الأمانِىَّ والأمان، ولحَظْناه بعَيْنِ عِنايَتِنا فنال من فَضْلِنا ما أخْجل الغَيْثَ المَتّانَ، ومَنَحْناه من بِرِّنا ما شَرح له صَدْرا، وآستَصْحَبْنا لهِ ما ألِفه من كَرَمِنا وجعلْنا له بعدَ

عُسْرٍ يُسْرا، وأيقظنا حَظَّه وقد كاد أن يَنْقَى، وأطْلَعنا كَوكَبَ سَعْدِه بعد أن كاد يَخْفَى — من ألِفَتْ مُهِمَّاتُنا منه الهِمَمَ العَلِيَّه، وسلك بين أيدينا المَسالِكَ المَرْضِيَّة، وأُتُمِنَ على أموال الحَوْطات الدِّيوانية فنَمَتْ بحُسْنِ أمانَتِه، وشكرت الدولةُ جميلَ تَدْبيره ودِرايَتِه .

وكان المجلس العالى فلانٌ — أدام الله عِزّه — هو الذى أخْبَر عنه الوَصْفُ بما أثبته العِيان، وأظْهر الاختبارُ منه حُسْنَ السِّيرَة والسَّريرة والسَّجايا الحِسان .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى — أعلاه الله تعالى، وضاعف إحْسانَه على أهلِ الهِمَم ووَالى — أنْ يَستمرَّ المشارُ إليه فى شَدِّ الحَوْطات الديوانية بدِمَشْق المحروسة، على عادته، ومُسْتقِرِّ قاعدته، وحَمْله على مابيده من التَّوقيع الشريف المُسْتَمِرّ حُكْمُه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ على أجْمل عوائده، ولْيعْتَدْ إليها على أكْمل قواعده ؛ إلّا أنّ التَّذْكرة بتَقْوَى اللهِ تعالى لابُدَّ من اقتباس ضِياها، والتَّنبيه على سُلوك سبيل هُداها؛ فلْتكُنْ قاعِدةَ أمله، وخاتِمةَ عَمَله . والاعتمادُ فى معناه، على الخطِّ الكريم أعلاه؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبـــة الثـــالثة

(من تواقيع وظائف أرباب السُّيوف بدِمَشْق — ما يُفْتَتح بـ«رُسِم بالأمر العالى» وفيه وظائف)

وهذه نُسخُ تَواقيعَ من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بشَدِّ مراكز البريد، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهى :

رُسم بالأمر العالي ـ لا زالت البُرُدُ سائرةً بأوامرِ عَدْله المَديد ، وهَوَامِر جُوده المَجيد ، وسوائر الأخبار عن بأسه ونَدَاه المَرْوِيّ سَنَدُهما عن ثابتٍ ويَزِيد ، ولا بَرِحت جَوامِعُ عطاياه وقضاياه : هذه فاتحةً لمصالح الآمال بَابَ الزِّيادة وهذه فاتحةً لمصالح الإسلام بابَ البَريد ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ علىٰ عادته الأُولىٰ ، وقاعدته التى ما بَرِحتْ قَدَمُ مساعيه فيها المقدَّمةَ ويَدُ أمانتِه الطُّولىٰ ؛ علمًا بكفاءته التى شَهِدتْ بها حتّى الخيل المائلاتُ خُرْسا فأفصَحتْ ، المواصِلاتُ سَعْيًا فأنجحتْ ، المُورِياتُ قَدْحًا إلا أنَّ ألسنةَ الأحوالِ فى شهادتها ماقَدَحَتْ ، المُغيراتُ علىٰ السُّرىٰ صُبْحًا مادار عليها شَفَقُ العَشِىِّ فاغْتبقتْ ، حتّى دار عليها شَفقُ الفَجْر فاْصطبَحتْ . ومَرا كِزُ الطُّرُق التى حَمْتُها مَهابَتُه فكأنَّها مراكِزُ الأَسَل ، ومَراكِضُ السُّبَل ، كلُّ وادٍ منها وما حمل وكل حَدَبٍ وما نَسَل ؛ واْعتمادًا علىٰ سَدادِ عَزْمِه الذى وافق خُبْرُه الخَبَر ، ورَشادِ سَعْيه الذى كلُّ أوقاته من وُجوه الإجادة وُوُجُوهُ الجِيادِ غُرَر ؛ ورُكُونًا إلىٰ أنّه الكافى فيما يعتَمِدُه ويراه ، السَّارِى فى المُهِمَّات لايَمَلُّ وهَيْهاتَ أنْ يَمَلَّ البَدْرُ من سُراه ، كَمْ أعان الإسلامَ علىٰ ما اتَّخذه من قُوّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، وكَمْ جاد علىٰ الجِياد علىٰ الغَيْث[1] حتّى سارَتْ بين يديه كالسَّيْل ، وكم حَفِظ عليها قُوتَها وقُوَّتَها فبعدَ ما كانت تَموتُ بالعَدَد صارت تَعيشُ بالكَيْل .

فلْيباشِرْ ما عُوِّل فيه عليه ، وأُعِيد من حَقِّه وإن كان خرج عنه إليه ، ولْيُطلِقْ يدَ أمْره ونَهْيه بما يسُرُّه أنْ يُقدِّمَه بين يديه ؛ حَرِيصًا علىٰ أنْ تَنْطِقَ هذه الدَّوابُّ الخُرْسُ غَدًا بثَنائه ، مُجْرِيًا لقوائمها وللإقامة بها علىٰ عادة إجْرائه ؛ متخيِّرًا لها كلَّ حَسنِ الإمْرة والسِّياسة عند رَحيلها وقُدُومها ، ومَن إذا عُرِضَتْ عليه بالعَشِىِّ الصَّافِناتُ الجِيادُ طَفِقَ مَسْحًا ولٰكِن بإماطَةِ الأذىٰ عن جُسُومِها ؛ مُوسِّعًا عليها من

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

المبانى والأحوال كلَّ مَضيق، آمِرًا بمـا يحتاج إليه نوعُها البديعُ من صِناعَتَىْ تَوشِيح وتَطْبِيق ؛ مُسْتأْمِنًا من الأيْدى من يَرُدُّ عنهـا الأيادِىَ الضَّائِمـه ، ومن يُساوِى بينها فى الأقوات حتّى لا تكونَ كما قال الأوّلُ : «خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غيرُ صائِمه» ؛ مُتَحرِّيًا فى تَكْفِيتها أجمـلَ الطُّرق والطَّرائِق ، مُسْـتَجْلِبًا صُنوفَ العليق فلا تَنْقطع من بِرّه العلائق؛ واللهُ تعالىٰ يمدّه بعَوْنه ورَشَـده، ويجعلُ عَزْمه سابِقًا إلى التوفيق «سَبْق الجَوادِ إذا ٱسْتَولىٰ علىٰ أمَده» ؛ بمنّه وكرمه .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنِقابة النُّقباء، من إنشاء الشيخ جمـال الدين بن نُباتة أيضا، كُتِب بها لشهاب الدين «بولاق» عوضا عن أبيه، فى سنة أربع وثمانمـائة، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لازال بإنْعامِه يُسْفِرُ عن وَجْه الأملِ نِقابَه ، ويَحْفَظُ لكاتِق الخِدْمة أعْقابَه ، ويَلْوِى بٱستمرار النِّعم أدْوارَ الزّمان وأحْقابَه ، ويُطْلِـعُ فى آفاق دَوْلته شِهابَ كلِّ عَزْمٍ تَحْمَدُ عسـاكِرُه المتصورةُ ٱرْتقاءَه وٱرْتِقابَه ـ أن يرتّب المجلسُ السامى، الأمير : ... ... علمًا بأوصافه الحَسَـنه ، وأوْضاعِه التى لا يحتاجُ الحكمُ بفَضْلها إلىٰ إقامة بيّنـه ، وكفاءَتِه التى تَنْطق بهـا ألْسِنةُ الأحوال المُؤمّنـة وقُلوبُ العَساكِر المُؤْمِنه، وهِمّتِه التى إذا وَقَفتِ المواقفُ علىٰ الأعْداءِ عَرَفَتْه أصحابُ المَيْمَنة ما أصحـابُ المَيْمَنه، وتَصْديقًا لدلالة عَزْمِه الوَاعِد، وتَحْقيقًا لحماية شِهابِه الوَاقِد ؛ ورُكُونًا إلىٰ قيامه مَقَام أبيـه رحمه الله فى الخِـدْمة حتّىٰ كأن لم يَفْقِدْه من الجَيْش فاقِد ؛ وأنّه لدَرجات الٱستحقاق رَاقِى، وأنّه العِوَضُ عن أبٍ لاقىٰ مَنِيّتَه وكلُّ ٱمرِئٍ لاقِى المَنِيّة وٱبْنُ لَاقِى ؛ وأنّه كُفءُ هذه المنزلة كما حكم الرأىُ وٱقْتَضىٰ ، وكما شَهِد(؟) لغرّته بغُرَرِ الفوائد وكيف لا وهو ٱبن النّقِيب المُرْتَضىٰ ! .

فليتلقّ بشهابه المُضيء هذا المَطْلَعَ الأسنىٰ ، وليَقُمْ في هذه الوظيفة علىٰ قَدَمِ الخدمة صُورةً ومعنىٰ ، مُقَدَّمًا علىٰ النُّقباء تقديمَ إمامِهم ، مُعلِّمًا لجُند الإسلام معلومَ مقامِهم ، مالئًا بإتقان معرفة الحِلىٰ سَمْعَ مَن استملاه ، مُحظيًا للجُنْدىّ مُعينًا له علىٰ حُصول الخَيْر حتّىٰ يشكُرَه شُكْرَ من أطعمه وحَلّاه ، نَاظِمًا للواكب عِقْدَ مُجتمعها الثَّمين ، مُصاحبًا لها صُحْبةً يُثْنىٰ بها عليه وحَسْبُه أن يكونَ من أصْحاب اليَمين ، مُرَتِّبًا لها أحْسن تَرْتِيب ، مُنقِّبًا عن مَحاسنَ مُجمَلها : فإنَّ اسمَ النَّقيبِ مُشتقٌّ من التَّنقيب . وليُكاثِرْ حَمَلَةَ السُّيوف فإنَّه حاملُ سَيْفٍ وعَصا ، وإنَّه بهذه مُخلِّصٌ حقوقَ من أطاع وبهذا مُوبِقٌ نَفْسَ من عَصىٰ ؛ وليَحْرِصْ علىٰ أن يقومَ بوَعْدِ الأجتهاد المُنْجز ، وعلىٰ أن يكونَ سيفَ تَحْرِيضٍ علىٰ جَرْحَى الأعداءِ مُجْهِز ، وعلىٰ أن يحصُلَ فى مَواطن الجهاد على الأجرين : أجرِ المُقاتِلِ وأجْرِ المُجهِّز ؛ واللهُ تعالىٰ يُجِدُّ فى الخير طرائقه ، ويؤيِّد عَزْمه الجَيْشىَّ حتّى تلهجَ بشُكْره ألسنةُ الأعلام الخافقة ؛ والأعتماد .... .

⁂

وهذه نسخة توقيع بشَدِّ خزائن السلاح ، من إنشاء ابن نُباتةَ أيضا ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أسِنَّة نجوم السَّعد من سِلاحِه ، وصَواعقُها من أعْوان صِفاحِه ، وسِماكُها الرَّامِحُ من أنصارِ رِماحِه ؛ ولا برِحَ يُعْمِلُ معادنَ الأرض حتَّىٰ يفنىٰ ذَهَبُها وحَديدُها على يدَىْ بأسه وسَماحِه ـ أن يرتَّب .... لأنَّه الناهضُ الذى تتزيَّنُ الوظائفُ بسَمْته وباسْمِه ، وتتعيَّنُ المَصالحُ والمَناجحُ بعَزْمِه وحَزْمِه ؛ والمُسدِّدُ من آرائه سِهاما ، والمُجرِّدُ من اهتمامه كلَّ ماضى الحَدِّ إذا كان بعضُ الأهتمام كَهاما ؛ والوفىُّ فى شَدِّ الجهات قولًا وعَمَلا ، والمَلِىُّ بحَمْلِ السلاح واستعماله علىٰ رَغْم القائل : « أصْبَحْتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ ولا » ؛ والخبيرُ بمحاسن الأقتراح ، والكافى ولا

عَجَبَ إذا سَلَّمت له ذَوُو الوظائف وألقت عليه السلاح! ؛ ذُو العَزْم الأشدّ، والرَّأْيِ الأَسَدّ ، والذَّكِيُّ الذى إذا تناول بعضَ الأسْلِحَة وانتسبت شجاعَتُـه رأيتَ القَوْس فى يَدِ عُطَارِدَ فى بَيْتِ الأسد .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ المُبـاركةَ بعزْمٍ اقطعَ من حُسام، وأمانَةٍ أقْومَ من ألِفٍ وصِيانَةٍ أحْصَنَ من لام، مُعتبِرًا لأحوالهـا، مُقرِّرًا لمطالب مآلها من مالهـا، مُوَفِّرًا من أسْلِحتها التى تتوفَّر بها من الخَيْر سِهامُه، مُنْصِفًا لصُنَّاعِها الذين يُحْمَدُ عند آستعمالهم صَنِيعُه واهتِمامُه، مُكثِّرًا لخزائنها من ذخائر العُدَد ، مُجهِّزًا لجيوش الإسلام من مادّة عَمَلِها بأنفع مَدَد : من قِسِيّ تقضى أهلها بقَطْع أعمـار العدا ، وسُيوفٍ صَقِيلَةٍ إذا نادتْ دِيارُ النَّاكثين أجابت النـدا، ودُرُوعٍ تموّجت غُدْرانُها إلا أنها فى مَهالك الحرب لا تَغُور ، ورِماحٍ آطَّرِدَتْ كُعُوبُها فكلُّها على عَدُوّ الإسـلام كَعْبٌ مدَوَّر ؛ إلى غير ذلك ممـا يَدُلُّ على عَزْمِه الحميـد، ويَقْضِى للنِّعمة عليه بالمَزِيد ؛ والله تعالى يثقِّفُ عزْمه ، ويُوَفِّرُ من السِّلاح والنَّجاح سَهْمَه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيعٍ بشَدِّ الجَوالى، من إنشاء ابن نُباتَة أيضا، وهى :

رسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ سُعودُ أوامِرِه واضِحةَ الأدِلَّه ، نافذَةَ الحُكم على كلِّ مِلَّه ، قائمةً بخِصْبِ البِلاد بالعَدْل مَقام السُّحُب المُنْتَهِلَّه ـ أن يرتَّب فلانٌ فى شَدِّ الجوالى بدِمَشْق المحروسةِ : لمـا ظَهر من نَجابَته ، واشْتهر من حَزْمِه ومَهابته ؛ وبَدا من هِمَمِه العَوالِى، وعَزائِمِه التى تَجْلُو صَـدأَ الهَمِّ بالجوالى، وإذا قيل لحاسده : له ولأبيه إمْرَةُ الخَيْل قال : والجَوى لِى ، وأنّه الكافى الذى إذا آستُنْهِضَ كانت عَزائمُه شابَّة ، ونَفَحاتُ ذكْرِه الجميلِ هابَّه ؛ ونُجْلُ المُهام الذى أشهد على كَفاءته النَّهارَ وعلى

تعبيه الليل ، وأعدّ لمصالح الإسلام ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل ، وأنّ ذ مرباه جميلا ، ومنشاه فى منازل الخير دليل .

فليباشر هذه الوظيفة المباركة بعزم يثمّر مالها ، ويقرّر على السّداد أحوالها ، ويستخلص الحقّ من أهل الاعتقاد الباطل ، ويستخرج الوفر من أهل الجلد الماطل ؛ فلا نصرانىّ إلّا وهو يتضرّع تحت الزّرقاء من بأسه ، ولا يهودىّ إلا وهو يشكو الصّفراء فى رأسه ، ولا سامرىّ إلّا والنار الحمراء مطلّة على أنفاسه ، حتّى تكون أوصاف شدّه متلوّه ، وعزائمه فى الجوالى مجلوّه ، وهمّه جارية على إيلافها ومألوفها ، مجزّئة لأقلام الحساب والدّراهم على حروفها ، صحيحة الوزن غير منهوك ، آخذة الدّينار من وازنه وهو كالمأخوذ منه مصكوك ؛ شدّا تتعقد على اختياره الخناصر ، وكما أنّ للإسلام منه قوّة فليكن للوظائف الدينية منه ناصر .

الضرب الثانى

(ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف - من هو بأعمال دمشق ، ومواضعهم على ثلاث مراتب أيضا)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بنيابة بعلبكّ كتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهى :

الحمد لله الذى جمّل بمحاسن زينه من استحقّ الصعود إلى أعلى المنازل ، وجعل نجم سعده بارتقائه إلى سماء المناصب طالعا غير آفل ، وصان بعقله الراجح أحصن المعاقل ،

نحمده على إحسانه الواصل ، وغيث جوده الذى هو على الدوام هاطل ؛ حمدًا ينطق بمدح مقدلته كل لسان قائل ، ويزيد خيره على كل عام قابل ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى ألحق جياد الأواخر بالأوائل ، وجعل أجمل الأمراء يفوق البدور الكوامل ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى جعله لديه أعظم الوسائل ، وتلازم هو وجبريل فى علو المنازل ، والتقدم فى المحافل ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سادات العشائر والقبائل ، والمجاهدين فى سبيل الله بالبيض البواتر والسمر الذوابل ؛ وسلم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فلما كانت بعلبك المحروسة من أعز بلاد الإسلام ، وأبهج مدن الشام ــ تعين أن نعين لها حاكما دينًا خبيرا ، أمينًا أميرا ، شجاعًا مهتابا[(١)] ، بطلًا برمحه وسيفه فى صدور الأعداء ورقابهم طعانًا ضرابا ؛ وكان الجناب الكريم فلان : ــ ضاعف الله تعالى نعمته ، وحرس من الغير مهجته ــ من بيت كان على التقوى أساسه ، وعدت لدفع المعضلات أناسه ؛ واشتهرت همتهم فلا يرد لهم سهم ولا يطاق بأسه ؛ طالما نفوا عن الدين الحنيفى خبث الكفر بعد ما تمكنت أدناسه ، وشمروا عن ساعد الاجتهاد فمحى بسيوفهم ضلال الشرك وأرجاسه ؛ وهو أعزه الله تعالى ممن شحى بشجاعته ، حلوق الكتائب ، ووفى بعدله وحسن سياسته ، حقوق المناصب ؛ وقام فى خدمة الدولة الشريفة أحسن قيام ، وهذبته بمرورها الليالى والأيام ؛ وتأهل لحلول الرتب العليه ، وتعين لارتقاء المراتب السنيه ؛ فأردنا أن نختبره فيما توليه ، ونختبر عزمه فيما توليه .

فلذلك رسم بالأمر العالى ــ لا زال أمره مستمر الإحسان ، مجزلا لذوى الاستحقاق عوارف النعم الحسان ــ أن يستقر الجناب الكريم المشار إليه ــ ضاعف

(١) فى الأصل «مهابا» ولم يجئ من هذه المادة فعل رباعى بهذا المعنى بل الوارد هابه واهتابه .

اللهُ تعالىٰ نِعْمَتَه ــ فى نيابةِ السَّلطنةِ الشريفةِ بيعلَبَكَّ المحروسةِ والبِقَاعين المعمورَيْن، على عادة من تقدّمه فى ذلك ، ومُسْتَقَرِّ قاعدته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به الديوان المعمورُ، إلى آخر وقت .

فليباشرْ هذه النيابةَ الشريفةَ بخاطرٍ مُنْفَسِح حاضر، وقلبٍ مُنْشَرِح على الخيرات مُثابِر، وليتّخذِ الشرعَ الشريفَ إماما ، وليَتَوَخَّ أوامرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبراما ، وليقِفْ عند حُدوده المشروعه ، ولا يتعدّها ومن يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فيَدُه من الإيمان مَنْزُوعَه ، وليُلِنْ جانِبَه للرَّعِيَّه ، وليَحْمِلْهم من العَدْل والإنصاف على المحجّة الواضحة الجَلِيَّه ؛ فإنّهم الرعية الضعفاء الصالحون الذين أنعم اللهُ عليهم بتفويض أمورهم إليه[(1)] ، وليعرِّفْهم قولَ النبي صلّى الله عليه وسلم : «اللّهُمّ من وَلِيَ من [أُمور][(2)] أمّتي شيئًا فرفَقَ بهم فارْفُقْ به ومن شَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه» ، وليعمّرِ البلاد ، وليقْمَع أهلَ الفساد ، وليمهِّدِ البِقاع ، وليُحْيِ مَواتَ الضِّياع ، وليُقِمْ على القَلْعة المنصورة الحَرَس ، ولا يغفُلْ عن حِفْظها بمعرفته التي أكّدتْ له من السّعادة سَبَبا ، واللهُ تعالىٰ يبلّغه من إحساننا أَرَبا ، ويُنْجِحُ له من فَضْلنا طَلَبا ، ويحرُسُه بسورَتَيْ فاطرٍ وسَبا ؛ والاعتمادُ فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع بكَشْف البلاد القبلية ، كُتب به لغَرَس الدين خليل الناصرى فى الدولة الظاهرية «برقوق» وهى :

الحمدُ لله الذى جرّد من أولياءِ هذه الدَّولة الشَّريفة سُيوفًا تَحْسِمُ مَوادَّ الفَسَاد ، وتُبِيدُ أهلَ الزَّيْغ والعِناد ، وتَعُمُّ ببأسها وبعَدْلها البِلاد . حمدًا مستمرًّا على الآباد ،

(١) فى الأصل : العلماء ، والتصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مُزَوِّدًا غَرْسَها النافعَ ونِعْم الزّاد ؛ ونشهدُ أنْ لَا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له رَبُّ العباد، القائمُ علىٰ كلّ نَفْسٍ بمـا كَسبَتْ والمُجازِى لها بمـا عَمِلَتْ يوم يَقُوم الأشْهاد؛ ونَشهدُ أنّ سـيدَنا محمّدًا خيرَ الخلائقِ عبــدُه ورسولُه الذى بلّغه فى الدنيا والآخرة أقصى المُراد، وفَضّلَه على الخلائق : الآلافِ والمِئِينَ والعَشَراتِ والآحاد؛ صلّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فتَحُوا البـلاد، بسيوفهم الحِداد ، ومَزّقَتْ رِماحُهم من مُخالِفِى دِينِهم القَويم القُلوبَ والأكْباد، وسلّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم التّناد .

وبعدُ ، فلمّـا كانت المملكةُ القِبْلِيّة جُلّ البلادِ الشاميــه ، وبها أرْزاقُ العَسـاكرِ الإسلاميه ، وطَرِيقَ الحاجّ إلىٰ بَيْت اللهِ الحَرام ، وزِيارةِ نَبِيّه عليــه أفضلُ الصّلاةِ والسلام ، وإلى الأرض المُقدّسه ، التى هى على الخَيْراتِ مُؤَسَّسَه ، وإلى الأبْوابِ الشريفةِ السلطانيه ، ومَمَرّ التُّجّار قاصِدِين الدِّيارَ المِصْرِيّة ، ومَنازِلَ العُرْبان ، ومَواطِن العشرانْ[1] ــ وجب أن يُفَوَّضَ حُكْمُهـا إلىٰ من عُرِف بالشَّهامَة والشجاعه ، واليقَظَة التى لا يغْفُلُ بها عن مصْلَحة المُسْلمين ساعَه ؛ من أثْمر غَرْسُــه وما يغوّه ، وأينــع بالمُروءة والفُتُوّه ؛ وتقدّم فى الكمال علىٰ زَيْدٍ وعَمْرو ، وأضْرمَ فى قُلوب الأعداء نارًا أحَرّ من الجَمْر .

وكان الجنابُ الكريمُ ــ أدام اللهُ نِعْمته ــ هو المشهورَ بهذه الصِّفات ، والمَنْعوتَ بالشّجاعَة والإقْدام وحُسْن الأدَوات .

فلذلك رُسِم بالأمْر العالى ــ لا زَال إحْسَانُه يُثْمِرُ غَرْسا ، وجُودُه يَسُرّ نَفْسا ــ أنْ يستقرّ الجنابُ المشارُ إليــه فى كَشْف البِلاد القِبْلِية المحروسةِ على مِنْوال من تقدّمه وعادَته ، وحُدودِه فى ذلك ومُسْتقرّ قاعِدَته .

(١) لم يرد هذا الجمع فيا بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس فى اللغة بجمله كرغيف ورغفان وقطيع وقطعان .

فليباشر ذلك بهمته العليه، وشجاعته الأحزميه، ونفسه الأبيه؛ وليبيض وجهه في هذه النوبة حتى يطرب الناس بالنوبة الخليليه؛ وليعدل في الكبير والصغير، وليقمع رءوس عشير اتخذوا رأسهم مولى : فلبئس المولى ولبئس العشير؛ وليدفع أذى العرب، وليحذرهم شرا اقترب؛ وليكثر الركوب إلى المعاملات، ولا يخش من كثرة الحركات، وليعلم أن كل ما هو آت آت؛ وليتخذ الشرع الشريف إماما، وليتوخ أوامره ونواهيه نقضا وإبراما؛ وليقف عند حدوده المشروعه، ولا يتعدّها : ومن يتعدّ حدود الله فيده من الإيمان منزوعه؛ وليلن جانبه للرعيه، وليحملهم من العدل والإنصاف على المحجة الواضحة الجليه؛ فإنهم الرعية الضعفاء الذين أنعم الله عليهم بتفويض أمورهم إليه، وليعتمد قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم من ولي من أمور أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به ومن شق عليهم فاشقق عليه »؛ والوصايا كثيرة وتقوى الله عز وجل نظامها وقوامها، واتباع سنة نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قيادها وزمامها، والاعتماد في معناه، على الخط الكريم أعلاه .

❖

وهذه نسخة توقيع بكشف الرملة، كتب به لأبي بكر «أمير علم» ، في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي :

الحمد لله الذي قلد أجياد المجاهدين، سيف نصره، وأكد بعزائم أهل اليقين، حماية حوزة الإسلام وصيانة ثغره؛ وجعل ألسنة أسنة المرابطين في فم الثغر زينا إذا ازدان بغرة بدره، وأنزل بأعداء الدين فوادح نقمه وقوارع قهره .

أحمده أن حمى بأولي النجدة والبأس للسلمين حمى، وأشكره على ما همع من صيب نعمائه وهمى؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أتخذها عند الله

ذُخرا ، وأرجو بهـا فى العُقْبىٰ أجْرا ؛ وأشهدُ أنّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى آيدَ يَدَه بالسّيف وأمدّه أيدا ، وعلىٰ آله الذين حَلّىٰ بهم للإسلام جِيدا ، وصَحْبِــه الذين جَلَا ببوارِق صِفاحِهم ، وخَوارِق رِماحِهم ، غُمَم المجال ، وغَمَم القتــال ؛ فلم يُمهِل الأعداءَ ولم يُمْهِلْهم رُوَيْدا .

وبعــدُ ، فإنّ أولىٰ مَن جُعِل فى نَحْر البَحْر هُمامًا صَارِمْ[1] ، وأشدّ من قاطع أعداء الدين وصارَمْ ؛ من تُضرَبُ بشجاعته الأمثــال ، ويُورِدُ فى صــدور الأبطال صُمّ الأسَل النِّهال ؛ ويَحْمِى حِمَى الثَّغر فلا يَدَعُ عدوًّا ولا يَرْهَبُ نَهْبا ، ويَرْقىٰ رِقابَ الكُفْر فيُؤْمنون وإن كان وراءهم مَلِكٌ يأخذُ كلّ سَفِينة غَصْبا .

ولمـا كان الجناب الكريم فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى أخلص فى الطّاعه ، ونصح سُـلْطانَه حسب الطاقة والاسْـتِطاعَه ـ رُسِم بالأمر الشريف العالى ـ لازال سـيفُ عدله ماضيا ، وكُلٌّ بحُكْمِه راضيا ـ أن يستقرّ الجنابُ المشارُ إليه كاشفًا بالرَّملة المعمورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك .

فلْيُباشِرْ ذلك مُعَمِّرًا تلك البــلادَ بعَدْلِه ، مُجتهدًا علىٰ إيصال الحقّ إلىٰ أهْــلِه ؛ وليتخذِ الشّرعَ الشريفَ إماما ، وليَتوخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبْراما ؛ ولْيقِفْ عند حدوده المشروعه ، ولا يتعدَّها : ومن يَتَعَدَّ حُدودَ الله فيدُه من بِرّ الإيمان منْزوعه ؛ ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعيّــه ، وليحملهم من العَدْل والإنصاف على المَحجّة الواضحة الجليّه ؛ [فإنّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنْعم اللهُ عليهم بتَفْويض أُمورِهم إليه][2] ولْيعتمِدْ فيهم قولَ النّبى صلّى الله عليه وسـلم : «اللّهمّ من وَلِيَ من أُمُورِ أُمّتى شيئًا فرَفَق بهم فارْفُق به ومن شَقّ عليهم فاشْقُقْ عليــه» . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التّقوىٰ فليلازمْ عليها فإنّهـا

(١) بياض فى الأصل وما أثبتناه عن نسخة . (٢) الزيادة مأخوذة مما تقدم .

تحفظه ، وبالسيادة والسعادة تلحظه ؛ والله تعالى يكمل توفيقه ، ويسهل إلى نجح المقاصد طريقه ؛ والاعتماد فى معناه، على الخط الكريم أعلاه .

قلت : ومن تأمل وصايا هذه التواقيع الثلاثة المتقدمة الذكر، علم ما كان عليه كتاب الزمان، من انتزاع الفقرات من توقيع، وترصيعها فى توقيع آخر، من غير تغيير لفظ فى أكثرها .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب السيوف ممن بأعمال دمشق ـ مايفتتح بـ«أما بعد حمد الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك .

نسخة توقيع بنيابة بعلبك لمن دون من تقدم فى المرتبة الأولى ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، كتب به لمن لقبه «ناصر الدين» : وهى

أما بعد حمد الله الذى لم يخل مملكة إسلامية من قوة ولا ناصر، ولم يحل أمرها على ذى عزم قاصر، ولم يحل وجهها إلا بمن نسى به القديم وشهد له المعاصر، ولم يلق مقاليدها إلا لمن وضح برأيه الإبهام وثبتت بفضله الشهادة وعقدت على ذكره الخناصر . والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى شيد معالم الدين وأركانه ، وجدد مكان الحق وإمكانه ؛ وعلى آله وصحبه الذين تابعوا فى الخلق عدله وإحسانه ، وشايعوا فى النصر نصله وسنانه ، ماآستناب الودق فى سقيا الرياض غدرانه : وخلع على الغصون خلعًا خطر فيها الزهر بأكمامه وعقد من الثمر تيجانه ـ فإن شرف الأماكن بساكنيها، وحسوم الديار بنفوس قاطنيها، والمنازل بكواكبها، والمناصب

بنصيبها من الكفاءة ونائبها ؛ وإنّ مدينة بعلبكّ علمٌ فى المدائن مرفوعُ الخطّه ، وجسمٌ من جُسوم الديار قد آتاه الله بسطه ؛ بِنْيَةُ سليمانَ عليه السلام فهى بالملك قديمة الاختصاص ، ومُبْتَنَى الجانّ المنسوبةُ عُقودُها العليةُ والدَّرّية إلى كلّ بنّاءٍ وغوّاص ؛ وشامُ الشّام المُعجبه ، وروضةُ نَداه المُعشِبَه ؛ وثنيّةُ ثغره الباسم ، وعَرْفُ أعْراق حياه النّاسم ؛ ومأوى صُلَحائه أحياءً بين أوطانها ، وأمواتاً بين صَفيح لُبْنانها ؛ لو عُرِضَت البلادُ تُحَفًا لقيل لسَحابها : يا كثيرَ المِنَن ، ولو صُوِّرَتْ أناسيَّ لقيل لإنسانها : يا طيِّبَ النَّجْرِ واللّبَن ؛ لا يُمْنَع ماعُونُها ، ولا ينقطِعُ عَوْنُها عن البلاد وما أدراك ماعَوْنُها ؛ ولا تَليق من النوّاب إلّا بكُلِّ سَرِيٍّ العَزْمِ والهِمّه ، عليّ الآراءِ فى المُلِمَّة المُدْلَهِمَّه ؛ ناجح القَوْل والعمل ، صالح لأن يُثْنِي على نيابته البَعْلَبَكّيّةِ صالحو المدينة والجَبَل ؛ مُكمّلٍ لسلوك الحقّ الأنجى والعزم الأنجد ، مُؤَهَّلٍ لارتقاء الرُّتب التى تماحَدْنا[1] ولها الأمجد .

وكان فلانٌ هو جُملةَ هذا التّفصيل ، وجَمالَ هذا التّفضيل ؛ وكُفْءَ هذه العَقيلَه ، وسَعْدَ هذه المنزلة التى مَدّتْ بالسّيف والقلَم ذِراعَه ونظّمتْ من البناء إكليله .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالت الممالكُ بمحاسنِ أيّامه إرَمَ ذاتِ العِماد ، والبلادُ ذاتَ الخِصْبِ السَّنِيِّ لا ذاتَ السَّنة الجَماد ــ أن يرتّبَ فى نيابة بعلبكّ المحروسة : مُجدّدًا بهمّته العالية عُلُوَّ صَرْحها ، وحماية سَرْحها ؛ ورعايةَ جَبَلها وسَفْحها ، مُورِيًا فى مصالحها زِنادَ فِكْره التى لا تمكِّنُ أقوالُ العُداة من قَدْحها ؛ مُصرِّفًا أوامرَه كيف شاءتْ ، مُنْصِفًا للأحوال المَنُوطةِ برعايته إن دَنَتْ أو تناءَتْ ؛ باسطًا لعَدْل قلمه على المُجيدين ، وسَطَوات سَيْفه على المعتدين ، وازِعًا بمهابته مَن جاور جبال

---

(١) لعله "التى إذا خلت من ماجد تناولها" الخ .

العَمَل من الضّالّين، ﴿فعسىٰ أولٰئك أن يكونُوا من المُهْتَدِين﴾ وليَتبوّأ منهـا مَعْقِلًا يحمدُه المُناصر والمُهاجر، وليَحُطْ منها ثغرًا مَساوِيكُه الأسَلُ والمَسْعىٰ إليه علىٰ المَحاجر، وليُجْرِ أمور الديوان علىٰ سَنَنِ التّمِيير والتّثمير، وليـدَبِّرِ الأوقافَ المبرورةَ بمحاسن التّدبير، وليُشارِكْ أهلَها فى الأجر الأوّل بالأجر الأخير، والأسْوار هى وقلوبُ الرِّجال من أهمّ ما يُعَمِّره، ووُفورُ الحَواصل والسِّلاح ممّا للوَلِيِّ ولِقاءِ العَدُوِّ يدّخِره، وتقوى الله عزّ وجلّ ممّا لا يزال لِسانُه يَسْتحْلِي القولَ فيه فيُكَرِّره؛ والله تعالىٰ يمدُّه بإعانته ولُطفه، ويكْفِيه ما أهمّ من الأمور فما كُفِي مَن لم يكْفِه .

***

وهذه نسخةُ توقيع بولاية الولاة بالشّام المحروس لمن لقبُه «عزّ الدّين» من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا ، وهى :

أمّا بعدَ حمد الله الذى جعل للوُلاة فى هذه الدّولة عِزًّا يَتجدّد، وعَزْمًا يتشدّد، وبعلاًلا يتعدّىٰ إذا حكم وزيدا لا يتعدّد (1) ، وكَافِيَ وُلاةٍ يتلذّذُ الوَاصِفُ بذكرِ اهتمامه الذى إذا اهتمّ لا يتلدّد، وإذا اعتبِر عَزْمُه وحَزْمُه فهذا فَضْلٌ يتجدّد ، وهذا وصف لا يتحدّد . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيد الخلقِ محمد، وعلىٰ آله وصحْبه ذوى العِزِّ المؤبّد، والعَزم المؤيّد ، ما كَتب قلمُ الغَيْثِ الجائد علىٰ طِرْسِ الرَّوْض فجَوّد ــ فإنّه لمّا كانت الوُلاة فى خِدمة البلاد جيْشًا يحمُون سَرْحَها، ويعمُرون صَرْحَها، ويُخصِبُون بالعَدْل قبل العِمارة سَفْحَها، ويحكُمون فى رعاياها، ويتمكّنون فى قضاياها، ويقْرَعُون ثُغُورها ويفْرعُون ثناياها ــ تعيّن أن نقـدِّم علىٰ هذا الجَيْش المذكورِ أميرًا يقرِّرُ أمرها ، ويُنَسِّق من مَيْمنته ومَيْسرته يُمْنَها ويُسْرَها ؛ ويُجرِّدُ من الرّأى سِلاحَه ، ويَسُرُّ قلْبَه بالتّدبير ويَرِيشُ جَناحَه .

---

(1) كذا فى الاصل بالاهمال ولعل صوابه «وفعلا اذا حكم لايتعدّى ورأيا لايتعدد» .

وكان المجلسُ السامِىّ هو الأميرَ الدَّالّ عليه هذه الإمارَه ، المَعْنِىّ بهذه الشَّارَة والاشاره ، المُسْتَحِقّ بشريف نَفْسه مَدَارِجَ الآرتقاء ، ومَباهِجَ الآنْتِقاد والآنْتِقاء ، المُسْبِلَ أذيالَ مَفاخِرِه أىَّ إسْبال ، المَرْقُومَ بآسمه ورَسْمِه علىٰ أرْجاء الوِلايات : «عِزٌّ يَدُومُ وإقْبال» ، المُقيمَ من أمانَتِه ومَهابَتِه بين حِرْزَيْن ، الشَّهْمَ الذى لا يَذِلُّ وهو من نَعْته ومُنْتَسبِه بين عِزَّيْن ، الصَّمْصَامَ الذى تُسَرُّ [به] يَدُ من آرتضاه وآنتضاه ، والمَاشِىَ على الحقِّ الظَّاهِر حتّىٰ يقال : أهَذا وَالِى الوُلاةِ أمْ قاضِى القُضَاه ؟ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ شَرَّفه اللهُ وعظَّمهُ ــ أن يَستقرّ ... ... آعتمادًا علىٰ شَهامَتِه التى بِمِثْلِها تُمَهِّدُ البِلاد ، وكَفَاءتِه التى تُفْصِحُ بالخيرات السَّنِيَّة ألْسنَةَ الجَماد ، وصَرامَتِه التى تَشُدُّ علىٰ أيْدِى الوُلاة فيَرُدُّون الحُقُوقَ من أيْدِى الآغْتِصاب ، ودِرايَتِه التى يَنْتَسِبُون إليها فيُنْشِدُون :

وكُنَّا كالسِّهامِ إذا أصابَتْ * مَرامِيها فَرَامِيها أصَابْ.[1]

فلْيباشِرْ هذه الرُّتْبَةَ بكُفْئِها : من العَزْمِ العالى ، والقَدْرِ الغالى ، والمَعْدِلَةِ التى تَتَمسَّكُ منها الأحوالُ بأوْثَقِ العُرا ، وتَتْلُو سَيَّارتُها المرفقة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القُرَىٰ ﴾ . مُراعِيًا لجميع الأحْوال ، مُثَمِّرًا لمَرْبَعِ الأمْوال ، وَالِيًا علىٰ وُلاةٍ إن شَكَوْا فى صُنْعِ الله فما لهم من اللهِ من وَالٍ ، ماشِيًا من تَقْوَى الله تعالىٰ فى كلِّ أمرٍ على أقْوَىٰ وأقْوَمِ مِنْوال ، واللهُ تعالىٰ يُخْصِب البِلادَ بِغَمامِ رأْيِه الصَّيِّب ، ويُطَيِّبُ الأماكنَ المُنْبِتَةَ بِمثْلِه : « وكلُّ مَكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» .

*
* *

وهذه نسخةُ توقيعٍ بولاية البَلْقاء والصَّلْت ، من إنشاء آبن نُباتة ، وهى :

---

(١) الرواية : أصابا بألف الإطلاق ، وحذفت هنا لمراعاة الفاصلة .

أمّا بعد حمد الله مُضاعف النّعمه، ومُرادِف رُتَب الإحسان لمن أخلص في الخِدمه، ومُجدِّدِ منازِلِ العِزّ لمن طلعتْ كواكبُ اهتمامه في آفاق الأُمور المُهِمَّه، ومُؤكّدِ سِهام الخير المقتَسَمه، لمن سدّد في شرَف الأغراض رأيه بل مَهْمَه. والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ النبيّ الأُمّيّ هادِي الأُمّه، وعلى آله وصَحْبه حُماة الدّين من العوارض المُلِمَّه، صلاةً تكونُ بين أرواحِهم الزّكيّة مَوَدّةً ورَحْمه — فإنّ أحقّ الأولياءِ بمزيد الآلاء المتّصِله، وتجديد النِّعَم المقبِلَةِ وتقديم المساعي التي لا تَلْبَسُ حُلَلَ الفخار إلا مُكْتَمِلَه — من وَضَحتْ في صفات الفَضْل آياتُه، وتقابَلتْ في حالَتَيِ التّدبير سَطَاهُ وأناتُه، ورَقِيَ قُلّةَ البَلَد الخائف ففاض على المُعتدين جَدْوَلُ سيفه وجَرتْ بالدّم قناتُه، وقام على قَدَم الاجْتهاد، وقَسّم بين جَفْنه وجَفْن سَيْفه السُّهاد.

ولما كان المجلسُ هو المقصودَ بهذه الكِنايَه، والمشهودَ له في طَلَق هذه الغايَه، والعالِيَ بهِمَمه على ذوِي الارْتقاء، والوالِيَ الذي إذا رَكِبَ الوُلاةُ لاشْتهارِ ذِكْرٍ كان من بينهم فارِسَ البَلْقاء، والناهضَ بتثمير الأموال غَمامُ رأيه الصَّيِّب، والطّيّبَ بسياسته مَحَلُّ الولاية: «وكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» — تعين أن تتزيّد مَنْصِبَه إذا تزيّدتِ المناصب، وأن تَستمرّ مَرتبتُه إذا مَرّتْ لذَهابِها المَراتب؛ وأن يشتملَ في استمرارها عليه، وأن يكون في إعْراب الدّولة القاهرة مُضافًا ومُضافًا إليه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف — أعلى الله تعالى أبدًا عِمادَه، وجعل لوُلاة أيّامه الحُسنى وزيادَه — أنْ يستمرّ على ولاية البَلْقاء على عادته، وأنْ تُضافَ إليه وِلايةُ الصَّلْت[1]: جمعا له بين الأُخْتين حَلالا، والذّرْوتين مَنالا، والرّايتين نُهوضًا بهما

(١) لم يذكرها القاموس ولا ياقوت وفي تقويم البلدان هي بليدة وقلعة من جند الأردن .

وٱستقلالا ، وعلمًا بوفاءِ عزمه الذى أمَرَ أمْرَه ، ورَفْعًا لقَدْرِه الذى حَسُن أن يقولَ لمنصِب البَلْقاء : «لنا الأبلَقُ الفَرْدُ الذى سارَ ذِكْرُه» ، وتيمُّنًا بغرّةِ الصَّلْتِ فإنّ الصَّلْتَ هو الجبينُ الواضحُ بِشْرُه ؛ وكيف لا ؟ وهو الكافِى الذى جمعَ مالَ الجهاتِ فأوْعىٰ ، وقسّم فُنونَ المصالحِ جِنْسًا ونَوْعا ، وحَسَم أدواءَها بحُسامِ رِفْقِه كَرْهًا وطَوْعا .

فليباشِرْ بالعِزّ واليُمنِ جِهتَيْه ، وليأخُذْهما بكلْتا يَدَيْه ، وليفض وَجْه عزمه فى أرض الدّولة حتّىٰ يكون شبهُ البَلْقاءِ اللازم لإحدى ولايتيه ؛ محصّنًا بسِماكَىْ سَيْفِه وقَلَمِه فنِعْمَ البَلْدتان ، مُثْمِرًا بسَدادِ قَوْله وفِعْله ومن دُونِهما جَنّتان ؛ مُوفيًا للحقوق ، مُعْفيًا لاعترافِ النّعمة من العقوق ، راقيًا بهمته — إن شاء الله تعالى — إلىٰ رُتَبٍ لو رامَها نَجْمُ الأُفُقِ لعاقَهُ العَيُّوق ، عامِلًا بتقوى الله عزّ وجلّ فإنّ خيرَ الدنيا والآخرة بتقوى الله مَعْذُوق ؛ والله تعالى يُوضّح لرأيه أجمَلَ الطرائق ، ويُنْجِحُ على البَلْقاءِ وغيرِها سَعْيَه السّائق ، وفِكْرَه السابق ؛ بمنه وكرمه ! .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بولاية نَابُلُس ، من إنشاء ٱبن نُباتةَ أيضا ، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله علىٰ ماهَنّأ من المواهب ، وهَيّأ من عَلِيّ المراتب ، وأنجز من وُعُود السُّعود بعد مِطَالِ المَطَالِب ، وزَيّن من سماء الوظائف عند إزهائها بزينةِ الكواكب ، وعمّر من صُدُور الوُلاة والولاية بعَلِيٍّ تُثْنِي عليه الرعيّةُ «ولو سكتُوا أثنَتْ عليه الحقائب» . والصلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله الذى جرّد لنَصْر الإيمان حَدّه القاضب ، وحِزْبَه الغالب ، ونَدَب لإحياءِ الحقّ عليه بعد ماهمّت به النّوادب ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين هم فى المَمات جمالُ الكُتُب كما كانوا فى الحَياةِ

جمالَ الكتائب ، صلاةً تتعطر بنفحاتها الصَّبا وتتقطّر من خلف سُراها الجنائب ـ فإنّ عقائلَ الولايات أولى بخطبة أكفائها ، ورغبة السَّراة من ذوى اصطفائها ، ونسبة من يقوم للأمور المعطّلة بقانونها وشفائها .

ولما كانت بلدُ نابُلُس المحروسة من أعلى عقائل البلاد قدرا ، وأمرا الجهات أمرا ، وأسرى الولايات محلّا وذكرا ، وأوفى النواحى من زمان بنى أيوبَ على تكاليف المُلك صبرا ، وأنزه البقاع التى لو رآها الملكُ المصرىّ لما استغلى غُوطةَ الشام بشبرين من شبرا ، بلدٌ أعارته الحمامةُ طوقَها وحمّلت الثناء فوقَ طوقه ، ونجم نبات واديها الزّهرَ حتّى تساوى النجمان من تحته ومن فوقه ـ تعيّن أن يُختار لولايتها من تعيّن ولاؤه ، وتمكن فى الرُّتب علاؤه ، وتبيّن فى مصالح الولايات احتفاله واحتفاؤه ، وشُهر وفاؤه بالخدمة فلا شرف بسعى إلا له منه شينه وراؤه وفاؤه ؛ من شهدت السواحلُ الشاميّةُ فى مباشرته أنه أجرى منها المالَ بحرا ، وأفاض الوصف دُرّا ، وشهدت الزكاة ـ وديوانُها المادحُ ـ أنه أفلحُ من زكّاها خَبرا وخُبرا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يرتّب فلانٌ ... ... علمًا بأنّه الأوحدُ الذى جمع الأوصافَ المتقدّمه ، واستمع من المحامد نتيجةً لها من كلا قوله وفعله مقدّمه ، وأطلع فى آفاق الوظائف كنجوم الجوزاء الثلاثة رأيه وسيفه وقلمه ، واطّلع على محاسن التدبير فكان فى رعايا بلده ممّن تواصوا بالصّبر وتواصوا بالمرحمة ، وأنه الكافى الذى إذا ولى ثمّر ، وإذا صال على المفسدين دمّر ، وإذا شامت المهمّاتُ بارقَ عزمه ، أسبل وإذا سامت قُواهُ شمّر ، وأنّه الأمينُ إذا تصرّف ، والمأمونُ إذا تعرّف ، والشجاعُ إذا تحصّنت البلادُ بنسبه الحصنىّ : فسواءٌ فى شمول الأمن ما توسّط منها وما تطرّف .

فليباشر هذه الولايةَ المباركةَ بعزمٍ يوضّح بشرَها ، ويُنجح أمرها ، ويُقيم فى خطبة عُلاه عذرَها ، وحزمٍ يُثمّر مالها وغلالها ، وينقعُ غُلّتها ويضعُ أغلالها ، وبأس يدعُ

المُفسِدَ من سَيْفه أو قَيْده فى طَوْقٍ أو حِجْل ، ويَذَرُ السّارقَ والمَارِقَ يشِيرُ بلا كَفّ ويَسْعىٰ بلا رِجْل ؛ مُشَيِّدًا لنواحيها بالتّرغيب والتّرهيب علىٰ أوْثَق المَبَانى ، مُصْلِحًا بين أهْلِ الأهْواءِ حتّى لا يَضُرّ قَوْلُ القائل : «رَفِيقُكَ قَيْسِىٌّ وأنْت يَمَانِى» ؛ مُتَفَقِّدًا من الأحوالِ كُلَّ جَلِيلٍ وحَقِير ، ناهِضًا فى تَلَقِّى المهمات علىٰ قدم التقدم بالعَزْم الأثِير ، جاعِلًا من لَدَى مَحَبّة عَمَلِه لصلاح العشِيرةِ نِعْمَ العَشِير ، عاملًا بتقْوَى الله تعالىٰ فى كلِّ أمرٍ وإليها بالحديث يُشِير .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بشد الدّواوين بغَزّة ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به لـ«علاء الدّين بن الحصنى» المقدّم ذِكْره فى التّوقيع قَبْله ، وهى :

أمّا بعدَ حمد الله علىٰ كلِّ نعمةٍ جَلّتْ ، ونَسْمَةٍ فى أهْلها حلّتْ وحَلّتْ ، ورتبة بانتساب كافيها وباسمه تحصنت على الحقيقة وتَعَلّت ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ خيرِ من سلّمتْ عليه الألسنةُ وصَلّتْ ، وسُلّت به سُيوفُ النّصْر وصَلّت ؛ صلاةً دائمةً ما أُمْلِيَتْ على الأسماع فَملّتْ ، ولا قابَلَتْها وُجوهُ الملائكة إلّا تَهلّلَتْ ولا سُحُب الرِّضْوانِ إلّا انْهلّتْ ـ فإنّ منزلةً يُستَحَق [من] مُهِمّات الدّولة خَبَرُها ، ويُسْتدعَى من جانِبَىْ مصرَ والشّام سَبْرُها ، ويُحْمَد إليها من ناحيتَى الساحلِ والجَبَلِ سُراها وسَيْرُها ؛ وتلك وظيفةُ شدِّ الدّواوين المعمورة بغَزّة المحروسة التى تُلْتقط من ساحِلِ بَحْرها دُرَرُ الخير المُقْتَبَل ، وتقولُ المهمّات الشريفةُ لسَراةِ استِنْهاضِها : ياساريةُ الجَبَلَ ـ حَقِيقَةٌ أن يُتَخَيّرَ لها من الشاكرين من يُحْمَد اجتِهادُه وجِدُّه ، ومن السّابقين إلى المقاصد من يُحْسَن ـ كما يقال ـ تَقْريبُه وشَدُّه ؛ ومن شُكِرَتْ فى الولايات آلاؤُه ، ومَن إذا علا نَظَرُ رَأْيِه فى المصالح قيل : دَام عَلاؤُه ؛ ومَن إذا دَبّر جِهةً قالت بلسان الحال : لقد زادَ فى المصالح حُسْنا ، ولقد تحصّنتُ بانتساب ذِكْرِه فلا عَدِمْتُ منه حِصْنا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ ... ... لما عُرِف من حَزْمه وعَزْمه، ولمَا جُدّد فى مقدّمات القَدْر من رَفْعه وفى إعْلاء المهمّات من جَزْمه ؛ ولمَا عُهِد من هِمَمه فى جِهاتٍ دَبَّرها ، وفى وِلَاياتٍ ثَمَّرها ، وفى وَظائفَ شدَّها : أمّا علَى العُتَاة فشدّدها وأمّا علَى المُسْتحقّين فيسّرها ؛ ولِمَا اشتهر من ذِكْره الذى لا بَرِحَ عَلِيًّا ، ولمَا ظهر من دِرَايته التى جعلتْ كوكبَ سَعْده وسَعْيه دُرِّيًّا ، ولمَا بَهَر من تَمَيُّزه الذى إذا هَزّ عصاه بيَدٍ تُساقِطُ على المقاصد رُطَباً جَنِيًّا .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مباشرةً تُبَيِّضُ لها وَجْهًا وعِرْضًا ، وإذا أثنىٰ عليه المُثْنِى تَبَرُّعًا كافَأه حتّى يكونَ قَرضا ، مجتهدًا فى تثْمير الأموال والغلال ، ضابطًا لأُمور الدّيوان حتّى لا يشْكُو الخَلَّةَ ولا الاخْتِلال ، قائمًا بحقوق الخدمه ، مُسْتزيدًا ـ بشُكر الأقوال والأفعال ـ لما يرتِّخ له من أقسام النِّعْمه ، عَلِيًّا على كلّ حالٍ إذا وَفَّت الفِكَرُ قَدْرَه وإذا ذَكر اللّسانُ اسْمَه .

المرتبـــــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب السيوف بأعمال دِمَشْق ما يفتتح بـ«رُسم» وفيها وظائف).

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة القُدْس ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لشرف الدين « مُوسى الرّدادى» وهى :

رُسم ... ... ـ لا زالتْ وُلَاةُ أيّامه عاليةَ الشَّرف ، ساميةَ المُستَشْرَف آويةً من جَنّات خَير الدُّنيا والآخرةِ إلىٰ غُرَف من فوْقها غُرَف ـ أن يستقرّ المجلسُ السامى ... ... علمًا باهتمامه الوَفِى ، واعترامه المتيقِّظ إذا نام حَدُّ المَشْرَفِى ، واستنادًا إلىٰ رأْيه الذى

يقولُ نجمُه الطّالِعُ: «مَا أبعدَ العيْبَ والنُّقصانَ من شَرَفى» ! ! ؛ وإرْشادِ سَعْيِه إلىٰ أن اتّخذَ من الأرض المُقَدَّسةِ دارا ، ومن حَرَمِه الشَّرِيفِ جَارا ، واتّقادِ ذِهْنِه وشجاعتِه اللَّذَيْن آنَس بهما من جَانب الطُّورِ نَارا ؛ وكَيْف لا ؟ وقد قالت هِمّتُه : يا مُوسَىٰ أَقْبِل ولاتَخَفْ، وأَخرِج يدكَ البَيضَاءَ فى النّيابة تَكُنْ أَحَقَّ من اغْترف بها الإحسان واعْتَرف .

فلْيباشِر ما فُوِّض إليـه مُبَاشرةً يَعلُو بهـا شَرَفُ اسْمِه ومُسَمّاه ، ويَبْـدُو للاختيار والاختبار فضلُ التّقدّم الذى إذا بدا له كفاه ؛ وليُجْرِ بهذه الرُّتبة رأياً حسَنَ الإحكام ، وليُواظِبْ علىٰ حِفْظِ هذه القَلْعة التى فُتِحَ بهـا عليه فإنّها من أعْظم فُتوح الإسلام ؛ وليُمِـدَّ عليها من كِفايَتِه سُوراً حَوْلَ سُورِها ، وليتفقّدْ رِجالَها وعُدَدَها تفقُّدَ الشُّهُب فى دَيَاجُورِها ، وليرُدَّ عنها بعزْمِه الرَّدادىّ عُيونَ الأعادى الزُّرقَ حتّى لا يراعَ فى أرض الحَرَم ولاحَمامَاتُ طُيورِها . وليَشْكُرِ نعْمَةً أوَتْهُ إلىٰ هذه المنازل الطّاهرة ، وليقرِّبْ لِيَدِ آماله طَلَبَ خيرِ الدنيا والآخرة . وليُقدّمْ من الوصايا تقوَى الله التى عن أصْلها تتفرّعُ نِعَمُه البـاطِنةُ والظّاهِرة ، حتّى يحصلَ له فى الوَادِى المُقَـدَّس رَبْعًا مأنوسا ، وجَمْعا محروسا ، وأحاديثَ حَسَنةً تقولُ لمُسْتَمِعِ مِثْلِها فى الآفاق : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ . واللهُ تعالىٰ يمدُّه بإعانته ، ويُلْهِمُه شكْرَ مارُزِقَ من فَضْلِ مكانِه ومكانَتِه ، بمنّه وكَرَمه !

* * *

وهذه نسخةُ توْقيعٍ بنيابة قَلْعة صَرْخَد لمن لقبُهُ «جمال الدين» وهى :

رُسِم بالأمر — لا زال يَتَخيّر لقلاعه النّائبَ ويَتحيّزُ[1] من النّائبه ، يُمِدُّها بسَحائبِ بِرّه وفِكَرِه الصّائبه ، وينْدُب لخدْمتها كلَّ سَيْفٍ يُرضِى النّادبَ ويُقِيم علىٰ غيرِها النّادبه —

(١) أى يتنحى .

أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لأنّه الكافي الذى تُسَرُّ الحُصونُ بأمثاله ، وتبتسمُ شُرُفَاتُ القِلاع لإقباله ، وتنشرحُ منازلُها بتنقُّلِ نجومَ الهدايةَ من أفعاله وأقواله ؛ والمَلِيُّ بأداءِ الخِدَمه ، والمرشَّحُ لما هو أوفىٰ وأوفرُ من الأُمور المُهِمَّه .

فليباشرْ نيابةَ هذه القلْعة القـديمِ أثرُها ، والشَّهيرِ خيرُها وخَبَرُها ؛ بعزْمةِ سَـيف قاطعه ، وحِدَّةِ بأْس ذائعَه ، ومَهابَةِ ذِكْرٍ لشياطين النِّفاق عنها رادعَه ؛ فإنَّها من بناء المَرَدَة : فليَرُدَّ عنها آفةَ جِنْسِها ، وليَحُطْ بُرقىٰ عَزائمه حَوْل نفاسَتِها ونَفْسِها ؛ وليُجْرِ أمرَها على السَّدَد[1] ، وليَبْنِها بلُزومه المَهْدِى أوثق ممّـا بناها أُولئك بالصُّفَّاح والعَمَد ، وليرْضِ الآثارَ السُّلَيمانيَّـة بسُلْطـانِ بيت الملازمة علىٰ طُولِ الأبد ، وليَجْتَهِدْ فيما هو بصَدَده حتى تُدَمِّر بتَدَمُّر جوانحُ الحَسَدَة بالكَمَد ، مكثِّرًا بذكْرىٰ مَهابَته لعَـدَدها ، مُوقِّرًا لعُدَدِها ، مُستَوجِبًا لاستجلاب الإنعام عليه باستجلاب مَدَدِها .

❖

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قلْعة الصُّبَيْبَة ، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لا زال إحسانُه يُعيدُ إلىٰ الحُصون ناصرَها وزَيْنَها ، ويُفيـدُ أصحابَ الهِمَم صَوْنَها ، ويَحْرُسُها بمن إذا نَظَر فيها وحَمَاها كان عَوْنَها وعَيْنَها ـ أن يستقرّ المجلسُ السامىُّ الأميرىُّ ... ... لما أَلِفَتْه هـذه القلعةُ المنصورةُ من تحْصِينه وتَحْسِينه ، وعرَفَتْه من تَرْتِيبه فى عِمارتها وتَزْيِينه ؛ ولأنّه الأدْرىٰ بالمصالح العائد نَفْعُها ، والأدْربُ بمَناجِحها الحميـد وَقْعُها ؛ الذى باشرها من قبلُ فأحْسنَ السُّلوك ، ونَصَحَ هذه الدولةَ القاهرةَ فأثنىٰ علىٰ سيرتِه مُلوكُ الحُصُونِ وحُصونُ المُلوك .

فليَعُدْ إلىٰ هـذا المَعْقِل المَنِيع عَوْدَ المـاء إلىٰ مَشَارِبه ، وليَسِرْ فى أرجاءِ أبْراجِهـا مَسِـيرَ القَمَر بين كَوا كِبِه ؛ وليَتفقَّدْ أُمورَ رجالهـا المستخدَمين ، وليَسْتَجْلِبْ قلوبَ

[1] السدد [بالتحريك] الاستقامة كالسداد .

حَفِظَتها الأقدمين، مُتحاشيًا من رأيِ القاصر الغَىّ، قائمًا بالمُهمّات التى تُزاحَمُ منه بشيخ لا تُزاحَمُ بعَصِيّ، مُقيمًا على رَفعِ الأدعية لهذه الدولة القاهِرة، مُستَزيدًا بالشكر لنِعَم الله الباطنةِ والظّاهرة، مُجتهدًا مُعتمدًا على تقوى اللهِ تعالى التى جعلت له مكانًا مَكِينًا فى الدُّنيا وطَريقًا مَهْلًا إلى الآخرة، واللهُ تعالى يُنجِحُ قَصْدَه، ويتقبلُ جِهادَه وجُهْدَه، بمَنّه وكَرَمه!.

قلتَ: هـذا كان شأنُها حين كان يُولَّى بهـا مقدَّمُ حَلْقةٍ أو جُنديٌّ من الشّام. لكن قد تقدّم فى الكلام على ترتيب الممالك الشّاميّة فى المقالة الثالثة أنّها ٱستقرّتْ فى الدولة الناصرية «فرج» فى سنة أربع عشرة وثمـانمائة [ولاية][1].

وحينئذٍ فتكونُ ولايتها من الأبواب السلطانية. فإن عادت إلى ما كانت عليـه أوّلًا، عاد الحكمُ كذلك.

⁂

وهـذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة حمْص، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، وهى:

رسم بالأمر - لا زال يَنتَدِبُ لِخدْمة قِلاعِه كلَّ سَيْفٍ مُختَبَر، ومُجرّب صَبرتْ عليه العِبَر، ومُؤدٍّ لفرائض الخِدمة: إمّا بقيامٍ عنـد الصِّبا وإمّا بقُعود عند الكِبَر - أن يُرتَّب فلانٌ فى نيابة قَلعـة حمْص المنصورة إجابةً لسُؤاله فيما سأله: من التّوفُّر على مواصلة الصّلوات، ورَفْع الدّعوات، وجمع ثَوابَي الجهاد والخَلَوات، وتقَضّى باقى العُمر وادِعا، متَنَسِّكًا طائعا، إذا بكى بجواره حتّى النّهرُ العاصى رَقّ عليه فما يعْدَم منـه بُكا.

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام ومما تقدّم.

فليباشر نيابةَ هذه القلعة التى خَبَرُها ومَخْبَرُها، المَلِىّ سماعُها ومَنْظَرُها، المُطِلّة على مراكز الرِّماح المشهوره، ومَهابِّ الرياح: إمّا بغَيْث السِّهام مُمْطِرة، وإمّا بسِهام الغَيْث ممطوره، المجاورة لسَيْف الله «خالد» فهى بإعراب المُجاوَرة مَنْصورةٌ غير مكْسُوره، مُعْتبرًا لأحوالها، مُسْتَدعِيًا لما تحتاج إليه من عُدَدِها وعدد رجالها، مُحَصِّنًا باستدعاء السِّلاح وسِلاح الأدعية الجديرَيْن بأمثالها.

❖

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قلعة جَعْبر، قبل أن تُنْقَل إلى حَلَب، وهى:

رُسم بالأمر الشريف ـ أعلى اللهُ تعالى فى سماء الملك كواكِبَه، ونَصر فى أقطار الأرض كُتُبَه وكتائبَه، وصَرَّف بأوامره العاليةِ كلَّ نائب وفرّق بها كلَّ نائبه ـ أن يُرَتَّب ... ... علمًا بأنه الكافى الذى تُعقد على هِمّته الخناصر، ويُثْنى على تقديم عزائمه القديمُ والمُعاصر، وتقوَى الجهاتُ وتُنْصر باسْمه بعد أن كانت بغير قُوّة ولا ناصر، واعتمادًا على كفاءته النافعه، وشهامته الرائقة الرائعه، ودرايته التى تُضِىءُ بها القلعةُ وتسْمو حتّى يقولَ الأستيقان: ما هذه شُمَيس[1] هذه شمس طالعه.

فليباشر هذه القلعةَ القديمَ أثرُها، الحميدَ خُبْرها وخَبَرها، المُصغَّر[2] تصغيرَ التحبيب والتحسين اسمُها ومَنْظَرُها، المتفرِّدَ سَهْلُها بذَيْل الآفاق فتمسك[3] بسحبها، المُنشدةَ لارتقاب نَهْضة حال من علم ابن منصور بها، راقيًا صَرْحَها، راعيًا بالمصالح

(١) كذا فى الأصل وصوابه شميسة.

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصبيبه فانها هى المصغرة.

(٣) فى الأصل «متمسكا».

سَرْحِها ، مُجْتهِدًا فيما يقضى لقدْره بالرِّفعه ، ولرائد أمَلِه بخِصْب النُّجْعَه ، جاعلًا هذه المنزلةَ أوّلَ دَرَجاته : وحَسْبُه بمنزلةٍ يكونُ أوّلُ دَرجاتِها قُبَّةَ قلعَـه ؛ والله تعالىٰ يُسدِّدُ عَزْمَه وحَزمه ، ويُحْمِدُ فى الكُفَاة خَبَره كما أحمدَ فيهم اسْمَه ؛ بمنّه وكَرَمه ! .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة مَغَارَةِ زَلّايا ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَزيد قِلاعَ الإسـلامِ عَلاءً فى السِّـمَةِ والاسم ، وفى القُوّةِ والجِسْم ، وفى اعتناء يجمع لعقيلتها بين الحُسْن والقِسْم ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لقيامه بواجب الخِدْمه ، ومُلازَمة فَرائِضها المُهِمَّه ، وعَزْمَته الوَفِيَّة فى النَّفس ، الزّائدِ وَصْفُها على الأمس ، العَلِيِّ نَسَبُها وحَسَبُها : فتارةً إلى العُلَىٰ وتارةً إلىٰ الشَّمْس .

فليباشِرْ هـذه القلعةَ التى عَلَتْ بنَفسها محلًّا وسَكَنًا ، وقال سَاكِنُ مَغَارِها لثَـانِى اثنين من حَزْمِه وعَزْمِه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ ، واستعلىٰ ثَنِيَّتَها فأنشَـد : «أنا ابنُ جَلا وطَلّاع الثَّنايا» ، ونادىٰ بُقعتَها : هذا عَزْمى وحَزْمى لا يقال ولا يازَلّايا ، مُجْتَهِدًا فى سَداد أُمورها ، وتَحْصِينها بالمهابة القائمـة مقام سُورِها ؛ مُسْتَجْلِبًا ما يحتاج إليـه وما يُرتَّب من عُدَّه ، مُلازِمًا لُزومَ الخَمْس لأوقات مُباشَرتِهـا لا يُوصَف بالزَّوال بل بطُول المُدَّه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بولاية القُدس ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ... ... لازال يشمَلُ بظِلّه وفَضْله ، ويُجمِّل بإحسانه وعَدْله ، ويُنَقِّلُ شمس الوُلاة من البُرْج الظّاهر إلىٰ مثْله ـ أن يُنْقَل فلانٌ من كذا إلىٰ ولَاية

القُدس الشريف : عِلمًا بكفايته التى تقدّمتْ ، وشَهامتِه التى تحكّمتْ ، وإمامتِه التى سَلِمت فيا سلّمت ؛ وهِمّتِه التى وضحتْ شمسًا فلا تُنْفَس ، وقالتْ لقيامه فى المصالح : ﴿ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ .

فليباشرْ هذه الولايةَ مباشرةً تمحُو بضياء شمسِه ظُلَمًا وظَلاما ، وتقولُ لنارِ الحوادث فى المَشاهِد الجليلة : ﴿ يانَارُ كُونِى بَرْدًا وسَلَاما ﴾ ؛ مُجتهدًا فيما هو بصَـدَدِه ، عارفًا بوُجُوه المصالح حتّى يكونَ السّكَنُ أعْرفَ بشَمْسِ بلَدِه ؛ ناهضًا بأمور الدّيوان جَليها وخَفيِّها ، وعبْءِ المهمات حَافلِها وحَفيِّها ؛ مستزيدًا بالشكر لمبادئ النِّعَم ، قائلًا فى محلّ البَلَدين المُبَاركَين : ماسِرْتُ مِن حَرَمٍ إلّا إلىٰ حَرَم .



وهذه نسخةُ توقيع بولاية غَزَّةَ ، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يُنْشِئُ فى رِياض الإحْسانِ غَرْسا ، ويُحقِّق فى آستحقاق الكُفاة حَدْسا ، ويُقـدِّمُ من لا تَزال الوِلاياتُ تَحمَـد له يَوْمًا وتذكر لقومه أمْسا ـ أن يُرتَّب ... ... لِمَا عُرِفَ من عَزْمه الذى جَرّد منه الآخْتيار والآخْتبار جَميلا ، وكَمَالِ شَخْصه الذى آتّخذه التوفيق فلم يقل : ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ ؛ واعتماد الذى يُصْبِحُ فى المحامد ويُمْسى ، ويُنافس مَرْباهُ فهذا يقول : تَمْرى وهذا يقولُ : غَرْسى .

فليباشرْ هـذه الولايةَ بعَزْمٍ مقتَبلِ الشّبِيبَه ، وحَزْمٍ لايُقْعِدُ الرأْىُ المحيـلُ تَجْرِيدَه فى المصالح وتَجْرِيبَـه ؛ ونَفْع فى المهمّاتِ ورَدْع للفسدين تُحمَـدُ مَوارِدُه ومصادِرُه ، وذِكْرٍ له حَسَنٍ تُلْتقطُ من ساحل الشام جَواهرُه ؛ مُسْتَزيدًا لمـا رَشَحَ له من درجات

الأُمور المُهِـمّه ، مُنَزَّهَ العِرْض عن كلِّ لائِمَـةٍ مُرَجِّحًا تقوى اللهِ تعالىٰ فى كلِّ مُلمَّه ؛ واللهُ تعـالىٰ يُحْمِد فى الخِـدْمة آثارَه ، ويُعِزُّ فى ولاية حربه الساقةَ إذا هانت الحرب على النُّظّاره .

⁂

وهذه نسخةُ توقيعٍ بولايةٍ لَدّ ، لمن اسمه «نجم الدين أيّوب» وهى :

رُسِم بالأمر ــ لا زالتْ نُجومُ أوامِرِه سَعيدَه ، وظِلالُ عوارِفِه مَديدَه ، ومَنازِل الولايات حامِدَةً لمن يُقَدِّمه وطَوالِـعُ أُفقِها حَميدَه ــ أن يُرَتَّب ... ... اعتمادًا علىٰ كَفاءَته التى تُشيِّدُ له مَجْدا ، وتُعقِبُ مَسْعاه حَمْدا ، وتكْفِى من هذه الجهة وأهلها بَلَدًا وقَومًا لُدًّا : لمـا احْتَوىٰ عليه من مُوجِبات الاصطناع ودَواعِيه ، ووَفَّتْ باستقلاله أمَدَ مُساجِلِه ومُنَـاوِيه ، واشْتمَلَ على الخِـلال التى قَضَتْ بتَقْدِيمه ، والأفعالِ التى استدْعَتِ المبالغة فى تَفْخيمه وتَكْريمه ؛ وسَلَكَ من المخالصة ما يُوجِب الاسْتِحقاقَ والاسْتِيجاب ، ويُوصِّلُ حَمِيدَ مَسْعاه إلىٰ بُلوغ الآمال وإدْراكِ المَحابّ .

فلْيباشِرْ هـذه الولايةَ : عامِلًا بتَقْوى اللهِ تعـالىٰ فيما يُسِرُّه ويُعلِنُه ، مُعْتمِدًا فيها غايةَ ما يَسْتطيعُه المُكلَّفُ ونِهايةَ ما يُمْكِنُه ؛ ولْيُسوِّ بين القَوِىِّ من أهلِ هذه الولاية والضَّعيف ، ولا يَجعلْ فى الحقِّ فَرْقًا بين المَشْروف والشَّريف ؛ ويَمُـدَّ علىٰ كافَّتِهم رِواقَ السُّكون والأَمَنَـه ، وليُجْرِهِم فى المَعْدلة على العادة الجميلة الحَسَـنَه ؛ وليأخُذْ فى الأُمور الدِّيوانيَّة بالاجتِهـاد مُراعِيًا فى ذلك حال العِمارَه ، آتيًا من الإحْسان إلى الرَّعية ما يكون للعَدْل شارَه ؛ وافِيًا فى ذلك كلِّه بالمَطْلوب ، صابِرًا علىٰ تكاليف المُهِمّات ولا يُنْكَرُ الصَّبْر لأيُّوب .

* * *

وهـذه نسخةُ توقيع بولاية بَيْسانَ ، لمن لقبـه « شهاب الدين » من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهي :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ شُهُبُ أوقاته سَـعيده ، وسُحُب هِبَاته ساحِبَـةَ الجُود مَديدَه ، وبحورُ نَعْمائه الحقيقيَّةُ كبُحورِ الأعاريضِ المجازيّة : كاملةً مُنْسَرِحَةً مَديدَه ـ أن يستقرّ ... ... اعتمادا على عَزْمه المُنيرِ شِهابُه ، الكثيرِ توقُّدُه في أوقات المهمات وٱلتهابُه ؛ وٱستنادًا إلى كَفاءته التي يشهدُ بها وَلاؤُه في الخدْمة وولايتُه ، وشهامتـه التي يُحزَمُ بهـا في الأمر رأيُه وترفع في الخدْمة ولايتُـه ومهابتُه ؛ وعلمًا بسياسَته التي يقمعُ بها أهـلَ الفساد ، وتكادُ تفخَر بَيْسانُ بفَضْـلها كما فَخَرتْ بـ«فاضِلها» على البلاد .

فلْيَقُمْ في وظيفته على قَدَم ٱجتهاده ، وكَرَم ٱرْتِياده وٱعْتِياده ؛ شافيًا لأحوال أهْل ناحيته من الوَصَب ، مُثَمِّرًا الغلالَ والأموالَ بعزْمٍ قد ٱرتفعَ وٱنتصب ؛ ظاهرًا في الخدمة مجهودُه ، مُلَيِّنًا لحـديد من عصى عليـه في عمله كما اورثَه داوُدُه ؛ والله تعالى يوفّقه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَيْدا ، لمن لقبـه « شجاع الدين » بـ«المجلس العالى» وهي :

رسم بالأمر العالى ـ أنفذه اللهُ في الأقطار ، ونجّح بولاته أيّام الأوطان والأوْطار ، وأجرى بشُكْره سُفُنَ الركائب ورَكائب السُّفن إذا سَـفّ وإذا طار ـ أن يسـتقرّ فلانٌ : ... ... رُكونًا إلى عَزْمه وحَزْمه ، وسُكونًا إلى ٱهتمامه الذى حكّم فيه الآختبار

بعِلمِه، وعلما أنّ للولايات به الانتفاع، ولحصونها الامتناع والارتفاع، وأنّه إذا وَلِيَ رَعَى وإذا أقوى[1] كان أعصم راع، وإذا فكّر فى الرأى ووقَبَ فى المُهِمّ كان نِعْم الشّجاع .

فليباشِرْ ولايةَ عَمَله نَاهضًا بأعبائه، رافعًا بالعَدْل لأرجائه ورَجَائه، حَرِيصًا علىٰ طِيبِ الأخبار المُنتشرَةِ من كافُور صُبْحِه ومِسْكِ مَسائه . وليتفقّد أحوالَ بَرّه وبَحْره، وليتيقّظ لذلك البَرّ وجَهْره، وذلك البَحْر وسرّه، حتّىٰ يتحدّثَ البحْرُ عن عَزْمه ولا حَرَج، ويَسيرَ ذكْرُه كنَسيم الرَّوضِ لاضائعَ الصُّنع ولكن ضَائعُ الأرَج، ويعتَمِدُ مصالحَ النواحِي وسُكّانِها، والأموالِ وديوانِها، والجهاتِ وضُمّانِها، ونُجومِ التقسيطات فى البلدة وتَحرِيرِ ميزانِها، ويَجْمَعْ بين اللّينِ والشّدّةِ بسياسَةٍ لا يخرُجُ بها الرّأْيُ عن إبّانِها، وتَقْوى الله تعالىٰ هى العمدةُ فعليها يَعْتَمِد، وعلىٰ رُكْنِها يَسْتَنِد، حتّىٰ تَجْعلَ له على المصالح أيدا، وحتّى تَثْنِي نحو الثناء عليه عمرًا وزَيْدا، وحتّىٰ تجعلَ له بأسًا فى الأعداءِ يَكِيدُ كَيْدا، وحُسْنَ ذِكْرٍ فى البَلَدِ يَصِيدُ «صَيْدا» .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية قاقُون، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهى :

رُسم بالأمر – لا زال يَنْدُبُ لمصالح الولايات سُيُوفا، ويقدّمُ ظَنًّا فى الكُفَاة يعلم أنّه سَيُوفِىٰ، ويُدْنِي من ثَمرات الإنعام والإرغام لأيدى المُجْتَنِينَ قُطُوفا – أنْ يستقِرّ... ... ... اعتمادًا علىٰ هِمّته السّائِدَه، ودِرَايَتِه السّائِدَه، وأمانَتِه الشّاهِده، وصِفاتِ عزْمِه التى هى فى الولايات «مَعْنًى» وهى «زَائِدَه»، مُجْتهِدًا علىٰ أن يُثْمِر عملَ ولايته فتزْكُو أعمالُه، وتَرِدُ عليه المُهِمّاتُ فتتلقّاها بالكفاءة أفعالُه المعروفةُ وأقوالُه، وتَشْهدُ منه الأحوالُ مَعْنًى بل مَعانِيَ يثبت بها فى الأذهان قَبُولُه وإقبالُه .

(١) أقوى . نزل بالقفر – أعصم – أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال .

✦

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَرخد، من إنشائه، لمن لَقَبُه «جمال الدين» وهى :

رُسم بالأمر أعلاه الله تعالى، وبلّغ بأيّامه الرتبَ وأهْلَها آمالا، وزانَ الولايات بما يُنتج من مُقدِّمة فِعْله وقوْله جمالا ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لأنّه الكافِي الذى عُرفتْ فى المهمّات هِمّتُه، وأُلِفتْ عَزْمَتُه، وأُدِيرَتْ أوصافُه عُقَارًا صَرْخَدِيّةً ولا عجب أن سَرَتْ بالنّواحى خدمتُه؛ والنّاهضُ الذى وَفَّى الولايةَ حَقَّها، وأدّى الأمانةَ وسلَكَ طُرُقَهَا، وأطلعَ فى سَماء الولاياتِ شُهُبَ رأْيِه فحَمَى وزان أُفُقَها.

فليباشِر هذه الولايةَ بعَزْمٍ سَنِيّ، وحَزْمٍ سَرِيّ، ومَهابةٍ تأْخذ للضّعيف من القَوِيّ، ودِيانةٍ تَمْشى من الكفاءة والأمانة على صِراطٍ سَوِيّ، مُثَمِّرًا للمال والغلال، رَاقِمًا لحُلَلِ الذِّكْر بحُسْن الحلال، مُحسِّنًا لذِكْر ولايتِه حتّى يجمعَ لها بالوصْف والنّعت بين الحُسن والجمال، وإيّاه والجُبْنَ عن المهمّات فما كل جُبْنٍ صَرْخَدِيّ مَحْمودُ العاقبة والمآل.



وهذه نسخةُ توقيع بولاية سَلَمِيّة، من إنشائه، كُتب به لـ«شهاب الدين الحجازى» وهى :

رَسم... ... ـ لا زال يُطْلِعُ شُهبَ الوُلاة مُشْرِقَه، ويُنْشِئُ سُحُبَ الإحسانِ مُغْدِقَه، ولا بَرِحتْ أقلامُ علائِمِه كالغُصون بأحسن ثمراتِ النُّوح مُثْمِرةً مُورِقَه ـ أن يُرتَّب... ... ... علمًا أنّه الناهضُ الذى إذا وَلِيَ كَفَى، وإذا طَبَّ الولايةَ المعتلّةَ بتقديم المعرفة شَفَى؛ ورُكونًا إلى عَزْمه الذى أبَى لِشهابه أن يخمُد، وكفاءتِه التى

قضت لاسمه بالعَوْد : فإنَّ العَوْد أحمد، واعتمادًا على سيرته الحسنة السُّمْعة، الحقيقة بالرِّفعة ، وعلى سَطْوَته بالمُفسدين التى حسَّنت أن يُقال فيه : «لقد أوقع الجَحَّاف بالبِشْر وقعة»(١) .

فليباشر هذه الولاية بعزمه المُتوالى، واجتهاد رأيه الذى يُطرِب بارِقُه المُتعالى ؛ جاريًا على عادة سَدَده، مجتهدًا فيما هو بصَدَده ؛ مُسَدَّدًا ـ إن شاء الله ـ فى القَول والعَمَل ، مانعًا لناحيته الأعرابيَّة من تَطرُّق الخَلَل وتَطرُّف الجَلَل ؛ مُصْلِحًا بالتَّدبير عمل مايشهدُ بعزائمه الوفِيَّه ، وهِمَمه الجَليلة الجَليَّه ، وإذا سأل عن شَدِّ الوُلاةِ واحدٌ قيل : سَلْ مِيَّةَ عن سَلْمِيَه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بشَدِّ مُتَحَصِّل قُمامة ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ بسطَ اللهُ تعالى على الأُمَم مهابَتَه وظِلَّه ، وبأسَه وفَضْلَه ، ووَجَّه إليه آمالَ الخَلْق من كلِّ قِبْله ، وأعلى آراءَه التى يقال لعَدْلها : «لقد جُذْتَ حتَّى جُزْتَ فى كلِّ مِلَّه» ـ أن يُرتَّب... ... ... مضافًا لما بيَده ، واستنادًا إلى صحيح خَبَره فى الكفاءة وعُلُوِّ سَنَده ، وارْتيادًا لِهِمَمه التى إن رواها مُسلمٌ عن طَوْعه رواها نَصْرانىٌّ عن تَجلُّده ، وسُكونًا إلى حَرَكَته التى تُحصِّلُ مَالا ، وتَصِلُ إلى مالا ؛ وتستخرِجُ الوَفْرَ من مَكْمَنه ، وتأخذُ الحقَّ [من] قُدَّام يَدَى الماثل ومن خَلْف أُذْنه ؛ وعِلمًا أنَّ مالمتحصل قُمامَةَ مثلُ عَزْمه المختار ، ورِفْقِه الذى يستنزل دَرَّ القصد المِدْرار ، واجتهادِه الذى زَرَعه المستنهِضُونَ فاستوى على سُوقه يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ليَغيظَ بِهِمُ الكُفَّار .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ بشِدَّةٍ ولِينٍ يحصلُ كلٌّ واحدٍ منهما فى مَوْضِعه ومَقامه ، وحَقٍّ مُنيرٍ يجعل سَنْبَتَ نُورٍ كلِّ لياليه وأيامه ، وأمانةٍ مُدِلَّه ، وكفاءةٍ مُظلِّه ؛ وصيانةٍ

(١) صدر بيت للأخطل وتمامه «إلى الله منها المشتكى والمعول» والجحاف اسم رجل والبشر اسم جبل .

تُوجِبُ مَزِيدَ الخير إذًا له ، ومَهابَةٍ إذا أُدخِلَتْ مُسْتَخْرَجَ قُمَامَةَ أصْلحَتْه وجَعلتْ أعِزَّةَ أهْلِها أذِلَّه ؛ لا يَثْنِي هِمَمَه النَّفِيسَه ، ولا يَلْتَفِت - كما يقال - لَتَبْخِيرِ الكَنِيسَه ؛ بل يستعملُ فِراسَـةً تَرُوعُ من تَحمَّلَ عن أداءِ الحقِّ بُهتانا ، ومناقَشَـةً تكْشِفُ عن جبـالِ التَّجَلُّدِ أكْثانا ، ورأْفَةً مع ذلك بالظَّاهِرِى العَجْزِ : ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنهم قِسِّيسِينَ ورُهْبانا ، ومتابعةً للضَّرائِبِ القديمة لا يُصْرف عنها ، وآستخلاصَ ماعلى الرَّأس حتَّىٰ يقال : «ليس تَحْتَ الزُّرْقاءِ أخْضَع منها» ؛ عامِلًا بتَقْوى الله تعالىٰ فإنَّ أهلَ معامَلَته أهلُ ذِمَّه ، مُجتهدًا فى آستحقاق مايترشح له من ولايات الأمور المهمَّه .

الصـــــنف الثـانى

(ممَّـا يكتب لأرباب الوظائف بدمَشْق - تواقيعُ أرباب الوظائف الدِّينية ، وهى علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(مايكتب لمن هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ

(مايُفتتح بـ«الحمـــدُ لله»)

وهذه نسخ تواقيعَ من ذلك :

تَوْقيعٌ بنَظَرِ الحِسْـبَة بالشَّام ، كُتب به للقاضى « نور الدين علىّ بنْ أبى الفرج » بـ«الجناب الكريم» وهو :

الحمدُ لله الذى جعل مقامَ الأولياءِ عليًّا، ورقَّى بهم إلى طُورِ العناية فأشرق نُورُهم سَنِيًّا، ووفّقهم للأمْر بالمعْرُوف فلم يَزَلْ غَيْثُ النَّدَى بهم وَلِيًّا ، وزَنْدُ سُبُلِ الرَّشاد والحكمة وَرِيًّا .

نحمدُه حمدًا كثيرًا طيّبًا زكيًّا ، ونشكره شُكرًا لا يزال غُصْنُه بالزِّيادة جَنِيًّا ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُكَرِّرها بُكْرةً وعَشِيًّا ، ونسلُك بها صراطًا سَوِيًّا ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدًا عبدُه الذى آختاره صَفِيًّا ، وقرّبَه نَجِيًّا ، ورسولُه الذى قام به الحقُّ وأصبح به الباطلُ خَفِيًّا ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً ينال بها المُؤمِنُ يوم العَطَشِ رِيًّا ، ويحوزُ بها فى جَنَّة المأْوَى حُلَلًا وحُلِيًّا ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعــدُ ، فإنَّ أولى ما يَلْزمُ الفِكْرُ [فيه] ويتعيَّن ، ويَتِمُّ النُّجْحُ بحُسْنِ النَّظَرِ فيه ويَتَبيَّن ـ أمْر الحِسْبة الشريفة : فإنَّهــا المَنْصب الذى به صَلاحُ أحوال الرَّعِيَّة ، وقِوامُ إقامَةِ الحُـدود الشَّرعِيَّة ؛ تَسْلك العامَّةُ لمُسْتَوْليه سُبُلَ صَنائعه ذُلُلا ، وتَكْسُو بإتقانهـا أنْواع بضائعها حُلَلا ؛ ويَنْتفِعُ بمعرفتــه الآمِرُ والمأمور ، وتُحاطُ المَعَايِشُ عن غِشْيانِ الغِشِّ من حُرْمته بسُور ؛ وتطمئنُّ القلوبُ بإصــلاح المطاعم وتَهْنَى ، وتقولُ الألْسِنَةُ : شُكْرًا لمن سنَّ هذه السُّنَّة الشَّرِيفةَ وسَنَّى ، وردَع ذَوِى الغِشِّ عن غَوَايَتِهم : فَمَنْ غَشَّنا ليس مِنَّا ؛ لا سِيَّما بدِمَشْقَ فإنَّها شامةُ البلاد المحروسه ، ومَوْطِنُ البركة المأْثورَةِ والبَهْجةِ المأْنُوسه ؛ بلدٌ شاعَ ذِكْرُها فى المغارب والمشارق ، وإنَّ محاسِنَها لن تُقاسَ بغيرها : والجامعُ الفَارق .

وكانَ فلانٌ ممن تَحَـلَّى من عقود المحـامد بجـواهِرِها ، وآرْتدَى من حُلَلِ المآثر بمفاخِرِها ، وعُرِفَ بالنَّهْضة والعَفَاف ، وآتَّصف بجميل المَعْرفة والإنْصاف ، وحَسُنَتْ سِيرتُه فى أحكامه ، وحُمِدَت قواعد تعدّده (١) ونَضَارةُ نظامه .

---

(١) لعلــه "تعهده" .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ــ لا زال يُولِى جميلا ، ويولّى فى الوظائف السنيّة جليلا ــ أنْ يستقرّ المشارُ إليه فى نظر الحِسْبة الشريفة بالشام المحروس ، على عادة مَن تقدّمه فى ذلك ، والقاعدة المستمرّة ، بالمعلوم المستمرّ للوظيفة المذكورة ، إلى آخر وقت : وضعًا للشىء فى محلّه ، وتفويضًا لجميل النّظر إلى أهله .

فليباشر ذلك آمِرًا بالمعروف وناهيا عن المُنكَر ، سالكًا من حُسْن الطريقة ما يُحمد به ويُشكر ، ويَسُرّه حين تُتلى سُوَرُ محاسنِه وتُذْكر ، متفقّدًا أحوالَ العامّة ومَعايِشها فى كلّ آن ، ملتفتا فى أمر ما يُكالُ أو يُوزَنُ إلى قوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ . مُشَمِّرًا عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُستَحَبّة ، مُحترزًا فيما يأمر به : فإنّ الله تعالى لا يَخفَى عليه مِثقالُ حَبّة ؛ ولْينظُرْ فى الدّقيق والجليل ، والكثيرِ والقليل ؛ وليَستكثِر الأخبار ، وليَستعلِم الأسعار ، ولا يَغفُل عن تعاهد السُّوقة آناءَ الليل وأطرافَ النّهار ؛ وليُلاحِظ أمر السّكّة السلطانية بإصلاح العِيار ، وضَبْط أحوالِ النُّقودِ بمقدار ؛ وليُقِمْ من خَدَمَتِه رَقيبًا على من آتّهم فى صَنْعته أو آستراب . وليُبالِغْ فى النّظر فى أمر المآكل والمشارب فإنّ أكثرَ الدّاء من الطعام والشّراب ؛ وليزجُرْ بتأديبه مَن آفترى ، أو تلقّى الرُّكبانَ أو غدا فى الأقوات مُحتكِرا ؛ وليعلَمْ أنّه قُلّد أمرَ هذه الوظيفةِ المباركةِ : فلْيَختَرْ من يَستَتِيب ، وليُبْصِرْ كيف يسلُك برعايته مَن حكم عليه فما يَلفِظُ من قولٍ إلّا لَدَيه رَقيب ؛ والوصايا كثيرةٌ وأصلُها التقوى التى هى أجَلّ ما يَقتَنِى المؤمنُ ويَكتَسِب ، وأجدرُ بالزّيادة : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . والله تعالى يُديم علاه ، ويتولاه فيما تولّاه .

*
* *

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الجامع الأُموىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدّين بن نُباتة، كُتب به للقاضى «عماد الدين بن الشيرازى» فى الدولة الصالحية «صالح بن الناصر محمد» بدها لجناب الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أَذِنَ لبيوته أنْ تُرفَع فرفَع عِمادَها، وأعاد أَحسنَها إلىٰ نظر من صَرَّف أمورَها بما حَسُن وصَرَفها عمّا دَهىٰ، وأحيا الآثارَ الأُمَويّةَ حتّىٰ غَدتْ كالهاشمية تدعو أجوادَها وبُجَّادَها، وأنجزَ وَعدَ أهلِها بمن أشارتْ إلىٰ مُباشرته أعلامُ أعلامِ المنابر بالأصابع ونَصّت المآذنُ أجيادَها .

نحمدُه علىٰ ماهَيّأ من الفوائد، وَهنّأ من العوائد، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يقومُ بها الخطابُ شاهدًا ويقومُ بها الخُطباءُ فى المَشاهد، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ الجوامعَ من الكَلِم وجُعلتْ له الأرضُ من المساجد، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمَروا بُيوتَ العبادات بهدايته، وظَهروا فى مَجال الجَمْع وَمجال الجموع تحتَ رايته، صلاةً متصلة السَّير كالسَّيل، مُسْبَلةَ الغَمام كالذَّيل، واضحةً كَرَدْع الخَلوق لدُلُوك الشَّمس فائحةً كفَتيت المِسْك إلىٰ غَسَق اللَّيل .

وبعدُ، فإنّ أَولَى الأمور الدِّينية بتَقديم الاهتمام، وتَقرير الاعتزاء إلىٰ الاعتزام، وتَسمير ساعِد الرّأْىِ وزَهَراتُه على الأكمام - أمرٌ تكونُ إقامةُ الصَّلَوات أحَدَ أركانه، وتَدبيرُ المصالح مُشيرًا إلىٰ عُلُوّ شانه، وأرزاقُ العُلماء والصُّلَحاء تُسْتَدَرُّ من هَتَّاله وهَتّانه .

وكان الجامعُ الأمَوِىّ بدمشق المحروسة لهذه الأركان بمنزلة الأسّ الرابع تمكينه، والفرع الشامخ فى وجه السحاب مِرْتبته ، وبُنْيَةَ زمان بنى أُميـة الذين عفا شَرَفُ مفاخرهم وما عفا شرفُه ونُحُره ، ووكْر الإسلام الذى مضى لُبَدُ أمثاله وما بقى إلاّ نسر السماء ونسره ؛ ذو المرأى الشارح والفضـل المشروح ، والحُسْن الذى إن تغـالى فى وصـف الجوامع قومٌ قيـل :. بابُ الزيادة مفتوح ؛ تفخر به دمشـقُ وحُقّ لهـا على كلّ مِصْر أن تفخر ، وتبعثُ نظراتُ حُسْنه الفخرَ من حَمَلة فُصوص الترخيم إلى الأسودِ والأحمر ؛ يَحْمَـدُ المجاورُ به مَغْنـاه وغِناه ، ويَسَعُ أربابَ العِـلْم والمقاصـد نادِيه ونَدَاه ، ويُطالِـعُ المِسْكُ سُطورَ مياهِه المتجدّدة فأوّلُ ما يُقرأ من تنْبِيـه عَزْمِه بابُ الميـاه ؛ وقد عُهِـد أنْ يتولّى نظرَه كلّ سَـنِىّ المفاخر، سَرِىّ المآثر، كريمِ الفَرْع والأصْل، ماضِى العزم كالنّصْل، حائزٍ من أقلامه أمَدَ العلياء وقَصَبَ الخَصْل .

ولذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال وجهُ الفضـل بدولته الشريفـة واضحا، وميزانُ العَـدْل والإحسان راجحا ، ولا زال فى كَنَف مَن منّ به على الدِّين والدنيا وآتاهما صالحـا ـ أن يُفوّض إلى فلان نظرُ الجامع الأمَوِىّ المذكور : لما عُرِف من أنه الرئيسُ الذى ما سَاد سُدَى ، والكاملُ الذى إذا آنس [سَارٍ] نارَ فكرته وجد على النار هُدَى ؛ وأنّه باشَر نظرَ هذا الجامع قديمًا فجمّلَه ، ورَصَد سناه فكمّله ، واستشهد فى مَحْضَر ديوانه على النّزاهة أقلامَه المُعَـدَّلَه ، وتدبيرَه المَعَدَّ له ؛ وكَثّر أوقافَه وكانت قد اضمحلّت ، وشَـيّد عمائرَه وكانت قد استقلّت ، وملأ حواصِـلَه وكانت أقلامُ المُكْتَسِبة تُنشد : «أسائلُها أىّ المَوَاطِن حَلّت» ؛ ولـمّا ألِفَ هذا الجامعُ المعمورُ من عَواطِفه ، وعَرَف من عَوارِفه ، وشَهِد من جُلوسِـه لمصالح وقْفه أحسنَ الله مكافأة مَجالِسه ومَواقِفه ، فأثبت فى صَدْر المحافل أنّ الله تعالى قد رزقه من الفضل جَنِيباً

وكتب له من شرف الاكتساب والانتساب حديثا وقديما ؛ وألقى الى يده قلم كفاءة وأمانة كان كرمها للآملين خصيبا وكان قلمها للخائنين خصيما ؛ كم وفر به المصالح فوفى، وكم جمع بهمته المحاولة مالا يجهز به من جند الدعاء صفا؛ كم سر بمناقبه سراة سلف مامنهم إلا جواد لا يرضى فى سبق المكارم بحاتمه، وكاتب يكبر عن قول الواصف : إن ياقوتا فى فص خاتمه ؛ ورئيس هو أجل ما أهدت شيراز الى دمشق من عالى طراز الفضل وعالمه .

فليباشر مافوض إليه بعزم لاتفل مضاربه، ورأى لاتأفل كواكبه، ومعدن وفاء بالمنصب لا تبرح لجناة الخيانة مهالكه وجناة الجنان مطالبه ؛ ناظرا فى حسن وظيفتها باجتهاد لايمل من النظر، مثمرا لأوقافها بغصن قلمه الذى لاينكر لأصله الصائب أطايب الثمر، ملاحظا لمبانى هذا الجامع بسعادته : وإن السعادة لتلحظ الحجر، صارفا لذوى الاستحقاق مستحقهم كما عهدوا من إمام براعته المنتظر، مجتهدا على أن يرضى الوظيفة والقوم ، معينا عذوى أنامله الخمس على عددها من فريضة الليلة واليوم ؛ عالما أن الله تعالى قد أحيا هذا الديوان فإنه كما علم أصل فى بابه، آمرا بما يقترح لنظام هذا الديوان وكتابه ، منتقدا حال من إذا عمر دواة فى وقف كانت سببا لعمرانه أو سببا ـ والعياذ بالله تعالى ـ لخرابه ، مطالبا من ظن أن حسابه يهمل فى دهر هذه المباشرة «فكان حساب الدهر غير حسابه» ؛ متخيرا من الكفاة كل مأثور الفضيله ، ومن الأمناء كل مأمون الرذيله ، ومن القوام كل من لايقعد عن الواجب، ومن الوقادين كل من لا يعاب بطول الفتيله ، جاعلا تقوى الله تعالى فى كل ما يأتى ويذر سائقه إلى الفوز ودليله ؛ والله تعالى يمده بالسداد، ويصل مفاخره بالسند ويحرس شرف بيته من السناد، ويجعل كل منصب كريم باسمه وقلمه كما قال الأول : «رفيع العماد طويل النجاد» .

***

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر مدرسة الشيخ أبى عمر، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمدُ لله الذى عَمَر عَهْد التُّقَىٰ بتقيِّه ، وأقرّ نظَرَه بمشاهدة أبيض العِرْض نَقيِّه ، وأخصب مَنازِلُ الأولياءِ بمن ينُوب تَثْمِيرُه وتَدْبيرُه عن الغَيْث مَنابَ وليِّه ، ومَن إذا شَهِد مقامُ الزُّهّاد بمعْرُوفه شَهِد سَدادُ العَزْم بسَرِيِّه .

نحمَـدُه علىٰ جَلِيِّ اللُّطْف وخَفِيِّه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ وافِى الحقِّ و فِيِّه ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه أكْرِمْ بعَبْده ونَبِيِّه ، ورَسوله وصَفِيِّه ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً يمْزُجُ أرَجُها كافُورَ صباح النهار بمِسْك عَشِـــيِّه .

وبعدُ ، فخيرُ النظر ما كان به الثّوابُ مأمُولا ، والعمَلُ مَقْبولا ، والآخرةُ للناهِض فيه خيرا من الأُولىٰ ، وتَخَيُّرُ الأكْفاءِ لمناصبه الدِّينية سَبَبًا لخير الدّارَيْن مَوْصُولا .

ولـمّا كانت المدرسة الصالحية بجَبَل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبى عمر؛ رضى الله عنه وأرضاه، وسَقَىٰ سَبَلُ الغيث آثارَه الطاهِرَةَ وثَراه ؛ مما يتعيَّن فى مصالحها حُسْنُ النّظر ، و يتبيَّن فى القيام بأمْرِها فَضْـلُ الآراء والفِكَر؛ إذْ هى زاوية الخـير النافعه ، ومدرســةُ الذكر الجامعه ، وعُشُّ القُرآن المترنِّمـةُ أطْيارُه بخَفَقان القُلُوب الخاشعه ؛ وصُفَّةُ الفقراءِ الذين لا يسألُون النّاس إلحافا ، والأصْفياءِ من الطَّمَع الذين لا يتقاضَوْن الدهر إنصافا و إن صَافىٰ؛ ومُرتَكَضُ سوابق الأعمال والأقوال، ومَقَرّ

القُرَّاء والقِراءَةِ علىٰ مَمَرِّ الليالى الطوال، ومَعْدِنُ التِّلاوَةِ المأْثُور غَنَاؤُها فى ذلك الجَبَل وما كُلُّ المعادِنِ ولا كُلُّ الجبال؛ والبِنْيَةُ للهِ وتَحتاجُ مَن ينظرُ بنُور اللهِ فى وَقْفِها، ويحفظُ مَسالكَ جَمْعِها وصَرْفِها، ويُنَمِّى حالَ دِرْهَمِها بتَدْبيرِهِ الوَافِى : فرُبَّما أبقَتْها الأحوالُ منه علىٰ نِصْفِها .

وكان فلانٌ ممَّن لحَظَ أُمورَها علىٰ بُعْـد فشُغِفَ الملْحُوظُ باللَّاحِظ ، وحَفِظَها علىٰ نَأْيٍ فكأنَّما رَوتْ بالإجَازة عن الحافظ؛ وأدارَ عليها من رَشَفَاتِ قلمه نَغْبةَ السَّاقِى، وأنهلها شَرْبةً مضىٰ بهـا ما مضىٰ مِن تَعدُّد المـال : وفى الجرائد باقٍ يطلبُ البَاقِى؛ وسأل أهلُها بعد ذلك ملازَمَتَه للنَّظر فلَزِمُوا، ورَفَعُوا قِصَصَهم فى طَلَبه لهذه الوظيفة فجَزَمُوا؛ وكَيْف لا؟ وهو نِعْم الناظِرُ والإنسان، وفى مصالح القَوْل والعَمَل ذُو اليَدَيْنِ واللِّسان، وذُو العزائم التى تَقَيَّدتْ فى حُبِّه الرُّتَبُ: "ومَنْ وَجدَ الإحْسَان"؛ والمتَقدِّمُ فِعلُه ورأْيُه فى العاجل والآجل ، والمأْمونـ الذى يُعزىٰ إلىٰ عقيلة نسبة الرشيد ولا عَجَب أنْ يُعزَى المأْمونُ إلىٰ مَرَاجل[1]، كَمْ جَرتْ ألْسِنَةُ الأَوْقاف بأوصافه ، وكَمْ رَوَى الجامِعُ الصحيحُ خبرًا عن مُسَلَّم عَفافه، وكَمْ جدَّد لِبنائه زُخْرُفًا بعدَ ما كاد تَادِبُ الرُّسومِ يَقِفُ علىٰ أحْقافِه؛ كَمْ وَفَّر على الأَيْتام ميراثَ وَفْرِها ، وكَمْ قال اختيارُ الملوك البَاقِيـة : «لأشْكرَنَّك ماحَييتُ» فقال مَاضِى الملُوكِ ذَوِى الأوْقاف : «ولَتَشْكُرَنَّك أعْظُمى فى قَبْرِها» ـ فاقتضَى الرأْىُ أنْ يجابَ فى طَلَبه المُهِمِّ سؤالُ القَوْم، وأن يتَّصلَ أمْسُ الإقبال باليَوْم ؛ وأن تَبْلُغَ هذه الوظيفةُ أمَلَها فيه بعد مامَضتْ عليها من الدَّهر مَلاوَه ، وهذه المدرسةُ التى لولا تَدَارُكُه لكانتْ كما قال الخُزَاعِىُّ : «مَدَارِسُ آيات خَلَتْ من تِلاوَه» . .

---

(١) يشير إلى المأمون بن هرون الرشيد العباسى وأمه مراجل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يُراعى مصالح المؤمنين ـ أن يفوَّض إليه النَّظرُ على هذه المدرسة المعموره، وأوقافها المبروره، إجابةً لسؤال مَن فيها مِن جماعة الفُقراء ورَغبتِهم فيه، وآرتقابِهم لعزْمه الذى إذا نَظَر حالَها الأوّل تَلا فيه تَلافيه؛ على أنْ يتَّبعَ فى أمْرِها شَرْطَ الواقِف برأيٍ غيرِ قاعِد، وإن كان لايزيد فيها على أربعمائةِ نَفَرٍ إلّا أن يَزيدَ رَيْعُ الوَقْفِ وهو ـ إن شاء الله ـ ببرَكَته وهِمَّتِه زائد.

فليُباشِرْ ما فُوّض إليه مباشرةَ مَن إذا بَدَأ أعاد، وإذا دُعِيَ لمثل هذا الحال الضَّعيف طَبَّ وعَاد، مثمِرا لِمالها ـ على عادة غُصْنِ قَلَمِه الأخْضَر ـ أثمارا، مُسْتخلِصًا للبَواقِي من أرْبابها التى تَنْهبُ العينَ وتدَّعى لفتَراتها آنكسارا؛ قائلًا فى حال هذه المدرسة بالعَطْف، مُساوِيًا فى المُواسَاةِ بين فُقرائها عند المِيزانِ والصَّرْف، نَازِلًا بنُور بِشْره ووُدِّه بينهم منازِلَ القَلْبِ والطَّرْف؛ مُجهِّزًا لجَيْش عُسْرَتِهم فإنّهم جمع للتّلاوة والصلوات، مُتَطلِّعًا لخبَرِهم فإنّهم أجْنادُ صُفُوفِ الأسْحارِ وسلاحُهم الدَّعوات؛ وتَقْوى اللهِ تعالى مُشْتَقٌّ منها آسْمُه فلتَكُنْ شَقِيقَةَ نفْسِه فى الخَلَوات؛ والله تعالى يحفظُ عليه حَظًّا نَفِيسا، وقَدْرًا للنجوم جَلِيسا، ويُحْيِى به مَيِّتَ الوظائف حتّى يقالَ: أسُلَيمانُ أنت أم عِيسى؟.

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بخَطابة الجامع الأُمَوِيّ، من إنشاء آبن نُباتةَ، كُتِب به باستمرار القاضى تاج الدين «بالجناب العالى» وهى :

الحمدُ للهِ الذى رفع للمنابِرِ رأسًا باستِقرار تاجِها، وجمع لصُدُور المحاريب شَمْلًا بعوائد آبتهاجِها، وزَيَّنَ مواقعَ النِّعم بالتَّكْرارِ كما تُزانُ لآلئُ النِّظامِ بازْدِواجِها، وبيَّن مطالِعَ الفَرَجِ بعدَ الغَمِّ: وما الدَّهْرُ إلّا لَيْلُ غُمَّةٍ ثم صُبْحُ آنْفِراجِها .

نحمده على معاد الآمال ومعاجها ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً تمشى البصائرُ إلى الحقّ بسراجها ، ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسولُه القائمُ على المنابر لمداواة الفُهُوم وعلاجها ، ومُداراة الخُصوم وحِجاجها ، القائل له تأديبُ ربّه : (وٱصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلَّا بالله) آيةٌ يَسْرِى الفَطِنُ على مِنهاجها ، صلّى الله عليه وعلى آله وصحْبِه بُحُورِ النِّعَم والنِّقَم عَذْبِها وأُجاجِها ، وبُدُورِ مساجِدِ التُّقَى ومَشاهِدِ الوَغَى عند عَجاجِ لَيْلِها ولَيْلِ عَجاجِها ، صلاةً كصَلاتِهم آمنةً من خِداجِها ، ما مدّتْ نَفَحاتُ الروضِ إلى مخالطة سيرهم يدَ ٱحتياجِها ، وما زَجَتْ معاليهم النُّجومَ فحُسْنَ بكأس الثُّرَيَّا شرفُ ٱمْتِزاجِها .

وبعدُ ، فإنّ أولى الناس باستقرار مَناصِب الدِّينِ العَريقَه ، وٱستمرارِ عُلُوّ الدّرجاتِ : إمّا من المراتب مجازًا وإمّا من المنابر حقيقَه ، وٱستِمْطارِ الوظائفِ بعيادة فَضْله ولا سيَّما أعوادُ الخَطابَه ، وٱستِبصارِها بلَفْظه ولا سيّما إذا سُلِّمت الرايةُ العباسيّةُ من نُطْقه لعَرَابَه — مَن دَرَجَ من عُشّ فُروعها خافقًا عليه جَناحا عَلَمَيْه ، وصَعِد إلى عَرْشها مُقَبَّلةً بنَظَرات الجُفونِ المتسامية آثارُ قَدَمَيْه ، وأعرقَ نَسَبُه فى مَوْطِنِ مكانها المَكِين ، وبَلَغ مقامُه مقامَ سَلَفِه أربعين سنةً فى الطُّلوع بأفقها المُبِين ، وقال ٱستحقاقُ ميراثِه : "وماذا تَدْرِى الخُطَباءُ[1] مِنِّى" * "وقد جاوَزْتُ" بمقام السَّلَف "حَدَّ الأربعين" ؛ ومَن إذا سُمِعتْ خَطابَتُه قال الحَفْل : لا فُضَّ فُوه ، ولا عُدِمَ البيتُ ولا بَنُوه ، ومن إذا طلَع دَرَجَ المِنبَرِ قال المُسْتَجْلُون لسَناه : أهلَّ البَدْرُ؟ قيل لهم : أخوه ؛ ومَن إذا قام فَرِيدًا عُدَّ بألْفٍ من فرائد الرجال تُنْظَم ، وإذا أقبَلَ فى سَوادِ طَيْلَسانه واحدًا قيل : جاءَ السَّوادُ الأعْظم .

(١) الرواية الشعراء وهو تثريب لسحيم الرياحى

ولما كان فلانٌ هو معنىٰ هذه الإشاره ، وفحوىٰ هذه العباره، وصَدْر هذا التصدير : ومَن سِواهُ أحقُّ بصفات الصّداره؟ ، ومن إذا ضُرب المَثَلُ بالخطابة النُّباتيّة فى حلَب قال لخطابته بدمَشْق : «إيّاكِ أعْنِي فاسمَعِي ياجاره»، ومن نَشَأ فى محلِّ نخار طيب المَعاقِد ، ومَن وَضع رِجْلَه على المنابر ومَدّ عَزْمه إلى الفَراقِد، ومن شمّر فى أوائِل عُمْره إلىٰ العَلْياء وَحِيدًا وخلّف دُونَها من أنْداده ألْف راقد ؛ ومَن إذا صَعِد لخَطابَة أنْشدَ الحَفَدَةُ :

ولمّا رَأيتُ الناسَ دُون محلّه * تيقّنْتُ أنّ الدّهْرَ للنّاس نَاقِد

وكانت خطابةُ[(1)] الجامعِ الأُمَويّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدِمَشْق المحروسة هو الذى كلُّ بَنانٍ إلىٰ حُسْنه يُشير، وكلُّ ذِى مَذْهَبٍ إذا عايَن تصْنيفَ وَضْعه قال هذا لفقْه المحاسن هو الجامعُ الكَبِير، ميزابُهُ (؟) المسلم لرشده، المُعْلَم بطِرَازَى نَسَبه ورشده، المقدّم ليَد نصرته سَيْف خطابة لايخرجُ بيَدِ الاَسْتِحقاقِ عن حَدِّه، تكاد المنابرُ تعُود للنّشأة الأُولىٰ طَرَبًا لسَجْع بيانِه ، يُسْهِب ويقولُ الناس لَيْته لا اَخْتصر، ويودُّونَ لو لَبِسَ كلَّ يومٍ سَوادَ أُهبَته وزِيدَ فيه منهم سَوادُ القَلْب والبَصر؛ وعَارضَهُ من العظماءِ الكُفاة مَن نَوىٰ بَدَلًا فأبىٰ حُنُوُّ الدّولة إلا عَطْفا ، ونَازلَه واردٌ من القضَاء ولكن أنْزل اللهُ عليه مع القضَاء لُطْفا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ علىٰ عادته فى خَطابة الجامع المذكور، وما يتعلق بذلك : من تَدْرِيس وتَصْدِير، وتقْرِير وتقْدير، وتأْثِيل وتأثير؛ ومحكومٍ بالتفويض إليه وتُحكَّم، ومَرسومٍ لا يُغيَّر عليه ما رُسِم به وما يُرسَم؛ وأن يُمتّع دليلُ

(1) الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولما كان فلان هو معنى الخ وكان الجامع الأموى هو الذى الخ تعين أنه المسلم ليده .

الاعتراض ويُدفع، ويُكَفّ حتّى تتصل العنايةُ بهذا البيْت الذى هو من بيوتٍ أذِن الله أن تُرفَع؛ وحتّى يُعلَم أنّ قوماً أحسنوا صُحْبة الدُّوَل فسعدُوا، ونبّهوا عهود الخدمة لأعقابهم وجَدّوا، وحتّى يقولَ هـذا النّجلَ الظافرُ بعد آبائه وأخيه : لَيْتَ أشياخى ببَدْرٍ شَهِدُوا .

فليعُدْ حبيبٌ مَنْصِبه القديم ، ولْيَقُمْ إلى تشنيف الأسماع من نَثِير لَفْظه بأبهى من العقْد النظيم ، ولْيفُكّ أسْرَى القُلوب بروائب إشارته : فإنّه «الفاضل عبدُ الرّحيم» ، ولْيُبكِ العُيونَ بوعْظه وإنْ أقرّها بمُشاهَدَته ، ولْيَحرِصْ على فَخْر الدولة الشريفة به كما فَخَر سَيْفُ الدّولة بآبن نُبَاتَه .

ووصايا هذه الرُّتبة متشعّبةٌ وهو على كلّ حالٍ أدرَبُ وأدْرَى بهـا ، وما آستقرّت على قَبْض سيوفها يَدُه إلّا ورجَعت الحُقوقُ إلى نِصابها ؛ وكذلك ما هو معْدوقٌ بوظائفه : من مَدارس عُلُوم ، ومجالِس نَظَرٍ طالمـا نظرَ فى كُتُبها وهو الصحيحُ النَّظرةَ فى النّجوم ــ لا يحتاجُ فيها إلى مُطالعة الوصايا فإنّه من كلّ أبوابها دَخَل ، ولا يمُرّ بها على أذُنه فَمُ المُبلِّغ فإنّها من فِيه أحْلَى ومن تَسويغ فِيه أحَلّ ؛ ولكنّ التّذْكارَ بتقوى الله تعالى فيما يأتِى ويَذَرُ أُسّ جَليل ، ووجْهٌ تتفاضَلُ وُجُوه الألفاظ من ذِكْره على لَفْظ جَميل ، وألفاظُ الخَطيبِ المُتّقِى إذا وصلتْ من القَلْب إلى القَلْبِ وفَتْ برَىِّ الغَليل ؛ والله تعالى يُمدّه بألطافه ، ويُجرِيه على عوائد إسْعاده وإسْعافه ، ويُروِى بصوابِ كَلِمه الأسْماع وبصَوْب الغَمام عُهُودَ أسْلافه .

* *
*

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتدْريس المَدْرَسة المسرورية بدمشْقَ ، من إنشاء الشّيخ صلاح الدين الصّفَدِىّ ، كُتب به للشيخ « تقِىّ الدين السُّبكى » بـ « المقرّ الكريم » وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تَقِىَّ الدِّينِ عَلِيًّا، وأوْجده فَرْدًا فى هـذا الملإ فكان بكلِّ علمٍ مَلِيًّا، وأظهر فَضْلَه الجليلَ فكان كالصَّباح جَلِيًّا .

نحمدُه على نِعَمِه التى تكاثرتْ فانْجلَت الغمائم، وتوفَّرتِ الألْسنَةُ على حَمْدِه فتعلَّمتْ أسْجاعَها الحمائم. وتأثَّرت بمُوافِقِها الأحوالُ فأنْهلت زَهْرُ الخمائل فى الكمائم . ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا شُبهةَ تُعكِّر ما صَفَا من لُجَّتِها، ولا رِيبةَ تُوعِّر ما تَسَهَّلَ من مَحَجَّتِها ، ولا ظُلْمَـةَ باطلٍ تُكدِّر ما أنارَ من حُجَّتِها . ونشهدُ أنَّ سـيِّدَنا محمَّدًا عبدُه ورسـولُه الذى جُمعتْ فيه مكارمُ الأخلاق ، وتَفَرَّد بمزايا منهـا أنَّه حَبِيبُ الخَـلَّاق ، وشَارَكَ الأنبياءَ فى مُعْجِزاتِهـم وزاد عليهـم بمـا أُتِيحَ له من خَمْسٍ لم يعْطَهُنَّ غيرُه منهم على الإطْلاق . صـلَّى اللهُ عليـه وعلى آله وصَحْبه الذين تفقَّهوا فى الدِّين ، وحازُوا الأُجورَ لمَّـا جَرَوْا إلى جَزِّ الغَلاصِم من الْمُلْحِدين، وأنْزلُوا لمَّـا نَازلُوا أبْطالَ الباطلِ والمُعْتَلِين من المُعْتَدِين ، صلاةً يفُوحُ نَسِيمُ رَيَّاها المتأرِّج ، ويلُوحُ وَسِيمُ مُحَيَّاها المتضَرِّج ، ما فَرَّجَ العلماءُ مَضايِقَ الجدالِ فى الدُّروس ، وقَبَّلتْ ثُغورُ الأقلامِ وَجَناتِ الطُّروس ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلى يوم الدِّين .

وبعـدُ ، فإنَّ المـدارِسَ ـ عَمَرها اللهُ تعالى بالعلماء ـ لِوَاقِفِيها شُروط، ولأهْلها هِمَمٌ أنْزَلُهـا بالنجوم مَنُوط ، يَغُوصُونَ بُحُورَ البُحوثِ فى طَلَبِ اللآلِى ، ويقْطَعُون ظُلَلَ الظَّلامِ بالسَّهرِ فى حُبِّ المَعالى ، سِيَّما المدرسةُ المسْرُورِيَّةُ : فإنَّ واقفَها ـ أثابَه الله تعالى ـ شَرطَ فى المُدَرِّس بها شُروطًا قَلَّ من يُقِلُّها ، أو يَتَحلَّى بعُقُودها أو يَحُلُّها؛ وكان مَفْرِقُها قد تَحـلَّى بتَاجٍ مُجَوْهَر ، ومُعْلَقها قد ضَمَّ منه فَاضِلًا تَمَهَّدتْ به قواعدُ المَذْهَبِ لمَّـا تمهَّر ، فأعرضَ عنها ، ونَفَض يَدَه منها ، رَغْبةً فى الإقبال على شأنه ، وانْقطاعًا إلى مَالكِ الأمْرِ ودَيَّانه ، فخَلا رَبْعُها مِنْ أُنْسِه ، وكادتْ تكون طَلَلًا بعدَ دَرْسه .

وكان فلانٌ ـ أسبغ الله ظلّه ـ قد وافق بعض ما فيه شرطُ الواقف ؛ وشهد بنشر علومه البادى والعاكف ، وطاف بكعبة فوائده كلُّ طائف ، ينصرف عنه باللطائف ؛ أمّا "التفسير" فإنّه فيه آيه ، وأمّا "الحديث" فإنه الرحلة فى الرواية والدرايه ؛ وأمّا "الأصول" فإنه زار به «الرازى» حتى اختفى ، وأمّا "الفقه" فلو شاء أملى فى كلّ مسألة منه مصنّفا ؛ وأمّا "الخلاف" فقد وقع الاتفاق على أنه شيخ المذاهب ، وأمّا "العربية" فـ«الفارسىّ» يعترف له فيها بالغرائب ؛ إلى غير ذلك من العلوم التى هو لها حامل الرّايه ، وله بالتّدقيق فيها أتمُّ عنايه ، وإذا كان أهل كلّ علم فى المبادى كان هو فى الغايه .

فلذلك رسم بالأمر العالى ـ أعلاه الله تعالى ـ أن يفوّض إليه كذا وكذا : وضعًا للشىء فى محلّه ، ومنعًا لتاريخ ولاية غيره أن يفجأ فى غير مستهلّه ؛ فالآن أمسى الواقف مسرورًا على الحقيقه ، والآن جرى الخلافُ فيها على أحسن طريقه ؛ وهو ـ أسبغ الله تعالى ظلّه ـ أجلّ خطرًا من أن يذكّر بشىء من الوصايا ، وأعظم قدرًا من أن تدلّ المعيّنة على نكتها الخفايا ؛ لأنه بركة الإسلام ، وعلّامة الأعلام ، وأوحد المجتهدين والسّلام ، والله تعالى يمتّع المسلمين ببقائه ، ويملى درجات ارتقائه ؛ والخطّ الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه ، حجة فى ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرسة الناصرية الجوانية ، من إنشاء الصّلاح الصّفدى أيضا ، كتب به للقاضى ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السّرّ يومئذ بالشام ، حين عاد إلى تدريسها بعد انفصاله عنه ، بـ«المقرّ الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى بَدَأ النِّعم وأعادها ، وأفاءَ المِنَن وأفادَها ، وزَان المناصبَ السَّنِيَّةَ بمن يَلِيها وزادَها ، وشادَ عِمادَ المَعالى بأربابها وصانَها عمَّا دَهىٰ .

نَحمَده علىٰ نِعَمِه التى بدأتْ بالمعروف وتَمَّتْ ، وخَصَّصتْ بالإحسان وعَمَّمتْ ، وبَرَّأتْ من النَّقائِص وسَلَّمتْ ، وفَلَّتْ بالألطاف الخفِيَّة صَوارِمَ الحوادث وثَلَّمتْ . ونشهـدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُضىءُ بهـا الحَنادِس ، وتَزْكُو بأنوائها مَنابِتُ الإيمـان والمَغارِس ، وتَسْـمُو بأقْتنائها إلىٰ عِلِّيِّينَ النفوسُ النَّفائس ، ويُرْغِمُ المؤمنون بإعلائها من الكُفَّار المَعاطِس؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى تَمَّم للناس مكارِمَ الأخلاق، وأخجلَ بجُود كَفِّه الفَيَّاض صَوْبَ الغَيْث الدَّفَّاق، وفَضَح البَدْر اللَّيَاحَ فى الدُّجىٰ بنُورِ جَبِينِه البَرَّاق ، وتَقدَّم النَّبيين والمُرْسَـلين فى حَلْبَة الشَّرف علىٰ جَوَادِ فَضْـله السَّبَّاق ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه أعْلىٰ مَن نَصَبُوا للهُدىٰ أعْلاما ، وأرْقىٰ من أصبح العِلْمُ لفَضْلِهم الباهِرِ رَقَّاما ، وأحْلىٰ من كان الزمانُ بوُجودِهم وجُودهم للعُفَاة أحْلاما ، وأقوىٰ من كان الإيمـان بهم إذا آسْتَنْجدَ على الكُفْر أقْواما ، صلاةً لا ينْفَدُ لهـا أمد ، ولا يَفْنىٰ لهـا مَدَد ، ما شَبَّ بارِقٌ ونَجَد ، وشَفىٰ الغَمامُ طَرْف زَهْرٍ من الرَّمد ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعدُ ، فإنَّ مدارِسَ العِلْم الشريف لها الذِّكْر الخالد ، والشَّرفُ الطَّارِفُ والتَّالِد ؛ بها تَتَبيَّنُ فَوَارِسُ الجِلادِ فى مَضايِق الجِدَال ، وتتَجلَّىٰ بُدُورُ الكلام فى مَطالِع الكَمَال ، وتَبْدُو شُموسُ الجمال فيما لها من فَسِيح المجال ؛ والمدْرسةُ الناصرية ــ أثاب اللهُ تعالىٰ وَاقِفَها ــ هى الواسـطةُ فى عُقودها ، والدُّرَّةُ الثَّمِينة بلا كُفْءٍ لهـا بين قِيَمِ نُقُودِها ؛ قد تَدبَّجَ فيهـا البِناء ، وتأرَّج عليها الثَّناء ، وتَخَـرَّج عنهـا الحُسْنُ فإنَّ له بها مَزِيدَ آعتِناء .

وكان المقرُّ الفلانىُّ قد نَفَض يَدَه من عِنانِها، ورَفَض عن آختيار بهاء جِنانِها، وثَنَى طَلِبَتَه عن مُجاوَرتِها، ورَمَى أُمْنِيَّته من مُجاوَرتِها؛ فساءَ مَن بها من أهلِ العِلْمِ فِراقُه، وأَوحَشَهم وجْهُــه الذى أخجَلَ البُــدورَ رَوْنَقُه والبَحْرَ آندِفاقُه، وفقَدوا مكارِمه التى ما سمع «السَّمْعانِىُّ» بمِثْلِها ولا وصلت إلى «الصُّولِىِّ» ولا ضَمَّنها أوراقَه.

فلذلك رُسِم بالأمْرِ العالى أن يُعاد إلى تَدْرِيسها : لأنَّ العَوْدَ أمْدحُ وأحْمَــد، والرُّجوعَ إلى الحَقِّ أسْعفُ وأسْعد.

فلْيُباشِرْ ما فُوِّض إلَيه مباشرةً أَلِفَتْ من كمال أَدواتِه، وعُرِفَتْ من جمال ذَاتِه؛ ناشِرًا أعلامَ عُلومِه المتنوِّعَه، وفَضَــائِله التى تَقْصُر عن الثَّناءِ عليهــا أنفاسُ الرِّياضِ المتَضَوِّعَه؛ فلو عاصَرَه «آبن عَطِيَّــة» أمسك عنه فى تفســيره[(1)]، أو «صَاحِبُ الكَشَّاف» لغَطَّى رأْسَــهُ من تَقْصيرِه؛ أو «الرَّافِعِىّ» لأصْبحَتْ رايةُ رأْيِه فى الفِقْه خافِضَــةً رافِعه، أو «النَّوَوِىّ» رحمــه الله لآســتعار منه زَهَراتِ رَوْضَتِه اليانِعَه؛ أو «الآمِدِىّ» لمــا آمتدَّتْ له معه فى أُصولِه خَطْوَه، أو «آبنُ الحاجِب» لمــا كان له مع آبن الحاجب حُظْوه؛ أو «آبنُ يَعيش» لمــات ذِكْرُه فى النَّحْوِ فكان فَقيدا، أو «آبنُ مالك» لأمسى «تَسْهِيلُه» تَعْقِيدا؛ أو «الشِّبْلِىّ» لعلم أنَّه ما شَبَّ له فى التَّصرُّفِ مِثْلُ شِــبْلِه، أو «آبنُ عَرَبِىّ» لأعرب عن عُجْمَةٍ وما تَمسَّكَ صُوفِىٌّ بحَبْلِه، إلى غير ذلك من إنْشاءٍ إنشاءٍ ساد فيه العَبْدَين : «عَبْدَ الحميد» و «عَبْدَ الرَّحيم»، وتَظْمِ كُلَّمــا نَظَمأُ إلى رَشْــفه طافَتْ علينا قَوافِيه بكَأْسٍ مِزاجُها من تَسْنيم؛ وعلى الجُمْلَة فتَفْصِيلُ مَعارِفه يَضيقُ عن فَضِّها فَضاءُ هــذا التَّوقيعِ الكَريم، وسَرْدُ مَحاسِنه لا تَتَّسِعُ له حَواشِى هــذا البُرْدِ الرَّقيم؛ ولكِنْ أشارتْ أُنْمُلَةُ القَلَمِ منها إلى نُبْذَه، وعلِمْنا أنَّ القلوبَ تَشْتاقُ إلى أوصافِه فَقَلَّدْنا لهــا من ذلك فِلْذه.

---

(1) لعله «عن تفسيره».

وأما الوصايا فمثله لا يذكّر بشىء منها ، ولا يقالُ له : دَعْ هـذه الوَدْعةَ وهذه الدُّرّةَ صُنْها ، لأنّ الأمرَ والنّهىَ له فى ذلك ، وإذا أطلع بُدُورَ وَصيَّةٍ ضَوّأ أحوالَ الدَّياجى الحَوَالِك ، ولٰكن تقوى اللهِ عزّ وجلّ ذِكْرُها فى كلّ توقيعٍ طِرازُه المُعْلَمَ ، ونُكتتُه التى طَوْدُها لا يُثَلّ وحدُّها لا يُثلم ، فليكُنْ مُستَصحِبَ حالِها الحالى ، مُستَصحِبَ فِراقِها الذى يُهوِّنه البالُ البالى ، واللهُ تعالى لايُخْلى رُبوعَ العِلْمِ من أُنْسِه ، ويجعلُ سَعْدَه فى غَدٍ زائدًا كما زاد فى يومِه علىٰ أمْسِه ، والخط الكريم أعلاه ، حجّةٌ فى ثُبوتِ العَمَلِ بمُقتضاه .

***

وهـذه نسخةُ توقيعٍ بتَدْرِيس المدرسة النُّوريّة ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة ، كُتب به لقاضى القضاة «نجم الدين الحنفىّ» بنزول والده عنها بـ«ـالجناب الكريم » وهى :

الحمـدُ للهِ الذى أنمىٰ أهـلّةَ العِلْمِ فأبدَرتْ ، وفُرُوعَه فأثمرتْ ، ونُجُومَه فاستقلّت مَطالِعُها النُّوريّةُ وتنوّرتْ ، ولآلِئَه فى بِحارِ اللّفظِ والفَضْلِ فتجوهرتْ ، وأنهارَه التى أخذت فى المدِّ ماخذَ تلك البِحارِ فاستَرْحَبَتْ واستَبْحَرَتْ .

نحمـدُه علىٰ نِعَمِه التى قَرّتْ وقَرَتْ ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إذا خَصّلها اليقينُ وفَرَتْ ، وإذا نَصّلها الإخلاصُ مَضَتْ فى أوداجِ الباطلِ وفَرَتْ ، ونشهدُ أنّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الحاكمُ فى فَصْـلِ الأقضية لمّا شَجَرتْ ، والنّاظمُ دُرَرَ الإيمـانِ حتّىٰ زَهَتْ فى أعناقِ العَقائد وزَهَرتْ ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه فِئةِ الحقّ التى ظَهرتْ وطَهُرتْ ، وعِصابةِ الإسْـلامِ التى سَرتْ خَلْفَها

(١) مستعار من نصل السيف والرمح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سَرايا الّذين فهاجَرتْ فى الله ونَصَرتْ، صَلاةً طَيِّبةً تَحْلُو إذا تكَرَّرتْ، وتَحِيّةً باقِيةً تُشرِقُ شَمسُها إذا الشَّمسُ كُوِّرَت، وتَعبَقُ نَفَحاتُ نَشْرِها إذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ .

أما بعـدُ، فإنَّ مَنازِلَ العِلْمِ من خَيرِ ما أبقى الآباءُ للأعْقاب، وأكْلِ ما ذُخِر لنُجَباءِ الأبنـاءِ علىٰ مَدَى الأحْقاب، وأعْدل ما شَهِـدَ بِلِسانِ حاله المُتَمثّل أنَّ وَكْرَ العُقاب لابن العُقاب؛ وكانت المدرسـةُ النُّورِيّة الكُبرىٰ بِدمَشْق المحروسـةِ هى الواسطةُ والمدارِسُ دُرَر، والصُّبحُ وأوطانُ العِلْمِ غُرَر؛ ومنْزِلةُ الحكم الأمْنع، وبيتُ القَضاء الذى أذِنَ اللهُ لقَـدْرِه أن يُرفَع، ومكانُ ذِى اليَدِ المـاضى سَيْفُ حكمه إذا قُرِعَت العَصَا لذِى الإصْبَع؛ وذَاتُ العِمادِ التى ٱدّخرها لنَجله، وأعدّ فَضْلها فى العِباد والبِلاد لفَضْـلِه؛ وكان ذلك[1] قد نَزَلَ لولده فلانٍ عن الحُـكْمِ علىٰ هذا الحُكم، ونطق بمَزِيّة الاستِحقاقِ وقُلُوبُ بعْضِ الأعداء صُمٌّ بُكْمٌ؛ ورَغِبَ ـ أجَلَّه اللهُ ـ فيما يَرغَبُ فيـه من الانقطاع ذُو السِّن[2] العالى، والقَدْرِ الغالى، وانْتظم تَقْليدَه الشريفَ فكان أجوَدَ حِلْيةٍ علىٰ أحْسنِ جِيدٍ حَالِى؛ ثُم التَّوقيعَ بتَدْرِيس هـذه المدرسة التى زُكِّىَ فى أهْلِ الفَضْل شهيدُها، ونَظَرِها الذى خَلَفَ فى حُكْمه ولىُّ عَهْدِه عن أبيه: فلله أمينُ هذه الخلافة ورَشِيدُها .

ولذلك رُسِم بالأمرِ الشريف أنْ يفوّضَ إلىٰ فلانٍ تَدْرِيسُ المدرسة النُّورِيّة ونَظَرُها: لاستحقاقه لهـا بشُفْعَةِ مَنْصِب الحُكْم العزيز، ومَنْشَإ الفَضْـل الحَرِيز، ووجيزِ النزول المكْتَتَب، وقَبُولِ هِبَـةِ والده الذى يعتادُ أن يَهَبَ الجليلَ لمن يَهَب؛ وتَشْرِيفـه بإنعامها النَّفِيس، وإجْلاسِه بهـا علىٰ مَرْتَبَةِ حُكْمٍ وبِساطِ نَظَرٍ وسَجّادةِ تَدْرِيس؛ وعِلمًا بأنَّ نَجمَ ذلك النَّيِّرِ أولىٰ بهذه المنازل، وشِبْلَ ذلك الأسَـدِ أحقُّ

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أى والد نجم الدين .

(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغَاب المائل، وأنه كوكبُ هذا المَذْهَبِ المُنير، وإمامُ جامِعيّه المعروفين : كبيرٍ وصَغير، وصاحبُ شَبِيبَة العَزْم المقتَبل ، والرَّأْي المُوفِي علىٰ قياس الأمل ؛ وتَجْنِيس الجُود والإجادَه ، وتَكْمِيل مَجْرَى العِلْم والبِرّ واجتهاد الزِّياده ؛ وأنّه ممّن آتاه اللهُ رِفْعَةً فى القَدْر والاسم ، وزاده بَسْطَةً فى العِلْم والجِسْم ؛ وأحكَم بَدِيهَةَ عِلْمه فما تَسْتوقِفُ الأسماعَ رويّته ، وأعلاه وعَظَّمه فما هو النَّجْم الذى تَسْتَصغِرُ الأبصار رُؤْيَتَه .

فليباشِرْ تَدْرِيسَ هذه المدرسة ونَظَرها بعَزْمِهِ الباهر وَصْفا ، التَّالِي بلسان الحَمْد : ﴿وإبْراهِيمَ الَّذِى وفَّىٰ﴾؛ جارِيًا علىٰ أعْراقِ نَسَبِه المشهور، فائِضَ اللَّفْظ والفَضْل فإنّه بَحْرٌ من البحور؛ مظهِرًا من مَباحِثِه التى تقلّد العُقولَ بأبْهىٰ مما تُقلَّد النُّحور، مهْتَدِيًا من رَأْيِهِ ومن بَرَكةِ الواقِفِ ـ رضِيَ اللهُ عنه ـ بنُورٍ علىٰ نُور، واللهُ تعالىٰ يَزِينُ بنَجْمِه أُفُقَ السِّياده، ويَزِيدُ فيما وَهَبَه من الفَضْل إن كان التَّمامُ يقبلُ زِيادَه .

⁂

تَوْقيع بتَدْرِيس المدرسة الرَّيحانية الحَنَفِيّة، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به للقاضى «عماد الدين الحنفى» بـ«ـالجناب الكريم» وهو :

الحمدُ لله الذى جَمَّل مدارِسَ العِلْم بذَاتِ عِمادِها ، وصاحِبِ نَقْلِها واجْتِهادِها ؛ ومُنْشِرِ عَهْدِها ومُنْشِئِ عِهادِها ، وواصِلِ مَناسِبِها التى لو ادّعاها دُونَه زَيْدٌ لكانت دَعْوىٰ زِيادِها ، ومُفْصِحِ فتاويها علىٰ مِنْبَرِ قَلَمٍ اهتزّ عُوده ونَفَحَ وأطْرَب : فناهِيكَ بثلاثة أعْوادها ! .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى قَضَى الحمدُ بازْدِيادِها ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً تُعِدُّها النفس لمَعادِها، ونشهدُ أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه هادى الأُمّة

إلى سبيل رَشادِها ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه بحارِ العِلْمِ وأطْوادِها ، ما قامت الطُّروسُ والسُّطورُ لعُيونِ الألفاظ مَقام بياضها وسَوادِها .

أمّا بعدُ ، فإنَّ لمذاهبِ العِلْمِ رجالًا يوضِّحونَ طُرُقَها ، ويمدُّون فى المباحث حَلَقَها ، ويَعْمُرونَ مَدَارِسَها : فيالَها من ذاتِ دُروسٍ يكون العُمْرانُ مُتَلَقَّها ومُنْتَهَقَها! .

ولمّا كانت المدرسةُ الرَّيحانية بدِمَشْق فى أيدى العُلَماء نُخْبةً رَيحانيّة ، وشَقيقةَ نَفْسٍ نُعمانيّه ؛ مأهُولةَ المَنازِلِ والمنازلِ بكلِّ ذى فَضْلٍ جَلِىٍّ ، وعِلْمٍ مَلِىٍّ ؛ ووَصْفٍ كريم ، ونفسٍ نفيس يتلقّاه منها رَوْحٌ ورَيْحانٌ وجَنّةُ نَعيم ؛ وخَلَتِ الآنَ من إمامٍ كَرُمَتْ خِلالُه ، وعظُمَتْ خِصالُه ، ومضَى وتمضّى وما يَبْقَى إلا اللهُ جلَّ عن الحوادث جَلالُه ـ فتعيَّن أنْ نَختارَ لتدْرِيس مكانها من يفتخر به المكانُ والزّمان ، ويَتَشَيَّدُ بزيادة عِلْمه لصاحبِ مذهبها أضعافُ ما شاده زِياد للنُّعمان ؛ من شيّد الشريعةَ الشريفة مَقالُه ومَقامُه ، وعلا عِمادُه إلى عُقودِ الشُّهُب فلله مُرادُه ومَرامُه ، من لو عاصره «ابن الحسين» لحسَّن أن يعترفَ بقَدْرِه الجليل ، وقال عند محاضرة بَحْثِه كما قال «أبو يوسف» : فصَبْرٌ جَميل ؛ واستزاد «شمس الشريعة» فكيف «السراج» من لمعه البريقه ، وقال «ابن الساعاتى» : ما رأيتُ أرفعَ من هذا القَدْرِ درجةً ولا أبدعَ من هذا الذِّهْنِ دَقيقَه .

ولذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زال عاليًا بأمْرِه كلُّ عِماد ، زاهيًا بمحامد مُلْكِه كلُّ ناطِقٍ وجَماد ، أن يفوَّض لفلان ... ... لأنّه المَعْنِىُّ بما تقدّم من الأوصاف الحُلْوةِ إذا تكرّرتْ ، والمقصودُ بألفاظها إذا تعنونَتِ الأفهام وتيسّرت ؛ والمعوَّذَةُ فرائدُ مباحثِه المفرّقَةُ بـ «إذا الكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وإذا البِحارُ فُجِّرَتْ» ؛ وإمامُ المذهب الحنفىّ والحُكْمِ الأحْنَفىّ ، وحَصاةُ القَلْبِ التى تَنْسِف بإشارتها جبال «النَّسَفىّ» ، ولسانُ النَّظَرِ الذى أشرف على بُعْده فاختَفَى فى قُرْبِه المَشْرِقىّ ؛ وصاحِبُ الفنون وما

وسَقَتْ، وأفنانِ الحُكْمِ والحِكَمِ وما بَسَقَتْ، ونُعوتِ الفَضْلِ والفضائِلِ وما عَطَفَتْ من البيان ونَسَقَتْ .

فليَتَوَلَّ تَدْرِيسَ هـذه المدرسة المعمورةِ مُؤَيَّدَ الولايه، مُجَدَّدَ البداية لحنيفيَّتها والنهايه ، ساجِدًا قَلَمُ الفتاوىٰ والفُتُوَّةِ كلَّما تلا كَرَمُه وكَلِمُه آيةً بعدَ آيَه ؛ مُنْفِقًا من ألفاظه حتَّىٰ يَسْتغنى عن "الكنز" وصاحِبه، ويَرُدُّ فَرعَ المقال على الأصْل وطَالِبِه ؛ ويُعْرِضَ عن أعارِيضِ "البسيط"، ويُغْرِقَ فى أفْكار وَارِده "المحيط" . ويمدَّ سماط العِلْمِ الذى وَفىٰ بعد «القُدُورِىِّ» وما خَان ، وتفخر بقَاضِيها أعظمُ مَدِينةٍ لما يفضُّرها فقْـدُ « قاضى خان» ، وتتذكَّر المَقَدِّميةُ من طَلَبَتِـه فوائد الحَلْقَه ، وينتقل الجناب الكريم من تقدِمَتِها إلىٰ ما هو أوفىٰ فى الغَرَضِ وأوفَرُ فى النَّفَقَه ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ رُتَبَ العِلْمِ به سرورا ، ويجعلُ له باستطلاعها كتابَ حُكْمٍ وحِكَمٍ يلقاه مَنْشُورًا .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بتَصْدِيرٍ بالجامع الأُموِىّ، كُتب به لقاضى القضاة «علم الدين ابن القَفْصى» قاضى قضاة دِمَشْـق بـ«المقرّ الشريف» وهى من تَلْفِيـق كُتَّاب الزمان . علىٰ أنها بالمدرّس ألْيَقُ منها بالمصدَّر، وهى :

الحمدُ لله الذى أعلىٰ عَلَمَ أئمَّة الدِّين إلىٰ أعلى الغُرَف، وميَّزهم بالعِلْمِ الشَّريف الذى يَسْمُو شرفُه علىٰ كلِّ شَرف، وأوضَح بهـم مَنْهجَ الحقِّ القويم فعَلَا بإرْشادِهم سـبِيلُ الهُدىٰ وانْكَشَف .

نحمَـدُه علىٰ ما أفاض من نِعَمِه المتواترةِ كلَّ حِين، ونشكُره علىٰ إحْيـاءِ مَعاهِدِ المعابِد بمن حَذَا حَذْوَ الأوليـاء المُتَّقين؛ حمـدًا يُظهِرُ الآياتِ المحمَّديَّةَ والبراهين ، ويَبْسُط ظلَّ مَن هو عن الحقِّ لا يَمِين. ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له

رَبُّ العالمين ، الذى عَلَّم الإنسانَ ما لَم يَعْلَم وهو العالم بما تُخْفِى الصُّدُورُ ويَعْلَمُ عبادَه المؤمنين ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِى عِلْمَ الأوّلين والآخرين . وكان من دعائه لشَيْبَةَ : « اللَّهمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّين » . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمِلُوا بما علِموا فكانوا أئِمّةَ المسلمين ، والعُمْدَةُ علىٰ أقوالهم التى نقلوها عن خاتَم النبيين ، علىٰ تَوالِى الأيّام والجُمَع والأشْهُر والسِّنين ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعدُ ، فلمّا كانت أعلامُ العُلَماء فى الآفاق مَنْشورَه ، ورُبُوعُ الفوائد بطريقتهم المُثْلىٰ معْمُورَه ، وصُدُورُ المعابد الشَّريفة محتاجة إلىٰ صِلَتِها بكُفْئِها الفَرْد مَسْرُوره ؛ وكان فلانٌ ـ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلَالَه ، وضاعف جَلالَه ـ هو الذى مَلَأَتْ مُباشرتُه العُيونَ والأسماع ، وانعقدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْرِه كَلِمةُ الإجْماع ، واشْتَهَرَ ذِكْرُه الجميلُ بأنواع المَكْرُمات وأطاعَهُ من مُشْكِل المَذْهَب ما هو علىٰ غيره شديدُ الامْتِناع ؛ وأضْحَتْ فضائلُه "المدوَّنة" ولفظُه الجَلّاب ، وكَنَفُه "المُوطَّأ" للطَّلَبة يُغْنيهم عن مَعاهِد « عبد الوهاب » ؛ وعزيمته لا يُلْحَقُ غُبارُها فى المعارك ، ولا يَظُنُّ خُدّامُ العلوم الشرعية والأدبية إلا أمَّ مالك وابن مالك .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يَجْمَعُ لمَن بَرَعَ فى العلوم من ألوانِ المناصب المختلفه ، ويَرْفَعُ قَدْرَ القَوْمِ الذينَ قُلوبُهم على التقوىٰ مُؤْتَلِفه ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة التَّصْدِير بالجامع الأُمَوِىّ بدِمَشْق المحروسة ـ عمرَه اللهُ تعالىٰ بذِكْرِه ـ عِوَضًا عن فلانٍ بحُكْمِ نزوله عنه برضاه ، حَمْلًا علىٰ ما بيده من النُّزولِ الشَّرعىِّ ، بالمعلوم الذى يشهدُ به ديوان الوَقْف المبرور ، علىٰ أجْمل عاده ، وصرفه إليه مُهَنَّأً مُيَسَّرًا أُسوة أمثاله .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ علىٰ عادة مُباشراته التى حُفَّت بالعُلُوم ؛ وافتخرتْ بحُسْن المَنْطوق الدَّالِّ على المعنَى المفْهوم ؛ ويمُدَّ مَوائِدَ علْمه المحتويةَ علىٰ أنواع الفضائل .

وليُبيِّنْ ما يَخفى على الطَّلبة بأوضح الدلائل، وليؤدِّ الفوائدَ الواصلةَ إلى الأذهان على أحسنِ أسلوب، وليُقرِّرِ الأصولَ التى امتدّتْ فروعُها بقواعدِ السُّنّةِ المحمَّديّة وفى ثمرها الجَنِيِّ تقويةُ القلوب، وليُكرِمْ منهم من يَضِحُ نَضْنه لَدَيْه ويَبين، وليَبسُطْ هِمَمَهم بقوله صلّى الله عليه وسلم: "مَن يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقّهْهُ فى الدّين". وليُوضِّحْ طريقَ إرشادِه ليَسْهُلَ سُلوكُها عليهم، وليَجعلْ وُفودَ فوائده فى كلِّ وقتٍ واصلةً إليهم، وليَتّبِعْ «إمامَ دارِ الهجرة» فى مَذهبه المُذْهَب، وليخلّدْ من صفاته الجميلة ما يَذهب الزمانُ ولا يَذْهب، وليَسْمَحْ للفقهاء بمواصلة فَضْله الأعم، فإنّه أنْ يُهدَى به واحدٌ خيرٌ من حُمْرِ النَّعَم.

والوصايا كثيرةٌ ومنه يُطلَبُ بيانُها، وبه تَقوَى أسبابُها ويعلو بُنيانُها، ولكن الذِّكرى تنفعُ المؤمنين، ويَظهرُ [بها] سِرُّ خبرهم ويَستبين، وتقوى الله تعالى هى العُروة الوُثقى، والخَصْلةُ التى بها يعظم كلُّ واحدٍ ويَرقى، فليُواظبْ عليها، وليَصْرِفْ وجهَ العناية إليها، واللهُ تعالى المسئولُ أن يجعلَ علَمَ عِلمِه دائمًا فى الآفاق منشورا، وذِكرَه الطَّيِّبَ على ألسنةِ الخلائق كلَّ أوانٍ مذكورا.

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدِّينية بحاضرة دِمَشْق - ما يفتتح بـ«أمّا بعدَ حمدِ الله» وفيها عدّةُ وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك.

توقيعٌ بقضاء العسكر بدمشق، كُتب به للقاضى شمس الدين «محمد الإخنائى» الشافعىّ، بـ«الجناب العالى» وهو:

أمَّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ مضاعِفِ النِّعمه، ومُرادِفِ رُتَبِ الإحسان لمن أخلصَ فى الخِدْمه، ومُجَدِّدِ مَنازِلِ السَّعْدِ لمن أطْلَعتْ كواكبُ اهتمامِه فى آفاقِ الأُمورِ المُهِمَّه؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّينِ الأكْمَلينِ علىٰ سيدِنا محمدٍ وآلِه الذى بُشِّر بنَصْرِ هذه الأُمَّه، ووُعِدَ بأنْ سيكشِفُ به غمامُ كلِّ غُمَّه، وأنَّه يتجاوزُ عن أهلِها بشفاعته وكيف لا؟ وقد أُرسِلَ للعالَمين رَحْمَه، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تُجزِلُ لقائلها نَصيبَه من الأجْرِ وتُوفِّرُ قِسْمَه ــ فإنَّ أحقَّ الأولياءِ مَن تأكَّدتْ له أسبابُ السعاده، وكافأناه بالحُسْنىٰ وزيادَه، وبلَّغْناه من إقبالِنا غايةَ مآرِبِه ومَطالِبِه؛ وعُرِفَتْ منه العلومُ التى لا يُشَكُّ فيها، والنَّباهَةُ التى لا يَقْدِرُ أحدٌ من أقرانِه يُوفِّيها؛ والخِبْرةُ الوافيةُ الوافِره، والدِّيانةُ الباطنةُ والظَّاهِرَه، وسار بعُلُومِه المَثَل، وسلكَ مَسْلَكَ الأولياءِ فى العِلْمِ والعَمَل، واعْتُبِرت أحوالُه التى تُوجِبُ التقديم، واخْتُبِرت فِعالُه التى ضاعفَتْ له مزيدَ التكريم.

وكان فلانٌ ــ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمَتَه ــ هو الذى أتْقنَ العُلومَ بحثًا وتَهْذيبا، وبرهَنَ عن المسائلِ الشَّرعيةِ بأفهامٍ تَزيدُها إلىٰ الطَّالبين تَقْريبا؛ وأوضحَ عَويصَ مُشْكِلاتِها، وصحَّحَ من ألْسُنِ العَربِ لُغاتِها.

فلذلك رُسِم بالأمرِ العالى ــ لا زالت شَمْسُه بالعِنايةِ مُشْرِقَه، وأنْواءُ فضائلِ أوليائِه مُغْدِقَه ــ أن يستقرَّ فلانٌ فى وظيفةِ قَضاءِ العساكرِ المنصورةِ الشاميَّةِ: حَمْلًا علىٰ ما بيَدِه من النُّزولِ الشَّرعىِّ، علىٰ عادةِ من تَقدَّمه فى ذلك وقاعدَتِه، ومَعْلُومِه الذى يَشْهَدُ به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرِ وقْتٍ. فهو الحاكمُ الذى لم يَزَلْ للعساكرِ المنصورةِ نِعْمَ الصَّاحب، والمُورِدُ علىٰ سَمْعِهِم من الأحكامِ الشَّرعيةِ ما يَقْتَدى به الحاضرُ والغائب؛ والقائمُ بأعباءِ العساكرِ المنصوره، والحافِظُ لنِظامِ المُلْكِ الشريفِ علىٰ أحسنِ صُورَه.

فليباشِر هذه الوظيفةَ المباركةَ وليَحُلَّ فى قضاء العساكر المنصورة بطَلْعَته السَّنِيَّة، وليفصِلْ بينهم فى الأسفار كلَّ قضيَّة، وليُعرِّفْهم طُرُقَ القواعد الشَّرْعيَّة؛ وليحترز فى كلِّ ما يأتيه ويذَرُه، ويقصدُه ويحْذَره، ويُورِده ويُصْدِره.

والوصايا كثيرةٌ ومنه تُسْتفاد، وإليه يَرجِعُ أمرُها ويُعاد، ولكن لا بُدَّ للقلَم من المرَح فى مَيْدان التَّذكار، والتَّنبيه علىٰ مِنهاجِ التَّقوىٰ التى هى أجمَلُ شِعار؛ واللهُ تعالىٰ يَمنحُه من إحساننا جزيلَ العَطاءِ والإيثار، ويُسْمِعُه من أنباء كَرَمِنا كلَّ آونَةٍ أطيبَ الأخبار؛ بمنِّه وكَرَمه!.



توقيعٌ بنَظَر جامع يلبغا اليحياوىّ، كُتب به للأمير جمال الدين «يوسف شاه» العُمَرىّ الظاهرىّ بـ«الجناب الكريم» وهو:

أمّا بعدَ حمد الله الذى أظهر جمالَ الأتقياءِ فى كلِّ مَشْهَدٍ وجامِع، وقدَّمه بما أولاه علىٰ كلِّ ساجدٍ وراكع، وخصَّه من فَضْله بما قصُرتْ عنه الآمالُ والمَطامِع؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّين الأكمَلَين علىٰ سيدنا محمد عبدِه ورسولِه مُولِي الخَيْرِ الواسِع، والإحسانِ المُتَتابِع، ومَن أحيا جَوْدُ جُودِه النُّفوسَ وسَرَّ القُلوبَ وأطرَب ذِكْرُ عِظَاتِه المَسامِعَ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه النُّجومِ الطَّوالِع، والذين أودَعهم العِلْمَ الذى آتاه لإقامَةِ دِينه من لا تَخِيبُ لَدَيْه الوَدائِع؛ والتَّشريفِ و[الإكرام]، والتَّبجيلِ والإعظام – فإنَّ أولىٰ من رعَيْنا له حقَّ الخِدَم، ووُقوفَه فى الطاعةِ الشريفةِ علىٰ أثبتِ قَدَم؛ مَنْ قام بما لم يَقُمْ به غَيرُه، وحسُنَتْ سِيرَتُه وسَيْرُه.

وكانَ فلانٌ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمَته، وحرَس من الغِيَرِ مُهْجَتَه؛ ممّن جَمَّل الممالكَ ودَبَّرها، وضبَطَ أموالَ الأوقاف وحَرَّرها؛ وارتفَع على الرؤوس، وحصَّلَ أموالَ

الأوقاف التى فطر تحصيلها أكباد الخونة وسرّ من مستحقّيها النفوس — تعيّن أن نعرف له مقداره الذى لا يخفى، ونوفّيه بعض حقّه فإنّه الذى بالإحسان قد أوفى .

فلذلك رسم بالأمر الشريف — لا زال يقبل على فضل وليّه ، ويضاعف له البرّ المستمطر من غيث جوده ووليّه — أن يستقرّ فلانٌ فى كذا ، على عادة من تقدّمه فى ذلك ومستقرّ قاعدته ، بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف المبرور إلى آخر وقت .

فليباشر هذه الأوقاف ، وليسلك فيها طرق العدل والإنصاف ، وليتّبع شرط واقفها — رحمه الله تعالى — المجمع على صحّته من غير خلاف ؛ وليحيى ما تشعّث وتخرّب فى الجامع المشار إليه وأوقافه بعين بصيرته ، وليقم بالمعروف من معرفته ؛ وهو أعزّه الله تعالى أولى من باشره ، وعمر داثره ، وأحرى من تحرّى مبارّه ومآثره ، وميّز أوقافه ، وتدارك بتلافيه تلافه . وهو غنىٌّ عن شرح الوصايا فإنّها من آدابه تعرف ، ومن بحر أدواته تغرف ؛ وملاكها تقوى الله تعالى الرءوف ، فليكن على مستحقّ هذا الوقف عطوف ؛ والله تعالى يجزل له أجرا ، ويجعل له ما يفعله من الخير ذخرا .

***

توقيعٌ بنظر تربة أرغون شاه ، كتب به « لقجا السيفى بوطا » به « الجناب العالى » وهو :

أمّا بعد حمد الله الذى بلّغ الأولياء من مبرّاته الأمل والإراده ، وألقى مقاليد الأمور إلى من استحقّ بحسن مباشرته الزياده ؛ والصلاة والسلام الأتمّين الأكملين على سيدنا محمد عبده ورسوله صاحب لواء الحمد والنصر ، ومن جاءت آيات تفضيله كفلق الصبح وجمّلت محاسنه كلّ عصر ؛ وعلى آله وصحبه الذين نصروه فنصرهم

الله ، وحجَبُوه بأنفسهم عن البَاس ولم يَحْجُبُوه عن النّـاس لخفض جَناحه لمَوْلاه ؛ والتّشريف والتّكريم ، والتّبجيل والتّعظيم .

ولمّـا كان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعـالىٰ نعمَته ـ هو المعروفَ بالأوْصاف الجميـلَة ، والمَنْعُوتَ بالنُّعوتِ التى أتَتْ فى وَصْفه بكلّ فَضيلَه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ لازال إحْسانُه عَميا ، وفَضْلُه لذَوى الاسْتحقاق أبدًا مُقيما ـ أنْ يسـتقرّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تقـدّمه فى ذلك ومُسْـتَقر قاعدَته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به دِيوانُ الوَقْف المبرور إلىٰ آخر وقْتٍ .

فليباشر ذلك بِهمّتِه العَليّه ، ونَفْسِـه الأبيّه ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التّقْوىٰ : فليلازِمْ عليها فإنّها تحفظُه ، وبالسّـيادة تَلْحَظُه ؛ واللهُ تعالىٰ يكمِّلُ تَوْفيقَه ، ويُسَهِّلُ إلىٰ نُجْح المَقاصِدِ طَريقَه ؛ بمحمّدٍ وآله ! .

⁂

تَوْقيعٌ بتَدْريس الجامع الأُموىّ عَوْدًا إليـه ، من إنشاء جمـال الدين بن نُباتة ، كُتب به للقاضى «فخر الدين المصرىّ» وهو :

أمّا بعدَ حَمْـدِ الله مُعيدِ الحقّ إلىٰ نِصابِه ، والغَيْثِ إلىٰ مَصابِه ، واللَّيْثِ ـ وإن غَاب ـ إلىٰ مُسْـتَقرّ غابِه ، وشَرَفِ المكانِ إلىٰ مَن هُو أحقُّ وأوْلىٰ به ، وبَحْرِ العلومِ إلىٰ دَوائرِ محافِلِه فى الدُّروس وإلىٰ قوِىِّ أسْبابِه ؛ والصّـلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى هاجر فرَجع بغَنيمَتِه وإيابِه ، وطَلَع من ثَنِيّاتِ الوَداعِ طُلُوعَ البَدْرِ المُشْرِق فى أثنـاءِ سَحابِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الشائمين سَـبَلَ صَوْبِه السّالكين سَبيلَ صَوابِه ، ما قُطِفَ من غُصُون أقْلامِ العلمـاءِ ثمرُ "البيان والتّبيين" مُتشابِهًا وغيرَ مُتشابِه ـ

فإنّ شَرَفَ الكواكِبِ فى سيرِها ورُجُوعِها ، ونُمُوّ تَشَعُّلِها ما بين فَتْرةِ مَغيبِها وطُلُوعِها ؛ لا سيَّما العلماءُ الذين يُهتَدىٰ بأنوارِهم ، ويُقْتَدىٰ بآثارِهم ، ومَصابيحُ الحقّ التى تُقْدَحُ ولا يُقْدَحُ فى أزنِدةِ أفكارِهم .

وكان من قُصِدَ بهذا التَّلويح ذِكْرُه ، وعُرِفَ من هذا المَعْنىٰ المَفْهومِ فَخْرُه ؛ قد جُعِدَ بمجالس التَّصدير بالجامع الأُمَوِىّ ما ذكره من سلف أعيانِه ، وقام بوُجُودِ الدَّليل علىٰ وُجُود مَاضِى بُرْهانه ، وجادل لِسانُه وقَلَمُ يدِه عن الشَّريعة : وغَيْرُه من العِيِّ لا من يَدِه ولا من لِسانِه ؛ ثم هَجَر مكانَه هِجْرةً علىٰ العُذْرِ مَحْمولَة ، وهاجَر إلىٰ حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَم رَسُولِه صلَّى الله عليه وسلم هِجْرةً مَقْبُولَة ؛ ورَامَ بعضُ الصِّبيانِ التقدُّمَ إلىٰ رتبة الشيخ فقالت : إليك عنِّى ، فأنا من مَخْطُوبات الأكابر فما أنا منك ولا أنت منِّى ؛ ثم حضر إلىٰ محلِّه الكريم من غاب ، ورجع إلىٰ مُسْتقرّه الأمثل به : وما كلُّ حَمْزةَ أسَدُ الله فليسكُنْ فى ذلك الغَاب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زالت صلاتُه مَزِيَّتُه جميلةَ العوائد ، جليلةَ الفوائد ، وأقلامُها أغصانُها ممدودٌ بها الرِّزْقُ فهى على الوصْفين موائد ــ أن يستمرّ علىٰ عادته فى كذا وكذا ، وإبطالُ ما كُتِب به لغيره : عملًا باختبار الحاضر ، وآختيار نَظَرِ الناظر ، وعِلْمًا بأنّ هذه المرتبةَ لمن له إتقانُ عقلها ونقلها ، وتلاوةٌ فى موضع الوقف : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمانَاتِ إلىٰ أهْلِهَا ﴾ .

فقولا للمنوع : ما كُلُّ عِزٍّ بدائم ، ولا كلُّ ذى طَلَبٍ بكمال الوُجوبِ قائم ؛ ومن أين لهذه الرتبة مثلُ هذا الكُفْءِ الذى آشتهر فخره ، وزهَتْ به على الأمْصار شامه ومصره ؟ ؛ وهذا الإمام ، وكلُّ مُضاهٍ مَأْمُوم ، وهذا المِقْدام ، تحت عَلَمِ العِلْمِ وكلُّ مُباهٍ مهزوم ؛ وهذا الثَّابِتُ وكلُّ نِدٍّ مُشَرَّد ، وهذا الكامل وكل ضِدٍّ مُبَدَّد .

فليستمرّ على عادته الجميلة مُجمِلا لزمانه ومكانه ، مُكمِّلا فى وشائع العلم ما يَثنى «ابن الصَّباغ» من ألوانه ، مالكاً لما حرّره «الشافعى» ، جازما بفعل ما نصبه «الرافعى» ، سامياً عن وفاء الواصف : فسواء فى ذكره إسرافُ بيانٍ أو إسرافُ عِىّ ؛ شاملاً للطلبة المعتادين بعطفه ، مُقابِلا للمستفتين بلطائفه ولُطفه ؛ باحثاً عن دُرَر الجدال بفكره إذا بحث قلَّم بعض المجادلين عن حَتفه بظِلْفه ، داعياً لهذا الملك الصالحى : فإنّ دُعاء العالم الصالح سُورٌ من بين يديه ومن خَلفه ؛ والله تعالى يُجريه على خير العوائد ، ويمدّه بإقبال النعم الزوائد ؛ بمنّه وكرمه ! .

***

توقيعٌ بتدريس المدرسة الدماغية بدِمَشق ، من إنشاء ابن نُباتة . كُتب به للقاضى جمال الدين «أبى الطَّيب ، الحسن بن على» الشافعىّ ، وهو :

أمّا بعدَ حمد الله رافع مُنادَى العلم بمُفرَده ، ومُثبت التُّقى بقافية سُؤدده ، وناظم المفاخر بمن إذا قيل : «أبو الطَّيب» أصغى الحَفلُ لمُنشِده ، ومشهد الفَضل بإمامه : وحَسْبُك من يكون «الحسن بن على» إمامَ مَشهده ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله سيد الخلق وسَنَده ، وعلى آله وصحبه السائرين فى العلم والحِلْم على جَدَده ، ما سحَب نَسيمُ الرَّوض بُرْدَه وافترّ لَعَسُ السحاب عن ثَغر بَرَده ـ فإنّ للعلم أبناءً ينشَئون فى ظِلاله ، ويسكُنون فى حِلاله ، ويفرّقون للخلق بين حرام المُشتَبه وحَلاله ، ويُجمِّلون وَجهَ الزمان : فلا عدِم الزمانُ منهم جمال وَجهه ولا وَجهَ جماله ؛ ترتَشِفُ شِفَاهُ المدارس من كَلِمهم كلَّ عَذْب المَساغ ، وتُشافِهُ منهم كلَّ ذى فَضل ما هو عند البلاغ ببَلاغ ، وتُشاهد ما خُصُّوا به من الشرف والرآسة فلا عجبَ أنّ محلّهم منهما محلُّ الدماغ ! .

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأسا فى مدارس العلم، وهامة فى أعضاء منازل ذوى الحكم والحلم؛ لا تسمو همتها إلا بكل سامى العمامه، هامى الفضل كالغمامه، ساجع اللفظ إلا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامه، كائد للملحد مكرم للطالب ولا كيد لابن الخطيب ولا كرامه - واسطة بين العادلية والأشرفية تليق بمن يكون عقد كلامه المثمن، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتينا" يعنى بيت النسب وبيت المسكن .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال يجدد لوجوه العلم جمالا، ولوجوب الحمد نوالا، ولوجود الفضل كرما ما قال قط ولا نوى: لا - أن يفوض إلى فلان - أيد الله مجده، وحرس للسلمين أباه وأعلى بالسعادة جده - تدريس المدرسة الدماغية المذكورة : لأنه جمال العلم المعقودة على خطبته الآمال، المعدوقة بمقدمات فضله وفصله نتائج الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبة إلى الله والخلق سيماه وشيمه ولا نكر : فإن الله جميل يحب الجمال ؛ ولأنه العالم الذى إذا قال لم يترك مقالا لقائل، وإذا شرح على قياسه أتى بما لم تستطعه الأوائل؛ وإذا جارى العلماء كاد «إمام الحرمين» يقول : أنا المصلى وأنت السابق، «والغزالى» : من لى أن أنسج على منوال هذا اللفظ الرائق؟؛ «وابن دقيق العيد» : ليت لى من هذه الدقائق بلغه ؟، و «ابن الصباغ» : هذا الذى صبغه الله من المهد عالما ! ومن أحسن من الله صبغه ؟ ؛ ولأنه العالم الذى أحيا ذكر «ابن نقطة» بعد مادارت عليه الدوائر، وأغنى وحده دمشق عمن أتى فى النسب «بعساكر» ، ولأنه فى البيان ذو الانتقاد والانتقاء، والعربى الذى إن كان لرقاب الفضلاء «ابن مالك» فإن قرينه «أبو البقاء» ؛ والكامل حسبا ، ومثل بجيده المنقود لا يبهرج ، والواصل نسبا ، ومثل فرعه بعد أصله : «ولله أوس آخرون وخزرج» .

فليباشرْ هذا التّدريسَ بعزائمِ سَرِيَّه، ومَباحثَ تُستنار منها مَعارِفُ القَوْل التَّبْرِيَّه، وطَرائِفَ لأَبِيْجَبَس بدَمَشْق علىٰ تقداتها المِصْرِيه؛ ولْينصُرْ مذهبَ الإمام الشافعىّ رضى الله عنه فإنّ قومَه الأنصار، وليخفِضْ جَناحَه للطّلَبَة فطالما خَفَضَت الملائكةُ أجنِحَتَها لِيَصيرَ فلا عَجَبَ أنْ صار!؛ وليُفِدْ وَافِديه وهو قاعدٌ أضْعاف ما أفادَهم صاحبُ المكان وهو وَاقف، وتَقْوىٰ الله عزّ وجلّ أوْلىٰ ما طالعه فى سِرّه وجَهْرِه من "عوارف المعارف" والله تعالىٰ يمدّه بإسعاده ولُطْفه، ويَحُوطُه بمعَقِّباتٍ من بين يديه ومن خَلْفِه؛ ويُضِىءُ بارقَ كَلِمِه الصَّيِّب، ويُطْرِب أسماعَ الطَّلَبَة بالطَّيِّب من معانى «أبِى الطَّيِّب».

⁂

توقيعٌ بتَدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفِيَّة بظاهر دِمَشْق، كُتب به للقاضى بدر الدين «محمد بن أبِى المنصور» الحَنَفىّ بـ«المقرّ العالى» وهو:

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أطْلع بَدْر الدِّينِ مُشْرِقًا فى منازل السُّعود، وحَرَسَ سماءَ مجده فلا يُطِيقُ مَنْ رام جَنابَها الاستطراقَ إليها ولا الصُّعود؛ وجعل رُكْنَه الشديد فى أيّامنا الزاهرةِ المَشِيد وظِلَّه الممدود؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّيْنِ الأكْمَلين على سيدنا محمدٍ ذى الحَوْض المَوْرُود، والكَرَم والجُود؛ وعلىٰ آله وصَحْبه نجومِ الهُدَىٰ وأعْيان الوُجود، ما أوْرق عُود، وحُمِدتْ عُقْبَى الصُّدورِ والوُرُود؛ صلاةً دائمةً إلى اليوم الموعود ــ فإنَّ أعلامَ الهُدَىٰ لم تزلْ مَنْشورةً بمعالمِ العُلَماء، وأقطارَ الأرض ما بَرِحتْ مُشْرِقَةً بمن تَسْتغفِرُ لهم الحِيتانُ فى البَحْرِ والملائكةُ فى السماء، وطُولُ الأرض إلىٰ فضائلهم أشدّ اضطرارًا وأحوجَ إلى القرب إليهم والانتماء؛ وكان فلانٌ.. أدام الله تعالىٰ تأييدَه ــ من بَيْتٍ شهِدت الأيامُ مَفاخِرَه، وحَمِدَ الأنامُ أوائلَه وأواخِرَه،

وأضحتْ عيونُ الزمان إلى مآثره ناظره، وغُصونُ الفُنون بفرائده ناضره، وأوصافُه الجليلةُ للأبصار والبَصائر باهره، وأصنافُ الفَضائل من إملائه واردةً صادره .

فلذلك رُسم بالأمر العالى - زاده الله تعالى على العلماء إقبالا، وضاعف إحسانَه اليهم ووالى - أنْ يستمرَّ المشارُ إليه فيما هو مستمِرٌّ فيه : من تدريس المدرسة الرُّكنية الحَنفيّة، بظاهر دِمَشْق المحروسة، حملًا على ما بيده من الوِلاية الشَّرعية والتوقيع الشريف : رِعايةً لجانِبه وتَوْقيرا، وإجابة لقَصْده الجميل وتَوْفيرا، وٱستمرارا بالأحَقّ وتقريرا .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً أُلِفتْ منه، وٱشتهر وَصْفُها الزَّكىُّ عنه؛ ولْيوضِّحْ للطَّلبة سُبُلَ الهدايه، ولْيوصِّلْهم من مقاصِدِهم الجميلة إلى الغايه؛ ولْيَسْلُكْ طريقةَ والِده، فإنّها الطريقةُ المُثلى، وليتحلَّ من جواهر فَرائِده، فإنّها أعلى قِيمةً وأغلى، ولْيُمْلِ على الأسماع فضائلَه التى لا تُمَلُّ حين تُملى .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الخاتونية البَرّانية الحَنفيةِ بدمَشْق، كُتب بها للشيخ صدر الدين «علىّ بن الآدمىّ» الحَنَفىّ بـ«الجناب الكريم» . وكأنّه فى الأصل لمن لَقبُه . «بدر الدين» لأنّ البـدْرَ هو المناسب لهذا الأفتتاح؛ فنقله بعضُ جَهَلةِ الكُتّاب إلى «صدر الدين» كما تراه . وهذه نسخته :

أمّا بعـدَ حمد الله الذى زان أهْلَ العِلْمِ الشريف بصَدْرٍ أخْفى نُوره الشُّموس، وأعلاه - لِمَا حازه من الشَّرف الأعلى - على الرُّءُوس، وجعل كلَّ قَلْب يأْوى إلى تِبْيان بَيانه يوم الدُّروس؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْملين على سيدنا محمد الذى أذهب الله ببركته عن هـذه الأمّة كلّ مَكْروبُوس، وخصّهم فى الدُّنيـا بطِيب

الحياة وفى الآخرة بسرور النفوس، وعلى آله وصحبه صلاة مثمرة الغروس ـ فإن أولى من تتصرف إليه الهمم، من تبدو دلائل علمه كنور لا نار على علم، وتسير فضائله فى الآفاق سير الشموس والأقمار، وتبرز إذا يبديها صدره من حجب وأستار.

وكان فلان ـ ضاعف الله تعالى نعمته، وحرس من الغير مهجته ـ هو الذى أشير إلى ما حواه صدره الكريم من الفضائل، وآشتهر فى دروسه بإقامة الحجج وإيضاح الدلائل؛ وبرع فى العلوم الدينيه، وفاق أبناء عصره فى الصناعة الأدبيه، وأنفق كنزه على الطلاب، فأصبح "عمدة المحدثين" وأمسى "مختار الأصحاب"، «أبو يعلى» ينزل ببابه، و «آبن عقيل» يرتد على أعقابه، و «آبن الحاجب» يرفعه على عينه، و «الرازى» يفتخر كسبه لوفاء دينه، و «آبن بطة» يطير من مواقع سهامه، و «مقاتل» مجروح بحد كلامه، و «آبن قدامة» متأخر عن مجاراته، و «الأثرم» يخرس عند سماع عباراته.

فلذلك رسم بالأمر العالى ـ لازال يجمع لمن برع فى العلوم من ألوان المناصب المختلفه، ويرفع قدر القوم الذين قلوبهم على التقوى مؤتلفه ـ أن يستمر الجناب الكريم المشار إليه بالمدرسة الخاتونية البرانية الحنفيه، حملا على مابيده من النزول الشرعى والولاية الشرعيه: لأنه الخلاصة التى صفت من الأقذار، والعدة ليوم الجدال إذا ولى غيره الأدبار؛ والمختار الذى جنحت المناصب السنية إلى آختياره دون من سواه، رغبة فيما آدخره من الفضائل وحواه؛ "بدايته" "نهاية الطلاب"، وعلومه "تحفة الأصحاب"؛ إن حدث «فابن معين» بصحة نقله يحيا، أو فسر «فمجاهد» عن مجاراته يعيا؛ و «الزمخشرى» يبعد عن الجوار، و «البغوى» يبتغى الوقوف على الآثار، و «سيبويه» عند ما ينحو يقصد "التسهيل" من لفظه المقرب المعرب، و «آبن عصفور» يكاد يطير طربا لما يبديه من "المرقص المطرب"؛

و « أبو يوسف » أصبح بصُحْبته منصورا ، و « محمد بن الحَسَن » أضحى برفعته مَسْرُورا ؛ هو فى القَدْر « علىّ » وفى الطريقة « محمود » وفى العلوم « محمد » ، وفى النطق والحركة « سعيد » وفى النظر « أسعد » ؛ وفى النَّضارة « النعمان » و « طاوس » يتحلَّى جزءا من كمال خِصاله ، و « الحَسَنُ » يقتدى بحسن فعاله ؛ نَشَأ فى العِفّة والصِّيانة ، وكَفَله التوفيقُ وزانَتْه الأمانة ؛ فهو بَحْر العلوم ، ومُستخلِص دُرِّها المَكْنون ومُظْهِرُ سِرِّها المَكْتوم ؛ لو رآه «الإمام» لقاس عُلاه بالشَّمس المُنيره ، ولو عاصر الأصحابَ لقَرَّتْ أعينهم به قَرِيرَه .

فليباشِرْ هاتَين الوَظيفَتَين اللَّتين ا كُتَسَتا به بعد نُورِ الشَّمس جَلالا ، وليُلْقِ عُلومَه التى يقولُ القائلُ عند سَماعها : هكذا هكذا و إلَّا فلا لا ؛ ولْيُعلِّمْ الطَّلَبة إذا أدْهشتهم كثرةُ عُلومه أنَّ فوق كلِّ ذِى علمٍ عليم ، وليتكرَّم عليهم بكَثْرة الإفادة فإنَّ عَلِيًّا هو الكريم ؛ وليُفْقِ فى مباشرة النَّظر كلَّ مَثِيلٍ ونظير ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثلُ خَبِير ؛ وليَجتَهِدْ على عِمارةِ معاهدها بذكر الله تعالى ، وأداءِ الوظائف بحُسْنِ مُلاحظَته : ليزداد عند الخليقة جَلالا ؛ وفيه ــ بحمد الله ــ ما يُغْنِى عن تأكيد الوصايا ، ويُعِينُ على السَّداد وفَصلِ القضايا ؛ وكيف لا ؟ وهو الخبيرُ بما يأتى ويَذَر ، والصَّدرُ الذى لا يَعْدُو الصَّوابَ فى وِرْدٍ ولا صَدَر ؛ والله تعالى يَسُرُّ القلوبَ بعُلُوِّ مَراتِبه ، ويُقِرُّ العُيونَ ببُلُوغ مَقاصِده ومآربه ؛ بمَنّه وكرمه ! .

* * *

توقيعٌ بخَطابة جامع جراح ، من إنشاءِ ابن نُباتة ، كُتب به لـ «شرف الدين بن عمرون» بـ «المجلس العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى قَسَم للنابر شَرَفًا يتجدَّد ، وعَطْفًا من الفُصَحاءِ يتأكَّد ، وعَلَمًا مَرفوعًا لا يتعَدَّى وعَلَمًا منصوبًا لا يتعَدَّد ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيد الثقلين

وصاحب القبلتين محمد ، وعلىٰ آله وصحبه القانتين القائمين الرُّكَّع السُّجَّد ، ما عَظُم خطيبٌ ومجّد ، وبدا فى حِلْيةِ سيادةٍ وأُهْبةِ خَطابةٍ وهو على الحالين مُسَوَّد ـ فإنّ لصهوات المنابر فُرْسانا ، ولصُدُور المحاريب أعْيانا ، ولعيون المشاهد أناسىَّ يُراعى منها الاستحقاقُ لكلّ عينٍ إنْسانا .

ولمّا كان جامعُ جراح المعمورُ بذكرِ الله تعالىٰ ممّا أُسِّس على التقوىٰ ، ووُسِم بأهلِ الزُّهد سِمَةً إذا ضَعُفَتْ السِّماتُ تقوىٰ ؛ يجمع الصُّلَحاءِ من كلّ ناحيه ، ومُنْتَجَع الفُقَراء : فنِعْمَ الجامعُ لهم ونِعْمتِ الزَّاوِيه ! ؛ ومَفْزَع العُظماءِ عند استدفاع حَرْبٍ وكَرْب ، ومَطْلَعٌ لنُور الهُداة الذى أغْرب فأطلع نجومَهم من الغَرْب ـ تعيّن أنْ نختارَ له الخطباءَ والأئمّه ، ونَنْتخبَ لمنْصِبه من أفاضل الأُمّه ، وتتناسَبَ حُضَّار منْبره بصاحب علومهم وأعْلامهم وإمامهم ، المسرورين به يوم يأْتِى كلُّ أناسٍ بإمَامِهم

فرُسِم بالأمر ـ لا زالت أعوادُ المنابرِ بذكْرِه أرِجَه ، وأعلامُها كالألْسنةِ بحمْده لَهِجَه ـ أن يفوّض لفلان ... ... عِلْمًا باستحقاق شَرَفه لهذه الرُّتبه ، وصُعودِ هذه الذِّرْوة والهَضْبَه ؛ ولأنّه الأولىٰ بدرجات الرُّتب النَّفائس ، والأجْدَرُ بجنىٰ فروعها الموَائِس ؛ والإمامُ على الحالَيْنِ إذا قامت صُفوف المساجِد وإذا قعدت صُفُوف المَدارِس ، والعربيُّ الذى إذا رَقِىَ ذِرْوة منْبرٍ أُطْلِقتْ عليه لفظةُ فارس ؛ والوَرِعُ الذى آثر فى مناصبه الباقِيَةَ على الفانِيَه ، ومنابرَ الحِكَمِ المُضيئةِ علىٰ مراتب الحُكْم الماضيه ؛ وعلىٰ مجالِسِ الدَّعاوىٰ مجالِسَ الدَّعوات ، وعلىٰ مَقامِ الصِّلاتِ مقامَ الصلوات ؛ وعلى القَضاءِ القَرْض ، وعلَى الرَّحبةِ (١) ولو كَفَحْص القَطاة من الأرْض ؛ وعلىٰ عَرَض الدُّنيا القليل جَوْهَرَ الفَضْلِ الكثير ، وعلىٰ "كِتَاب أدب القاضى" "كِتَابَ الجامع الصغير" .

(١) لعله وعلى الرحبة المحل الأرق ولو الخ

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركة : خطيبا تَدْرأُ مواعظُه الخُطُوب ، وَاعِظًا من قَلْبٍ تَقِىٍّ تَصِلُ هدايا تُقَاه إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنابرُ تهتزُّ طَرَبًا ببيانه ، نَجِيحًا تكاد أجنحةُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بمكانه ؛ شاملًا بنفحات فضله النَّواسِم ، كاملًا ! لو تقدّم زَمانُه لم يُقَل : « فلا الكَرَجُ الدُّنيا ولا النَّـاسُ قَاسِم » ؛ والله تعـالى يسدِّدُ أقوالَه وأفعالَه ، ويرفَعُ على المنابر والرُّتَب والمراتب مقامَه ومقَالَه ، ويُمَتِّعه بهـذه الرُّتبة التى أشبهتْ معنًى فى الخلافة : «فلم يكن يصلُحُ إلّا لهـا ولم تكن تصلح إلا له» ،

المرتبـــــــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دِمَشْق — ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بالتَّدريس بالجامع الأُمَوِىّ والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتة ، كتب بها للشيخ «فخر الدين المصرىّ» آستمرارًا ، بـ«ـالمجلس العالى» وهى :

رُسِم بالأمر الشَّريف — لا زال لدَوْلَتِه الفَخْر على الإطلاق ، والمَنُّ على الأعناق ، والكَرَم لطالِبِى الإرْفاد والإرْفاق ، والتَّكْرِيمُ والتَّقْدِيمُ لذَوِى التَّأهيل والآسْـتِحْقاق ؛ ولا بَرِحتِ النِّعَمُ الثابتةُ للسَّابِعِينَ بمَدْحه المُطْرِب قائمـةً مقام الأطْواق — أنْ يستقرَّ فلانٌ ... ... نفع اللهُ ببقائه ، ورَفَع عُيونَ الأَنْجُم لدرجات آرْتِقائِه ؛ : لفوائده التى شَمِلَتِ الوَرَىٰ ، وعلَتِ الذُّرا ، وحَمِدَت الأفهامُ عند صَباحها السُّرىٰ ، وقَعد بها مُسْبِلُ ذَيْل الحَيـاء وسار بذِكْره من لا يَسِيرُ مُشَمِّرا ؛ ومَنْزِلَتِـه التى نَصَبت للهُدَىٰ عَلَمًا ، وألفاظه التى أغْربت عن بَدائـع بَهَرتْ فما قَنع بمثلها العلماءُ فَمًا ؛ وآستنباطه

الذى يقول للأول : قال وقلتم ، وأقام وزُلتم ؛ وآحتياطه الذى يقول للسائلين :
آهبطوا من آنتساب حلقته مصرًا فإنّ لكم ما سألتم ؛ وأنّه الفاضـل الذى ما آستنار
بعلمه فتًى فتاه ، والنّافعُ الذى ما آستطبّ بكلماته سقيمُ ذهنٍ فلمّا تحرّكتْ شفتاه
شفتاه ، كم جلس للأشغال فتىً أنفسَ المـارّة عن أشغالها ! ، ونصر العلم فى حلقته
المجنّدة فكان من أمرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ؛ كم سُلّم لبيان بحثه
الحقيقىّ والمجازى ! ، وكم سُـطّرتْ لمناظرته المحمدية مع أهل الزّيغ سيرٌ ومغازى ! ،
وكم خلّص دينارُ فهمه المصرىّ على النّقد فهيهاتَ أنْ يُروزَ مثله «الرّازى» ! ؛ كم فخرت
مصرُ بانتسابه ! ، ودمشق بسُـقيا سحابه ! ، وكم قال الرازى : ليتَ لى هـذا الفخرَ
فأروى فى الأوّل بفتىً خطيبه وفى الآخر بفتىً خطابه .

فليستمرّ ـ نفع الله به ـ على وظيفته المأثوره ، وحلقته التى نُصبتْ على مصايد
كلمـاته المشهوره ، ومائدة طلبـه المنصوبة وذُيولُ منـافعها فى الآفاق مجروره ؛
وليُواظبْ على جُلوسه بالجامع المنشرح المشروح ، ودرسه المتضمّن فتحَ أبواب العلوم
وغيره كما يقال : على المفتوح ؛ سالكًا من نهج الإفادة مسالكه ، مكاثرًا بأجنحة فتاويه
الطّيارة ما يُبسط لديه من أجنحة الملائكه ؛ متصرّفًا على عادة عبادته فى مواطن العلم
والعمل ، مستندًا فى جلسته إلى سارية يقولُ لهـا وقارُه وحلمُـه : يا ساريةُ الجبلَ
الجبَـل ، داعيًا لهذه الدّولة الشريفة : فإنّ دعاء العالم مثـله طائرٌ لآفاق القبول من
أوكار القبَل ؛ والله تعالى يُمدّه بعونه ولطفه ، ويحوطُ مجالسَ علمه بالملائكة المقرّبين
من بين يديه ومن خلفه ؛ بمنّه وكرمه ! .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بتدريس مدرسة القصّاعين ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به
لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحنفىّ المقرى بـ«المجلس السامى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال يقدِّمُ من العلماء أخْرَهم ذِكْرا، وأحْمدهم أمْرا، وأفصحَهم نَسَبَ فَضائِلَ وفَضائِلَ نَسبٍ يقولُ الاستحقاق: كِلاهُما وتَمْرا ــ أنْ يرتّب فلانٌ ... ... : لما شُهِر من علومه السَّنِيّه، وفوائده السَّرِيّه؛ ووجوه فضائِلِه الحَسَنه، وعيونِ كلماتِه المتيقّظة إذا كانت بعضُ العُيونِ مستوْسِنَه؛ ولأنّه غريبٌ فى الوَصْف والمكان، وصاحبُ عِلْمٍ لا يكاد يُوجَد له شَقيقٌ وإن كان منسوبًا إلى « النُّعمان » ؛ وإمامُ قِراءاتٍ ثَبتتْ له فيها على « أبِي عَلِيٍّ » الحُجّه، وتوضَّحتْ ببيانه المَحجّه؛ وتعيّنَ محلُّه الأثير، وروَى الطالبُ من مَلْبِسه عن « نافع » ومن ذِهْنِه فى الفوائد عن « ابن كَثير » ؛ وأنّه ثَغْرُ الحنفيّةِ القائمُ فى السُّمْعة مقام « رَازيها » ، المُطِلُّ بِنَسْرِ قَلَمِه على المعانى إطلالَ بَازيها ؛ « الأكْمَلُ » الذى له من علوم صَدْرِه خِزانه، « الصَّدْرُ » الذى كلُّ صَدْرٍ يشهدُ له بعلُوِّ المَكانَه .

فلْيباشِرْ تَدْريس هذه المدرسة المباركة : حقيقًا بجلوس صَدْرِها، خَليقًا بتَجْديد شرفها وذِكْرها ؛ مُظْهِرًا لخَبايا النُّكَت فى زَواياها، جَديرًا بأنْ يكونَ فى خفايا المسائل ابنَ جَلَاها وطَلّاعَ ثَنَايَاها ؛ يَملأُ ببيان بُحُوثه فِكْرَ الوَاعِى وسَمْعَه، ويُشِيرُ ببَنانِ قَلَم فُتْياه ما يتجدّدُ له من رِفْعَه ، ويَبْسُط إدلالَ الطَّلَبة حتّى يأكُلُوا فى القَصَّاعية معه فى القَصْعه؛ والله تعالى يَسِّره من مدارس الحنفيّة بهذه البدايه ، ويُقِرّه بما يتجدّد من وظائفها التالية : ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ بمنه وكرمه ! .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الطَّرْخانية، من إنشاء ابن نُبَاتة، كُتب به للقاضى جمال الدين « يوسف الحَنَفى » بنزولٍ من والده ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مَواطِنُ العِـلْمِ مُكَمَّلةً بِذِكْرِه ، مُبَجَّلَةً بأمْرِه ، مُؤَهَّلَةً(١) لكلِّ يوسُفِيِّ الجمال يذَّكَّر عزيزُ شامِه عزيزَ مصْرِه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، بحكم ما قرّره مجلسُ الحكم العزيز الشافعيّ ، ونعم المَسالكُ لمذهب شَافِعٍ ، وآتِّباعاً لِمَا حرّره الجناب الشريف التَّقَوِيّ ذُو النَّسَب الصَّحابِيّ الذى كلُّ أمرٍ لأمْرِه تَابِـع ، وعَمَلاً بمـا رآه رأيُهُ الكريمُ الذى إذا كان الجمالُ شافِعاً كان هو للجمال شَافِـع ؛ وإذا أنشأ من أبنـاء العلماء فُروعًا [لا] تميل عليهم الأيام ميله ، وإذا وقفت فى طريقهم الأنداد قال آقتصار نسـبه الأنصـاريّ : يأبى الله ذاك وبنو قيلة(٢) ؛ وقبولا لنزول هذا الوالِدِ الذى أغْرقَتْ فى آفاقِ العِلْمِ مَطالِعُه ، وإقبالاً على هذا الوَلَدِ الذى تَمحَّتْ فى آستحقاق التَّقديم مَطامِعُه ؛ وصِلَةً بنجابة هـذا الفاضل الذى طاب أصْلاً وفَرْعا ، وقَدّم نَفْسَـه ووالِدَه وَتْرًا وشَـفْعا ؛ وهـذا البَادِى الشَّيبِيّة الذى يأْمُر بفضائله على الشَّيب ويَنْهى ، وهـذا الوَاضِحُ الدِّلالَة على مَفاخِر قَوْمِه : فَحَبَّذا الدَّعْوى وبيِّنتها منها ؛ وهذا النَّجيبُ الذى قَدّمه أبوه مُنْجبا ، وذَكاؤُه معجبا ، وقَلَمُـه فى الأوْراق مُعْشِبا ، وآشْتِغالُه : إذْ قال يُوسُفُ لأبِيـه يا أبَتِ إنى رَأيتُ من محفوظات كُتُبِى ما يقارب أحَدَ عَشَر كَوْكَبا ، وإذا دَرَّس كان لطَلَبَتِـه مَلاذا ، وإذا عانَدَه مُعانِدٌ قال برفيع هِمّته : يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذَا ، وإذا قرأ كُتبَ فَصاحَتِه أذْهل ذَوِى الألْباب ، وإذا فتح لتفسير كتاب الله فاتِحةً ، عُوِّذَ بفضل : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ وإذا رَوَى الأحاديثَ أطربتْ حَقِيقَتُه السماع ، وإذا أخذ فى دَقائِق النَّقْـلِ والعَقْل عُلِم وعُقِل أنَّ الفِكْرة صَنَاع .

(١) فى القاموس «أهله لذلك رآه له أهلا» .

(٢) هى قيلة بنت كاهل أم الأوس والخزرج .

فليباشِرْ هذه المدرسةَ المباركةَ ببيان عَرَبىٍّ وإن كان نَسَبُها طَرْخانيًّا، وعِلْم رَوْضىٍّ لا يَعرِفُ العلماءُ شقيقَه وإن كان مَذهبُه نُعمانيًّا ؛ ومَباحثَ تُذْكى نارَ قَريحَتِه : فكَمْ طَبَخَ لأنداده من أصْحاب «القُدُورِىّ» قِدْرا ، ولُزوم دَرْسٍ يسُرُّ أباه بمذهبه : فإنّه القاضى «أبو يُوسف» خَبَرًا فى الحقيقة وخُبْرا ؛ والله تعالى يصُونُ شبِيبَتَه المقبلةَ من طَوارِقِ الحَدَثان، وينفَعُ بعلوم بيْتِه التى من شَكَّ منها فى الحَقّ فكأنه من الحُدْثان.



وهــذه نسخةُ توقيع بتَصْدير بالجامع الأُمَوِىّ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به لـ«شمس الدين بن الخطيب» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالَتْ نِعَمُه ظاهِرةَ الفَضْــل كالشَّمْس ، طَــاهِرةَ الوُضُوح من دَنَسِ اللَّبس، وَافرةَ النُّمُوّ فيَوْمُها قاصِرٌ عن الغَدِ زائدٌ على الأمْس ــ أنْ يرتَّب فلانٌ فى كذا ويرتَّبَ له كذا على المصالح، فكم للسلمين فى جامع عِلْمِه مَصالِحُ، وفى مَنافــعِ قَصْده مَناجِح ؛ وفى فَوائِده نَصيب، وفى طُرُقِ هُــداه مَعالِم : ولا تُنْكر "المَعالم" لابن الخَطيب ؛ ليتناوَلَ هــذا الرَّاتِبَ المُســتَقِرَّ من أحَلِّ الجهات وأجَلِّها، وتكونَ شَمْسُــه المُباركةُ خيرَ شَمْسٍ تَجْرى لمُسْتَقَرٍّ لَها ؛ عِوَضًا عما نَزل عنه من تَدْرِيس الحَلْقَــة المعدوقَة بصاحب حِمْص وتصــديرًا بالجــامع الأُمَوِىّ يبســط به أنواره الشَّمْسِيَّه ، وينقُلُ اسمــه إلى إمْرةِ العِلْم بدِمَشْق عوَضًا عن الحَلْقَــةِ الحِمصيَّه ؛ فليعتمد ما رُسم به ، ولا يَحَوّل عما قَضَى العدلُ والإحسانُ بمُوجَبِه .

الضــــرب الثــانى

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بالشام — ما يكتب به لمن هو بأعمال دمشق ، وهو على مرتبتين)

المرتبـــــة الأولى

(ما يفتتح بـ «أما بعد حمد الله » وفيها وظائف)

توقيع بتدريس المدرسة النورية بدمشق[1] ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كتب به القاضى زين الدين «عمر البلفيانى» بـ«المجلس العالى» وهو :

أما بعـد حمد الله الذى جعل لوجوه العلم زينا وأى زين ، وأقر لأماكنها عينا بمن يكون التنبيه على فضل مكانته فرض عين ، ونشر أحاديثها بمن إذا حدث عن يد تمكنه فى العقل والنقل قيل: صدق «ذو اليدين» ، وأحيا مذاهبها بمن إذا عقدت الخناصر على أمثاله العلماء كان أول العقد وثانى الغيث وثالث « العمرين » ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبـده ورسوله الذى أوضح تبيين الهـدى وسنه ، وأرهف شبا الحق وسـنه ، وعلى آله وصحبه الذين منهم « على » مفتاح مدينة العلم و« عمر » سراج أهـل الجنة ، ما جرت أقلام العلم والجود فى هذه الأيام الصالحية طلقة العنان مطلقة الأعنة — فإن أولى العلماء بمدارس علم لا خلت ، ومجالس فهم عزت بأهلها فلا تعزلت ، ومشاهد عقل ونقل لاعقلت ألسنتها بعد مستحقيها ولا انتقلت — من أضاءت مشكاتها النورية بمصابيح كلمه ، وفتحت كمائمها النورية عن زهرات الهدى بقطرات قلمه ، وتذكرت بأوقاته الأخيرة عهود أهلها من هداة الاسلام وأوقات ذى سلمه .

(١) صوابه بحمص ، كما يؤخذ من التوقيع .

ولمّا كان فلانٌ هو المقصودَ بخلاصة هذا المعنى، والمَمْدودَ إليه نَظَرُ هذا الوَصْفِ الأَسْنى؛ والعَالِمَ الذى تشبث بأسباب محاسِنه بلَدُ «الهَرَمَيْن»، والسابق وإن خَلَا وقْتُه الطاهرُ خلف وقت «إمام الحَرَمَيْن»؛ كَمْ اجْتَنَى ثَمرَ الفوائِدِ من أصْلٍ وفَرْعٍ!، وكَمْ باتَ قَلَمُه من وَرَقِ فَتاوِيه وإسكاتِ مُناوِيه بين وَصْلٍ وقَطْعٍ!؛ كَمْ صَدَق بَرْقُ بَدِيهَتِه الأفكارَ حين شَامَتْ!، وكَم نَبَّهتْ عند ليالى المُشْكِلات «عمر»(١) ثم نامَتْ!؛ وكم تهادت نَظَرَه كُتبُ العِلْمِ حتّى قال "كتاب الأم" : نِعْم الوَلَدُ النَّجيب، وقال "كتاب الروضة" : نِعم أخُو الغائث الصَّائب على رِياض القَوْل المُصيب؛ وقال "الشامل" من فضله : هذا لطلبته "نهاية المَطْلَب"، وقال "التنبيه" على محاسِنه : لَيْتَ «النَّابغةَ» رآه فدَرَى أىُّ الرِّجال «المُهَذَّب» وكانت المدرسة الشَّهيدية النُّورِيَّةُ بحِمْص المحروسةِ قد شَهِدتْ مع مَن شَهِد بفَضْلِه، وسَعِدَتْ بنُبْلِه؛ ووُسِمَتْ بعَلَمِ عِلْمِه، وسَمَتْ سُمُوَّ الشهباء : هــذه بمقَرِّ تَدْرِيسه وهذه بمجلس حُكْمِه؛ ثم زار دِمَشْقَ زَوْرَةً تشوَّقَتْ [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتَشَوَّفَتْ إلى العَوْدِ هَاتِيكَ المَعاهِد؛ وقضى الوفاءُ أن يُعادَ إليها أحْسنَ إعادَه، وأن يَرجِعَ إلى الأماكن الشهيدية الشاهدة ببرّه فتكون منه عادةٌ ومنها شَهادَه، واقتضَى الاستحقاق أن يَرُدَّها بالمعلوم المُستَقِرّ وزيادة وأحْسنُ ما وُرِدَ البَحْرُ فى الزِّيادَه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ أعلاه اللهُ وشرّفه، وحَلَّى بسِيَره الصالحةِ سَمْعَ الدَّهرِ وشَنَّفَه ــ أن يستقرّ فلانٌ فى تَدْرِيس المدرسة النُّورية بحِمْص المحروسة على

(١) يشير الى بيت بشار فى مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدى .

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبــه لهـا عُمَـرًا ثم نم

وبعـده

فتى لا ينام على غـرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلى نَهْج إفاءته وإفادته ، بالمعلُوم المقرّر له بمجلس الحكم العزيز الشافعى بدِمَشْق المحروسة : رِعايةً لتلك المعاهد النُّورِيّة التى تتأرّجُ بها الآصالُ والبُكَر، وأنوار القبول القائلة لوَفْدها الطارق : «عَلَيْك سلامُ الله يا عُمَر» .

فليعُدْ إلى هذه الوظيفة عَوْدَ الحُلِيّ إلى العاطل ، وليُقبِلْ على رُتْبته المرتقبة إقْبال الغَيْث على الماحل، وليَقُلْ بلسان تقدُّمه لمعانديه : إنْ كان أعْجبكم عامُكم فعُودُوا إلى حمص فى قابِل؛ ولْينصُرْ بِقاعَها الحِمْصيّةَ بجِلادِ جِدَاله فإنّها من أوّل جُنْد الإسلام ، وليَقُم الآنَ فى هذه الأوقات الشّاميّة فإنّه بَرَكَةُ الوقْت والبركةُ فى الشّام، مُثْمِرًا من أقلام علومه أزكَى الغُرُوس، مُظْهِرًا من مَباحِثه النّفائسَ مُبْهِجًا من طَلَبَته النُّفوس، عَامِرًا لمعاهدها بدُرُوسه : ويا عَجَبًا لمَعاهِدَ تُعْمَرُ بالدُّروس! ، ذاكرًا للوصايا الحسنة التى لا تُقَصّ عليه فهو أخْبرُ بها، والتى من أوّلها وأوْلاها تقْوَى الله تعالى وهى بأفعاله أمْسَكُ من تفاعيل العَرُوض بسَبَبِها؛ والله تعالى يُعَضِّدُه فى رِحْلَته ومُقَامه، ويمتع الرُّتَب تارةً بمجالس دُرُوسه وتارةً بمجالس أحْكامه ، ويُرْوِى صَدَى مِصْرَ والشّامِ من موارد عِلْمه : هذه بأوْفى من نِيلِها وهذا بأوْفَرَ من غَمَامه .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دِمَشْقَ ـ
ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بحِسْبَة بَعْلَبَكَّ : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كُتب بها لـ«شهاب الدين بن أبى النور» ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ شُهُب أوامره عالية السَّنا والسَّناء، وفيَّةً لذوى الاستحقاق بمزيد الاعتناء والاغتناء ، جليّة البرّ بمن شهد بحُسْن حِسْبته حتّى لسانُ الميزان وفمُ الكَيْل وشَفَةُ الإناء ـ أن يستمرّ فلانٌ ... ... لِمَا ذكر من أوصافه التى ضاعَفتْ فيه الرَّغبَه ، وحالفَتْ به سُموّ الرُّتبه ، وشَهِدتْ بهما حِسْبَتُه تِلو الشُّهود : وحَسْبُكَ من اجتمعَتْ على فضله شهادةُ القَرْض وشهادة الحِسْبَه ؛ ولِما صحّ من كَفَاءته وتجريبه ، (وَمَع فى هذه الوظيفة من تدريبه التى تَدْرى به ؛ ولِما تعيّن من استمرار شِهابِه فى المنزلة التى تَكْتسِى من أضوائه وتكتسب ، وهذه الرتبة التى تعلو بمعرفته : وكفاه أنّه يرزق من حَيثُ يحتسب ومن حَيثُ لا يحتسب ! ؛ وأنّه فيهما ذُو الرّأى الزّائد، والنّفع الوارد ، والشّهابُ الذى نُورُ هُداه فى وجه المريد وأثَرُ كَىِّ حِسْبته فى وَجْه المارد ؛ وأنّه وَلِيَها ولايةً لا تزال تُذْكر وتُشْكَر ، وعُرِف بوفائها وكان أوفىٰ من أمَرَ بمعروف أو نَهىٰ عن مُنْكَر ؛ وأنّه قام حقّ القيام حتّىٰ قال البلد : رَعَى اللهُ زَمانك ، واجتهد حتّىٰ قال الاعتبار للميزان : لا تذْكُر الزَّيْغَ ولا تُحرّك به لِسانَك .

فليستمرّ فى حِسْبته المباركة استمرارًا يُستحلىَ ذِكْرُه ، ويُستجلىَ فى الأسْم شِهابُهُ وفى السَّمَة بَدْرُه ، وليَحتَسِبْ فى نَفْع المسلمين حِسْبَةً يحتسبُ بها عند الملكة ثناءَه وعند الملائكة أجْره ؛ سالكًا علىٰ نَهْج العَزْم الجميل ، جاعلًا أوّل نَظَره من أقوات الرَّعِيَّة فى الدّقيق والجليل ؛ مُستَبينًا لما التبس من غِشّ المطاعم والمشارب فلم يَستَبِن ، حاكمًا ـ ولا سيّما فى قاعات بعلبك ـ برأيٍ يُفرّق بين الماء واللّبَن ؛ حاثًّا علىٰ بَيْع المآكل بخِبْرةٍ من مَلاِ بصره ، حَريصًا علىٰ أن لا يُنْشِدَ لِسانُ الدّاخِل فيه « ومَن لم يَمُتْ بالسّيف مات بغَيْره » ؛ دافعًا ضَرر المُجْتَرِى البائع عن المُشْتَرِى المسكين ، ذكيًّا فيما يُذَكّى فيَذْبَح بسِكّين ويذبح مُتَناوِلَه بغير سكّين ؛ قاضياً بالحقّ فى كلّ ما يُشترىٰ

ويباع ، متكلمًا فى أنواع الملابس وغيرها بالباع والذّراع ؛ وَازِنًا بالعَدْل فى كلّ مَوْزون ومَكيُول، رَادِعًا لكلّ عمّـالٍ مُداهنٍ فى كلّ مَدْهون ومَعْمول ، حاملًا على الحـال المستقيم كلّ حَىٍّ لديه وكلّ من هو على آلةٍ حَدْباءَ محمول؛ ومن زاد فى الإضرارِ فليَمتنع زائده ، ومن زاد فى الاشتطاط وتجبير الشراء فليقطع بالنّكال زائده ؛ ومن دَنَّس فى الأشربة فلا يلبث أن يُغلِّظ التأديبَ وأن يُريقه ، ومن سَقَى الضُّعفاءَ منها كما يقال: سـقيةً فليَسْقه من السَّوْط ما يكاد ينثُر جِسْمَه على الحقيقـه ؛ ومن عَانَى صِـناعَةً ليس له فيها يدٌ فليلْزِمْه بما بَسط فى إفسادِه اليَدَيْن، ومن حكم فى صِناعَةِ الطّبِّ بما لم يَسُغ فى المسائل فليَصْرفه منهـا بخُفَّىْ حُنَيْن ؛ ومن تَمرّد فى مُعاملته فليردّه بالقَهْرِ إلى صالح مَرَدّه، ومن عَدَا وعَتَا فليُعامِلْه بمـا يخرجه من التّرح لا من الفَرَح من جِلْدِه؛ مِقْداماً فى الأمر بالمعروف والنّهىِ عن المُنْكر ولا جَزَع، مُسْـتعينًا بالديوان فيما أهمّ : فإنّ الله يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَع ؛ مجتهدًا فيما يزيد تقدُّم سَـعيه المشكور، وصُـنْعه المبرور، مُنيرًا لآفاقِ منْصِـبه وكيف لا وهو الشّهـاب بن أبى النُّور؟ ؛ وتَقْوى الله تعـالى هى السبيلُ الأقوم فليكُنْ لها مِنْهاجا، وليُواظِبْ على طريقةِ الحقّ : فكَمْ شَرٍّ عنها حاد وكَمْ خيرٍ منها نجَا ! .

* * *

توقيعٌ بنظر السبيل بذرب الحجاز، بالركب الشامىّ ، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى «قطب الدين السبكىّ» وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال يُقِرّ بالوظائف الدّينيـة من يُحِبُّها وتُحِبّه ، ومَن يتواردُ على ذِكْره بادِى الشُّكر وركْبُه، ومن إذا بدَتْ مطالِـعُ الخيْر فهو نيّره وإذا دار فَلَكُ الثناء فهو قُطْبُه ـ أن يستقرّ ... ... : لمـا ذُكِر من وَصْفه الجميل، واستحقاقه الذى دلّ

البرهانُ فى مَحْفِلِه وبرهَنَ فى مَوْكِبِه الدليل ؛ ودِيانَتِه التى هى لمبانِى الأوْصاف الرَّفيعة أسَاس، وكفَاءَتِه التى لهـا من نَفْسِه نَصٌّ ومن نَفْسِ قومه قِياس؛ ومَرْباه فى بَيْتٍ تُقًى مَحَّصَتْ تَجارِبُ مَعْدِنه على السَّبْك، و[دلت] مَناقِبه على آستحقاق الرُّتَب التى يقول بَشيرُها : قِفَا نَبْتَسِمْ ! ويقولُ حاسِدُها : قِفَا نَبْكِ ؛ ولَمَّـا تقدَّم من تَشَوُّفه لهـذه العَزْمة الناجحه ، وتَشَوُّقه من هـذه المبَرّة الشريفة الصالحِيَّـة بسُلوك تلك الفِجاج الصَّالحه ؛ ولأنَّ الضَّعْفَ عاقه عن المـاضى فأطْلقتْه الآنَ هذه القُوَّه ، وجعلتْ له بأوْفَى القادرين على الحسنات والإحسان أُسْـوَه ، ومكَّنته فى هذه الشُّقَّة الطويلة على سَحْب أذيال المعروف من منزل الكُسوة إلى منازل ذات الكُسْوه .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ المبرورةَ بعزْمٍ يُبِير من الوَجْد مَا كِنَه(١) ، وحَزْمٍ يُثِير من المَدْح المشكورِ كَامِنَه ، وسُمْعة على ألْسنة التذكار تَمضى وتَبْقى حتَّى تكاد تكون للكواكب السبعة ثَامِنَـه ؛ مُتَصرِّفًا فى الإرفاد والإرفاق ، بآراء يؤيد الله [بها] الذين هم رِفاقٌ وأىُّ رِفاق؛ مُنفِقًا فى سبيل الله على يده أعْدلَ إنْفاق ، حاميا مَدْله من لَفْظة نِفَاق؛ مُخْصِبا بإنعام الدَّولة الشريفـة فى القَفْر المـاحل ، حاملًا للمنقطع على أنهض وأبرك الرواحل؛ مُواصِلًا لنَقْل الأزْواد إقامَته ومَسِيرَه، وبالماء والشَّراب الطِّيبين الطَّهُورين ضَعِيفَه وفقيرَه، وبأنواع الأدْوية والعقاقير التى تَمُّ متابع الرَّكْب [و] عقيره، وتَجبُر على الحالين كَسيرَه ، وبوَفاء جميع المستحقِّين تاليًـا عن لسان الدولة الشريفة : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِـيرَة) داعيا بخُلُود مُلْكها فى تلك المشاهـد التى هى بقَبُول مَصَاعِد الدَّعوات ونُزُول مواعد البركات جَدِيرَه ؛ والله تعـالى يتقبَّلُ دعاءه وسعيه ، ويُحْسن كِلاءَتَه ورَعْيَه ، بمنه وكرمه ! .

---

(١) يريد مكينه ولكنه اضطره السجع الى موافقة العامة .

الصـــنف الثـالث

(من التواقيع التى تُكتب لأرباب الوظائف بِدِمَشْقَ ـ مايكتب لأرباب الوظائف الدّيوانية، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مايكتب لمن بحاضرة دِمَشْق منهم ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يفتتح بـ«الحمــد لله» وفيهـا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيعٍ بكتابة الدَّسْت بِدِمَشْق ، كُتب به لتـاج الدين « عبـد الوهاب » ابن المنجا التنوخىّ، عِوضًا عن شمس الدين «محمد بن حميد» بالوفاة، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تاجَ الأولياء أيْمَا حَلَّ حلىَّ المراتبِ وزَانَها، وغدا على التَّحقيق كُفْأَهَا ووِزَانَها ، وألبسها من براعتِـه ويَراعتِه عقودًا تزْرُ دُرَرها وجُمانَها ، ومَنح دَسْـتَها العلىّ من ألفاظها المَجيدَةِ بَيانَها ، وزادها بأصالَتِه فخـارًا يستصحبُ وقتَها وزَمانَها، وأرتقىٰ ذِرْوتَها التى طالَمَا زاد بالمعالى أركانَها، فتبوَّأ بمزيد المَجْد مكانَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجْملتِ آمْتِنانَها، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تشهدُ القلوبُ إيمـانَها ، ويدَّخرُ القائلُ إلى يوم المَخـاف أمانَها ، ويَتَبوَّأُ بهـا فى الدّار الآخرة من يُخلص فيها جَنانَه جِنانَها ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ تعالىٰ به الشريعةَ المطهرةَ وأبانَها ، وشرَّف هذه الأُمّةَ ورفع علىٰ جميع الأمم شانَها ، وبعثه رحمةً إلىٰ كافَّة الخلقِ فأقام بمعجزاته دليلَ

الهـداية وبُرهانَها ، وأطْفأ بنُورِ إرشادِه شَرَرَ الضَّلالة ونِيرانَها ، وأنْمد بدينـه القويم وصراطِه المُسْتقيم مُعْتَقَـدات [طوائف] الشِّرك وأديانَها ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن نَزّه نفسه النَّفيسةَ وصانَها ، وسلَكَ فى خِدْمتـه وصُحْبته الطريقةَ المُثْـلىٰ فأحسن إسرارَ أُمورِه وإعلانَهـا ، صلاةً دائمةً باقيةً تحمـد بالأُجُور اقترانَها ، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ أولىٰ من جَدَّدنا رِفْعةَ تاجِه ، وسدَّدْنا قولَه فى مجلس حَفْلٍ يلشرفيه بكلمة الحقّ ما انْطوىٰ من أدْراجِه ، وحدَّدْنا له محلّ سفارة يَلْحَظُ فيه حوائجَ السائل فيُغْنيه عن إلحاحِه ولَجاجِه ـ من هو فى السُّؤدد عَرِيق ، ولسانُه فى الفضائل طَلِيق ، وقلمه حلّ الطروس بمـا يفُوقُ زَهْرِ الرِّياض وهو لهـا شقيق ، وكان فلانٌ هو الذى علا تاجُه مَفْرِقَ الرآسه ، وجَلَا وصفه صُوَرَ المحاسِنِ والنَّفاسه .

فرُسِم بالأمر العالى ـ لا زال يُولِى جميلا ، ويُولّى المناصبَ الجليلةَ جليـلا ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة تَوقيع الدَّست الشريف بالشام المحروس ، عوضًا عن فلانٍ بحكم وَفاته إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً تُشكر مَدَى الزمان ، وتُحمدُ كلَّ وَقْتٍ وأوان ، ويُملأُ بالأُجور لنا صُحُفًا بمـا يُؤَدّيه عنّا من خيرٍ وإحسان ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التقوىٰ ، فليلازم عليهـا فى السِّرِّ والنَّجوىٰ ، والله تعالىٰ يحرسه ويرعاه ، ويتولّاه فيمن تولاه ، والاعتماد ... ...

❖

[وهذه نسخةُ] توقيعِ بنَظَر الخـاصّ ، من إنشاء ابن نُباتة ، كتب به للقاضى «بهاء الدين بن ريان» ، وهى :

الحمدُ لله مُعلى رُتب الأعيان ، ومبقى أحبـاء السيادة على ممر الأحيان ، ومُبدى "بهاء" المناصب ، بمن فضلُه الواضح والصبحُ سيّان ، ومُنشى ثمرات المناقب ، فى منابتِ أهلِها حيثُ الفرعُ باسقٌ والأصل "ريّان" .

نحمدُه على أنْ يسّر البيتَ المعلّى بحسَنه ، وأيقظ جَفن الآمال من وسَنه ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تجمع لنا من خيرى الدُّنيا والآخرة كَرَم المطّلبين ، وشَرف المَنصِبين ، ونشهدُ أن سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه المشرِقُ فضلُه على أهل المَشرِقَين والمَغرِبَين ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين أصبح الثناءُ عليهم وقفا ، واشتمالُ الذّكر عليهم عَطفا ، صلاةً تُضيءُ آفاقَ القَبُول بشَمْعة صُبْح لا تُقَطُّ ولا تُطْفى ؛ وسلّم .

أما بعـدُ ، فإنّ للناصب الدينية نِسْبةً ببيوت أهْلِ الدّيانه ، ولخاصّ الرُّتب تعلقًا بالخاصّ من ذوى الكَفَاءة والأمانَه ؛ والمنازلُ بكواكبها المتألّقَه ، والحدائقُ بمغارسها المتأنّقه ، ونفوسُ الدِّيار بسُكّان معاهدها المُتشوّفة المتشوّقه .

ولـمّا كان الخـاصُّ الشريفُ والوقفُ المنصوريُّ لوجْه المناصب الشامية بمنزلة حُسْن الشامَتَيْن ، ولرائد الخِصْب من جِهَتَى الدنيا والآخرة بمحلِّ نَفْع الغمامتين ؛ هـذا علىٰ صُنْع البرِّ الممدودِ مَقْصور ، وهذا لسَحاب الخَيْر سَفّاحٌ لأنهر جِهَة لـ«المنصور» ؛ يعْلو هـذا بالنّاظر فى دقائقه إلىٰ أعْلَى الدَّرَج ، ويتْلو هـذا بلسانِ ميزانه المُنْفق على المـارستان : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ ــ لايليق الجَمْعُ بين رتبتيهما إلّا لمن يجمع بسَـعْيه فضْلَ الدّارَيْن ، ومن يُجيدُ بَنانُ قَلَمه الحَلَبِيّ حَلْبَ ضَرْعَيْهما الدّارّيْن ؛ ومَن نَشأ فى بَيْتِ سعادةٍ أذنَ اللهُ لقَدْره أنْ يُرفع ، وأقلامِ بيته أن تَنفع ، ولمحاسِنِ ذَوِيه أن تَشْفعَ بجمالهـا إلىٰ قلوب الأوْلياء فتُشَفَّع ؛ ومَن يَسُرُّ برواية فَضْله وبرُؤْيته السَّمْعَ والعَيْن ، ومَن يفْتَرِض شَرفُه وشرفُ

إخائه حُبَّ «الحَسَن» و «الحُسَين» ؛ ومن تَبْتهِجُ جوانحُ المحاريب بتَعبُّده ، وتَلْهَجُ ألْسِنةُ مصابيح المساجد بالثَّناء علىٰ تردُّده وتَودُّده ، وتَسْتَبِقُ جيادُ عَزْمه : فبينَما الكُمَيْتُ فى الشَّهْباء تابِعٌ أدَبه إذا بآبن أدْهم رَسِيلُ تَزهُّده ؛ ومن تقولُ مناصبُ حَلَب : لله دَرُّ بهائه المقتَبل ! ؛ ومن ينشدُ ثباتُ وَقاره مع لطافة خُلُقه : «ياحبَّذا جَبَلُ الرَّيّان من جَبَل» ! ؛ ومن تَنْفَحُ أخبارُه مَنافِحَ الأزْهار ، ومن يشهدُ بفَضْله جيشُ المحراب فىالليل و بمباشرته جَيْشُ الحَرْب فىالنهار؛ ومن تأسى بلدةٌ فارقها فِراقَ العَيْن للوَسَن ، ومن يَروِى صامِتُ دِمَشْق وغيرها من تَدْبيره عن«عامِر» وعن«حَسَن» .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال من ألقابه الشريفة صالِحُ المؤمنين ، وعِمادُ الدَّاعِينَ لدَوْلته القاهرة والمُؤَمِّنِين ـ أنْ يفوّض لجناب العالى ... ... فإنّه المَعْنِىُّ بهذه الأوصاف المتقدِّمه ، والمقصودُ بإفاضة حُلَلِها المُعْلَمَه ؛ والموصوفُ الذى يحلُو وَصْفُه إذا كُرِّر ، ويَسْتَعْبِدُ الأوصافَ والأسماعَ إذا حُرِّر ، والأحَقُّ برُتْبَةِ عِزٍّ فى النُّظار مَضَىٰ وأبقىٰ ثناءَه ، ومكانَ نَظَرٍ إن لم يقُلِ الدعاءُ اليَوْم : أدام اللهُ عِزَّه ! قال : أدام اللهُ بَهاءَه ؛ واللائقُ بتَقريرِ مَنْصِبٍ تَقصُرُ دونَه المطامع ، وتَصْديرِ ديوانٍ إن آنقطعَتْ رِوايتُه عن «حَمْزة» فقد آتَّصلتْ رِوايتُه عن «نافِع» .

فليباشِرْ هذَيْن المَنْصِبين المُنْجِبَين ، مجتهدًا فى مصالح الخاصّ الشريف ، والوَقْف الذى لا تحتاج هِمَّتُه فيه إلىٰ تَوْقيف ؛ حتّىٰ يكونَ خيرُ الخاصِّ عامًّا ، وأمرُ الوقف تامًّا ، ورَيْعُهما بالبركات خيرَ محفوف ، والمنصورىُّ من جهة المعاضدة قد أمسىٰ وهو بالسَّعْدَيْن موصوف .

والوصايا متعدِّدةٌ وهو أدرىٰ وأدْربُ بها ، وتَقوى الله تعالىٰ أوْلىٰ وَصِيَّةٍ تمسَّكَ المرءُ بسَبَبِها ، وشكرُ النعمة أدلُّ علىٰ نَبِيهِ هِمَم الرجال وعلىٰ فضل مُهَذَّبِها ، واللهُ تعالىٰ يسدِّدُ قَلَمه ، ويثبِّتُ فى مطالع العزِّ قَدَمه ؛ بمنّه وكرمه ! .

*
* *

توقيعٌ بنظر الخزانة العاليــة، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين ابن أبى الطَّيِّب» بـ«الجناب العالى» وهو :

الحمدُ لله الذى له خزائنُ السموات والأرض، وبحكمته يَهَبُ منها مايشاءُ لمن يشاءُ رَضِىَ المُعاندُ أمْ لم يرْض ، وبمنّته فُضِّلتْ مراتبُ أهلِ التُّقىٰ على الرُّتَبِ كما فُضِّلَ على النافلة الفَرْض ، وبعنايته بُنِيتْ بيوتُ أهــلِ السِّيادة على الطُّولِ وبَقِىَ صالحُ عملهم إلى العَرْض ، وبهدايته سمــا إلىٰ أعْلَى الخزائنِ من تُقرِضُها أوصافُ قلبــه وقلَمِ أبيه أحْسَنَ القَرْض .

نحمدُه علىٰ مامنح من خزائن فَضْله، ونشكُره والشُّكرُ ضامنُ المَزيد لأهْلِه؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يدَّخرُها الإنسان لنيّته وقوْله وفعْله ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جمع بفَيْئه وفرّق ببَذْله ، وأعطىٰ مالم تَنْطَوِ ضمــائر الأكياس فى صُــدُور الخزائن علىٰ مِثْـله ، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه السَّالكين سَنَنَ فضيلته وفَضْله ، التابعين فى الكَرَم والبأْس قِياسَ بيَانه ونَصَّ نَصْله ؛ ما أطْلعتْ خِزانةُ الوَسْمِيِّ آثارَ نُقَط الغَيْث كالدَّراهِم ، وخَلَعتْ على الدنيا خِلَعَ الروض مُتَقَلِّنسةً بمُسْتديرِ الظِّلال مَزْرُورةً بمعقودِ الكمائم ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ الرُّتَبَ ذَخائرُ قومٍ فى خزائن الاختيار، وأخايرُ أهْلٍ تزكو نقودُ شيمهم علىٰ محكِّ الاعتناء والاعتبار، وفروعُ خَلَف تظهر مَظاهرُ نُصولها الزكيَّة سابغةَ الظِّلّ رائقةَ الزَّهر فائقةَ الثِّمار، إذا احتيج منهم إلىٰ ذخيرة نَفَعتْ، وإلىٰ أخير وقفت أربىٰ علىٰ عزائم الأوَل وما صنَعتْ، وإلىٰ فُروعِ شجرةٍ سرتْ محامدُها الضّائعةُ : لا ممّــا ضاعَتْ بل ممّــا تضوّعتْ .

ولما كانت رتبةُ نَظَرِ الخزانة العالية بدمشق المحروسة أحقّ بمن هذا وَصْفُه ، وهذا نَعْته فى مُقدّمة الذّكر الجميل وهذا إليه عَطْفُه ، إذ هى مرتبةُ العَلْياء ومكانُها ، وزُهَرة سَماء الملكة وميزانُها ، ومَنْشأُ غُيوث صِلاتها الهَامِرَه ، ومَنْبِتُ رياض خِلَعِها الزّاهِره ، وأُفُق السعادة ومَطْلَع نجمها المُنير ، وجَنّة أولياء الدّولة ولباسُهُم فيها حَرِير ، ومَغْنَى شَرَف الاكْتِساء والاكْتِساب ، ومأْوَى الفاضِل – والحمد لله – الذى يَحْفظها التحصيلُ بحساب ويُعْطيها الجُودُ بغير حساب .

وكان الجناب ... ...[1] ممن تضم أعطافه أنوار السّعاده ، وتَحُفُّ أطرافه و ... ...[1] السِّياده ، وتَنْتقِلُ جِلْسته : إمّا من تنفيذ الديوان لمَرْتَبة و إمّا من تدريس العِلْم لسَجّادَه ؛ ذُو الفَضْل والفضائل حَسَنُ التَّجْنيس والتَّطْبِيق ، والكتابةُ : من حساب وإنْشاءٍ زاكيةُ النَّشْرِ عَلَى التّعليق ؛ ونفحات البر من نفحات العيش أجود ، والشبيبة فيها النهىٰ فكانه كما قال البحترىّ : نسبٌ أسْوَد ، والهِمَم التى حاولَتْ مَنال الشُّهُب المتنعة وَلاتَ حِينَ مَناص ، والكلمة التى لو عاينَ « البَصْرىُّ » فرائد نَحْرِها لقال : كلُّ هذه دُرّةُ الغَوّاص ، والعَزائِم التى رامتِ المناصبَ فما قَبِلَتْ من خِزانتها سوَى الرَّفيع وما رَضِيَتْ من دِيوانها سِوَى الخاص ؛ كَمْ نبَّهتْ منه المقاصدُ « عُمَر[2] ثم نَامَتْ ! » ، وكَمْ أجلسَتْه كواكبُ اليُمْن فى صَدْرِ مَحْفِلٍ ثم قَامَتْ ! ؛ كَمْ حَوىٰ من الحَمْد سَنِيّا ! ، وملأ الرِّباعَ خيراً وَفِيّا ! ، وقَيَّضَ اللهُ للفقراء والأيتام حَنانا من لَدُنْه وزكاةً وكان تَقِيّا .

---

(١) بياض بالأصل فى الموضعين .

(٢) أخذه من بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا ❊ فنبه لها عُمَرا ثم نم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ وكان على طبرستان .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا بَرِحَ صَالِحَ الدهرِ كالزَّهرِ، مالكَ نُفُوس الأوليـاءِ والأعداء : هاتيكَ بالإنعامِ وهاتيك بالقَهْرِ ـ أنْ يفوّضَ إليه نظرُ الخزانة العالية مُضافًا إلىٰ ما بيَدِه من نظر الخاصّ الشريف : لأنَّ مِثْلَه لا يُصْرفُ عن وَظِيفَة بسَنَاهُ تَعْتَرِف، ومن نَدَاهُ تَغْتَرِف، وأنَّ ٱجْتِماعَ العَدْلِ والمَعْرِفَةِ قاضٍ بأنَّ «عُمَـر» لا يَنْصرِف ؛ وأنَّ الخاصَّ لخـاصِّ الأولياءِ أمسُّ مكانَه ، وأنَّ الخزانَةَ أنسبُ بمَن عُرِف بالصِّيانَة ؛ وأنَّ خزائِنَ الأرضِ وهي مِصْرُ لو نَطقَ نَظيرُها لقال : ليسَ لِي مِثْلُ هـذه الخِزَانَة ؛ وأنَّ عينَ الأعيان أوْلىٰ بالنَّظَر، وأنَّ الأنظار لا بل الصَّحابَةُ أحقُّ بـ«عُمَر» ؛ لِمَـا عُلِمَ من سِيرَتِه النَّقِيَّه ، وسَرِيرَتِه التقيه ، وصفاتِه التي يمتدُّ فيها نَفَسُ القَوْلِ حتّى ينقطِعَ وفي الأوْصافِ بعدُ بَقِيَّةٌ وبَقِيَّه .

فليباشِرْ مافُوِّضَ إليه من أعْلَى المراتِبِ المُنْجِبات، والوظائفِ المُعْجِبات المُعْشِبات، والجهاتِ التي مالَهـا كَنِيَتِه الطِّيِّبِي : والطَّيِّبون للطَّيِّبات ؛ مُسْتَجِدًّا من نَظَرِ هـذه الخزانة ثَوْبَ سَعْدِه الجديد، مُعْمِلًا في مصارف الذَّهب والفِضَّة بَصَر آرائه الحَدِيد؛ مُنَبِّهًا لهـا عَزْمَه العُمَرِيَّ ونعم من يُنَبِّه ، مُشْبِهًا في الكَفاءَةِ أباهُ المرحُومَ وما ظَلَمَ من أشْبَه؛ مُقرِّرًا من أحْوالها أحسن مُقَرَّر، مُحرِّرًا من أُمورِها أوْلىٰ ما ٱعْتُمِدَ والخـزانةُ أوْلَىٰ بالمُحرَّر؛ حافِظًا لما لها بقَلَمِ التَّحصيلِ حتَّى ينفُذ قَلَمَ الإطلاق، صائنًا لوَفْرِها حتَّى يُنْفِقَه الـكَرَمُ خَشْيَةَ الإمْساكِ بعد ما أمْسَكَه الصَّوْنُ خَشْيَةَ الإنْفاق ؛ مُسْتَدْعِيًا من أصْنافِها كلَّ ماتنوَّعَ وتَصَنَّف، وتَوسَّع وتَفَوَّف، مُثْبِتًا كلَّ ماخُلِع من ديوانها العَزِيزِ وتَخلَّف؛ مُؤَلِّفًا للكَساوِي(1) في رِحْلَةِ كلِّ صَيْفٍ وشَتْوَه، مُواصِلًا للأحْمال من دِمَشْقَ علىٰ كلِّ حال من جهة الكُسْوَه؛ مُنْهِيًا لإنعامها بقَلَمِ الإطلاق التَّام، مُتَلقِّفًا بعصَا قلَمِه في يَدِه البيضاءِ ماتَأْفِكُ عَصَا الأقلام، حَرِيصًا على أن يكونَ بابُها في الكَرَم كما يقال :

(1) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جارى العامة في استعمالهم .

«سَهْلُ الحِجاب، مُؤَدَّبُ الخُدّام» ، عاملًا بتَقْوَى الله تعالى التى بها يُبْدَأُ الذِّكْرُ الجميلُ ويُختَم ، ويُلْبَس بها فى الدُّنيا والآخرة رِداءَ الخيرِ المُعْلَم ، غَنِيًّا عن تبيين بقايا الوَصايا التى هو فيها بَحْرٌ، وابْنُ بَحْرٍ بكتاب "البيان والتبيين" أعلم ؛ والله تعالىٰ يمدّه بفَضْله ، ويحفظ عليـه الفَضْل الذى هو من أهْله ؛ ويملأ آماله بغَمامِ الخَيْر الصَّيِّب . ويُديم سعادةَ بَيْته الذى لا يَرْفَع الشُّكْرَ لطيبه إلا الكَلِمُ الطَّيِّب .

المرتبـــــة الثـانية

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضِرة دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أمّا بعدَ حمدِ الله»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

[نسخة] توقيع بنَظَر الأسْرىٰ ونَظَرِ الأسْوار، كُتب بها لدوادار الأمير «سودون الطرنطاى» كافِلِ الشّام، وإن كانت هى فى الأصْل ديوانية أو دِينِيَّة، وهى :

أمّا بعـدَ حمدِ الله الذى خصّ أولياءَه بفَضْلِه الوافِر، وعَمَّهم بحُسْن نَظَرِه فأشرق صُبْحُ صَباحِهم السّافِر، وانْتَضىٰ من عَزائِمهم لنُصْرةِ الدِّين سَيْفًا يسُرُّ المؤمِنَ ويَغِيظُ الكافِرَ، واجْتَبىٰ من الكُفَاةِ من يشَـيِّدُ مَعاقِلَ الإسلامِ بفَضْله المتَظَافِر؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمّين الأكْمَلين علىٰ سـيدنا محمد الذى أضاء برسالته الوُجُود ، وخصَّه اللهُ تعالىٰ بالصِّفات الفائِقة والمآثر الحَسنة والجُود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَرَسُوا المِلَّةَ الحَنِيفيَّة من جهادهم بأمْنع سُور، وأوْهَنُوا جانبَ الكُفْر وأنقذُوا الأسِيرَ وجَبَرُوا المكسور؛ صلاةً دائِمـةً مَدَى الأيّام والشُّهور، مُعْلِيَةً للأولياءِ عَلَم النَّصْر المَنْشُور ـ فإنَّ أوْلىٰ من طَوَّقْنا به المناصبَ السَّنِيَّة ، وفوَّضْنا إليـه جَلِيلَ الوظائف الدِّينيّـة ؛

ونُطْنَا به فَكَّ رَقَبَـةِ المُسْلِم من أَسْره ، وخَلاصَـهُ من عَدُوِّه الذى لا يَرْثِى لمسْكَنَتِه ولا يَرِقُّ لكَسْره، وأجْرَيْنا قَلَمـه ببَذْل الفِدَاء، وجعلنـا مِدَادَه دِرْيَاقًا لمرَض الأَسْرِ الذى يعدِلُ أَلْفَ دَاء، وأقمناه للعانِى من شَرَكِ الشِّرْكِ مُنْقِذا، وللدافع فى بَيْداء العِدَا بحُسْن إعانته مُنْجِدا ، وللأسوارِ المُمَنَّعة بجميـل نظره مُتَفَقِّدا ــ من أضحىٰ فَضْلُه ظاهِرا، وجلالُه باهِرا، وخِلالُه مَوْصوفةً بالمحـاسن أوّلًا وآخرا .

وكان فلانٌ هو الذى بهَرتْ مآثِرُه الأبصارَ ومَلأَتِ الأسْمـاع ، وانعقـدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْره بالمفاخرِ كلمةُ الإجْماع ، وسارَتِ الرُّكبان بذِكْره الذى طاب وجُودِه الّذى شاع، وصَفَتْ سَرِيرتُه، فأضحىٰ جميـلَ الإعلان، وحُمِدتْ سِفارتُه، فكانتْ عاقبةُ كلِّ صَعْبٍ ببركتها أنْ لان .

فلذلك رُسِم بالأمرِ العـالى ــ لازال يُولِى جميلا، ويُوَلِّى فى الوظائف جَليـلا ــ أن يستقرّ المشارُ إليـه فى وظيفتَىْ نَظَرِ الأسْرىٰ والأسْوار بدِمَشْقَ المحروسـة ، علىٰ أجمـلِ عادة ، وأكمل قاعدة ، بالمعلوم الشاهـد به ديوان الوقْف المبرورِ إلىٰ آخر وَقْت : وضْعًا للشىءِ فى محلِّه ، وتَفْويضًا لجميل النَّظَر إلىٰ أهْلِه .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً تَسُرُّ النفوس، وتَرِيدُ بها الغِلالُ وتَزْكُو بها الغُروس، وليُجْرِ أحوالَ الوَقْف المَـبرورِ علىٰ مقتضىٰ شَرْط الواقف والشَّرع الشريـف ، وليتصرَّفْ فى تحصيل المـال وإنفاقه أحسنَ تَصْريف، وليَجْتَهِدْ على تَخْليص المأْسور، وإغاثةِ مَن ضُرِب بينه وبينه بسُور، ويُسارعْ إلىٰ تَشْييد الأسْوار المُنَّعه، وإتقان تحصينها: ليَتَضاعَفَ لمن حَوَتْه منّا الأمْنُ والدَّعه، والوصـايا كثيرةٌ وملاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ وسُلُوكُ صِراطِ الحَقِّ المستقيم : فليُوَاظِبْ عليها ، وليَصْرِفْ وَجْهَ عنايته إليها ، والله تعالىٰ يُديم عُلاه ، ويتولّاه فيما تولاه ، بمنّه وكرمه .

توقيعٌ بصحابة ديوان الأسرى، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى شرف الدين «سالم بن القلاقِسى»، وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جدّد بطالع الشّرف قواعدَ بيْتِ السّياده، ومشاهدَ حوْلِك السّعاده، ومصاعدَ ذُرَا الأقلام التى قسّمتْ مجانِىَ قصَبها للإفاءة والإفاده، ومعاهدَ القَوْم الذين سلكوا مَسالِكَ سَلَفِهم الحُسْنىٰ: ولو كان التّمامُ يقبلُ هنا مَزيدًا قيل: وزِيادَه. والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى شدّ اللهُ برسالتِه أزْرَ الحقِّ وشادَه، وعلىٰ آله وصحْبِه ذَوِى الأقدار المُسْتزادة المُسْتجادَه؛ ما اتّصلَ بحديث الفضْل سَنَدُه وأمِن بيْتُ التقوىٰ سِنادَه — فإنّ البيوتَ المُنتظِمَ فخارُها، المأمونَ من عروض الأيّام زِحافُها وانْكسارُها، أوْلىٰ بأنْ تنتخَب لهم المناصبُ كما تُنتخَبُ للبيوت المَعانِى، وتُستقْرَىٰ الوظائفُ العليّةُ كما تُستقرَىٰ لمواضع كَلِمها المَبانِى؛ وتختار لنجل الأصحاب(؟) بينهم كلَّ جِهةٍ مأمُونة الصّحابَه، موفُورَة السّحابَه، مجرورَةِ ذَيْلِ الخيراتِ السّحّابَه؛ مَصُونةٍ عن غير الأكفاء كما يُصانُ للجهات حُجُبا، لائقَةٍ بالأفاضل لأنّ لأوقاف الأسرىٰ بالفاضل نَسَبا.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يرتّب فى كذا : علمًا بأنّه الرّئيسُ الذى إذا ولِىَ وظيفةً كفَاها، وإذا وعَدَها بصلاح التّدبير وَفَاهُ وفَاهَا، وإذا وصل نَسَبها بنَسَبِه كان من إخْوانِ صَفائِها لا من إخْوانِ صَفَاهَا؛ والخبيرُ الذى استوضح بيُمْنِ الرّأْى مذاهِبَه ومَسالِكَه، والعالِمُ الذى إذا مشّى الأُمورَ بسط جَناحَ الرِّفْقِ وإذا مَشَى بسطتْ له أجنحَتَها الملائكه؛ والجليلُ الذى إذا نظر ذِهْنُه فى المشكلات دقّق، والكاتب الذى تعينَتْ أقلامُ عِلْمِه وكفاءته إلّا أنّ كلّها فى الفَصْل مُحقِّق؛ هـذا وخطُّ عِذاره ما كتَب فى الخدِّ حواشيه، وليلُ صِباهُ ما اكتَمل! فكيف إذا أطلعتْ كواكبَ

المَشِيبِ دَيَاجِيهِ ، وكَيْف لا؟ وأبوه — أعلَى الله تعالى جَدَّه — صاحِبُ المَجْدِ الأَثِيل ، والفَضْل الأَصِيل ، ووكيلُ السلطنة الذى إذا تأمَّلت محاسِنَه قالتْ : حَسْبُنا الله ونِعْم الوكِيل .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ برأْيٍ يُسَهِّلُ — بمشيئة الله — عَسِيرَها ، ويفُكُّ — بعَوْن الله — أسِيرَها ، واجتهادٍ سَنِيٍّ يُحسِنُ قلمُه فى الأُمور مَسْرى ، واعتمادٍ سَرِيٍّ لا يرى ديوانٌ أسْرى منه أسْرى ، مُشْبِهًا أباه فى عَدْله ومن أشبه أباه فما ظلم ، وتوقُّدِ رأْيِه لَدَى طَوْدِ حِلْمٍ وعِلم «فيالكَ من نارٍ على عَلَمٍ!» ، حتّى يأمَنَ ديوانُ مباشرته من ظُلْم الظالم ، ويُشْعِل ذكاءَه حتّى يقال : عجبا للْشُعل نارًا وهو سالمٌ! ، ويُثَمِّر مالَ الجِهَةِ بتَدْبِيرِه ، ويشْتَرِك لفظُ إطلاقِ الديوان فى مالِه وأسِيرِه ، وتَنْتقِلُ الأَسْرى من رُكُوب الأداهِم إلى رُكُوب الشُّهْب والحُمْرِ من دَراهِمِه ودَنانِيرِه ، ويُحمد على الإطلاق ، ويُنفِقُ خَشْيَةَ الإمساك إذا أمسك [غيره] خَشْيةَ الإنْفاق ، ويمشِى بتَقْوَى الله — عزّ وجلّ — فى الطَّرِيق اللَّاحِب ، ويُنْسَب إلى ديوانه وقَوْمه فيقال : صَاحِبٌ طَالَما انتسب من سَلَفه لصاحِب ، والله تعالى يُنْجِح لكواكب رأْيِه مَسِيرًا ، ويَجْبُر به من ضَعْف الحال كَسِيرًا ، ويُكافِئُ ساداتِ بَيْتِه الذين ﴿يُطْعِمُونَ الطعامَ على حُبِّه مِسْكِينًا ويَتِيمًا وأسِيرًا﴾ .

المرتبـــــة الثـــالثة

(من تواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمَشْق — ما يُفتتح بـ«رُسِم بالأَمْر الشريف»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع ... ... (١) من إنشاء ابن نُبَاتة ، كُتب به للقاضى «علاءالدين بن شرفالدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير ، وهى :

(١) بياض فى الأصل ولعله « توقيع بكتابة السر » .

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يَجْبُر بِبِرِّه مُصابَ الأبناء بآبائهم، ويُبَشِّرهم بما يتجدّد فى كواكب الشَّرف من عَلائهم، ويُعْتِق قُلوبَهم من إسارِ الحُزْن حتّى ينشئوا من الصِّغَر على أنساب عِفّتهم ووَلائهم ـ أنْ يستقرّ ... ... اعتمادًا على نجابته الشاهده، ومَخايِل هِمّته السائده، واستنادًا إلى أصالته التى لا يُبْدِى فَرْعُها إلّا زَكِىّ الثَّمَر، ولا يهْدِى بَحْرُها إلّا أنفسَ الدُّرَر، ولا يخلُف أُفقُها إلّا كبيرًا تَسْتصغِرُ الأبصارُ رُؤْيته: والذَّنْبُ للطَّرْف لا للكَوْكَبِ فى الصِّغَر؛ وعِلمًا أنّه من أُسْرةٍ شِهابيّة لا يهتدى فى الإنشاء إلّا بنُورِهم، ولا يُحَدِّثُ بالعجائب إلّا عن بُحُورِهم؛ ولا يُنْبِتُ أقلامَ البلاغة إلّا عُشْبُهم؛ ولا تُعْشِب روضاتِ الصحائف إلا سُحُبُهم، ولا تُثْبِت أفلاكَ الكتابة إلا كُتُبُهم؛ صَغيرُهم فى صدور الإنشاء كبير، ومُلَقّن آيات فَضْلِهم يَرْوِى أمْداد الفوائد عن «ابن كثير»، وعليُّهم بعد «أبى بكر» تقول المحامد لسَلَفه وخَلَفه: منّا أميرٌ ومنكم أمير؛ وأنّه اليومَ لا سَيْفَ إلّا «ذو الفقار» من أذهانهم، ولا فَتًى إلّا «عَلِىٌّ» من وِلْدانِهم؛ وأنّ فَرْخ البطّ سابح، وسَعْد القوم للأنْداد ذَابح؛ وخواتِم صُحُف الجمع الظاهر أشبهُ بالفواتح، والبلاغةُ فى الدنيا كنوزٌ والأقلام فى أيديهم مفاتح؛ وأنّ الكلام حليته وسِمَتُه[1]، وأنّه إذا خدم دولةً بعد مُخلّفه قيل للذاهب: لقد أوحشتنا وجهُه وللقادم: لقد آنستنا خِدْمَتُه.

فليأخُذْ فى هذه الوظيفة بقُوّةِ كتّابه، ولْيَتناوَلْ باليُمْن واليمين قَلَمَ جدِّه كما تناول رايةَ مَجْدِه عَرَابَة؛ ولْيتقلّدْ بقلائد هذه النِّعَم عقيبَ ما نَزَع التمائم، ولْيَجْهَدْ فى إمرارِ كَلِمه الحُلْوِ الذى أوّلُ سمائه قَطْرٌ ثم صَوْبُ الغمائم؛ مُجوِّدًا خطَّه ولفظَه حتّى تتناسبَ عُقَدُه، ناشئًا على كَتْم السِّرّ حتّى كأنّ الفؤادَ قَبْرُه والجَنْبَ لَحْدُه؛ مُهْتدِيًا بالعَلَم الشِّهابىّ فى بِرّ أخيه الأكبر فإنّه من بوارق المزن، مُبْتدِيًا مع أخيه الآخَرِ السُّرورَ إذ ينزع

(١) فى الأصل هكذا "وأن الكلا علهم".

عنهما لباسُهما من الحُزْن ، والله تعالىٰ يَزِيدُ فى فَضْلِه ، ويُتِمّ عليه النعمةَ كما أتمّها علىٰ أبيه من قَبْلِه ، ويفقّهه فى السيادة حتّىٰ يُحْسِنَ فى الفَخار رَدّ الفَرْعِ إلىٰ أصْلِه .

* * *

توقيعٌ بنَظَر مَطَابخ السُّكَّر ، من إنشاء ٱبن نُبَاتة ، كُتِب به للقاضى « شَرَف الدِّين ٱبن عَمْرون » وهو :

رُسِم ... ... ـ لا زالَتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلَتِه الشَّريفة مُشَرَّفه ، وأقلامُ الكُفاةِ مُصَرَّفه ، وألفاظُ الشُّكْر ثابتةً عنـد ذَوِى الاستحقاق ومُصَـنَّفه ، والنَّعْماء المُنْصِـفَة لأمثالهم حُلْوَةَ المذاقَيْنِ مِن نَوْعٍ ومن صِفَه ـ أنْ يستقرّ ... ... لمـا عُرِف من شِيَمِه المُستجاده ، وهِمَمِه المُستَزاده ، وكَفَاءَتِه اللائق بها حُسْنُ النَّظَر الثّابت بفَضْلِها رَقْمُ الشَّهاده ، وأصالتِه التى نَهض أوَّلُهـا بمهمّات الدُّوَل فلو رآه مُعاوِية ـ رضى الله عنه ـ لقال : يا عَمْرونُ أنت عمْرٌو وزِيادَه ، ولِمَـا أُلِف من مُباشرته المُنيفَـة خُبْرًا وخَبَرا ، وأنظارِه السّامِيةَ إلىٰ معالى الأُمور نَظَرا ، ووظائِفه التى لا يكاد يَبْلُغ العُشْرَ منها ذَوو الهِمَم العَلِيَّه ، وجهاتِه التى عُرِف بها سَلَفُه وخَلَفُه فلا غَرْوَ أنْ لَبِس عمامةَ مَفاخِره بيضاءَ وسُكَّرِيَّه .

فلْيباشر هـذه الوظيفةَ الحُلْوةَ مَعْنًى ومَذَاقا ، الحَلِيَّـةَ عِقْدًا ونِطاقا ، المحسُوبَةَ علىٰ مطالع الشَّرَف وَفْقًا وآفاقا ، جاعِلًا شُكْرَ النِّعمة من أوفىٰ وأوفرِ مزاياه ، وصَلَف الهِمَّة من أُولىٰ وأوّلِ وصاياه ، حافِظًا للطـابخ وإنْ كان عادةَ آبائه بَذْلُهـا ، مُدّخِرًا للجفان وإنْ كانت سِمةَ قِراهُمْ إزالَتُها ونَقْلُها ، حَرِيصًا علىٰ أن لايجعل لأَيْدى الأقلام الخائنة مَطْمَحا ، وعلىٰ أنْ يُنْشِدَ كلَّ يومٍ للتَّدْبير لا للتَّبذير .

* [لنا] الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فى الضُّحَىٰ *

مُحرِّرًا لحساب دِرْهَمِها ومحمولها، ومَصْروفها ومحصولها؛ مُحْترِزًا على مُباشَرتِه من الخَلَلِ فى هذين المكانين، حَذرًا من كِفّتها وقَبّانها فإنّها تتكلّمُ فى الحَمْد أو فى الذّم بلسانَيْن؛ بل تُعلِنُ — إن شاء الله — بحمده المُقَرّر، وتكرّر الأحاديثَ الحلوةَ عنه فمن عندها نخرج حَديثُ الحُلْوِ المكرّر، والله تعالى يُمِدّ مَساعيَه بالنُّجْح الوفِى، ويُلْهِم هِمّتَه أن تُنْشِد : «ما أبْعدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفى !» .



توقيعٌ بنَظَر دار الطِّراز، من إنشاء ابن نُباتة، وهو :

رُسِم بالأمر — لازالتْ سِيَرُه برقُومِ المحامد مُطَرَّزه، ودَوْلتُه بمحاسن التّأييد والتّأبيد مُعَزَّزه، ونِعَمُه ونِقَمُه : هذه على الأعْداء مُجْهزَة وهذه إلى الأولياء مُجَهّزه — أنْ يرتّب فلانٌ : لكِتَابتِه التى رقَمَت الطُّروس، وطرّزَتْ بالظّلْماء أرْدِيةَ الشُّموس، وأثْمرتْ أقلامُه بمحاسن التّدْبير فكانت فى جهات الدُّوَل نِعْمَ الغُرُوس؛ وحِسَابِه الذى ناقَشَ ونَقَش، ورَقَم الأوراقَ ورَقَش، واَحْترامه الذى عَلّم رَشَدا، وسَلَك طريقاً فى الخِدْمة جَدَدا، وقَوِىَ اسمُه وتكاثرتْ أوصافُه فما كان من أنْدادِه أضْعفَ نَاصِرًا وأقلَّ عَدَدا؛ وأنّه الكافِى الذى إذا قُدِّم نَهَض، وإذا سدّد سَهْمَ قَلَمِه أصاب الغَرَض؛ والسّامى إلى سماء رُتَبِه بالقَلْب والطَّرْف، والمتنزّهُ لقلمه الحُرّ من أنْ يستعبدَ على حَرْف .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بكَفَاءةٍ عليها المُعَوّل، وأقلامٍ إذا تمشّتْ فى دار الطِّرازِ على الوَرَق قيل : «شُمّ الأنُوف من الطِّرَازِ الأوّل»؛ مُسْتَدْعِيًا لأصْنافها ومالِها، عادلًا فى قِسْمةِ رَجائِها ورِجالِها؛ مُعْمِلًا راحَتَه بالقَلَم فإنّ كتابتها مُتْعِبَه، مُهْتدِيًا فى طُرُق حسابها فإنّها طرقٌ متَشَعّبَه؛ ماشِيًا على نَهْج الاحتراز، ساعِيًا إلى الرُّتَب بإرْهاف عَزْمٍ كالسّيف الجُرَاز، سَعيدَ السّعْىِ — إن شاء الله تعالى — حتّى يقولَ سَنَاءُ الملك

المُسْتَنهِض له : هٰذا القاضى السَّعيدُ وهٰـذه دَارُ الطّراز ؛ والله تعالىٰ يوفّقُه فى جميع أحْواله ، ويؤيّدُ مَساعِىَ قَلَمِه الذى تَنْسِجُ أقلامُ الكُفَاةِ علىٰ منْوالِه .

❖

توقيعٌ بنظر الرِّباع ، من إنشاء الشيخ صلاح الدِّين الصَّفَدِىّ ، باسم القاضى نجم الدين «أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطَّيِّب» ، وهو :

رُسِم بالأمر العالى ــ لا زال نَجْمُ أوليائه(١) يتَّقِدُ نُورا ، وخاطِرُ أوليائِه يَجِـدُ بالآمال سُرورا ــ أنْ يرتَّب المجلس السامىّ القضائىّ ــ أدام الله تعالىٰ عُلُوَّه ــ فى نَظَر الرِّباع الدِّيوانية ، ومباشرة الأيْتام ــ حرسهم الله تعالىٰ ــ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوانــ المعمور إلى آخر وقت : لأنَّه النَّجْمُ الذى بَزَغ فى أُفُق الرِّآسه ، وحَمّل ماآثَرَه قَبِيلُهُ وأَنَاسَه ؛ والأصيلُ الذى شاد الفَضْلُ مَجْـدَه ، وأحْكم الفَخْرُ عَقْدَه ؛ والرَّئِيسُ الذى يَصْـدُق التَّفرُّسُ فى شمائله ، ويَحـكُمُ الظن الصائب فى أثناء مخايِلِه .

فليباشِرْ ذلك مباشرةً هى معروفةٌ من هـذا البَيْت ، مَأْلُوفَةٌ من كبيرهم وصغيرهم : فإنَّهم لا لَوَ فيهم ولا لَيْت ؛ مُعْتَمِدًا علىٰ سُلوك طريقة أخِيه وأبيه ، مُجْتهِدًا على آتِّباع آعتمادهما فى تَوَخِّيه الصَّوابَ أو تأبِّيه ؛ حتَّى يقال : هذا صِنْوُ ذلك الغُصْن الناضِر ، وهذا شِبْل ذلك اللَّيْثِ الخادِر ؛ وتُصْبِح الرِّباعُ بحُسْن نظره آهِلَةً بالأهِلَّه ، كامِلةً بالمحاسن التى تُمْسِى الأقْمـارُ منها مُسْتَهِلَّه ؛ وتعود الأيْتام بمشارَفَته كأنَّهم لم يفْقِدُوا بِرَّ والدهم ، ولم يحتاجُوا مع تَدْبيره إلىٰ مُساعِدِهم . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها تَقْوَى الله عزَّ وجلَّ فإنَّها الحِصْنُ الأوقىٰ ، والمَعقِلُ المَنِيعُ المَرْقىٰ ؛ فلْيتَّخذْها لعيْنَيه نُصْبا ، ولْيَشْغَل

(١) كذا بالأصل ، ولعله : آلائه .

بهـا ضَمِيرَه حتّىٰ يكون بها صَبًّا ؛ والله تعالىٰ يُنَمِّى غُصْنَه الناضر، ويُقِرُّ بكماله القَلْب والنَّاظِر! والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حُجَّةٌ فى ثُبوت العمل بمـا اقْتضاه؛ والله الموفِّق بمنّه وكَرَمه ! .



تَوْقيعٌ باستيفاء المقابلة واستيفاء الجَيْش، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازالتِ المناقبُ فى دَوْلَتِه الشريفة شَمْسِيَّةَ الأنوار، قُرَشِيَّةَ الفَخَار، مُشْتَقَّةَ المحامد من الأسمـاء والآثار، مُحَصَّلةً بأقْلام اليمين ما يَبْـذُله الكرم من أقْسام اليسار ـ أنْ يستقرّ ... حَسَب الاستحقاق المُقْتَضىٰ ، والاختيار المُرْتَضىٰ ؛ وعَيْنِ الرَّأْيِ الذى ما بينه وبين الرَّأْى حاجب، وتَقَدُّمِ السُّـنَّةِ القديمة فإنَّ التقديمَ لقُرَيْشٍ وَاجِب، ولأنَّ الصفاتِ الشَّمْسيَّةَ أَوْلىٰ بشَرَف آفاقها، ومَنازِلِ إشْراقِها وإشْراقِها، ومطالع سَـعْدِها المُنَزَّهة عن اللَّبْس ، وجلائل قَلَمِها العُطـارِدِىِّ فى يَدِ الشَّمْس ؛ ولأنَّ المشارَ إليـه أَحَقُّ بمَصاعِدِ المُرْتَقِين ، ولأنّه تَرَبَّى فى بَيْتِ التُّقىٰ فكان الله معه إنَّ الله مع المُتَّقين .

فلْيباشِرْ هاتَيْن الوظيفَتَيْنِ على العـادة المعروفة بعَزْمِه السـديد، ومَدّاتِ قَلَمِه التى بحْرُها فى السبع بَسِيطٌ وظِلُّها فى النَّفْع مَديد؛ ولْيَتَمَثَّلْ بديوان مُقابلة فريدًا لا يَرْهَب مُمَاثلَه، وليجْبُرْ أحوالَها بضَبْطِه حتّىٰ يجمعَ بين الجَبْرِ والمُقَابَلَه ؛ وليُمِدَّ الجيوشَ المنصورةَ من أَوْراقِه بأعْلامه ، ومن قَصَباتِ السَّـبْقِ برماحٍ تُعرَفُ بأقْلامه ؛ ولْيَسْـتَرْفِعْ من الحُسْبانات ما يمحو بإيضاحه وتكميله من مُقَدِّماتِ ظُلْمٍ وإظلام، وليجمَعْ بين ضَرَّتَيِ الدنيا والآخرة فى شريعة الإسلام؛ والله تعالىٰ يُمِدُّ قُرَشِيَّتَه بأنْصار من العَزْم، وتابعين بإحسانٍ من نوافذ نوافل الحَزْم .

*

توقيعٌ بصَحابة ديوان الأسواق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالت أسواقُ نِعَمه قائمـه ، وأجلابُ كَرَمه دائمه ، ولا برِحَت المناصبُ مُكَمَّلَةً بكُفاةِ أيّامه الذين يُحقِّقون ظُنونَها الساميـة ويَرْعَونَ أحوالَهـا السّائمه ـ أن يرتّب فلانٌ... ...... : علمًا بكتابته التي وَسَمَت الدّفاترَ أحسنَ سِمَه ، واستبقت إلى صُنع الخير المُسَوَّمَه ؛ وكفاءته التي لا تزالُ تنمو لديه وتنتمي ، وبراعته التي إذا سُئِل عنها السُّوقُ قال : هِيَ عَصَايَ أتوكّأ عليها وأهُشّ بها على غَنَمِي ؛ ودرايته التي تُعينُ المملكة على المَيْز ، ويَشْهَدُ تيمّنُها أنّ الخَيْـلَ في نَواصيها الخَيْر ؛ وتُحقّق فيه الظّنّ والأمل ، وتَحُوطُ السُّوقَ عن الخائن حتّى يقولَ : لا نَاقَةَ لي في هذا ولا جَمَل ؛ وأنّه الكافي الذي إن قال أو فعل كان مُسَدَّدا ، وإن ضَبَط ديوانَ الشّدّ السعيد كان على الزّائغين من الكَتَبة حَرْفًا مُشَدَّدا .

فليباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ مُتَمكِّنَ الأسباب ، مَالِكَ الحَزْمِ والرِّفْقِ حتّى تكثُر لَدَيه الجُلّاب ؛ مُعِينًا لبيت المـال على الإنفاق ، قائمًا بحقوق ذَوِي الاستحقاق ، عالمًا أنّه [متولى] أكثرِ جهات الخير المُطْلَق فليكُنْ بها مشكُورًا على الإطلاق ، مجتهدًا في رِضا المطالبين حتّى يتّبِعُوا سَنَن المُرسلين في هذه [الصفة] يأكُلُون الطعامَ ويَمْشُونَ في الأسواق ؛ مُواظبًا على الديوان الذي هو بصَحابته مَعْذُوق ، سالكًا سُبُلَ الصّيانة والكفاءة فكلاهما نِعْمَ السَّبِيلُ المَطْرُوق ، مُحترزًا من ذي خِيانةٍ إن غفل عنه طَفِقَ مَسْحًا بالسُّوق ؛ والله تعالى يُوفِّق عزائمه التي هي أشهر من علَم ، وهِمّته التي قاسمَتْ « أبا الطّيّب » : «والخيلُ تَشْهدُ والقِرْطاسُ والقلَم» .

نسخةُ توقيعٍ بشهادة الخزانة العالية ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتِبَ به لجمال الدين «عبد الله بن العماد الشيرازى» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف - لا زالتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلته بأسماء الكُفَاة مُجمَّلَه ، وخِلَعُ المَفَاخِرِ على بُيُوت السيادة مُكَمَّلَه ، وخَزائنُ المُلْك بين نَقِيضَيْنِ من جِنْسٍ واحِد : فبينا هى بأقلام الكُفاةِ مُحْتَفَظَةٌ إذا هى بأقلام الكُفَاةِ مُبَذَّلَه - أن يستقرّ المجلس السامى ... ... : علما بمحاسِنه التى وَضَح جَمالُها ، وتَفَسَّح فى العَلْيـاء مَجالُها ، ونَجَح فى مَنابِتِ الفَضْل أصْلُها ، وشَرُف بكواكب اليُمْن اتّصالُها ؛ ومَعالِيهِ التى تهلّلَ بهـا وَجْهُ الأصـالَه ، وكمل بيْت الرِّآسَـة والجَلالَه ، ومَساعِيهِ التى استوفى بها أجناسَ الفَضْلِ وتَوْرِيثَه فـا أخذها عن كَلالٍ ولا وَرِثها عن كَلالَه ؛ وسِـيرتِه التى تَطْوِى نَفَـارَ الأقرانِ حين تُنْشَر ، وهِمَّتِه التى أنشدتِ السَّعادةُ فَرْعَها الكَرِيمَ : «مَبادِيكَ فى العَلْياءِ غَايَةُ مَعْشَر» ؛ ومَكانَتِه من بَيْت السيادة الرَّفِيع عِمادُه ، البَدِيعِ سَنَدُه المَنِيع سِنادُه ، المَدِيدِ من تلقاء المَجَرّة طُنُبُهُ الثّابتَةِ من حَيِّزِ النُّجوم أوْتادُه ؛ وأنّه نَجْل السَّراةِ الذين أخذُوا من الفَضْل فى كلِّ وَاد ، واستَشْهدوا على مَناقِبِهم كلَّ عَدُوٍّ وكلَّ وَادّ ؛ وحَمَلُوا من صناعاتهم رَاياتٍ عبَّاسِـيَّةً سارتْ بهـا رِماحُ أقلامِهِم تحت أرْبع سَواد ، ومَلَكُوا قَدِيمَ الأوطان بشَرَف الأخير : فسواءٌ على شِيرازَ محـاسِنُ «ابن العميد» ومحاسن «ابن العِماد» ؛ وتبيّنتْ مناقِبهُم بهـذا النَّجْلِ السَّعيد طُرُقَ المراتِبِ كيفَ تُسْـلَك ، وإحْرازَ المناصب كيف يكونُ لهـا يَدٌ أرباب البُيُوت أمْلَك ، ودَرجاتِ الوظائف كيف تَسُرُّ الوالِدَ بالولد حتّى يقولَ : لا أُبالِى هى اليَـوْمَ لِى أمْ لَك ؟ ؛ كَم استَنْهَضَ والدُه لجليل فكَفَى ، وجَمِيلِ قَصْدٍ فوَفَى ؛ وأوْقاتٍ عَلَتْ حتى أضحت

إلىٰ عُلاه تَنْتَسِب ، ومناصبَ رُزِقَ ـ بتَقْواه فيهـا ـ من حَيْثُ يَحْتَسِب ومن حيثُ لا يَحْتَسِب؛ وجاء هذا الوَلَدُ ذخيرةَ والِدِه لحُسْنِ الخزانة الذَّخيرة ، وعُضِّدت الأوّلَةُ من السيادة بالأخيرة .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً هي أعلىٰ منها وأشرفُ سِيرَه ، مُجتهدًا فيما يُبيِّضُ وَجْهَ عِلْمِه ونَسَبِه ، عارفًا قَدْرَ هـذه الرُّتبة من أوائلِ رُتَبِه ، متيقِّظَ الأفكار والطَّرْف ، متأرِّجَ المَعْـرِفة إذا ذَكَرُوا العَرْف ، زاكيًا تبرُ شهـادته على التَّعْليق فلا يُنْتَقَدُ عليـه في مُتَحصَّل ولا صَرْف ، حتّىٰ تقولَ الخزانةُ : نِعْم العَزْم الشاهد ! وحتّىٰ يشهدَ بوفاء فَضْلِه المَضْمُون ، وحتّىٰ يُعْلَمَ بأمانته أنّ عبد الله هو «المأمون» ؛ وتقوى الله تعالىٰ في الوصايا أوّل وأوْلىٰ ما تَمسَّـكَ به ، وآستقام علىٰ شَرَف مَذْهَبه ، والله تعالىٰ يَسُرُّ الإسلامَ بتَنْبِيه قَدْرِه ويُقِرُّ الأوصافَ بمهذَّبِه ! .

⁂

تَوْقيعٌ بشهادة الأسْوار ، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يَمُدُّ على الإسـلام من عنايَتِه سُورا ، ويُجَدِّدُ للأولياء بِرًّا مَيْسُورا ، ويُسْـعدهم بكلّ تَوْقيع يكونُ بالحساب يوم القيامة كِتابًا يلْقاهُ مَنْشُورا ـ أن يرتَّب المجلسُ ... ... : عِلمًا بعَزْمه الساهد ، وحَزْمِه الشاهد ؛ وكفاءَتِه وأمانَتِه التي ما كان وَصْفُهما حديثًا يُفْتَرىٰ ، ونَظَرًا لحاله وحالِ الأسْوارِ : فإنّها شهادةٌ كان أصْلُها نَظَرا .

فلْيباشِرْ هـذه الرُّتبةَ المباركَةَ كما عُهِد منه مباشرةً حَسَنةَ الآثار ، مُشْرِقَةَ الأنْوار ، جاعِلةً تلكَ العمائرَ حِلْيَةً لِدِمَشْق : فبينما هي سُـورٌ إذا هي سِوَار ؛ ضابطًا لمتحصَّلها ومَصْرُوفها ، محرِّرًا لوقْفِها مُحترِزًا من وُقُوفِها ، جاريًا علىٰ جميل عادته ، زاكيًا بكرم الله

تعالى على التوفيق تبرُّ شهادته ؛ حتى تشهدَ هذه الوظيفةُ بهمّته المتمكّنة الأسباب ، ويُضربَ بين المَدينة وبين من كادَها بسُورٍ باطنُه فيه الرّحمةُ وظاهرُه من قِبَله العَذاب ؛ والله تعالى يسدّدُه فى كلّ أمرٍ ، ويحفظ هِمّته وبركته «ليوم كَرِيهةٍ وسِدادِ ثَغرٍ» .

تَوْقيعٌ بمشارفَة خزائن السِّلاح ، لمن لقبُه «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسم بالأمر العالى ـ أعلى الله تعالى أعلامَ حَمْده ، وجعل أحكام المَقادير من جُنْده ، ولا زالتْ أفلاكُ الشُّهُب من خزائن سلاح سَعْده ـ أن يُرتَّب ... ... : حَمْلًا على حكم النّزول الشّرعىّ ، والطُّلوع إلى رُتَبِ الاستحقاق المَرْعىّ ؛ وعِلْمًا بكفايته التى بَلّغتْه آمالا ، وجَعَلتْ للوظائف بذِكْره جَمالا ، وثمّرتْ بقَلَمه للجهات مالا ، وأوصلتْه على رَغْمِ الأنداد لِما لا ؛ واعتمادًا على أمانته التى أعدّها مَلاذا ، واكتفى بها سِلاحُ عَزْمه نَفاذا ؛ وصِيانته التى طالَما اعترض [لها] عَرَضُ الدُّنيا فقالتْ : يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هٰذا ؛ واستِنادًا إلى نَشْأته فى بَيْتٍ عَلَتْ فى المناصب أعلامُه ، وصَدَقَتْ فى المراتب حُلومه وأحلامُه ، وتناسبتِ الآنَ تصرُّفاتُه السعيدةُ : فإمّا فى تدْبير الجيوش وإمّا فى تَثْمِير السلاح أقْلامُه .

فلْيباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ بعزْمٍ بادِى النَّجا(١) والنّجاح ، وقلَمٍ على حالَتَىْ وَظيفته وهمّته ماضِى عزم السّلاح ؛ مقرّرًا لعَمَلها ومَعْمولها ، ضابطًا لواصلها ومَحْمولها ؛ حتّى يَلْهجَ لسانُ سَيْفها بشُكْره ، وتَطْلُعَ أهلّةُ قِسيِّها بيَامِنِ ذِكْره ، وتكون كُعُوبُ رِماحها كُلُّها كَعْبٌ مُبارَكٌ بمباشرته وبِشْره ؛ والله تعالى يسدّدُ قَلَمه فى وظيفته تَسْديدَ سِهامِها ، ويُوفّر له من أنْصباءِ المَراشد وسِهامِها .

---

(١) هو مصدر نجا نجاءً بالمدّ وقد يقصر .

*
* *

قلتُ : وهذا تَوْقيعٌ بوظيفةٍ بكتابة دِيوانيّـة لسامِرِىٍّ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبـاتَةَ، وهو :

رُسِم بالأمرِ ــ لا زال قَـلَمُ أوامِرِه القِضىّ يُظْهِرُ ثَمَـرَه، مُسْمِعاً حَديثَ الإنْعام الشامِل حتّىٰ سَمَرَه ــ أن يرتَّب فلانٌ فى كَذا : عِلْماً بكفايته التى يُعْذَر بها فى قَوْمِه علىٰ سُلُوكِ التِّيه، وحِذْقِ حِسابِه الذى هو ألَذُّ من السَّلْوىٰ لُمجْتَنِيه ومُجْتَبِيه ؛ وقَرِيحَته التى إذا آختارها آخْتِيارَ قَوْمِ مُوسىٰ فَازَ من العمـل بمَطْلُوبِه، وإذا قِيـلَ : يا سَامِرِىُّ ما قَدَّمك على القُرَنَاءِ فى الحساب ؟ قال : بَصُرْتُ بِمَـا لَمْ يَبْصُرُوا بِه ؛ وأمانَتِـه التى حاطَت حِياطَةَ الصَّعْدَةِ السَّمْراء، ورفَعتْ رايَتَه على الأنْداد قائلَةً : ما حَاطَ البَيْضاءَ والصَّفْراء كَصاحِب الحَمْراء ! ؛ وآعتِمادًا علىٰ كتابَتِه التى شَهِدَتْ بها من حُسْباناته الأسْفار المُبَيَّنَه، وإقرارًا لصِناعاته التى سَحَرتِ الفِكْرَ حتّىٰ قِيلَ : هـذا من شُعَبِ القَرَابِينَ والكَهَنَه .

فلْيباشِرْ هـذا الآستيفاءَ لِأَوفىٰ منـه مُتَرقِّيا، ولكَلِماتِ الآختيار مُتَلَقِّيا، ناهضًا بالخِدْمه، مجدِّدا باعترامه الإسرائيلىّ ذِكْرَ النِّعْمَه، عارِفاً قَدْر الإنعام الذى رَعىٰ وشَمِلَ كلَّ ذِمَّه؛ سالِكًا من الآجتهاد فى خِدْمَةِ حِسابِه كلَّ طريقه، غائظا للحُسَّاد من أهْلِ مِلَّتِه : فيَعْبُدُون العِجْلَ مَجازًا وحَقِيقَه؛ مجتهدًا فى آستِنْزال المَنِّ لا المَنْع، مُعَوِّذًا الآلافَ الحواصل بعَشْرِ كَلِماتٍ رَاتِبَةٍ منه فى السَّمْع، مُعَلِّقًا علىٰ جميعها هَيْكَلًا من أمانَتِه فهو أدرَىٰ فى الهَيْكلِ بشَرْط الجَمْع ؛ صائِنًا لِنَفْسِـه من عُدْوانِ الخِيـانة حتّىٰ لا يَعْدُوَ فى سَبْتٍ ولا فى أَحد، مُتَنزِّهًا عن أكْلِ المـال مع الخَوَنَة حتّىٰ يقال : نِعْمَ السَّامِرِىُّ الذى لا يَأْكُلُ مع أَحَد .

الضـــرب الثـانى

(من الوظائف الديوانية بالشام ـ ما هو خارجٌ عن حاضرة دِمَشْق .
وغالبُ مايكتب فيها من التواقيع مفتتح بـ«رُسِم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنظر غَزّة، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لازال النَّصْرُ المكَرّر، يَحْلُو بذِكْرِه، والسَّعْد المقرر، يَجلُو وُجوهَ الآمالِ بدَهْرِه، ولا بَرِحَ سِراجُ الخدَم مُضِيأً عنـد ليالى نَهْيِه الحالِك وأمْرِه ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... : لِمَـا عُرِف فى المناصب من نُهوضِه الذى رَاق وراج، وفى المهمَّات من رأيِه الذى يمشِّى أحوالَ الجهات المسـتقيمة بسِراج ؛ ولِمَـا شُهِر له فى الأنظار المتعدّدة من عُلُوّ الهِمَم، وفى الوظائف المتردّدة من العَزَمات التى يقول السَّـدادُ : نَبِّهْ [لها] عُمَرًا ثم نَمْ[(1)]؛ ولِمَـا وُصِف من أمانتِه ودِرايتِه وهما المراد [تان] من مِثْلِه، ورآسـة خَلْقِه وخُلُقِه المُشِيدَيْنِ عن حُسْن الثناء وسَهْلِه، وآثاره الحميـدة المتنقِّلات وكيف لا ؟ وهو المنتسب إلىٰ سلفٍ يَحمَد لسانُ الإسلام أثرَ عَقْلِه ونَقْلِه .

فليُباشِرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ على العادة مباشرةً يُحمد أثرُها، ويُسْنَدُ من صحيح عزمه خُبْرها وخَبَرُها، ويُورِق بغُصون الأقْلام وَرَقُ حسابِها ويَرُوق ثَمَرُها؛ مُجْتهِـدًا فهو من نَسْل المجتَهِدين فى عوائد التَّحْصين والتَّحصيل، والتأثير والتأثيل، مَلِيًّا بمـا يَجْبُر كَسْرَ هذه البلاد بالصِّحّة ويَأْسُو جُرْحَها بعد التَّعْديل، حَرِيصًا علىٰ أن يُحْيِيَ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتدبيره ـ عَمَلَها الذى لم يُبْقِ الموتُ من ذَمائه غيرَ القليـل ؛ سالِكًا

(1) أنظر حاشية ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء .

من النّزَاهة والصِّيانة طَرِيقَته المُثلىٰ، ومن الكَفَاءة والأمانة عادته التى ترفع دَرجَتَه ـ إن شاء الله ـ إلىٰ ما هو أعلىٰ وأغلىٰ؛ مُسْترفعًا لحساب ولقَدْره فى الخِدْمه، شاكرًا: فإنّ الشُّكر ضَمِينٌ لازدياد النِّعمة بعد النِّعمه، سِراجًا وَهَّاجَ الذَّكاء على المَنَار ولا ظُلْمَ مع وُجوده ولا ظُلْمه؛ والله تعالىٰ يُعلى قَدْرَه، ولا يُطْفِئُ ذِكْرَه .

✦

تَوْقيعٌ بصَحابَةِ ديوان الحَرَمَيْن، من إنشاء ٱبن نُبَاتة، لمن لَقَبه «شمس الدّين» وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ أوامِرُه نافذَةً فى الآفاق، عاطِفَةً عَطْفَ النَّسَقِ علىٰ ذوى الاستحقاق، مُطْلِعةً شَمسَ التُّقىٰ والعِلْم فى منازل الإشراق ـ أنْ يستقرّ المجلس ... ... : علمًا باستحقاقه لمـا هو أكثر وأكبر، وأوْفىٰ وأوْفر، وإطْلاعًا لشَمْسه وإن اعترضها غمّ غَيْم فى مَطَالع شَرَفهـا الأنور، وإعلامًا بأنّه غَيْمٌ يَزُورُ ويَزُول، وتَقَصٌّ لا يُقيم إلا كما يذهَبُ عارِضٌ من أُفول، واعتمادًا علىٰ ما عُرِف من وَفاءِ صَحابَته، وأُلِفَ من سَناء دِرايَته ودَرَابَته، ووُصِفَ من أيّام دَيونَته[1] بعد أيّام حُكْمه بعد أيّام خَطابَته! ؛ واستنادًا إلىٰ نَشْأته فى بَيْت العِلْم المستفاد، والحُكْم المُسْتجاد، والفَضْـل المُسْتراد، وتَرْبية الوالد الذى كان الاختيار يَحْلِفُ بالفَخْر أنه ما يَرىٰ أظْهرَ من ذاتِ العِماد .

فليُباشرْ صَحـابَةَ ديوان هَذَيْن الحرمين الشّريفين بأمَلٍ مَبْسوط، وحَالٍ بينما هو مَنْحوسُ حَظٍّ إذا هو ـ إن شاء الله ـ مَغْبُوط؛ واجْتهادٍ مَضْمونٍ لِجَدْواه فَضْـلُ الزياده، وسَيْرٍ لا يزال بشَمْسه حتّى تَجْرِى لمستقَرٍّ لهـا من مَنازِل السَّعاده، ومُباشَرةٍ لأوقافها تُعان وتُعادُ أجْمَلَ إعانَة وأكْمَلَ إعادَه، وصَحابَةٍ يَتَنوّعُ فى نَفْعها ويتعين حتّى تكونَ [منه] عادةً ومنها شهاده .

---

[1] أيام كان بديوانه . وهو لفظ سخيف ليس بعربى .

✤

توقيعٌ بنظر الشّعْرا و بانياس، من إنشاء آبن نَباتة، لمن لقبه «صَدْر الدِّين» وآسمه «أحْمد» بالعَوْد، وهو :

رُسم بالأمر — لا زالت صُـدُور الكُفاة مُنْشرِحةً فى أيّامه، مُنسرِحَةَ الآمال فى إنعامه، ولا بَرِح عَوْدُه أحمدَ إلى المناصب فى ظلال سُيُوفه وأقلامه .

ومنـه : فليباشرْ هـذه الوظيفة الشاكِرَةَ له أوّلًا وآخرا ، وليجتهدْ فيما يَزِيدُه من الاعْتناء والاغْتناء باطنًا وظاهرا ، وليستَزِدْ بشُكْره من النِّعمة فما أخلفَ وعْدُ المَزِيد شاكرا ، وليَحْرِصْ على أن يُرى أبدًا فى المراتب صَدْرًا ولا يُرى عن وُرُود الإحسان صَادرا .

✤

توقيعٌ بنظر حِمْص، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به لآبن البَدْر ناظِرِ حِمْصَ بالنّزول من أبيه عند ما أسَنّ ، وهو :

رُسم بالأمر — لا زال حسنُ النَّظر من مَواهِبِه ، ويُمْنُ الظَّفَر من مَرَاكِبه ، وسَقْىُ البلاد صَوْبَ العَدْل من سحائبـه ، ولا بَرِح سنا البَدْرِ من خَدَمه فإذا أحسّ بالسِّرار ألْقَى الخدمة إلى أزهَرِ كواكبه — أنْ يستقرّ المجلسُ ... ... : لِمـا عُلِم من رأيه الأسَدّ ، وعَزْمه الأشَدّ ، ومَرْبَى والده حتّى يَبين عِظَمُ الهَناء بالشِّبْل عند ماوَهَن عَظْمُ الأسَد ؛ ورُكونا إلى نَجابتِه التى سَمَتْ أصلًا وفَرْعا ، وقَدُمتْ غَناءً ونَفْعا ، وتَبسَّمتْ كمائمُ أصْلِها المستأنَفة حيثُ كاد الزمانُ يَنْعَى منه يَنْعا ؛ وآستنادًا إلى أنّ الصِّناعة شابّةٌ ونَسماتِ التَّمكينِ هَابّة ؛ وإلى أنّ أغصانَ العزائم نَضِرَه ، وإلى أنّ مع القُدْرة قُدَره ، وإلى أنّ كوكَبَ العِزّ فى المنزلة قد خَلَف بَدْرَه ؛ وآعتمادًا على سِهام تَنْفيذه الصائبه ،

وأحكامَ هِمَمِه الواجبه ، وأقلامَ يَدِه التي تُحسِنُ إخراجَ الأمل فيه وكيف لا ؟ وهي الحاسبَةُ الكاتبه .

فليباشرْ هـذا النَّظَر المفَوَّضَ إليـه ساميًا نَظَرُه ، زاكيًا في الخدمة خُبْره وخَبَرُه ، شاكرًا هـذا الإنعامَ الذي بَرَّ أباه وأسْـعد جَدَّه ومَزِيدُ الإنعام مضمونُ المزيد⁽¹⁾ لمن شَـكَرَه ، عالمًـا أنَّ هـذه المملكة الحِمْصيَّة من أقـدم ذخائر الأيام ، وأكْرم ما أفاءَ اللهُ من غَنِيمَتِهـا وظِلِّها على جُنْدِ الإسـلام ، وأنَّهـا من مراكـز الرِّماح كما شُهِر فَلْيُمِدَّهـا من تَدْبيره برماح الأقـلام ؛ ولْيُواظِبْ بحُسْنِ نَظَره على تَقْرِير أحْوالهـا ، وتَقْرِيب آمالهـا ، وتأثيرِ المصالح في أعمالها ، ولا يمحِّص أمرها في التَّضْييق فكفى ما محَّصَتْها الأيامُ على تعاقُب أحْوالهـا ؛ بل يجتهدُ في إزاحة أعْذارها بسَـدادِ الرَّأْي الراجِح ، وإشاعة الذِّكر الحَسَن مع كلِّ غادٍ ورائح ، ورَفْعِ الأيْدِي بالأدْعية الصالحة في تلك المشاهد للمَلِك «الظاهر» في هـذا الوقت والملك «الصالح» ؛ حتَّى يَشهـدَ سَيفُ الله «خالد» بمَضاءِ سَيف حَزْمِه وعَزْمه ، وحتَّى يتوفَّر من غَرَض الخَيْر والحَمْد نَصِيبُ سَهْمِه ، وتقوى الله تعالى أوَّلُ الوصايا وآخرها فلتَكُن أبدًا في هِمَّة فَهْمِه .

***

تَوقيعٌ بنَظَر الرَّحبة ، من إنشاء ابن نُباتة لمن لقبه «تاج الدين» وهو :

رُسِم بالأمر ــ لا زالَ مَلِيءَ السَّحاب ، بسُقْيا الآمال الوارده ، مَمْلوءَ الرِّحاب ، بكُفاة الأعمال السائده ، مخدوم الممالك والأيَّام بأقلام الدواوين الحاسبة وأقلامِ الدواوين الحامِدَه ــ أنْ يستقرّ ... ... : لكفاءته التي وافق خُبْرها الخَبَر ، ونُشِر ذِكْرُها نَشْرَ الحِبَر ، وصناعة حِسَابِه التي لو عاش «أبو القاسم المَعَرِّي» لم يكن له فيها قَسِيا ،

(١) لعل هذه الكلمة زائدة من قلم الناسخ .

ولو عاصرها «ابْن الجَرَّاح» بقَـدَمِه و إقـدامه لانقلب عنها جريح الفِكْر هزيمـا ؛ بل لو ناوأه الشَّدِيد المـاعِزُ لَذُبِحَ بغير سِكِّين ، والتَّاج الطويلُ لرجع عن هذا التَّاج الطائل رُجوعَ المِسْكين .

فلْيباشِرْ ما فُوِّض من هذه الوظيفة إليه ، ونَبَّه الأختبار فيها نَظَره الجميلَ وناظِرَيْه ؛ جارِياً على عوائد هِمَمِه الوثيقه ، ماشياً على أنجح طريق من آرائه وأوضح طَرِيقَه ، نازِلًا منزلةَ العَيْن من هذه الجهة التى لو صُوِّرَتْ بَشَرًا لكان ناظرَها على الحقيقـه ، مُفَرِّجًا لمَضَايقها حتَّى تكون كما يقال رَحَبه ، مُقْتحِماً من حُزُون أحوالهـا العَقَبة وما أدْراكَ ما العَقَبَه؟ ؛ فكَّ من رقابِ السُّـفَّار المعَوَّقِين رَقَبـه ، وأطعم أربابَ الاستحقاقات فى يوم ذِى مَسْغَبه ، وساعَفَ بتَيْسِير المعلوم كلَّ كاتبٍ ذِى مَتْرَبَه ؛ حَرِيصًا على أن يُغْنِيَ الديوان بوَفْرِه ، ونُغْنِى حُداةُ التُّجَّار بشُـكْرِه ، وعلى أنْ يقومَ رجالُ الاستخدام فى المُهِمَّات بنَصْرِه ؛ وعلى أن تُساقَ بِفضِّيِّ قَلَمِه الأموالُ أحْسنَ سَـوْق ، وعلى أنْ يكونَ لأهلِ الرَّحَبـة من إحسانه «مَالِكٌ» ومن جَدْوَى تَدْبِيره «طَوْق» ؛ واللهُ تعالى يُوضِّح فى المصالح مِنْهاجَه ، ويُعلِى على رُءُوس الأوصاف تاجَه .

⁂

توقيعٌ بنَظَر جَعْبَر قبل أن تُنْقل إلى عمل حَلَب ، من إنشاء ابْن نُباتة ، كُتب به «لِهَبة الله بن النفيس» ، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتِ المناصِبُ فى دولته الشريفة تَسْتقبِلُ هِبَةَ الله بشُـكْرِها ، ونَتائجَ الذِّكْر النَّفِيس بمقدّمات نَشْرِها وبِشْرِها ـ أنْ يرتَّب ... ... : لكفاءته التى اشتهرتْ ، وأمانتِـه التى طَهُرت فظَهرتْ ، ومُباشَرتِه التى ضاهتْ نُجُوم السماء إذا زَهَرتْ ، ونُجُومَ الأرض إذا أزْهرتْ ؛ وأنَّه الذى جُرِّب عَزْمُه فزكا على

التَّجْريب، ورَقِيَ فى مطالع التَّدريج والتَّدريب، ونَصَّ حديثُ اجتهاده المقرّب فكان سابِقًا على النَّصّ والتَّقريب، وأنَّ هــذه البُقعة المباركة مِمَّن أطاب التَّاريخُ خَبَرها، وقَصَّ سِيَرها، وحَمِدَ صاحِبُها العقيليّ من قَدِيمٍ أثرها، وعَرَف بركَتَها لمَّـا استسقىٰ بها من السَّماءِ علىٰ لسان بَعْض الحيوان مَطَرها .

فلْيباشِرْ هذا الثَّغر المحروس بكفاءة باسِمَه، وعَزْمةٍ كالحُسامِ لأدْواءِ الأمور حاسِمَه، ورأيٍ للنَّجاح حَسَنِ الاسْتِصحاب، وتَمْييزٍ كما مَلأَ الرَّحبَةَ فلْيَملأْ بمضاعفَتِه الرِّحاب، مُوفِّرًا العَدَدَ للحواصِل وحَواصِل العِدَاد، فاتِحًا لأفواه القُفُول بذكره الجميل فى التَّهائم والنِّجاد، ماشِيًا فيما يأتى ويذَر علىٰ سَداد الطُّرُق وطُرُق السَّداد .

❖

تَوْقيعٌ بنَظَر البِقاع، من إنشاء ابن نُباتة، وهو :

رُسِم بالأمر — لا زال يُهنِّي للكُفاة رِزْقا، ويُهيِّئُ لتجديد المناصب مُسْتَحِقًّا، ولا بَرِحَت البِقاع بأيّامه الكريمة تَسْعَد كما تَسْعَد الرِّجالُ ولا تَشْقىٰ — أن يرتَّب ... ... حَسَبَ ماتضمنته مُكاتَبة الجناب الفلانى : مُنبِّهًا علىٰ قَدْر هذا الناظر المُهذَّب وصْفُه، المرتَّب علىٰ نَحْو الثناء نَعْتُه وعَطْفُه، المشهورِ بمباشرته انتفاعُ الوظائف وارْتفاعُها، الشاهدِ بكفاءته وأمانته مَسالكُ الأعمـال وبِقاعُها، واعتمادًا علىٰ مباشرته الزكيه، وكتابته التى لا يُداهِنها المداهِنُون وهى نِعْمَ البَعْلَبَكِّيَّه[1] .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المتيَمِّنَةَ بمطالعِ رَشَده، ومَطَالب سَدَده، عالمـًا أنَّ البقاعَ كالرِّجال تَسْـعَد وتَشْقىٰ : فلْيكُنْ سَعْدُها علىٰ قَلَمِــه ويَدِه، مجتهِدًا فيما يُبيِّض وَجْهَ

(١) نسبة الى بعلبك عند من يجعله اسما واحدا و يمنعه من الصرف فأما من يضيف الأول الى الثانى ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعليّ .

شاكِرِه، حَرِيصًا على ٱزدياد الصفات التى كانت فى عقد حساب العمل تَحُلّ بَنَانه بجعلته الآن تَحُلّ نَاظِرِه ، مُثَمِّرا لأموال النواحى وغِلالها ، واضعًا عن أرباب الاستحقاقات ما عليها من سُوءِ التدبير : من إصْرِها وأغلالها ، محتاطًا لنفسه فى الحوطات حتّى لا يُذْكَر إلا بخَيْر، ولا يُعرف قَلَمُه إلا بمَيْر، ناثرا حَبَّ حُبِّه حتّى تَهْوِى إليه ألفاظُ الثَّناء هُوِىَّ الطَّير، جاعِلًا تَقْوى الله مَقْصَدَه : فإنّها السبيلُ إلىٰ فَوْز الدارين لا غَيْر .

الصنف الرابع

(ممّا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيعُ مشايخ الخَوَانق ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«الحمد لله»)

وهو توقيعُ شَيخ الشيوخ بِدمشق : وهى مَشْيخةُ الخانقاه الصلاحية المعروفة بالشُّميصاتية . وقد تقدّم أنها يكتب بها أيضا من الأبواب السلطانية . ثم هى تُفْرد تارةً عن كتابة السِّر بالشام ، وتارة تُضافُ إليها .

توقيعٌ بمَشْيَخةِ الشُّيوخ بالشام، من إنشاء الشَّيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ «علاء الدين علىّ» مفردة عن كتابة السِّرّ ، وهو :

الحمدُ لله الذي جعل شَرَف أوْليائه عَليا، وفَضْلَه الجليــلَ جَليّاً ، واتّصالَ علائهم كاتصال كَوكبِ الشّرَف بإيلاءِ الخيرات مَليّــا، وحاضرَ أُفقِهم كغائبِه إذا سُطِّرت دَعَواتُه واستمطرت هِباتُه كان علىٰ كلا الحالَين وَلِيّاً .

نحمَــدُه علىٰ توالى النِّعم الأنِيقَــه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تستمِرُّ بأصْلِها فُروعُ الحقيقه ، ونشهدُ أن محمّداً عبدُه ورســولُه أجْدرُ الخلْق بكَرَم الخَلِيقَــه ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِــه الذين سَلَكوا بهُدَاه أحسنَ طَرِيق وسُلِكُوا فى أحْسن طَرِيقَه، صلاةً دائِمةً لا تزالُ بها عقائِد الإخْلاصِ مُوثّقَة وألْسنة الذِّكر طَلِيقَه ، وتحيّــةً إذا بَدتْ فى حَضْرةِ الأذْكار كانت للأعْين من النُّور نهــارَه وكانت للأنْجم من القَدْر شَقِيقَه .

أما بعدُ، فإنَّ أوْلَى المراتب الدينية بتَقْديم العِنايَه، وتَفْخيم الرعايه، وتكريم التولية ولا سيما إذا كانت منتسبة إلىٰ أهْل الوِلايَه ـ مَرْتبةُ مَشْيخة الشيوخ التى يجمع عبادَ الله الصالحين نِطاقُها، ويَضُمُّهم رِواقُها، وتطلعهم مطالِــعَ كواكب الهُدَىٰ آفاقُها المُنيرة وأوْفاقُهــا .

ولمــا خَلَتِ الآنَ هــذه الرتبةُ بالشام المحروس من شَــيْخ تَدُور هذه الطائفة علىٰ قُطْبِه ، وتجتمعُ علىٰ مائدة قُرُباته وقُرْبه ، وتَمْشى علىٰ قَدَمه وتُناجِى صلاحَ أحوالهــا عن قَلْبِــه ـ تَعيّن أنْ نختار لهــا مَن كَمَلت بالله أدَاتُه ، وصَفَتْ فى مشاهد الحقّ ذَاتُه، وزَكَتْ فى عِلْمَىِ الإبانَةِ والأمانة شهادتُه المُفْصِحةُ ومشاهَداتُه، وأجْمع الناسُ علىٰ فوائد تَسْلِيكه واسْلاكِ قَلَمِــه حيث بَدتْ فى وجوه الحسن حَســناتُه ، ووُجُوه الشام شَاماتُه ؛ لمــا شُهر من مَعْرفته وعِرْفانه ، ولمــا دُعىَ له ببَقَاءِ نُوح لِمــا فاض

فى العِلْم من طُوفانه، ولمّا قام فى الأذهان من طبقة قَدْره الموصوف، ولما سار من رِسالة أخباره فإذا قالت الآثارُ: «هذا السِّرىُّ» قال الإيثارُ: «وفَضْلُه مَعْروف».

فليباشِرْ هـذه المشيخةَ المباركةَ بصَدْرٍ للسالكين رَحِيب، وبِرٍّ للسائلين مُجِيب، وفَضْلٍ يقولُ الرائدُ والمريدُ بدار إقامَتِه: قِفَا نَبْكِ من ذِكْرىٰ مَنْزِلٍ وحَبِيب؛ وبِشْرٍ وبُشْرىٰ يملآن عَيْنَ المُجْتَلِى ويَدَ المُجْتَدِى، وعَطْفٍ ولُطْفٍ إذا قال الذّاكِرُ لمن مَضىٰ: راحَ مَالِكِى! قال المُعايِنُ: وجاء سَيِّدِى؛ ولْيُراعِ أمور الخَوانِقِ الشاميَّة ما غاب منها وما حَضَر، وما سَمِع منها وما نَظَر، ولْيُهذِّبْ قُلوبَ ساكِنيها حتَّىٰ يَعودَ كإخوان الصَّفاءِ من المَوَدَّة قَومٌ كانُوا إخوانَ الصَّفَا من الحَجَر؛ قائمًا بحقوق الرُّتبة قِيام مِثْلِه من أئمّة العِلْم والعَمَل، داعِيًا لهذه الدَّولة العادِلَة فإنّه أقصىٰ دَواعِى الأمل، مُعْرِبًا ـ لأنَّ العَرَبِيَّة من عُلومه ـ عن الإيضاح غَنِيًّا عن تَفْصيل الجُمَل؛ وهو المسَلِّك فما يحتاج لتَسْلِيك دُرَرِ الوصايا، المَخْبُوءُ لمِثْل هـذه الزَّوايا المبرورة: فنِعْمَ الزَّوايا المَخْبُوَّة بِنِعْم الخَبايا؛ واللهُ تعالىٰ يُعيد على الأمَّة بركاتِه، ويُمتِّعهم باسْتِسْقاء الغُيوث: إمّا بِبَسْطِها عنْد بِرِّه! وإمّا بِبَسْطِها عند دَعَواتِه.



وهذه نسخةُ تَوْقيع بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا، مضافةً إلىٰ كِتابة السِّرِّ به، كُتب بها للقاضى ناصر الدين «محمد بن أبى الطَّيِّب» كاتِبِ السِّرِّ بالشام بـ«المَقَرِّ الشريف» وهى:

الحمدُ لله الذى شَرح صُدور أوليائه بمعرفة الحقِّ واتِّباعه، وجعلهم خَواصَّه الذين غَدَوْا من أتْباع الحَبِيب وأشياعه، ورَفَع ذِكْرَهم علىٰ رُءُوس الأشهاد وآواهُم إلىٰ مَقام الأُنْس فى محلِّ القرب بالتَّسْليك المُحَمَّدىّ الذى أوْصل إليه مَرِيدَه بانْقِطاعه، وخَصَّهم

ببركات من حضّهم على الأعمال الصالحة بقصده الجميل وعلمه الغزير واتضاعه ، ومنحهم بمن أوضح لهم الطّريق المستقيمَ بإبدائه الحقّ وإبدار إبداعه ، وغذاهم بالحكمة فنشئوا بالمعرفة وصار لهم العقل السّليم بالتحفّظ من الأهوية الرّديّة فسلمت لهم الطّبية على قانون الصّحّة بحُسن تركيبه وأوضاعه ، وأفاض عليهم من بحر علمه ما نالوا به الرُّشد فصاروا أولياء بملازمة أوراده ومتابعة أوزاعه .

نحمده على ما ألهمنا من وضع الشّيء في محلّه ، وإيصال الحقّ إلىٰ أهله ، وإجابة سؤال الفقراء وإعانتهم بمن أغناهم عن السّؤال بفضائله وفضله ، حمدًا يعيد كشّاف الكُرَب على مريديه وطلبته ، ويرفع مقام من قام بشعار الدّين بتعظيم قدره وعلوّ درجته ، ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الذى من تقرّب منه ذراعا ، تقرّب منه باعا ، ومن أتاه يمشى أتاه هرولة وإذا تقرّب إليه عبده بالنوافل أحبّه ، ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلّا هو ويعلم ما فى البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبّة﴾ . ونشهد أنّ سيّدنا محمّدًا عبده ورسوله الذى أضاءت الأكوانُ من نور هديه فاهتدت به أصحاب المعارف المسلّمون لموجدهم الأمر والإرادة ، ومن هو روحُ الوجود الذى أحيا كلّ موجود وسلك طريق سنّته الموصّلة إلىٰ عالم الغيب والشّهادة ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين صفت قلوبهم من الأكدار وإلى التّقوىٰ سبقوا ، وصدقوا فى المحبّة فاستحقّوا ثناء مولاهم : ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ﴾ ؛ فمنهم من شمّت من فيه رائحة كبد مشويّة من خشية الله ، ومنهم من حدّث بما شاهده ببصره وبصيرته على البعد ورآه ؛ ومنهم من أحيا ليله واستحيت منه ملائكة السماء ، ومنهم من اتّخذه أخًا إذ هو باب مدينة العلم وركن العلماء ؛ صلاةً دائمة تُطيّبُ أوقات المحبّين ، وتُطرِبُ بسماعها قلوبَ المتّقين أهل اليقين ؛ وسلّم تسليما .

أمّا بعدُ، فإنّ أولىٰ مَن قدمناه، إلىٰ أهل الصلاح، ورفعناه، إلىٰ محلّ القُرْب ورُوح الأرواح؛ وحكّمناه، علىٰ أهل الخير، ومكّناه فى حزب الله الذى غلَب لمّا اجتهدُوا علىٰ إخراج حزب الشّيطان من قلوبهم وزحَفُوا علىٰ قرارِه بجَيْش التّقوىٰ وسِمَتُهم الزُّهْـدُ وحُسْن السّيْر؛ ووَلّيناه أجلّ المناصب الذى تجتمعُ فيه قلوبُ الأولياء على الطّاعه، وأحللناه أرفعَ المراتبِ الذى خطبه منهم خِيارُ الجَمْـع لِخَلْوةِ عَرُوس الجمال فى الخَلْوة بعَقْد ميثاق سُـنّةِ المحبّةِ وشهادة قُلوب الجماعَه ـ مَن جَمّلَه صورةً ومعنىً، وافتخَر به أحاد ومَثْنىً؛ وباشره علىٰ أحسنِ الوُجوه، وبلّغ كلّاً من مُرِيدِيه وطَلَبَتِه من فضائله وفَضْـله ما يُؤمّلُه ويرْجوه؛ ومَدّ موائدَ عُلومه المحتَوِيَةَ علىٰ أنْواع الفضائل المُغـذّيَةَ للقـلوب، وجلس فى حُلَلِ الرِّضا فكَسَا القومَ الذين لا يَشْـقىٰ بهم الجَليسُ ملابِسَ التّقوىٰ المطهرةَ من العُيوب؛ وظهر فى مَحْفِلِهـم للهدَايَةِ كالبَـدْرِ وهم حولَه هَالَه، وكان دَلِيلَهم إلى الحقّ فغَـدَوْا بتَسْليكه من مشايخ الرِّساله؛ وجاهـد فى بيان معانى القرآن العَظِيم حتّىٰ قيل لمّا فَسّره: هذا «مُجاهِد»، واستدَلّ علىٰ تنْزيه من تكلم به ـ سبحانه ـ عن التشبيه والتعليل "وفى كلّ شَىْء له آيةٌ تدلُّ علىٰ أنّه واحد"؛ ونقَل الحديثَ المحمّدىّ الذى هو "مُوَطّأ" لتفهيم "الغريب" منه وميز "صَحِيحَه" لكلّ "مُسْلِم" فأطرب بسماعه الوُفُود، وأفاد العباد "تنبيه الغافلين" فقاموا فى الخِـدْمة فأصْبحوا تَعرِفُهم بسِيماهُم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛ وخَفَض جَناحَه الذى عَبَر به الشِّعْرى العَبُورَ والنّسْر الطائر، وسار إحْسانُه إلىٰ طوائف الفُقَراء فصار مَثَلاً فحَبّذا "المَثَل السّائر".

وكان فلانٌ ـ أعاد الله تعالىٰ من بركاته وأسْبغ ظِلالَه ـ هو الذى أقامه اللهُ تعالى لهذه الطائفة المباركة مَرّةً بعد مَرّه، وذُكرتْ صفاتُه الجميلة فكان مَثَله للعيون قُرّه؛

واتّصف بهذه الصِّفاتِ التى ملأت الأفواهَ والمَسامِعَ كما ملأتْ مرءآته المُقَل، وحصل البِشر بمعروفه الذى تتبعه السرىُّ أبو يَزِيدَ بجرىٰ على عادة القَوْم الكرام و وصل؛ ونبعتْ عناصِرُ فضائله فكانت شَرابَ الذين صَفَتْ قلوبُهم من كَدَرِها ، وأمطرتْ سَحائبُ علومِه الإلٰهيّةِ الدارّةُ من سماء الحقيقة فسالَتْ أوديةٌ بقَدَرِها؛ وظهرتْ لَمْعةُ أنوارِ شمسِ معارفه عند التَّجلّى على المُريد ، وساقَ نُفوسَ القائمين لمّا عَنّ مَطْلَبُهم بأصْلِه الذى شرح طَلاسِمَ قَلْبِ الفَانِى بذِكْر الباقِى فغَرِقُوا فى بحار المحبّة(وجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعها سَائِقٌ وشَهِيدٌ) .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى ــ لا زال يرفَعُ أهلَ العِلْم والعَمَل إلىٰ أعلىٰ مَقام ، ويَبْنِى لهم فى جَنّات القُرْب قُصُورَ الرِّضا: (لهم ما يشاءُون فيها) ومَزِيدُهم الإكرام ــ أن تُفوّضَ إليه مشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس : وَظِيفَتَه التى خرجتْ عنه ، المرسومُ الآنَ إعادتُها عليه، عوضًا عمّن كانتْ بيده، بمعلُومَىِ النَّظر والمشيخة الشاهِد بهما ديوان الوَقْف المبرور إلىٰ آخر وَقْت ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ؛ تفويضًا نُظِمتْ بالقَبول عُقُودُه، ودامَتْ فى دار السعادة سُعُوده، وفى دَرَج المعالى صُعودُه .

فليَتَلَقَّ ذلك بالقَبول، وليَبلُغ الفقراءَ من إقباله الجَمّ الذى ألجم عَدُوّه المُنىٰ والسُّول؛ وليعامِلِ المُرِيدينَ بالشَّفَقَةِ المعروفَةِ من رَحْمة دِينه و إفضاله ، وليَشمَلْ كُلًّا منهم بعنايته ولُطْفه فإنّ الخَلْق عِيالُ الله وأحَبُّهم إليه أشْفَقُهم علىٰ عِياله ؛ وليأمُرْهم بملازمة إقامة الصَّلاة طَرَفَىِ النهار وزُلَفًا من اللَّيل ، و إذا مالوا ــ والعياذُ بالله تعالىٰ ــ يومًا إلىٰ مُنافَسَةٍ بينهم فليَقُلْ : آتّقوا اللهَ ما آستطعتم وكُونُوا عِبادَ الله إخْوانًا ولا تَميلُوا كُلّ المَيْل؛ وليفْسَحْ لهم حَرَم الخَيْر الذى وقَفُوا فيه تُجاهَ قَصْر تَعبُّده الذى عَلا بالجَوْهر

الفَرْدِ وقُوَّة الإخلاص ، ولْيُدْخِلْهم منه جَنّـةَ إقبال فوائده التى فيها من أبكار معانيه حُورٌ مقصوراتٌ فى خِيامِ أداتِه لم يَطْمِثْهُنّ إنسٌ قبلهـم ولا جانٌّ وأعْجز قَصْرُه العالى وجَوْهَرُه الغالِى كُلّ بَنَّاء وغَوّاص ؛ ولْيجعلْهم له علىٰ جَبَـل اعْتِمادِه ومَرْوَةِ مُرُوءَتِه إخْوانَ الصَّفا ، ولْيُقِمْهُم فى رُكْنِ مقام المُنـاجَاة اذا زَمْزم مُطْرِبُ حَيِّهم تِلْقاءَ أهل الوفا ؛ ولْيُقَـدِّم السابِقِينَ بمعرفة حَقِّهم ونجدتهم بالوَرَع الذى يَغْلبون به الشـيطانَ فإنّ حِزْبَ الله هم الغالبون ، ولْيُـداوِ قُلوبهم المَرْضَىٰ بشراب المَحَبَّة وتَرْكيب أدْوِيَة الامتلاء من الدنيا ليغتذُوا وقت السَّحَرِ [بحديث] (هل من تائِب) ولا يَسْقِهم كاساتٍ تَضعُفُ عنها قوَّتُهم حتىٰ يُنَقَّوْا من بَرَدَةِ الهَوَى المُضِرَّة ويَغْتَسلوا بحـارٍّ مجارِى دُمُوعِ الخُشوع ويَلْبسوا جَدِيدَ ملابِسِ التُّقىٰ ويغدوا من الحَبائب . ومنه تُعرف الوصايا ، وعنه تُنْقل المزايا ، وكَرَمُ الأخلاق والسَّجايا ؛ ولْيأمُر السالكينَ بمداومة الأعمـال التى قامت بحُسْنِ العقائد وٱسْـتَقلّتْ ، ولْيَحُضّ المُرِيدينَ أوائلَ التَّسْليك علىٰ ذلك فإنّ أحبَّ الأعمـال إلى الله تعالىٰ أدْوَمُها وإنْ قَلّتْ ، وليعرِّفهم المحبةَ بذكرِ الله لئَلّا يقُومُوا علىٰ قَدَم الهُيام ، وليبيِّنْ لهم المَعْنىٰ إذا لم يعرفوا المَعْنىٰ ليقطعُوا الهَواجِرَ فى طلب الصِّـيام ؛ وليفرِّقْ بين الواردات بملازمة الأوْرادِ لئَلّا يقَعُوا من الاشتباه فى حَيْرة ، ولْيأمُرهم بادِّخار العَمَلِ الصالِح لتكونَ التقوىٰ لقلوبهم قُوتاً والزُّهـدُ مِيرة ؛ وليَقْمَعْ أهلَ البِـدَع ، وليَرفَعْ مَنِ ٱتَّضع ؛ وليتفقّـد أحوالَ أوقافِهم بجميع الخوانق والرُّبُط والزوايا بالجميل من النَّظَر ، وليَزِدْ فى الأجور بما يؤثِّر فيها نظرُه الذى مازال لهم منه أوفرُ نصيبٍ فحبَّذا العيْنُ والأثَر ، والوصايا وإنْ كثرتْ فهو مُفِيدُها وعنده منْبعها ، وتقوى الله الذى هو شَيْخُها ومُرِيدُها فى بيتـه المبارك حَلاوةَ ذَوْقِها وجَمْعُها ؛ والله تعـالىٰ يكْلَؤُه فى اللّيل والنهار بآياته البيِّنات ، ويرفَعُه بها ويُرَقِّيه إلىٰ أعلى الدَّرجات .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع مشايخ الأمكنة بحاضرة دِمَشْق ـ ما يفتتح بـ«أمّا بعد حمـــد الله» وفيها وظائف)

نسخةُ توقيع بمشيخة إقْراء القرآن، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ«المجلس العالى» وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله رافعِ شُهُب الهدى أعْلاما، وجاعِلِ رُتَبِ أفضلها أعلى ما، ومُحِلّ أحمدها من مَدارِس الآياتِ منازِلَ بَدْرٍ إذا محا المحاقُ من هذا آسمًا أثبت من سُمُوِّ هذا قدرًا تمـاما، ومُسْكِنه من مواطن الذكر جنّاتِ قومٍ بارتقائهم وبقاءِ ذِكْرهم خالدين فيها حَسُنَتْ مستقرًّا ومُقاما؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ أرفعِ من آتّخذ القرآنَ إماما، وأنفعِ من عقد آستحقاقُ النبوّةِ على حَمْدِه خِنْصَرًا وجلا الحقُّ بهداه إبهاما؛ وعلى آله وصحبــه أمنع من لَبِسَ بسَرْدِ الآيات دِرْعًا وآقتسم من بركتها سِهاما ـ فإنّ وظيفــةً يكونُ القرآنُ الكريمُ، ربيعَ فَصْلِها وفَضْلِها، ورُتْبةً يكون الذّكر الحكيمُ، مُداويَ قلوبِ جَفْلِها، ومَشْيخةً يكونُ مُريد الآيات البيّناتِ وارِدَ زوايا أهْلِها ـ لأحَقُّ أن تُتخيَّر لها الأكفاءُ من ذَوِي الفَضْل الأثير، والأدِلّاءُ على أشرف نِتاجِ الهداية من ذَوِي الحِلْمِ الساكِن والعَزْمِ المُثير .

ولمـا كانتْ مشيخةُ إقراءِ القُرآن بالتُّربة المعروفة بأُم الصالح بدِمَشْق المحروســة : هى كما يقال : أُمُّ العِلْمِ وأبوه، وأخوه وحَمُوه، وصاحِبَته وأهْلُ الكتابِ والسُّنة بنُوه، وخَلَتِ الآنَ من شيخٍ [كان] يحمِى حِماها، وتُقْسِمُ الخلواتُ والآياتُ من بَركته وتِلاوته بـ«الشّمْس وضُحاها والقَمرِ إذا تلاها» وكان فلانٌ هو الذخيرةُ المخبوءةُ لهذا الأمر، وذو السِّيرة المحبّوة بهذا الشّرف الغَمْر، وصاحِبُ القراءة والبيان الذى لا يُعْوِزُ زمانَ

طَلَبتِه [أبو] عُمَر(١) ولا أبو عَمْرو؛ والجامعُ لعلوم كتاب الله تعالىٰ جَمْع سلامةٍ فى فنّه، وصحّةٍ فى شَرَف ذِهْنه، وجَواز أمْرٍ يشهد أنّ البَحْرَ يَخْرج [لدى] المشكلاتِ من صَدْره ويدخل عند عَقْد الحُبَا فى رُدْنه؛ والقارئُ الذى إذا قال مُبيّنًا قال الذى عنده عِلْمُ الكتاب، والتّالى الذى اذا قَصَر أو مَدّ، مدّ إلىٰ سموات العُلَىٰ بأسْباب، والمُشيرُ إلىٰ علمه المرسوم بمُصْحَفه فلا عَدِمَ إشارتَه ومَرْسومَه أُولُو الألْباب؛ والمُجلّى وإن سمّاه العُرْفُ تاليا، والمُنقّب عن غوامض التّفسير: و «آبنُ النقيب» أولىٰ بسند التّفسير طاليا؛ والإمام السُّنّى وإن سمّاه الشرعُ الإمامَ الحاكِمَ دهرا وأقام له فى أُفق كلّ فضل داعيا؛ والسّامى الذى يَسْلُك بفَخْره على "العِراقىّ" أوْضح مَحجّه، والعَرَبىُّ الذى ما "للفارِسى" دخولٌ فى باب تيقُّنه وإن جاء بحُجّه، وذو الرّوايات المَرْويةِ سحائبُه، وخَلَفُ العلماء الأبيضُ فما «خَلَفُ الأحمر» ممّا يُقارِبُه، ولا «ثَعلَبٌ» ممّا تَضِجُّ لديه ثَعالِبُه، ولا «آبن خَرُوف» ممّا يُدانيه وهو «اللّيْث» ومن الأقْلام مَخالِبُه، وبقيةُ السادةِ القُرّاءِ المنشدُ قولَ الحماسىّ:

وَإنّى من القَوْم الّذين هُمُ هُمُ * إذا ماتَ منهم سَيّدٌ قام صَاحِبُه!
بُدُورُ سَماءٍ، كلّما غابَ كَوْكَبٌ، * بَدا كَوكَبٌ، تأْوِى إليْه كواكِبُه!

تَعيّن أنْ يُخْطَبَ لهذه المَشْيخة خِطْبَة الفَتَىٰ لاقتبال مَجْده والشّيْخ لتوقيره، ويُطْلَب لهذه الرتبة طلبا يَقْضى الأملُ فيه بعنوان تَيْسيره.

فرُسِم بالأمر الشريف أنْ يستقر... ...: وضْعًا للأشياء فى مَحِلّها، ورفعًا لأقدار الأفاضِل إلىٰ أعلىٰ رُتَب الفَضْل وأجلِّها؛ وعِلمًا بمقدار هـذا العالم السابق فى أُفُق الهُدىٰ شهابا، المُدفّق علىٰ رِياض العِلْم سَحَابا، النّاقِل إلىٰ مجالس الاشتغال خُطًا يقولُ لها المؤمنُ بالإكرام والكافرُ بالإرغام: ﴿يا لَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابا﴾.

(١) هو حفص بن عمر الدُّورى.

حَلَق وما قصّر ـ أنْ يستقرّ ... ... : حملًا على الوصية التامّة الحكم والأساس، وعلمًا بأنه ممّن حلّ فى مشيخته لباسُ بَلَاس(١) ، ونزع فى الزّهد عما عُدّ زينةً فى النّاس ؛ وسرّح شَعْره حقيقة التّسريح فأطلقه ، ومحا رِقّ سَوادِه وبَيَاضِه فأعتقه ؛ ولازَمَ طريق مشايخه لما ، وشكر الحالَ بجعل فى مَنْبِت كلّ شَعْرةٍ لسانًا للشُّكر وفَما ؛ وسرّ طائفةً وردُوا على آثاره مَناهِلَ الوَفا ، وصَفَتْ قلوبُهم ووجوهُهم فدارت عليهم كُئُوسُ إخوان الصَّفا ؛ حتّى مَشَوْا إلى مطالب الخير مَشْىَ الرِّخاخ ، وفاخَرُوا أقوامًا دنَّسُوا عِزّةَ رُتْبتهم فلولا أدبُهم لأنشدُوهم : «عُقولُ مُرْدٍ ولِحَىٰ أشْياخ» .

فليَقُمْ فى مَشْيختِه قيامًا يُحْيِى القومَ بأنفاسِه ، ويُبْهِجُهم بكرامة الكَشْف من قلبِه وتكريم الكَشْف من رَاسِه ؛ سالِكًا بهم فى طرائق الخير مُسْتبشرين ، آمِرًا بتَقْصير الملابس وَرَعًا حتّى يدخل بهم إلى النُّسُك مُحَلِّقين ومُقَصِّرين ؛ واللهُ تعالى ينفعُ به ، ويُغْنِى حالَه بمُذْهَبِ مَذْهَبِه .

الضــــــرب الثـانى

(من تواقيع مَشْيخة الأماكن ـ ماهو بأعمال دِمَشْق، وفيه مرتبة واحدة ، وهى الافتتاح بـ«رسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بمشْيخة الحَرَم الخَلِيلىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ «شمس الدِّين بن البرهان» الجعبرىّ بـ«المجلس» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه الله تعالى ، وبَسَط عَدْلَه الذى لا يبلغه الوَاصِفُ ولو تَغالَى ، وسَرَىٰ لأولياء بِنى الأولياءِ بِرّه الذى تَسَنَّن بسُنّة الغَيْث ثم تَوالَى ـ أن

---

(١) البلاس كسحاب المِسْح فارسىّ معرب .

فليباشر هــذه الوظيفة مباشرة مِثله من ذوى الأناة والإفاده ، وكُفاة المناصب الذين على سَعْيِهم الحُسْنَىٰ وعلى الدولة تصلُ الزياده ؛ وليَسلُكْ فى الأشغال عادة نُطْقه الأحسن ، وليعاملْ طَلَبَته فى المباحث بغير ما ألِفوا من الخُلُق الأخْشَن ، وليعلَمْ أنّه قد جُمِع بين بِرّه وتُربة الأمّ كى تقرَّ عينُها ولا تحزن ؛ فليسرَّها بنُبْله ، وليبرَّها بفَضْله ؛ وليُوفِّر السَّعْىَ إليها كلَّ وقتٍ فى المَسير ، وليُفسِّر أحلامَ أملِها فيه فمِنْ مُفردات علومه التفسير ؛ وليُحسِنْ لتلامذته الجَمْع ، وليَحْمِ حِمىٰ رواياتهم من الخطإ ولا عَجَب أن يُحمَىٰ حِمَى السَّبْع ! ؛ تاليًا كلام ربّه كما أُنزِل وحَسْبه ، داعيًا بنَسَب قراءته إلى آبْن كَعْب فحبذا نَسَبُه المباركُ وكَعْبُه ؛ ناصبًا بمنظرٍ شخصه أشخاص أمثاله الأُوَل بعد ما ضمهم صَفيح اللحْد وتُربُه ، حتىٰ يَميس «الكِسائى» فى بُرْد مسرّته الفاخر ، ويفتح عيونَ «حمزة» على زهرات رَوْض عَبِق المباخر ، ويترنَّم وَرَشانُ «وَرْش» فى الأوراق على بَحْره الزاخر ، ويظهرَ بفضْله ذِكْر «الشَّاطِبىّ» فيكون «القاضى الفاضل» رحمه الله قد أظهره فى الزمن الأوّل و«القاضى الفاضل» أجلّه الله قد أظهره فى الزمن الآخر ، وتقوى الله تعالىٰ كما عُلِم خِتامُ الوصايا البِيض فليتناوَلْ مِسْكَها الذى هو بشــذا المِسْك سَاخِر ؛ واللهُ تعــالىٰ ينفع بعلوم صَــدْره الذى ما ضاقَ عن السُّؤال فملَّه ، ويمتِّع بعلوّ قَدْره الذى إن لم يكُنْ هو لفضل الثناء فمَنْ لَه .

المرتبــــة الثالثـــــة

(من تواقيع مشايخ الأماكن بحاضرة دِمَشْق ـ ما يُفتتح بـ«رُسِم بالأمر»)

تَوْقيعٌ بمشيخة الجَوَاليقية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ؛ وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال حُسْن آعتقاده يَسْــتَنزِلُ النَّصر فيُنصَر ، ويَستَبْصِرُ مطالع الفَوْز فيُبصَر ، ويَستجْلِبُ الأدْعِيــةَ الصالحةَ من كلّ زاهدٍ إذا حام فى أُفُق العبادة

يستقر ... ... ـ أدام الله تعالى بركتهٔ الانتفاع، وباقتداء سَلَفه الارتفاع، وأعاد من بَركات بَيْتِه الذى قام البُرهانُ بفَضْله وقال بوُضُوح شمْسه الإجماع ـ فى مَشْيخة حَرم سيدنا الخَلِيل صلوات الله عليه وسلامه، على عادته القديمة المقدّمه، ومستقرّ قاعدته المعلومة المعلمه ؛ بعْد إبطال ما كُتب به لغيره فإنّ هذا الوَلِىّ أَوْلى، ولأنّ الحقّ معه وبَاعُ الحقِّ أطْوَلُ على المعْتَبِين إطالةً وطَوْلا(١) ؛ وضْعًا للشّىءِ فى محلّه الفاخر، وحملًا على ما بيده من تواقيعَ شريفة تَوارثَ بركَتَها مُلوكُ البسيطة فى الأوّل والآخر، وعِلْمًا أنّه بقيّةُ العلْم المَشِـيد، والزُّهْد العَتِيد، وخَلِيفَة السّلَف الصالح وما منهم إلّا مَن هو «أمِين» العزْم «رَشِيد»، وأنّه الشيخُ وكُلُّ مَن عرفه فى بَقائه ولِقائه مُرِيد، والقائمُ بالمَقام الخليلىّ ـ صلوات الله تعالى على سَاكِنه ـ مقامًا مُجْتبىً، والمُنْتسبُ إلى خِدْمة الحَرَم الإبراهيمىّ مَحْدوما صلى الله عليـه ونسبا ؛ والقَدِيمُ الهِجْرة فلا تتركه الأوْطان ولا تَهْجُره، والمُقِيمُ بالبلَد الخَلِيلىّ على إقامة الخَيْر : فما ضَرَّه أنّ العَدُوّ يشْكُوه إذا كان «الخَلِيلُ» يشْكُره ؛ وقد سبقتْ له مباشراتٌ فى هـذا الحرم الشريف فكان عَزْمُها تَمَاما، وشُكْرُها لِزاما، وكانتْ على الصّادِرِينَ والوَارِدِينَ كتِلْكَ النّار النّبوِيّة بَرْدًا وسَلَاما.

فلْيعُدْ إلى مباشرة وظائفه المذكورة فى التواقيع الشريفة التى بيَـده، ولْيكُنْ يومُه فى الفضـل زائدًا على أمسِـه مُقَصِّرًا عن غَدِه، بثناء يتَلَقّى أضيافَ أبى الأضْـياف، بأليف أحْوالِ الداخلين إليه شِتاءً وصَيْفًا وإن لم تكُن رِحلةَ إيلاف، جارِيًا فى بركة التّدْبير والتثمير على عادته وعادة سَلَفه فنِعْم الخَلَفُ ونِعْم الأسْلاف ؛ مُواظِبًا على عادة تَقْواه ورفْع الأدعية لهـذه الدّولة الشريفـه، جاعلًا ذلك منـه أوّلَ وآخِرَ كلّ وَظِيفَه ؛ والله تعالى ينفع ببركات سَلَفه وبه، ويكافِئُ عن الأضياف بَسْطَ راحَتِـه بالخيرات وفَضْلَ تَعَبِه .

(١) الأنسب «طُولا وطَوْلا» .

***

تَوْقِيعٌ بمَشْيَخة الزاوية الأمِينية بالقُدْس ونَظَرها، كُتب به للقاضى «برهان الدين» ابن المَوْصِلى بـ«ـالجناب العالى» وهو :

رُسم ... ـ لازال يُجْرِى الأولياءَ فى مقاصدهم على أجْمل عادَه، ويختار منهم لمَواطِنِ الخَيْرِ مَنْ يرعاها بنَظَرٍ يُثمِرُ لهـا السعادَه ـ أن يُحِـلَّ فلانٌ فى وظيفتَىِ النظر والمشْيَخة بالزاوية الأمِينِيّة بالقُـدْس الشريف ، على حكم النُّزول والتقرير الشرعيَّين المستمرِّ حُكْمُهما إلى آخر وَقْت ، واستمراره فى الوظيفتيـن المذكورتين بمقتضاهما ، ومَنْع المنازِع بغير حكم الشرع الشريف .

فلْيباشرْ ذلك بمـا يُقْتدى به من تَسْليكه وتأديبه ، وتَسرُّع رَغْبته فى هـذا المقام ومن عناية تَهْذيبه ؛ والوصايا كثيرةٌ ولكن لا تُقال لمِثْـلِه إذ هو مُعلِّمُها ، وتقوى الله سبحانه أهمُّها وأعظَمُها ؛ والله تعـالى المسئُولُ أن يرشِدَنا إليها ، وأنْ يجعلَ فى كلِّ الأمور اعتمادَنا عليها ؛ بمنِّه وكرمه ! .

الصـــنف الخـامس

(ممّـا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تَواقيع العُرْبان)

والذى وقفت عليه من ذلك مَرسومٌ مكْتَتَب برُبْع تَقْدمَة بنى مَهْدىّ بـ«ـالمجلس السامى» بغير ياء، كتب به لـ«موسى بن حناس» مفتتحا بـ«أمّا بعد» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله تعالى الذى جمع على الطاعة الشريفة كُلَّ قَبِيلَه ، وبسطَ على ذوى الإخلاص ... ...[1] الظَّلِيلَه ، والشهادةِ بأنّه الذى لا إله إلّا هو وحدَه لا شريكَ له

(١) بياض فى الأصل ولعله «ظلال نعمه الظليلة» .

شهادة أتخذها للتوحيد دليله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذى اتخذه الله تعالى حبيبه وخليله ، وآتاه الدرجة الرفيعة والوسيله ، وعلى آله وصحبه صلاة مباركة أصيله ـ فإن الأولى[1] لتزكية القوم ترعى ، وذا الإخلاص ينجح له كل مسعى ، والجدير بالنعم من يجيب بالطاعة حين يدعى ؛ من سلك فى الخدمة الشريفة مسلك الأسلاف ، وتجنب ما يفضى إلى الشقاق والخلاف ؛ فعند ذلك رفعنا مراتبه ، وضاعفنا مواهبه ، وأنرنا بالإقبال الشريف كواكبه ، وأجملنا مكاسبه ؛ وبسطنا فى ربع تقدمة بنى مهدى كلامه ، ونفذنا أمره على طائفته : قوله وإبرامه ؛ من أضحى مشكورًا من كل جانب ، مجتهدًا فى المصالح وبلوغ المآرب ؛ من عرف بالأمانة فسلكها ، واشتهر بالصيانة فملكها ؛ وحاز أوصافًا حسنه ، وسيرة نطقت بها الألسنه ؛ وكان فلان هو الذى أضحى على عربانه مقدما ، ومن أكابرهم معظما .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت مراسمه الشريفة عالية نافذه ، وأوامره بصلة الأرزاق عائده ـ أن يستقر ... ... على عادته وقاعدته : حملا على ما بيده من التوقيع الكريم .

فليباشر هذه الإمرة مع شركائه مباشرة حسنه ، وليسر فيها سيرًا تشكره عليه الألسنه ؛ وليظهر السداد ، وليبذل الطاعة والاجتهاد ؛ وليسلك المسالك الحسنه ، والله تعالى يجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ والوصايا كثيرة وملاكها تقوى الله تعالى ، والله تعالى يجعل إحساننا إليه يتوالى .

قلت : وقد تقدم أنه يكتب بإمرة بنى مهدى من الأبواب السلطانية أيضا . على أن هذا التوقيع من التواقيع الملفقة ، ليس فيه مطابقة للتواقيع ، وليس برائق اللفظ ، ولا مونق المعنى .

(١) هذا الكلام كما نبه عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم .

الصنف السادس

(مما يكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيع زعماء
أهل الذمة : من اليهود والنصارىٰ)

وهذه نُسخة توقيع لبطرك النصارىٰ مفتتحًا بـ « أمّا بعد » كُتب به للبطرك « ميخائيل » وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جعلنا تَشملُ كلَّ طائفةٍ بمزيد الإحسان، ونُفيضُ من دولتنا الشريفة علىٰ كلِّ بلدٍ اطمئنانًا لكلِّ ملّةٍ وأمان ، ونُقرُّ عليهم من اختاروه ونُراعيهم بمزايا الفَضْل والامتنان ؛ والشّهادةِ بأنّه اللهُ الذى لا إله إلّا هو الواحدُ الذى ليس فى وحدانيته قَولان ، والفَرْد المنزّه عن الجَوهر والأقنوم والوالد والولد والحُلول والحَدَثان، [شهادةً] أظهر إقرارَها اللّسان، وعَمِلَتْ بها الجوارحُ والأركان ؛ والصّلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسولِه المبعوثِ إلىٰ كافّة المِلَل والإنس والجان، الذى بشّر به عيسىٰ وآمن به مُوسىٰ وأنزل عُمومَ رسالته فى التّوراة والإنجيل والزّبور والفُرقان ، فصحّ النّقل بنبوّته وآدمُ فى الماء والطّين وأوضح ذلك البُرهان، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سادوا بإخلاص الوحدانيه، وشادُوا أركان الملة المحمّديّه ، وأعزّوا الإيمان وأذلّوا الطُّغيان، صلاةً ينفَحُ طِيبُها، ويُفصِحُ خَطيبُها، ويَفرح بها الرحْمٰن ـ فإنّ أوْلىٰ من أقمْناه بِطْريكا علىٰ طائفة النصارىٰ الملكيّه ، علىٰ ما يقتضيه دِينُ النصرانية والمِلّة العِيسَويّه، حاكمًا لهم فى أمورهم، مُفْصِحًا عمّا كَنّ فى صُدُورهم ـ من هو أهلٌ لهذه البِطْريكيه، وعارف بالمِلّة المسيحيّه، أخذَهُ[1] لها أهلُ طائفته، لما يعلمون من خِبْرته ومعرفته ، وكفَايته ودُرْبَته ، ونُدِب إلىٰ ولايةٍ يستحقُّها علىٰ أبناء جِنْسه، ورَغِب فى سلوكه لها مع إطَابة نَفْسه، مع ماله من مَعْرفةٍ سَرتْ

(١) يريد اختاره لها .

أخبارُها ، وظهرتْ بين النَّصارىٰ آثارُها ؛ وكان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ بهجته ـ هو من النصارىٰ المَلَكيّة بالمعرفة مذكور ، وسيرُه بينهم مشكور ، القائم فيهم بالسِّيرة الحسنة ، والسَّالك فى مذاهبهم سيراً تشكُره عليها الألسنة .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ لكلِّ طائفة شاملا ، وبِرُّه الجسيمُ لسائر الملك بالفضل مُتَواصِلا ـ أنْ يستقرَّ بطْرَكا على النصارى المَلَكيّة بالشام وأعماله ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ، وتقوية يده علىٰ أهل ملّته ، من تقادم السنين بحُكم رضاهم ، ومنع من يعارضه فى ذلك : حملًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم المستمرّ حكمه إلىٰ آخر وقت .

فليباشِر هذه البطْركيّة مباشرةً محمودةَ العواقب ، مشكورةً لِمَا تحلّتْ به من جميل المناقب ؛ وليحكُمْ بينهم بمقتضىٰ مَذْهبه ، وليسرْ فيهم سَيراً جَميلًا ليحصلَ لهم غايةُ قَصْده ومأربه ؛ ولينظُر فى أحوالهم بالرحْمه ، وليعملْ فى تعلُّقاتهم بصدْق القصْد والهمّه ، وليسلُكِ الطرقَ الواضحةَ الجليّه ، وليتخلّق بالأخلاق المرضيّه ، وليفصلْ بينهم بحُكم مذْهبه فى مواريثهم وأنكحتهم ، وليَعْتمِد الزُّهدَ فى أموالهم ومُتعتهم ؛ حتّىٰ يكون كلُّ كبيرٍ منهم وصغيرٍ ممتثلًا لأمْرِه ، واقِفًا عندما يُقدّم به إليه فى سِرِّه وجَهْرِه ؛ مُتّصِبين لإقامة حُرْمته ، وتنفيذ أمْره وكَلِمَته ، وليُحسِن النظرَ فيمن عنده من الرُّهبان ، وليرفُقْ بذوِى الحاجات والضُّعفاء : من النِّساء والصِّبيان ، والأساقِفَة والمَطارنة والقِسّيسِينَ زيادةً للإحْسان ؛ إحسانًا جاريًا فى المَساء والصَّباح ، والغُدُوِّ والرَّواح .

فيمتثلوا أمْره بالطَّاعة والإذعان ، وليُجِيبُوا نَهيَه من غير خلاف ولا توان ؛ ولا يُمكّن النّصارىٰ فى الكنائس من دَقّ الناقوس ، ورفْع أصواتهم بالضّجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة النَّاموس ؛ وليَتقدّمْ إلىٰ جميع النصارىٰ بأنّ كلًّا منهم يلزم

زِيِّه، وماجاءت به الشروط العُمَرِيَّةُ ـ عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه ـ لتكونَ أحوالُهم فى جميع البلاد مَرْعِيّــه؛ وليَخْشَ عالِمَ الخفيّات، وليستَعْمِل الأناةَ والصّبْرَ فى جميع الحالات؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارف، والله تعالىٰ يُلهِمُه الرُّشْد والمعارف.

قلتُ: وهــذا التوقيع فيه ألفاظٌ ومعانٍ غيرُ مستَحْسَنة، وألفاظٌ ومعانٍ مُنْكَرةٌ، أفْحَشُها قولُه: مُفْصِحًا عمــا كَمَن فى صُدُورِهم. فإنّه لا يعلم ماتُخْفِى الصدورُ وتُكِنّه إلّا الله تعــالىٰ.

واعلم أنّه ربمــا افْتتح تَوْقيعُ البطريرك عندهم بـ«رُسِم بالأمر».

* * *

توقيــع لبَطْرك النصارىٰ بالشام أيضــا، كُتب به للبطريرك «داود الخُــورى» بـ«ـالبَطْرك المحتشم» وهو:

رُسم بالأمر ـ لازال يَعِزُّ بالالْتِجاءِ إلىٰ حَرَمِهِ من يأوِى إليه، ويَقْصِد عَدْلَه من أهْل المِلَلِ ويعتمدُ عليه ـ أن يستقرّ فلانٌ ـ وفّقه الله تعالىٰ ـ بطريركَ المَلَكيّة، بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، حَسَب ماآختاره أهلُ ملّتِــه المقيمون بالشام المحروس ورَغِبوا فيه، وكَتبُوا خطُوطهم به، وسألُوا تقريره فى ذلك دونَ غيره؛ إذْ هو كبير أهل مِلّته، والحاكِمُ عليهم ما امتد فى مدّته؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التّحْريم والتّحليل، وفى الحكم بينهم بمــا أنزل اللهُ تعالىٰ فى التّوراةِ ولم يُنْسخْ فى الإنجيل؛ وشرعَته مبنيّة على المسامحة والاحتمال، والصّبرِ على الأذىٰ وعَدَمِ الاكتراث [به] والاحتفال.

فَخُــذْ نفسَكَ فى الأوّل بهذه الآداب، واعلَمْ بأنّ لك فى المَــدْخل إلىٰ شريعتك طَرِيقًا إلى البــاب؛ فتخلّقْ من الأخلاق بكلِّ جميلٍ، ولا تَسْتكثِرْ من متاع الدنيا

فإنه قليل ؛ وقدّم المصالحة بين المتحاكمين إليك قبل الفصل البتّ فإنّ الصلح كما قيل : سيّد الأحكام ، وهو قاعدة دينك المسيحيّ ولم تخالف فيه المحمديّة الغرّاء دينُ الإسلام ، ونظّف صدور إخوانك من الغلّ ولا تقنع بما ينظّفه ماءُ المعمودية من الأجسام ؛ وإليك الأمرُ فى البِيَع ، وأنت رأس جماعتك والكلّ لك تبع ؛ فإيّاك أن تتّخذها لك تجارةً مربحه ، أو تقتطع بها مالَ نصرانيٍّ تقرّبه فإنّه ما يكونُ قد قرّبه إلى المذبَح وإنّما ذبحه ؛ وكذلك الديارات والقلالى ، [يتعين عليه أن يتفقّد فيها كل أمر فى] (١) الأيام والليالى ؛ وليجتهد فى إجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات ، وليعلم أنهم إنّما اعتزلوا فيها للتعبّد فلا يدعها تتّخذ متنزّهات ؛ فهم إنّما أحدثوا هذه الرّهبانية للتقلّل فى هذه الدنيا والتعفّف عن الفروج ، وحبسوا فيها أنفسهم حتّى إنّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعودُ يبقى له خروج ؛ فليحذّرهم من عملها مصيدةً للمال ، أو خلوةً له ولكن بالنّساء حرامًا ويكونُ إنّما تنزّه عن الحلال ؛ وإيّاه ثم إيّاه أن يؤوى إليه من الغرباء القادمين عليه من يريب ، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مُشكِلَ أمرٍ ورد عليه من بعيد أو قريب ؛ ثم الحذَر الحذَر من إخفاء كتاب يرد [إليه] من أحد من الملوك ، ثم الحذَرَ الحذَر من الكتابة إليهم أو المشى على مثل هذا السّلوك ؛ وليتجنّب البحر وإيّاه من اقتحامه فإنّه يغرق ، أو تلقّى ما يلقيه إليه جناح غرابٍ منه فإنّه بالبين ينعق ؛ والتّقوى مأمور بها أهلُ كلّ ملّه ، وكلّ موافقٍ ومخالف فى القبلَه ؛ فليكن عملُه بها وفى الكناية ما يغنى عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المسيح .

✤

توقيعٌ برآسة اليهود بالشام ، مفتتحا بـ « رسم » من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وهو :

(١) مأخوذ من « التعريف ص ١٤٥ » .

رُسِم بالأمر ـ لا زال جُودُه فى كلّ مِلّة ، وغمامُ كرمه على الخَلْق كأنه ظُلّة ، وذِمامُ نِعَمه يُبَلِّغ المُسْلِمَ والذِّمّىّ من الاستحقاق محلّه ، أن يستقرّ الحكيم[1] ... ...

ومنه : ـ وأن يعامِلَهم علىٰ ما أَلِفُوه من الأحكام ، ويُنْصِفَ صاحِبَ حَقِّهم من مُتَطَلِّبهم : حتّىٰ لا يَعْدُوَ أحدٌ فى سَبْتٍ ولا فى سائر الأيّام ؛ ويُهَذِّبَ وَحْشِىَّ جاهلهم بإيناسه، ويعالِجَ سَقَم كاهِلِهم حتّى تطلُعَ الصَّفْراءُ من رأسه .

فليقُمْ مقامًا فى هذه الطائفة القديمه ، وليُعَبِّر من أسفارٍ عبرانيّةٍ عن عوائد قضاياهم النظيمه ، مُفَرِّجًا بمعرفته كلّ حرّان ، جامعًا كلّ شَعَثٍ علىٰ عَدْلٍ عنده وإحْسان ، شاكِرًا لظُلَلِ النِّعمه ، عارِفًا بالعوارف التى تَرْعىٰ بيمينها كلَّ ذِمّه .

النيابة الثانية

(من النيابات التى يُكتب عن نوابها بالولايات ـ نيابة حلَب)

وهى علىٰ نَحْوٍ من نَمَط دِمَشْق فيما يكتب عن نائبها . فيكتب عن نائبها أيضا بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حلَب وأعمالها : من أرباب السُّيوف، وأرباب الأقلام الدِّينية ، وأرباب الأقلام الديوانية ، ومشايخ الأماكِن وغيرهم ، مُرَتَّبةً علىٰ المراتب الثلاث : من الافتتاح بـ«الحمد لله» ، والافتتاح بـ«أمّا بعد حمد الله» ، والافتتاح بـ«رُسِم بالأمر» .

وهذه نسخُ تَواقِيعَ ممّا كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حلَب وأعمالها ، يُستضاءُ بها فى ذلك :

---

(١) بياض بالأصول .

توقيعٌ بنقابة الأشراف، كُتب به للشريف عزّ الدّين «أحمد بن أحمد الحُسَيْنى» بـ«ـالمقرّ العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى خلّد السيادةَ فى بيوت الشّريف أحدَ تخليد، وقلّد تقاليد السّعادة، لأهلِ الإفادة، أسعد تقليد، وجدّد الوِفادة، لحَرَم العِبادَة، بعزّ العصابةِ المحمدية آكدَ تجديد، والصلاةِ والسلامِ على سيدِ الخلقِ الذى عقد العَهدين لأمّته، بالثّقلين: من كتاب الله وعِترتِه، وسرّ النفوسَ المؤمنةَ هُداه بكلِّ أبيّ من أسْرته، وأقرّ العيونَ المراقبةَ بكلِّ سَرِيٍّ من أهلِ بيْتِه تبرُق أنوارُ النبوّة من أسِرّته، وعلى آله حَبْلِ النّجاة المتمسِّك، وسُبُل الهُداة المتنسِّك، وصحْبِه نجومِ الهُدىٰ، ورُجومِ العِدَا، وأئمّةِ الخيرِ لمن بهم اقتدىٰ، صلاةً وسلاما، يتعاقبان دَواما، ويتلازَمان على الألسنة مدَى المَدىٰ لِزاما، ما حَلا بعين وَطَف، وما علا علَوِيٌّ ذُرا شَرف ــ فإنّ أهمَّ ما اعتنىٰ به وُلاةُ أمورِ الإسلام، وأعمَّ ما اقتنى منه رُعاةُ أجورِ الحكّام ــ رعايةُ مصالحِ أهلِ البيْت، وانتهازُ الفُرصة فى موالاتِهم حتّىٰ لا يقالَ لفواتها : لَيْت، وتعظيمُ ما عظّم الله تعالىٰ من حقوقِهم، وتكريمُ ما كرّم رسولُه من بِرِّهم واجتنابِ عقوقِهم، وتقديمُ أحقِّهم بالتقديم لاحق سَبّاقِهم إلىٰ غايات العَلوات ومسبوقِهم، والتعبدُ بالتعبِ والاجتهاد فى نفعِهم، ونَصْبُ النفوس للنَّصَبِ لتجُرّ ذُيولَ الفخر بموالاتهم، وإعلائهم على الرءوسِ ورفعِهم، اختيارًا لرأيِ مَن زاد فى العناية بالعِترةِ الطاهرةِ وأربىٰ، وائتمارا بقوله تعالىٰ : ﴿قُل لا أسألُكُمْ عليْهِ أجْرًا إلّا المَوَدّةَ فِى القُرْبىٰ﴾ خصوصًا نقابةَ الأشراف، والنّظر فيما لهم من الأوقاف؛ فهى شاملةٌ جَمعِهم، وجامعةُ شَمْلِهم، وواصِلةُ نَفعِهم، ونافعةُ كلِّهم؛ وبفضلِ مباشرِها تُسبَغُ عليهم النِّعمه، وتُستدَرُّ ببركة إجماعهم عليه سُحُبُ الرّحمه؛ وبكفالته تجمع المِنّة لمراتبهم وأحسابهم، وبإيالته تُدفعُ الظِّنّة عن مناقبِهم وأنسابهم؛ وهو القائمُ عن وُلاة الأمور من خدَمهم

بفروض الكفايه، والدائمُ الدأْبِ لمرآة أدبهم لتَحْسُن لهم الرِّعايه، فوجب الاحتفال باختيار من يُحلِّ هذا المَنْصِبَ الشريف، وتَعيَّن الابتهالُ فى امتياز مَن يُسبَغُ عليه هذا الظِّلُّ الوريف؛ ممَّن قدُم فى هذه السيادة بيتُه، وارتفع بخفض العيْش لقرابته بعفافه وديانته صيتُه؛ وتنزَّه عن كلِّ ما يَشِـينُ وتَبرَّا، واكتسىٰ حُلَلَ الفَخار العليـة ومن أعراض الدنيا الدَّنِيَّة تعرَّىٰ .

وكان فلانُ بن فلانٍ ـ أسبغ الله تعالىٰ ظِلَالَهم، وضاعف بمعالى الشَّرف جَلالَهم ـ ممَّن حازَ فى هـذه الخلال المَنازع، وحاز نهايةَ هذه الخِصال بلا مُنازِع، وورد من حِياض المناقب الجميلة أعذبَ المَشارع؛ ودَرَى المراقىَ إلى المَجْد ودَرِب، وبلغتْ نفوس مُحِبِّيه من مَخايل سُعُودِه الأرَب، وقَرَّتْ عيونُ أقاربه بما حصل له من القُرَب؛ ونَشَأ فى حِجْر السَّعاده، وارْتضع لِبَان الإفادَه، ولَحِقَ بالسابقِينَ الأوَّلِينَ من أهـل بيته فى الزَّهاده، وتبتَّل بالإخلاص فظهرتْ علىٰ وَجْهـه أنوارُ العباده؛ وانقطع على العمل، وبلغ من العلوم الأمل: فؤوم تشهد بالمجـرَّة وهو شـامة فى شامه المنسوب :

وَرِثَ السِّيادةَ كابِرًا عن كابِرٍ! * كالرُّمْح أُنْبوبٌ علىٰ أُنْبـوب.

أصلُ فَخارٍ سَما، وفَرْعُ نِجارٍ نَما، وغَيْثُ فَضلٍ هَمَىٰ؛ أثبتَ فى أعلَى المعالى قَدَما، ونَاسب قَدْرَه سَعيُه كَرَما؛ وَجلَّتْ صفاتُ محاسـنه اللائقه، وَحلَّت الأفواهَ مَدائحُ سجاياه الرائقه، وتملَّت الألسنُ وما مَلَّتْ ما تُملى عنه بالخير كلُّ ناطقه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أوامِرُه بِبِرِّ آل مُوالاته ماضيَه، ونَواهيه بقهر أهلِ مُعاداته قاضيَه ـ أن يستقر... ... استقرارًا يُقِرُّ عينَ العُلَا، ويسرُّ نفوسَ أهلِ الوَلا؛ ويَضعَ الأشياءَ فى محلِّها، ويُسنِدُ الأمور إلىٰ أهلها؛ ويَستجلِبُ الأدعيه،

ويحلّ بالوَلاءِ الجميـل ألوِيَه ؛ ويشرَحُ خواطر الأشراف ويُطيِّب نفُوسَهم، ويرفعُ بعد سُجودِ الشُّكر بالدعاء رُءوسَهم .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً يقفُو بها آثارَ بيْته الطاهر، بعزْمٍ كَرِيم : لكلِّ مُصلح بالخير غامِر، ولكلِّ مُفسِدٍ بالضَّيْر قاهِر ؛ وحَزمٍ حَليم : لكلِّ حقٍّ ناصر، ولكلِّ كَسْرٍ جابِر، وليصِـلْ بالبِرِّ رَحِمه، وليُلِنْ للضعيف كَلِمَـه ؛ وليقُمْ بأعْباء هذه الوظيفة قيامَ عَمِّه الشَّريف وأبِيـه ، وليَصُمْ عن أموال الأوقافِ صِـياماً يُقَرِّبُه الله تعالىٰ به ويَجْتَبِيه، ليَحْمَد، هـذا المنصبُ الجليل ، فى بيتـه الأصيل ، عودَه علىٰ أحمد ؛ ولْينفَعْ قرابَته بتَثمير أموالهم ، ولْيشفَعِ النهضة بالمعرفة فى تَثمير غلالهم ؛ : لتَدُرَّ برَكَته أخلافَ أرْزاقِهـم ، وتَقِرَّ خَواطِرُهم بمضاعفة أرْزاقهم وإطْلاقِهـم ؛ ويُخصِبَ فى جَنابِه مَرْعاهم، ويُقرِّب فى بابه مَسْعاهُم ؛ وتَنْطِق بشكره ألْسِنَتُهم الشريفه، وتَنْطَبِق علىٰ مَحَبته ظِلالُ بيوتهم الوَرِيفه ؛ وليَعْتَبِرْ ويَخْتَبِرْ أشغالَهم ويَمنَعْ شُبَّانَهم من الاحتراف بحِرَف الأدنياء ، وليأمُرِ الآباءَ بتعهُّد تربية الأبناء، وليأمُرْهم من العَمَل بما يناسب مَعاليهم ، وليَجْبُرْهم بتَدْبيره السَّـديد جَبراً يُميِّزهم بحُسْنِ السَّمْت من أوْليائهم : وكلُّنا من مَواليهـــم .

والوصايا كثيره، وفَنُّ عُلومِه بتَعْدادها بَصِيره ؛ وتقوى الله تعالىٰ لا يُهمَلُ النَّصُّ عليها ، والإشارةُ بحُسْـــن البيان وحَسَـنِ البَنان إليها ؛ فلتَكُنْ رُكْنَ اسْتِناده، ورأسَ مال اعتِماده ؛ واللهُ تعالىٰ يُديمُه فى صُعود دَرَجِ السُّعودِ مُدَّةَ حياته ، ويجمع له خيرى الدنيا والآخرة برَفْع دَرَجاته .

✢

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة الجيوش بحَلَب ، كُتب به لـ«ناصر الدين بن ايتبك» بـ«السامى» بغير ياء، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال أمْرُه الشريفُ يُعَضِّد الجيوشَ بأعْضَـدِ ناصر، ويُرشِـدُ أولياءَ الخدْمة إلى ٱرْتقاء رُتَبِ المعالى فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصر ـ أن يستقرَّ فلانٌ ـ أدام الله توفيقَه، وجعل اليُمْن والسَّعْد قرينَه ورفيقَه ـ ... ٱستقرارًا يُظْهِر مالم يخْفَ من نَهْضَتِه وكفايته، ويُشْهِر مُعْلَن سرِّ يَقَظتِه ودرايَتِه؛ لأنَّه الفارسُ الذى أعزَّ كلَّ راجلٍ بشَجاعته، والمُمَـارِسُ الذى خَبَرَ الوقائعَ بحُسْن دُرْبَتِه ودراية صِناعَتِه؛ والعارِفُ الذى ٱتَّصف بالخِبْرة وحُسْن الصِّفه، وعُرِفَ فى أموره بالعَدْل والمَعْرفه؛ والهمامُ الذى عَلَتْ هِمَّته فوقَ كلِّ هِمَّه، وكَشف بجزيلِ مُروءَتِه من الكُرُبات كلَّ غُمَّه؛ وسار فى الجيوش سَيْرَةَ والِده، فشَهِد كلٌّ بمـا حواه من طارِفِ الفضل وتالِده .

فلْيباشرْ ذلك : سائرًا فى الجنود أحسنَ سيرَه، مُراقبًا الله تعالىٰ فيما يُبْديه من القَوْل والفِعْل والعَلانيَة والسَّريره؛ مُلازمًا مايلزمه من حُقوق هذه الوظيفه، قائمًا بمـا يجب من أداء الخدْمة الشَّريفه؛ وليُنفِّذْ ما يُؤْمَر به من الأوامر، طالبًا بمـا يتعيَّن من حقوق المأمُور والآمِر؛ [وليجتهد] فى جَمْع العساكر وإعلامِهم بالمُهِمَّات، وليتفقَّدْ أحوالَ الجُنْـد فى سائر الأوقات؛ وليُسْفِرِ النِّقابَ عن الوُجوه بالحِلْية يوم العَرْض، وليُسبِلْ حِجابَ السِّتْرِ علىٰ من أدركه العَجْزُ عن أداء الفَرْض؛ والوَصايا كثيرةٌ لاتحتاج إلى التَّعداد، وتقْوَى الله تعالىٰ هى العُمْدة فى كلِّ الأُمور وعليها الاعْتماد .

⁂

توقيعٌ بالمِهْمَنْدارِيَّة بحلَبَ، كُتب به لـ«غَرَس الدين الطناحى» بـ«الجناب العالى» وهو :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عزائمُه تَنـدُب للمِهمَّات من غُرِسَتْ برِياض ولِيِّه أدْواحُ الهِمَم فزكا غَرْسا، وتُقرِّرُ لهـا من شاب فَوْدُه فى إفادة الوُفُود فأجاب

قَصْدًا وأطاب نَفَسًا؛ ولا بَرِحت عنايته تشمل من أولياء خِدَمها كلَّ شَهْم اذا سل عضبا أزال نفسا وأسال نَفْسا ، وتُعَيَّن من أعيانهم كلَّ جميل يودُّ المُنافسُ لو شاهده ولا تَخْمُسُ يدُ الرُّقِيِّ منه نَفْسا ـ أنْ يستقرَّ ... ... لأنه ذُو الهِمَم التى لا تُلْحَق جيادُها، ولا تُسْبَقُ جَوْدةَ جِيادُها[1] ؛ لا مُنْتهىٰ لصغار هِمَمه فأنىٰ تُدرَكُ كِبارُها ، ولا تُدْرَك سَوابِقُه فأنىٰ تُقتفىٰ آثارُها ؛ له قَدَمُ إقدامٍ فى الثَّرىٰ لا يزال راسخا ،[2] وهَامةُ هِمَّـةٍ لم يَزَلْ شَرفُها على الثُّريَّا بَاذِخا ؛ ولأنه الفارسُ الذى تُفُرِّسَتْ فى مخايله الشَّجاعه ، وتبضَّعَ الشَّهامةَ فى الحروب فكانتْ أربَحَ بِضاعَه ؛ كَمْ أَزْرتْ سُمْرُ رماحه بهِيفِ القُدود ، وأخجلتْ بِيضُ صِفاحِه كلَّ خَوْدٍ أُمْلُود ؛ وكَمْ جُرِّدت من مُطْرِبات قِسيِّه الأوتارُ فتراقصتِ الرُّءُوس، وشَرِبتِ الرِّماحُ خَمْرَ الدِّماء فعربدتْ على النُّفوس :

له هِمَمٌ تعلُو السَّحائبَ رِفْعَـةً ، * وكَمْ جاد منهـا بالنَّفائس والنَّفس !

وتُجْنىٰ ثِمارُ الفَضْلِ من دَوْحِ غَرْسِه ! * ولا غَرْوَ أن تُجْنَى الثِّمارُ من الغَرْسِ !

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً تَحْمَده فيها الوُرَّاد ، وتشكُره بالقصد ألسنةُ القُصَّـ..د ، وتذْكُره البَرِيديَّةُ بالخير فى كلِّ وَاد ؛ ولْيُهَيِّئْ لهم [من القرىٰ ما يهيِّئـه][3] المَضِـيف ، وليحصِّل لهم التَّالِدَ منه والطَّرِيف ، وليتلقَّهم بوَجْه الإقبال ، وليبدأْهم بالخير ليحْسُن له المآل ، وليجْعَـلِ التَّقْوىٰ إمامه فى كلِّ أمرٍ ذى بَال ، وليتَّصِفْ بالإنصاف فهو أحْمَدُ الأوصاف فى جميع الأحوال .

* * *

تَوقيعٌ بتَقْدِمة البَرِيديَّة بحَلَب ، كُتب به لعماد الديـن « إسماعيل » بـ«المجلس العـالى» وهو :

---

(١) كذا فى الأصل مشيرا إليه بعلامة التوقف ولا توقف لان الأولى جمع جيِّد نقيض الردى ، والثانية جمع جواد للفرس الرائع السابق .

(٢) ذكر القدم وهى أنثى مجاراة للعامة . (٣) زيادة تطلبها صحة المعنى .

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عِنايتُــه الكريمةُ تقدِّمُ إلى الرُّتب العليّةِ مَنْ بَنىٰ أُسَّ إقدامِه من المُروءَةِ علىٰ أشرف عِمَــاد ، وتُعَيِّن للمهمّات الشّريفةِ من آمْتطىٰ من جِياد العَزْم أسْبق جَواد، وتَنْدُب لها من أولياء خَدَمه كلَّ نَدْبٍ لم يزلْ ساعِدُ سَعْده مَبنيًّا على السّــداد ، وتُصْعِد إلىٰ أُفقها من ذَوِى الشّهامة من فاقَتْ بيَمِينه الصِّعاد ـ أن يستقرَّ... ... : لأنّه ذُو الهِمَم التى سامىٰ بهــا الفَراقِد ، والكُفْءُ الذى نَشِط إلى القيام بالعزائم إذا قَعد عنهــا من ذَوِى الهِمَم ألْفُ راقِد، والمقــدَّمُ الذى قدَّمه الإقدامُ علىٰ قضَاء الأُمور المُعضِــلات ، وحَلَّ أجْيادَ ذَوِى المآرب إذْ حَلَّ لهم منها بيُمْنِ عَزْمِه المُشْكلات، ماعَلا جَوادَ بَرِيدٍ إلّا وسابَق الطَّرْفَ بل الطَّرْفَ إلى المراد، ولا نُدِب إلىٰ مُهِمٍّ للحكم فيه نيلًا لأمَلٍ إلّا قدح من رأيه فى قضائه أوْرَى زِنَاد ؛ والفارسُ الذى تمــايلَتْ بكَفّه العواملُ عُجْبًا فأخجلت الأغْصان ، وحلَتْ إذْ حَلّتْ بقــلوبِ الأعداءِ وإن كانت من المُرّان ، والشَّهْمُ الذى ســبق السَّهمَ إلى الغَرَض، والشُّجاعُ الذى ماأعْرَض عن مُحاربَة الأقرانِ : فصفَّىٰ جَوْهَرَ شجاعته من العَرَض؛ واليَقِظُ الذى لم يكن يناظره إنْسان، ولا آنطبق علىٰ أسيافه المُسَهَّدةِ بيَمِينه أجْفان .

فلْيباشِرْ هذه التَّقْدِمَة مباشرةً يشهدُ الحاسدُ له فيها بالتقديم ،ويُقِرُّ الجاحدُ أنّه أُهْدِى لمــا أُسْدِى إليه إلىٰ صراط عَزْمٍ مُسْتقيم ؛ولْيَطِرْ إلىٰ قضاءِ المُهِمّات الشريفة بأجْنحة السَّداد، ولْيمتطِ من جَوادِ الجَوادِّ أسبقَ جَواد؛ولْيُسَوِّ بين البريدية فى الأشغال، ولْيُقبِلْ عليهم فيما يرومونه من حُسْنِ السِّفارة بوَجْهِ الإقبال ؛ ولْيسْلُكْ سَنَن الصِّدْق والتّقوىٰ ولْيَجْعلْهما له أحْسنَ سُنَّه، ولْيَلْبَس سَوابِغَ الإنصاف فإنّها من سِهام الخَلَل جُنَّه.

* * *

نسخةُ توقيع بنيابة عيتاب، كُتب به لناصر الدين «محمد بن شعبان» بـ«المجلس العالى» عوضًا عمن كان بها، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال إحسانُه العميمُ، يرفعُ لناصر الدين قدْرا، وامتنانُه الجسيمُ، يقلِّدُ له فى حفظ الممالكِ المنصورة أمْرا، ويُوَلِّى أمر الرَّعية من حسُنتْ سيرته سِرًّا وجهْرا ــ أن يستقرَّ ... ... : لأنه شَهْمٌ سَهْمُ عِرْفانِه مُصيب، وفارسُ رَبْع خَبَرِه وخُبْرِه خَصيب؛ له مَناقبُ جَليلَه؛ وسيرةٌ محمودةٌ جَميلَه؛ تَنقَّلَ فى المراتب تَنقُّلَ البَـدْر فى سُعُوده، وٱرْتقىٰ ذِرْوةَ السيادة ٱرتقاءَ الكوكب فى منازِل صُعُوده؛ ماباشَر مُباشَرةً إلَّا ونُشرتْ له بها أعْلامُ شُكْرِه، ولا علَا مَنْزلةً إلَّا تُلِيتْ بها سُوَرُ حَمْده وذِكْرِه؛ لم يزلْ متَّبِعًا للحقِّ فى أحكامه، سالِكًا سُـبُلَ الصَّوابِ فى نَقْضه وإبْرامه؛ فتح له إقبالُنا الكريمُ بابَه، فلذلك قُدِّم علىٰ غيره فى هذه النِّيابه .

فلْيباشِرْها مُقْتفِيًا آثار العَفَاف، مُرْتَدِيًا أرْدِيةَ العَـدل والإنصاف؛ مُقيمًا منَـار الشرع الشريف، مُنْصِـفًا من القَوِىِّ الضَّعيف؛ واللهُ تعـالىٰ يوفِّقه للصواب فيما تَوَلَّاه، والخطُّ الكريمُ شاهد أعْلاه .

قلتُ : وعلىٰ نيابة عينتاب هذه يُقاس مافى معناها من نيابات العَشَرات، فيَجْرِى الحكم فى تواقيعها كذلك . أمَّا الطبلخانات فقد تقـدّم أنَّ الأصلَ أنَّه لا يولَّىٰ فيها إلَّا من الأبواب السلطانية .

⁂

وهذه نسخةُ مَرْسوم بإمارة الرَّكْبِ الحَلَبِىِّ المتوجِّه إلى الحجاز الشريف، كُتب به لشهاب الدين « أحمد بن الطنبغا » بـ« الجنـاب الكريم » . والبياض فيه وصـلٌ واحد، وهى :

رُسم بالأمر العالى ــ لا زال يمنحُ وَفْدَ الله تعالى بمَن لم يزلْ شهابُ هِمَمه فى أُفُق الصيانة مُنيرا، ويُسْنِدُ أمرَهم إلىٰ كلِّ نَدْبٍ لا يزالُ على الحقِّ ظاهرًا وعلىٰ ذَوِى الباطل

ظَهيرا - أنْ يستقر فلان من أعْيان المَوالِي الأمراءِ الطبلخانات بحَلَب المحروسة - أعزّ اللهُ تعالىٰ نُصْرتَه - أميرًا علىٰ رَكْب الحاجِّ الحلَبيّ فى هذا العام المقبل، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حَسَب ما رُسم به. استقرارًا يحمَدُ به الوَفْدُ عند صَباح هِمَمه السُّرىٰ، ويَبْلُغ بهم قِرىٰ الغُفران بأُمِّ القُرىٰ؛ ويَنالُ به طِيبَ العَيْش بطَيْبَة وطَابَه ويُدرِكُ بجِياد فَضْلِه آرَابَه؛ ويُمنَح به زِيارةَ سَيِّد البَشَر عليه أفضل الصلاة والسلام، ويُفَوِّق به سَهْم إصابته من البِشْر إلىٰ مَرامِي المَرام؛ ويشهَدُ به بين قَبره ومِنْبره رَوْضَةً من رِياض الجنَّة، ويلبَس به سَوابِغَ القَبُولِ لتكون له من سِهام الذُّنوب أوْقىٰ جُنَّة؛ ويتَردَّىٰ [به] بُرودَ التُّقىٰ حِينَ يَنْزِعُ مُحرَّماتِ الإحْرام، ويُقْبِلُ به علىٰ ذِكْرِ الله تعالىٰ فى الوِهَادِ والبِقَاعِ والآكام، ويَسْتقبلُ به حَرَمَ بَيْتِ الله الحرام، ويشِبُّ له الهنا حِينَ دخوله المسجِدَ من باب بنى شَيْبَه، ويَتَعاطىٰ به أسباب التَّوبة، لينالَ من العَفْوِ من الله الكريم سَيْبَه؛ ولا يقتصر به عن التَّطاول إلى الدعاء إلى الله تعالىٰ لتَعُمَّه الرحمةُ بفضْلِه وطَوْلِه، ويدخُلُ به حرمًا آمِنًا يُتخطَّفُ الناسُ من حَوْله، ويفْتح به إلى المقام بابًا من الأمْن إلىٰ يوم القيامة مُقِيم، ويذْكُر بوقُوفه بعرَفاتٍ وُقُوفَه ﴿يومَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيم﴾.

فليباشِرْ هذه الإمْرةَ المباركَةَ مباشرةً يتيقظُ منها لهَجْرِ المنام، وليَصْرِفْ وَجْهَ سِهامه إليها فى المَسِير والمُقام؛ ولْيُنفِقْ علىٰ الحاجِّ من كُنوزِ مَعْدِلته، وليَجْعَلِ القيام بمصالحهم من أكبر هِمَّته؛ وليَسْعَ بالصَّفا فى حِراسَتِهم من أهْلِ الفساد، وليَعْتَمِدْ صَونَهم من ذَوِى العِناد؛ وليعامِلْهم بالإرْفادِ والإرْفاق، وليَقْطَعْ من بينهم شُقَّةَ الشِّقاق؛ وليَجعَلْ تقوَى الله إمامه فى القول والعمل.

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيعٌ بقضاء القضاة، كُتب به لقاضي القضاة جمال الدين «إبراهيم بن أبي جرادة» قاضي قضاة حلب المحروسة الشهير «بابن العديم» من إنشاء ... ...[1] الحنفي بـ«المقرّ الكريم» وهو .

الحمدُ لله الذى رَفع مَراتِبَ المناصب العليّة وكساها من ملابس أهلها حُلَل الجمال، وجمع شَملها فاقترنت بإلفها اقترانَ النيّرين: شمسِ الضُّحى وبيتِ الكمال، ورفع عنها يَد المتطاول والمتناول فأصبح رَقْمُ طِرازها المُوَشّى منتسِجًا على أحسن مِنْوال، وقطع الأطماعَ عن إدراك شأوها فلا يَصِلُ إليها إلا كلُّ فحلٍ من الرجال .

نحمدُه على نِعَمه التى اعترف من بَحْرها الوافرِ بالخير الكامل والفضلِ المديد، واقترف من اقتطف ثمارَ جُودها جميلَ النوالِ المُفيد، وجزيلَ الإحسان العديد؛ حمدًا يُوافي نِعَمَه ويُكافي مَزيدَه، ويعمُّ بالإنعام الشامل نائلَه ومُرِيدَه؛ ونشكُرُه على مِنَنه التى يقصُر لسانُ الإطناب عن حَصْرها وتَعْدادها، وتعجِزُ بناتُ الفكر عن إدراك وَصْفها وتَرْدادها، شُكرًا ينالُ به العبدُ رِضا المعبود، ويبلغُ به من مقاصد الكَرَم والجُود غايةَ المقصود؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له ولا ضِدّ، ولا والدَ له ولا ولَد ولا نِدّ؛ شهادةً تُبيِّض وَجْهَ قائلها عند العَرْض، ويَنْطِقُ بها لسانُ التوحيد يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ به الحقّ وأعلنه، وبهر بحقائق مُعجزاته العقولَ فاعترف

(١) بياض فى الأصل .

كلٌّ بصحّة ما عرّفه وبيّنه؛ صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نصر اللهُ بهم الإسلامَ وأيّد أحكامه، وأحكم بهم مبانى الإيمان المنيرة وأيد إحكامه؛ صلاةً تتعطّرُ بنفحات عَرْفها أرجاءُ المدارس، ويُنادى لسانُ فضلها لرائد فرائد المعالى على طُول المدَا. رِسْ (١)؛ وسلّم ومجّد وكرّم، وشرّف وبجّل وعظّم.

وبعـدُ: فإنّ أولى من لحظته عينُ العناية والقبول، وأجدرَ من بلغ من مقاصد المناصب العلية غايةَ القصد والسُّول؛ وأعزّ مَن رقِى ذُرا المعالى وارتقى، وأجلّ مَن وُصف بالأوصاف الجميلة ونُعتَ بالديانة والتُّقى ـ مَن سارتْ سيرةُ فضله فى الآفاق، ودلّ على صَفاءِ السريرة منه حُسْنُ الأخلاق؛ واشتهر بالعلوم الجزيلة، والمناقب الجليله، وعُرِف فى الإنصاف بالأوصاف المحمودة والخصال الجميلة؛ وأظهر من العلوم الشريفة، ماحيّر العقول، وحقّق من المسائل اللطيفة، ماجمع فيه بين المنقول والمعقول؛ ودقّق المباحث حتى اعترف بفضله الخاصّ والعام، وفرّق بين الحقيقة والمجاز فلا يحتاج إلى استعارة إذا تشبّه الأخصام؛ وحكم بما أراهُ اللهُ فأحكامُه مَرْضيّه، وقضاياهُ فى الجملة قد أنتجت فهى مُقدّمةٌ فى كلّ قضيّه؛ وثابرَ على إلقاء الدّروس فى وقتها وأوانِها، وقرّر كلّ مسألةٍ فى محلّها ومكانها؛ وأفاد طُلّاب العلم الشريف من فوائده الجمّه، وكشف لهم عن غوامض المباحث فجلا عن القلوب كلّ غُمّه؛ وجال فى ميادين الدّروس فخيّر الأبطال، وحاز قصبَ السّبق فى حلبة اللّقاء فردّ متأسّفًا كلّ بطّال؛ ونظر فى أُمور الأوقاف بما أراهُ اللهُ فأتقن بحُسْن النظر وجْهَ ضبطها، وأجرَى أُمورَ الواقفينَ على القواعد المرْضيّة فوافق المشروطَ فى شرْطها؛ وجمع ما تفرّق من شملها فأجْمل وفصّل، وحفظ أموالها فحصّل

(١) مراده ارس من رسا يرسو .

وأصّـل ؛ فهو الحـاكم المشهورُ بالعَـدْل والمَعرِفَه ، والناظِرُ الذى حَمِدت الأُمُورُ تَصرُّفَه ؛ والإمامُ الذى ائتمّ الأنامُ بأقوالِه وأفعاله ، والعالِمُ الذى يَحمَـدُ الطالِبُ إليه شَـدَّ رِحَالِه ؛ والمدرِّس الذى أفاد بِفِقْهِه المُفيدِ النـافع ، وترفَّعَ فى البِداية والنِّهاية فهو المختارُ فى المنافع ؛ وسلَكَ مِنهاجَ الهِدايَه ، فنال من العلومِ الغايَه ؛ فبدائِـعُ ألفـاظِه لعقائد الدِّين منظومه ، وكَنْزُ عِرْفانِه عَزِيزُ المَطْلَب ومحاسِـنُه المشتملةُ على الكمال معلُومه .

ولمـا كان فلانٌ ــ أعزّ الله تعـالىٰ أحكامَه ، وقَرنَ بالتوفيق والسَّـداد نَقْضَـه وإبْرامَه ؛ هو المشارَ إليـه بالأوصاف والنُّعوت ، والمعوّلَ عليـه إذا نَطَق بالفضائل والحـاضِرونَ سُكُوت ؛ والمشكورَ أثَرُ بيْتِه المشهور ، والمنْشُورَ عَلَمُ عِلْمِه من السَّـنَة والشُّهور ؛ يالَه من بَيْتٍ لم يزلْ معمورًا بالتقوىٰ والصَّلاح ، محميًّا بأسلحة أهْلِه : فمِن أحكامِهم السُّيوفُ ومن أقلامهم الرِّماح ؛ فهو العـديمُ المِثْل وبيتُه العـديم ؛ وحَرَم فَضْلٍ يحجُّ إليـه الرَّاحِلُ والمُقيم ؛ فاستحقَّ أنْ تقابَلَ مقاصِـدُه بالإقبال ، ويُقابَلَ بمـا يُؤَمِّله مُقابَلَةَ مِثْلِه ولا كسائر الأمثال .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ مراسِمُه المُطاعة تُقِرُّ الحقَّ فى يدِ مُسْتحِقِّه ، وتَرُدُّ الأمرَ إلىٰ وَليِّـه ومالكِ رِقِّه ؛ وتَسُـوق هَدْيَ الإحْسانِ إلىٰ مَحِلِّه ، وتَضَـعُ الاسْتِحقاقَ فى يَدِ مُسْتَحِقِّه والحقُّ وَضْعُ الشَّيْءِ فى مَحَلِّه ــ أن يستقِرَّ ... ... بحكم ظُهورِ الحقِّ بيده المبارَكه ، وخَفاءِ الباطِلِ الذى ليس له فى الحقِّ مُشارَكه ؛ استقرارًا مباركًا مَيْمونًا ، بالخيرِ والسَّـعد مَقْرونا ؛ لأنَّه الأحقُّ بأمر وظائفه ، والطائف حول حَرَمِها الممنوع طائفه ؛ وأَوْلىٰ من عُقِلَتْ عليه عَقيلَتُه ، ورُدَّتْ إليه فَرِيدَتُه ؛ وباشَر بنفسه الكريمةِ ما عَهِـد إليه سَلَفُه ، وانْفرد به فلا ينالُه ــ إن شاء الله ــ إلَّا خَلَفُه ؛

طالمـا ألِفَتْ منه الأوقافُ مَنَّ الشَّفَقة والخَيْر، وحَفِظ جهاتِهـا المَحمِيَّةَ عن تطاوُلِ يدِ الغَيْر، ونَمَى بحُسْن نَظَرِه من المدارس كلَّ دارِس، وفازتْ منه الدُّروسُ بالعالِم العارِف والبَطَل المُمـارِس .

فلْيباشِرْ ذلك على ما تقدّم له من حُسْن المباشره، ولْيجْتهِدْ ـ على عوائده ـ فى تحصيل رَيْعه مُثابِرًا على الأُجُور أشدَّ مُثابَره؛ ولْيصْرِفْ أموال الأوقاف فى مَصارِفها، بعــد العِمارة والتَّثمير المبْدَأيْن فى شَرْط واقِفها؛ ولْيسوِّ ـ على مُقتضَى مَعْدِلته ـ بين القَوِىّ والضعيف : والشابِّ الصَّــغير والشَّيخ النَّحيف، على قَدْر تفاوُتِهم فى العلم الشريف؛ ولْيُطْلِق لسانه فى إلقــاء الدُّروس على عادته، ولْيُمَهِّدْ للشتغلين طَرِيقَ الفَهْم لِينالوا القَصْدَ من إفادته؛ وهو بحمد الله تعالى أَوْلى من أدّى الأُمور على الوَجْه المستقيم، ووَفَّى المناصِبَ حَقَّها فإنَّ الوفاء جَدِيرٌ بـ«إبراهيم»[1] .

والوصايا كثيرةٌ وإليه مَرْجوعُها، ومن بِحار علمه ودِينِه المتين يَنْبوعُها؛ والله تعالى يُؤَيِّدُ به المناصب، ويرفعُ بعلُوّ رُتبته المَراتِب .

* * *

نسـخةُ تَوْقيع بخَطابَة جامـع، كُتب به لقاضى القُضاة «كمال الدين عمر» ابن قاضى القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبى جرادة الحَنَفِىّ ، الشهير بابن العديم بـ«المقرّ الشريف» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عِنايتُه تُرَقِّى فى مَنازل المَجْد من تَأثَّل بفَضْـله بَهْجةً وكمالا : وتُذَلِّل جِيادَها لفُرسانِ الفضائل فتُجيدُ لهم فى مَيْـدانِ البلاغة مَجالا ،

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : (وإبراهيم الذى وفَّى) .

وتُسَلِّمَ رايَتَها [إلىٰ من صدق بارق سعده ، ووُهِب من العلم](١) ملكا لا ينبغى لأحَدٍ من بعده ـ أن يَستقِرّ ... لأنَّه الإمامُ الذى [لو] تقدّم عصره لكان أحَدَ أئمّة الاجتهاد، والعارِفُ الذى بلغ بولايته مُريدُ الفضل غاية المُراد، والعالِمِ الذى وَجدتْ أخْبارُ علومه نسبة يطابقها فى الخارج صالحُ العمل ، واتبع سَنَن الكِتاب والسُّنّة فلم يتخلّل طريقته المُثلىٰ خَلَل ؛ والمُحقّقُ الذى وَجَد إلىٰ كُنه الحقيقة أكْمَلَ مجاز ، والمُفَوّهُ الذى بلغ من البلاغة فى كلام البَشَر حَدَّ الإعجاز ؛ إنْ خطبَ شنَّفَ بدُرَرِ مواعظه الأسماع ، وشرّف بغُرَرِ فرائده الأسجاع ؛ واهتزّتْ أعواد المنابر طَرَبًا لكَلِمه الطَّيِّب ، ورَوّى أُوَامَ(٢) القلوب سَحُّ فَضْله الصَّيِّب ؛ وإن قرأ فى مِحْرابه أقرّ بفَضْله الجَمْعُ الجامع ، واستقلّ «ابْنَ كَثِير» حين وَجد «الكِسَائِىّ» عارِيًا مما لَدَيْه وفَضْلَه الجمّ أكمل «نافع» :

خَطيبٌ إذا الصّادِى تَصَدّىٰ لفَضْله : * ليَرْوَىٰ، فأنواءُ العُلُومِ تُغيثُه !
وإنْ يَرْوِ للجُلّاسِ أخْبارَ أحْمَدٍ، * فخَيْرُ جَليسٍ لا يُمَلُّ حَديثُه !

وهو الكامل الذى أدْرك دَرَجاتِ الكمال فى البِداية فأمِن فى النِّهاية وهو قاصٍ من النقص، وسارت عِيسُ الطُّلّاب إلىٰ حضرته الكريمة وَاخِدَةً ولكن بالنَّص؛ والصّاحِبُ الذى استصحب يَسار العُفاة باليَمين، وأزَال ظَنَّ قاصده فى بِرّه الشامل باليقين؛ كَمْ أطلق بأقلامه المُفيدة مَكرمةً بصِلَة الأرزاق، ونَسخَ بمُحقّقِ فَضْله رِقاعَ الأُوَل بالعَطاء على الإطْلاق ؛ ولو نَظر المَلَكانِ : هَارُوتُ ومَارُوتُ ما ملكه من

(١) الزيادة يقتضيها المقام

(٢) الأوام بالضم العطش .

كتابته السّاحِرَة لأقرّوا أنّه السِّحْر الحلال ، ولو قابَلَه «ابْن هلَالٍ» لانْخَسف بَدْر فَضْله عند الكمال :

فَفِي كَفِّـه الأقلامُ تَهْزأُ بالقَنَـا ، * وتَخْشَى سطَاهَا الأُسْدُ فى غَابِ غَابِها!

يُرَوِّعُ سُيوفَ الهِنْـدِوَرْى يَرَاعِه، (١) * وقَدْ طارَ مِن خَوْفٍ حَديدُ ذُبَابِها!

فلْيباشِرْ هذه الخَطابةَ مُباشرةً تَرْشف منها كُئُوسَ كَلِمِه الأسْماع ، وليَكْشِفْ لهـا عن وُجوه فضائله القِناع ، ولْيَنْـثُرْ عليهم من دُرَرِ بلاغته ما تَلْتقِطُه أفواهُ المسامع ، ولْينْشُرْ من طَىِّ لسانه عَلَم عِلْمه الذى لا يقاس عليـه غيره أبَى اللهُ والفَارِقُ الجامع ؛ ولْيُطرِبْ بمواصيل أسْجاعِه القاطعة بفضائله المكمَّلة، وليظهِرْ ما جمعه من محاسِنِه التى هى الجَمْع الذى لا نَظيرَ له ؛ ولينْفِقْ علىٰ الجَمْع يوم الجُمعة ممـا آتاه الله تعالىٰ من كُنوز لفضائل ، وليُلْهِهم من بلاغته التى أخملتْ ذِكْر «قُسٍّ» و «سَحْبان وَائِل» ؛ وأنت ـ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلالَك ـ مَعدِنُ الفضائل فأنَّىٰ تُهدىٰ إليك الوصايا؟ ، والمُتَّصِفُ بصفات الكمال فكَيْف تُعرَضُ عليك المزايا؟ ؛ ولكنّ الوصيةَ بتَقْوى الله تعـالىٰ من شعائر الإسلام ، واللهُ تعالىٰ يُديمُك غُرَّةً فى جَبْهة الأيّام .

⁂

وهـذه نسخةُ توقيع بتَدْرِيس بالجـامع المذكور، كُتِب به للقاضى علاء الدين «علىّ الصَّرْخَدِىّ» الشافعىّ، نائب الحكم العزيز بحَلَب بـ«المقرّ العالى» وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتْ صَدَقاتُه تَمنحُ دروسَ العِلْمِ الشريف بعَلِىِّ العلوم، وتَنْدُب لهـا من ذَوِى الاجتهاد من سايَرَ بهِمَمِه البَرْق وسائرَ النُّجوم، وتُقرِّرُ للطَّلَبَـة من

(١) فى الأصل «درىّ» بتشديد الياء وهو تحريف .

أُولِى العناية من حقّق الفضائل وآطّلع علىٰ سِرّها المكتوم، وتُدِيرُ عليهم من مَشْرَب فوائده مايُخَالُ أنّه الرّحيقُ المختوم ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... آستقرارًا تَقَرُّ به أعينُ الطُّلاب، وتُلمَحُ من صَوْبِ فضله عَينُ الصَّواب؛ ويُشيَّدُ به دَارِسُ الدروس، ويَطْلُعُ به فى سماء الفضائل أنورُ شُموس؛ وتُنْشَرُ به أعلامُ العلوم من طَىِّ الألْسِنَة، ويُذْهِبُ من كلِّ الطَّلَبة فى تحصيل العِلْم الشريف وَسَنَه؛ لأنّه الحَبْرُ الذى شَهِدت بِفَضْله الأسفار، ورَحَلَتْ إلىٰ فوائده الجَمّةِ السُّفّار؛ والبَحْرُ الذى جَرتْ سُفُنُ الأذهانْ به فلم تُدْرِكْ غايةَ قَرارِه، وعَجَزتِ الأمثالُ عن خَوْض تيّاره؛ والعالِمُ الذى أقرّ بعلمه الأعلام، وشَهِدَت بإحكام أحْكامِه الأحكام؛ مابَرَزَ فى مَوْطِنِ بَحْث إلّا وبَرَّزَ على الأقران، ولا جارَاهُ مُجتهِدٌ إلّا وكانا كَفَرَسَىْ رِهَان، ولا نَطق بمَنْطِقٍ إلّا وأنْتجتْ مُقَدِّماتُ هِمَمِه العليّةِ وآجتهاده عَلىٰ فَضْلِه أكْمَلَ بُرهان، ولا أجْرىٰ جِيادَ عُلُومه إلىٰ غايَةٍ إلّا مُطلقةَ العِنان، ولا رآه من أخبر عن فَضْلِه إلّا تمثّلَ له: ليس الخَبَرُ كالعِيان؛ إنْ تصدّر للفوائد آلتقطَتِ الأسماعُ دُرَّ عِلْمِه النفيس، وإنْ دَرَّس تَخالُ الطَّلَبةُ أنّه «آبنُ إدْرِيس»؛ فهو طَوْدُ فَضْلٍ لايُسامىٰ عُلوًّا ورِفْعه، ولايَنْوِى مُناوَأته مُناوِئٌ ولو كان «آبنَ رِفْعه»:

إمامٌ غَدا للسّالكِينَ مُسَلِّكًا، * عليمٌ، وَكَمْ أولَى الفَضائِلَ مَنْ وَلِى!

عَلَا فَأسال البَحْرَ من فَيْض عِلْمِه! * وذلكَ سَيْلٌ جاء بالفَضْل من عَلِ!

فَلْيباشِرْ هذا التّدْرِيسَ المبارَكَ مباشرةً يُثْبِتُ بها فوائِدَه، ويَنْثُرُ بها فَرائِدَه؛ ويُطرِبُ الطُّلّابَ بطَرِيفِ العلْم وتالِدِه، ويَجمعُ لهم من صِلَةِ الفَضْل وعائِده؛ ولْيلازِمِ المباشرةَ ملازمةً لايَنْفكُّ عنها أيّام الدُّروس، ولْيُنِرِ القلوبَ بمصابيح الكِتَاب والسُّنة ويُسَرّ النفوس .

وأنت ـ أمتع الله بفوائدك ـ من نورك الوصايا تقتبس، وكم آنس الطالب نار فضلا فأتى منها بأنور قبس، والله تعالى يبقيك للعلوم كنزا لا تفنى مواهبه، ويديمك للطلاب بحرا لا تنقضى عجائبه.

* * *

وهذه نسخة توقيع بتدريس بالجامع المذكور لحنفى، كتب به للشيخ شمس الدين «محمد القرمى» الحنفى، بـ«الجناب العالى»، وهى:

رسم بالأمر ـ لا زالت عنايته الكريمة تطلع شمس الدين للهداية فى أفق المدارس، وتشيد بالعلماء الأعلام من ربوعها كل دارس، وتمتع الفقهاء بمن إذا تصدى للإفادة جادت نفسه بالدرر النفائس، وتندب لها من أولى البلاغة من إذا ألف فصلا وجدت غصون أقلامه فى روضات الطروس أحسن موائس ـ أن يستقر فلان: استقرارا تجمل به الدروس بالفوائد، وتمتع الطلبة منها بالصلة والعائد، ويمد لهم من مواد العلوم أشرف موائد، ويوردهم من مناهلها أعذب موارد؛ لأنه شمس العلوم ومصباحها، وقمر ليل المشكلات وصباحها، وساعد الفتاوى الطائرة بفضائله فى الآفاق وجناحها، وروح كئوس العلوم وراحها؛ وطليعة الحقائق وعنوانها، وعين الدقائق وإنسانها؛ والإمام الذى ائتم به الطلاب فاستحق الإمامة، والعالم الذى اجتهد على فضل العلوم فاستوجب أن ينعت بالعلامه؛ والفاضل الذى ضبطت أقواله: للاطلاع على سرها المكتوم، فاختص فعل علمه المتعدى باللزوم لاتصافه بالعموم؛ كم التقطت من دروسه الجواهر، وتمثل لأبكار فوائده: كم ترك الأول للآخر، قابلته الأسفار عن وجوه فوائدها بالإسفار، وأظهرت لذكاء ذكائه ما ضمنته أحشاؤها من الإضمار؛ فهو المختار لهذا التدريس: إذ درر فوائده منظومه، والمجتبى للإفادة بسلوكه طرق الهداية إلى دقائقها المكتومه؛ وكم استنارت الطلبة

من ثمر فضله حتّى كاد أن يكون ثالثَ القمرين، وجمع فى صدره بحرى المنقول والمعقول حتّى قيل : هذا "مجمع البحرين" :

هُو البحرُ، إلّا أنّ فيه عجائبًا، * ووافِر فضلٍ ليس يوجَدُ فى البحرِ!
بلاغته السِّحرُ الحلالُ، وإنّما * بديعُ معانيها يجِلُّ عن السِّحرِ!

فليباشِر هذا التّدريسَ ناثرًا دُرَرَ فرائده، ناشرًا غُرَرَ فوائده، جائدًا بجياد فضائله السّابقة إلى الغايات، عائدًا بصِلاتِ حقائِقه لتكمُلَ للطَّلبة به المسرّات؛ وليلازِمْ أيّام الدّروس ما أُسدِىَ إليه من هـذه الوظيفه، وليرتقِ من درَج التّقوى لغُرَفِ المعارف الشّريفه .

✤

وهذه نسخةُ توقيعٍ بإمامةٍ وتصديرٍ بجامع منكلى بغا الشّمسى بحلب، كُتِب به للشيخ شمس الدين «محمد الإمام»، بـ«الجناب العالى»، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ صدقاتُه العميمةُ تُطلِعُ شمسَ الدِّينِ فى أُفق المعالى، وترفعُ من أوليائه خِدْمةَ مَن جِيدُه بالفضلِ حالِى؛ وتَمنحُ بِرَّها مَن أعربتْ عن لحنه الطَّيِّب وتشنّفتْ من فيه باللآلِى، وتَنفحُ غيثَ جُودِها على من أجمع على طِيبِ مُسامَرتِه ورفعِ أدعيتِه الأسماعُ واللّيالى ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالى ضياء شمسه، وبنَى له ربعَ السّعد من جُودِه على أُسّه ـ ... ... لأنّه الإمامُ الذى شهدتْ بحُسْن قراءته المحاريب، والآتِى من فضلِ فضائله بالأعاجيب؛ والفاضلُ الذى سلَك طُرقَ الفضائل أحسن سُلوك، وشهِد بسَبقِ جيادِ جُوده فى حلْبة الاختبار كلُّ حتّى الملوك؛ والكاملُ الذى كمُلتْ أوصافُه المحمودةُ فأمِن النّقائص، واختصّ بجميل الشِّيَم وحُسْن الخصائص؛ ما أمّ إلّا وشهِد بفضلِه كلُّ مأموم، وأقرّوا أنّ أسماعهم ارتشفتْ رحيقَ فضائله من

كأْسها المختوم ؛ وما سَامَر الخواصّ إلّا وشَهِدَ العوامّ بحُسْن صفاته ، ولا حدّثت إلّا وكانَتِ الملوكُ من رُواته .

فليباشِرْ هذه الوظائفَ المباركةَ مباشرةً تَقَرُّ بها النّواظر ، وتجتمعُ الألْسنةُ على أنّه أكْرمُ إنسان وخَيْرُ ناظِر ؛ وليتصدّرْ لإلْقاء الفوائد ، وليُكْسِبِ الأسماعَ من عِلْمه بالطّرِيف والتّالد ؛ وليتناوَلْ مَعْلومَه أوان الوُجودِ والاستحقاق ، هَنِيًّا مُيَسَّرًا من غير تَقْييد على الإطلاق ؛ وليتّقِ اللهَ فيما أُسْدِىَ إليه من ذلك ، وليَسْلُكْ من سَنَن التّقوى ـ بقَدَم الصِّدْق ـ أحْسنَ المسالك .

✦✦✦

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الأقلام الديوانية بحَلَب وما معها :

تَوقيعٌ بكتابة الدّست بحَلَب ، كُتب به لـ«بَهَاء الدين بن الفرفور» ونظر بيْت المال بحَلَب ، بـ«الجناب العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَنْظِم عُقودَ الإحسان فى أجْيادِ أوليائه ، ويُجْزِلُ لهم بوافر نَظَره وَافِىَ عَطائه ، ويُجْرِى بهاءَ الدِّينِ على أحْسنِ نظام فيُنْجِزُ له عِدَةَ وَفائه ـ أنْ يستقرّ ... ... استقرارًا يبلُغ به وُجوه الآمال ، ويكْسو الدّواوِينَ ملابِسَ البَهاءِ والكَمال ، ويَزِيدُها رِفعةً بما يفضلُه من ذلك الجَمال ؛ لأنّه الفاضِلُ الذى إذا قصد المَعانِىَ أصاب ، وإذا سُئِل عن كلّ مَعنًى لطيف أجاد وأجاب ؛ والفَصِيحُ الذى إذا تكلّم أجْزل وأوجز ، وأسْكتَ كلّ ذِى لَسَنٍ بفصاحته وأعْجز ؛ والبليغُ الذى أبْدعَ فى مكاتَباته بمَنْثوره ومَنْظومِه ، واللّبيبُ الذى أطلعَ من أزْهار كَلِمه المسموعة فى رِياض الطُّروس ما يُخْجِلُ الرّوضَ إذا افتخرتْ بمَشْمُومِه ؛ والكاتبُ الذى قَطعتْ بمعرِفَته الأقلام ، والحاسِبُ الذى عُقِدَت على خِبْرَته خناصِرُ الأنام ؛ والأديبُ الذى

جمع بين قلم الإنشاء الشريف(؟)، وحازَ ما فى ذلك من تالِدٍ وطريف؛ فلله درّه من كاتبٍ زيّن الطروسَ بحُسنِ كتابته، وجمّل الألفاظ والمعانِيَ بجميل درايته وفصاحته.

فليباشر ما عُدِق به من ذلك مُباشرةً مقرونةً بالسداد، مشكورةَ المساعى والاعتماد، مُظهرًا براعةَ يراعِه، باسطًا يدَ إيداعه الجميل وإبداعه، مُفوِّقًا حواشيَ القِصَص بتوقيعاته، مُوشِّيًا بُرودَ الطروسِ بترصيعاته وتوشيعاته، ناظرًا على اعتماد مصالح بيْت المال المعمور، وتحصيل حواصله على الوجه المشهور والطريق المشكور، عاملًا بتقوى الله عزّ وجلّ فى ضبط مصالح ديوان الجيوش المنصوره، سالكًا من حُسْن الاعتماد طُرقًا على السداد والتوفيق مقصوره، والوصايا كثيرةٌ وتقوى الله تعالى عمادُها، فليجعلها عُمْدته فيما يتمّ به للنفس المطمئنة مُرادُها، وليتناول مَعلومه المستقرّ لذلك أوانَ وجُوبه، والله تعالى يُبلّغه غايةَ قصده ومطلوبه.

⁂

توقيعٌ بصحابة ديوان الأموال بحلب، من إنشاء ابن الشهاب محمود، كُتب به القاضي شمس الدين «محمد بن محمد»، أحدِ كُتّاب الدست بحلب، بـ«المجلس العالى»، وهو:

رُسم بالأمر ـ لازالتْ صَدَقاتُه العميمةُ تُثمر نفوسا، وتُطلِعُ فى هالاتِ الوظائف السنيّة عِوَضَ الشمس شُموسا، وتَسقِي غَرْسَ نَعمائها الهِبَاتِ الهَنِيّة فتزْهى أغصانًا يانعةً وغُروسا ـ أنْ يستقرّ ... ... : لأنّه الأوحدُ الكامل، والرئيس الفاضل؛ ولأنه حاز قَصَبَ السَّبْق فى المُباشرات، والمَناصب الجليلة والمراتب السنيّات، طالما بَذل جُهدَه فى خدمة الدول، وسلك بجميل مُباشرته طريقَ السلف وسبيلَ الأُوَل؛ فأدرك بحُسْن سيرته ويُمْن طريقته نهايةَ السُّؤل وغايةَ الأمَل، وأتى الأمور على

قَدَرٍ ولا يقال : علىٰ عَجَل ؛ ولأنّه الأمينُ فى صَـنْعة الإنشاء، والتابِـعُ فى فَنّه فُنونَ الأُدباء؛ إنْ رقَم الطُّروسَ طرَّز ، وإنْ بارَز الأقْران فى مَواطِن الافْتِخار بَرَّز ؛ وإن بَسط الجرائد ، تَغارُ من حُسْنِهنَّ الخَرائِد ؛ طالمَـا نَطق بالحِكَم ، وٱشْتهر بين أصْحابِه مِثل ٱشْتهار النَّار علىٰ علَم؛ نَظم المحاسِنَ فى نَثْره البَدِيع ، وجَمع بين الأضْداد فيما يُبْدِيه من الإنشاء ويُحَلِّيه من التَّصْريع ؛ قَدَّمت هِجْرتُه فى الخِدْمة الشريفه، وٱقْتطف من زَهر الصَّدَقات الشريفة أحْسنَ مَنْصب وأجْمـلَ وَظِيفه ؛ وتَحلّىٰ جِيدُه بالقلائد ، وحَصَّل بسَعْيه مجموعَ الفرائد، فعادتْ عليه الصَّدَقاتُ الشريفةُ بأجْمل العوائد ؛ قد ٱستحقَّ التقديم، وٱستوجَبَ من الصَّدَقات العميمةِ نِهايةَ التَّكريم .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنةَ الآثار، جميلةَ الإيراد والإصْدار ؛ ناظِمًا بقَلَمه الحِسابَ علىٰ أنواعه، مُحكِمًا له علىٰ سداد أوْضاعه ؛ ولْيُطْلِعْ شمسَه فى سماء هذه الوظيفه ، ولْيَجْنِ من رَوْضها الأرِيض كلَّ يانِعةٍ لَطيفَه ؛ ولْيعلَمْ أنَّ هذه بَوادِرُ خَيْرٍ سَرَتْ إليه ، وسَوابِغُ نِعَمٍ خُلعتْ عليـه ؛ وأنَّ الصدقاتِ العميمةَ لابُدَّ أنْ تُولِيَه بعد ذلك بِرًّا ، وتَترادَفَ عليـه تَترىٰ؛ وتُعلى له بين رِفَاقه المرفقين قَدْرا ؛ ومِثْلُه لا يُنَبَّه علىٰ وَصِيَّه ، لا دَانيةٍ ولا قَصِـيَّه ؛ لكن التقوىٰ لا بُدَّ منها، ولا يجوز أنْ يُغْفل عنها ؛ فلْيَجْعلْها ٱعتِمادَه فى كلِّ الأُمور ، وليَتَناوَلْ معلومَه المقـرَّر له على الوظيفـة المذكورة فى غُرَرِ الشهور ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له بمضاعفة الصدقات عليه أوقاتَ السُّرور، ويَقِيـه بلُطْفِه كلَّ محذور .

* * *

توقيع بنظر بَهَسْنَىٰ ، من عمل حَلَب ، كُتب به لفتح الدين «صَدَقة بن زين الدين ، عبد الرحيم المصرىّ» ، بـ«المجلس السامى» ، وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ صدَقاتُه العميمةُ تفتح لأولياء خِدْمته أبوابَ الخَيْرات ، ولا بَرِحتْ تُهْدِى إليهم أنواعَ المَسَرّات ــ أنْ يستقرّ...... ... فى وظيفة النظر بمدينة بَهَسْنَى المحروسة عِوَضًا عمّن بها ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت ، على العادة فى ذلك والقاعدة ، آستقرارًا يَسُرّ خاطِرَه ، ويُقِرّ ناظِرَه ؛ لأنّه الماهِرُ فى صناعته ، والرّابحُ فى مَتاجِرِ بضاعته .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنه ، لتُصْبِح الألْسِنة بشُكْرها مُعلِنه ؛ وليُصرِّفْ قلَمه فيما يعود نَفْعُه عليه ، وليَجتهِدْ فيما يستجلِب الأثْنِية إليه ؛ وليقْبِضْ معلومه أوانَ وُجوبه هَنِيًّا ، وليتناولْه بيَدِ آستحقاقه مَرِيًّا ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو ــ بحمد الله تعالى ــ غيرُ محتاجٍ إليها ، لأنّه الفاعلُ لها والدّالُّ عليها ؛ وتقوَى الله تعالى عِمادُها ، وبه قِوامها وسِنادُها ؛ فليَتمسَّكْ بسَبَبِها فى الحركات والسَّكَنات ، والله تعالى يُهيِّئُ له أسباب المَسَرّات .

✦

توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدَبْرَكِى ، كُتب به للقاضى شهاب الدين «أحمد آبن أبى الطيِّب العُمَرىّ العُثْمانى» ، بـ«ـالجناب الكريم» ، وهو :

رُسم بالأمر ــ لازال يجمِّلُ الثغورَ بمَن تَزْهو برَحِيق كَلِمه الطيب [المناصب] ، ويُكمِّلُ محاسِنَها بمَن لم تَزَل الصُّحفُ تَقودُ من جياد فَضْلِه أجمَلَ جنائب ، وحَباها بشِهابٍ يُهتدىٰ إلى المقاصِدِ بنَجْم رأْيِه الثّاقِب ؛ وسرَّها بكلِّ نَدْبٍ لم تزلْ كُتبه تَرُدُّ من الدُّعّار الكتائب ــ أن يستقرّ... ... فى وظيفتى كتابة الإنشاءِ الشريف والجَيْش المنصور بدَوْرَكِى[1] المحروسة ، عوضًا عن فلان ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلى آخر

(١) لغة فى دبركى كما سلف قريبا وتقدّم فى ج ٤ ص ١٣٢ من هذا المطبوع .

وقت . لأنه من بَيْتٍ رُفِع علَمُ قَدْره على السحائب ، وآنتصبتْ رايةُ آرائهــم بالتميز فى مَواكِبِ العِزة عن المواكب ، وأُضيفَ إلىٰ مجْـدِهم شرفُ الكمال فانجرَّ بالإضافة ذَيْلُ مَجْدِهم على الكواكب ، وجَزم أُولُو الفضْـل بنسبتهم إلى المعالى فحازُوا قَصَبها آستحقاقًا وما زاحَمُوا عليها بالمَنَاكب ؛ وأُسِّسَ أصلُه علىٰ عمــاد شرف «الفاروق» و«ذى النُّورَيْن» فتفرع علىٰ أكمَلِ تناسُلٍ بتناسُب .

النيـــــابة الثالثـــــــة

(ممــا يكتب من التواقيع بالولايات عن نوّاب السلطنة بها ـ نيابةُ طرابُلُس)

وهى علىٰ ماتقدّم فى دمَشْق : من تقسيمها إلىٰ تواقيع أرباب السيوف، وتواقيع وظائف أرْباب الأقلام الدينيــة ، وتواقيع أرْباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ،وتقسيم ذلك إلىٰ مايفتتح بـ«الحمد لله» ، ومايفتتح بـ«أما بعد حمد الله» ، وما يفتتح بـ«رُسِم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيعٍ بشدّ الدواوين بطرابُلُس ، كُتب به لصلاح الدّين «صلاح الحافظى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيّدَ هذه الدولةَ وسدّدها بأنواع الصَّلاح ، وعمّر العالَمَ بعدْلِ سُلطانها وجعل أيّامَه مقرونةً بالنَّجاح ، وأقام لتَدْبير المملكة [كل] كُفْـء كافٍ مشهورٍ باليُمْن والفَــلاح .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه الغامرةِ فى المَساء والصَّباح ، ونشكُره علىٰ آلائه فى كلِّ غُدُوٍّ ورَواح ، ونشــهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهــادةً خالصةً ضَوْئيّةً كالمِصْــباح ،

وأنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من اصطفاه وأرسله بالدين الحنيفىّ فبشر وأنذر وحلّل وحرّم ... ... (١) وأباح ، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمةً مستمرةً ما حيّعل الداعى إلى الفلاح .

وبعدُ، فإن أولى الأولياء بمضاعفة الإحسان، وأن يعلى له فى المكان والإمكان - من عُرف بأجلّ المباشرات فى الفتوحات ، واشتهر فيها بالكفاية والصيانة وجميل التدبير وحُسن الصفات .

ولمّا كان فلانٌ هو المنفردَ بهذه الصفات الحسنه ، واتفقتْ على نعوته الجميلة الألسنه ، والوحيدَ بهذه السجايا ، الفريدَ بشرف المزايا ؛ عُقدت الخناصرُ عليه ، واقتضت الآراء أنْ يسندَ تدبيرُ المملكة إليه : فإنّها لم تجدْ لها كُفئاً غيره ، ولا من يجمع شملَ شتاتِ أقوالها ولم يفرّطْ مثقالَ ذرّه .

فلذلك رُسم بالأمر - لازال ينْدُب لتدبير الممالك كلّ كُفْءٍ كاف، ويُوردُ أولياءه من موارد إحسانه مورداً عذباً صاف - أنْ يفوّضَ إلى الجناب الكريم - أدام اللهُ عُلوّ قدره ، وأيده بالمعونة فى أمره - شدُّ الدواوينِ المعمورة بالمملكة الطرابُلُسيّة، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلى آخروقت، على عادة من تقدّمه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيعٍ بالاستمرار فى شدّ الدواوين :

الحمدُ لله الذى قرن الشدّة بالفرَج وجبَر بعد الانكسار، وامتحن عبادَه بأنواع من المحَن ليعلمَ الصادقين فى الاصطبار، وأطلع فى أفق العُلا سعْدَ السعود ساطعًا

(١) بياض بالأصل ولعله : وحظر وأباح ، الخ .

بالنُّور بعد ما فَار، وجمع لمن انقطع به حَبْلُ الرَّجاءِ من الخَلْق فتوكَّل عليه بين نَيْل المَطْلوب وتَمْحِيص الأوْزار .

نحمدُه وفى مَحامِدِه تَطِيبُ الآثار، ونَشكُره علىٰ ما أسْبل من النِّعم الغِزَار، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلهٌ كشف الغَمّ بعــد ما غَمّ القلوبَ وغَطَّىٰ على الأبصار، وفَرَّج الهَمّ، وقد كان ٱدْلَمّ، وأظْلمتْ منه النَّواحِى والأقْطار، ونشهدُ أنّ محمّدًا عبــدُه ورسولُه المصطفَىٰ المُختار، سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ فى الدُّنيــا وسيدُهم فى دار القَرار، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الأطهار، وصحَابتِه الأخيار، ما أظلم لَيلٌ وأضاءَ نهار .

وبعدُ، فإنّ الله تعــالى لَطَف بهذه الدَّولة المعظَّمة فى المُقام والسَّيْر، فمــا مضىٰ لأحدٍ معها يومُ سُرورٍ إلا والذى من بعــده خَيْر، ونَصب خِيامَ عَدْلِهــا على الخَلْق وشَرع أطنابها، ورَغَّب العِبادَ فى فَضْــلِها العميم وفَتح لهم بَابَها، وجعلها كاشِــفَةً للكُروبِ المُوجِبَــة للحَزَن والضِّيق، وَراشِــفةً من خزائن مُلْكه ومعادن نَصْره كأْسَ رَحِيق، تصِــلُ بقُوَّته وتَقطع، وتُفرِّق بإرادته وتَجمع، ثم جعل المــالَ نِظامَ مُلْكها القَويم، وقِوامَ سِلْكِها النَّظِيم، به تَمْضى أوامِرُه ونَواهِيــه، وتجرى على السَّداد بمــا يُحِبُّه ويُرضِيه، فتعيَّن إعدادُ مَن يقيم بعزمه عَمَدَه، ويقْعِد من أخذ منه بغير ٱستحقاق ممن أقعــد الدِّينُ زنده، وقدّر الله تعالىٰ فى هــذا الوقت ما قضاه، ونَفَّذ حُكْمَه فيمن خرجَ عن طاعتــه وأمضاه، فلم تَبْقَ مملكةٌ إلّا ومَسَّها وأهْلَها الإضْرار، ولا بُقْعــةٌ إلّا ولَحِقَ أهْلَها بَأْسُ أُولئك الفُجّار، فادرك اللُّطفُ الإلٰهىُّ ممــالكَ الإسلام، وحلّ الرِّكاب الشريف بأرْض الشام، فكان بَرْدا وسلاما، ونَجا المخلصُ وهلك النا كِثُ النّاكِلُ بقدوم سلطان الإسلام، خلّد الله ملكه [ليقذف] بالحقّ على الباطل، وأيد اللهُ دَوْلَتَه الشريفةَ بعَوْنِه المُتواصل .

وكان فلانٌ له مباشراتٌ عديدَه ، وتأثيراتٌ حميدَه ، وآخر ما كان في وظيفة شدّ الدواوين بطرابلس : فباشرها مباشرةً جميلةَ الأثر ، مشكورةَ السَّيْر عند من وَرَد وصَدَر ، ودبَّر مهماتٍ يَعجز عن حصرها أولُو العقول والفِكَر ، وحَصَّل للديوان المعمور أموالًا كالطُّوفان ولكن بلا غَرَق ، واستُعْجِب منها كيف حصرتْها الأقلامُ أو وَسِعَها الوَرَق ! ؟ ؛ والذي كان بوظيفة الشَّدِّ الآن زاهدٌ عنها ، ليس له رغبةٌ فيها ولا في شيءٍ منها .

فتعين إعادة الجناب الفلانيّ إليها . ورسم بالأمر ـ لا زالتْ أيّام دولته الشريفة تُصْلح الشان ، وتُعيد الخير إلى ما كان ـ أنْ يستقرّ ... .

فليعُدْ إليها عَوْد الحُسامِ إلى غِمْده ، والماءِ إلى مَنْهَلِ وِرْدِه ؛ وليباشرْها بمباشرته المعروفه ، وعزائمه المألوفه ، وهِمَمه الموصوفه ، مُسْترفعًا المتحصل ومصروفَه ؛ وليتحقّق أنّ الله تعالى سيصِلُ رِزْقه فلا يُوجِسْ في نَفْسه خِيفَه ، وليجعلْ تقوى الله تعالى دَأْبَه في كلّ قضيّة ثقيلةً كانت أو خفيفه ، والله تعالى يُمِدّه بالطافه المُطِيفَه ؛ بمنّه وكرمه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة العساكر بطرابُلُس :

الحمدُ لله الأوّل بلا آخر ، الغنيِّ في مُلْكه عن الناصر ، المنزّه في سُلْطانه عن المُؤازر ، المتوحّدِ بعدم الأشباه والنظائر ، المُبيدِ لكلّ مُظاهِرٍ بالعِناد مُجاهِر ، العليم بما تُكِنّه الأفكارُ وتُجِنّه الضمائر ، الرقيبِ على كلّ ما تردّدَ من الأحوال بين سَوادَي القَلْب والناظِر .

وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً يُرغَم بها كلُّ جاحدٍ وكافر ، وأشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ والشِّركُ مُدْلَهِمُّ الدَّياجِر ، والرُّشْدُ

قد خيّم عليه الضّلالُ فما له من قُوّةٍ ولا ناصر ، فأقام به الدّينَ الحنيفىّ النّيّرَ الزّاهر ، ورفع ذكرَه فى سائر الأقطار والأمصار على رءوس المنابر ، صلّى الله عليه وعلى آله أهلِ المكارم والمآثر ، ما حمِد السُّرى عند الصّباح سائر ، وحمَد سَيرُ السّرِّ بكلّ مُناضِلٍ ومناظر ؛ وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ أولى من سِيقت إليه وُفُود النّعم ، ومُنح من الخيرات أجزل القِسَم ، وصُدِقت الأمورُ بعزائمه ، واعتُمِد على هِمّتِه التى هى فى المَضاءِ كأسِنّته وصَوارِمه ، ورُعِيت عُهودُ وَلائِه التى لا تُنْكر ، ووُصِفت مَساعِيه التى استحقّ أنْ يُحمد بها ويُشكر - مَن إذا عُوِّل عليه فى المُهِمّات كَفاها ، وإذا استُطِبّت المُعضِلاتُ به شفاها ، وسارت أنباءُ مَهابته غَوْرًا ونَجْدا ، واتّصف بحُسْن التدبير الذى عليه من الإقبال أكْمَلُ إجْدا .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى تناقلت تَباشيرَ أخبارِه الرُّكبان ، وأثنى على شهامَته السّيفُ والسّنان ، وشَرُفَتْ بمحاسِنِه الأقلام ، وارتفع ذِكْرُه بالشجاعة على رءوس الأعلام .

فلذلك رُسم ... ... - لا زال للدّين الحنيفىّ ناصرا ، وللأعْداء قامِعًا قاهِرا ، وللحقّ مُؤيِّدًا باطِنًا وظاهِرا - أنْ يستقرّ الجنابُ العالى المشارُ إليه أميرَ نُقَباءِ العساكر المنصورةِ الطّرابُلُسِيّة ، عِوَضًا عمّن كان بها ، على عادته وقاعدته : لأنّه الحَبْر الذى عُقِدَتْ على خِبْرتِه الخناصر ، ووَرِثَ الشّهامَةَ كابِرًا عن كابِر ، وأضحى بتَدْبيره واضِحَ الغُرَر ، شاهِدًا له به العَيْنُ والبَصَر ، إنْ جال بين صُفُوف العساكر كان أسَدا ، وإن رتّب جُيوشَها أحصاها حِلْيةً وعَدَدا .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ محرِّرًا أحوالَ العساكر المنصوره ، مقرِّرًا لهم فى مَنازِلِهم على أكْمَلِ عادةٍ وأجْمل صُورَه ، بمُناصَحةٍ تُمْنَح بمِسْكِها ، ومُخالَصةٍ قام مَقامَ واسطَةِ جَوْهرِ

بسلكها، وملازمة خدمة تأزرت بها أعطافه ، وصفاء طوية شرفت بهـا أوصافه ؛ ومحبة عليٍّ جمع فيها بين قوله وفعله ، وإخلاص يحسن بالمرء أن يكون ملتحفًا بظلّه : لكي يتمّ الله النعم عليـه كما أتمّها علىٰ أبيه من قبله ؛ وليقصد رضا الله تعـالىٰ فى هـذا الأمر، لا رضا زيدٍ ولا عمرو ؛ والله تعـالىٰ يتولّاه فيما تولّاه ، والاعتماد فى ذلك على الخط الكريم أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنقابة الأشراف بطرابلس بـ«المجلس السامى» بالياء ، وكتب فيه «القضائى» علىٰ خلاف الأصل، وهى :

رسم بالأمر ـ لا زال يرفع لذوى الأصالة الشّريفـة قدرا ، وينقلهم إلى الرّتب السّنيّة ويعلى لهم ذكرا ، ويشملهم من إحسانه بمـا يسرّ لهم قلبا ويشرح صدرا ؛ ويبلّغهم من المآرب أوفاها ، ومن ملابس القبول أجملها وأسناها ـ أن يستقرّ فلانٌ ـ أدام الله نعمته ـ فى نقابة السّادة الأشراف بالمملكة الطرابلسيّة ، علىٰ ما تقدّم من عادته فى ذلك : استقرارا جاريا فيه علىٰ أجمل العادات، واعتمادا علىٰ ما عهـد من سلفه الشّريف الذّات ؛ ورعاية له فى تجديد المسارّ ، وترجيحا لمـا اشتمل عليه من حسن الكفاية فى كلّ إيراد وإصدار ؛ ورفعة لبدء الباسطة علىٰ أبناء جنسه، وتقوية يجـد أثرها فى معنـاه وحسّه ؛ رحمـا يستوجب به النّعم الجزيله ، وولاية توليـه من الكرم سوله ، وعناية تضـحـ بها ربوع أنسه مأهوله ؛ لأنّه أولىٰ أن يقرّ فى هـذه الوظيفة ويزاد ، وأحقّ أن يرعىٰ لمـا سبق له من السّـداد ، وأجدر أن لا يضاع حقّه حيث له إلىٰ ركن الشّرف المنيف استناد .

فليباشر هـذه الوظيفة المباركة مبسوطا أمله فى المزيد ، منوطا رجاؤه فى نعمنا باستئناف وتجـديد ، محوطا ما بيده من كرمنا العديد ، وهو غنيٌّ أن تثنّى له الوصايا

ونُعيد، مَلِيٌّ بحسن السجايا التى جُبِلَتْ على التّحقيق والتّوفيق والتّسديد؛ والله تعالى يُطوّقُ بِمَنِّ جُودِنا منه الجيد، ويُغدِقُ له سحائبَ رِفْدِنا التى نُجْريه على ما أَلِفَ من فضلها العديد؛ والعلامة الشريفة ـ أعلاها الله تعالى ـ أعلاه، حُجّةٌ بمقتضاه .

✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بشدّ الشوانى بطرابلس، كُتب به لعلاء الدين «أيد غمش» وهى :

رُسم ... ـ لازالتْ أيامُه، قائمةً بالجهاد فى سبيل الله عزّ وجلّ، وأعلامُه، حائمةً على الْتِقاطِ مُهَجِ العِدَا فى البرّ والبَحْر بما يُقرِّبُ لهم الأجل ـ أنْ يستقرّ فلانٌ فى شدّ الشّوانى المعمورة المنصورة على العادة فى ذلك، بهمّته العليه، وعَزْمَتِه التى هى ببلوغ المقاصد مَلِيّه ؛ وشَهامَتِه التى تُرهِبُ العِدا ، وشجاعَتِه التى تُلْبِسُهم أرْدِيَةَ الرّدى ؛ وبَسالَتِه التى تُنيلُهم فى البَحْر فتصيِّرهم كالأسماك لا يُسامُ لهم صدى .

فلْيجْتَهِدْ فى ذلك جِدَّ الاجتهاد، وليعمدْ فيه السّداد والسّداد؛ وليُوقظْ أجفانَ سيوفه من الغَمْض، وليُرهِبْ العِدا بشِدّةِ وَطْأتِه التى لها الثّباتُ فى الأرض؛ وليلازِمْ مُواظَبَةَ الشوانى ليلًا ونهارا، وليكُنْ هو ومَن حَوْلَه لمن بها أنصارا؛ واللهُ تعالى يُجزلُ له مَبارا، ويَرْفعُ له مقْدارا، بمنّه وكَرَمه .

✦

وهذه نسخةُ توقيعٍ بشَدّ دار الضَّرْب، كُتب به لـ«علاء الدين الدّوَادار»، وهى :

رُسم ... ـ لازال إحسانُه يجُود غَماما، وفَضْلُه الشاملُ على الأولياء المتّقين إماما، وسَحائبُ بِرّ كَرَمه هاميةً على أوليائِه، هاملةً على أصْفيائِه، فتَراهُمْ يخِرُّونَ للأذْقان سُجّدًا وينتصبُون قِياما ـ أنْ يستقرّ المشارُ إليه فى شدّ دار الضّرْب : إعانةً له على الخدمة الشّريفه، وإرْفادًا له بمعلومها إذْ هى ليستْ له بوظيفه؛ لأنّه أكبرُ من ذلك قَدْرا،

وأحقّ بكلّ منزلةٍ عليّةٍ وأحرى ؛ ولكنْ هذه الجهةُ هي قانونُ المُعامَلَه ، وسِكّتُها بشعار المُلْك مُتّصلَة وبين الحقّ والباطِل فاصلَه ؛ ومنها النُّقوشُ التي هي رُسْتاق الأرزاق ، وصَدْرُ كلّ إطْلاق وقنداق ؛ حكيمٌ ما أُرسِل في حاجةٍ إلّا وأُذِنَ لها بالنّجاح ، ولا آستؤمن عليه آمْرؤٌ بإذن الإمام إلا وحقّ له [الاتصاف] بالصلاح والفلاح ؛ هذا وهو في الأصل مذموم ، وطالبه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ؛ ولكن تطهيره من الدنس واجب ، والحسبة في عياره حتى يغدو ويودِّق صفائه من الغِشّ ناضب .

فليعتمِدِ المشارُ إليه في شَدّ هذه الجِهَة حُسْنَ التقوى ويُلاحظْ بعزمه أُمورَها لتكونَ على السّداد ، ويعتمِدْ على السّيد النّاظر فإنّه نِعْم العِماد ، ويُفوّضْ إليه كَشْفَ الزُّوباص وحَكّ العِيار فهو به أدرى وأحرى وأدْربُ بادْحاض غِشّ الفَساد ، وليَتناولْ معلومَه المُقرّر له عند الوجوب والاستحقاق ، هَنيئًا مُيَسّرًا خالِصًا من التّنازُع والشّقاق ، ومثْلُه فلا يُدَلّ على [صواب] : إذْ تقْوى الله تعالى كلمةُ الفَصْل وفَصْلُ الخطاب ، واللهُ تعالى يجعلُها لنا وله زادًا وحِرْزًا ، وذُخْرًا يوم المَعاد ورِكْزًا (١) .

⁂

وهذه نسخةُ توْقيع بشَدّ البَحْر بمينا طَرابُلُس ، وهي :

رُسم بالأمر ـ لا زال سيْفُه قاطعًا من الأعداء نَحْرا ، وأمْرُه نافِذًا برًّا وبحرا ، وفعلُه صالحًا دنيا وأُخرى ـ أنْ يستقرّ الجنابُ المشارُ إليه في شَدّ مِينَا البَحْر بطَرابُلُس .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ شارِحًا لها صَدْرا ، فاتحًا لها بحُسْن مُباشرَته الجميلة بصَرًا وفِكرا ، باعثًا لها في الآفاق بمباشرته ذِكْرًا جميلا ، باحثًا عمّا يتعلق بمتحصل المِينَا

(١) يريد زكوة واحدة الركاز المال المدفون . وذكر مراعاة للسجع .

المعمورةِ بُكْرَةً وأَصِيلا، مُسَوِّيًا بين الناس فيما رَزَق اللهُ وفَتَح ، وبَعَثَ من فَضْلِه ومَنَح ؛ بحيثُ لا يقدِّم عزيزًا ولا يُؤَخِّر ذَلِيلا ، ولا يُراعِى فى ذلك صَدِيقًا ولا خَلِيلا .

ولْيقَدِّمْ خَوْفَ الله تعالىٰ علىٰ خَوْفِ خَلْقِه ، ولْيُسوِّ بين الضَّعِيف والقَوِىِّ فيما بَسَط اللهُ من رِزْقِه ؛ وآكَدُ ما نُوصِيه به تَقْوى الله تعالىٰ فيما هو بصَدَدِه ، فلْيَجْعلها فى أُمُورِه الباطِنَة والظاهِرَةِ من عُدَدِه ؛ واللهُ تعالىٰ يقدِّمُه فى مباشَرتِه لاقتناء محاسن المعروف وزُبَدِه ، ويرْزُقُه من الأجْرِ علىٰ ما يَعْمله من الخَيْرِ مع تُجَّار هذا البَحْر بما هو أكثر من زَبَدِه .

* * *

توقيعٌ كريمٌ بنيابة اللَّاذِقِيَّة ، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى ، كتب به لـ«شمس الدين» ابن القاضى ، بـ«الجناب العالى» ، وهو :

الحمدُ لله الذى زاد «شَمْس» الأولياءِ إشراقا ، ومَنَحه فى هذه الدَّوْلة الشريفة إرْفادًا وإرْفاقا ، وصانَ الثُّغورَ المحروسةَ بعزَماتِه التى سَرَّتْ قُلوبًا وأَقرَّتْ أَحْداقا ، وجَدَّدتْ لأوليائها من مَواهِبِها عَطاءً وِفَاقا .

نحمدُه علىٰ حُكْمِه وفِعْلِه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تمنحُ قائِلَها مَزِيدَ فَضْلِه ؛ ونشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بملائكته المُقرَّبين ، وشَدَّ أَزْرَه من أصحابه بالآباء والبَنِين ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمةِ الدِّين ، صلاةً تمنحُ قائِلَها غُرَفَ الجِنَانِ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ من شِيَم هذه الدَّوْلة إذا بَدأتْ تَعُود ، وإذا نظَرتْ تَجُود ، وإذا قَدَّمتْ وَلِيًّا لحظَتْه بأعْيُن السُّعود .

وكان الجنابُ العالى ــ أدام اللهُ نِعْمَته ــ عَيْنَ القِلَادَه ، وبَيْتَ السِّيادَه ، ومَعدِنَ السَّعاده ، وأَهْلًا أنْ يُدبِّر الأُمور ، ويَسُدَّ الثُّغور ، ونِيابَةُ اللَّاذقيَّــة مجاوِرَةُ البُحور ، وجَزِيرَةُ العَدُوّ بينها و بينها نَهارٌ فهى فى آمرِها له قاعدة فى الثُّحور ، وقد رَأيناه أَهْلًا أنْ يَصُونَ نَحْرها ، ويتَقلَّد أمْرَها ، ويحفَظ بَرَّها ، ويَدْفع شَرَّها .

فلذلك رُسِم بالأمرِ ــ أعلَى اللهُ تعالىٰ شَرفَه ــ أنْ تُفَوَّضَ إليه نيابةُ اللَّاذقية المحروسة ، علىٰ عادة من تقدَّمه .

فلْيَسِرْ إليها سَيْرَ الشَّمْسِ فى أبْراج شَرَفها ، ولْيُقْبِلْ عليها إقبالَ الدُّرَّة على التَّرائب بعد مُفارَقة صَدَفها ، وأوّلُ ما نأْمُره [به] : إرْهابُ العَدُوّ بالعُدَّة والعَديد ، وإظْهارُ المَهابَةِ فى القريب والبعيد ، وتفقُّدُ الأَبْراجِ بنَفْسه من غير آتِّكالٍ علىٰ سِواه كما يفعلُ البَطَلُ الصِّنْديد ، ولْيَخلَعْ عنه مَلابِسَ الوَشْيِ ويَلْبَسِ الحَديد ، ولْيَهجُرِ المضاجِعَ ويَتَّخِذْ ظَهْر جَوادِه مستَقَرَّه العَتيد ، حتّىٰ ينتَشِرَ له صِيتٌ بين أهْلِ التَّثْليث كما آنتشر صِيتُه بين أهْلِ التَّوحيد .

وآبْسُطْ بِساطَ العَدْلِ ليطأَه المَوالِي والعبيد ، وآحْكُمْ بالحقّ فالحقُّ مُفيدٌ والباطِلُ مُبيد ، ومَتَىٰ تسامعَ التُّجّارُ بعَدْلك جاءُوا بالأصناف والمَتجَرِ الجَديد ، وآرْكَنْ إلىٰ حُكْم الشَّرع الشريف فإنَّه يأْوِى إلىٰ رُكْنٍ شديد ، وآتّقِ اللهَ تجِدْه أمامَك فيما ترُوم وتُريد ، وتَمسَّكْ بالسِّيرة الحسنة يَزِدْكَ اللهُ رِفْعَةً وأنت أحَقُّ بالمزيد ، وعَقِبَها نَسْتَنْجِزُ لك تَشرِيفًا شَريفًا مَقْرونًا بتَقْليدٍ أعْظَمَ من هذا التقليد ؛ والخطُّ الكريم أعلاه حجَّةٌ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

❖

تَوْقيعٌ بنيابة قَلْعــة حِصْن الأكراد ، كُتِب به لشهاب الدين «أحمد الناصرى» ، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلع فى سماء الدِّين شِهابا، وفتح لمن خافه واتّقاه إلى الخيرات أبوابا، وحَبَاه من إفْضاله وألبَسه من حُلَل إنعامه ونَعمائه أثوابا .

نحمدُه على نِعَمه التى أجزل لنا بمَزِيد حَمْدها أنعاماً وثوابا، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نتّخِذُها من النار حِجابا، ونَعتدُّ بها فى الآخرة مَفازاً حدائقَ وأعنابا، وكَواعِبَ أترابا؛ ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى شرّفه على الأنبياء مَنْصِبًا ونِصَابا، وسَبَى بطَلْعته وطَلِيعَته قُلوبًا وأحزابا، وقرّبه إلى أنْ كان قابَ قوسَيْن وأسمعه من لَذِيذ كلامه خِطَابا، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه : أكْرِمْ به وبهم آلا وأصحابا [ ] ؛ وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولى من انْتُدِبَ، لحفظ المعاقل الإسلاميّة وانْتُخِب، وأحرى من لحَظَته عَيْنُ عنايتنا فكان إليها من العَيْن أقرب، وأحقّ من اعْتُمِد على بَسالته وإيالَته بما سَبَر من الأنام والأيام وجرّب - مَن عُرِف بشجاعة أيْنَ منها عَمْرو بن مَعْدِى، وأمانةٍ كَفّتْ حين كَفّتْ كفّ التعدّى؛ وعِفّةٍ جعلها فى أحواله كلِّها نُصْبَ العَين ، وسِياسَةٍ ما زال يُصْلِحُ بها بين ذَوِى المُشاقّة ذاتَ البَيْن ؛ وكان فلانٌ هو الموصول المُقدّم، المَوصوفَ بهذه الصفات التى سُرّ الساحلُ بها فتبسّم .

فلذلك رُسِم بالأمر - لا زال يُطْلِعُ فى آفاق الحُصون المَصُونَة شهابا، ويَرفَعُ الأَوْلياءَ بإحسانه الذى يؤكِّد لهم فى جُوده أسبابا - أن يستقرّ (١) نائبًا بقلعة حصن الأكراد المحروس وأعمالها، على عادة من تقدّمه ومُستقَرّ قاعدته .

فليُباشِرْ ما وَلّيناه وأوْلَيناه، مُباشرةً تُسْفِرُ عن حُسن فِطْنَته وذَكائه، وتُضِيءُ الآفاقَ بنُورِ شِهابِها وسَنائه، وتُظْهِر مَعروفَها المعروفَ بعدم غَيْبته وخَفائه؛ مُعْتمِدًا

(١) بياض بأصله ومراده الجناب العالى . أو المجلس العالى .

على الله تعالى فى إبدائه وإنهائه ، شارحًا لكلِّ قلبِ الانه إحسانُه بعد غِلْظته وجفائه ، مانحًا من بحرِ جُوده وعدلِه بالدُّرِّ لا بجُفائه ، مكرِمًا لمن بهذا المعقِل : من أمرائه وأجناده وأغنيائه وفقرائه ، مقيمًا لمنارِ الشرعِ الشريف الذى لا تستقيمُ الأمورُ إلّا بمتابعته وإبدائه ؛ وليُظهِرَ من شجاعته وبسالته ما لا فائدةَ فى خفائه ؛ وليَشْهَرْ سيفَه ، فى وجهِ من أظهر حَيْفَه ، وعدم خوفَه ، من سطوةِ ربِّه وكُرَمائه .

وأعظمُ ما نُوصيه به التقوى ، فإنَّه بملازمتها يقوى ، على دفع الشرِّ وفعلِ الخير وإسدائه ، والوصايا كثيرةٌ وهو المجرَّبُ بالعملِ بها لمن يرغب فى استيلائه ، والله تعالى يُحرِقُ بشهاب عدلِه كلَّ متمرِّد... ... .

***

واعلم أنّه ربّما كُتب توقيع نائبِ حِصْنِ الأكراد مفتتحًا بـ«أمّا بعدَ حمدِ الله» .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنيابة حِصْنِ الأكراد ، كُتب به باسم «شهابِ الدين الحاكى» بـ«الجناب العالى» ، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جعل شهابَ الدِّين يتنقَّلُ فى مطالِع سعْده ، وجدَّد أثوابَ النَّعماء لمن قدُمَتْ هجرتُه وظهر خيرُه فأنجز له الإقبالُ صادِقَ وعْده ؛ وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُبلِّغ قائلَها إنالةَ قَصْده ، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أيّده اللهُ بنصرٍ من عِنْده ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين كانوا من أنصاره وجُنْده ، صلاةً دائمةً يبلغُ المؤمنُ بها غايةَ رُشْده ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا ـ فإنَّ أَولى مَن شَمِله إحسانُ هذه الدَّولة الشريفة وَوَلَّه مُرادَه ، وأجْزل عليه النِّعم فكان أحقَّ بها لحُسْنِ طَويَّته فأجراه اللهُ على أحسنِ عادَه ، وبلَّغه غايةَ القصْد ومَعْدِنَ السعاده ـ من سَلَكَ مسالكَ الأمناءِ الثِّقات ، واشتهرَتْ عنه العفّةُ وحُسْنُ الصِّفات ، فتعيّن تقديمُه وتقريبُه إلى أجلِّ ولايات الفتوحات .

ولمّا كان فلانٌ ـ أدام الله عزّه، وأنجح قصْدَه ـ هو المنعوتَ بصفات السّداد، المشهورَ بالنّهضة والشّجاعة فى هذه البلاد ؛ الذى حوىٰ المكارم والإفضال، ووافق خُبْرُه خَبَرَه فى سائر الأحوال .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لا زال شِهابُ فَضْلِه ساطعا ، ونُورُ إحسانه لامِعا ـ أنْ يستقرّ المجلسُ العالى الشّهابىُّ المشارُ إليه فى وِلاية الأعمال الحِصْنيّة والمناصف عوضًا عمّن بها ، علىٰ عادته وقاعدته : لأنّا وجَدْناه شَمْسَ أعيان الأماثِل، والفَيْناه قليلَ النّظير والمُضاهى والمُماثِل؛ وعليه عُقِدَت الخَناصر، واتّفقتِ الآراءُ الثاقبةُ فى الباطن والظاهر؛ ولمّا جمع من كَرَم الشّيَم وجَميل الخِلاَل ، وحازَ من النّباهة الرفيعة الذُّرا المَديدة الظِّلاَل .

فليتوجّهْ إلىٰ محلّ وِلايته ، وليُظْهِرْ ما أكَنّه من العَدْل والإنْصاف فى ضمائره بحُسْنِ سياسَته، ولْيُنْصِف المَظْلُومَ ممّن جارَ عليه واعْتَدىٰ، وليتّبِعْ فى ذلك ما يُوضِّح له من طريق مَنَارِ الهُدىٰ ؛ ولْيَبْسُط المَعْدِلَة ويُمُدّ باعَه ، ولْيُبِدِ الظُّلْمَ ويَقْصِمْ ذِراعَه ؛ ولْيَصْرِف هِمّته فى عِمارة البلاد، وتأمينِ العِباد، وسُلُوكِ سُبُلِ الرَّشاد؛ وليَجْتَهِدْ فى سَدِّ الخِلال، وإصْلاحِ ما فَسَد بغَيْره من الأحوال؛ وليجْعَلْ تَقْوى الله مَحَجّته ، واتّباعَ العَدْلِ حُجّته، وسُلُوكَ الحَقِّ عُدّتَه ؛ فقد جاءت التّقْوىٰ فى التنزيل مُؤَكّدَه، ووردَتْ فى كثيرٍ من السُّوَر مُرَدّده ؛ والله تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما وَلاّه ، ويَحْرُسُه ويتولاّه ، بعد الخط الكريم أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة المَرْقَب والولاية بها ، كُتب به لصلاح الدين «خليل» ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الدّولةَ الشريفةَ مقرونةً بالتأييد والنّجاح، ووفّق أولياءَها إلى سُلُوك سُبُل السعادة وشيّدها بالصّلاح، وخوّلهم فى أيّامها المراتبَ العلية ليبتهلوا بأدعيتهم وبدوامها فى المساءِ والصّباح.

نحمدُه على نِعَمِه التى لا يبرح مخلِصُها فى ازديادٍ وارتياح، ونشكُرُه على آلائه شكرًا نستحقُّ به المزيدَ كما أوضح فى القرآن أكملَ إيضاح، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً مُعْلِنَةً بالفَلاح، وأنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه فى مُحْكَم كتابه العزيز: ﴿ اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ مَثَـلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ ﴾ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه الغُرِّ الكِرَامِ الأشباح، ما ترنّم طائرٌ على غُصْنٍ وحيعل الدّاعى الى الفَلاح، وسلّم تسليمًا كثيرا.

وبعـد، فإنّ أولى من عُدِقَت به نيابةُ أجلّ المعاقِلِ والثّغور وفُوّضت إليه، وعُوّل فى حِفْظِها ومباشرتها الحَسَنة الجميلة عليه ـ مَن عُقِدتْ على حَزْمِه الخناصر، وورِثَ الشّجاعةَ والشّهامةَ كابرًا عن كابرٍ، وهو الذى نَما فَرْعًا وزكا [أصلا]، وفاقَ فى المكارم على نُظَرائه قولًا وفعلًا، فأضحى وافرَ الثّناءِ واضحَ الغُرَر، شاهدًا له به العَيْن والبَصَر.

ولـمّـا كان فلانٌ هو المنعوتَ بهـذه الصّفات، والموصوفَ فى مَواقِف الحروب بما لديْه من الثّبات والوَثَبات، المشكورةَ خِدمَتُه، شامًا ومِصْرا، المشهورةَ بين الهِمَم همّتُه، برًّا وبحْرا.

فلذلك رُسِم ... ـ لازالتْ مراسيمُه الشريفةُ مَبْثوثةً بالعَدْل والإحسان، ومَعْدِلَتُه تَسْـتدْعِى بدوام دولته الشريفـة لِسَانَ كلِّ إنسان ـ أنْ تفوّضَ إليـه نيابةُ قلعـة المَرْقَب المحروس، والولاية بالأعمال الشّرقيّـة، وما هو منسوب إليها، على العادة فى ذلك ومستقرّ القاعدة: إذْ هو أحقُّ بها وأهلُها، وأكملُ [من] يجمَعُ شَتَاتَ شَمْلِها.

فليباشر ما نُدِب إليه من هذه الجهات مُباشَرةً تَقْصُر الأفكارُ عن توهُّمها ، والأبصارُ عن توسُّمها ، والخواطِرُ عن تَخيُّل مَبْناها ، و [الأذهانُ] عن تمثُّل صُورتِها ومعناها ؛ وليكن لمصالحها مُتأمِّلا ، ولأحوالِ رجالها متصفِّحا ، ولأقدار جهاتها مُرْبِحا ، وللخواطِر بأداء أحوالها على السَّداد مُريحا ؛ ولوظائفِها مُقيما ، وللنظر فى الكبير والصَّغير من مصالحها مُديما ؛ ولحُرْمتها مُضاعِفا ، وعلى كلِّ ما يتعيَّن الاحتفالُ به من مُهمَّاتها واقفا ؛ ويُعِدَّ للعدوِّ المخذولِ عند تحرُّكه العزْمَ الشديد ، ويَهْجُرْ لِبْسَ الوَشْيِ ويَتألَّفْ لِبْسَ الحَدِيد ، ويتَّخِذْ ظَهْر جَوادِه مُسْتَقرَّه العَتِيد ؛ ويُشمِّرْ للجهاد ذَيْلا ، ومَعاذَ الله أنْ يَمِيلَ عنه مَيْلا ؛ ويَبْسُطِ العَدْلَ للرَّعيَّة ، ويُعامِلْهم المعاملةَ المَرْضيَّة ، ويُحْسِنْ إلى الأمَراء البَحْريَّة ، ويُلاحِظْ مصالِحَهم فى كلِّ قَضيَّة ؛ ويتفقَّد الرِّجال ، وأرْبابَ الأدراك والشَّوانى ويُحذِّرهم من الإهْمال ، ويأمُرهم باليَقَظة والاحتراز فى اللَّيل والنهار وسائرِ الأحوال ؛ وليعمَلْ ما يحتاج إليه من آلات الجهاد وليكُنْ على حَذَر مما يتجدَّد كلَّ يوم ، وليُوقِعِ الرَّهْبةَ فى قلوب الأعداء بخَيْله فى اليَقَظة وخَياله فى النَّوْم ؛ ويتفقَّد الموانى فى سائر الأوقات فى اللَّيل والنهار ، وليُحذِّرْ أُمَراء الأتْراك من الغَفْلة فإنَّ الغافِلَ لا يَزال على شَفَا جُرُف هَار .

وليتَّقِ اللهَ فى أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أدْرَبُ بها وأدْرَى ، وأبوابُ الخيرات واسِعةٌ وهو إليها أسرعُ وأجْرَى ؛ وليشكر الله تعالى على ما ولَّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة حِصْن عكَّار ، كُتب به لـ « ناصر الدين الكُرديّ » ، بـ « الجناب العالى » ، وهى :

الحمدُ لله الذى نَصر هذا الدِّينَ الحنيفىَّ بسيِّد البَشَر، وخصَّ هذه الدولةَ الشريفةَ بالتأييد والظَّفَر، ووالىَ الأولياءَ بجُودها الذى لم يزلْ من ذِمَّة الوفَاء يُنْتظر .

نحمدُه على مَنّه الذى طالما بدا فى جَبَهات الأولياء بِشْرُه وظَهر ، ونشكره على جُوده الذى أغنى عن التَّحْجيل والغُرَر، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادة تُنْجى قائلَها يوم الفزَع الأكبر، ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أقام اللهُ بسَيْفه الإيمانَ فاشْتَهر ، وكَفَّ به يَدَ الطُّغيان وزَجَر، صلَّى الله عليه وعلى آله ما اتّصلتْ عينٌ بنَظَر وأُذنٌ بخَبَر، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلَى(١) من رُعيتْ له خِدَمٌ عَديدَه ، وعُرِفَتْ له فى أجَلِّ الثُّغور مباشراتٌ سَعيدَه ، واشْتهرتْ شَهامتُه وكفايتُه فى الآفاق، وظهرتْ أمانتُه ظُهورَ الشَّمس فى الإشراق، وتقدّم بذلك على نُظَرائه ووفَاق .

ولمّا كان الجنابُ العالى هو المنعوتَ بهذه الصفات الجميلهْ ، والمُحتوِىَ على هذه المزايا الجليله ؛ الذى شَاعتْ شجاعتُه مع طَهارة يَد ، ولا عَجَبَ فانَّ هذا الشِّبْلَ من ذاك الأسَد ! ؛ وسارتِ الرُّكبانُ فى الممالك بنَهْضَتِهما فى المباشرات ، وسَدَّ الخَلَل فى المُهِمَّات المُعْضِلات .

فلذلك رُسم ... ـ لازالتْ أيّامُه مَبْثوثةً بالعَوارف والإحْسان، ومَعْدلتُه تستدعى بدوام دَوْلته الشريفة لِسانَ كلِّ إنسانْ ـ أنْ تفوّض إليه نيابة قَلْعة حِصْنِ عكّار المحروس، على عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمرتَّب الشاهد به الديوانُ المعمورُ .

فلْيُقَدِّمْ خِيرَةَ اللهِ تعالى ويَتوجَّهْ إليها، ويَصْرِفْ وَجْهَ الإقبال عليها، ويَنظُرْ فى عمارتها ومصالحها، ويَسْتدرِكْ ما اسْتَهْدَم من بيوت حَواصِلها ؛ لِيُصْبِحَ وَجْهُ هذا الثغر

(١) لعل الصواب «فإن أولى الأولياء بالمناصب من رعيت» الخ ليستقيم الكلام .

بحلوله به باسِما ، ويَنْشَر له من حُسْن تدبيره وجميل تأثيره عَلَما ؛ وليُحسنْ إلى الأمراء البَحْرِيّه ، ويُنْزِلْهم منازلَهم على العادات المَرْضِيّه ؛ وليَعدِلْ فى الرَّعِيّــه ، ويُنْصِف المظلومَ من الظالم فى كلّ قَضِيّه ؛ ويُلْزِمْ أربابَ الوظائف من المقــدَّمين والرَّجّالة بالخِدْمة بالنَّوْبة على العاده ، ويُوَصِّلْ إليهم معْلُومَهم من جهاتهم المعتاده ؛ ويَتَّبِـع الحقّ المَحْضَ فى كلّ أمر ، لا يقتدى برأى زيد ولا عَمْرو ؛ وليَعلمْ أنّه مُطالَبٌ بالعَدْل فى وظيفته ، فإنّ كلّ راعٍ مَسْئُولٌ عن رَعِيّته ؛ والوصَايا كثيرةٌ ومُعْظمها تقوى الله فى سائر الأمور : فليتمسّكْ بها يقوىٰ ، فإنّها السَّبَبُ الأقوىٰ ، والله تعالى يتولاه فى السِّرّ والنَّجْوىٰ ؛ بعد الخطّ الكريم أعلاه .

*
* *

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بنيابة بَلاطُنُس بـ«الجناب العالى» ، وهى :

الحــدُ لله الذى أسْبغ نِعَمَه على أوليائه ، وأجْزَلَ كَرَمه على أصْفيائه ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنْجِى قائلَها من وَبيلِ العذاب ، وتُجَدِّدُ له أسْـبابَ السعادة فى الدُّنيا ويومَ الحساب ؛ ونشهدُ أنّ محمّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالنُّور المُبِين ، المخصوصُ بالدِّين المَتِين ؛ صلّى اللهُ عليــه وعلى آله وأصْحابه : وأهْله وأصْفيائه وأتْرابه .

وبعــدُ ، فإنّ القِلاعَ المنصورةَ ممّــا يتعــيّنُ الاحتفالُ بأمْرِها ، والاهْتمامُ بحِفْظ رجالها فى سِرّها وجَهْرها ؛ ومن أجَلّ قِلاعِ الساحل المحروس ، وأجْملِ مساكنِ البَحْر المأنوس ، قلعةُ بَلاطُنُس .

فلذلك رُسم ... ــ لا زالتْ صَدَقاتُه تشملُ كلَّ أوْحَد ، وتجْبر كلَّ وَلِىٍّ أمْجد ــ أنْ يستقرّ ... ... إذ هو الخبيرُ ، الذى ليس لمَعْرِفَتِهِ نَظير ، والضّابطُ الذى يُحاقِقُ على

الجليلِ والحقير، والنّقير والقِطْمير، والشُّجاعُ الذى هو فى يوم النِّضالِ علىٰ أخْذ العَدُوّ لَقَدِير، والضِّرْغامُ الذى أعطاه الله القُوّةَ والمَعرِفَةَ التامّةَ فهو بهما جَدِير .

فَلْيَسِرْ إلىٰ الثّغر المحروس، ويَعتمِدْ فى أُموره ما هو فيه من الخِبْرة مَغْروس .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيع بتَقْدِمَة العَسْكر بجَبَلَة ، كُتب به لـ«صلاح الدّين الحافظى» ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هـذه الدّوْلَة الشريفةَ تَنْقُلُ كلَّ وَلِيٍّ إلىٰ درجات سَعْده، وتُؤكِّدُ أسبابَ الارتقاء لمن حُمِدَت مآثِرُه وحَسُنَتْ سيرتُه فى اليوم والذى من بَعْده، وتُجدِّدُ أثوابَ النّعماء لمن ظَهر خَيْرُه وخِبْرَتُه فأنجزله الإقبال صَادقَ وَعْده .

نحمدُه علىٰ نِعَمِـه التى أجزلتْ لمُسْتحقّها مَواهِبَ رِفْده ، ونشكُره علىٰ مِنَنِه التى خَصّتْ كلَّ كافٍ بتأْثِيل مَجْده ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يبلُغُ بها قائلُها غايةَ قَصْده ، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمّدا عبدُه ورسولُه الذى أيّده الله تعالىٰ بنَصْرٍ من عِنْده، وآمَنَه علىٰ وَحْيِ الرِّسالة فنصح الأُمّة غايةَ جُهْده، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانوا من أنصارِه وجُنْده، صلاةً دائمـةً باقيةً يبلُغُ بها المُؤْمنُ غايةَ رُشْده ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنّ الجنابَ العالِيَ لمّـا تقدّمَتْ له مباشرات، فى أجَلّ الولايات وأحْسَنِ النيابات ، وهو يَسيرُ فى كلٍّ منها أجْمَلَ سَيْر، ويُحْسِنُ إلىٰ رَعيّتها فلا غَرْوَ أنْ يذكروه بكلّ خَيْر ، كَمْ قَام بمُهِمّات من غَيْر عَسْف أهْلِ البلاد ، وكَمْ أعانَ الدِّيوانَ المَعْمورَ من غير ضَرَرٍ للعباد ، وكَمْ ميّزَ أموالًا فكانت أيّامُ مباشراته أعْياد ، وكَمْ له من خِدَم سار بهـا الرُّكابُ وبلَغ بها المُرَاد ، وكَمْ أثنىٰ عليـه لِسانُ القَلَم حتّى نَفِدَ المِـدَاد ،

وكمْ وُصِفَتْ هِمَمُه وحُسْنُ تأتِّيه فى كلِّ توقيع وتقليد علىٰ أنَّ الكاتِبَ ما زاغ عن الحقِّ ولا مالَ عن الصِّدْقِ فيها ولا حَاد .

فاقتضَىٰ مَحمودُ رأْينا الذى ما بَرِحَ بعوْن الله يُصيب، وجَميلُ فِكْرِنا الذى ما دعَوْناه لأمْرٍ إلّا وبالإصابة بحمد الله يُجيب، أنْ نُعيِّن له وظيفةً تُريحُه فيها من التَّعب، ونُوفِّره من تَبِعاتِ الطَّلَب ؛ وكان مَن فى تَقْدِمَةِ العسكر بجبلة يَعْتريه ألَمٌ يعوقُه عن الرُّكوب فى الخِدَم الشريفة والنزول ؛ سيّما فى هذا الوقت الذى فيه يتحرّكُ العدُوُّ المخذُول .

فلذلك رسم ... ــ لا زالتْ أيّامُه الشّريفةُ تُيسِّر أسْبابَ النَّجاح، وعَوارِفُه تُطوىٰ لهـا أرْضُ البُعْدِ عن أوليائها كما تُطْوىٰ لذى الصَّلاح ــ أنْ يستقرّ الجناب ... ... فى تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجبلَة ، علىٰ عادة مَن تقدّمه وقاعدَته .

فلْيباشِرْها مباشَرةً تَليقُ بشَجاعَتِه ، وتُمَهِّدُ من حُسْن سِياسَتِه ؛ ولْيُكرِم الشَّرْعَ الشريف، ولْيَردَعْ من يَحِيدُ عن الحقِّ أو يَحِيف، ولْيجْمَع الأمراءَ المقدّمين والحلقة المنصورة على الركوب فى الخِدْمة الشَّريفَه، ولْيشكر نِعْمةَ الله تعالى المُطيفَه ؛ ولْيَتَيقَّظ لِرَدْعِ العدُوِّ المخذول ، ولْيَعلَمْ أنّا آسترعيناه أمْرَ ذٰلك وكُلُّ رَاعٍ مَسْئُول ؛ ولْيَتحقّقْ أنَّ العدُوَّ المخذولَ طالِبٌ للهالكين منهـم بالثَّار، وهم قاصدون جبَلَةَ فلْتَكُنْ عنـده يَقَظَةٌ وآستبصار، وليرتب الأيزاك ولْيُعمِّر الموانى بالرجال، ويتفقّدْهم فى الليل أكثر من النهار ؛ ولْيَهجُرِ النَّوْمَ فى طَلَب الظَّفَر والمُنَىٰ فمن سَهِر لذلك ما خَاب ، ولا يأْمَنْ مَكيدَتَهم ويَغْترّ بهم فيقولُ : قد ضُرِبَ بينهم و بينها بسُـورٍ له بَاب ؛ وباقى الوصايا فهو بها أعْلم ، ولم يَبرحْ مُتَلَفِّعًا بثَوبِها المُعلَم ؛ وملاكُها تقوى الله تعالىٰ فمن لم يعمل بها يأْثَم، ومن تركها يَنْدَم، ومن لَزِمها فهو فى الدارين مُقدَّم ؛ والله تعالىٰ يتولاه ، والآعتماد على الخطِّ الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وٱعلمْ أنه ربمـا ٱفتتح توقيعُ مقدّم العسكر بجبلة بـ«أمّا بعدَ حمد الله» .

توقيعٌ بتقدمة العسـكر بجبلة ، ممّـا كُتب به لحسام الدين العلائى بـ«الجناب العـالى» وهو :

أمّا بعـدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى تُجزِلُ لكلِّ وَلِىٍّ من موادِّ فَضلِها إنعامًا ، وتمنعُ من عَوارِفها أقساما ، وتُبلِّغ من النُّجْح لذوى الآسـتحقاق آمالا وتجعـلُ فى نُحُورِ الباغين حُسَاما ، والشَّهادةِ له بالوحدانية التى لم تزلْ للأولياء المُتَّقِينَ لِزاما ، وترفَعُ لهم فى الجنَّاتِ مَقاما ، والصَّلاةِ علىٰ سيِّدنا محمدٍ الذى محا اللهُ بنبوّتِه عن الأُمة المحمديّة آثاما ، وشرّفَه علىٰ سائرِ خَلْقِه وجعله للأنبياء خِتاما ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ظافَرُوه وبايَعُوه دُهُورا وأعواما ، صلاةً دائمـةً تَزِيدُ مُرَدِّدَها عِزًّا وإكراما ــ فإنّ الآهتمام بكلِّ جِهَةٍ هو علىٰ قَدْرِها ، والعناية بقُطْرِها .

ولمـا كانت مدينةُ جبلةَ المحروسةِ مخصوصةً بمقام بر (١) السَّند ، الزَّاهد الذى ترك الدُّنيا والأهْـلَ والوَلد ، والوَلِىِّ المبرِّزِ فى عِبادة الخالق ، والمتوكِّلِ الذى لم يدَّخِرْ قُوتَ ساعةٍ لساعةٍ آعتمادًا على الرّازق ــ تعيَّن النظرُ فى أمرها وحِفْظِها من العَدُوِّ المخذول ، وإن كان بهـذا السَّيِّد السَّـنَد قد تبين حفظها ، وكان فلانٌ ممّن باشرها فأحسنَ فيها المُباشَرة ، وكلأَ حِفْظَها بيقَظَتِه وعَيْنِه السَّاهِرة ــ آقتضىٰ رأيُنا أن نُعيدَه إليها ، ونُسْبِـغَ ظِلَّه عليها .

فلذلك رُسم بالأمر ــ لا زال حُسَامُه قاطعًا من الأعداءِ نَحْرا ، وفعلُه صالحًا دُنيا وأُخرىٰ ــ أنْ يُعادَ المشارُ إلـيه إلىٰ تَقدِمة العَسْكر المنصور بجبلةَ المحروسـة ، عوضًا عمّن بها ، وعلىٰ عادته وقاعدته .

---

(١) بياض بالأصول ولعله بركات السيد السند .

فليَعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلىٰ غِمده، والمَاءِ إلى مَنْهَلِ وِرْده ؛ ولْيُقَدِّم خيرةَ الله فى المَسير إليها، ولْيَبْسُط العَدْل ليأمَنَ أهلُها بقدومه عليها؛ ولْيُكْرِمْ من بها من العسكر المنصور، ويُحْسِنْ إلى الرَّعِيَّة بها ليُصْبِح خَيْرَ مَشْكُور؛ ولْيُنصِف المظلوم ممّن ظَلَمه، ويَنْشُر للشَّرع الشريف عَلَمه؛ ولْيُخَلِّص الحقَّ من القَوِىِّ والضَّعيف، والدَّنِىِّ والشريف؛ ولْيَلْزَمْ من بهذا الثَّغر بعمل اليَزَك المعتاد، والتَّيقُّظ لأمرِ العَدُوِّ المخذول ومضاعفة الاجتهاد، ولْيُلازِمْ تقْوى الله تعالىٰ فى الأقوال والأفعال، واللهُ تعالىٰ يمنحُه من فَضْلِه ما يرجو من الآمال .

وهذه نُسخُ تواقيعَ لأرباب الوظائف الدينية بطَرَابُلُس .

تَوقيعٌ بنظر الحِسْبَة بِطَرَابُلُس، كتب به للقاضى «ناصر الدين بن شيصة» وهو :

الحمدُ لله مُبَشِّرِ الصابرين، ومُوَصِّل الأرزاق علىٰ يَدِ أصْفِيائِه من العالَمين، ومُعيد كلِّ ولِىٍّ إلىٰ مَنْصبه ولو بعد حين .

نحمدُه علىٰ فَضْلِه المُبين، ونشكُره علىٰ أنْ جعلَنا من عباده المؤمنين؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَدَّخِرُها ليَوْم الدِّين، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الصادقُ الوَعْدِ الأمين، الذى أرسله بواضح الحُجَج ومُحْكَمِ البراهين، وأنزل عليه كتابًا عَرَبيًّا مبين، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الغُرِّ المُحَجَّلين، صلاةً مستمِرَّةً علىٰ ممرِّ الأيام والشُّهور والسِّنين؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من غَزَّرْنا موادَّ رِفْده، وأجْزَلْنا له حُظُوظَ سَعْده، وبلَّغناه من إقبالنا غايةَ قَصْده، وحَمِدْنا تَصَرُّفَه من قبلُ عند مارَسَم لما جُدِّد [من] بعدِه؛ وأعَدْناه إلىٰ رتبة ألِفتْ منه حُسْنَ السياسة والتَّدْبير، وعُرِفَ فيها بالكِفاية والصِّيانة

ويُمْنِ التأثير ـ مَن له ولسلفه فى المباشرات الجليلة يَدٌ طُولَىٰ ، فكان بوظيفته أحقَّ وأوْلىٰ .

ولما كان المجلسُ العالى هو المُتَّصِف بصفات الكمال ، المَشْكُورَ فى سائر الأحوال ، فلذلك رُسم بالأمر ـ أنفذه الله فى الآفاق ، وأجراه بصلَةِ الأرْزاق ـ أن يُعادَ فلانٌ ـ أدام الله نِعْمته ـ إلىٰ نَظَرِ الحِسْبة الشريفة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة علىٰ عادته وقاعدته ، مُضافًا إلىٰ ما بيده من بَيْت المَال المَعْمور : لأنَّه الفاضِلُ الذى لا يُجارَىٰ ، والعالِمُ بأحْوال الرَّعِيَّة فلا يُناظَرُ فى ذلك ولا يُمارَىٰ ؛ والفَيْلَسُوفُ الذى يُظْهِر زَيْفَ كُلِّ مُرِيب ، والنِّحْرِيرُ الذى بخِبْرته يَسِيرُ كُلُّ حَبِيبٍ ولَبِيب .

فلْينظُرْ فى الدَّقيق والجَليل ، والكَثِير والقليل ؛ وما يُحْصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤْمَر فيه بمَعْروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكَر ؛ وما يُشْترىٰ ويُباع ، وما يُقَرِّبُ بتَحْرِيره إلى الجنَّة ويُبْعِدُ عن النار ولو لم يكُنْ قد بَقِىَ بينه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكلِّ ما يُعْمل من المَعايِش فى نَهارٍ أو لَيْل ، وما لا يُعْرف قَدْرُه إلا إذا نطق لِسانُ الميزانِ أو تَكَلَّم فَمُ الكَيْل ؛ وليَعْمل لَدَيْه مُعَدَّلًا لكلِّ عَمَل ، وعِيارًا إذا عُرِضَتْ عليه المعايير يَعْرِفُ من جَار ومن عَدَل ، وليَتفَقَّدْ أكْثَرَ هذه الأسْباب ، ويُحَذِّرْ من الغِشِّ : فإنَّ الدَّاءَ أكْثَرُه من الطعام والشَّراب ؛ وليتعرَّف الأسْعار ، ويَسْتَعْلِمْ الأخبارَ من كُلِّ سُوقٍ من غير إعلام لأهْله ولا إشْعار ؛ ولْيُقِمْ عليهم من الأمَناءِ من يَنُوب عنه فى النَّظَر ، ويَطْمَئِنُّ به إن غاب أو حصَرَ ؛ ودارَ النُّقود والضرب التى منها تَنْبَثّ ، وقد يكون فيها من الزَّيْف ما لا يظهر إلا بعد طُولِ اللَّبْث ؛ فلْيَتصَدَّ لِمُهِمِّها بصَدْره الذى لا يَحْرَج ، ولْيَعْرِضْ منها على المَحَكِّ [من رأيه] ما لا يجوز عليه بَهْرَج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضة ويخرج ؛ ولْيُقِم الضُّمَّانَ على العَطَّارِين والطُّرُقِيَّة

فى بيع غرائب العقاقير إلّا ممن لا يُسْتراب فيه وهو معروف ، وبخطّ طبيب ماهر لمريض مُعيّن فى دواء موصوف ؛ والطُّرقيّة وأهْلُ النّجامَة وسائرُ الطوائف المنسوبة إلىٰ سَاسَان ، ومن يأخذُ أموالَ الرِّجالِ بالحِيلَةِ ويأكُلهم باللِّسان ، وكلّ إنسان سُوءٍ من هذا القبيل هو فى الحقيقة شَيْطانٌ لا إنسان ؛ فامنعْهُم كلّ المَنْع ، واصْدَعْهُم مثْلَ الزُّجاج حتّىٰ لا ينجبر لهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلّا فما تُجدى فى تأديبهم ذاتُ التّأديبِ والصَّفْع ؛ ومن وَجَدتَه قد غَشّ مُسْلِما ، أو أكَل بباطِلٍ دِرْهما ؛ أو أخبر مُشْتَرِيًا بزائد ، أو خرج عن مَعْهُود العوائد ؛ اشْهرْه بالبلَد ، وأرْكِبْ تلكَ الآلَةَ قفاهُ حتّىٰ يَضْعُف منه الجلَد ؛ وغير هؤُلاءِ [من فقهاء المكاتب ، وعالمات النساء وغيرهما من الأنواع][1] ممن يُخاف من ذئبه العائث فى سِرْب الظباء والجآذر ، ومن يُقْدِمُ علىٰ ذلك أو مِثْلِه وما يُحاذِر ؛ أرْشُقْهُم بسهامك ، وزَلْزِلْ أقدامَهُم بإقدامك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلّا مَن اخْتبرتَ أمانَتَه ، واخْتبرت صِيانَتَه ؛ والنوّابُ لا تَرْضَ منهم إلا من يُحْسِن تَفَاذا ، ويُحْتسب لك أجرُ اسْتِنابَتِه إذا قيل لك : مَن اسْتَنبْتَ ؟ فقلت : هذا ؛ وتقْوَى الله هى نِعْم المسالك ، وما لك فى كلّ ما ذكرْناه بل أكثره إلّا إذا عَمِلْت فيه بمَذْهبِ مَالك ، والله تعالىٰ يُسدِّدُك ويُرْشِدُك ويوفّقك إلىٰ أحْسنِ المسالك .

◆
◆ ◆

تَوْقيعٌ بالخطابَةِ والإمامة بالجامع المَنْصورىّ بطَرَابُلس ، كُتِب به للخطيب «جمال الدين إبراهيم» ، بـ«المجلس السامى» بغير ياء ، وهو :

رُسم بالأمر الشّريف ــ لا زالَ عُودُ مَنابرِ الإسلام بمَاءِ إحْسانه رَطِيبا ، وبُرْدُ شعائر الدين الحَنِيفىّ فى أيّامه الزاهرة قَشِيبًا ، ومَواهِبُه ومَنَاقِبُه تُقِيم تُمادِحه فى كلّ

(١) الزيادة من «التعريف صفحة ١٢٦» وهى لازمة لاستقامة الكلام .

وَادٍ شَاعِرًا ولمحامِدِه فى كلِّ نَادٍ خَطِيبا ـ أنْ يُرَتَّب المجلسُ السامى، الإمام، العامل: ـ رَحِم الله تعالى السَّلَف، وزاد مَجْدَ الخَلَف ـ خَطِيبًا وإمامًا بالمَسْجد الجامع المعمور المَنْصورىّ بطرابلس المحروسة، عِوَضًا عن فلان، وعلى عادته وقاعدته، و بمَعْلومه الشاهِدِ به الديوان المعمور المستَقِرِّ باسمه، إلى آخر وقْت: رعاية لأهْليّتِه الواضحة الدلائل، وفَضِيلته الناطقةِ الشَّواهد الصَّادِقةِ المَخايِل، وأوْصافه الجميلةِ التى بها تُعْرَفُ من أبيه الشَّمائل؛ ولأنَّه الصَّدْر ابن الصدرِ النَّجيب، والخَطيبُ الإمامُ ابن الإمامِ الخطيب؛ والوَلَدُ النَّجيبُ الذى حَذَا حَذْوَ والده فى الصَّلاح ما خَابَ ولا يَخِيب، والنَّجْلُ النَّبِيهُ المُهَذَّبُ الذى أشْبَهَ أباهُ فى الدِّينِ والوَرَع: ومَن أشْبَه أباهُ فما ظَلَمَ فى النَّباهَةِ والتَّهذيب.

فلْيباشِرْ هذه الخَطابَةَ والإمَامَةَ التى هو ابْنُ جلاها، وطَلّاعُ ثَنَايَاها؛ زَائِنًا حِلاها، زائِدًا عُلاها؛ ولْيَرْقَ ذِرْوَةَ هـذا المَنْصبِ الذى هو أعلى المناصِبِ الدِّينيّـه، ولْيَتلَقَّ نِعَمَ الله عزَّ وجلَّ بالشُّكرِ الذى يُوجِبُ المَزِيدَ ويُكْسِبُ المَزِيَّه؛ ولْيَقُمْ مقامَ والِده فى هذه الرُّتْبـة السَّنِيَّه، بإخلاص العَمَل وصِدْقِ النِّيَّه؛ مُجَلِّيًا فى مِضْمارِ البيان الذى سُلِّمَتْ إليه أعِنَّتُه، وأُلْقِيَتْ إليه أزِمَّتُه؛ مُحَلِّيًا بقلائدِ المَواعِظ وفَرائِدِ الأمْثال أعْوادَ المِنْبر الذى لو أمْكنه لسَعَى إليه؛ مُشَنِّفًا الأسْماعَ بجَواهِرِ الأوامِرِ وزَواهِرِ الزَّواجِرِ التى يَصْدَعُ بها عليه.

ولْيَسِرْ كَسِيرَةِ والده فى الطَّريقة المُثْلَى وسُلُوكِ المَنْهج الأسَدّ، ولْيَجْتَهِدْ فى إحيـاءِ رُسُومِه فى العبادة واقْتِفاءِ آثاره فى العِلْمِ والزَّهادَة حتَّى يقولَ الناسُ: هـذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَد؛ جارِيًا على أفضَل العوائد فى دِيانَتِه، سارِيًا بأجْمَلِ القَواعِد من صِيانَتِه؛ ولْيُوصَّلْ إليه مَعْلُومُه الشاهدُ به الدِّيوانُ المعمورُ المستقرّ إلى آخر وقْت، على عادة من تقدّمه وقاعدته: لاسْتِقْبال مُبـاشرته أحْيان الوُجوب وأزْمان الاسْتِحْقاق،

رزقًا دارًا ، سارًا ، هنيًا ، مرضيًا ؛ من غير تنغيص ، ولا تنقيص ؛ والاعتماد على العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوته إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخة توقيع بخطابة ، كتب به للشيخ «صدر الدين الخابورى» ، بـ«المجلس السامى» بالياء ، وهى :

رسم ... ... ـ لا زالت أيامه الشريفة تضع الأشياء فى محلها ، وتفوض المناصب المنيفة إلى أهلها ، وتشرف صدور المحافل بصدر العلماء فى حزنها وسهلها ـ أن تفوض إلى فلان الخطابة بالجامع الناصرى المعروف "بجامع التوبة" بطرابلس المحروسة وجوبًا وتعيينًا ، اقتضى فى تقدم الفاضل على المفضول تيقنًا وتبينًا ؛ لأنه الحبر الذى لا يجارى فى فضائله ، والبحر الذى يجود فيجيد بفواضله ، والصدر الذى ملئت بفوائده وفرائده بزمانه محافل صدورهم وصدور محافله ؛ كم نطقت ألسن الأقلام بأفواه المحابر بفضله فى الأقاليم والآفاق ، وكم من عبارة بفصاحة وبلاغة حققت أنه بها فات الفصحاء والبلغاء وفاق ؛ لقد أصبح شمل هذا الجامع بهذا الفاضل الذى طال ارتقابه له جامعا ، وأمسى وقد ظفرت يمناه من اليمن به والبركة بما لم يكن بشىء منه فى مثل هذه الأيام طامعا ، فلذلك بادر منبره المنيف وحل له حقوته مسارعا ، ووطأ ـ لامتطائه إياه ـ صهوته ، وغفر للدهر بهذه الحسنة الجميلة فيما سلف منه هفوته ، وعلم أنه الخطيب الذى استقر بطالع المنابر من خطبته بما يفجر من العيون منابع المدامع ، ويشوق إلى الآخرة : من ألفاظ يشنف بها المسامع ؛ وأن قسًا لا يقاس به فى خطبه وعظاته ، وأن سحبان يود من خجله أن يسحب ذيله على ماثره المأثورة عنه ليعفى آثار فلتات كلماته ولفتات لفظاته .

رِزْقًا دَارًا ، سَارًا ، هَنِيًا ، مَرْضِيًّا ، من غير تَنْغِيص ، ولا تَنْقِيص ؛ والاعتماد على العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوته إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بخَطابَةٍ ، كُتب به للشيخ «صدر الدين الخابورى» ، بـ«المجلس السامىّ» بالياء ، وهى :

رُسِم ... ... ـ لا زالت أيَّامُه الشَّرِيفَةُ تَضَعُ الأشْياءَ فى مَحلِّها ، وتُفَوِّضُ المَناصِبَ المُنِيفَةَ إلى أهْلِها ، وتُشَرِّفُ صُدُورَ المحافل بصَدْرِ العلماء فى حَزْنِها وسَهْلِها ـ أن تُفَوَّضَ إلى فلان الخَطابَةُ بالجامع الناصرىّ المَعْروف "بجامع التوبة" بطرابُلُس المحروسة وُجوبًا وتَعيُّنا ، اقْتَضى فى تَقَدُّم الفاضل على المَفْضول تَيقُّنًا وتَبيُّنا ؛ لأنه الحَبْر الذى لا يُجارَى فى فضائله ، والبَحْر الذى يَجُود فيُجِيدُ بفواضِلِه ، والصَّـدْرُ الذى مُلِئَتْ بفَوائده وفَرائده بزمانه مَحافِلُ صُـدُورِهِم وصُدُورُ مَحافِلِه ؛ كَمْ نطقَتْ ألسُنُ الأقْـلام بأفْواه المحابر بفَضْلِه فى الأقاليم والآفاق ، وكَمْ من عبارة بفَصاحَة وبَلاغَة حقَّقَتْ أنَّه بهـا فاتَ الفُصحاءَ والبُلَغاءَ وفَاقَ ؛ لقد أصْبح شَمْلُ هـذا الجامع بهذا الفاضِلِ الذى طال ارْتِقابُه له جَامِعا ، وأمْسَى وقد ظَفِرَت يُمْناهُ من اليُمْنِ به والبَرَكَة بمـا لم يكن بشَىْءٍ منـه فى مِثل هـذه الأيَّام طَامِعا ، فلذلك بادَرَ مِنْبَرُه المُنِيفُ وحلَّ له حَقْوَتَه مُسارِعا ؛ ووَطَّأ ـ لامْتِطائه إيَّاه ـ صَهْوَتَه ، وغَفَر للدَّهْرِ بهذه الحَسَـنَةِ الجميلةِ فيما سَلَف منه هَفْوَتَه ؛ وعَلِم أنَّه الخطيبُ الذى استَقَرَّ بطالع المَنابِرِ من خُطْبَتِه بمـا يُفَجِّر من العُيونِ مَنابِعَ المَدامِع ، ويُشَوِّق إلى الآخرة : من ألفاظ يُشَنِّف بهـا المَسامِع ؛ وأنَّ قُسًّا لا يُقاسُ به فى خُطَبِه وعِظَاتِه ، وأنَّ سَحْبانَ يَوَدُّ من خَجَلِه أنْ يَسْحَبَ ذَيْلَه على مآثِره المأثُورة عنه لِيُعَفِّى آثارَ فَلَتاتِ كَلِماته ولَفَتاتِ لَفَظاتِه .

نِسْبةٌ لايُنكر فضلُها، ومُباشراتٌ فى المَمالِك الإسلامية مَشْهُوراتٌ بالكِفَاية والعفَّة فى برِّها وبحْرِها .

ولمَّا كان فلانٌ ــ حرس الله جَنابَه وأسْبغ ظِلَّ والده ــ هو المَعْنِىَّ بهذه الإشارَه، وشَمْسَ هذه الهَالَةِ وبَدْرَ هذه الدَّارَه .

فلذلك رسم ... ... ــ زاده الله تعالىٰ عَظَمةً وشَرفا ، ومنحه فى الجنَان قُصُورًا وغُرَفا ــ أن يستقر ... ... : اقرارا لعَيْن وَالِدِه، وجمْعًا له بين طَريف السَّعْدِ وتَالِده؛ لأنَّه النَّبعةُ التى نشأتْ فى رِيَاضِ السِّياده ، والزَّهْرةُ التى بَرَزَتْ فى كِمام السَّعاده ؛ فلا يزالُ فَرْعُه ــ إن شاء الله ــ بسعادة هذه الدَّولة الشريفة يَنْمى إلىٰ أنْ يتأصَّل ، وزهَرَتُه تُزْهىٰ إلىٰ أنْ تبلُغَ الإثمارَ وتتَوصَّل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركَةَ مُباشَرةً تَظْهرُ فيها كِفايتُه عند الانتقاد، وتحمدُ فيها عُقْبىٰ الاختيار والاختبار والرَّشاد؛ ولْيسْلُكْ فى أمانَتِه سنن أبيه ــ أسبغ اللهُ ظلَّه ــ التى أحكمها فى كل ما أبْدَىٰ وأعاد ، ويتَّبِعْ طُرُقَه الهادِيةَ إلىٰ سبيل السعادة والإرْشاد ؛ ويُسْنِد ما اكتسبه من والِده عن سَلَفِه من هذه الصِّناعَة وهو أحقُّ بهذا السَّنَد ، ولا يَخْرُجْ عن رأْيِ أبيه ــ أيَّده الله ــ حتَّىٰ يقولَ الناسُ : هذا الشِّبْل من ذَاكَ الأسَد؛ ولْيُشَمِّرْ فى تحصيل الفضائلِ التى تُبلِّغ بها الآمال ، وتَصلُحُ الأحوال؛ ولْيَتَلَقَّ هذه المباشرَ بعَزْمِه الشديد، بنَفْسِه لا بالتَّقْليد، فإنَّه شاهدٌ ومَسْئُول، بقوله يوفَّق فى الاستحقاق وفى النُّقود والكُيول ؛ وتَقْوى الله هى السَّبَبُ الأقْوىٰ ، فلْيتَمَسَّكْ بحَبْلها يَقْوىٰ ؛ والوصايا كثيرةٌ فى ذلك ووالِدُه بها أعْلم ، واللهُ تعالىٰ يُسَلِّكه سَبيلَ الهدىٰ فإنَّه أنْجحُ الطُّرُق وأسْلم ؛ والله تعالىٰ يتولىٰ عَوْنَه ، ويُديمُ صَوْنَه ؛ والاعتماد ... .

توقيعٌ بكتابة الدَّرْج بطَرابُلُس ، كُتب به بـ«المجلس السامى» بالياء، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العالِيَةُ تُطْلِع فى أفْلاكِ المعالى بَدْرًا مُنيرا هاديًا إلى الفضائل مَأْمُونًا من السِّرار، ومَكارِمُه الوافِيَةُ تَرفَعُ من أعْلام المعانى صَدْرًا كبيرًا رَشيدًا فى البيان أمينًا على الأسْرار ، ومَراحِمُه الكافيةُ تُقِرُّ عيونَ الأعيانِ والأخْيار ـ أنْ يُرَتَّب فلانٌ ـ ضاعف الله تعالىٰ أنْوارَ فضائله التى يأْتمُّ بها المُسْتَضِيءُ والمُهْتدى، ويَعْشُو إلىٰ قِرَاهَا المُسْتَبِينُ والمُقْتدِى ـ فى كتابة الدَّرْج السعيد بطرابُلُس المحروسة بما قُرِّر له من المعلوم الوارد فى الاستئمار الشَّريف علىٰ مايتَعيَّنُ بقَلَم الاستيفاء جِهتُه ، ويُبَيِّنُ تَفْصيلُهُ وجُمْلته ؛ نَظرًا إلى استحقاقه الظَّاهر ، وفَضْلِه الباهر ، وبَلاغَتِه التى أفصحتْ عن بيان البَليغ القادر ، وفَصاحَتِه التى بلغت الكمالَ بعَوْن الملك القادر ، وإطْرابِه ، فى إطْنابِه ، وإعْجازِه ، فى إيجازه ، فله فى الدلائل قُدْرة «المَنْصور» وفى الفضائل قُوَّةُ «الناصِر» ، طالمـا أزْهر بقلمه «المَهْدِىّ» للصواب، «السَّفَّاح» كالسَّحاب ، رَوْضَ العُلوم والآداب ، وأظهر ببيانه «المُنْتَصِر» فى الخطاب، «المُقْتَدِر» على الاقْتِضاب ، طُرُقَ الفُنون ، وَاضِحَةَ العيون، مُحْكَمَةَ الأسباب ، وسُبُلَ الحِكَمِ مُفَتَّحةَ الأبواب ، فهو بالسنا والسناء بَدْر «المُسترْشِد» ، وبالجَدا والجَداء «مُعِزٌّ» «المُسْتَنجِد» ، وبفَرْط الحَيا والحَياء سَحابُ المُسْتَمْطِر و«المُسْتظهر»، وبقُرب الذَّكا والذَّكاء برق «المُسْتَبْصِر» و«المُسْتَنْصِر» .

فَلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ «مُعْتَصِمًا» بحَبْل التَّقْوىٰ، «مُستعصما» من المُراقبة بالسَّبَب الأقْوَم الأقْوىٰ، مُجدِّدًا رُسومَ هذه الصناعة التى رَبْعُها قد دَرَس ومَحَلُّها قد أقْوىٰ؛ فإن «المُتَّقى لله» «الرَّاضى» به هو «الرَّاشِدُ» «القائِزُ» بالسَّعادة،

و «المُتوكّل» عليه «المُطيعَ» له هو «الوَاثِقُ» ببلُوغِ القَصْد الحائز للارادَه ؛ ولْيَطرِّزْ حُلَلَ البيان بوَشْيِ بنَانِه الذى أصبح دِيباجُ الطِّرْسِ به «مُعْتَزًّا» ، ولْيَقُومْ مَعانِىَ البَدِيع بعامل قلَمِه الخَطِّىِّ الذى أمسَى الفَضْلُ به كالسَّمْهرِىِّ قائمًا مُهتَزًّا ؛ «مُسْتَكفيا» بمَا يصَرِّعُه ويُرَصِّعه نَظْمًا ونَثْرًا من البدائع ، «مُستعليا» لمَا يرفَعه ويفرِّعه من غُرَرِ الفِقَر ، ودُرَرِ الفِكَر ، بخاطره الوَقَّاد النَّقَّادِ المنقاد الطائع ؛ «مُقْتفيا» فيما يُنْشِئُه آثارَ ما يصْدُر عن «الحاكم» و «الآمر» ، «مكتفيا» فيما يُبْديه بمقدار ما تبرُز به المراسيمُ والأوامر ، «حافِظا» للسِّرِّ «العزيز» كاتِبًا كاتمًا فلا يعْضُده فيه «عاضد» ولا يظفَر به «ظافر» ؛ «معتمدا» على الكِتْمان فى جميع ما يُورِدُه ويُصْدِرُه ، مقتصِداً بالتَّوفيق فى سائر ما يُخْفِيه ويظهره .

والوَصايا فمن آدابه تُسْتفاد ، والنَّصائح فلَهَا منه المَبْدأُ وإليه المَعَاد ؛ فلْيَتَسَنَّمْ ذِرْوَةَ أعْلاها ، ولْيَتَنَسَّمْ نَفْحةَ رَيَّاها ... .



توقيعٌ بشهادة دَارِ الضَّرب بطرابُلُس ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازال رأْيُه الشريف يقَرِّبُ من الأمور صَوَابا ، ولا بَرِحَ أُفُقُ سماء مَمْلكته الشريفة يُطْلِع بفَلَكِه بدْرًا مُنيرًا وشِهَابا ـ أنْ يُرتَّبَ فلانٌ ... ... : لأنه العَدْل الذى اشتهرتْ عدَالَتُه ، والأمِينُ الذى بَهرتْ فظهرتْ أمانَتُه ؛ والرَّئيسُ الذى ما بَرِحَ صَدْرَ المحافل ، والفاضلُ الذى فاق بفَضْلِه على الأقْران والأماثل ، وشَهِدَتْ بنَزَاهته المشهورةِ الأواخرُ والأوائل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً مطابِقةً لعَدالَتِه المشهوره ، مُعْرِبَةً عن أصالَتِه المَخْبوره ، مُوَضِّحةً عن ديانَتِه التى غَدَتْ فى العالَمِين معروفةً غيرَ مَنْكُوره ؛ لِيُصْبِحَ هذا المَنْصب

مُشرقًا بنُوره ، سَنِيّ الأرجاءِ بسَاطِعِ ضياء شِهابِه ونُورِ بُدُوره ؛ وهو — أعزّه الله — غَنِيٌّ عن وَصِيَّة منه تُسْتفاد ، أو تَنْبيه علىٰ أمْرٍ منه يُبْدأ وإليه يُعاد ؛ ولْيتَناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المَعمور هَنِيًّا مُيَسَّرا ، ولا يَقِفْ أملُه عنـده : فإنا لَنَرْجُو فوق ذلك مَظْهرا .

⁂

تَوْقيعٌ بنَظَر اللّاذقيّة ، كُتب به للقاضى «بُرْهان الدين» الأذرعىّ ، وهو :

رُسِم بالأمر — أنْفذه اللهُ فى الآفاق ، وطَوَّق بمَنّه وفَواضِـل بِرّه الأعناق — أنْ يسـتقرَّ المجلسُ السامى ، — حرس الله مُهْجَته ، وأهْلكَ حَسَدَته — فى نظر اللّاذقيـة المحروسة ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمَعْلوم الشاهدبه الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخِرِ وَقْتٍ : عِلْمًا بأمانَتِـه المَشْهوره ، وكتابَتِه التى هى بين أهْل الصِّناعَةِ مَشْكُوره ، وخِبْرَتِه التى هى فى المُباشَرات مَعْروفةٌ غيرمَنْكُوره ، وكِفَايَتِه المألُوفة المَوْفُوره ؛ فإنّه باشَر الحِسْبَةَ الشَّريفةَ ونَهَىٰ وأمَر ، واتّبع فى أحْكامِه ما أمَر به «أميرُ المؤمنين عُمَر» ؛ وضَبَط أموالَ بَيْتِ المـال بحُسْنِ نَظَره ومَيَّز وثَمَّر .

فلْيبـاشِرْ هذه الوظيفةَ المُبارَكَةَ مُباشَرةً علىٰ أجْمـل العادات ، ويَسْترفِعْ مالها من الحُسْبانات ، ويُوَصِّلْ إلىٰ أرباب الاستحقاق ما لَهم من الحُقُوقات ، علىٰ مايَشهدُ به الديوانُ المعمورُ فى سائر الأوقات ؛ فإنّ هذه الوظيفةَ من أجَلّ المُباشَرات ، ولْيتناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ هَنِيًّا مُيَسَّرا علىٰ جارِى العَادة لمن تَقَدّمه فى الفُروع وسائر الجهات ، ولْيعتَمِدْ علىٰ تَقْوَى الله تعـالىٰ فى سائر الحركات والسَّكَنات ؛ والله تعالىٰ يتولّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

*
* *

توقيع أيضا فى المعنى .

لا زالتْ صَدَقاتُه الشريفةُ تُقيمُ لأتباع الحقّ بُرهانا، وتُسْدِى إلى كلّ أحدٍ خيرًا وإحسانا ــ أن يُرتَّبَ فلانٌ ناظرًا باللّاذِقيّة المحروسة وما هو مضافٌ إليها، على عادة من تقدّمه وقاعدته ومعلومه الشاهدِ به الديوانُ المعمور : لأنّه طالما باشر نظر بيْت المال فوفّر الأموال ، وأصلح ما فَسد من الأحوال ، وسَدّد بحُسْنِ تدبيره الأقوال والأفعال؛ وأظهر من الأمانة ماتميّز به فى مباشراته، وفاق به على قُرنائه وأهلِ زمانه وأوقاته ، ثم باشر الحِسْبَة فسَلَك فيها مَسْلَك السّرّ والجَهْر وصِدْقِ الخبر، وسلك مَسْلك أمير المؤمنين عُمَر .

فليباشِرْ هذا النَّظر بقلْبٍ مُنْشرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ؛ وليُظْهِرْ فيه ما جُرِّب به من الأمانة ، وتَجنُّبِ الخيانه ؛ وليجتَهِدْ فى تحصيل أموال الدّيوانِ المعمور ، ويبْسُطْ قلَمَه فى إصلاح الأمور؛ وليُوصِّلْ إلى أرباب المُرتّباتِ ما هو لهم مُسْتَحَق، فإنّهم به أولى وأحق ؛ وليُوصَّل إليه معلومُه أوانَ وُجوبه واستحقاقه ... .

*
* *

توقيعٌ بمشارفة حِصْن الأكراد ، كُتب به للقاضى « بَدْر الدين » بـ«المجلس العالى» ، وهو :

رُسِم بالأمر الشّريف ــ لا زالتْ مَراسِمُه العاليةُ تُولِى الأنامَ بِرّا ، وتُجدِّدُ بإسْباغ الإنعام بِشْرا ، وتُضَوِّعُ فى كلّ نادٍ من أندية الثّناء والدعاء نَشْرا ، وتُطْلِع فى كلّ أُفُق من آفاق السِّيادة من صُدُور الأعيان وأعيان الصُّدُورِ بَدْرا ــ أن يُرتَّبَ فلانٌ فى مُشارَفة حِصْنِ الأكراد المحروس : لما هو عليه من العِفّة والصَّلَف ، والنّزاهة

التى عُرِف بها وآتصف ، والرِّآسةِ التى آنتقلتْ إلى الخلف عن السَّلف ، والعدالةِ التى لا يتكلَّفُ لسُلوك نَهْجِها : ومن العَجَبِ خُلُوُّ البَدْرِ عن الكَلَف ! ؛ كَمْ حُفِظَتْ بمباشرته الأموال ، وصَلَحتْ بمُلاحَظَتِه الأحوال ، وعُقِدت الخناصرُ علىٰ سيرته وحُسْنِ سَيْرِه ، وآشْتَهر بجميل تَدْبيرٍ أوْجب تَقْديمَه علىٰ غَيْرِه .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى هى من أجَلِّ الوظائف ، وليَشْكُرْ ما أُولِى من المعروف وأُسْدِىَ إليه من العوارف ، وليَبْذُلْ جُهْدَه فى صلاح الأحوال ، وتَثْمير الأموال ، وتَقْرِيرِ القواعد على السَّداد ، وإجْراءِ العَوائد علىٰ وَفْقِ المُراد ؛ فانَّه مِمَّن دَلَّت خِبْرَتُه علىٰ جَميل آثاره ، ولاحَتِ الغِبْطَةُ فى آختياره الذى أغْنىٰ عن تَقْديم آخْتِباره ؛ كَيْفَ لا ؟ وهو مِمَّن نَشَأَ فى حُدُور فُنُون الكِتَابَه ، وآشْتَهر فى مَواطِن النِّضال مع وُفُورِ الآنْتقال بحُسنِ الإصَابَه ؛ فهو إن شاء الإنْشاءَ بَلَغَ منه المَرَام ، وإن بَسَطَ الجرائدَ للتَّصرُّف قيل : هذا الكَاتِبُ النَّظَّام ؛ كَمْ له من يَدٍ بَيْضاءَ فى التَّبْييض والتَّسْويد ، وهِمَّةٍ عَلْياءَ بلغ بها من السِّيادة ما كان يُرِيد .

فليُقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ فى هذا الأمر ويجعلْها إمامه ، وليَتَمَسَّكْ بها مُقْتدِيًا بمن قدمها أمامَه ، وليَكُنْ عند حُسْنِ الظَّنِّ به ليبلُغَ من سعادة الدَّارَيْنِ مَرامَه .

والوَصايا التى يعُمُّ نفعُها ، ويتعيَّنُ علىٰ تَناسُبِ الأعْمال جَمْعُها ؛ به تُسْلَكُ سُبُلُها ، وعنه تُؤْخذ تَفاصيلُها وجُمَلُها ؛ فليسلُكْ منها الأقْوَمَ الأرْشَد ، وليتَمَسَّكْ بالأقْوَدِ الأحْمَد ؛ بحَزْمٍ وافر ، وعَزْمٍ غير قاصر ؛ وليتناوَلْ مَعْلومَه الشاهدَ به الديوانُ المعمورُ أحْيانَ الوُجوب والآستحقاق رِزْقًا دارًا ، هَنِيًّا مُيسَّرًا سارًّا ؛ من غير تقتير ولا تكْدِير ، ولا تَنْغيص ولا تأْخير .

*
* *

توقيعٌ بمشيخة المقام الأدهمىّ ، كُتِب به باسم الشيخ « عبد الله السطوحى » بـ«المجلس العالى» ، وهو :

أما بعدَ حمدِ الله الذى سَقَى مَحْلَنا بإيابه ، وأنبتَ عُشْبَنا بسَحابه ، وأقرأنا كتابَ وَجْهِه وأغنانا عن وَجْهِ كتابه ، وجَعلَ لكلّ مَقامٍ مَقالًا من صِدْق أوليائه ، ومَنَحَهم بما ٱختار لهم من سرائر مَواهبِه وعَطائه ، وجَمع قُلُوبَ الفُقَراء علىٰ العبادة والدعاء بواسطةٍ من أحْبابه وأخِصّاءِ نُجَبائه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نَجْم السُّرىٰ ، ولَيْثِ الشَّرىٰ ، وسَيِّد من وَطِئَ الثَّرىٰ ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من لو أقسم لأبَرَّ قَسَمَه رَبُّ السما ، وسلَّم تسليما كثيرا ـ فلمّا كان الاعْتناءُ بالأمور الدِّينيةِ من الواجبات ، والمحافظةُ عليها [مما] تُبادِرُ إليه من النُّفوس الرَّغَبات ؛ وبُيُوت الله تعالىٰ فهى قِوامُ الدِّينِ المَتِين ، ولا يَنْهضُ بعمارتها إلا الذين ٱتَّقَوْا وآمنوا بربِّ العالَمين ، فطُوبىٰ لهم ونِعْم أجْرُ العاملين .

ومن البيوت العامِرَه ، والسَّراة الطَّاهِرَه ، والمقامات التى إذا حَلّ بساحَتها أكْمَهُ العَيْن بصَّرتْه نُجوماً زَاهِرَه ـ مقامٌ من ذِكْرُ كرامتِه أشْأمَ فى أقْطارِ الأرض وأيْمن وأنْجد وأتْهم ، السَّيِّد الجليل وَلِىّ الله « إبراهيم بن أدْهم » ، سَيِّد الأولياء ، وسُلْطانِ الأتْقياء ؛ رَحْمةُ الله عليه ما سارَ على الطَّرِيقِ سائر ، وما ٱمْتَطىٰ ظَهْرَ قَلُوصٍ مُسافِر ، مَقَامٌ بالزُّهْد موصوف ، وبالبَرَكاتِ مَعْرُوف ؛ وله الإطلاقاتُ المَشْهوره ، والمَناهِلُ المأْثوره ، فى وِرْدِها المَبْروره ، قد ٱستولَتْ عليه يَدُ التَّبْذير ، وعَاد بَعْدُ طُولُ بِساطِه فى تَقْصير ، وٱخْتَلف فيه النِّيَّاتُ فكان فى كيس الفقير (١) ؛ فكَشَف الله هذه النِّقْمَه ، وأدام سَوابِغَ النِّعْمه ، وأسْبَل على هذا المقام ظِلالَ الحُرْمه ؛

(١) لعلّ الصواب «فكان فى كيس الغنى بعد أن كان فى كيس» الخ .

وأرسَلَ اللهُ علىٰ عباده المتَّقينَ باعثًا من عنده ، وأيقظَهم لِعلْمِه بأن كلًّا واقفٌ عند أمْرِه وحَدِّه ؛ وأنْطق لِسانَ من لا رَادّ لأمْرِه ، فكشف غُمّة هـذا المقام وعَزَل مَنْ يُخافُ عليه من سُوءِ تَدْبيره وشَرّه .

فلذلك رُسم ـ أن تفوّضَ مشيخةُ المقام الجليـل الأدْهميّ بثَغْر جبَلَة المحروس ـ علىٰ ساكنه الرحمة والرضوان ـ إلىٰ فلانٍ ـ نفع الله ببركاته ، وأعاد على المسلمين من صالح دعواته ـ عِوضًا عمن كان بها بحكم انفصاله حَسَب ما وردتِ المراسيم الشريفة ـ شرفها الله تعالىٰ وعظمها ـ عند اتصال العلوم الشريفة ـ زادها الله تعظيما ـ بأمر المقام المشار إليه واعتماد المتصرفين فيه : إذْ وُضعَت الآنَ الأشياءُ فى محلّها ، وأُسندت الأمور إلىٰ أهْلها ، وقُلِّدتْ هذه المَثُوبَةُ إلىٰ من يُظْهِر سَرائرَ فضْلها ؛ ولحظت الآراء تَجَر هـذا المقـام والأثر ، ولا شَكَّ أنَّ السّعادة تَنْحَطُّ الحَجَر ؛ كَمْ له من آيات مَشْهورَه ، وكرامات بلسانِ الحَمْـد مَذْكوره ، ومساعٍ فى الخيرات مَبْروره ؛ وقد عَمّ الزّوايَا بأجْناس المَكارم ، وبَسَـط للزّائرين من إكرامه سِماطًا يقول الزّائرُ : هـذا ولا حاتِم :

تَزُورُ ديارًا زارَها جُودُ كَفِّه ، * ومن دُونِهـا للزّائرينَ مَراحِلُ ،

وتَرْجِعُ عنهـا والجُفُونُ قَريرةٌ : * كما رَاجَعتْ مأْوَى الحُقُوقِ المَساحِلُ !

فلْيَتلَقّ ـ أعاد الله من بَركَتِه ـ هذه الوِلَايَه ، وليجعلْ للمقامِ المُشارِ إليه من خَاطِرِه الكريم أوفرَ عِنايَه ؛ ويستخلفْ عَنْه إذا توَجّه إلىٰ (١) بحصْنِ الأكْراد فإنّها مُسْتَمِرّةٌ بيده وولايتها باقية عليه ؛ وأمْرُها فى إبْدائه وإعادَته عليه ؛ واللهُ تعالىٰ يتولّاه ، فيما وَلّاه ؛ والاعتماد ... .

(١) بياض بالأصل ومراده الى مشيخة ... ... بحصن الأكراد .

قلتُ : وقد أتيتُ علىٰ جُمْلةٍ من تواقيع أرباب الوظائف : بدَمَشق وحَلب وطَرَابُلُس وأعمال كُلٍّ منها، يَستغنِى بها الماهِرُ عمَّا سواها، ويَقِيسُ عليها ما عَداها؛ إذْ لا سبيلَ إلىٰ أستيفاء جَميعها ، والإتيانِ علىٰ جُمْلتها .

وفيما ذُكِرَ من هذه المَمالك الثلاثِ تَنْبيهٌ علىٰ ما يكتب بحَماة وصَفَدَ اللَّتين هما فى رُتْبة طَرابُلُس ، وتَلْويحٌ إلىٰ ما عداها، ممَّا هو دونها كغَزَّة إذا كانت نيابة ، والكَرَك التى هى دون ذلك .

والله تعالىٰ هُو الهادى إلىٰ التوفيق، والمُرْشِدُ للسَّداد : بمَنّه وكَرَمه .

تم الجزء الثانى عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثالث عشر

وأوله المقالة السادسة

(فيما يكتب فى المسامحات، والاطلاقات السلطانية، والطَّرْخانيات وتحويل السنين والتَّذاكر، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتابعين، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

الخطأ والصواب

ص	س	الخطأ	الصواب
٤	١٥	الجحفا	الجحفة
١١	١٢	غُدُر	غُدَر
١٣	١٠	غِيرة	غَيْرة
١٣	٨	جدّع	جَدَع
١٤	٥	أَقتَدَوْه	افتدُوه
١٦	٩	مولى	موليا
٣٥	١٣	عمر بن سراقة	عمرو بن سراقة
٤٠	٣	خرمة	خزمة
٤١	٢	المنذز	المنذر
٤١	٢٢	ويقال : ودفافة	ويقال : وذفة
٤٧	٢٢	١٩١١	١٩:١
٤٩	٨	عابد	عائذ
٥٠	٢٠	والدبش	والديش
٥٦	١٥	أمر	أسر
٦٠	٣	تُحِلِّينَ	تَحِلّين
٦٠	١٨	داود ابن الحصين	داود بن الحصين
٦٦	٨	الإسلام	الإسلامُ

ص	س	الخطأ	الصواب
٧١	٥	حُلّت	حَلّت
٨٢	١٩	بهند	هند
٨٣	٦	ويهًا دسمة	ويها أبا دسمة
٨٣	١٦	تُذَبح	تُذْبح
٨٦	١٩	حتمة	حثمة
٨٨	١٢	وَجِدْتُ	وجَدتُ
٩٠	٤	وتواعدوه	وتوعدوه
٩٠	١٩	وقال لسان العرب	وقال صاحب لسان العرب
٩٠	١٩	هي	غير
١٠٣	٧	ويكون	وتكون
١٠٥	٢	بديَتّه	بديته
١١٢	٦	مَنته	منّته
١١٥	٢٢	٢٤٠	٢٣٠
١٢٤	٤	يغني	لا يغني
١٤٠	١٣	(بيُوتَهَم)	(بيُوتَهُمْ)
١٤٢	٤	(يُخْرِبُونَ؟	(يُخْرِبون)
١٤٣	٤	الفسادَ	الفسادُ
١٤٤	١٠	خالصا	خالصة
١٤٧	٢١	وأبو عمرو	وأبي عمرو
١٨٨	١٥	نُخرج	نَخرج

ص	س	الخطـــأ	الصـــواب
٢١٠	٤	عليُم	عُليم
٢١١	٥	صلى الله الله	صلى الله
٢١٢	١١	محرش	مُحَرِّش
٢٢٠	٥	أن يحبئوا	أنْ يحبئوا
٢٢١	٢٠	الخلاّ	الخلاء
٢٢٥	١٨	بالاثنين	بالاثنتين
١٣٤	١٣	﴿فتَحا﴾	﴿فتَحا﴾
٢٣٤	٢٠	سورة ٥	سورة « مع حذف الرقم »
٢٣٨	١٦	يا رسول	يا رسول الله
٢٤٠	١٣	﴿كفَرُوا﴾	﴿كَفَرُوا
٢٥١	١٤	تحرّب	تحرّبُ
٣٠٥	٤	المجنّبة	المجنّبة
٣٢٤	١٢	غَزِيّة	غَزِيّة
٣٤٠	١٣	رسولَ	رسولُ
٣٥٩	١٥	الجدّ .	الجدُّ
٣٦٢	٢	بَدَرَ	بَدْرٌ


Bibliotheca Alexandrina
06952262